أشعة من شمس محمد (٥)

ثمار من شجرة النبوة

نور الدين أبو لحية

دار الكتاب الحديث

موقع المؤلف: http://noursalam.free.fr/
بريد المؤلف: nouresalam@hotmail.com

الطبعة الأولى

دار الكتاب الحديث – القاهرة –

للطباعة والنشر والتوزيع

الفرع	العنوان	الهاتف	الفاكس	البريد الالكتروني
القاهرة	ص.ب ٧٥٧٩ البريدي ١١٧٦٢ مدينة نصر – ٩٤شارع عباس العقاد	٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٩٩٠	٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٩٩٢	dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	١٣٠٨٨ شارع الهلالي برج الصديق ص.ب ٢٢٧٥٤	٠٠٩٦٥٢٤٦٠٦٣٤	٠٠٩٦٥٢٤٦٠٦٢٨	ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	ص ب ٠٦١ درارية الجزائر عمارة ٣٤	٢١٣٥٤١٠٥	٢١٣٥٣٠٥٥	dkhadith@hotmail.com

من القرآن الكريم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٥)﴾ (إبراهيم)

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة: ١٤٣)

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠)

من الكتاب المقدس

(احترزوا من الأنبياء الكذبة يأتونكم بثياب الحملان الوديعة، ولكنهم من الداخل ذئاب خاطفة.. من ثمارهم تعرفونهم، هل تجتنون من الشوك عنبا، أو من الحسك تينا.. هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارا ردية)

إنجيل متى (٧:١٥-١٧)

تنبيه

نحب أن ينتبه قارئ هذه السلسلة لما يلي:

١ ــ بما أن الغرض من هذه الرسائل هو أن تكون مدرسة تعلم فنون الحوار الإيماني، والجدال بالتي هي أحسن، فقد اهتممنا في أصل الرواية بما يحقق هذا الغرض، ولم ننشغل عنه بأي شاغل.. ولكن الكثير من المعلومات التفصيلية أو التوثيقية قد يحتاج إليها لتحقيق هذا الغرض، وهي مما لا يمكن إدراجه في الأصل.. فلذلك اكتفينا بإيرادها في الهوامش..

فلذلك يحتاج من يتعلم من هذه الرواية مراجعة ما ورد في الهوامش والاهتمام بها باعتبارها معلومات أساسية تيسر عليه فهم وتحصيل ما يرد في أصل الرواية من معلومات.

٢ ــ أننا لم نهتم كثيرا بتوثيق كل ما نرجع إليه من مصادر ما عدا ما يتعلق بالنصوص المقدسة الإسلامية والمسيحية.. أما سائر النصوص، فتوثيقها يستهلك صفحات كثيرة، وقد يشغل القارئ عن المهمة التي تهدف إليها هذه الرواية..

بالإضافة إلى أن أكثر ما نورده مما توزع وجوده في الكتب الكثيرة التي اهتمت بهذه الناحية.. ولهذا نكتفي بذكر المراجع العامة التي لجأنا إليها دون التدقيق في التوثيق في كل محل.

٣ ــ نحب أن نعتذر هنا عن عدم ذكر الصلاة على رسول الله ﷺ أو على الأنبياء، وعدم الترضي عن الصحابة والعلماء والأولياء ــ كما هو شأن المؤلفات الإسلامية ــ في بعض المواضع، أو في كثير منها، وذلك لأن الحديث المفترض فيها بحسب الرواية بين مسيحيين.. والضرورة الفنية تقتضي أن لا نذكر ذلك حتى لا يؤثر في أصل الرواية وجانبها الفني.. ولا حرج على القارئ المسلم أن يصلي على رسول الله ﷺ والأنبياء كلما ذكروا بغض النظر عن كتابة ذلك..

٤ ــ قد يعترض بعض أدباء الأدب الواقعي على كثير مما يرد في هذه السلسلة مما لا يمكن انسجامه مع الجانب الفني الواقعي.. كحفظ أبطال الرواية للنصوص الطويلة مع كون بعضهم من العامة البسطاء.

ونحن نقدر هذا النقد.. ولكننا ننبه إلى أن الغرض من السلسلة ليس أحداث الرواية، وإنما الجانب العلمي منها.. وإنما ذكرنا هذه الأحداث لنمزج المعلومة التي قد تكون جافة بما ييسر تحصيلها من التشويق والمتعة.

ولذلك إذا تعارض التشويق مع المعلومة قدمنا المعلومة عليه بناء على اعتبارها الأصل.

المقدمة

في اليوم الخامس من زيارة البابا لي، نهضت نشيطا لأستمع إلى رحلته الخامسة للإسلام، والتي أخبرني بأنها كانت لبقعة من العالم تمتلئ بالحضارة والثقافة والعلوم، وأنه في تلك الرحلة اكتشف ثمارا يانعة من شجرة النبوة[1].

ولهذا كنت نشيطا غاية النشاط، يمتلئ قلبي بأشواق لم أكن أعرف سرها ذلك الحين، ولكني بعد أن حكى لي البابا حكاية تلك الشجرة الطيبة التي سقيت بجهود محمد ﷺ عرفت سر ذلك النشاط.

لقد كنت ــ مع إيماني وإسلامي الذي ورثته من قديم ــ أحمل مستنقعا من العقد التي نشرتها في نفسي أوهام النقص التي كنت أحملها، والتي لم يستطع ذلك الإيمان الوراثي أن ينزعها مني.

لقد كنت أنظر بأسف إلى الأمة الإسلامية التي تمثل أعظم رسول في الدنيا، وأكمل رسالة نزلت إلى الأرض، نظرة ممتلئة بالازدراء والاحتقار.

فهي أمة متخلفة في جميع الميادين.. بينما غيرها يتقدم في جميع الميادين:

هي متخلفة في السياسة، تحاول أن تقلد حرية الغرب وديمقراطيته، ولكنها لا تستطيع أن تتخلى عن مواريث الاستبداد التي تملكتها، فلذلك تنشئ ديمقراطيات مشوهة تحفظ لها استبدادها وقمعها وتسلطها وقوانين الطوارئ التي ظلت تفرضها منذ ولد الملك العضوض.

وهي متخلفة اقتصاديا.. بل ليس هناك في العالم من هو متخلف مثلها في هذا الميدان.. لقد من الله عليها بثروات يسيل لها لعاب العالم، وبمواقع استراتيجية تحسد عليها، ولكنها تأبى إلا أن تسلم جميع ثرواتها ــ مقابل متاع زهيد ــ لمن يكيلونها أصناف العذاب، بل هي تقيم المسابقات بينهم، فمن كان أكثر عداوة لها، كان أكثر تنعما بخيراتها.

وهي متخلفة اجتماعيا، لا تزال تنخر فيها العنصريات التي جاء الإسلام ليقمعها، ومعها الأعراف البائدة التي وجدت من فتاوى الفقهاء من يبررها، بل يجد لها من الأسانيد الواهية ما يحولها أصلا من الأصول، وشريعة من الشرائع.

وهي متخلفة فوق ذلك دينيا.. لا تزال الفرقة تشتت شملها.. ولا يزال التعصب للرجال يشغلها عن نبيها.. ولا يزال الاهتمام بالجزئيات والحرفيات والطقوس يشغلها عن كليات هذا الدين ومقاصده وحقائقه.

والخطر الأكبر من ذلك كله هو جهلها بتخلفها، أو حبها لتخلفها:

فساستها يناوئون كل إبداع، ويفرضون عليه من قوانين الطوارئ، ما يجعل من بلادنا جميعا معتقلا كبيرا، أو سجنا عريضا، أو زنزانة ضخمة لا يتنعم بعذابها إلا المبدعون الصادقون.

والكثير من فقهائها أو المشهور منهم يقف مع ساستها ليبرر تصرفاتهم، فهم ظل الله في أرضه، والله يؤتي

---

(١) انظر نهاية الجزء السابق (معجزات حسية)

ملكه من يشاء، ومن لم يطع سلطان الأرض لم ينل سلطان السماء.

أما عامتهم، فهمهم أن تملأ بطونهم، فهم لا يهتمون بشيء كما يهتمون بأصناف الغذاء، وكتب الطبخ، وموائد الولائم.. فإن انصرف اهتمامهم للدين لم يجدوا إلا الرقاة، ومفسري الأحلام، والمتشبثين بالخرافة والشعوذة.

هذه هي النظرة التي كنت أنظر بها إلى الأمة.. وكنت أتألم بسببها، وأحيانا أصيح مع ذلك الشاعر الذي كان يردد بألم قائلا: (هذه الأمة ماتت والسلام)[1]

كانت تراودني ذلك الصباح ــ كما كانت تراودني كل حين ــ هذه الخواطر..

وكيف لا تراودني، وأنا أتغذى عليها في اليوم عشر مرات.. ففي كل نشرة أخبار لا أسمع إلا أخبار قومي الذين ينتشرون من المشرق إلى المغرب.. وفي كل نشرة أخبار لا يقتل إلا قومي، ولا يقهر إلا قومي، ولا يموت من الجوع إلا قومي.

ولست الوحيد في تلك الآلام.. بل كل من أراه كان يتألم ألمي.. ومنهم من كان يود أن ينسلخ من جلده، ليتحول فرنسيا أو إنجليزيا أو ألمانيا.. فإذا لم يطق ذلك حاول أن يلوي لسانه لينطق بما حفظه من الأفلام الأجنبية، ثم يلبس ما رآه من ألبستها، ويسير في الشوارع كما يسيرون، ويصفر ويصفق كما يصفرون، وكما يصفقون.

في ذلك الصباح.. وبذلك العقل المتألم، وبتلك النفس المملوءة خجلا، حملت طعام الإفطار إلى البابا، وكان طعاما بسيطا متناسبا مع البيئة البدوية التي كنت أعيشها: كان حبات تمر، مع كوب لبن، مع كسرة خبز..

استأذنت للدخول على البابا، كما تعودت، ثم سلمت عليه، وقدمت الفطور له، وجبيني يتقطر حياء من ذلك الطعام البسيط الذي قدمته له، والذي لا يوازي تلك الأبهة التي يعيشها قومه.

قلت له: اعذرني حضرة الولي الصالح.. فقد قدمت لك ما تعودنا على أكله، فأرجو أن تتحمل حياتنا البسيطة، فنحن لا نداني قومك في حضارتهم وتقدمهم.. نحن لا نزال نعيش الحياة البدائية.

ابتسم، وقال: أليست هذه هي الحياة التي كان يعيشها رسول الله ﷺ؟.. ألم يكن رسول الله ﷺ يأكل

---

(١) من قصيدة للشاعر أحمد مطر بعنوان (عملاء)، يقول فيها:

الملايين على الجوع تنام، وعلى الخوف تنام، وعلى الصمت تنام، والملايين التي تصرف من جيب النيام، تتهاوى فوقهم سيل بنادق، ومشانق، وقرارات اتهام، كلما نادوا بتقطيع ذراعي كل سارق، وبتوفير الطعام.

عرضنا يهتك فوق الطرقات، وحماة العرض أولاد حرام، نهضوا بعد السبات، يبسطون البسط الحمراء من فيض دمانا، تحت أقدام السلام.

أرضنا تصغر عاما بعد عام، وحماة الأرض أبناء السماء، عملاء، لا بهم زلزلة الأرض ولا في وجههم قطرة ماء، كلما ضاقت الأرض، أفادونا بتوسيع الكلام، حول جدوى القرفصاء، وأبادوا بعضنا من أجل تخفيف الزحام.

آه لو يجدي الكلام.. آه لو يجدي الكلام.. آه لو يجدي الكلام.. هذه الأمة ماتت والسلام.

التمر، ويشرب اللبن، ويأكل مثل هذه الكسر التي تأكلونها؟

قلت: بلى.. ولكن الحياة تطورت الآن، وللأسف، فقد تخلف قومي عنها.. تخلفوا بأميال كثيرة، وسنوات طويلة، وقد استبد بهم اليأس، فتوقفوا عن السير، واكتفوا بالتفرج على السائرين.

قال: ومن هم السائرون الذين وقف قومك يتفرجون عليهم؟

قلت: قومك.. أليسوا هم رواد الحضارة وأساتذتها؟

أليسوا هم الذي اخترعوا جميع قيم الحياة الجميلة، وما تحتاجه الحياة الجميلة؟

فهم الذين اخترعوا التلفزيون والحواسيب والشبكات العنكبوتية.. وهم الذين اخترعوا الطائرات والسيارات والقطارات وجميع وسائل النقل.. وهم الذين صمموا الأبنية الضخمة وناطحات السحاب.. وهم الذين اكتشفوا أعماق البحار، وقمم الجبال، بل راحوا إلى الأفلاك من حولهم يزورونها ويقيمون العلاقات معها.

قال: نعم.. ولكن الحياة ليست ذلك فقط.. الحياة أعمق من ذلك بكثير.. ولو تأملت حياة كثير من الحيوانات لوجدت لديها من الاختراعات ما يوازي بالنسبة لها جميع ما صنعه قومي، وراحوا يفخرون على العالم بصنعه.

قلت: وحق لهم أن يفخروا.

قال: بم يفخر المساكين؟

قلت: بما نراه من اختراعات واكتشافات..

تنفس الصعداء، ثم قال: نعم هم الذين اخترعوا التلفزيون.. لكنهم لم يجدوا ما يملأونه به، فراحوا ــ بعقولهم المملوءة بالشهوات ــ يجعلونه ماخورا من مواخير الرذيلة، وحانة من حانات الفساد.

وهم الذين أنشأوا الشبكات العنكبوتية التي تحول العالم قرية صغيرة تربط بين أطراف الأرض.. ولكن المساكين لم يجدوا إلا أن يعمقوا بهذه الشبكات ما سبق للتلفزيون والفيديو البدء به.

وهم الذين اخترعوا جميع وسائل النقل.. ولكنهم ملأوا الأرض بسببها تلوثا، وملأو الطرقات جثثا.

وهم الذين اخترعوا الأشياء الكثيرة.. ولكنهم لم يأخذوا من الأشياء إلا ذلك الجانب المظلم منها..

شرد ذهنه قليلا، كأنه ينظر إلى شيء مجهول لا أراه، ثم قال: و لم لا تذكر ما فعله قومي بالعباد والبلاد من أنواع الفساد؟

هل يستطيع أحد في الدنيا أن يعد من قتله قومي في قرن واحد؟

وهل يستطيع أحد في الدنيا أن يعرف مقدار الدمار الذي تختزنه أنواع الأسلحة المخبأة في سراديب الأرض، وأعماق المحيطات؟

وهل يستطيع أحد في الدنيا أن يسأل ذرات الجو، وقطرات المياه، وحبيبات التربة، وأنواع الحيوانات عن الجرائم التي ارتكبها قومي في حقها، والتي لم يسمع بها أحد، و لم يرها أحد؟

نعم.. ربما يكون قومي هم الذي أنشأوا هذه الأشياء الكثيرة التي تراها جميلة.. ولكنهم هم.. هم

أنفسهم.. الذين أنشأوا بسببها من الدمار أضعاف ما يوازي منافعها.

قلت: أنت تريد أن تجرد قومك من كل مكرمة.

قاطعني بحزن قائلا: لأنه ليس لديهم أي مكرمة.. لقد بحثت في بطون التواريخ، فلم أجد في تواريخهم غير سفك الدماء، واللعب بالأعراض، والتجارة بالإنسان.

قلت: فقومي مثل قومك إذن.. وأنت تختزن من عقد النقص ما أختزنه!؟

قال: وضعكم مختلف تماما.. لقد أتيح لكم أن تعيشوا تحت ظلال شجرة النبوة، وقد أمدتكم تلك الشجرة المباركة بثمارها اليانعة، فلذلك لم تجوعوا جوعنا، ولم تظمأوا ظمأنا، ولم تحرقكم أشعة الشمس التي أحرقتنا، ولم تلهب شهواتكم شياطين الشهوات التي ابتلعتنا.

قلت: ولكننا متخلفون.

قال: ولولا تلك الشجرة لكنتم معدومون..

ثم استأنف قائلا: نعم أنت متخلفون.. ولكن ليس عن قومي، وإنما عن نبيكم، وعن الصالحين الذين تربوا على يديه، وشربوا من منبعه..

أما قومي، فلا حرج عليكم أن تتخلفوا عنهم، لأنكم إن لحقتموهم لم تجدوا إلا السراب الذي يحسبه الظمآن ماء، فإذا جاءه لم يجده شيئا.

هكذا قومي.. يلهثون وراء السراب.. ويظلون يلهثون، ثم لا يجدون الماء العذب الذي يسقيهم، ويبل السغب الذي يحرق أجوافهم.. لأن الماء لديكم أنتم.. أنتم وحدكم في هذه الأرض الذين تملكون الماء العذب الذي يروي كل عطش.

قلت: ولكننا عطشى مثلكم.. ونحن الذين ننحني أمام قومك ليسقونا.

قال: تلك غفلة دبت إليكم.. وهي من الجرائم التي ارتكبها قومي نحوكم.

قلت: وما علاقة قومك بذلك؟.. أراك تنسب إليهم كل فساد.

قال: منذ اليوم الأول الذي نبتت فيه شجرة النبوة، وقومي يحاولون استئصالها، فلما لم يطيقوا حاولوا شنق الثمار التي تنتجها.

قلت: لست أفهم سر شجرة النبوة التي تتحدث عنها، وعلاقة قومي وقومك بها.

قال: كنت مثلك أجهل هذه الشجرة.. ولا أعرف قيمتها إلى أن هداني الله إليها، فعرفتها، وعرفت المعاول التي توجهت لتقطعها، والنيران التي توجهت لتحرقها.

قلت: فهل ستحدثني حديثها؟

قال: أجل.. فقد نلت أشعتها في رحلتي الخامسة إلى شمس محمد ﷺ.

***

بعد أن أكمل البابا فطوره، وحمد الله، وصلى على نبيه ﷺ مستغرقا في كل ذلك، ممتلئا خشوعا، رمى

ببصره إلى الأفق البعيد، ثم قال:

في ذلك اليوم من أيام الشتاء الباردة سرت إلى مدينة تمتلئ بالحضارة والثقافة والعلوم، لأذهب إلى جامعة من جامعاتها التي اشتهرت بتخريج المستشرقين.

قلت: لا شك أنك تقصد باريس، وتقصد جامعة السربون.

قال: أجل.. عندما رحلت من الهند إلى باريس، أو من تلك القرية الفقيرة في الهند إلى باريس خيل إلى نفسي أني قد رحلت من أرض إلى أرض، أو من كون إلى كون.

لقد كنت حينها ممتلئا إعجابا بما أنشأه قومي من حضارة، كانت روحي تسجد أمام كل عمارة، وتتمسح بكل جسر، وتصافح كل تمثال، وتقبل كل لوحة.

لقد كنت أنظر إلى الأشياء الكثيرة التي أمامي، فلا أرى فيها غير الجمال.. الجمال الذي يصيح بكل ألوان العذوبة.

لست أدري كيف خطر على بالي أن أذهب إلى برج إيفل، وفي الحديقة التي تحيط به جلست على كرسي أتأمل ذلك الجمال الذي ينطق به هذا البرج.

خطر على بالي حينها صاحبك معلم السلام.. وتساءلت بيني وبين نفسي: هل رأى هذا البرج؟.. وهل رأى قبله ثمار الحضارة التي تنعمنا ــ معشر أهل الغرب ــ بها؟

ما استتم هذا الخاطر في ذهني حتى التفت إلى جانبي، فإذا به يجلس بجانبي يحدق إليه كما أحدق، ولكني لم أر في وجهه من الانبهار ما رأيت في وجهي.

صافحته بحرارة قائلا: ها نحن نلتقي أخيرا في باريس.. كيف خطر على بالك أن تأتي إلى هذا الموضع؟

قال: لقد أردت أن أرى بعض ثمار الشجرة التي أسست هذه الحضارة؟

قلت: إنها ثمار يانعة ممتلئة طيبة.. أم أنك تخالفني في ذلك؟

قال: لا أخالفك.. ولا أوافقك.. أحيانا قد تكون الثمار يانعة، طيبة المذاق، حلوة الرائحة، جميلة المنظر، ولكنها تختزن السم الزعاف.

قلت: ما الذي تقوله؟

قال: ألست ترى القتلة المجرمين إذا دسوا سما دسوه في أطيب الأطعمة وألذها؟

قلت: أجل.. حتى تغري الآكلين بأكلها.

قال: فإذا أكلوها سقتهم الموت؟

قلت: ذلك عندما يكون الطعام سما.

قال: كل طعام قد يكون سما، وقد يختزن سما.

قلت: لا يزال الشك الذي اعتراك في الكتاب المقدس يعتريك في الطعام أيضا.

قال: لقد ذكرت لك أني لا أتيقن حتى أشك، ولا أطمئن حتى أضطرب.

قلت: لقد ذكرت لي أسوار الكلمات المقدسة التي تضع في قلبك اليقين بمصدرها الإلهي.. فهل هناك

أسوار للثمار الطيبة تفرق بينها وبين الثمار الخبيثة.

قال: أجل.. وسأضرب لك مثالا يوضح لك هذه الأسوار، ويقربها لعقلك:

أرأيت لو أن بك مرضا يمنع جسدك من ثمار معينة، فراح بعض الناس يغريك بكل صنوف الإغراء لتأكلها، ويتفنن في تزيينها لك بكل ما أتيح له من قدرات التزيين.. هل ترى هذا ناصحا لك؟

قلت: هذا لا يريد إلا قتلي.. ولكنه لم يرد أن يلطخ يداه بقتلي، فراح يقتلني بيدي، وببطني، ويستعمل ما ملئت به نفسي من شهوات ليسقيها السم الزعاف.. إن هذا مجرم لا ناصح.

قال: ولكن الناس عندما يرونه لا يرونه إلا ناصحا متملقا في نصحه.

قلت: هم لا يرون ما أرى.. ولا يعيشون ما أعيش.

قال: فهذا هو الحصن الأول للثمار الطيبة.

قلت: لم أفهم..

قال: الثمار الطيبة ثمار تناسب الإنسان، وكأنها صنعت خصيصا من أجل الإنسان، وأول ما تبحث عنه هذه الثمار هو مصلحة الإنسان.

قلت: فما الحصن الثاني؟

قال: أرأيت لو جلست في قاعة امتحان يرتبط بها مصيرك.. مصيرك العلمي، ومصيرك الوظيفي.. فجاء بعض الناس، وشغلك بثمار كثيرة بهيجة المنظر حلوة المذاق، تصيح بكل لسان، وتدعوك بكل أسلوب، فانشغلت بها عن امتحانك.. أترى من قدمها لك ناصحا؟

قلت: كلا.. فهذا لا يختلف عن ذاك.. كلاهما لا يريد إلا هلاكي.

قال: ولكنك لن تموت بأكل هذه الثمرة الأخيرة.

قلت: ولكني سأحيا حياة أشبه بالموت.

قال: فهذا هو الحصن الثاني.

قلت: لم أفهم ما ترمي إليه.

قال: كل ثمرة تبعدك عن الوظائف التي أنيطت بها حياتك، أو الرسائل التي كلفت بتبليغها ثمرة سامة، وإن بدت لك حلوة، هي كالشيطان الذي يتزين بكل صنوف الزينة ليجذبك إليه.

قلت: فهل هناك حصون أخرى؟

قال: لا.. هناك حصنان فقط.. بهما تعرف طيبة الثمار من خبثها.

قلت: فهل طبقت هذا على ما أنتجته حضارتنا؟

قال: أجل.. ولكني للأسف.. لم أجد بعد جهد مضن إلا الثمار الخبيثة، وقلما أظفر بثمرة طيبة.

قلت: كيف ذلك؟

قال: انظر إلى كل من حولك بعين الحقائق لا بعين الشهوات، وسترى ما لم تكن ترى، وتسمع ما لم تكن تسمع.

التفت لأرى ما لم أكن أرى، وأسمع ما لم أكن أسمع.. فإذا به يبتعد عني من غير أن أشعر، ومن غير أن أكمل حديثي معه، كعادته كل مرة.

أسرعت إليه، وقلت: إلى أين تذهب، وتدعني!؟

قال: أنا أبحث عن الثمار الطيبة لأكتشف من خلالها الشجرة الطيبة.

قلت: فإذا عرفت الشجرة الطيبة، فما يغنيك معرفتك لها؟

قال: أبحث عمن زرعها.

قلت: فإذا عرفته؟

قال: إذا عرفته جعلته إمامي الذي به أأتم، وقدوتي التي بها أقتدي، و لم أتناول ثمرا إلا من يديه.

***

بعد أن تركني وسار، حاولت أن أقترب أكثر من تلك الجموع لأرى ما لم أكن أرى، وأسمع ما لم أكن أسمع، فرأيت، وسمعت ما ملأ نفسي بالغثاء..

لقد تخيلت نفسي في حضيرة حيوانات لا هم لها إلا العلف الذي تعلفه، والحياة البهيمية التي لا تعيش إلا من أجلها..

***

عند باب جامعة السربون، رأيت رجلا لاح لي من مظهره أنه رجل دين، بل يظهر من مظهره أن له مكانة في الكنيسة، ولكني تعجبت منه إذ رأيته يرمي صليبه الذي كان يطوق رقبته، ويرتمي على الأرض ساجدا، يبلل الأرض بدموعه.

اقتربت منه لأسمع ما يقول، واقترب جمع من الناس نحوه كما اقتربت.

كانت الدموع تحول دون فهم الجمع لما يقول، فلذا تصوروه مجنونا، فانصرفوا عنه، أما أنا، فقد وعيت كل كلمة نطق بها.

لقد كان يردد ما قاله المسيح في إنجيل متى (٧:١٥-١٧):« احترزوا من الأنبياء الكذبة يأتونكم بثياب الحملان الوديعة، ولكنهم من الداخل ذئاب خاطفة.. من ثمارهم تعرفونهم، هل تجتنون من الشوك عنبا، أو من الحسك تينا.. هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارا ردية »

عندما قام من سجوده، اقتربت منه، وحييته، وقلت: لقد رأيتك تفعل عجبا حيرني.. أنت تسجد سجود المسلمين، ثم تقرأ في سجودك إنجيلنا نحن المسيحيين، فهل أنت مسلم أم مسيحي؟

قال: أنا مسلم مسيحي.. أو مسيحي مسلم..

قلت: لا يمكن أن تخلط بين الأديان، فالمسلمون لا يقبلون مسيحيا يظل على مسيحيته، والمسيحيون لا يقبلون مسلما يظل على إسلامه.

قال: لقد كنت مسيحيا خالصا، بل مسيحيا متعصبا.. ولكني الآن تحولت إلى المسيحية الحقيقية التي جاء المسيح يبشر بها.

قلت: فما هي هذه المسيحية؟.. وكيف وصلت إليها؟

قال: لقد ظللت سنة في هذه الجامعة.. أستمع من علمائها: الصديق منهم والعدو.. ورحت أقارن كل ما أسمعه عن الإسلام بما في سائر الأديان والمذاهب والأفكار.. وقد كانت خلاصتي تفكيري ما رأيته الآن..

ثم التفت إلي، وقال: لقد كنت سائرا الآن لألقي موعظة في حفل من الناس دعوني لأذكر لهم ثمرات المسيحية في الدين والحياة.. وكنت أحمل الكتاب المقدس.. وأقلب طرفي في ذلك السور المنيع الذي وصفه المسيح للنبوة الصادقة.

قلت: تقصد سور الثمرات.

قال: أجل.. من أراد أن يعرف النبي الصادق من الكاذب، فلينظر إلى تعاليمه، وإلى ثمار تعاليمه؟

قلت: فهل وجدت في ثمار محمد ما دلك على صدق نبوته؟

قال: أجل..

قلت: فما وجدت؟

قال: لا يمكنني أن أعبر لك عن كل ما وجدت.. لقد طبقت قول المسيح:« لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثمارا ردية، ولا شجرة ردية أن تصنع أثمارا جيدة، كل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى في النار، فإذن من ثمارهم تعرفونهم » (متى: ٧:١٨-٢٠) على جميع ما أعرفه من المذاهب والأديان، فلم أجد شجرة طيبة إلا شجرة محمد..

فما عرفت ذلك حتى سجدت.. ورحت أترنم بالنص المقدس الذي سمعته من المسيح.. والذي جعله الله سبب هدايتي.

قال ذلك، ثم استمر سائرا من غير أن يسألني عني، قلت له: إلى أين؟

قال: لقد تأخرت.. والجماعة تنتظرني.

قلت: لكنك قد غيرت رأيك.

قال: بل صححت رأيي.. إن أعظم ثمرة للمسيح هي دلالتنا على محمد.. ولذلك.. فإن كل ثمرات محمد ثمرات للمسيح.

هؤلاء كلهم أنبياء.. ولا أحد منهم ينازع الآخر، أو يصارعه.. الصراع لا تجده إلا عندنا..

قال ذلك ثم انصرف.. والبسمة تملأ محياه.

***

بعد هذه المواقف التي كانت توجهني وجهة واحدة.. وكأنها تحثني على الاستعداد العقلي والنفسي لتلقي هذا النوع من الأشعة.. ذهبت إلى جامعة السربون، وهناك طلبت مقابلة مدير الجامعة، الذي رحب بي غاية الترحيب.. ثم دار بيننا هذا الحوار الذي حاول من خلاله أن يبين لي الوظيفة التي تنتظرني في هذه الجامعة.

قال: لقد تعودت أن أستقبل كل من ترسله الكنيسة بنفسي..

قلت: لم تكلف نفسك هذا مع كثرة أشغالك؟

قال: بالإضافة إلى احترامي العظيم للكنيسة ورجال الكنيسة، هناك سببان يدعواني لهذا الاهتمام:

أما أولهما، فلأن ما أقوله لرجال الدين الذين يشرفون مكتبي هذا يكاد يكون سرا لا ينبغي أن يسمع به أحد.

وأما الثاني، فلأني لا أجد فيمن أراهم معي من يحملون العزيمة التي أحملها، والتي تجعلهم يبلغون الرسالة كما ينبغي.

قلت: فكلي آذان صاغية، فحدثني عن الرسالة التي تريد أن تبلغني إياها.

قال: قبل أن أحدثك عن تلك الرسالة.. والتي جعلتنا نطلبك، أو نطلب بالأحرى من له من القدرات العلمية واللغوية ما لك.. أريد أن أحدثك عن علاقة هذه الجامعة بالدين.. أو بالأحرى علاقة التبشير بالاستشراق.

هذه الجامعة ــ كما تعلم ــ جامعة تهتم بالدراسات الشرقية، أو بالخصوص الدراسات المهتمة بالإسلام.. وهي تحمل في الظاهر لواء العلمية والموضوعية، ولكنها في نفس الوقت تحمل نفس اللواء الذي يحمله المبشرون..

التفت إلي مبتسما، وقال: أنتم تبشرون بالمسيح، ونحن نقرب المسلمين لكم لتبشروهم بالمسيح.. فنحن نقوم بعمل متكامل.

قام من مجلسه، وقال: ربما لم تفهمني جيدا، وربما فهمتني فهما خاطئا، ولذلك سأوضح لك أكثر.

في البداية.. لم يكن هناك استشراق..

ابتسمت، وقلت: في البداية لم يكن أي شيء.. ليس الاستشراق وحده.

نظر إلي، وقال: لم تفهمني.. لم أقصد ما فهمته.. حاول أن تركز معي.

ركزت معه كما طلب مني.

كان يحاول أن يقول أشياء كثيرة، وكنت أشعر أنه كان يستحي من ذكرها، ولكنه كان مضطرا لقولها، فلذلك كان يبدوا مضطربا ينحرف ذات اليمين وذات الشمال ليعبر عما يريد أن يوصله لي، وهو مع كل ذلك ينظر إلى وجهي بدقة ليحدد مدى استيعابي لما يقوله.

قال: أقصد أن الاستشراق لم يبدأ من هذه الجامعة.. ولا من أي جامعة من جامعات الدنيا.

قلت: فمن أين بدأ؟

قال: من الكنيسة.. لقد كانت البداية الرسمية للاستشراق من الكنيسة.

نظرت إليه متعجبا، فقال: لا تتعجب.. لقد بدأ الاستشراق من مجمع فينا الكنسي سنة ١٣١٢ من ميلاد المسيح، فقد أوصى هذا المجمع بإنشاء عدة كراسي للغات، ومنها اللغة العربية، ولا سيما التشريع الحادي عشر الذي قضى فيه البابا (إكليمنس الخامس) بتأسيس كراسي لتدريس العبرية واليونانية والعربية والسريانية

والآرامية في الجامعات الرئيسية[1].

وكانت هذه التوصية قائمة على دعوة (ريموند لول)[2] لإنشاء كراسي للغة العربية في أماكن مختلفة، لقد كان هدفه واضحا من تلك الدعوة..

لقد كان الهدف تبشيريا محضا، و لم يكن له علاقة بالدراسات العلمية المجردة.

نظر إلي ليرى تأثير ما يقوله على وجهي، فلما رآني منصتا مستغرقا في الإنصات أتاح له ذلك حرية الكلام، فقال: منذ ذلك الحين نال الاستشراق رعاية الكنيسة ومباركتها.. وخاصة عندما فشلت الحروب العسكرية من خلال انحسار المد الصليبي بعد جهود قرنين من الزمان.

ولهذا اتجهت الكنيسة الغربية إلى التبشير من خلال الفكر والثقافة والعلم.. فكان التوجه إلى الحرب الفكرية، لتحقق ما فشل فيه سلاح الغزو الحربي.

لقد كان الهدف من هذه الدعوة هو أن تؤتي محاولات التبشير ثمارها بنجاح من خلال تعلم لغات المسلمين، وقد عبر عن هذه الثمار في دعوة (لول) بارتداد العرب إلى المسيحية من الإسلام، كما كان (غريغوري العاشر) يأمل في ارتداد المغول إلى المسيحية، وقبله كان (الإخوة الفرنسيسكان) قد توغلوا في أعماق آسيا يدفعهم حماسهم التبشيري، ومع أن آمالهم لم تتحقق في وقتها إلا أن الروح التبشيرية قد تنامت منذئذ.

وهذا يعني بتعبير أوضح (إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام، واجتذابهم إلى الدين المسيحي)[3]

سكت قليلا، ثم استأنف قائلا: لقد انتظم الاستشراق في الفاتيكان، وانتشر واستمر على أيدي البابوات والأساقفة والرهبان، فكان رجال الدين، ومجمعهم الفاتيكان يومئذ، يؤلفون الطبقة المتعلمة في أوربا، ولا سبيل إلى إرساء نهضتها إلا على أساس من التراث الإنساني الذي تمثله الثقافة العربية، فتعلموا العربية، ثم اليونانية، ثم اللغات الشرقية للنفوذ منها إليه.

نظر إلي وتمعن في تأثير كلماته علي، ثم قال: مما يدلك على الصلة العظيمة بين الاستشراق والتبشير أنه كان هناك فئة مهمة من المستشرقين لم تتورع عن قبول اللقب الديني، أو الرتبة الدينية.. فمنهم (الأب).. ومنهم (الأسقف).. ومنهم (البطريرك).. ومنهم (المطران)

---

(١) إدوارد سعيد، الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة: كمال أبو ديب، قم: دار الكتاب الإسلامي، ١٩٨٤ م – ص ٣٢٨.

(٢) ريموند لول(١٢٣٥ – ١٣١٦ م)، إسباني، كان دومينيكيا ثم تحول إلى الفرنسيسكانية، وهو من جزيرة ميورقة، تبنى فكرة السيطرة على الشرق بالتبشير لا بالحروب، ووضع خطة لذلك، وسعى إلى إنشاء مدرسة ميرامار للمنصرين، ثم تواصلت محاولاته لإنشاء مدارس تنصيرية أخرى، ومارس التبشير في شمال إفريقية، وبها توفي، وكان وراء قرار مجمع فينا الكنسي المشهور سنة ١٣١١ – ١٣١٢ م، الذي قضى بإنشاء كراسي للغات، ومنها اللغة العربية، من آثاره: رواية تنصيرية، وكتاب المنطق في الحوار مع الكفرة (انظر: عبد الجليل شلبي: الإرساليات التبشيرية: ص ١٥١ – ١٥٦)

(٣) محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري،ط ٢، القاهرة: دار المنار، ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩ م – ص ٣٥.

سأضرب لك بعض النماذج عن هؤلاء:

لاشك أنك تعرف الأب آسين بلاثيوس (١٨٧١ - ١٩٤٤ م) الإسباني، ذلك الرجل الذي اشتهر بدراسة حركة التفاعل الثقافي بين الإسلام والمسيحية، والذي كتب عن (مذهب ابن رشد، ولاهوت توما الإكويني)، وعني بـــ (محيي الدين بن عربي)، وأجرى (مقارنة بين ابن عباد الرندي ويوحنا الصليبي)، وصنف في (الغزالي والمسيحية)، وكتب في (الآثار الإنجيلية في الأدب الديني الإسلامي)[1]

لقد حاول كل جهده أن يلبس الإسلام ثوب المسيحية، وقد نجح في ذلك، ولا تزال آثاره تتداول.. أتدري من كان؟.. لقد كان أبا مسيحيا.. كان رجل دين قبل أن يكون رجل استشراق.

ومثله الأب أبوجي(١٨١٩ - ١٨٩٥ م) الفرنسي، لقد كان من الرهبان اليسوعيين[2]، وقد صنف كتبا دينية ومدرسية، لقد جمع هذا الرجل الفاضل بين الوظيفتين: وظيفته الدينية ووظيفته العلمية، بل استخدم الوظيفة العلمية في خدمة وظيفته الدينية.

ومثلهما نعمة الله أبو كرم (١٨٥١ - ١٩٣١ م)، لقد كان من مستشرقي المدرسة المارونية بلبنان، نصب مطرانا، وكان قد تخرج من جامعة القديس يوسف ببيروت، وعاون في تحرير مجلة البشير، ثم عين رئيسا للمدرسة المارونية في رومة، ومستشارا في المجمع الشرقي، ومن آثاره: قسطاس الأحكام في القانون مع مقارنته بما يقابله في الشرع الإسلامي.

ومثلهم الأب يوسف الأشقر (ق ١٨ م)، لقد كان من مستشرقي المدرسة المارونية بلبنان، ترجم إلى الفرنسية من العربية والسريانية كتبا كثيرة أشهرها سلسلة تواريخ بطاركة الموارنة الأنطاكيين، وقد اعتمد عليه (لي كيين) في كتابه الشرق المسيحي.

كان هناك غيرهم ممن لا يحمل هذه الألقاب.. ولكنه مع ذلك لم يتتلمذ إلا في المدارس اللاهوتية المسيحية أو اليهودية:

منهم أرنست رينان Ernest Renan (١٨٢٣ ــ ١٨٩٢)، الذي تلقى تعليمه في المدارس اللاهوتية، وتعلم العربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، وزار المشرق وعاش بلبنان فترة من الزمن، واهتم بالعقيدة الإسلامية.

لاشك أنك تعرف موقفه المشهور من العقل السامي، وأنه لا يصلح لدراسة العلم[3].

ومنهم جورج سيل George Sale (١٦٩٧-١٧٣٦) الذي ولد في لندن، والتحق بالتعليم اللاهوتي.. لقد

---

(١) عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين: ١٢١.

(٢) اليسوعيون أو الجزويت من الجماعات التبشيرية النشطة، ومؤسسها هو القديس إجناتياس لويولا (١٤٩١ - ١٥٥٩ م)، وكان جنديا إسبانيا، وهي لا تتبع مذهبا معينا، لكنها تعد من المبشرين، انظر: طلال عتريسي: البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان، دراسة تاريخية وثائقية، بيروت: الوكالة العالمية للتوزيع، ١٩٨٧ م، ص ٢٨ - ٣٤.

(٣) وقد ردّ عليه كل من جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في كتابه (الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية)

كان من أبرز أعماله ترجمته لمعاني القرآن التي قدم لها بمقدمة احتوت على كثير من الشبهات الجادة[1].

ومنهم وليام ميور ١٩٠٥- ١٨١٩) William Muir).. لقد كان مستشرقا ومبشّرا وموظفا إداريا.. وهو إنجليزي، تعلم العربية في أثناء عمله في الهند واهتم بالتاريخ الإسلامي شارك في أعمال جمعية تنصيرية في الهند.

وقد ألف كتاباً يناصر الجهود التنصيرية بعنوان (شهادة القرآن على الكتب اليهودية والمسيحية).. ومن أهم مؤلفاته كتابه في سيرة محمد في أربعة مجلدات، وكتابه حول الخلافة، كما ألف كتاباً حول القرآن بعنوان (القرآن تأليفه وتعاليمه)[2]

وغيرهم كثير..

قلت: فأنت ترى إذن بأن التبشير هو الأصل الحقيقي للاستشراق؟

قال: أجل.. وليس العكس كما يذهب أغلب الباحثين.

قلت: ولكن الاستشراق ليس خاصا بالمسيحيين، فهناك مستشرقون يهود وعلمانيون.. بل وملحدون[3].

قال: بورك كل أولئك المستشرقين.. ولا يهمنا من يكونون ما دمنا نتفق على نفس الهدف..

قلت: أتبارك الملحدين واللادينيين؟

قال: لم أباركهم أنا.. أنتم الذين باركتموهم.. الكنيسة هي التي تبارك كل من يقف في وجه الإسلام.. ولا يهمها من يكون، ولا ما يرتدي.

قلت: سمعت كل ما ذكرته، وفهمته، ولكني لم أع الرسالة التي تريد أن تبلغني إياها من خلال هذا الكلام.

قال: اصبر علي.. فليس من عادتي أن أملي على أحد ما يفعل.. عادتي مع جميع من ينتمي لهذه الجامعة أن أقنعه، وأبعث فيه الهمة، ثم أترك له الأسلوب الذي يراه مناسبا لتحقيق القناعة التي أوصلته إليها.

ليس ذلك مع من ينتمي لهذه الجامعة فقط.. أنا أمارس هذا الأسلوب مع أولادي.. أكتفي بحوارهم

---

(١) ومع ذلك يقول عبد الرحمن بدوي عن ترجمته:« ترجمة سيل واضحة ومحكمة معاً، ولهذا راجت رواجاً عظيماً طوال القرن الثامن عشر إذ عنها ترجم القرآن إلى الألمانية عام ١٧٤٦ »، ويقول في موضع آخر:« وكان سيل منصفاً للإسلام برئياً رغم تدينه المسيحي من تعصب المبشرين المسيحيين وأحكامهم السابقة الزائفة » (عبد الرحمن بدوي. موسوعة المستشرقين.(بيروت:دار العلم للملايين) ١٩٨٤.ص ٢٥٢).

(٢) وقد تولى ميور منصب مدير جامعة أدنبره في الفترة من عام ١٨٨٥حتى عام ١٩٠٣. انظر: عبد الرحمن بدوي. موسوعة المستشرقين.(بيروت:دار العلم للملايين)

(٣) من المعلوم أنه ليس كل المستشرقين ينتمون إلى المسيحية، ففيهم المستشرقون اليهود الذين خدموا اليهودية من خلال دراساتهم الاستشراقية، كما أن فيهم الملحدين الذين خدموا الإلحاد من خلال اهتمامهم بالمنطقة العربية والإسلامية، ومحاولاتهم نشر الإلحاد في هذه البقاع بديلا عن الإسلام، ومنهم العلمانيون، فهناك انتساب واضح إلى العلمانية عند فئة من المستشرقين، كما أن هناك انتسابا صريحا للصهيونية عند فئة أخرى من المستشرقين. انظر: الاستشراق والتنصير، لعلي بن إبراهيم الحمد النملة.

وإقناعهم، ثم أترك لهم بعد ذلك اختيار القرار المناسب.

قلت: لقد ذكرت لي علاقة التبشير بالاستشراق، وحاولت أن تقنعني بأن أصل الاستشراق هو التبشير.

قال: بورك فيك.. لقد وعيت كل ما ذكرته لك.

قلت: ولكني لم أع الرسالة التي يحملها هذا الكلام.

قال: لقد كان ذلك في البدء.. في البدء ولد الاستشراق في محضنة الكنيسة، وظل وفيا لها عهودا طويلة.. ولكنه أحيانا كان ينحرف عن مساره، ويظهر بعض المستشرقين المتمردين الذين يتصورون ــ حسب أوهامهم ــ أنهم يغلبون المنهج العلمي الموضوعي على الرؤية الذاتية الدينية.

قلت: أعلم ذلك.. وأعلم كذلك أن المسلمين يتبنون هذا النوع من المستشرقين، ويفرحون بهم، وينقلون شهاداتهم في كتبهم.

قال: وهذا هو مصدر الخطورة.. إن وجود هذا النوع من المستشرقين أحدث شرخا خطيرا في المقاصد التي يرمي إليها الاستشراق.. لقد تاه أولئك المستشرقون عن الهدف..

لقد صاروا كذلك المحارب الذي لم يكتف بأن يرمي سلاحه، ويولي دبره، وإنما ذهب، وأمد العدو بسلاح كثير، وقنابل كثيرة.

قال ذلك، ثم صاح بنوع من الهستيرية: إنها خيانة.. خيانة عظمى.. لو كنت حاكما عسكريا لحكمت على أولئك بالشنق.. لا يجدي معهم غير الشنق.

التفت إلى نفسه، ورأى خطأه في إظهار ما تكنه نفسه من ألوان الحقد، ثم ابتسم، وقال: اعذرني.. كنت أمزح فقط.. لست أدري لم طغت لغة الحرب هذه الأيام.. صرنا لا نتكلم إلا بالمدافع والأسلحة والقنابل.. لعل ذلك من تأثير وسائل الإعلام.

ثم قال: على العموم، فقد كان هذا النوع الخطير من المستشرقين أفرادا محدودين، ومع ذلك كان لهم ذلك التأثير الخطير.. ولكنهم ــ الآن ــ أمة من الناس.. هم الآن يتكاثرون كما تتكاثر الطفيليات.. لهذا صار خطرهم أعظم.. ولهذا صرنا نفضل المستغربين على المستشرقين.

المستغربون جاءونا أصلا لينسلخوا من هويتهم.. فلذلك نراهم يتزلفون كما لا يتزلف أحد.. أما أولئك المستشرقين الأغبياء.. فهم لا يزالون يلقون أسلحتهم ليمدوا بها عدوهم.

قلت: وهل يوجد أمثال هذا النوع من المستشرقين في هذه الجامعة؟

قاطعني، وقال: أجل.. وهم يتكاثرون كما يتكاثر النمل.. وقد عرفنا السر في ذلك التكاثر.

قلت: وما هو؟

قال: العلمانية.

ابتسمت، وقلت: وما علاقة العلمانية بهذا؟.. ثم ألسنا في دولة علمانية؟

قال: العلمانية هي فصل الدين عن الحياة وعن الدولة وعن الأخلاق..

قلت: أعلم ذلك.

قال: وهؤلاء فصلوا الدين.. أو فصلوا اهتمامهم الديني وانتماءهم الديني عن دراساتهم لتراث المسلمين وفكر المسلمين.

قلت: وما يضيرنا من ذلك.. فهم إن لم يدخلوا بعدهم المسيحي أدخلوا بعدهم الإلحادي، أو بعدهم الوجودي، أو أبعاد أخرى.

قال: ليت الأمر سار على هذا النحو.. هؤلاء أدخلوا البعد الموضوعي.. لقد صاروا يتعاملون مع التراث الإسلامي والفكر الإسلامي بموضوعية وحياد..

قلت: هذا بعد جيد..

قال: وخطير جدا..

قلت: ما خطره؟.. ما داموا يلبسون ثياب العلم، ويتبنون التحقيق العلمي.

قال: لم تفهم إذن كل ما قلت لك.

قلت: بل فهمت.. ولكني لم أفهم خوفك من البعد الموضوعي.

سار في أرجاء القاعة، وكأنه يهم أن يقول شيئا يخاف على نفسه منه، أو يخاف علي منه.

لكنه تحدى ذلك، وقال بلسان متلعثم: البحث الموضوعي في تراث المسلمين خطير.. خطير جدا..

ثم قال، وكأنه يستعيد ذكريات مر بها: سلني أنا.. لقد جربت في شبابي هذا النوع من البحث.. ولكني كدت أحترق.. لقد كانت شمس محمد شمسا محرقة كادت تصليني بنارها..

لست أدري مدى صدق قومه في إطلاق لفظ الساحر عليه.. ولكنه ــ معي ــ لا يوجد لقب أصدق منه.. لقد سحرني كما لم يسحرني أحد من الناس.. ظللت دهرا من عمري منشغلا بالتفكير فيه، وفي الشجرة التي تركها لترمي كل حين من الثمار ما يجعل وجوده حيا مستمرا.

لست أدري كيف قلت له مقاطعا: فلماذا تريد قطع هذه الشجرة؟

قال ــ وكأنه لا يدري ما يقول ــ: لست أنا الذي أريد أن أقطعها.. كلهم يريد أن يقطعها.. وما نحن إلا معاول بسيطة.

قلت: ومن يشارككم في الاهتمام بقطعها؟

قال: كثيرون.. منهم أنتم المبشرون.. ومنهم أولئك العساكر المستعمرون.. بالإضافة إلينا نحن المستشرقون.. بالإضافة إلى أولئك الذيول من المستغربين..

كلنا نشكل معاول لهدم شجرة ذلك الساحر التي تؤتي أكلها كل حين، ولا تمل من إعطاء الثمار كل حين.

قلت: فلم تهتم جميعا بقطعها؟

قال: لأنها الشجرة الوحيدة في العالم التي تقف في وجه شجرتنا، وتمنع امتدادها.

قلت: فلم لا نترك الشجرتين تتعايشان مع بعضهما، فنأكل ثمرا ناضجا من كليهما[1]؟

انتفض، وقال: يستحيل ذلك.. يستحيل ذلك..

قلت: وما وجه الاستحالة؟

قال: ألا تعلم أن شجرة محمد شجرة مسحورة!؟.. إن كل من أكل من ثمارها أصابه سحر محمد.

ابتسمت، وقلت: أراك تؤمن بالسحر، وتبالغ في الإيمان به؟

قال: لو لم أجرب تأثيره ما آمنت به.

قلت: فلنفرض أنا قطعنا شجرة محمد..

قاطعني قائلا: ذلك مستحيل.. هي شجرة ضاربة الأطناب في التربة، بل لعل لها جذورا في السماء يستحيل قطعها.

قلت: فلم نجتهد في تحقيق المستحيل؟

قال: ذلك منهج خاطئ سلكه أسلافنا، ونحن اليوم نعرف استحالته.

قلت: فهل رأيت منهجا آخر يمكن سلوكه؟

قال: أجل.. نترك للشجرة وجودها.. لكنا نترك ثمارها تتساقط من غير أن يأكلها أحد.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ذلك بسيط.. نحذر من ثمارها.. نصف حلاوة ثمارها بحلاوة العلقم، ونصف إكسيرها وترياقها بالسم الزعاف.. ثم نرمي كل من يأكل ثمارها بالتخلف والرجعية والإرهاب والخرافة..

قلت: وحينذاك لن يقترب منها أحد.

قال: وحينذاك ستذبل الشجرة وتموت من غير أن نقطعها.

قلت: فكرة جيدة.. ولكن ألسنا نسيء للبشرية إن فعلنا هذا؟

قال: بل نحسن غاية الإحسان.. لا يمكن للبشرية أن تعيش على ثمار شجرتين متناقضتين غاية التناقض.. لذلك إن أردنا السلامة لشجرتنا، فهذا ما ينبغي أن نمارسه مع شجرة محمد.

قلت: فهل تسيرون في هذا السبيل؟

قال: كنا نسير فيه.. ولكنه ظهرت فئة من المستشرقين غفلت عن مبادئها وهدفها وغلبت الموضوعية العلمية في تصورها.. ونخاف على هذه الفئة أن يصيبها سحر محمد.

قلت: فما دوري أنا في هذا؟

قال: لست وحدك.. هناك إخوان كثيرون لك في هذه الجامعة، وهم ينتشرون بين هؤلاء المستشرقين ليقدموا لهم من الرقى والتعاويذ ما يقيهم من سحر شجرة محمد.

قلت: أطلبتم حضوري لأقدم لكم رقى ضد السحر؟

---

(١) أقصد (حوار الحضارات) الذي هو مطلب إسلامي بدل (صراع الحضارات) الذي يتحدث عنه الغرب.

قال: ليس ضد كل سحر.. ضد سحر محمد وحده.

قلت: لا أعرف هذا النوع من الرقى.. بل لا أكاد أؤمن بالسحر.

ابتسم، وقال: أنت لم تفهمني.. الرقى التي نقصدها هي الشبهات.. ليس هناك شيء يقتل شجرة محمد كالشبهات.

قلت: فهمت.. أنت تريدني أن أتصل بهذا النوع من المستشرقين لأملأ عقولهم بالشبهات التي تبعدهم عن شجرة محمد.

قال فرحا: أجل.. هذا ما أريده، وقد ذكرت لك أنك لست وحدك في هذه الجامعة.. هناك كثيرون من أمثالك.

قلت: إن هذا يحتاج وقتا..

قال: لقد أعددنا لك في هذه الجامعة كل ما يريحك، وكل ما يخدمك، ويخدم الهدف النبيل الذي جئت من أجله.

لقد وفرنا لك مسكنا لائقا، وسيارة فارهة، وأموالا سوف تصب كل حين في رصيدك.. وإن احتجت إلى أي نفقات زائدة، فليس عليك سوى الاتصال بي.

قال ذلك، ثم التفت إلى صليب كنت أعلقه ليشير إلى وظيفتي الدينية، فأمسكه بيده، ثم قبله، وقال: لا أطلب منك سوى طلبا واحدا.

قلت: وما هو؟

قال: انزع هذا الصليب..

قلت: لم؟

قال: لا تظهر أي علاقة لك بالدين في هذه الجامعة.. نحن في جامعة علمانية، ولذلك حاول أن تكون علمانيا في ظاهرك قدر ما استطعت، وخاصة أمام أولئك المرتدين الذين لبسوا لباس الموضوعية العلمية، وتركوا الرسالة النبيلة التي كلفتهم بها أمتنا العظيمة.

***

خرجت من مكتبه، فصحبني مرشد جال بي في أنحاء الجامعة، ثم أعطاني دفترا يعرفني بالمستشرقين الذين يطلب مني الاتصال بهم والتعامل معهم، ثم سار بي إلى المسكن الفاره المعد لي.. ومعه كل ما تهفو إليه النفوس من الحياة الرغيدة.

لقد ظللت في تلك الجامعة سنة كاملة، رأيت فيها أشياء كثيرة، واستمتعت نفسي بنعم كثيرة.. لكني لا أذكر منها إلا عشرة أيام..

لقد كانت تلك الأيام العشرة هي الأيام التي تنعمت فيها بأشعة جديدة من شمس محمد ﷺ.. ولن أحكي لك في هذه الرحلة إلا حكاية تلك الأيام العشرة.. أما ما عداها فأكثره لغو فارغ.

أولا ـــ خلاص

في اليوم الأول من تلك الأيام العشرة المباركة، التقيت المستشرق الذي قطفت على يده أول ثمرة من شجرة النبوة، وهي (ثمرة الخلاص)

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى:﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة:١٩)

وعرفت بها سر قوله ﷺ:« إن ربي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم مما علّمني في يومي هذا: كل مال نَحَلْته عبادي حلال، وإني خلقت عبادي حُنَفَاء كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضَلَّتْهُم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللت لهم، وأمرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا، ثم إن الله، عز وجل، نظر إلى أهل الأرض فَمَقَتَهُمْ، عجَمَهم وعَرَبَهُم، إلا بقايا من أهل الكتاب»[1]

فهذه النصوص المقدسة تخبر عن الحالة التي كان عليها العالم حين جاءه الإسلام.. وتشير ـــ في نفس الوقت ـــ إلى الدور العظيم الذي قام به الإسلام في إنقاذ البشرية وتخليصها من الهلاك الذي كاد يقضي عليها.

***

سمعت بتوماس وولكر آرنولد[2]، وهو مستشرق بريطاني كان من النوع الذي حدثني عنه مدير جامعة السربون، واسمه من الأسماء التي وضعت في الدفتر الذي سلمني إياه المرشد، وقد كنت أتحين الفرص للقائه

---

(١) رواه أحمد، ومسلم، والنسائي.

(٢) أشير بهذا الاسم إلى المستشرق Sir Thomas Walker Arnold (١٨٦٤-١٩٣٠) وهو من كبار المستشرقين البريطانيين، وقد بدأ حياته العلمية في جامعة كامبردج حيث أظهر حبه للغات، فتعلم العربية، وانتقل للعمل باحثاً في جامعة (عليكرا) في الهند، حيث أمضى هناك عشر سنوات ألف خلالها كتابه المشهور (الدعوة إلى الإسلام)

ثم عمل أستاذاً للفلسفة في جامعة لاهور، وفي عام ١٩٠٤ عاد إلى لندن، ليصبح أميناً مساعداً لمكتبة إدارة الحكومة الهندية التابعة لوزارة الخارجية البريطانية، وعمل في الوقت نفسه أستاذاً غير متفرغ في جامعة لندن، واختير عام ١٩٠٩ ليكون مشرفاً عاماً على الطلاب الهنود في بريطانيا.

من المهام العلمية التي شارك فيها عضوية هيئة تحرير الموسوعة الإسلامية التي صدرت في ليدن بهولندا في طبعتها الأولى، والتحق بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن بعد تأسيسها عام ١٩١٦. وعمل أستاذاً زائراً في الجامعة المصرية عام ١٩٣٠.

له عدة مؤلفات سوى كتابه (الدعوة إلى الإسلام) ومنها (الخلافة) وكتاب حول العقيدة الإسلامية.

وهو صاحب فكرة كتاب (تراث الإسلام) الذي أسهم فيه عدد من مشاهير البحث والاستشراق الغربي. وقد أشرف أرنولد على تنسيقه وإخراجه، وهو أول من جلس على كرسي الأستاذية في قسم الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن، وقد وصفه المستشرق البريطاني المعروف (جب) بأنه « عالم دقيق فيما يكتب، وأنه أقام طويلاً في الهند وتعرف إلى مسلميها، وأنه متعاطف مع الإسلام، وكل هذه أمور ترفع أقواله فوق مستوى الشهادات »(دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٤٤) ذاع صيته بكتابيه: (الدعوة إلى الاسلام) الذي ترجم إلى أكثر من لغة، و(الخلافة). كما أنه نشر عدة كتب قيمة عن الفن الإسلامي.

والاستماع إليه، ولكني لم أظفر بذلك إلا في ذلك اليوم الجميل...

فقد كنت سائرا أمام حديقة بيته، فوجدته يسقي شجرة ذابلة تكاد تموت.

رفعت كل كلفة، واقتربت منه، وحييته باللغة العربية التي كان يتقنها غاية الإتقان، ويحب أن يجد من يحدثه بها.

نظر إلي، وابتسم، وقال: هل أنت من الشام، أم من مصر؟

قلت: لا هذا ولا ذاك..

قال: فأنت من المغرب إذن؟

قلت: أنا من ألمانيا..

قال: نسبا، أم جنسية مكتسبة؟

قلت: بل نسبا.. أنا ألماني أبا وأما.. و لم أعش في أي دولة عربية.

قال: أنت تتقن العربية جيدا، وكأنك عربي..

قلت: أنا مهتم بها كثيرا، ومهتم بكل ما يرتبط بها من ألوان الثقافة.

قال: هذا شيء جيد.. أنت مثلي في هذا.. أنا أيضا أحب هذه اللغة، وكل ما يرتبط بها من ثقافة، ولست أدري سر ذلك..

نظر إلى الشجرة الذابلة التي كان يسقيها، ثم قال: لعل سر ذلك يعود إلى الإكسير الذي أعاد لهذه الشجرة حياتها.

قلت: ما علاقة هذه الشجرة باهتمامك باللغة العربية، والثقافة العربية؟

قال: لقد كان مصير هذه الشجرة هو الفناء والذبول والموت.. لقد أحاط بها الموت من كل جانب، و لم يعد لي أمل في حياتها.. ولكن بعضهم أهداني إكسيرا عجيبا، ما إن وضعته في الماء، وسقيته بها حتى عادت إليها الحياة، وأنت تراها الآن مقبلة على حياة جميلة تنتظرها.

قلت: لا أزال عاجزا عن فهم علاقة الشجرة والإكسير الذي أعاد إليها الحياة باللغة العربية والثقافة العربية.

قال: يمكن أن تشبه العالم الذي نعيش فيه بهذه الشجرة..

قلت: من أي جهة؟

قال: من جهة الحياة والموت.. والمرض والصحة.. والذبول والنشاط.

قلت: ذلك صحيح.. فالشجرة كائن حي لا يختلف عن الإنسان.. يعتريه ما يعتري الإنسان من أسباب العافية والبلاء.

قال: لعل هذا هو سر اهتمامي بالعربية والثقافة العربية.

قلت: هذا ما لم أفهمه.

قال: أنا مهتم كثيرا بتاريخ العالم.. وبأسباب عافيته وأسباب بلائه.. وأوقات انحداره وأوقات ارتفاعه..

ولحظات إنسانيته ولحظات بهيميته..

في بيتي سجلت منحنيات كثيرة للسقوط وللنهوض، وللصعود وللهبوط.

لم أشأ أن أقاطعه لأستفهم عن سر هذا الكلام الغامض، فأخذ يقول: لقد وجدت العالم في جميع فتراته يشبه هذه الشجرة التي اعتراها الذبول وكاد يميتها.. ولكنها عادت للحياة من جديد لما سقيتها بإكسير الحياة.

قلت: فهل وجدت البشرية في فترات سقوطها من يسقيها إكسير الحياة؟

قال: لقد سجلت أعظم انحدار لمنحنى سقوط البشرية.. ورأيت بأم عيني الإكسير الذي حمى البشرية من الفناء الذي كان يترصد بها.. وذلك الإكسير هو الذي حملني على أن أتعلم اللغة العربية، وأسافر إلى البلاد العربية، وأتعلم الثقافة العربية.

قلت: فما ذاك الإكسير؟

قال: هو أعظم رجل على الإطلاق.. لعله هو المخلص الذي عناه المسيح عندما قال لتلاميذه:« إن كنتم تحبونني، فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر، ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم، ويكون فيكم.. إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي وإليه نأتي، وعنده نصنع منـــزلاً.

الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي، والكلام الذي تسمعونه ليس لي، بل للآب الذي أرسلني، بهذا كلمتكم وأنا عندكم، وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء، ويذكركم بكل ما قلته لكم.. قلت لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان تؤمنون، لا أتكلم أيضاً معكم كثيراً، لأن رئيس هذا العالم يأتي، وليس له فيّ شيء » (يوحنا ١٤/١٥ – ٣٠)[1]

نعم.. بل هو..

لقد كانت البشرية تنتظر الخلاص.. لقد كانت كالظمآن الذي كاد يهلكه العطش، ولولا محمد، ولولا المياه العذبة التي جاء بها لماتت البشرية من الظمأ.

قلت: كيف تقول ذلك؟.. لقد كان محمد في بيئة صحراوية بدوية.. وكان مع ذلك أميا.. كيف كان هو المخلص؟

قال: أحيانا كثيرة يجعل الله فيما نحتقره من أشياء سر خلاصنا..

هذه الشجرة مثلا.. يئست منها، وتألمت ليأسي، كنت أراها تذبل أمامي، وأنا لا أطيق معها أي حراك.. ولكن ذلك الرجل الفاضل، بل العبقري الفذ وصف لي إكسيرها.

في البداية عندما وصفه ضحكت بيني وبين نفسي.. بل ظننته يسخر مني، وعندما جربته لم أجربه إلا كما يجرب الغريق تعلقه بقشة لا تغني عنه شيئا.. ولكني بعد أن طبقت ذلك الإكسير العجيب فعل فعله، وأعاد لهذه الشجرة حياتها.

---

(١) انظر التفاصيل المرتبطة بهذه النبوءة في (أنبياء يبشرون بمحمد)

وبالمناسبة.. فالرجل الذي وصف لي هذا الإكسير رجل أمي.. هو يشبه تماما محمد الذي كان أميا، ولكنه كان يحمل الإكسير الذي أعاد به الحياة لشجرة البشرية.

قلت: لقد كانت في عهد محمد حضارات عريقة وديانات قديمة.. ألم يكن في أحدها سر الخلاص؟

قال: لقد كان من سر الخلاص الذي جاء به محمد أنه لم يكن في بقعة من بقاع الأرض غير تلك البقعة البسيطة القريبة جدا من الفطرة.

قلت: لم؟.. هل تعادي الحضارات؟

قال: لا أعاديها، ولكن محمدا لو ولد في بيئة غير تلك البيئة لتلطخت تعاليمه كما تلطخت تعاليمنا نحن المسيحيين.

لقد ذكر القرآن شيئا قريبا من هذا عندما قال:﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(الأنعام: من الآية١٢٤)

لقد طلب هؤلاء القوم أشياء مماثلة لما جاءت بها الرسالات السابقة، والتي امتلأت تحريفا، فرد عليهم القرآن بأن الله أعلم بالمحل الذي يجعل فيه رسالته.

قلت: أراك تتحامل على تلك الحضارات العريقة.. والتي لا زلنا نشم عطر ما أنتجته.

قال: كلامك يحتاج بحثا موضوعيا بعيدا عن لغة الخطاب التي تعودنا أن نسمعها.

قلت: وما الكلام الموضوعي في هذا؟

قال: الموضوعية العلمية تتطلب استقراء واقع البشرية في عصر محمد، لنرى بموضوعية تامة الحالة التي كانت تعيشها، والدواء الذي كانت تبحث عنه.

قلت: فهل تسمح لي بالحديث عن ذلك؟

قال: لا يسرني إلا ذلك.. تعال معي إلى البيت.. فمثل تلك التفاصيل لا يمكن أن نتحدث عنها ونحن واقفون.

١ ــ أمراض الجاهلية

دخلت إلى بيته الذي لا يختلف في تصميمه الداخلي عن البيوت العربية، وقد فرش على أرضه زرابي عربية رأيتها في رحلتي إلى بلاد الشام.

أحضر لي (توماس) الشاي، وأحضر لي معه مجموعة خرائط، وقال: في هذه الخرائط، ستتعرف على العالم القديم.. وكيف كان حاله وقت بعثة محمد.

ولتكون دراستنا موضوعية.. فسنبحث عن جانبين لا مناص لمن يريد أن يعرف الخلاص الذي جاء به محمد من أن يبحث فيهما.

قلت: ما هما؟

قال: الحضارات.. والديانات.

قلت: ما وجه الحصر في ذلك؟

قال: الحضارات تنبئ عما وصل إليه الفكر البشري من البحث عن خلاص البشر.

قلت: والديانات؟

قال: هي الوحي الإلهي المترل لإنقاذ البشر.

قلت: أفلم يكن في كل الحضارات والديانات المنتشرة في ذلك الوقت ما يحمل سر الخلاص؟

قال: لنرى ذلك.. تعال بنا نطبق ما ذكرناه من القواعد في هذا المجال.

١ ــ حضارات

قلت: أجل.. ولنبدأ بالحضارات[1].

الحضارة الرومانية:

أشار إلى بقعة كبيرة من الأرض، وقال: هذه هي حدود الدولة الرومانية.. وفي هذه البقعة الواسعة نشأ ما يسمى بالحضارة الرومانية.

التفت إلي، وقال: لاشك أن اسمها يقرع الأذن بهيبة عظيمة.

قلت: ذلك صحيح.. فالدولة الرومانية دولة ترمز إلى القوة والشباب والحياة.

---

(١) رجعنا في وصف الحضارات والديانات المعاصرة لبعثة رسول الله ﷺ إلى كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) لأبي الحسن الندوي، فهو المرجع الذي رجع له الكثير في هذا الباب، وقد رجع هو بدوره إلى مراجع مختلفة عربية وإنجليزية.

ونحب أن ننبه هنا إلى أن أكثر مراجعنا في هذا الكتاب هي ما يطلق عليه الكثير (الكتب الفكرية) ككتب سيد قطب ومحمد قطب وأبي الأعلى المودودي ومحمد الغزالي ويوسف القرضاوي والشهيد الصدر، وغيرهم.. بالإضافة إلى كتب المستشرقين المتعلقة بالإسلام والحضارة الإسلامية.. بالإضافة إلى الكتب المؤرخة للأفكار والأديان والمذاهب، وخاصة (الموسوعة اليهودية) للمسيري، فهي من أوثق المراجع العلمية في هذا الباب.

قال: وترمز إلى الاستبداد والانحلال والتجبر.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد بلغ الاستبداد غايته في الدولة الرومانية، فعلى كثرة مصائب الرعية ازدادت الإتاوات، وتضاعفت الضرائب، حتى أصبح أهل البلاد يتذمرون من الحكومات، ويبغضونها بغضا شديداً، بل ويفضلون عليها كل حكومة أجنبية، وقد حدثت لذلك اضطرابات عظيمة وثورات.

لقد هلك عام ٥٣٢ في الاضطراب ثلاثون ألف شخص في العاصمة، وعلى شدة الحاجة إلى الاقتصاد في الحياة أسرف الناس فيه، ووصلوا في التبذل إلى أحط الدركات.. بل أصبح الهم الوحيد اكتساب المال من أي وجه، ثم إنفاقه في الترف وإرضاء الشهوات.

لقد ذابت أسس الفضيلة، وانهارت دعائم الأخلاق، حتى صار الناس يفضلون العزوبة على الحياة الزوجية ليقضوا مآربهم في حرية.

وكان العدل كما يقول (سيل) يباع ويساوم مثل السلع، وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع.

لقد قال (جيبون) يصف كل ذلك:« وفي آخر القرن السادس وصلت الدولة في ترديها وهبوطها إلى آخر نقطة، وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة كانت أمم العالم في حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف، ولم يبق منها إلا الجذع الذي لا يزداد كل يوم إلا ذبولاً »[1]

ويقول مؤلفو (تاريخ العالم للمؤرخين﴾ (Historian's History of the World):« إن المدن العظيمة التي أسرع إليها الخراب ولم تسترد مجدها وزهرتها أبداً، تشهد بما أصيبت به الدولة البيزنطية في هذا العهد من الانحطاط الهائل الذي كانت نتيجته المغالاة في المكوس والضرائب والانحطاط في التجارة، وإهمال الزراعة، وتناقص العمران في البلدان»[2]

أما المجتمع الروماني، فقد كان مليئا بالتناقض والاضطرابات، وقد صور حاله صاحب كتاب (الحضارة ماضيها وحاضرها) بقوله:« كان هناك تناقض هائل في الحياة الاجتماعية للبيزنطيين، فقد رسخت الترعة الدينية في أذهانهم، وعمت الرهبانية، وشاعت في طول البلاد وعرضها، وأصبح الرجل العادي في البلاد يتدخل في الأبحاث الدينية العميقة، والجدل البيزنطي، ويتشاغل بها، كما طبعت الحياة العادية العامة بطابع المذهب الباطني، ولكن نرى هؤلاء ــ في جانب آخر ــ حريصين أشد الحرص على كل نوع من أنواع اللهو واللعب، والطرب والترف، فقد كانت هناك ميادين رياضية واسعة تتسع لجلوس ثمانين ألف شخص، يتفرجون فيها على مصارعات بين الرجال والرجال أحيانًا، وبين الرجال والسباع أحيانًا أخرى، وكانوا يقسمون الجماهير في لونين: لون أزرق ولون أخضر، لقد كانوا يحبون الجمال، ويعشقون العنف والهمجية، وكانت ألعابهم دموية

---

(١) The History of Decline and Fall of the Roman Empire V. ٢ P. ١٣.

(٢) Historian's History of the World V. VII p. ١٧٥.

ضارية أكثر الأحيان، وكانت عقوبتهم فظيعة تقشعر منها الجلود، وكانت حياة سادتهم وكبرائهم عبارة عن المجون والترف، والمؤامرات والمجاملات الزائدة، والقبائح والعادات السيئة »

بالإضافة إلى هذا، فقد كان الرومان متجبرين غاية التجبر، عنصريين غاية العنصرية، لقد كان المبدأ الأساسي الذي يجتمعون عليه، ويجمعون عليه هو تقديس الوطن الرومي، والشعب الرومي.

و لم تكن الأمم والبلاد التي كانت تسيطر عليها الدولة الرومانية[1] إلا خادمة لمصلحتها، وعروقاً يجري منها الدم إلى مركزها.. فلهذا كانت الدولة الرومانية تستهين بكل حق ومبدأ، وتدوس كل شرف وكرامة، وتستحل كل ظلم وشنيعة، لا يمنعها من ذلك الحيف والظلم اشتراك في دين وعقيدة، ولا إخلاص ووفاء للملكة.

يقول الدكتور الفرد. ج. بتلر عن الحكم الروماني في مصر:« إن حكومة مصر (الرومية) لم يكن لها إلا غرض واحد، وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين، و لم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم في الحياة أو تهذيب نفوسهم أو إصلاح أمور أرزاقهم، فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد إلا على القوة ولا يحس بشيء من العطف على الشعب المحكوم»[2]

ويقول مؤرخ عربي شامي عن الحكم الروماني في الشام:« كانت معاملة الروماني للشاميين بادئ ذي بدء عادلة حسنة مع ما كانت عليه مملكتهم في داخليتها من المشاغب والمتاعب، ولما شاخت دولتهم انقلبت إلى أتعس ما كانت عليه من الرق والعبودية، و لم تضف رُومية بلاد الشام مباشرة و لم يصبح سكانها وطنيين رومانيين، ولا أرضهم أرضاً رومانية، بل ظلوا غرباء ورعايا، وكثيراً ما كانوا يبيعون أبنائهم ليوفوا ما عليهم من الأموال، وقد كثرت المظالم والسخرات والرقيق، وبهذه الأيدي عمر الرومان ما عمروا من المعاهد والمصانع في الشام »[3]

ويقول:« حكم الرومان الشام سبعمائة سنة بدأ معهم في البلاد النزاع والشقاق والاستبداد والأنانية وقتل الأنفس، وحكم اليونان الشام ٣٦٩ سنة سادت في عهدهم الحروب الطاحنة والمظالم وظهرت المطامع اليونانية بأعظم مظاهرها وكان حكمهم من أشد الويلات وأشأم النكبات على الأمة الشامية »[4]

وقد كان ذلك السلوك العنصري المتجبر هو سبب سقوط الدولة الرومانية، يقول (Robert Briffault) عند ذكره لسبب سقوط الدولة الرومانية:« لم يكن سبب انقراض الدولة الرومية وسقوطها الأساسي الفساد الزائد (كالرشوة وغيرها) بل كان الفساد والشر وعدم المطابقة بالواقع مما صحب نشوء هذه الدولة من أول

---

(١) كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية تعرف بالإمبراطورية البيزنطية، وكانت تحكم دول اليونان والبلقان وآسيا وسوريا وفلسطين وحوض البحر المتوسط بأسره، ومصر وكل إفريقيا الشمالية، وكانت عاصمتها القسطنطينية.

(٢) فتح العرب لمصر للدكتور الفرد.ج. بتلر، تعريب محمد فريد أبو حديد.

(٣) خطط الشام للأستاذ كرد علي: ١ / ١٠١.

(٤) خطط الشام للأستاذ كرد علي: ١ / ١٠٣.

يومها وتغلغل في أحشائها، إن كل مؤسسة بشرية تقوم على أساس زائف منها ولا تستطيع أن تنقذ نفسها بذكاء أو نشاط، ولما كان الفساد مما قامت عليه هذه الدولة فكان لا بد أن تبيد يوماً وتنهار، لقد رأينا أن الدولة الرومية إنما كانت وسيلة لرفاهية طبقة صغيرة على حساب الجماهير الذين كانت هذه الطبقة تستغلهم وتمتص دمائهم، لقد كانت التجارة تسير في رومة بأمانة وعدل، وقد كان ذلك مما طبعت عليه هذه الدولة، وقد كانت فائقة في قوة الحكم والقضاء، وفي الكفاءة، ولكن هذه المحاسن كلها لم تكن لتحفظ الدولة من عواقب الزيف الأساسي والخطأ»[١]

أما المجتمع الروماني، فقد كان مجتمعا طبقيا كسائر المجتمعات في ذلك الزمان، يقول (Robert Briffault) عن النظام الطبقي في الدولة الرومية:« مما جرت العادة أنه إذا أصيبت مؤسسة اجتماعية بالزوال والانحطاط لا يرى القائمون عليها حيلة إلا أن يمنعوها من الحركة والتطور، لذلك كان المجتمع الرومي (في عهد الانحطاط) خاضعاً لنظام طبقي جائر يرزح تحته، وما كان لأحد في هذا المجتمع أن يغير حرفته، وكان لا بد للابن أن يتخذ حرفة أبيه »[٢]

الحضارة الفارسية:

أشار (توماس) إلى بقعة أخرى في خارطة العالم القديم، وقال: هذه هي إيران، أو بلاد فارس، وهي الدولة التي شاطرت الروم حكم العالم المتمدن.

قلت: إنها ترمز للفنون الراقية، وللكثير من الآداب والفلسفات.

قال: وهي كذلك ترمز للانحلال الخلقي والفساد الفكري والاستبداد السياسي:

لقد كان أساس الأخلاق متزعزعاً مضطرباً في تلك البلاد منذ عهد عريق في القدم، ولم تزل المحرمات النسبية التي تواضعت على حرمتها ومقتها طبائع أهل الأقاليم المعتدلة موضع خلاف ونقاش، حتى إن يزدجرد الثاني الذي حكم في أواخر القرن الخامس الميلادي تزوج بنته ثم قتلها، وأن بهرام جوبين الذي تملك في القرن السادس كان متزوجاً بأخته[٣].

يقول البروفسور (أرتهر كرستن سين) أستاذ الألسنة الشرقية في جامعة كوبنهاجن بالدنمارك المتخصص في تاريخ إيران في كتابه (إيران في عهد الساسانيين):« إن المؤرخين المعاصرين للعهد الساساني مثل (جاتهياس) وغيره، يصدقون بوجود عادة زواج الإيرانيين بالمحرمات، ويوجد في تاريخ العهد الساساني أمثلة لهذا الزواج، فقد تزوج بهرام جوبين وتزوج جشتسب قبل أن يتنصر بالمحرمات، ولم يكن يعد هذا الزواج معصية عند الإيرانيين، بل كان عملاً صالحاً يتقربون به إلى الله، ولعل الرحالة الصيني (هوئن سوئنج) أشار إلى هذا الزواج

---

(١) The Making of Humanity, by Robert Briffault p ١٥٩.

(٢) The Making of Humanity p ١٦٠..

(٣) تاريخ الطبري:٣ / ٣٨.

بقوله: إن الإيرانيين يتزوجون من غير استثناء »[1]

قلت: ولكني أعلم أن بلاد فارس هي التي أنجبت ماني في القرن الثالث المسيحي، وقد كان داعية إلى الزهد في النساء، فكيف تذكر هذا الانحلال؟

قال: لقد كان ظهور ماني رد فعل عنيف ضد النزعة الشهوية السائدة في البلاد، ولكنه كان يحمل مع ذلك أفكارا لا تتناسب مع الطبيعة البشرية، لقد دعا إلى حياة العزوبة لحسم مادة الفساد والشر من العالم، وأعلن أن امتزاج النور بالظلمة شر يجب الخلاص منه، فحرَّم الزواج استعجالاً للفناء وانتصاراً للنور على الظلمة بقطع النسل.

ولكنه لم يدم طويلا، لقد قتله بهرام سنة ٢٧٦م قائلاً:« إن هذا خرج داعياً إلى تخريب العالم، فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسه قبل أن يتهيأ له شيء من مراده »[2]

في مقابل هذه الدعوة المتطرفة ظهرت دعوة مزدك الذي ولد عام ٤٨٧ م، وأعلن أن الناس ولدوا سواء لا فرق بينهم، فلذلك ينبغي أن يعيشوا سواء لا فرق بينهم، ولما كان المال والنساء مما حرصت النفوس على حفظه وحراسته كان ذلك عند مزدك أهم ما تجب فيه المساواة والاشتراك [3].

وقد حظيت هذه الدعوة بموافقة الشبان والأغنياء والمترفين.. بل، وفوق ذلك سعدت بحماية البلاط، فأخذ قباذ بناصرها، ونشط في نشرها وتأييدها حتى انغمست إيران بتأثيرها في الفوضى الخلقية وطغيان الشهوات.

يقول الطبري عن ذلك:« افترض السّفلة ذلك، واغتنموا وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم، فابتلى الناس بهم وقوي أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم، وحملوا قباذ على تزيين ذلك وتوعدوه بخلعه، فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه ولا يملك شيئاً مما يتسع به »[4] إلى أن قال:« ولم يزل قباذ من خيار ملوكهم حتى حملة مزدك على ما حمله عليه، فانتشرت الأطراف وفسدت الثغور»

بالإضافة إلى هذا الانحلال الخلقي كان هناك انحلال آخر لا يقل خطرا.. كان هو سبب ذلك الاستبداد الذي عانى منه الفرس، ومن حكمهم الفرس.

كان الأكاسرة هم ملوك فارس، وكانوا يدَّعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي، وكان الشعب يعتقد بأن في طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً، فلذلك كانوا يقدمون لهم القرابين، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم، ويرونهم فوق القانون، وفوق الانتقاد، وفوق البشر، ولا يجري اسمهم على لسانهم، ولا يجلس أحد في مجلسهم، ويعتقدون أن لهم حقاً على كل إنسان، وليس لإنسان حق عليهم، وأن ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعيمهم

(١) إيران في عهد الساسانيين، ترجمة الدكتور محمد إقبال من الفرنسية إلى الأردية ص ٤٣٩.

(٢) لكن تعاليمه لم تمت بموته، بل عاشت إلى ما بعد الفتح الإسلامي.

(٣) الملل والنحل للشهرستاني:١ / ٨٦.

(٤) تاريخ الطبري:٢ / ٨٨.

إنما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق، وليس للناس قِبلهم إلا السمع والطاعة.

ثم زادوا الطين بلة حين خصصوا بيتاً معيناً، وهو البيت الكياني، فكانوا يعتقدون أن لأفراده وحدهم الحق أن يلبسوا التاج ويجبوا الخراج، وهذا الحق ينتقل فيهم كابراً عن كابر وأباً عن جد لا ينازعهم ذلك إلا ظالم، ولا ينافسهم إلا دعي، فكانوا يدينون بالملك والوراثة في البيت المالك لا يبغون به بدلاً، ولا يريدون عنه محيصاً، فإذا لم يجدوا من هذه الأسرة كبيراً ملكوا عليهم طفلاً، وإذا لم يجدوا رجلاً ملكوا عليهم امرأة، فقد ملكوا بعد شيرويه ولده أزدشير وهو ابن سبع سنين، وملك فرُّخ زاد خسروا ابن كسرى أبرويز وهو طفل، وملكوا بوران بنت كسرى، وملكت كذلك ابنة كسرى ثانية يقال لها أزرمي دخت[1].

وقد جرهم هذا إلى عنصرية اجتماعية خطيرة.. يقول البروفسور أرثرسين:« كان المجتمع الإيراني مؤسساً على اعتبار النسب والحِرف، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه، ولا يستشرف لما فوقه، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفة من وظائفهم، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع »[2]

ولكنهم كانوا مع كل هذا، مثل الرومان يغالون في تمجيد القومية الفارسية، ويرون أن لها فضلاً على سائر الأجناس والأمم، وأن الله قد خصها بمواهب ومنح لم يشرك فيها أحداً، وكانوا ينظرون إلى الأمم حولهم نظرة ازدراء وامتهان، ويلقبونها بألقاب فيها الاحتقار والسخرية.

هذا عن النظام الاجتماعي أما النظام المالي، فقد كان لا يختلف جوره عن كل أنظمة الدنيا في ذلك الوقت، يقول (أرثر كرستن سين):« كان الجباة لا يتحرزون من الخيانة واغتصاب الأموال في تقدير الضرائب وجباية الأموال، ولما كانت الضرائب تختلف كل سنة وتزيد وتنقص لم يكن دخل الدولة وخرجها مقدرين مضبوطين، وقد كانت الحرب تنشب في بعض الأحيان وليست عند الدولة أموال تنفقها على الحرب، فكان يلجئها ذلك إلى ضرائب جديدة، وكانت المقاطعات الغربية الغنية ــ وخاصة بابل ــ هدف هذه الضرائب دائماً »[3]

ولهذا، فقد كان التفاوت عظيما بين مختلف الطبقات في هذه الناحية:

---

(١) انظر: تاريخ الطبري وتاريخ إيران لمكاريوس..

(٢) إيران في عهد الساسانيين: ٤٢١.

(٣) إيران في عهد الساسانيين: ١٦١.

فبينما كان ملوك إيران يكتنزون النقود، ويدخرون الطرف الغالية[1]، كان الفقراء يعيشون حياة الفقر المدقع، يقول (أرثر كرستن سين) عن أخصب عهد من عهود إيران، وعن أعدل ملك من ملوكها، وهو كسرى أنوشروان:« إن ما قام به كسرى من إصلاح النظام المالي كان في مصلحة مالية المملكة أكبر منه في مصلحة الرعية، فلم تزل العامة يعيشون في الجهل والضنك كما كانوا في السابق، وما شاهد الفلاسفة البيزنطيون من فوارق نسبية بين طبقات المجتمع والفصل الشاسع بينها والبؤس الذي كان يعش فيه رجال الطبقات المنحطة أقلق خاطرهم وانتقدوا المجتمع الفارسي بقولهم: إن الأقوياء فيه يقهرون الضعفاء ويعاملونهم بظلم وبقسوة شديدة »[2]

أما الفلاحون، فقد أثقلت الضرائب المتنوعة المتجددة كاهلهم حتى ترك كثير من المزارعين أعمالهم، أو دخلوا الأديرة فراراً من الضرائب والخدمة العسكرية لأمة لا يحبونها أو لغرض لا يتحمسون له وفشت في الناس البطالة والجنايات وطرق غير شرعية للكسب.

يقول (أرثر كرستن سين):« كان الفلاحون في شقاء وبؤس عظيم، وكانوا مرتبطين بأراضيهم، وكانوا يُستخدمون مجاناً ويكلفون كل عمل »[3]

ويقول المؤرخ (اميان مارسيلينوس):« إن هؤلاء الفلاحين البؤساء كانوا يسيرون خلف الجيوش مشاة كأنه قد كتب عليهم الرق الدائم، و لم يكونوا ينالون إعانة أو تشجيعاً من راتب أو أجرة »

الهند:

---

(١) نقل خسرو الثاني في المدائن أمواله إلى بناية أحدثها سنة ٦٠٧- ٦٠٨م، وكان ما نقله ٤٦٠ مليون وثمانية ملايين مثقال ذهب، وذلك ما يساوي ٣٧٠ مليون وخمسة ملايين فرنك ذهبي، وفي العام الثالث عشر من جلوسه على العرش كان في خزانته ٨٠٠ مليون مثقال ذهب. (انظر: إيران في عهد الساسانيين ص ٦١١)

وقد ذكر المؤرخون أنه كان لكسرى أبرويز ١٢ ألف امرأة وخمسون ألف جواد وشيء لا يحصى من أدوات الترف والقصور الباذخة ومظاهر الثروة والنعمة، وقصره مثال في الأبهة والغنى، يقول مكاريوس:« لم يرو في التاريخ أن مليكاً بذخ وتنعم مثل الأكاسرة الذين كانت تأتيهم الهدايا والجرايات من كل البلدان الواقعة ما بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى، ولما خرجوا من العراق في الفتح الإسلامي تركوا في الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفضول والألطاف والأدهان ما لا يدرى ما قيمته »

وقد وجد العرب قبابا تركية مملوءة سلالاً مختمة بالرصاص، قال العرب: فما حسبناها إلا طعاماً فإذا هي آنية الذهب والفضة (تاريخ الطبري)

وقد وصف المؤرخون العرب بهار كسرى الذي أصابه المسلمون يوم المدائن فقالوا:« هو ستون ذراعاً في ستين ذراعاً، بساط واحد مقدار جريب، أرضه بذهب ووشيه بفصوص وثمره بجوهر وورقه بحرير وماء الذهب فيه طرق كالصور وفصوص كالأنهار، وخلال ذلك كالدير، وفي حافاته كالأرض المزروعة، والأرض المبقلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب، ونواره بالذهب والفضة وأشباه ذلك، وكانوا يعدونه للشتاء، إذا ذهبت الرياحين، فكانوا إذا أرادوا الشرب شربوا عليه فكأنهم في رياض (تاريخ الطبري:٤/١٧٨)

(٢) إيران في عهد الساسانيين ص ٥٩٠.

(٣) إيران في عهد الساسانيين: ٤٢٤.

أشار (توماس) إلى بقعة أخرى في خارطة العالم القديم، وقال: هذه هي الهند.

قلت: إنها معدن الحكمة، وينبوع العدل والسياسة، وأهل الأحلام الراجحة، والآراء الفاضلة.. هكذا وصفها صاعد الأندلسي في طبقات الأمم.

قال: ولكنها كانت في العهد الذي جاء فيه محمد على حافة الهاوية، كانت كتلك الشجرة الذابلة التي رزقها الله إكسير الحياة.

لقد اتفقت كلمة المؤرخين على أن أحط أدواره الهند ديانة وخلقاً واجتماعاً ذلك العهد الذي يبتدئ من مستهل القرن السادس الميلادي، أي في العهد الذي تزامن مع مجيء محمد[١].

لقد اشتركت الهند مع جاراتها وشقيقاتها في التدهور الخلقي والاجتماعي، الذي شمل الأرض جميعا في ذلك الزمن.. وأخذت نصيباً غير منقوص من هذا الظلام الذي مد رواقه على المعمورة.

لقد كان النظام الاجتماعي السائد هو نظام الطبقات الجائر المبالغ في جوره.. بل لم يعرف في تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي أشد قسوة، وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة، وأشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذي اعترفت به الهند دينياً ومدنياً، وخضعت له آلافاً من السنين.

وقد بدت طلائع التفاوت الطبقي في آخر العهد الويدي بتأثير الحرف والصنائع وثوراتها، وبحكم المحافظة عل خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجابتها.

وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي، وألف فيه قانون مدني وسياسي اتفق عليه البلاد وأصبح قانوناً رسمياً ومرجعاً دينياً في حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن بـــ (منوشاستر)

يقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقات ممتازة وهي البراهمة، وهي طبقة الكهنة ورجال الدين.. وشتري رجال الحرب.. وويش رجال الزراعة والتجارة.. وشودر رجال الخدمة.

يقول (منو) مؤلف هذا القانون:« إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه، وشتري من سواعده، وويش من أفخاذه، والشودر من أرجله، ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم، فعلى البراهمة تعليم ويد، أو تقديم النذور للآلهة، وتعاطي الصدقات، وعلى الشتري حاسة الناس والتصدق وتقديم النذور ودراسة (ويد) والعزوف عن الشهوات، وعلى ويش رعي السائمة والقيام بخدمتها وتلاوة ويد والتجارة والزراعة، وليس لشودر إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث »[٢]

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً ألحقتهم بالآلهة، فقد ذكر أن البراهمة هم صفوة الله، وهم ملوك الخلق، وإن ما في العالم هو ملك لهم، فإنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم شودر من غير جريرة ما شاءوا، لأن العبد لا يملك شيئاً وكل ماله لسيده.

---

(١) انظر هذه التفاصيل في (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)

(٢) منوشاستر: الباب الأول.

ونص هذا القانون على أن البرهمي الذي يحفظ رك ويد (الكتاب المقدس) هو رجل مغفور له، ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله، ولا يجوز للملك حتى في أشد ساعات الاضطرار والفاقة أن يجبي من البراهمة جباية أو يأخذ منهم إتاوة، ولا يصح لبرهمي في بلاده أن يموت جوعاً، وإن استحق برهمي القتل لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه، أما غيره فيقتل.

أما الشتري، فإن كانوا فوق الطبقتين (ويش وشودر)، ولكنهم دون البراهمة بكثير.. يقول (منو):« إن البرهمي الذي هو في العاشرة من عمره يفوق الشتري الذي ناهز مائة كما يفوق الوالد ولده »[1]

أما شودر (المنبوذون)، فكانوا في المجتمع الهندي ـــ بنص هذا القانون المدني الديني ـــ أحط من البهائم وأذل من الكلاب، فيصرح القانون بأن من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك، وليس لهم أن يقتنوا مالاً أو يدخروا كنزاً فإن ذلك يؤذي البراهمة، وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمي يداً أو عصاً ليبطش به قطعت يده، وإذا رفسه في غضب فدعت رجله، وإذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهمياً، فعلى الملك أن يكوي إسته وينفيه من البلاد، وأما إذا مسه بيد أو سبه فيقتلع لسانه، وإذا ادعى أنه يعلمه سقي زيتاً فائراً، وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء.

أما المرأة.. فقد نزلت في هذا المجتمع منزلة الإماء، وكان الرجل قد يخسر امرأته في القمار، وكان في بعض الأحيان للمرأة عدة أزواج، فإذا مات زوجها صارت كالموءودة لا تتزوج، وتكون هدف الإهانات والتجريح، وكانت أمة بيت زوجها المتوفى وخادم الأحماء وقد تحرق نفسها على إثر وفاة زوجها تفادياً من عذاب الحياة وشقاء الدنيا.

الصين:

أشار (توماس) إلى بقعة أخرى في خارطة العالم القديم، وقال: هذه هي الصين.

قلت: إنها بلد كونفوشيوس أبو الحكمة ومعلمها.

قال: لقد كانت في ذلك الوقت ميدانا للرعية الذليلة والحاكم المستبد كسائر أمم الدنيا.

لقد كانت الرعية تسمي ملكها الإمبراطور ابن السماء، وتعتقد أن السماء ذكر، والأرض أنثى.

وكان الإمبراطور ختا الأول هو بكر هذين الزوجين، وكان يعتبر كالأب الوحيد للأمة، له أن يفعل ما يشاء، وكانوا يقولون له:« أنت أبو الأمة وأمها »

ولما مات الإمبراطور (لي يان) أو (تاي تسونغ) لبست الصين ثوب الحداد، وحزنت عليه حزناً شديداً، فمنها من أثخن وجهه بالإبر، ومن قطع شعره، ومن ضرب أذنيه بجانب النعش.

مصر:

أشار (توماس) إلى بقعة أخرى في خارطة العالم القديم، وقال: هذه هي مصر.

---

(١) منوشاستر الباب الحادي عشر.

قلت: إنها بلد النيل السعيد، والخير الكثير، والحضارة العظيمة.

قال: ولكنها كانت تعيش في ذلك العهد أسوأ أيام حياتها[1].. لقد كانت في القرن السابع من أشقى بلاد الله بالمسيحية، وبالدولة الرومية معاً، أما الأولى فلم تستفد منها إلا خلافات ومناظرات في طبيعة المسيح، وفي فلسفة ما وراء الطبيعة والفلسفة الألهية، وقد ظهرت في القرن السابع في شر مظاهرها، وأنهكت قوى الأمة العقلية، وأضعفت قواها العملية.

وأما الأخرى فلم تلق منها إلا اضطهاداً دينياً فظيعاً واستبداداً سياسياً شنيعاً تجرعت في سبيلهما من المرائر في عشر سنين ما ذاقته أوربا في عهد التفتيش الديني في عقود من السنين، فألهاها ذلك عن كل وطر من أوطار الحياة، وعن كل مهمة شريفة من مهمات الدين والروح، فلا هي تتمتع بالحرية السياسية رغم كونها مستعمرة رومية، ولا هي تتمتع بالحرية الدينية والعقلية، رغم كونها مسيحية.

يقول الدكتور غوستاف لوبون في كتابه المعروف (حضارة العرب):« ولقد أكرهت مصر على انتحال المسيحية، ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر التي كانت مسرحاً للاختلافات الدينية الكثيرة في ذلك الزمن، وكان أهل مصر يقتتلون ويتلاعنون بفعل تلك الاختلافات، وكانت مصر التي أكلتها الانقسامات الدينية، وأنهكها استبداد الحكام تحقد أشد الحقد على سادتها الروم، وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين »[2]

ويقول الدكتور الفرد.ج. بتلر في كتابه (فتح العرب لمصر):« فالحق أن أمور الدين في القرن السابع كانت في مصر أكبر خطراً عند الناس من أمور السياسة، فلم تكن أمور الحكم هي التي قامت عليها الأحزاب، واختلف بعضها عن بعض فيها، بل كان كل الخلاف على أمور العقائد والديانات، ولم يكن نظر الناس إلى الدين أنه المعين يستمد منه الناس ما يعينهم على العمل الصالح، بل كان الدين في نظرهم هو الاعتقاد المجرد في أصول معينة، فكان اختلاف الناس ومناظراتهم العنيفة كلها على خيالات صورية من فروق دقيقة بين المعتقدات، وكانوا يخاطرون بحياتهم في سبيل أمور لا قيمة لها، وفي سبيل فروق في أصول الدين وفي فلسفة ما وراء الطبيعة يدق فهمها، ويشق إدراكها »[3]

وفوق هذا، فقد اتخذها الروم مصر شاة حلوباً يستترفون مواردها، ويمتصون دماءها، يقول ألفرد:« إن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس وضرائب أخرى كثيرة العدد.. مما لاشك فيه أن ضرائب الروم كانت فوق الطاقة، وكانت تجري بين الناس على غير عدل »[4]

ويقول مؤلفو (تاريخ العالم للمؤرخين):« إن مصر كانت تضيف إلى مالية الدولة البيزنطية مجموعاً كبيراً

---

(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

(٢) حضارة العرب، تعريب عادل زعيتر: ٣٣٦.

(٣) فتح العرب لمصر:٤٧.

(٤) فتح العرب لمصر:٤٧.

من حاصلها ومنتجاتها، وكانت طبقات الفلاحة المصرية – مع حرمانها من كل قوة سياسية ومن كل نفوذ – مرغمة على أداء الخرج للدولة الرومية ككراء الأرض فضلاً عن الضرائب، وكانت ثروة مصر في هذا العهد إلى الانتقاص والانحطاط »[١]

وهكذا اجتمع لمصر من الاضطهاد الديني، والاستبداد السياسي والاستغلال الاقتصادي ما شغلها بنفسها، وكدر عليها صفو حياتها، وألهاها عن كل مكرمة.

أوروبا:

أشار (توماس) إلى بقعة أخرى في خارطة العالم القديم، وقال: هذه هي أوروبا، وهذه بالتحديد أقاليمها الشمالية الغربية.

قلت: أوروبا بلد الحضارة الراقية والطبيعة الفاتنة.. إنها بلادنا التي غذونا من لبانها.

قال: لقد كانت ــ في ذلك الحين ــ تتسكع في ظلام الجهل المطبق، والأمية الفاشية، والحروب الدامية، لم ينبثق فيها فجر الحضارة والعلم بعد، و لم تظهر على مسرحها الأندلس لتؤدي رسالتها في العلم والمدنية، و لم تصهرها الحوادث، وكانت بمعزل عن جادة قافلة الحضارة الإنسانية بعيدة عنها، لا تعرف عن العالم ولا يعرف العالم المتمدن عنها إلا قليلاً، و لم تكن ــ مما يجري في الشرق والغرب مما يغير وجه التاريخ ــ في عير ولا نفير، وكانت بين مسيحية وليدة، ووثنية شائبة، و لم تكن بذات رسالة في الدين، ولا بذات راية في السياسة.

يقول هـــ. ج. ويلز:« و لم تكن في أوربا الغربية في ذلك العهد أمارات الوحدة والنظام »[٢]

ويقول (Robert Briffault):« لقد أطبق على أوربا ليل حالك من القرن الخامس إلى القرن العاشر، وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً، قد كانت همجية ذلك العهد أشد هولاً وأفظع من همجية العهد القديم، لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت، وقد انطمست معالم هذه الحضارة وقضي عليها بالزوال، وقد كانت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها هذه الحضارة وبلغت أوجها في الماضي، كإيطاليا وفرنسا، فريسة الدمار والفوضى والخراب »[٣]

آسيا الوسطى:

أشار (توماس) إلى بقعة أخرى في خارطة العالم القديم، وقال: هذه آسيا الوسطى وهذا بالتحديد شرقها.

قلت: إنها بلد المغول والترك واليابانيين.

قال: لقد كانت هذه الشعوب ــ في ذلك الوقت ــ بين بوذية فاسدة، ووثنية همجية، لا تملك ثروة علمية، ولا نظاماً سياسياً راقياً، إنما كانت في طور الانتقال من عهد الهمجية إلى عهد الحضارة، ومنها شعوب لا تزال في طور البداوة والطفولة العقلية.

---

(١) Historian's History of the World , V. VII p. ١٧٣.

(٢) A Short History of the World.H. G. Wels

(٣) The Making of Humanity, Robert Briffault P. ١٦٤.

العرب:

أشار (توماس) إلى بقعة أخرى في خارطة العالم القديم، وقال: هذه هي بلاد العرب، وهذه هي جزيرتهم.

قلت: إنها بلاد محمد، وقد امتازوا ـــ في ذلك الحين ـــ بأخلاق كادوا يتفردون بها، كالفصاحة وقوة البيان وحب الحرية والأنفة والفروسية والشجاعة والحماسة في سبيل العقيدة والصراحة في القول وجودة الحفظ وحب المساواة وقوة الإرادة والوفاء والأمانة.

قال: لكنهم ـــ في ذلك الحين أيضا ـــ ولشدة تمسكهم بدين آبائهم وتقاليد أمتهم أصيبوا بانحطاط ديني شديد، ووثنية سخيفة، قلما يوجد لها نظير في الأمم المعاصرة لهم.

بالإضافة إلى ذلك، فقد كان فيهم أدواء كثيرة متأصلة:

لقد كان شرب الخمر واسع الشيوع، شديد الرسوخ فيهم، يتحدث عن معاقرتها والاجتماع على شربها الشعراء، وقد شغلت جانباً كبيراً من شعرهم وتاريخهم وأدبهم، وكثرت أسماؤها وصفاتها في لغتهم، وكثر فيها التدقيق والتفصيل كثرة تدعو إلى العجب، وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائماً.

قال قتادة: كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقعد حزيناً سلبياً ينظر إلى ماله في يد غيره، فكانت تورث بينهم عداوة وبغضاً.

وكان أهل الحجاز، العرب واليهود، يتعاطون الربا، وكان فاشياً فيهم، وكانوا يجحفون فيه ويبلغون إلى حد الغلو والقسوة، قال الطبري: كان الربا في الجاهلية في التضعيف وفي السنين، يكن للرجل فضل دين فيأتيه إذا حلّ الأجل فيقول له: تقضيني أو تزيدني؟ فإن كان عنده شيء يقضيه قضى وإلا حوله إلى السن التي فوق ذلك، إن كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون في السنة الثانية، ثم حُقَّة ثم جَذَعة ثم رباعياً هكذا إلى فوق، وفي العين يأتيه، فإن لم يكن عنده أضعفه في العام القابل وإن لم يكن عنده أضعفه أيضاً فتكون مائة فيجعلها إلى القابل مائتين، فإن لم يكن عنده جعلها أربعمائة يضعفها له كل سنة أو يقضيه »

و لم يكن الزنى نادراً، بل كان غير مستنكر استنكاراً شديداً، فكان من العادات أن يتخذ الرجل خليلات، ويتخذ النساء أخلاء بدون عقد، وكانوا قد يُكرهون بعض النساء على الزنى، قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنى يأخذون أجورهن.

وقد وصفت عائشة زوج محمد أنواع الزواج في ذلك الوقت، فقالت:« إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء، فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته فيصدقها ثم ينكحها، والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان، فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها، ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت، ومرَّ عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطيع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع ممن جاءها، وهن البغايا

كن ينصبن على أبواهن رايات تكون علما، فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لها القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك »[1]

أما المرأة، فقد كانت في ذلك المجتمع عرضة غبن وحيف، تؤكل حقوقها وتُبْتز أموالها، وتُحرم إرثها، وتعضل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجاً ترضاه، وتورث كما يورث المتاع أو الدابة.

لقد ذكر القرآن كل ذلك مصححا له، ففي القرآن:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ (النساء:١٩)

قال ابن عباس في تفسيرها:« كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضُهم تزوجها، وإن شاءوا زَوَّجُوها، وإن شاؤوا لم يُزَوِّجوها، فهم أحق بها من أهلها، فترلت هذه الآية في ذلك »[2]

وقد بلغت كراهة البنات إلى حد الوأد، وقد ذكره القرآن، ففيه:﴿ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ(٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)﴾ (التكوير)، وفيه:﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾ (الاسراء:٣١)

وقد ذكر هيثم بن عدي أن الوأد كان مستعملا في قبائل العرب قاطبة، فكان يستعمله واحد، ويتركه عشرة، فجاء الإسلام، وكانت مذاهب العرب مختلفة في وأد الأولاد، فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهم من أجلهن، ومنهم من كان يئد من البنات من كانت زرقاء أو شيماء (سوداء) أو برشاء (برصاء) أو كسحاء (عرجاء) تشاؤماً منهم بهذه الصفات، ومنهم من كان يقتل أولاده خشية الإنفاق وخوف الفقر، وهم الفقراء من بعض قبائل العرب فكان يشتريهم من بعض سراة العرب وأشرافهم.

وكانت العصبية القبلية والدموية شديدة جامحة، وكان شعارهم في ذلك قولهم (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) فكانوا يتناصرون ظالمين أو مظلومين.

قلت: لقد ورد في حديث محمد هذا الشعار!؟

قال: لقد قاله محمد مصححا له، فقد ورد في الحديث:« انصر أخاك ظالما أو مظلوما »، قيل: كيف أنصره ظالما؟ قال:« تحجزه عن الظلم، فان ذلك نصره »[3]

استأنف توماس حديثه عن طبيعة العرب قائلا: وفوق ذلك كان الحرب والغزو مما طبعت عليه طبيعتهم العربية، وألهمتهم إياه معيشتهم البدوية، حتى صارت الحرب مسلاة لهم، قال قائلهم:

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

لقد هانت عليهم الحرب وإراقة الدماء حتى كانت تثيرها حادثة ليست بذات خطر، فقد وقعت الحرب

---

(١) رواه البخاري وأبو داود.

(٢) رواه البخاري وأبو داود، والنسائي، وابن مَرْدُويه، وابن أبي حاتم.

(٣) رواه أحمد والبخاري والترمذي.

بين بكر وتغلب ابني وائل ومكثت أربعين سنة أريقت فيها دماء غزيرة، وما ذاك إلا لأن كليباً، وهو رئيس معدّ رمى ضلع ناقة البسوس بنت منقذ فاختلط دمها بلبنها، وقتل جساس بن مرة كليباً،واشتبكت الحرب بين بكر وتغلب، وكان كما قال المهلهل أخو كليب:« قد فني الحيان وثكلت الأمهات ويتم الأولاد دموع لا ترقأ وأجساد لا تدفن »

ومثل ذلك حرب داحس والغبراء، فما كان لها من سبب سوى أن داحساً فرس قيس بن زهير كان سابقاً في رهان بين قيس بن زهير وحذيفة بن بدر، فعارضه أسدي بإيعاز من حذيفة، فلطم وجهه وشغله ففاتته الخيل، وتلا ذلك قتل، ثم أخذ بالثأر ونصر القبائل لأبنائها، وأسر ونزح للقبائل، وقتل في ذلك ألوف من الناس.

٢ ـــ ديانات:

التفت إلي توماس، وقال: هذه هي دول العالم.. وتلك هي حضارتها وانحطاطها.. لقد كانت أشبه شيء بتلك الشجرة قبل أن أعالجها بذلك الإكسير.

قلت: والأديان.. أين ذهبت الأديان؟.. وأين ذهب رجالها من الأحبار والرهبان؟

قال: لقد تحول الدين إلى تجارة لا تختلف عن سائر أنواع التجارة..

لقد ذكر القرآن هذا، ففيه:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (التوبة:٣٤)

وقد دفعهم حبهم للمال وتعظيمهم له إلى تحريف الدين من أجله، كما في القرآن:﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة:٧٩)

المسيحية:

قلت: هذا النقد القرآني قد يصح مع اليهود.. ولكنه لا يصح أبدا عن المسيحية التي هي دين الزهاد والرهبان والعباد.

قال: اسمح لي أن أصارحك بموقفي من المسيحية..

قلت: لا بأس.. تحدث كما تشاء.

قال: لم تكن المسيحية في يوم من الأيام أهلا لخلاص الإنسان.

قلت: ما تقول؟.. والمسيحية هي الدين الوحيد في العالم الذي يصيح بالخلاص، ويستعمل مصطلح الخلاص.

قال: الخلاص الذي يصيحون به أقرب إلى الأسطورة منه إلى الحقيقة..

سكت قليلا، ثم قال بأسف[1]: لقد كان في المسيحية أثارة من تعليم المسيح كان يمكنها أن تخلص البشرية،

---

(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، وانظر تفاصيل أخرى في الفصول القادمة.

لكن بولس جاء، فطمس نورها، وطعّمها بخرافات الجاهلية التي انتقل منها والوثنية التي نشأ عليها، وقضى قسطنطين على البقية الباقية، حتى أصبحت المسيحية مزيجاً من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والأفلاطونية المصرية والرهبانية، اضمحلت في جنبها تعليم المسيح البسيطة كما تتلاشى القطرة من اليم، وعادت نسيجاً خشبياً من معتقدات وتقاليد لا تغذي الروح، ولا تمد العقل ولا تشعل العاطفة، ولا تحل معضلات الحياة، ولا تنير السبيل، بل أصبحت بزيادات المحرفين، وتأويل الجاهلين، تحول بين الإنسان والعلم والفكر، وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية.

يقول (Sale) مترجم القرآن إلى الانكليزية عن مسيحيي القرن السادس الميلادي:« وأسرف المسيحيون في عبادة القديسين والصور المسيحية حتى فاقوا في ذلك الكاثوليك في هذا العصر»[1]

ثم ثارت حول الديانة، وفي صميمها مجادلات كلامية، وسفسطة من الجدل العقيم شغلت فكر الشعوب، واستهلكت ذكاءها، وابتلعت فدرتها العملية، وتحولت في كثير من الأحيان حروباً دامية وقتلاً وتدميراً وتعذيباً، وإغارة وانتهاباً واغتيالاً، وحولت المدارس والكنائس والبيوت معسكرات دينية متنافسة، وأقحمت البلاد في حرب أهلية.

وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الديني ما كان بين مسيحيي الشام والدولة الرومية، وبين مسيحيي مصر، أو بين (الملكانية) و (المنوفيسية)

لقد كان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح، وكان المنوفيسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة، وهي الإلهية التي تلاشت فيها طبيعة المسح البشرية، كقطرة من الخل تقع في بحر عميق لا قرار له.

وقد اشتد الخلاف بين الحزبين في القرنين السادس والسابع، حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين، أو كأنه خلاف بين اليهود والمسيحيين، كل طائفة تقول للأخرى:« إنها ليست على شيء »

لقد ذكر القرآن هذا، ففيه:﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (مريم:٣٧)

يقول الدكتور ألفرد. ج. بتلر:« إن ذينك القرنين كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين، نضال يذكيه اختلاف في الجنس واختلاف في الدين، وكان اختلاف الدين أشد من اختلاف الجنس، إذ كانت علة العلل في ذلك الوقت تلك بين الملكانية والمنوفيسية، وكانت الطائفة الأولى ــ كما يدل عليها اسمها ــ حزب مذهب الدولة الإمبراطورية وحزب الملك والبلاد، وكانت تعتقد العقيدة السنية الموروثة، وهي ازدواج طبيعة المسيح، على حين أن الطائفة الأخرى وهي حزب القبط المنوفيسيين ــ أهل مصر ــ كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها، وتحاربها حرباً عنيفة في حماسة هوجاء يصعب علينا أن نتصورها أو نعرف كنهها في قوم يعقلون، بلة يؤمنون بالإنجيل»[2]

---

(١) Sale's Translation, p. ٦٢ (١٨٩٦)

(٢) فتح العرب لمصر، تعريب محمد فريد أبو حديد، ص ٣٧ – ٣٨.

لقد حاول الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١) بعد انتصاره على الفرس سنة ٦٣٨ جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها، وأراد التوفيق بينها، وتقررت صورة التوفيق، وهي أن يمتنع الناس عن الخوض في الكلام عن كنه طبيعة المسيح، وعما إذا كانت له صفة واحدة، أم صفتان، ولكن عليهم بأن يشهدوا بأن الله له إرادة واحدة أو قضاء واحد.

وفي صدر عام ٦٣١ حصل وفاق على ذلك وصار المذهب المنوثيلي مذهباً رسمياً للدولة، ومن تضمهم من أتباع الكنيسة المسيحية، وصمم هرقل على إظهار المذهب الجديد على ما عداه من المذاهب المختلفة له متوسلاً إلى ذلك بكل الوسائل، ولكن القبط نابذوه العداء، وتبرأوا من هذه البدعة والتحريف، وصمدوا له واستماتوا في سبيل عقيدتهم القديمة.

وحاول الإمبراطور مرة أخرى توحيد المذاهب وحسم الخلاف، فاقتنع بأن يقر الناس بأن الله له إرادة واحدة، وأما المسألة الأخرى، وهي نفاذ تلك الإرادة بالفعل، فأرجأ القول فيه، ومنع الناس أن يخوضوا في مناظراتها، وجعل ذلك في رسالة رسمية، وبعث بها إلى جميع جهات العالم الشرقي، ولكن الرسالة لم تهدئ العاصفة في مصر ووقع اضطهاد فظيع على يد قيرس في مصر واستمر عشر سنين، وقع خلالها ما تقشعر منه الجلود، فقد كان الرجال يعذبون ثم يقتلون إغراقاً، وتوقد المشاعل وتسلط نارها عليهم حتى يسيل الدهن على الأرض، ويوضع السجين في كيس مملوء من الرمل ويرمى به في البحر.. إلى غير ذلك من الفظائع.

اليهودية:

قلت: واليهود؟

ابتسم، وقال: ألا تعرف اليهود!؟.. إنهم وباء العالم وسرطانه القاتل، وقد كانوا في ذلك الوقت أضعب الأمم، فقد كانوا عرضة للاضطهاد والاستبداد، والنفي والجلاء، والعذاب والبلاء.

وقد أورثهم تاريخهم الخاص وما تفردوا به بين أمم الأرض من العبودية الطويلة والاضطهاد الفظيع والكبرياء القومية، والإدلال بالنسب، والجشع وشهوة المال وتعاطي الربا، أورثهم كل ذلك نفسية غريبة لم توجد في أمة وانفردوا بخصائص خلقية كانت لهم شعاراً على تعاقب الإعصار والأجيال، منها الخنوع عند الضعف، والبطش وسوء السيرة عند الغلبة، والختل والنفاق في عامة الأحوال، والقسوة والأثرة وأكل أموال الناس بالباطل.

وقد وصفهم القرآن في آيات كثيرة وصفاً دقيقاً عميقاً يصور ما كانوا عليه في القرنين السادس والسابع من تدهور خلقي، وانحطاط نفسي، وفساد اجتماعي، عزلوا بسببه عن قيادة العالم.

وقد تجدد في أوائل القرن السابع من الحوادث ما بغضهم إلى المسيحيين، وبغض المسيحيين إليهم وشوه سمعتهم، ففي السنة الأخيرة من حكم فوكاس (٦١٠ م) أوقع اليهود بالمسيحيين في أنطاكية، فأرسل الإمبراطور قائده (أبنوسوس) ليقضي على ثورتهم، فذهب وأنفذ عمله بقسوة نادرة، فقتل الناس جميعاً، قتلاً بالسيف، وشنقاً وإغراقاً وتعذيباً، ورمياً للوحوش الكاسرة.

وكان ذلك يحصل بين اليهود والمسيحيين مرة بعد مرة، قال المقريزي في كتاب الخطط:« وفي أيام فوقا

ملك الروم، بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر، فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام، وقتلوا المسيحيين بأجمعهم وأتوا إلى مصر في طلبهم، وقتلوا منهم أمة كبيرة، وسبوا منهم سبياً لا يدخل تحت حصر، وساعدهم اليهود في محاربة المسيحيين وتخريب كنائسهم. وأقبلوا نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل، وقرية الناصرية صور، وبلاد القدس، فنالوا من المسيحيين كل منال، وأعظموا النكاية فيهم، وخربوا لهم كنيستين وأحرقوا أماكنهم، وأخذوا قطعة من عود الصليب، وأسروا بطرك القدس وكثيراً من أصحابه»[1]

إلى أن قال بعد أن ذكر فتح الفرس لمصر:« فثارت اليهود في أثناء ذلك بمدينة صور، وأرسلوا بقيتهم في بلادهم، وتواعدوا على الإيقاع بالمسيحيين وقتلهم، فكانت بينهم حرب اجتمع فيها من اليهود نحو عشرين ألفا، وهدموا كنائس المسيحيين خارج صور، فقوي المسيحيون عليهم وكاثروهم، فانهزم اليهود هزيمة قبيحة وقتل منهم كثير، وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية، وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنهم، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر، ويجدد ما خربها الفرس، فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها، وقدموا له الهدايا الجليلة طلبوا منهم أن يؤمنهم ويحلف لهم على ذلك، فأمنهم، وحلف لهم، ثم دخل القدس، وقد تلقاه المسيحيون بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة، فوجد المدينة وكنائسها وقمامتها خراباً، فساءه ذلك وتوجع له، وأعلمه المسيحيون بما كان من ثورة اليهود مع الفرس وإيقاعهم بالمسيحيين وتخريبهم الكنائس، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس وقاموا قياماً كبيراً في قتلهم من آخرهم، وحثوا هرقل على الوقيعة بهم، وحسنوا له ذلك، فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه، فأفتاه رهبانهم وبطاركتهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه في قتلهم، فإنهم عملوا حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا المسيحيين بصوم جمعة في كل سنة عنه على ممر الزمان والدهور، فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها، حتى لم يبق في ممالك الروم بمصر والشام منهم إلا من فر واختفى »

وبهذه الروايات يعلم ما وصل إليه الفريقان، اليهود والمسيحيون، من القسوة والضراوة بالدم الإنساني وتحين الفرص للنكاية في العدو، وعدم مراعاة الحدود في ذلك، وبهذه الأخلاق المنحطة والاستهانة بحياة الإنسان لا يمكن لطائفة أو أمة أن تؤدي رسالة الحق والعدل والسلام وتسعد البشرية في ظلها وتحت حكمها.

ديانات أخرى:

قلت: والديانات الأخرى.. ورجالها.. ألم يكن فيهم من يصلح لإنقاذ البشرية؟

أشار توماس إلى بقعة من الأرض، وقال: هنا كانت تنتشر **المجوسية**.

قلت: ألم يكن في المجوسية ما يصلح لإنقاذ البشرية؟

---

(١) الخطط المقريزية:٤ / ٣٩٢.

قال: لقد جاء زرادشت، ودعا إلى التوحيد، وأبطل الأصنام[1]، وقال:« إن نور الله يسطع في كل ما يشرق ويلتهب في الكون »، وأمر بالاتجاه إلى جهة الشمس والنار وساعة الصلاة، لأن النور رمز إلى الإله وأمر بعدم تدنيس العناصر الأربعة وهي: النار والهواء والتراب والماء.

وجاء بعده علماء سنوا للزرادشتيين شرائع مختلفة، فحرموا عليهم الاشتغال بالأشياء التي تستلزم النار، فاقتصروا في أعمالهم على الفلاحة والتجارة.

ومن هذا التمجيد للنار واتخاذها قبلة في العبادات تدرج الناس إلى عبادتها حتى صاروا يعبدونها عيناً ويبنون لها هياكل ومعابد، وانقرضت كل عقيدة وديانة غير عبادة النار وجُهلت الحقيقة ونسي التاريخ[2].

ولما كانت النار لا توحي إلى عبّادها بشريعة ولا ترسل رسولاً، ولا تتدخل في شئون حياتهم ولا تعاقب العصاة والمجرمين أصبحت الديانة عند المجوس عبارة عن طقوس وتقاليد يؤدونها في أمكنة خاصة في ساعات

---

(١) ذكر كثير من علماء المسلمين إلى نبوة زرادشت، ويسمونه (نبي المجوس)، وممن انتصر لذلك، وقد توفر له من العلم بالملل والنحل ما يؤهله لذلك ابن حزم، فقد قال في الفصل: « أما زرادشت فقد قال كثير من المسلمين بنبوته »١ ثم عقب على ذلك بقوله:« ليست النبوة بمدفوعة قبل رسول الله ﷺ لمن صحت عنه معجزة، قال ﴿ :۞ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(فاطر:٢٤)، وقال ﴿:۞ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾(النساء:١٦٤) »

ثم بين أن الذي ينسب إليه المجوس من الأكذوبات باطل مفترى منهم، واستدل على ذلك بالتحريفات الواقعة في الديانات المختلفة،، ثم بين قاعدة جليلة في ذلك فقال:« وبالجملة فكل كتاب وشريعة كانا مقصورين على رجال من أهلها، وكانا محظورين على من سواهما فالتبديل والتحريف مضمون فيهما، وكتاب المجوس وشريعتهم إنما كان طول مدة دولتهم عند المؤبذ، وعند ثلاثة وعشرين هربذا، لكل هربذ سفر قد أفرد به وحده لا يشاركه فيه غيره من الهرابذة ولا من غيرهم، ولا يباح بشيء من ذلك لأحد سواهم، ثم دخل فيه الخرم بإحراق الإسكندر لكتابهم أيام غلبته لدارا بن دارا، وهم مقرون بلا خلاف منهم أنه ذهب منه مقدار الثلث ذكر ذلك بشير الناسك وغيره من علمائهم »(الفصل في الملل والأهواء والنحل:١/٩٠)

ونفس ما دفع به ابن حزم عن زرادشت ما نسبه إليه المجوس ذكره غيره من العلماء، قال الباقلاني:« وكذلك الجواب عن المطالبة بصحة أعلام زرادشت إما أن نقول إنها في الأصل مأخوذة عن آحاد، لأن العلم بصدقهم غير واقع لنا، أو نقول إنه نبي صادق ظهرت على يده الأعلام، ودعا إلى نبوة نوح وإبراهيم، وإنما كذبت المجوس عليه في إضافة ما أضافته إليه من القول بالتثنية وقدم النور والظلام وحدوث الشيطان من فكرة وشكة شكها بعض أشخاص النور، وهو بمنزلة كذب النصارى على المسيح عليه السلام من دعائه إلى اعتقاد التثليث والاتحاد والاختلاط، وأن مريم ولدت مسيحا بلاهوته دون ناسوته وغير ذلك»(تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل:٢٠٣)

وقد ذكر ابن حزم أن هذا القول ليس بدعة للمتأخرين، بل أن من السلف من قال بذلك، قال:« وممن قال أن المجوس أهل كتاب علي بن أبي طالب وحذيفة رضي الله عنهما، وسعيد بن المسيب وقتادة وأبو ثور وجمهور أصحاب أهل الظاهر، وقد بينا البراهين الموجبة لصحة هذا القول في كتابنا المسمى الإيصال في كتاب الجهاد منه وفي كتاب الذبائح منه وفي كتاب النكاح منه»١، ثم قال:« ويكفي من ذلك صحة أخذ رسول الله ﷺ الجزية منهم، وقد حرم الله عز وجل في نص القرآن في آخر سورة نزلت منه وهي براءة أن تؤخذ الجزية من غير كتابي»(الفصل في الملل والأهواء والنحل:١/٩٠)

(٢) انظر تاريخ إيران تأليف شاهين مكاريوس: ٢٢١ — ٢٢٤.

خاصة، أما في خارج المعابد، وفي دورهم ودوائر حكمهم وتصرفهم، وفي السياسة والاجتماع، فكانوا أحراراً يسيرون على هواهم، وما تملي عليهم نفوسهم، أو ما يؤدي إليه تفكيرهم، أو ما توحي به مصالحهم ومنافعهم، شأن المشركين في كل عصر.

وهكذا حُرِم الفرس في حياتهم ديناً عميقاً جامعاً يكون تربية للنفس، وتهذيباً للخلق، وقامعاً للشهوات، وحافزاً على التقوى وفعل الخيرات، ويكون نظاماً للأسرة وتدبيراً للمترل وسياسة للدولة، ودستوراً للأمة، ويحول بين الناس وطغيان الملوك، وعسف الحكام، ويأخذ على يد الظالم، وينتصف للمظلوم، وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين اللادينيين والإباحيين في الأخلاق والأعمال.

أشار إلى بقعة أخرى من العالم، وقال: هذه هي الصين القديمة، وهنا ـــ وفي ذلك الزمان ـــ كانت تنتشر ثلاث ديانات: ديانة (لا وتسو)، وديانة (كونفوشيوس)، والبوذية:

أما **ديانة (لا وتسو)**، فقد تحولت إلى ديانة وثنية في عهد قريب، فهي تُعنى بالنظريات أكثر منها بالعمليات، وكان أتباعها متقشفين زاهدين، لا يتزوجون ولا ينظرون إلى المرأة، ولا يتصلون بها، فلم يكن لها أن تكون أُسّاً لحياة سديدة أو حكومة رشيدة، حتى التجأ الذين جاءوا بعد مؤسسها إلى مخالفته والعدول عنه إلى غيره.

أما (**كونفوشيوس**) فقد كان يعني بالعمليات أكثر من النظريات، ولكن انحصرت تعاليمه في شؤون هذه الدنيا وتدبير الأمور المادية والسياسية والإدارية، وقد كان أتباعه لا يعتقدون ـــ في بعض الأزمنة ـــ بعبادة إله معين، فيعبدون ما يشاءون من الأشجار والأنهار، وليس فيها نور من يقين ولا باعث من إيمان ولا شرع سماوي، وإنما هي حكمة حكيم وتجارب خبير، يستفيد بها الإنسان إذا شاء ويرفضها إذا شاء.

أما **البوذية**، فقد فقدت بساطتها وحماستها، وابتلعتها البرهمية الثائرة الموتورة، فتحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت، وتبني الهياكل، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت.

وقد غمرت هذه التماثيل الحياة الدينية والمدنية التي ظهرت في عهد ازدهار البوذية.

يقول الأستاذ (إيشوراتوبا):« لقد قامت في ظل البوذية دولة تعني بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل وتغير محيط الرابطات الأخوية البوذية، وظهرت فيها البدع »[1]

ولا حظ ذلك أيضاً أحد الكتاب العصريين وكبار السياسيين في الهند فقال:« جعلت البرهمية بوذا مظهراً للآلهة، وقلدتها في ذلك البوذية نفسها، وأصبحت الرابطة الأخوية البوذية تملك ثورة هائلة، وأصبحت مركزاً لمصالح جماعات خاصة، وفقدت النظام وتسرب إلى مناهج العبادة السحر والأوهام، وبدأت الديانة تتقهقر وتنحط بعدما سادت في الهند وازدهرت ألف سنة، وقد ذكرت (Mrs Rhys DaVids) ما أصيبت به الديانة البوذية في هذا العهد من الوهن والاعتلال فقالت كما نقل عنها (سير رادها كرشنن) في كتابه (الفلسفة الهندية):« لقد أظلت الأفكار العليلة تعليم بوذا الخلقي حتى توارى وراء هذه التخيلات السقيمة، لقد نشأ

(١) الهند القديمة ((بالأوردو)) للأستاذ ايشور اتويا، كل هذه المصادر منقولة من: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

مذهب جديد في الديانة وازدهر، وملك على الناس القلوب، ثم اضمحل وخلفه مذهب آخر، وهلم جرا، حتى تراكمت هذه الأوهام الخلابة، وحجبت الجو وساد الظلام، وقد اضمحلت دروس مؤسس الديانة الغالية البسيطة بسبب التدقيقات الكلامية والتنطعات.. لقد أصيبت البرهمية والبوذية بالانحطاط، ودخلت فيها العادات الساقطة، وأصبح من العسير التمييز بينهما، لقد اندمجت البوذية في البرهمية وذابت فيها »[1]

ولم يزل وجود الإله الإيمان به في البوذية موضع خلاف وشك عند مؤرخي هذه الديانة ومترجمي مؤسسها، حتى يحار بعضهم ويتساءل: كيف قامت هذه الديانة العظيمة على أساس رقيق من الآداب التي ليس فيها الإيمان بالله، فلم تكن البوذية إلا طرقاً لرياضة النفس وقمع الشهوات، والتحلي بالفضائل، والنجاة من الألم، والحصول على العلم.

أشار إلى جزيرة العرب، وقال: في هذه المنطقة التي ولد فيها محمد لم يكن يعبد إلا التماثيل التي يصنعها الناس بأيديهم.

لقد كان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص، بل كان لكل بيت صنم خصوصي.

قال الكلبي: كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في مترله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل مترله أن يتمسح به أيضا[2].

وقد استهترت العرب عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنماً، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم، وأمام غيره، مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب، وكان في جوف الكعبة وفي فنائها ثلاث مائة وستون صنماً، وتدرجوا من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة جنس الحجارة.

عن أبي رجاء العطاردي قال: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً، جمعنا حثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة، فحلبنا عليه، ثم طفنا به[3].

وقال الكلبي: كان الرجل إذا سافر، فترل مترلاً أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها، فاتخذه رباً، وجعل الثلاث أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه.

وكان للعرب آلهة شتى غير هذه الأصنام من الملائكة والجن والكواكب، فكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله، فيتخذونهم شفعاء لهم عند الله ويعبدونهم ويتوسلون بهم عند الله، واتخذوا كذلك من الجن شركاء لله وآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم وعبدوهم[4].

وقال الكلبي: كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن.

---

(١) Jawahar Dal Nehru: The Discovery of India P. ٢٠١ ٢٠٢.

(٢) كتاب الأصنام:٣٣.

(٣) رواه البخاري.

(٤) كتاب الأصنام: ٤٤.

وقال صاعد: كانت حِمْيَر تعبد الشمس، وكنانة القمر، وتميم الدبران، ولخم وجذام المشتري، وطيء سهيلاً، وقيس الشِّعري العبور، وأسد عطارداً[1].

أشار إلى مناطق أخرى، وقال: لم تكن الوثنية سائدة في بلاد العرب وحدها، بل كل هذه المناطق كانت لا تعرف دينا غير الوثنية المتطرفة.

لقد بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس، فقد كان عدد الآلهة في (ويد) ثلاثة وثلاثين، وقد أصبحت في هذا القرن ٣٣٠ مليون.

وقد أصبح كل شيء رائع، أو كل شيء جذاب، بل كل مرفق من مرافق الحياة إلهاً يعبد.

ولهذا جاوزت التماثيل والآلهة والإلاهات الحصر، وأربت على العد، فمنها أشخاص تاريخية، وأبطال تمثل فيهم الله في عهود وحوادث معروفة، ومنها جبال تجلى عليها بعض آلهتهم، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها إله، ومنها نهر الكنج الذي خرج من رأس (مهاديو) الإله، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة والأجرام الفلكية وغير ذلك، وأصبحت الديانة نسيجاً من خرافات وأساطير وأناشيد وعقائد وعبادات لم يستسغها العقل السليم في زمن من الأزمان.

وقد ارتقت صناعة نحت التماثيل في هذا العهد، وبلغت أوجها في القرن السادس والسابع، حتى فاق هذا العصر في ذلك العصور الماضية.

وقد عكفت الطبقات كلها، وعكف أهل البلاد من الملك إلى الصعلوك على عبادة الأصنام، حتى لم تجد الديانة البوذية والجينية منها بدا، وتذرعت هاتان الديانتان بهذه الوسيلة للاحتفاظ بحياتهما وانتشارهما في البلاد.

ويدل على ما وصلت إليه الوثنية والتماثيل في هذا العصر ما حكاه الرحالة الصيني الشهير (هوئن سوئنج) الذي قام برحلته بين عام ٦٣٠ وعام ٦٤٤ عن الاحتفال العظيم الذي أقامه الملك هرش الذي حكم الهند من عام ٦٠٦ إلى ٦٤٧ قال:« وأقام الملك احتفالاً عظيماً في قنوج، اشترك فيه عدد كبير جداً من علماء الديانات السائدة في الهند، وقد نصب الملك تمثالاً ذهبياً لبوذا على منارة تعلو خمسين ذراعاً، وقد خرج بتمثال آخر لبوذا أصغر من التمثال الأول في موكب حافل قام بجنبه الملك (هرش) بمظلة وقام الملك الحليف (كامروب) يذب عنه الذباب »

ويقول هذا الرحالة عن أسرة الملك ورجال بلاطه:« إن بعضهم كان من عباد (شو)، وبعضهم من أتباع الديانة البوذية، وكان بعضهم يعبد الشمس وبعضهم يعبد (وشنو)، وكان لكل واحد أن يخص من الآلهة أحداً بعبادته أو يعبدهم جميعاً»

بل إن الوثنية وصلت بهم حدا مقززا، فلم تكتف بارتباطها بالحجارة وغيره، بل ارتبطت فوق ذلك بالشهوة الجنسية الجامحة.

ولعل أشهر ديانة ارتبطت بذلك ديانات الهند منذ العهد القديم، فقد تناقلت الكتب الهندية، وتحدثت

---

(١) طبقات الأمم لصاعد: ٤٣٠.

الأوساط الدينية عن ظهور صفات الإله، وعن وقوع الحوادث العظيمة وعن تعليل الأكوان روايات وأقاصيص عن اختلاط الجنسين من الآلهة وغارة بعضها على البيوت الشريفة تستك منها المسامع ويتندى لها الجبين حياء.

وتأثير هذه الحكايات في عقول المتدينين المخلصين المرددين لهذه الحكايات في إيمان وحماسة دينية وفعلها في عواطفهم وأعصابهم واضح، زاد إلى ذلك عبادتهم لآلة التناسل لإلههم الأكبر (مهاديو)، وتصويرها في صورة بشعة، واجتماع أهل البلاد عليها من رجال ونساء وأطفال وبنات.

أضف إلى ذلك ما يحدث به بعض المؤرخين من أن رجال بعض الفرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات، والنساء يعبدن الرجال العراة.

وقد أصبح كثير من المعابد مواخير فساد، يترصد فيها الفاسق طلبته، وينال فيها الفاجر بغيته، وإذا كان هذا شأن البيوت التي رفعت للعبادة والدين، فما ظنك ببلاط الملوك وقصور الأغنياء!؟

٢ ـــ إكسير الإسلام

بعد أن استعرض توماس من ذاكرته التاريخية ما كان عليه أهل العصر الذي ولد فيه محمد ﷺ من انحطاط وارتداد وسقوط، قال لي: في هذا الوضع الذي ذبلت فيه شجرة البشرية جاء الإكسير الذي أعاد لها الحياة.

قلت: تقصد الإسلام.

قال: أجل.. لقد جاء الإسلام بتلك القيم النبيلة.. و لم يكتف بأن يبشر بها في جزيرة العرب، بل راح ينشرها على العالم.

فقد كان من مزايا الإسلام الكبرى التي خولت له هذا الدور كونه دينا عالميا.. لا يدبن به قومية من القوميات.. ولا شعب من الشعوب.

قلت: لقد تم ذلك بحد السيف؟

قال: هناك أمور اضطر فيها الإسلام إلى استعمال السيف.. ولكنه ليس من تلك الأمور إقناع الناس بالسيف.. ذلك أنه يستحيل أن تحصل أي قناعة بالسيف.

دعنا نكون واقعيين.. ولننظر ماذا فعل الإسلام لينقذ البشرية التي كانت تقف على حافة الهاوية.

١ ـــ التحرير:

قلت: لقد بدأ الإسلام بنشر جيوشه التي ساحت في الأرض لتنشر الإسلام.

قال: أخطأ من قال ذلك.. الجيوش التي خرجت.. لم تخرج لتنشر الإسلام.. و لم تخرج لتقهر الناس على اعتناقه..

قلت: فقد خرجت لغايات اقتصادية إذن كما يقول الماركسيون الذين يفسرون حركة التاريخ بحركة الاقتصاد؟

قال: و لم تخرج لذلك أيضا.. ولو خرجت لذلك لاستولى المسلمون على أملاك من دخلوا أراضيهم.

قلت: فقد خرجوا لأنهم الجنس الأفضل كما قال الرومان، وكما قال النازيون، وكما يقول اليهود والأمريكان.

قال: لم يخرجوا لذلك أيضا.. فقد كانوا أعظم الناس تواضعا.. وأسرعهم انصهارا في الشعوب التي دخلوا إليها.

قلت: فلم انتشروا إذن؟

قال: لتحرير أولئك الذين استعبدهم القياصرة أو الأكاسرة، وحالوا بينهم وبين الحياة الحرة التي تكفل لهم اختيار ما يشاءون من دين، واختيار ما يشاءون حياة[1].

---

(١) بدأت الفتوحات الإسلامية بعد الجزيرة العربية ببلاد الشام في عام ٨هـ/٦٢٩م حيث أرسل الرسول ﷺ جيشاً لقتال الروم يتألف من ثلاثة آلاف محارب، وقد التقى الجيشان في واقعة مؤتة.

ولم يكن الرسول ﷺ مطمئناً لنوايا الروم، ففي عام ٩هـ/٦٣٠م وصلته أنباء عن حشود على الحدود مع الجزيرة، فجهز جيشاً قاده بنفسه ﷺ، لكنه لم تحدث معركة، ووصل الجيش الإسلامي حتى منطقة تبوك.

وبعد وفاة الرسول ﷺ بدأ الخليفة أبو بكر الصديق ستراتيجية جديدة تمثلت بالتوسع في الفتوحات شمال الجزيرة العربية، وقد بدأت الحملات العسكرية بفتح العراق عام ١٢هـ/٦٣٣م ودحر الامبراطورية الساسانية، ثم سوريا عام ١٣هـ/٦٣٤ م ثم عاصمتها دمشق عام ١٤هـ/٦٣٥م التي خسرتها الامبراطورية البيزنطية.

وفي العام التالي حقق خالد بن الوليد انتصاراً ظافراً على جيش هرقل في معركة اليرموك، حيث واجه الجيش الإسلامي وتعداده ٢٥ ألف رجل الجيش البيزنطي وهو ضعف عدده.

وخلال سبع سنوات (٦٣٣ ــ ٦٤٠م) أصبحت كل الشام تحت الحكم الإسلامي، من البحر الأحمر حتى جبال طوروس.

ثم فتحت مصر، وهي المقاطعة البيزنطية الشقيقة، عام ٢٠هـ/٦٤١م. وكانت مصر تمثل مخزن قمح الامبراطورية الرومانية الشرقية، وأغنى ممتلكاتها. إذ كانت مصر نقطة انطلاق لبقية النفوذ البيزنطي في شمال أفريقيا لينتهي في صقلية وإسبانيا.

ثم تقدمت الفتوحات الاسلامية بسرعة فائقة، حتى قيل إن العرب فتحوا نصف العالم في نصف قرن، أو مقولة نابليون:« إن العرب فتحوا في ٩٠ عاماً ما فتحه الرومان في ٩٠٠ عام»

وبعد مصر وإفريقيا(تونس) اتجهت الجيوش الإسلامية غرباً لتحرر شمال أفريقيا بكامله إلى أن وصلت إلى ضفاف الأطلسي، وأصبحت القيروان، في تونس، مركز قيادة موسى بن نصير وجنوده من البربر الذين اعتنقوا الإسلام وساهموا في نشره في تلك المنطقة.

وفي عام ٩٢هـ/٧١١م أرسل موسى أحد قواده الأشداء، طارق بن زياد، على رأس قوة مؤلفة من ٧٠٠ جندي ليعبروا البحر باتجاه الساحل الإسباني.

وكانت القوة قد عبرت مضيق جبل طارق بمراكب أرسلها الحاكم البيزنطي جوليان **Julian**لمدينة سيوتا **Ceuta**، وكان الحاكم في صراع مع الملك القوطي رودريك، فاستنجد بالمسلمين لمساعدته، فأمده موسى بقوة عسكرية من العرب والبربر.

وقد استمرت قوات طارق بن زياد في تقدمها، لتصبح نواة دولة مسلمة تحكم إسبانيا لمدة ثمانية قرون (٧١١ ــ ١٤٩٢م)

أسس المسلمون دولة عظيمة في الأندلس، وكانت لديهم خطط للتوسع في العمق الأوربي، ولكن ذلك لم يحصل، فقد خسر المسلمون في معركة بلاط الشهداء خسارة كبيرة، واستشهد قائدهم. وفي الليل غادر الجنود المنطقة منسحبين إلى إسبانيا، ولم يعد يفكر أحد بفتح فرنسا.

ثم فتح المسلمون صقلية، في عهد بني الأغلب الذين كانوا يحكمون شمال إفريقيا في العصر العباسي، وقد كان حاكم القيروان زيادة الله (حكم ٨١٧ ــ ٨٣٨ م) قد تلقى طلباً من مجموعة من الثوار على الحكم البيزنطي لصقلية وسرقوسة، فأرسل حملة بحرية تمكنت من فتح باليرمو عاصمة الجزيرة. وتقدم الجيش الإسلامي ليحكم سيطرته على بقية أنحاء الجزيرة، ولتبقى ٢٤٠ عاماً بأيدي المسلمين.

وقد أصبحت صقلية أكبر قاعدة بحرية للأسطول الإسلامي في البحر المتوسط، وامتد تأثير المسلمين ليس إلى الأطراف الجنوبية لإيطاليا فحسب، بل وصل التهديد إلى نابولي وبقية المدن الشمالية، وحتى روما نفسها تعرضت للتهديد عام ٨٤٦ م.

وفي عام ١٠٧١ سقطت باليرمو بأيدي الفاتحين النورمان، وعادت صقلية مرة أخرى للنفوذ المسيحي. وكان النورمان قبائل غير متحضرة، ولذلك أبقوا على الإدارة والتنظيمات القانونية التي أقامها المسلمون، وحتى الموظفين المسلمين بقوا يزاولون أعمالهم

لقد خرجوا تنفيذا لما ورد في القرآن من نصرة المستضعفين.. خرجوا تنفيذا لما تأمره هذه الآية:﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥)﴾(النساء: ٧٥)

لقد أراد المسلمون من تلك الفتوح كسر شوكة السلطات الطاغية والمتجبرة التي كانت تحكم تلك البلاد، وتحول بين شعوبها وبين الاستماع إلى هدي الإسلام.

لقد كانت تلك السلطات ترى أن لها الحرية في هذا الجانب، فلذلك لا تريد إلا أن يبقى الناس على دينها ومذهبها، ولا يفكر أحد في اعتناق دين آخر، ما لم يأذن له كسرى أو قيصر، أو الملك أو الأمير.

لقد عبر القرآن على لسان فرعون قديما حينما أسلم سحرته، وآمنوا برب موسى وهارون، فقال لهم:﴿ آَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤)﴾(الأعراف)

لقد كان حكم الأكاسرة والقياصرة والملوك في ذلك الزمن حاجزا حصينا دون وصول الدعوة العالمية إليهم، ولهذا حينما بعث محمد برسائله إلى هؤلاء الأباطرة والملوك، يدعوهم إلى الإسلام حملهم ــ في حال عدم استجابتهم ــ إثم رعيتهم:

فقال لكسرى:« فإن لم تسلم، فعليك إثم المجوس »

وقال لقيصر:« فإن لم تسلم، فعليك إثم الإريسيين »

وقال للمقوقس في مصر:« فإن لم تسلم، فعليك إثم القبط »

وهذا يؤكد المثل السائر في تلك الأيام.. ولا تزال له بعض الآثار.. (الناس على دين ملوكهم)

لقد أراد الإسلام أن يرد الأمور إلى نصابها، ويعيد للشعوب اعتبارها واختيارها، ولا سيما في هذه القضية الأساسية المصيرية، التي هي أعظم قضايا الوجود على الإطلاق: قضية دين الإنسان، الذي يحدد هويته، ويحدد غايته، ويحدد مصيره.

ومن هنا كانت الحرب الموجهة إلى هؤلاء الملوك والأباطرة، لهدف واضح، هو إزالة الحواجز أمام الدعوة الجديدة، حتى تصل إلى الشعوب وصولا مباشرة، وتتعامل معها بحرية واختيار، لمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، وليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيا عن بينة، دون خوف من جبار يقتلهم أو يصلبهم في جذوع النخل.

بالإضافة إلى ذلك.. فقد علمنا أن تلك الشعوب التي استولى عليها الأكاسرة والقياصرة كانت شعوبا مستعمرة، فقد كان العالم في الجاهلية تتنازعه دولتان عظيمتان: دولة الفرس في الشرق، ودولة الروم في الغرب، وذلك أشبه بما عرفناه وعايشناه في عصرنا من دولة الروس، ودولة الأمريكان، أيام الحرب الباردة بين الطرفين.

في الكتابة والترجمة والحسابات والرسائل. وقد أحاط الملوك النورمان أنفسهم بالعلماء المسلمين من فلكيين وأطباء وفلاسفة. وقد كتب الجغرافي المسلم الإدريسي (ت ١١٦٦م) كتابه المعروف (كتاب روجر) بناءً على طلب الملك روجر.

فقد سيطرت كل منهما على بعض البلاد، واتسعت رقعة تلك الدولة حينا على حساب الآخر، وانحسرت حينا آخر، كما نص القرآن على ذلك في قوله:﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣)﴾(الروم)

لقد كانت دولة الفرس تملك بعض ديار العرب في العراق، وكانت الروم تملك بلادا أخرى في الشام، كما تملك مصر وغيرها في شمال أفريقيا.. وكان ذلك لونا من ألوان الاستعمار المتسلط المستكبر في الأرض بغير الحق.

وكان على الإسلام مهمة ــ باعتباره رسالة تحرير للعالم من عبودية البشر للبشر ــ أن يقوم بدور في إنقاذ هذه الشعوب.. ولهذا رأينا في رسالة محمد إلى قيصر والمقوقس وغيرهما تختم بهذه الآية من سورة آل عمران:﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾(آل عمران)

اسمع هذه الآية جيدا.. ألا ترى فيها دعوة عامة إلى التحرير؟

لقد كان من الضروري مساعدة هذه الشعوب على التحرر من هذا المستعمر الغريب عنها، وهذا ما جعل هرقل يقول بعد دخول جيوش المسلمين إلى الشام:« سلام عليك يا سوريا، سلام لا لقاء بعده »

وقد كان الروم يعتبرون مصر بقرة حلوبا لهم، يحلبون ضرعها، وإن لم ترضع أولادها، ولهذا رحب الشعب المصري بالفاتحين الجدد، وفتح لهم صدره، وذراعيه، واستطاع المسلمون بثمانية آلاف جندي فقط أن يفتحوا مصر، ويحرروها من سلطان الروم إلى الأبد.

قلت: هكذا يبدأ المستعمر دائما.. فهو يتخذ من استبداد غيره مبررا لاستبداده، وهو لا يدخل عادة إلا بوصفه المنقذ والمخلص.

قال: ذلك صحيح مع جميع المستعمرين ما عدا الإسلام..

قلت: أنت تقول هذا.

قال: بل الحقائق تقول هذا.. والحقائق الكثيرة التي لا يمكن حصرها تقول هذا:

وأول الحقائق.. وهي لا تزال ماثلة أمامنا.. أن الناس الذي فتحت أراضيهم لم يدخلوا الإسلام دفعة واحدة، بل ظلوا على دينهم عشرات السنين، لا يدخل فيه إلا الواحد بعد الواحد.. حتى إن الرجل القبطي الذي أنصفه عمر، واقتص لابنه من ابن والي مصر، لم يدخل في الإسلام، رغم ما شاهد من عدالة بهرت الأبصار والألباب.

ألست ترى بلاد المسلمين هي البلاد الوحيدة في العالم التي تعج بجميع ألوان الطوائف.. ومع ذلك يعيش بعضهم مع بعض في غاية الاحترام؟

سكت، فقال: لو أن السيوف أرادت نشر الإسلام بالقوة لفعلت.. فقد كان في المسلمين من القوة ما لا يقف في وجهه أحد.. ولكنهم لم يفعلوا لسبب واحد هو أن القرآن يحرم عليهم أن يفعلوا.. ذلك أن السيف يمكنه أن يفتح أرضا، أويحتل بلدا، ولكن لا يمكنه أن يفتح قلبا.. ففتح القلوب وإزالة أقفالها تحتاج إلى عمل

آخر، من إقناع العقل، واستمالة العواطف، والتأثير النفسي.

إن القرآن يخاطب المؤمنين بهذه الحقيقة ليقول لهم:﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(البقرة:٢٥٦)

أنت ترى الآية صريحة بأنه لا إكراه ولا قهر في اعتناق الدين، وإنما ذلك متروك لعقل الإنسان وتفكيره غير المأسور لتعصب أو هوى أو تقليد أو حظ نفس.

فمن شرح الله صدره للإسلام دخله، ومن ختم على سمعه وبصره، ترك وشأنه دون قسر على الدين.

ولهذا اعتبر الإكراه على الإسلام من الذنوب.. واعتبر المكره على الإسلام غير مسلم.. لأن الإسلام لا يكون إلا عن قناعة.

لقد روي في سبب نزول الآية السابقة أن المرأة التي كانت لا يعيش لها ولد تجعل على نفسها إن عاش أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا (أي لا ندعهم يعتنقون اليهودية)، فترلت الآية تنهاهم عن ذلك[1].

انظر..

رغم أن محاولات الإكراه كانت من آباء يريدون حماية أبنائهم من التبعية لأعدائهم المحاربين الذين يخالفوهم في دينهم وقوميتهم، ورغم الظروف الخاصة التي دخل بها الأبناء دين اليهودية وهم صغار، ورغم ما كان يسود العالم كله حينذاك من موجات الاضطهاد للمخالفين في المذهب، فضلاً عن الدين، كما كان في مذهب الدولة الرومانية التي خيَّرت رعاياها حينًا بين التنصر والقتل، فلما تبنت المذهب الملكاني أقامت المذابح لكل مَن لا يدين به من المسيحيين من اليعاقبة وغيرهم.

رغم كل هذا، رفض القرآن الإكراه [2]..

لقد قال القرآن في آية أخرى:﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)﴾(يونس)

ويذكر القرآن عن نوح، وهو نبي من الأنبياء العظام.. وقد أمر القرآن بالاقتداء بالأنبياء:﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (هود:٢٨)

وقال:﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الزمر:٤١)

وقال:﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الشورى:٦)

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وابن أبي حاتم وابن حيان في صحيحه، وهكذا ذكر مجاهد وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصري وغيرهم أنها نزلت في ذلك، انظر: ابن كثير:١/٣١٠.

(٢) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، يوسف القرضاوي، بتصرف.

وقال:﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (قّ:٤٥)
وقال:﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية:٢٢)
وقال:﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الأنعام:١٠٧)

وقد قصرت الآيات دعوة الرسول والذين معه على البلاغ:﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (المائدة:٩٩).. ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ ﴾ (الشورى: من الآية٤٨)

ففي هذه الآيات تصريح بأن دور محمد والذين معه مقصور على التبليغ لا أزيد من ذلك، وأنه أُرسل مبلغاً، و لم يُرسل حفيظاً عليهم، مسؤولاً عن إيمانهم وطاعتهم، حتى يمنعهم عن الإعراض، ويتعب نفسه لإقبالهم عليه.

قلت: هذا ما حصل في عهد محمد.. و لم يكن له من القوة ما يستطيع به أن يفرض دينه على الناس.. أما بعده.. وبعد غرور القوة.. فقد حصل ما لم يكن في الحسبان.

قال: لا.. ليس ذلك صحيحا.. هذا ما نقوله نحن.. وربما كنت قلت مثله في يوم من الأيام.. ولكن الحقائق تقول غير ذلك..

لقد نعم المسيحيون واليهود وغيرهم من أهل الأديان بسماحة لم يروها في حياتهم قط..

فهذا عمر ــ الذي كان مهابا من جميع ملوك العالم ــ يأمر بصرف معاش دائم ليهودي، وعياله من بيت مال المسلمين، ثم يقول:« قال الله تعالى:﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)﴾(التوبة)، وهذا من مساكين أهل الكتاب »[1]

ويمر في رحلته إلى الشام بقوم مجذومين من المسيحيين، فيأمر بمساعدة اجتماعية لهم من بيت مال المسلمين، من غير أن يفرض عليهم اعتناق الإسلام.

ولما أصيب بضربة رجل من أهل الذمة ــ وهو أبو لؤلؤة المجوسي ــ لم يمنعه ذلك أن يوصى الخليفة من بعده وهو على فراش الموت فيقول:« أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيرًا، أن يوفي بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفهم فوق طاقتهم»[2]

وهذا عبد الله بن عمرو يوصي غلامه أن يعطي جاره اليهودي من الأضحية، ويكرر الوصية مرة بعد مرة، حتى دهش الغلام، وسأله عن سر هذه العناية بجار يهودي؟ فقال ابن عمرو:« إن النبي ﷺ قال:« ما زال جبريل

(١) الخراج لأبي يوسف ص ٢٦.
(٢) رواه البخاري.

يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »[1]

وماتت أم الحارث بن أبي ربيعه وهي نصرانية، فشيعها أصحاب محمد.

وكان بعض أجلاء التابعين يعطون نصيبًا من صدقة الفطر لرهبان المسيحيين، ولا يرون في ذلك حرجًا، بل ذهب بعضهم ــ كعكرمة وابن سيرين والزهري ــ إلى جواز إعطائهم من الزكاة نفسها.

وعن جابر بن زيد: أنه سُئل عن الصدقة فيمن توضع؟ فقال:« في أهل ملتكم من المسلمين، وأهل ذمتهم.. »[2]

التفت إلي، وقال: هل سمعت بجيش منتصر يخرج من البلد الذى فتحه، لأن القائد المسلم لم يعطهم مهلة ثلاثة أيام؟

قلت: لم أسمع بذلك.. متى وقع ذلك.. أو بالأحرى هل وقع ذلك؟

قال: أجل.. لقد كان ذلك أغرب حادثة فى تاريخ البشرية..

لما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز، وفدَ إليه قوم من أهل سمرقند، فرفعوا إليه أن قتيبة قائد الجيش الإسلامى فيها دخل مدينتهم، وأسكنها المسلمين غدراً بغير حق.

فكتب عمر إلى عامله هناك أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا، فإن حكم بإخراج المسلمين من سمرقند خرجوا.

فنصب لهم الوالى (جميع بن حاضر الباجى) قاضياً ينظر شكواهم، فحكم القاضى وهو مسلم بإخراج المسلمين، على أن ينذرهم قائد الجيش الإسلامى بعد ذلك، وينابذهم وفقاً لمبادىء الحرب الإسلامية، حتى يكون أهل سمرقند على استعداد لقتال المسلمين، فلا يؤخذوا بغتة.

فلما رأى أهل سمرقند ما لا مثيل له فى التاريخ من عدالة تنفذها الدولة على جيشها وقائدها، قالوا: هذه أمة لا تحارب، وإنما حكمها رحمة ونعمة، فرضوا ببقاء الجيش الإسلامى، وأقروا المسلمين أن يقيموا بين أظهرهم.

هل رأيت فى تاريخ الدنيا كلها جيشاً يفتح مدينة، فيشتكى المغلوبون للدولة المنتصرة، فيحكم قضاؤها على الجيش الظافر، ويأمر بإخراجه، ولا يدخلها بعد ذلك إلا بإقرار أهلها!؟

أرأيت فى التاريخ القديم والحديث حرباً يتقيد أصحابها بمبادىء الأخلاق والحق كما تقيد به جيش المسلمين!؟

قلت: ربما يكون هذا قد تحقق في بداية الإسلام.. ولكن بعد ذلك.. وفي العصور التي ضعف فيها الوازع الديني عاد الاستبداد ليفرض الدين بالقوة.

---

(١) القصة رواها أبو داود في كتاب الأدب من سننه، والترمذي في البر والصلة، والبخاري في الأدب المفرد رقم ١٢٨ أما الحديث المرفوع فهو من رواية البخاري ومسلم.

(٢) ذكر ذلك ابن حزم في المحلى:٥ /١١٧.

قال: لا.. ليس ذلك صحيحا.. لقد قرأت التاريخ.. فلم أر فيه إلا احترام أهل الذمة وعدم التعرض لهم.. لأن محمدا أوصى بهم[1].

لست الوحيد الذي اكتشف ذلك.. لقد اكتشفه كثير من أصدقائي من المستشرقين وغيرهم.. وسأسوق لك ما قاله صديقي (ول ديورانت) في (قصة الحضارة) عن العهد الأموي مع ما كان فيه من استبداد بالمسلمين، لقد قال فيه:« لقد كان أهل الذمة المسيحيون، والزرادشتيون، واليهود، والصابئون يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرًا في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحرارًا في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، و لم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زي ذي لون خاص وأداء ضريبة عن كل شخص تختلف باختلاف دخله، وتتراوح بين دينار وأربعة دنانير، و لم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح، ويعفى منها الرهبان، والنساء، والذكور الذين هم دون البلوغ، والأرِقَّاء، والشيوخ، والعَجَزة، والعُمي، والشديدو الفقر، وكان الذميون يعفون في نظير ذلك من الخدمة العسكرية، أو إن شئت فقل لا يُقبلون فيها، ولا تفرض عليهم الزكاة البالغ قدرها ٢.٥ بالمائة من الدخل السنوي [2].. وكان لهم على الحكومة أن تحميهم، و لم تكن تُقبل شهادتهم في المحاكم الإسلامية، ولكنهم كانوا يتمعتون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم، وقضاتهم وقوانينهم »[3]

أما العصر العباسي، وهو العصر الذي ازدهرت فيه الحضارة الإسلامي، فقد احتل فيه الذميون مكانة محترمة [4]:

لقد اشتهر من بين أهل الذمة في العصر العباسي كثير من العظماء، مثل جرجيس بن بختيشوع طبيب الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، وقد وثق الخليفة فيه وأكرمه.

ومن هؤلاء جبرائيل بن بختيشوع طبيب هارون الرشيد، الذي قال الرشيد عنه: كل من كانت له حاجة إلى فليخاطب بها جبريل؛ لأني أفعل كل ما يسألني فيه، ويطلبه مني. وكان مرتب الطبيب عشرة آلاف درهم شهريًا.

ومن هؤلاء ماسويه الذي كان الرشيد يجري عليه ألف درهم سنويًا، ويصله كل سنة بعشرين ألفًا.

وقد أشاد ترتون بتسامح المسلمين فقال:« والكُتّاب المسلمون كريمون في تقدير فضائل هؤلاء ممن على غير ملتهم، حتى ليسمون حنين بن إسحق برأس أطباء عصره، وهبة الله بن تلميذ بأبوقراط عصره، وجالينوس

---

(١) سنذكر هذه النصوص في محلها من هذه الرسالة وغيرها من الرسائل.

(٢) هكذا قال.. والصحيح أن الزكاة ليست على الدخل السنوي، بل على رأس المال النامي وما يدره من دخل مثل زكاة النقود والتجارة، وبعض أنواع الزكاة مثل دخل الاستغلال الزراعي فيه ١٠ بالمائة أو ٥ بالمائة حسب طريقة الري كما هو مقرر في الفقه.. من تعليق يوسف القرضاوي على مقولة ديورانت في كتابه (غير المسلمين في المجتمع الإسلامي).

(٣) قصة الحضارة: ١٣١/١٣.

(٤) انظر: الإسلام وأهل الذمة، الدكتور الخربوطلي:ص ١٧٠، وهو يعتمد فيما يقرره على المراجع التاريخية الأساسية، بل على كتابات المستشرقين أنفسهم.

دهره »

وكان بختيشوع بن جبرائيل ينعم بعطف الخليفة المتوكل، حتى إنه كاد يضاهيه في ملابسه وفي حسن الحال، وكثرة المال، وكمال المروءة.. ولما مرض سلمويه بعث المعتصم ابنه لزيارته، ولما مات أمر بأن تحضر جنازته إلى القصر، وأن يصلى عليه بالشموع والبخور جريًا على عادتنا، وامتنع المعتصم يوم موته عن أكل الطعام.

أما يوحنا بن ماسويه فقد خدم الخلفاء العباسيين منذ الرشيد إلى المتوكل، وكان لا يغيب قط عن طعامهم، فكانوا لا يتناولون شيئًا من أطعمتهم إلا بحضرته، ومن ثم لم يكن هناك أدنى كُلفة بينه وبين الخليفة المتوكل، فكان الخليفة يداعبه في رفق ولين.

واشتهر من بين أهل الذمة كثير في ميدان الآداب والفنون، فيقول ترتون:« ظلت علاقات العرب برعاياهم في ميدان الآداب والفنون علاقات طيبة قائمة على المودة خلال القرنين الأول والثاني للهجرة، بل إن كثير من هذه المودة استمر بعد هذه الفترة، وقد اصطنعت الحكومة مهندسين وعمالاً من غير المسلمين »

بل درس كثير من الذميين على أيدي مدرسين وفقهاء مسلمين، من ذلك أن حنين بن إسحق درس على أيدي الخليل بن أحمد وسيبويه حتى أصبح حجة في العربية.

وتتلمذ يحيى بن عدي بن حميد ـــ أفقه رجال عصره في المنطق ـــ على يد الفارابي.

ودرس ثابت بن قرة على يد عليّ بن الوليد من رجال المعتزلة، وكان حسن الخط، متمكنًا من الأدب، وتدل مؤلفاته وكتبه على عمق تفكيره، وقوة معرفته. وما لبث أن اعتنق الإسلام بمحض رغبته[1].

ويضرب المؤرخ ترتون لتسامح العباسيين مع أهل الذمة مثلاً، فيقول:« يمكن اتخاذ إبراهيم بن هلال مثالاً لما قد يصير إليه الذمي من بلوغ أرفع المناصب في الدولة، فقد تقلد إبراهيم الأعمال الجليلة، فامتدحه الشعراء، وعرض عليه عز الدولة باختيار بن معز الدولة البويهي أن يوليه الوزارة إن أسلم فامتنع، وكان إبراهيم بن هلال حسن العشرة مع المسلمين عفيفًا في مذهبه، وكان بينه وبين الصاحب إسماعيل بن عباد، والشريف الرضي، مراسلات ومواصلات رغم اختلاف الملل، وكان إبراهيم حافظًا للقرآن »[2]

وقد اعترف ترتون بتسامح الحكام المسلمين فقال:« كان سلوك الحكام المسلمين في الغالب أحسن من القانون المفروض عليهم تنفيذه على الذميين وليس أدل على ذلك من كثرة استحداث الكنائس وبيوت العبادة في المدن العربية الخالصة، ولم تخل دواوين الدولة قط من العمال النصارى واليهود: بل إنهم كانوا يتولون في بعض الأحيان أرفع المناصب وأخطرها، فاكتنـــزوا الثروات الضخمة، وتكاثرت لديهم الأموال الطائلة، كما اعتاد المسلمون المساهمة في الأعياد المسيحية »[3]

---

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء جـــ ١ ص ١٨٥.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـــ ٣ ص ٢٥٦.

(٣) أهل الذمة في الإسلام ص ٢٥٦.

هذا عن الساسة أما العلماء، فقد ذكر القاضي عياض في (ترتيب المدارك) قال: حدث الدارقطني أن القاضي إسماعيل بن إسحاق [1]، وهو من أعلام المالكية، وقاضي بغداد (ت ٢٨٢هـ)أن الوزير عبدون بن صاعد النصراني وزير الخليفة المعتضد بالله العباسي، دخل عليه، فقام له القاضي ورحب به، فرأى إنكار الشهود لذلك، فلما خرج الوزير قال القاضي إسماعيل: قد علمت إنكاركم، وقد قال الله تعالى:﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨)﴾(الممتحنة)، وهذا الرجل يقضي حوائج المسلمين وهو سفير بيننا وبين المعتضد.. وهذا من البر »

بل إن الكثير من الأئمة والفقهاء الذين تتلمذوا على مدرسة محمد وقفوا مواقف مشرفة في الدفاع عن أهل الذمة، واعتبار أعراضهم وحرماتهم كحرمات المسلمين:

فهذا الفقيه الأصولي المحقق شهاب الدين القرافي يشرح معنى البر المذكور في القرآن، فذكر منه:« الرفق بضعيفهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وكساء عاريهم، ولين القول لهم ــ على سبيل اللطف لهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة ــ واحتمال إذايتهم في الجوار ــ مع القدرة على إزالته ــ لطفًا منا بهم، لا خوفًا ولا طمعًا، والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم، في دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم، إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم إلى جميع حقوقهم.. »[2]

قلت: ولكن أهل الذمة مع ما ذكرته من احترام المسلمين لهم لم يكن لهم وجود في السلطة ولا في الوظائف.. لأن الإسلام لا يقر أن يوظف مسلم غير مسلم..وذلك قد يكون نوعا من الإكراه.

قال: ومن قال ذلك.. لقد ذكر التاريخ الذي لا تجرح شواهده، ولا يجرح شهوده أن المسلمين الأوائل لما فتحوا أقطار الدنيا المعروفة يومئذ أبقوا الموظفين فى أعمالهم الأولى ، فلم يكرهوا أحدا منهم على الإسلام ، و لم يفصلوا رجلا عن عمله لكونه كافرا.

يقول الدكتور (ترتون):« كانت عادة الحكومة قد جرت على استعمال النصارى الذين قلما خلا منهم ديوان من دواوين الدولة، ونلاحظ فى سنة ٢٥٣ هـــ وجود إيصال ضريبة باللغتين العربية واليونانية. وقد استعملت اللغة العربية لأول مرة فى أعمال الحكومة بأصفهـــان زمن أبى مسلم، كما أننا نرى رجلا مسيحيا يتولى إدارة السجن قريبا من الكوفة سنة ٢٦ هـــ وقت أن كان الوليد بن عقبة عاملا عليها، ولما تم للعرب فتح مصر أبقوا من فيها من العمال البيزنطيين »

ويذكر هذا الدكتور الشواهد المثبتة لذلك، ومنها أن ابن الفرات رموه بالكفر لسوقه إمارة الجيش إلى أحد المسيحيين ، فدافع عن نفسه بأنه اقتدى بالخلفاء السابقين الذين ولوا النصارى وظائف الدولة ، وكان هؤلاء العمال النصارى يلقون كل مظاهر الاحترام إلا أن المسلمين رفضوا تقبيل أياديهم بعد أن فرض ذلك عليهم.

---

(١) انظر ترجمته في: ترتيب المدارك: ١٦٦/٣ ــ ١٨١.

(٢) الفروق: ٣ /١٥.

ويذكر أنه حدث فى بغداد أن دخل أحد الوزراء النصارى ، واسمه عبدون بن صاعد على القاضى ، إسماعيل بن إسحاق ، فوقف له مرحبا، ولاحظ القاضى أن الشهود وبقية الحاضرين أنكروا عليه هذا العمل،. فلما خرج الوزير قال لهم القاضى: قد علمت إنكاركم ، وان الله تعالى يقول:﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨)، وهذا الرجل يقضى حوائج المسلمين ، وهو سفير بيننا وبين خليفتنا ، وهذا من البر ، فأمن السامعون على قوله ورضوا به »

بل إن يؤخد على الحكام المسلمين إسرافهم فى استخدام أبناء الديانات الأخرى الذين استغل بعضهم سماحة الإسلام فى معاملته لأهل الذمة استغلالا جعل أحد الشعراء يقول ـــ مندداً بعلو المترلة التى وصل إليها اليهود ـــ:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غايـــــة آمالهم وقد ملكـــوا
العز فيهم ، والمال عندهمـــو ومنهمو المستشار والملـــك
يا أهل مصر إنى قد نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك

بل إننى أكاد أجزم بأن الكثير من الموظفين من اليهود والمسيحيين خانوا الأعمال التى وكلت إليهم ، وانتهزوا فرصة توليهم المناصب الهامة ، لخدمة الطوائف التى انحدروا منها، وإهانة جمهور المسلمين.. وقد استقرأت أحوال كثير من أولئك الموظفين ، فوجدتهم يكيدون للدولة التى ائتمنتهم ، والأمة التى احترمتهم.

لقد حدث فى سنة سنة ٩٧٧ م أن آلت الرياسة فى بلدة دقوقا إلى اثنين من النصارى وتمكنا بها وتصرفا فيها تصرف الحاكم ، واستعبدا المسلمين.. فقدم بعض هؤلاء المسلمين على (جبرائيل بن محمد)، وقالوا له: إنك تريد الغزو ولست تدرى أتبلغ غرضا أم لا؟ ونحن عندنا من هذين النصرانيين من قد تعبدنا وحكم علينا، فلو أقمت عندنا وكفيتنا أمرهما ساعدناك على ذلك..فقبض جبرائيل عليهما وصادر أملاكهما.

واستوزر المعز لدين الله عيسى بن نسطور النصرانى، واستناب بالشام منشة اليهودى، ، فمال الوزير عيسى إلى النصارى ، وشجع منشة اليهود، فضج الناس بالشكوى، فألقى الخليفة القبض عليهما ، وأخذ من عيسى ثلاثمائة ألف دينار ، وغرم منشة مبلغا ضخما.

وفى سنة ٥٢٩ هـــ استوزر الحافظ لدين الله مسيحيا أرمنيا يدعى بهرام، ويلقب تاج الدولة، وقد عمد بهرام هذا إلى فصل المسلمين من وظائفهم وتعيين المسيحيين بدلهم.. وقد كان مسلك هذا الوزير المتعصب سببا فى إثارة المسلمين ضده، وخصوصا لأنه أوعز إلى النصارى بالإسراف فى بناء الكنائس والأديرة حتى ظن أن الإسلام سينقرض من مصر..فلما هاج الجمهور ضده عزل عن الوزارة.

أنا أسألك.. ولا شك أنك تعرف تاريخ قومك: هل وجدت فى أى عهد من تاريخنا المسيحى من الملوك المسيحيين من استوزر يهودا أو مسلمين؟ بل فى أى عهد استوزر الكاثوليك بروتستانتيا أو بالعكس؟

سكت قليلا، ثم قال: لا شك أنك ترى استعمال غير المسلمين فى الوظائف الكبيرة والصغيرة أمرا شائع فى بلاد الإسلام إلى هذا العصر.

أما التعصب المسيحى فهو لم يتجه إلى اضطهاد أهل الأديان الأخرى فحسب، وإلى تحريم الوظائف الجليلة والتافهة عليهم، بل إن أتباع المذهب المسيحى الواحد يحرمون أن يلى عملا بينهم صاحب مذهب مسيحى آخر.

وقد حدث فى القرن الثامن عشر أن قتل محام بروتستانتى لأن القانون الفرنسي يومئذ يحظر مهنة المحاماة على البروتستانت، وقد حار هذا الحقوقى البائس بين التعطل والارتداد عن مذهبه إلى الكاثوليكية ليستطيع العمل فى مهنته. ماذا يصنع؟ أيترك عقيدته ابتغاء الرزق. ولكن ارتداده يثير عليه أسرته المتعصبة، ثم انتهت هذه الحيرة بمقتله، واتهم أبوه باغتياله فأعدم، وقيل: إنه انتحر يأسا، وأن أباه لم يقتله تعصبا وتعرف هذه القصة بمأساة (كالاو)

وقد وقعت فى العصر نفسه قصة مشابهة تسمى مأساة (سيرفين) خلاصتها أن امرأة كاثوليكية كانت تخدم أسرة بروتستانتية، فأغرت ابنتها بالفرار إلى دير كاثوليكى حيث سيمت سوء العذاب لتغير عقيدتها، غير أن الفتاة تخلصت من عذابها بالانتحار غرقا فى بئر، فاتهمت السلطات الكاثوليك أباها بإغراقها ليحول دون ارتدادها عن دينها.. ثم صدر حكم قضائى بقتل الرجل وامرأته ومصادرة أملاكهما.

قلت: ربما يكون كل ما تذكره صحيحا في هذا.. وأنا لا أناقشك فيه.. ولكني أتحدث عن الحرية الدينية على وجه الخصوص.. أي حرية غير المسلم في إقامة شعائره الدينية، وبناء معابده التي يمارس فيها شعائره.

قال: لقد صان الإسلام هذا.. بل اعتبره من الميادين التي تشرع الحرب لأجلها، قد قال القرآن:﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)﴾(الحج)

التفت إلي، وقال: أتدري المقصود بالصوامع والبيع والصلوات؟

قلت: ما المقصود منها؟

قال: هذه كلها معابد لغير المسلمين [1].. وقد ذكرها القرآن في محل واحد مع المساجد، واعتبر القتال مأذونا به في حال تهديمها.

لم يذكر القرآن ذلك نظريا فقط..

---

(١) الصَوَامِعُ: هي المعابد الصغار للرهبان، قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، وعكرمة، والضحاك، وغيرهم.. وقال قتادة: هي معابد الصابئين، وفي رواية عنه: صوامع المجوس.. وقال مقاتل بن حَيَّان: هي البيوت التي على الطرق.

البيع: هي أوسع منها، وأكثر عابدين فيها، وهي للنصارى أيضًا. قاله أبو العالية، وقتادة، والضحاك، وابن صخر، ومقاتل بن حيان، وخُصَيف، وغيرهم.. وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره: أنها كنائس اليهود.. وحكى السدي، عمن حَدّثه، عن ابن عباس: أنها كنائس اليهود، ومجاهد إنما قال: هي الكنائس.

الصَلَوَات: قال العوفي، عن ابن عباس: الصلوات: الكنائس. وكذا قال عكرمة، والضحاك، وقتادة: إنها كنائس اليهود. وهم يسمونها صَلُوتا.. وحكى السدي، عمن حدثه، عن ابن عباس: أنها كنائس النصارى. (انظر: تفسير ابن كثير: ٥/٤٣٥)

بل قد تحقق ذلك عمليا.. فقد اشتمل عهد محمد إلى أهل نجران، أن لهم جوار الله وذمة رسوله على أموالهم وملَّتهم وبيَعهم.

وفي عهد عمر بن الخطاب إلى أهل إيلياء (القدس) نص على حُريتهم الدينية، وحرمة معابدهم وشعائرهم، ففيه:« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسائر ملَّتها، لا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم ولا ينتقص منها، ولا من حيزها، ولا من صليبها، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم. ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.. »[1]

وفي عهد خالد بن الوليد لأهل عانات:« ولهم أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاءوا من ليل أو نهار، إلا في أوقات الصلاة، وأن يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم »[2]

لم يكتف الإسلام بهذا فقط.. بل إن من الفقهاء مَن أجاز لأهل الذمة إنشاء الكنائس والبيَع وغيرها من المعابد في الأمصار الإسلامية، وفي البلاد التي فتحها المسلمون عنوة، أي أن أهلها حاربوا المسلمين و لم يسلموا لهم إلا بحد السيف إذا أذن لهم إمام المسلمين بذلك، بناء على مصلحة رآها، ما دام الإسلام يقرهم على عقائدهم.

وقد ذهب إلى ذلك الزيدية والإمام ابن القاسم من أصحاب مالك[3].

بل إن العمل قد جرى على هذا في تاريخ المسلمين، ومنذ عهد مبكر، فقد بُنِيت في مصر عدة كنائس في القرن الأول الهجري، مثل كنيسة (مار مرقص) بالإسكندرية ما بين (٣٩ – ٥٦ هـ)

كما بُنِيت أول كنيسة بالفسطاط في حارة الروم، في ولاية مسلمة بن مخلد على مصر بين عامي (٤٧ – ٦٨ هـ)

كما سمح عبد العزيز بن مروان حين أنشأ مدينة (حلوان) ببناء كنيسة فيها، وسمح كذلك لبعض الأساقفة ببناء ديرين.

وهناك أمثلة أخرى كثيرة على ذلك..

اذهب إلى كتاب (الخطط) للمؤرخ المقريزي، فسترى الأمثلة الكثيرة المثبتة لذلك.. لقد قال في نهاية سرده لها:« وجميع كنائس القاهرة المذكورة محدَثة في الإسلام بلا خلاف»[4]

لقد استمر هذا السلوك الإسلامي المتسامح في جميع فترات التاريخ.. ففي العهد العثماني رأى بعض

---

(١) تاريخ الطبري:٣ / ٦٠٩.

(٢) الخراج لأبي يوسف ص ١٤٦.

(٣) انظر: أحكام الذميين والمستأمنين ص ٩٦ – ٩٩.

(٤) انظر: الإسلام وأهل الذمة للدكتور علي حسني الخربوطلي ص ١٣٩، و(الدعوة إلى الإسلام) تأليف توماس. و. أرنولد ص ٨٤ – ٨٦ ط. ثالثة. ترجمة د. حسن إبراهيم وزميليه.

الخلفاء حينذاك أن الشعوب البلقانية المسيحية الخاضعة له لا تنفك عن الثورة والتمرد وإحداث الفتن والقلاقل، فرأى أن يجبرهم على دخول الإسلام، واستفتى شيخ الإسلام في عهده، وعلماء المسلمين، فأبوا فكرته محتجين بما ذكرنا سابقا من قول القرآن:﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)﴾(البقرة)

تصور.. لو أن الدولة العثمانية أرادت إكراه شعوب البلقان على الإسلام لتم لها ذلك في في جيل أو جيلين.. ولكن سماحة الإسلام أبت عليهم ذلك.

سكت قليلا، ثم قال: وهذا التسامح مع المخالفين في الدين من قوم قامت حياتهم كلها على الدين، وتم لهم به النصر والغلبة، أمر لم يُعهد في تاريخ الديانات.

التفت إلي، وقال: لقد وصلت إلى هذه النتيجة.. وقد وصل إليها قبلي الكثير من المستشرقين.. فهذا صديقي العلامة الفرنسي جوستاف لوبون يقول:« رأينا من آي القرآن التي ذكرناها آنفًا أن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، وأنه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على وجه الخصوص، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنته »

وكمثل هذه الشهادة اعترف بعض علماء أوروبا المرتابون أو المؤمنون القليلون الذين أمعنوا النظر في تاريخ المسلمين..

لقد قال روبرتسن في كتابه (تاريخ شارلكن):« إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى وأنهم مع امتشاقهم الحسام نشرًا لدينهم، تركوا مَن لم يرغبوا فيه أحرارًا في التمسك بتعاليمهم الدينية »[1]

وقال كيرك:« إن غالبية أهل الشام ومصر السفلى في القرن التاسع كانت لا تزال مسيحية على الرغم من أن الإسلام قد مضى عليه في هذه البقاع أكثر من قرنين »

ليس الأمر خاصا بالشام أو مصر أو المغرب.. لقد كان عاما بكل البلاد:

لقد فتح المسلمون الأندلس، وظلوا هنالك ثمانية قرون.. فلم يفرضوا عقيدة الإسلام على مسيحيي الأندلس، بل دخل منهم من دخل الإسلام حبا فيه وإيمانا بصدقه، وبقى المسيحيون مسيحيين حتى ردوا للمسلمين الجميل بطردهم من الأندلس مع التعذيب والتنكيل والتشريد على أبشع صورة وعاها التاريخ.

لقد كانت الأندلس ــ إبان حكم المسلمين ــ هى الملاذ الآمن لليهود والمسيحيين على السواء، كلهم يشعرون فيها بالأمن الكامل فى ظل الحكم الإسلامى، بينما أوروبا كلها تضطهد اليهود وتنكل بهم، وبينما المسيحيون المخالفون لمذهب الكنيسة يعيشون فى رعب دائم من الإرهاب.

وفتح المسلمون الهند، وحكموها ثمانية قرون.. فلم يفرضوا العقيدة الإسلامية على الوثنيين الهنود، بل تركوهم لعقائدهم مع أن فيها مالا يعقله عاقل، من عبادة للبقر، وغيرها، وإنما فرضوا عليهم فقط أن يكفوا عن

(١) حاشية من صفحة ١٢٨ من كتاب (حضارة العرب) لجوستاف لوبون.

بعض عاداتهم الوحشية التى كانوا يمارسونها من دفن الأرملة حية مع زوجها المتوفى، أو حرقها حية.

وقد ظل الهندوس محافظين على عقائدهم وتقاليدهم فى ظل الحكم الإسلامى حتى تسلموا حكم الهند بمساعدة الصليبيين الإنجليز، فردوا الجميل للمسلمين بالعدوان المستمر عليهم وتحريق قراهم وتعمد الإثارة الدائمة لهم، والتهييج الدائم لخواطرهم.

سكت قليلا، ثم قال: أنا أتعجب من هؤلاء الذين يكيلون بمكاييل مختلفة.. فهم يمارسون على مخالفيهم كل أنواع الاستبداد، ثم يبررون ذلك بما تشاء لهم شياطينهم من مبررات.. فإذا جاء الإسلام لينشر على المجتمعات رايات العدل والعبودية والسماحة والوفاء وجميع الأخلاق الطيبة قامت الدنيا عليه و لم تقعد.

إن هؤلاء لا يكاودن ينكرون.. بل لا يكادون يلتفتون إلى أصحاب العقائد اللادينية الحديثة، ودعاة (الأيديولوجيات) الانقلابية في القرن العشرين.

لا يلتفتون إلى ما عاملوا به مخالفيهم في المذهب والاتجاه.. بل ماذا صنعوا ويصنعون بزملائهم في الفكرة، ورفقائهم في الكفاح، إذا خالفوا رأيهم، أو فكروا غير تفكيرهم.

إن هؤلاء لم يلتفتوا إلى المسلمين في الحبشة ــ مثلاً ــ وما يقاسونه من عنت واضطهاد وإهدار للحقوق الإنسانية، مع أنهم يكونون أغلبية السكان، ولهم أقاليم إسلامية خالصة لا يشاركهم فيها غيرهم[1].

و لم يلتفتوا إلى المسلمين في روسيا أو يوغسلافيا أو الصين أو غيرها من البلاد في فترة الحكم الاشتراكي[2].

لقد كان المسلمون في بعض الجمهوريات في روسيا وبعض الأقاليم في يوغوسلافيا والصين أكثرية ساحقة في عدد السكان.. ومع هذا يمنعون من أداء ما يعتقدون وجوبه كالصلوات الخمس والحج والتفقه في الدين وإنشاء المساجد التي تقام فيها شعائر الإسلام والمعاهد التي تمد هذه المساجد بالأئمة والمعلمين والخطباء..

ففلسفة الثوريين من الشيوعيين وأمثالهم تعتبر العنف في ذاته ضروري للتثقيف الانقلابي، ولرعاية (الديناميك) الثوري، وحفظ نقاء وصفاء هذا الديناميك.

فالحركة ــ كما يزعمون ــ تعتمد العنف كي تهز أو تحرك الشعب من سباته، وكي تحرضه دائمًا على الحركة، وكي تشحذ وجدانه الثوري.

والعنف يعني وضع الثورة أمام الشعب بشكل مستمر، كي لا يغفو الشعب أو تغيب الثورة عن وعيه وضميره، إنه ــ بعبارة أخرى ــ وسيلة في منع الشعب من اجترار الثروة كجزء من تقليد، وبطريقة غير واعية، إذ يعني ذلك موت الثورة [3].

---

(١) انظر: كتاب (مأساة الإسلام الجريح في الحبشة)، وكذلك التقرير الذي كتبه طالبان أزهريان من الحبشة عن وضع المسلمين هناك، ونشره الشيخ محمد الغزالي في كتاب (كفاح دين) تحت عنوان (ذئاب الحبشة تنهش الإسلام)، وانظر: كتاب (اريتريا والحبشة) في سلسلة مواطن الشعوب الإسلامية للأستاذ محمود شاكر، نشر مكتبة الأقصى ــ عمان.

(٢) انظر: فصل (أحوال المسلمين في الاتحاد السوفييتي) من كتاب (الإسلام في وجه الزحف الأحمر) للشيخ محمد الغزالي.

(٣) انظر: الأيديولوجية الانقلابية ــ فصل (العنف الانقلابي) ص٧٠١.

ومما قاله أحد الدارسين للأيديولوجية اللادينية الحديثة:« يتخذ العنف عادة قبل الاستيلاء على الدولة شكلاً فرديًا يكون هدفه ــ كما حدده الفوضويون، وفي طليعتهم الفوضوية الروسية ــ التهويل وتفكيك السلطة، عن طريق الخوف، وإعداد الطريق بذلك للخطوة التالية، ألا وهي الاستيلاء على الدولة.

ولكن بعد الاستيلاء على الدولة يتحول هذا العنف إلى عنف جماعي هدفه ترسيخ السلطة وتثبيتها بدلاً من تفكيكها، فبينما يتجه العنف الفردي إلى أفراد في مراكز رئيسية حساسة، يتجه العنف الجماعي الانقلابي الجديد صوب الشعب ككل، أو صوب جماعة معينة. إن الهدف من العنف الثاني ليس اعتماد الخوف فقط، بل إزالة العدو من الوجود، كي ينسجم المجتمع مع المذهب الجديد »[1]

وقد ارتكب الشيوعيون ــ بسبب هذه الفلسفة ــ في روسيا من الفظائع والمذابح، عند القيام بثورتهم وبعدها ما لا يخطر ببال، وما يفوق كل خيال، حتى إن بعض معاوني (لينين) ــ مؤسس الجولة الشيوعية الأولى في هذا العصر ــ أخذوا يتذمرون من التضحيات الكبرى بالدماء والأرواح التي نتجت عن الحرب الأهلية، فلما كلّموه في ذلك كان جوابه بكل بساطة:« ليس للأمر أهمية أبدًا إن مات ثلاثة أرباع الشعب، إن ما يهمنا هو أن يصبح الربع الباقي شيوعيًا »[2]

أما ما وقع في عهد (ستالين) من مجازر وفظائع، وما شهده الشعب من حمامات الدم، وحملات التطهير المتلاحقة، فحدِّث ولا حرج، وقد جرت به أنهار الصحف، وتناقلته أنباء العالم في عهد (خروشوف)، ولا يتسع المجال لذكر نماذج منه هنا[3].

قلت: ذلك المعسكر الشرقي.. وقد أثبتت الأيام فشله.. ونحن الآن في واقع آخر أكثر احتراما للرأي.

قال: تقصد المعسكر الغربي..

قلت: أجل.. فقد زال كابوس الاتحاد السوفيتي..

قال: ولكن كابوس الولايات المتحدة الأمريكية لا يزال يملأ أحلام الصبيان بالرعب..

إن ما تفعله أمريكا.. وما يفعله إخواننا وأهل بلادنا.. لا يقل عما فعله الروس وغيرهم من أهل المعسكر الشرقي..

أخرج ورقة (دولار) من فئة الدولار الواحد، وأشار إلى بعض أطرافها، وقال: أتدري ما كتب في هذا الطرف؟

قلت: لا طاقة لي بفهمه، ولا بقراءته.

---

(١) انظر: الأيدولوجية الانقلابية للدكتور نديم البيطار – منشورات المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر ــ بيروت ص ٧٠٦ – ٧٠٧.

(٢) الأيدولوجية الانقلابية، ص٦٨٨.

(٣) انظر: خطاب الرفيق خروشوف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي ــ ترجمة ماهر نسيم وتقديم الأستاذ عباس العقاد، نشر مكتبة الأنجلو المصرية ــ مطبعة الرسالة.

قال: لقد كتب باللاتينية (النظام العالمي الجديد)

قلت: إن هذا هو الشعار الذي أطلقه الرئيس السابق للولايات المتحدة جورج بوش الأب في سياق حملته المسعورة ضد العراق في حرب الخليج الثانية[1].

قال: إن هذه العبارة الموجزة تمثل حقيقة وجود الولايات المتحدة الأمريكية، هذا الوجود الذي قام منذ بدايته على أنقاض شعب بأكمله ذبحتهم آلة الاستيطان الأمريكية لتمحو من على وجه قارة بأكملها شعباً كان يسمى بالهنود الحمر، فإذا ببقايا بقاياهم اليوم أعداد تافهة في مستعمرات أقرب إلى حظائر البهائم منها إلى ديار البشر.

وبعد جريمة الإبادة هذه التي كانت حصيلتها بالملايين ظهرت نزعة استعلاء أخرى تمثلت في استعباد واسترقاق ملايين الأفارقة السود ــ وكثير منهم من المسلمين ــ ليكونوا آلة الحرث التي تسوى بها البلاد، وكير الحدادة الذي تؤسس به صناعاتها.

ثم لم تلبث أن مدت الولايات المتحدة الأمريكية أذرع الاستكبار الأخطبوطي عبر العالم لاستنزاف ثروات الشعوب، ونهب خيراتها والعبث بمصيرها، فما من منطقة في العالم قد سلمت من حرب أو آثار حرب أمريكية.

خذ على سبيل المثال لا الحصر بعضاً من الحروب الدامية التي لوثت بها أمريكا يديها في القرن العشرين: الحرب الأمريكية الإسبانية (١٨٩٨)، والحرب الأمريكية الفليبينية (١٨٩٩)، والحرب الأمريكية الصينية (١٩٠٠)، والحرب العالمية الأولى (١٩١٧-١٩١٨)، والحرب العالمية الثانية (١٩٤١-١٩٤٥)، والحرب الكورية (١٩٥٠-١٩٥٣)، والحرب الأمريكية الفيتنامية (١٩٦١- ١٩٧٣)، وحرب الخليج الثانية (١٩٩١)، والحرب العدوانية على أفغانستان، والتي لم تنته بعد.. وأخيرا الحرب العدوانية الهمجية على العراق سنة ٢٠٠٣، والتي لم تنته بعد.. والتي زعم أن سببها هو نشر الديمقراطية.. فهل يباح للديمقراطية ــ والتي لا تعني إلا مصالحهم الضيقة ــ أن تنشر بالسيف، ولا يباح للإسلام ــ دين المبادئ العظيمة ــ أن يستعمله ليزيح عن المستضعفين أغلال الطواغيت.

سكت قليلا، ثم قال: هذا قليل من كثير.. ولو أني مضيت في ذكر الأمثلة الكثيرة المثبتة لطبيعة المد التوسعي الذي تمارسه الولايات المتحدة لانتهى النهار دون أن ننتهي من ذكر ذلك.

وحسبنا الواقع المشاهد من تصريحات القيادة الأمريكية الحالية لنقف على خطورة الأمر، فقد سمع العالم أجمع تصريحاته في سياق حملته المسعورة على ما سماه (الحرب ضد الإرهاب)، والتي هي في حقيقتها (حرب ضد الإسلام) حيث صرح بأنه سيعلنها حرباً صليبية، ولا يدع للناس خياراً سوى الانضواء تحت راية الولايات المتحدة، أو اعتباره عدواً لها.

قلت: ذلك رجل لا دين له.. وهو لا يحظى باحترام أحد من الناس.. وهو إن مثل طائفة من الطوائف فهو لا يمثل المسيحية.. بل هو لا يمثل إلا تلك الطبقات التي لا تعبد إلا الدولار، ولا تسبح إلا بحمد البترول.

---

(١) انظر: اجتماع الجيوش القرآنية على تجريم الولايات المتحدة الصليبية، د. وسيم فتح الله.

قال: وإخواننا من المسيحيين المسالمين في ظواهرهم لا يقلون شأنا[1]..

قارن ما سجله التاريخ للمسلمين حينما فتحوا الأندلس، بما سجل لخصومهم المسيحيين، حينما قُدِّر لهم أن ينتصروا عليهم، بعد ثمانية قرون عَمَّروا فيها بلاد الأندلس بالعلم والنور، وأقاموا فيها حضارة باهى بها التاريخ[2]:

لقد ذكر التاريخ أن الكنيسة الأسبانية غضبت لانتشار فلسفة ابن رشد وأفكاره، وخصوصًا بين اليهود، فصبت جام غضبها على اليهود والمسلمين معًا، فحكمت بطرد كل يهودي لا يقبل المعمودية، وأباحت له أن يبيع من العقار والمنقول ما يشاء بشرط ألا يأخذ معه ذهبًا ولا فضة، وإنما يأخذ الأثمان عروضًا وحوالات.

وهكذا خرج اليهود من إسبانيا تاركين أملاكهم لينجوا بأرواحهم، وربما اغتالهم الجوع ومشقة السفر، مع العدم والفقر.

وحكمت الكنيسة كذلك سنة ١٠٥٢م على المسلمين الذين كانت تسميهم (أعداء الله) بطردهم من إشبيلية وما حولها إذا لم يقبلوا المعمودية، بشرط ألا يذهبوا في طريق يؤدي إلى بلاد إسلامية، ومن خالف ذلك فجزاؤه القتل.

سكت قليلا، ثم قال: لم يكن اضطهاد الكنيسة لمخالفيها قاصرا على اليهود أو المسلمين، بل كان شاملا لكل مخالف حتى المسيحيين أنفسهم الذين لهم رأي أو مذهب يخالف مذهب الحكام، أو مذهب الكنيسة المعتمدة لديهم.

لاشك أنك قرأت ما جرى للعالم المصري (آريوس) وأتباعه الذين عارضوا القول بألوهية المسيح، في مجمع نيقية المشهور (٣٢٥م)، وكيف قرر هذا المجمع ــ بعد أن طرد من أعضائه كل المعارضين ــ وهم الأكثرية ــ إدانة (آريوس) وإحراق كتاباته، وتحريم اقتنائها، وعزل أنصاره من كل الوظائف، ونفيهم، والحكم بالإعدام على كل من أخفى شيئًا من كتابات (آريوس) ومن أَيَّد مذهبه.

وباستمرار الاضطهاد للداعين إلى التوحيد اختفوا تمامًا من المجتمعات المسيحية، و لم يبق لدعوتهم أثر.

لقد كان هذا محل سخرية من بعض الباحثين، فقال:« إن الاختلافات اللاهوتية بين المسيحية في تفسير بعض أقوال أو مبادئ التوراة، كانت تؤدي إلى قتال يحصدهم حصدًا: أن يشتق الروح القدس من الأب والابن، أومن الابن وحده.. أو أن يكون الخبز والنبيذ جسدًا ودمًا أو لا يكونا.. أو أن يكون المسيح ذا طبيعتين أو لا يكون: طبيعة إنسانية وطبيعة إلهية... كانت كلها مماحكات مات الناس في الدفاع عنها والخصام حولها بعشرات الألوف، وعذب المؤمنون بعضهم بعضًا في سبيلها بأشد أنواع التعذيب »[3]

ولما ظهر مذهب البروتستانت في أوروبا ــ على يد (لوثر) وغيره ــ قاومت الكنيسة الكاثوليكية أتباع

---

(١) سنتحدث في هذه الرسالة عن جرائم الحروب الصليبية في فصل (السلام)

(٢) انظر: الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية، محمد عبده، ص٣٦ – ٣٧.

(٣) الأيديولوجية الانقلابية ص٧١٤.

هذا المذهب بكل ما أوتيت من قوة، وعرف تاريخ الاضطهاد مذابح بشرية رهيبة، من أهمها مذبحة باريس في ٢٤ أغسطس عام ١٥٧٢م التي دعا فيها الكاثوليك البروتستانت ضيوفًا عليهم في باريس للبحث في تسوية تقرب بين وجهات النظر، فما كان من المضيفين إلا أن سطوا على ضيوفهم تحت جنح الليل، فقتلوهم خيانة وهم نيام.. فلما طلع الصباح على باريس كانت شوارعها تجري بدماء هؤلاء الضحايا، وانهالت التهاني على (تشارلس التاسع) بغير حساب من البابا، ومن ملوك الكاثوليك وعظمائهم.

والعجيب أن البروتستانت لما قويت شوكتهم، قاموا بدور القسوة نفسه مع الكاثوليك، ولم يكونوا أقل وحشية منهم[1].

لقد قال (لوثر) يحرض أتباعه على ممارسة كل أساليب القمع مع مخالفيهم:« من استطاع منكم فليقتل، فليخنق، فليذبح، سرًا أو علانية، اقتلوا واخنقوا، واذبحوا، ما طاب لكم، هؤلاء الفلاحين الثائرين »[2]

وقد ذكر (فيارك) أن الحرب الدينية الثلاثينية قضت حرفياً في ألمانيا وحدها على أكثرية الشعب الألماني بين قتل وجوع، وحرقت معظم مدنها المزدهرة، وحولتها إلى رماد.

سكت قليلا، ثم قال: أتدري إلى ما يرمز الصليب؟

قلت: للصليب رموز روحية كبرى.. إنه رمز الفداء.. ورمز المحبة..

قاطعني، وقال: أضف إلى هذه الرموز رمزا جديدا.

قلت: ما هو؟

قال: سفك الدماء.. وكبت الحريات.. والاستبداد.

قلت: كيف تقول هذا؟

قال: أنا أقول الحقيقة التي حفظها التاريخ.. ولكن أبناء شعبنا نسوها.. إنهم يسخرون من سيف محمد الذي حرر به المستعمرين، وأعتق به العبيد، ولا يسخرون من صلباننا التي دعانا قسطنطين لحملها.

قلت: لم يدعنا قسطنطين لذلك.

قال: سأقص عليك قصة ثبتت عندي.. ولا حرج عليك في إنكارها، فكل الدلائل تدل عليها.. بها يتبين لك أن صلباننا رمز مؤلم يذكرنا بتاريخ دموي اقترن بها منذ اتخذناها رمزا لديانتنا.

إن الصليب لم يعتمد كرمز رسمي للمسيحية، ولم يوضع على الكنائس والحوائط والصدور بهذا الشكل إلا فى عهد قسطنطين.. ذلك الامبراطور الوثنى الظالم.

سأقص عليك القصة من البداية لتعرف كيف انتشرت المسيحية..

عندما كان قسطنطين يقاتل مكسنتيوس فى صراع دنىء من أجل السيطرة على الشق الشرقى والغربى من الامبراطورية الرومانية، ادعى أنه رأى بعد غروب الشمس هالة من النور فى السماء على شكل صليب، وتحتها

---

(١) انظر: المسيحية، للدكتور أحمد شلبي، ص٥١ – ٥٢.

(٢) الأيديولوجية الانقلابية، ص٧١٠.

عبارة (بهذا تنتصر)، فلما نام نام رأى فى منامه صورة المسيح ومعه الصليب نفسه، وأمره باتخاذ الصليب شعارا له، ثم الزحف على عدوه فورا.. وصدق قومنا المساكين رؤيا قسطنطين، كما صدقوا قبلها خرافة بولس.

فكانت ولادة رمز الصليب مقترنة بالدماء..

لقد سار ناس كثيرون خلف قسطنطين بسبب هذه الرؤيا العجيبة.. وقاتلوا في المعركة قتالا مستميتا.. لا من أجل المسيح ولا من أجل المسيحية، و إنما من أجل السلطان و النفوذ.

إن الصليب ــ يا صاحبي ــ ليس رمزا للفداء والتضحية والمحبة.. إنه رمز الحرب والقتل والدماء.. فقسطنطين لم ير صليبا يأمره بالتقوى وبحقن الدماء، بل رأى صليبا يقول له (بهذا تغلب) أى بهذا تسفك دماء أعداءك وتذبحهم ، وبهذا تزيد من نفوذ الدولة الرومانية الغاشمة وتحافظ على ملكك الدنيوى الحقير.

إن الصليب يرمز إلى الحقيقة العظيمة التي حاولنا أن نرمي بها الإسلام.. وهي أن المسيحية هي التي انتشرت بالسيف لا الإسلام.. لقد ظلت المسيحية قبل ذلك، ولمدة ٣٠٠ عام دعوى مغمورة لا يتبعها سوى ١٠ بالمائة من سكان الامبراطورية الرومانية حتى عهد قسطنطين وأبنائه الذين ساموا أتباع الديانات الأخرى من الوثنيين فى الامبراطورية سوء العذاب.

واستمر الصليب رمزا للدماء..وسبيلا لنشر المسيحية.. سأذكر لك بعض النماذج عن كيفية انتشار المسيحية في العالم:

ولنبدأ بالإمبراطورية الرومانية التي كانت تسيطر على كل أوروبا، فقد كان فرضها للمسيحية بالسيف على كل أوروبا هو المتبع من قبل الأباطرة الرومان، وقد ظل شارلمان يحارب السكسونيين ثلاثة و ثلاثين سنة كلها عنف و دموية حتى أخضعهم، وحولهم قسرا إلى الديانة المسيحية، كما تطلب ثماني رحلات متتابعة حتى هزم الأفاريين الذين قيل عن أسلاب كنوزهم المكدسة أنها رفعت شارلمان من أعالى الغنى و الثروة إلى شاهق الفيض والوفرة، وكان فرض المسيحية على السكسونيين على يد ليودجر وويليهاد.

وقد ذكر (بريفولت) أن تقدير المؤرخين للناس الذين قتلتهم المسيحية في انتشارها ــ أي في أوروبا ــ يتراوح بين سبعة ملايين كحد أدنى، وخمسة عشر مليون كحد أعلى[1].

إن فظاعة هذا العدد تتضح لنا عندما نذكر أن عدد سكان أوروبا آنذاك كان جزءًا ضئيلاً فقط مقارنة بعدد سكانها اليوم.

وقد أكرهت مصر على اعتناق المسيحية، ولكنها هبطت بذلك إلى الحضيض الذى لم ينقذها منه سوى الفتح الإسلامى.. حتى الذين ظلو على الكفر كان الفتح الإسلامى منقذا لهم من اضطهاد الروم (الكاثوليك)، فكان فتح مصر و تسامح الإسلام سببا فى خروجهم من الكهوف التى كانوا يختبئون فيها.

وفى الدنمارك، كان للملك كونت دور خطير فى نشر المسيحية فى ممتلكاته بالقوة والإرهاب، ومن ثم أخضع الأمم المغلوبة على أمرها للقانون المسيحى بعد أن اشتبك مع الممالك المتبربرة فى حروب طاحنة مدفوعا

---

(١) انظر: الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية، للإمام محمد عبده.

بما كان يضطرم فى نفسه من الشوق إلى نشر العقيدة.

وفى روسيا انتشرت المسيحية على يد جماعة اسمها (إخوان السيف).. وقد دخلت قبل ذلك على يد فلاديمير دوق كييف (٩٨٥-١٠١٥)، وهو سليل رورك، ويضرب به المثل فى الوحشية والشهوانية، إذ جاء إلى الدوقية فوق جثة آخر إخوته، واقتنى من النسوة ثلاثة آلاف وخمسمائة.. على أن ذلك كله لم يمنع من تسجيله قديسا فى عداد قديسى الكنيسة الأرثوذوكسية، لأنه الرجل الذى جعل كييف مسيحية، وقد أمر فلاديمير بتعميد أهل دوقية روسية كلهم كرها فى مياه نهر الدنيبر.

وقد سمل باسيليوس الثانى وهو من أكبر ناشرى المسيحية في روسيا أعين ١٥ ألف من الأسرى البلغار إلا مئة و خمسين منهم أبقى لكل منهم عينا واحدة ليقودوا إخوانهم فى عودتهم لبلادهم.

أما فى النرويج فقد قام الملك أولاف ترايفيسون بذبح الذين أبو الدخول فى المسيحية، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم أو نفيهم و تشريدهم.. وبهذه الوسائل نشر المسيحية في (فيكن) القسم الجنوبى من النرويج بأسرها.

أما فى الأمريكيتين، فقد كانت المأساة الكبرى.. لقد حصلت إبادة عشرات الملايين من الهنود الحمر.. وإبادة حضارة الأنتيل.. وإبادة حضارة المايا.. وإبادة حضارة الأزتيك.. وإبادة حضارة الأنكا فى بيرو..

وقد نشرت الصحف صورة لما رافق اكتشاف جزيرة هايتى على يد الإسبان، وكانت المادة العلمية تحتها تقول:« وانشغل ضباط أسبان ــ وهم خلفاء المستكشف صاحب الحملة ــ باكتشاف جزيرة هاييتى واحتلالها وكانت ما تزال أرضا مجهولة، وقد تولى هذه المهمة كل من دينغو فلاسكيز وبانفليو دونارفيز، فأبديا من ضروب الوحشية ما لم يسبق له مثيل متفنيين فى تعذيب سكان الجزيرة بقطع أناملهم وفقء عيونهم وصب الزيت المغلى والرصاص المذاب فى جراحهم، أو بإحراقهم أحياء على مرأى و مسمع من الأسرى، ليعترفوا بمخابىء الذهب و ليهتدو إلى دين المحبة »

وقد حاول أحد الرهبان إقناع الزعيم (هايتهاى) باعتناق المسيحية، وكان مربوطا إلى المحرقة، فقال له: إنه إذا تعمد يذهب إلى الجنة، فسأله الزعيم الهندى قائلا: وهل فى الجنة إسبان؟

فأجابه: نعم ماداموا يعبدون الإله الحق.

فقال الزعيم الهندى: أنا لا أريد أن أذهب إلى مكان أصادف فيه أبناء هذه الأمة المتوحشة!!

ومن أمثلة ما فعله المسيحيون فى أطفال الإنكا و المايا والأزتيك أن قابل مسيحيون هندية، وكانت تحمل بين ذراعيها طفلا تقوم بإرضاعه، وبما أن الكلب الذى كان يرافقهم كان جائعا فقد انتزعوا الطفل من بين ذراعى أمه ورموه للكلب الذى أخذ ينهشه على مرأى من أمه.

وعندما كان بين السجناء بضع نساء وضعن حديثا، فإنهم ما إن كان الاطفال الذين ولدوا حديثا يأخذون فى الصراخ يمسكونهم من سيقانهم ويصرعونهم فى الصخور.

وعند وصول الجنود إلى القرية بعد الإفطار على العشب راودت الإسبان فكرة جديدة، وهى التحقق مما إذا كانت سيوفهم قاطعة بالدرجة التى تبدو بها.. فجأة يستل الإسبانى سيفه، وسرعان ما يحذو المائة الآخرون حذوه ويشرعون فى تمزيق أحشاء وذبح هذه الشياه من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ الذين كانو جالسين

مطمئنين يتفرجون فى عجب على الجياد والإسبان، وفى ثوان معدودة لا يبقى أحد من هؤلاء الأبرياء على قيد الحياة حتى سال الدم فى كل مكان، كما لو أنه قد جرى ذبح قطيع كامل من الأبقار.

ولا يجد (لاس كاساس) أى تفسير لهذه الوحشية.. لقد كان مشهد الجراح التى تغطى أجساد الموتى مشهد رعب و ذعر على حد قوله، و لم تنبس الكنيسة (صاحبة السلطة الدينية و الزمنية) ببنت شفة تجاه كل ما كان يحدث من مذابح.. بل لا تجد إلا مباركتها.

و قد وصل الحد فى أمريكا فى عهد هجرة الأيرلانديين البرتستانت أن صدر قانون يجيز إبادة الهنود الحمر فى كل مكان يتواجدون فيه، لأن أمريكا كانت هى أرض الميعاد وفق تفسير البروتستانت للكتاب المقدس وقتها.. وهذا التحريف ليس بجديد، فهم الآن يساعدون اليهود فى ذبح المسلمين فى فلسطين لأن التفسير الحديث للكتاب المقدس يستلزم ذلك حتى يمهدو الأجواء لعودة المسيح..

وفي أستراليا ما رس الإنجليز نفس الأسلوب فى حق سكان الأصليين لأستراليا.

يقول القس فرانزغريس:« إن االأمم المسيحية وأكثر من ذلك تاريخ الكنيسة بالذات مضرج بالدماء، ملطخ، ولربما أكثر تضرخا ووحشة من أى شعب وثنى آخر فى العالم القديم، إن أمما ذوات حضارات زاهية باهرة قد أزيلت وأبيدت ومحيت ببساطة وسهولة من الوجود وكل ذلك باسم النصرانية »

لم يقتصر دور السيف الذي يرمز له الصليب في نشر المسيحية فقط.. بل كان له دور آخر.. وهو نصرة طوائف المسيحية بعضها على بعض..

لقد كانت حرب الكنيسة ضد حركات الانشقاق الديني دائما، عندما كانت الكنيسة قادرة على ذلك، حرب إفناء، ثم كانت بعض هذه الطوائف المنشقة ترغب في أن تكون حربها هي الأخرى حرب إفناء لجميع أتباع الكنيسة.

وقد ذكر (رينو)فى كتابه (مختصر تاريخ الحقوق الفرنسية) أن فرنسا أصدرت عام ١٦٨٥م أمرا بتحريم الديانة البروتستانتية وهدم كنائسها ونفى رؤسائها، وفى عام ١٧١٥م عدت كل زواج لا يعقد على الطريقة الكاثوليكية غير مشروع.

وفى عام ١٧٢٤ حرم البروتستانت من تولى الوظائف، وأمرت فرنسا بأخذ الأطفال البروتستانت عنوة من أمهاتهم ليربوا تربية كاثوليكية[1].

أما عن محاكم التفتيش، فحدث ولا حرج.. لقد اشتدت وطأة هذه المحكمة حتى قال أهل ذلك العهد:« يقرب من المحال أن يكون الشخص مسيحيًا ويموت على فراشه»

لقد حكمت هذه المحكمة من يوم نشأتها سنة ١٤٨١م حتى سنة ١٨٠٨م على ٣٤٠٠٠٠ نسمة، منهم

---

(١) ولا يزال هذا الأسلوب حيا إلى يومنا هذا، وقد حرم شاب مصرى تزوج من بولندية من الحصول على أطفاله الأربعة بعد موت أمهم ليعود بهم إلى مصر، وتمكن من اختطاف ثلاثة منهم (على حد تعبير الكنيسة) و لا تزال طفلته فى الكنيسة تهان وتجبر على عبادة المسيح من دون الله وتؤهل لتكون من (خدم) الكنيسة.. وهي قضية مشهورة تناولتها الصحف المصرية.

۲۰۰۰۰۰ أحرقوا أحياء.

وقد ذكر (لي) في دراسته الكلاسيكية حول محاكم التفتيش في القرون الوسطى أن جميع المحاكم والقضاة في الحاضر والمستقبل، كانوا ملزمين بأن يُقْسموا على إزالة كل الذين تعتبرهم الكنيسة كفرة، وإلا فإنهم يخسرون مراكزهم، إن أي حاكم زمني يهمل لعام واحد ـــ بعد دعوة الكنيسة بأن ينظف الأرض التي يملكها من الكفرة ـــ تصبح أرضه من حق كل من يفني الكفرة ويقضي عليهم. جنَّد (مرسوم الإيمان) ـــ الذي اعتمدته محاكم التفتيش في متابعة المارقين ـــ الشعب كله في خدمة المحاكم، وفُرِض على كل فرد أن يشي بالغير وأن ينبئها بأي عمل كافر أو مارق[1].

والمؤسف في الأمر.. والخطير فيه.. أن تلك الفظائع والمذابح التي قام بها المسيحيون ضد خصومهم كانت تستند إلى الكتاب المقدس الذي علمهم كيف يتعاملون مع خصومهم، فقال:« اهدموا معابدهم، واقذفوا أعمدتها إلى النار، واحرقوا جميع صورها ».. كما توصى التوراة بتحريق المدن بعد فتحها، وقتل كل من فيها من رجال ونساء وأطفال[2].

ولهذا كان الذين يقومون بتلك العمليات الوحشية يزعمون لأنفسهم أنهم يتقربون إلى الله وينفذون إرادته، ويعجلون لأعدائه بعض النقمة التي تنتظرهم في الآخرة.

وقد عبرت عن ذلك ملكة إنجلترا ـــ الكاثوليكية ـــ في القرن السادس عشر (ماري) حين أعلنت مرة تقول:« بما أن أرواح الكفرة سوف تحرق في جهنم أبدًا، فليس هناك أكثر شرعية من تقليد الانتقام الإلهي بإحراقهم على الأرض »[3]

۲ ـــ الدعوة:

قلت: وعيت هذا، فقد ذكرت لي من الحجج ما لا يمكنني أن أعارضك فيه.. ولكني أتساءل عن سر انتشار الإسلام مع كونه لم يستعمل أي شدة أو عنف في فرضه.

قال: شيئان، كلاهما يطلق عليه الإسلام (الدعوة)

قلت: ما هما؟

قال: السلوك الطيب الذي أبداه المسلمون مع أهل البلاد التي دخلوا إليها، ووسائل الإقناع بالحجة والبراهين التي مارسوها.

قلت: فحدثني عنهما.

قال: أما في عهد محمد.. فقد كانت سيرة محمد الممتلئة بالطهارة والصدق والإيمان تجذب القلوب إليه جذبا.. فلذلك دخل الكثير إلى الإسلام بسبب سلوكه وأخلاقه وإيمانه وما كان له من الدلائل الكثيرة التي

---

(۱) الأيديولوجية الانقلابية ص٥٨٦ – ٥٨٨.

(۲) سنذكر بعض هذه النصوص في فصل (سلام) من هذه الرسالة.

(۳) الأيدلوجية الانقلابية ص ٧١٤.

أرشدهم إلى نبوته.

وأما في عهد من بعده.. فقد كان سلوك محمد الذي ورثه أتباعه وراحوا ينشرون طيبه هو السر في دخول الناس في الإسلام أفواجا.

لقد شهد أصدقاؤنا من المستشرقين للإسلام بهذا..

لقد قال أوليفر:« إن الإسلام لم يأخذ طريقه خلف الصحراء بإفريقية، إلا بعد انحلال دولته الكبرى في المغرب، وكانت وسيلة الإسلام لهذه البقاع هي الثقافة والفكر والدعوة، فانتشر الإسلام بين شعوب البربر، وقامت خلف الصحراء دول إسلامية لعبت في التاريخ دورا كبيرا »

وقال اللورد هدلي:« لا أظن أبدا أن المسلمين اجتهدوا في حين من الأحيان أن يحشوا أفكارهم ومعتقداتهم الدينية في حلوق الناس وصدورهم بالقوة أو الفظاعة أو التعذيب، ولم يشهر محمد السلاح إلا حين الحاجة القصوى لحماية البشرية، وإن أعداء الإسلام لأعجز من أن يأتوا بدليل أومثل من الأمثلة التي أثرت فيها الحرب على هداية قبيلة واحدة أو شخصواحد »

ويقول المسيو (هنري ديو كاستري)، وهو أحد حكام الجزائر الفرنسيين في كتابه عن الإسلام:« هكذا كانت تعاليم النبي محمد بعد أن دخل العرب في الإسلام، وقد اقتفى أثره خلفاؤه من بعده، وذلك يضطرنا الى القول بما قاله (روبنسون) قبلنا: أن شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين محاسنة الأجانب، ومحبة انتشار دينهم، هذه العاطفة هي التي أثرت دفعتهم في سبيل الفتح وهو سبب لا حرج فيه... فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه الظافرة، وانقضوا انقضاض الصاعقة على افريقيا الشمالية من البحر الاحمر الى المحيط الاطلسي، ولم يتركوا أثرا للعنف في طريقهم، إلا ما كان لا بد منه في كل حرب، ولكنهم لم يبيدوا أمة قط أبت الإسلام »

أنا لم أكتف بالشهادات وحدها.. وإن كان لها تأثيرها الخطير في إبراز الحقائق..

ولكني رحت أتتبع مسيرة الدعوة الإسلامية في كل مراحلها.. وقد تبين لي ــ بعد البحث الطويل ــ أن الإسلام لم يكره في أي فترة من فترات تاريخه أي أحد في الدخول للإسلام..

حتى ما أظهر المتطرفون الذين يطلق عليهم المسلمون (الخوارج)، فقد كانوا مع شدتهم مع مخالفيهم من المسلمين متسامحين مع غيرهم من أهل الديانات الأخرى مما اضطر بعض المسلمين إلى التظاهر بالكفر حتى يحتموا منهم.

لقد كان حاديهم إلى ذلك ما ورد في القرآن من تأمين المخالفين، ففيه:﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦)﴾(التوبة)

وقد روي أن واصل بن عطاء أقبل في رفقة فلقيهم ناس من الخوارج، فقالوا لهم: من أنتم؟ قال لهم واصل: مستجيرون حتّى نسمع كلام اللّه، فاعرضوا علينا. فعرضوا عليهم فقال واصل: قد قبلنا. قالوا: فامضوا راشدين، قال واصل: ما ذلك لكم حتى تبلغونا مأمننا. قال اللّه تعالى:﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ

فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾، فأبلغونا مأمننا »، فجاءوا معهم حتى بلغوا مأمنهم[1].

سكت قليلا، ثم قال: تلك الآية تمثل حقيقة الدعوة في الإسلام.. وعلاقة السيف بها.

الإسلام ــ إذا استعمل السيف ــ لا يستعمله إلا ليوفر للمخالفين الجو المناسب الذي يتيح لهم أن يسمعوا القرآن.. هذه الآية تشير إلى ذلك.

ولهذا كان محمد يعطي الأمان لمن جاءه، مسترشدًا، ولو كان من المحاربين، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ومِكْرَز بن حفص، وسهيل بن عمرو، وغيرهم واحدًا بعد واحد، يترددون في القضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين لمحمد ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم.

وقد استنتج الفقهاء من هذا أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، فطلب من الإمام أو نائبه أمانًا، أعطي أمانًا ما دام مترددًا في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه[2].

التفت إلي، وقال: قلب الطرف في جغرافية البلاد التي انتشر فيها الإسلام لتعلم أن الدعوة هي التي جذبت قلوب الناس للإسلام لا السيف..

فأكثر المسلمين في العالم ينتشرون في بلاد لم تطأها جيوش المسلمين..

لقد دخلت شعوب عظيمة في الإسلام دون أن تطأ أرضها جيوش المسلمين كشعوب جنوب شرقي آسيا التي انتشر فيها الإسلام على أيدي التجار والدعاة، وتفوق الإسلام في أندونيسيا، وتفوق على الديانات الكنفوشية والبوذية والمسيحية.

حتى المغول الذين اكتسحوا العالم الإسلامي فقتلوا وحرقوا ودمروا، وقضوا على الخليفة وأهله، نجدهم بعد ذلك يدخلون في الإسلام، وينضوون تحت لوائه، ويكونون من حماته.. لقد قلت في كتابي (الدعوة إلا الإسلام) أذكرهم:« لا يعرف الإسلا م بين ما ترك به خطوب وويلات خطبا أعنت قسوة من زوات المغول.. على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من رقدته، وظهر بين الأطلال، واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب هؤلاء الفاتحين البرابرة ويحملهم على اعتناقه »

أتدري السر في كل ذلك؟

قلت: ما سره؟

قال: تلك السماحة والسلام والنبل والترفع الذي ربى عليه محمد أتباعه.. لقد كانت البذور التي بذرها محمد في نفوس أتباعه، والتربية التي رباهم عليها هي السر في كل ذلك النجاح.

---

(١) رواه المدائني.

(٢) لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان، عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء.(انظر: ابن كثير:١١٤/٤)

لقد أرسل البطريرك النسطورى الثالث إلى البطريرك (سمعان) زميله فى المجمع بعد ظهور الإسلام رسالة يقول فيها:« إن العرب الذين منحهم الرب سلطة العالم وقيادة الأرض أصبحوا معنا، ومع ذلك نراهم لا يعرضون النصرانية بسوء، فهم يساعدوننا ويشجعوننا على الاحتفاظ بمعتقداتنا، وإنهم ليجلون الرهبان والقسيسين، ويعاونون بالمال الكنائس والأديرة »

وقد قال المؤرخ العالمى (هـــ. ج. ويلز) فى كتابه (معالم تاريخ الإنسانية):« لقد تم فى ١٢٥ عاماً أن نشر الإسلام لواءه من نهر السند إلى المحيط الأطلسى وإسبانيا، ومن حدود الصين إلى مصر العليا، ولقد ساد الإسلام لأنه كان خير نظام اجتماعى وسياسى استطاعت الأيام تقديمه، وهو قد انتشر لأنه كان يجد فى كل مكان شعوباً بليدة سياسياً: تسلب وتظلم وتخوف، ولا تعلم ولا تنظم، كذلك وجدت حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين أى شعب. فكان الإسلام أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية اتخذت سعة النشاط الفعلى فى العالم حتى ذلك اليوم، وكان يهب بنى الإنسان نظاماً أفضل من أى نظام آخر »

لقد كان ذلك العدل الذي طالما حلمت الشعوب به هو السر الأكبر في انتشار الإسلام..

لقد فتح المسلمون مصر، وكان سكانها على دين المسيحية، فلم يكرههم المسلمون على اعتناق الإسلام، ولو كان هناك إكراه ما بقى الأقباط على دينهم حتى هذه اللحظة.

إنما أقام المسلمون العدل الذي أمرهم به دينهم، فردوا للأقباط كرامتهم الإنسانية المفقودة التى سلبهم إياها حكامهم الرومان، وهم على نفس الدين، ولكن على مذهب مخالف.

لقد كان الرومان يلهبون ظهور الأقباط بالسياط لمخالفتهم إياهم فى المذهب، فلا يتحرك الأقباط لرد العدوان، ولا يجدون ملجأ يلجئون إليه يمنحهم الحرية الاعتقادية ويمنحهم العدل والكرامة، فلما جاء المسلمون منحوهم كل ذلك.

لا شك أنك تعرف قصة القبطى الذى ذهب إلى المدينة ليشكو إلى عمر بن الخطاب ضربة العصا التى وقعت على ظهر ابنه من ابن عمرو بن العاص.

قلت: أجل.. فهي قصة شهيرة.

قال: إن تلك الحادثة وغيرها كثير هي السيوف التي انتشر بها الإسلام..

لقد كان ذلك القبطى الذى كان يتلقى سياط الرومان ولا يشكو ولا يثأر لكرامته المسلوبة، يسافر هذه الرحلة الطويلة طلبا للعدل، لأن الإسلام رد له كرامته، فصار يستنكر الظلم ويطلب العدل، ولأن الإسلام أوجد له ملجأ حقيقيا يستحقق له العدل فيه فطلبه هناك.

سكت قليلا، ثم قال: لقد بحثت في تاريخ الدعوات، فلم أجد دعوة اكتملت، واكتمل لها من أسباب النجاح ما اكتمل لمحمد، ولدين محمد.

قلت: أنت وصلت لهذا.. وغيرك ربما وصل إلى غيره.

قال: كل الصادقين من الباحثين من أصحابنا المستشرقين ومن غيرهم وصلوا إلى ما وصلت إليه.. ولكن منهم من كسر الحواجز، فأقر، ومنهم من كسرته الحواجز، فسكت، أو شهد بما لم يعلم..

سأنقل لك بعض شهادات[1] من عرفتهم من المستشرقين الذين كانوا يبحثون عن المثالب قدر ما استطاعوا.. لكنهم لم يجدوا غير المناقب، فراحوا يشهدون بما علموا[2]:

لقد قال (رودي برت)، وهو من علماء ألمانيا المعاصرين:« كان العرب يعيشون منذ قرون طويلة في بوادي وواحات شبه الجزيرة يعيثون فيها فساداً،حتى أتى محمد ودعاهم إلى الإيمان بإله واحد خالق بارئ، وجمعهم في كيان واحد متجانس »

ويقول (مارسيل بوازار)[3]، وهو مفكر، وقانوني فرنسي:« لم يكن محمد على الصعيد التاريخي مبشراً بدين وحسب، بل كان كذلك مؤسس سياسة غيرت مجرى التاريخ وأثرت في تطور انتشار الإسلام فيما بعد على أوسع نطاق »

ويقول (أرنولد توينبي)، وهو المؤرخ البريطاني الشهير:« لقد كرس محمد حياته لتحقيق رسالته في كفالة هذين المظهرين في البيئة الاجتماعية العربية، وهما: الوحدانية في الفكرة الدينية، والقانون والنظام في الحكم، وتم ذلك فعلاً بفضل نظام الإسلام الشامل الذي ضم بين ظهرانيه الوحدانية والسلطة التنفيذية معاً، فغدت للإسلام بفضل ذلك قوة دافعة جبارة لم تقتصر على كفالة احتياجات العرب، ونقلهم من أمة جهالة إلى أمة متحضرة، بل تدفق الإسلام من حدود شبه الجزيرة واستولى على العالم السوري بأسره من سواحل الأطلسي إلى شواطئ الأوراس »

ويقول الدكتور م. ج. دوراني:« وأخيراً أخذت أدرس حياة النبي محمد، فأيقنت أن من أعظم الآثام أن نتنكر لذلك الرجل الرباني الذي أقام مملكة الله بين أقوام كانوا من قبل متحاربين لا يحكمهم قانون، يعبدون الوثن، ويقترفون كل الأفعال المشينة، فغيَّر طرق تفكيرهم، لا بل بدل عاداتهم وأخلاقهم، وجمعهم تحت راية واحدة وقانون واحد ودين واحد وثقافة واحدة وحضارة واحدة وحكومة واحدة، وأصبحت تلك الأمة التي لم تنجب رجلاً عظيماً واحداً يستحق الذكر منذ قرون، أصبحت تحت تأثيره وهديه تنجب ألوفاً من النفوس الكريمة التي انطلقت إلى أقصى أرجاء المعمورة تدعو إلى مبادئ الإسلام وأخلاقه ونظام الحياة الإسلامية، وتعلم

---

(١) سنحاول في هذه الرسالة جمع أكبر قدر من الشهادات المرتبطة بالثمرات المختلفة للإسلام، ولا يخفى ما لهذه الشهادات من اعتبار برهاني علمي، بالإضافة إلى اعتبارها التأثيري في المسلمين أنفسهم، وخاصة من بهرهم الغرب، والحضارة الغربية.

ويحضرني في هذا أن بنت الشيخ المراغي شيخ الأزهر، كانت مسافرة مع أبيها فصادفت في تلك الرحلة امرأة من (الخواجات) فراحت تذكر لابنة الشيخ إعجابها بالعقاد، وخصوصاً (العبقريات)، وهنا راحت ابنة الشيخ تطلب العبقريات من أبيها، فقال الشيخ بحسرة:« أنا شيخ الأزهر، وابنتي لم تسمع لي، وسبق أن كلمتها عن العقاد وكتبه، فلما حدثتها الخواجة استمعت لها وصدقتها »

ثم عقب بألم ومرارة قائلاً:« يبدو أننا لن نؤمن ولن نصدق بالإسلام إلا إذا آمن الخواجة به »

(٢) هذه النقول من كتاب (قالوا عن الإسلام)، من مواضع متفرقة منه.

(٣) سنجري حوارنا الافتراضي معه في فصل (إنسانية)

الناس أمور الدين الجديد »

ويقول (غوستاف لوبون)، وهو المؤرخ المعروف:« إنَّ هذا الكتاب (القرآن) تشريع ديني وسياسي واجتماعي ».

ويقول (مونتجومري وات) عميد قسم الدراسات العربية في جامعة أدنبره سابقاً:« يعتبر القرآن قلاقل العصر نتيجة أسباب دينية بالرغم من الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، وأنه لا يمكن تقويمها إلا باستخدام الوسائل الدينية مثل كل شيء، وإنه لمن الجرأة الشك في حكمة القرآن نظراً لنجاح محمد في تبليغ الرسالة »

ويقول العالم (مايكل هارت) الأمريكي الشهير:« إن محمداً كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي.. إن هذا الاتحاد الفريد الذي لا نظير له للتأثير الديني والدنيوي معاً يخوله أن يُعْتَبَر أعظم شخصية ذات تأثير في تاريخ البشرية »

ويقول (إدوارد بروي)، وهو باحث فرنسي معاصر وأستاذ بهذه الجامعة:« عندما قبض النبي العربي عام ٦٣٢م كان قد انتهى من دعوته، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيراً فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، وصهرهم في وحدة قوية وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة لم تعرف مثلها من قبل »

ويقول (فيليب حتي):« إذا نحن نظرنا إلى محمد من خلال الأعمال التي حققها فإن محمداً الرجل والمعلم والخطيب ورجل الدولة والمجاهد يبدو لنا بكل وضوح واحداً من أقوى الرجال في جميع أحقاب التاريخ، لقد نشر ديناً هو الإسلام، وأسس دولة هي الخلافة، ووضع أساس حضارة هي الحضارة العربية الإسلامية، وأقام أمة هي الأمة العربية، وهو لا يزال إلى اليوم قوة حية فعالة في حياة الملايين من البشر »

ويقول (السير لنتجنستادير):« إن تاريخ الحكم الإسلامي يدحض ظنون بعض الغربيين من أن الإسلام لا يصلح لإقامة دولة تساس فيها الأمور على قواعد المصلحة الاجتماعية وحسن العشرة بين المسلمين وغير المسلمين، وأن مفكري الإسلام في جميع العصور بحثوا قواعد الحكم والعرف من الوجهة الفلسفية، وأخرجوا لأممهم مذاهب في السياسة والولاية تسمو إلى الطبقة العليا »

ويقول (إدوارد كيبون):« إن من عبقرية النبي العربي وفي خلال أمته وفي روح دينه أسباب انحلال الدولة الرومانية الشرقية وسقوطها، وإن أبصارنا لتتجه دهشة إلى ثورة من أعظم الثورات التي طبعت أمم الأرض بطابع خالد »

ويقول (برناردشو) بأسلوبه الساخر:« إنَّ محمداً أصلح العالم وهو جالس يشرب قهوة في المدينة »

ويقول (صامويل هنتغتون) المفكر الأمريكي في إحدى محاضراته:« لا آدم سميث ولا توماس جيفرسون سيفيان بالاحتياجات النفسية والعاطفية والأخلاقية للإنسان، ولا المسيح سيفي بها على المدى الطويل، محمد سينتصر »

٣ ـــ التنوير:

قلت: وعيت هذا.. وأحسب أن كل من قرأ كتابك (الدعوة إلى الإسلام) سيعيه مثلما وعيته.

قال: لقد كتبت ذلك الكتاب في بداية بحثي عن الحقيقة.. وقد ذكرت فيه بعض ما ندمت عليه بعد ذلك[1].. ولكن الحقيقة أعظم من أن يحتويها كتابي ذلك أو غيره.. إن الحقيقة أعظم من أن تحويها جميع كتب الدنيا.

قلت: لقد ذكرت لي ــ إلى الآن ــ إكسيرين: أما أحدهما، فاستفادت منه الشعوب التي كانت مغلولة الأيدي بنير الاحتلال، وأما الثاني، فاستفاد منه من اهتدوا بهدي الإسلام، وانضموا تحت لوائه.. وبقينا نحن.. نحن الوحيدون.. أهل أوروبا.. الذين لم يصبنا إكسير الإسلام.. ولكنا مع ذلك من أكثر شعوب العالم تحضرا.

ابتسم، وقال: لولا إكسير الإسلام ما نال قومنا من الحضارة ما نالوا.. لولا الإسلام لظلت أوروبا في ظلمات القرون الوسطى.. أو لقضى بعضها على بعض.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد بحثت في هذا كما بحثت في غيره.. وسأعطيك خلاصة موجزة لأبحاثي في هذا المجال.

لقد قدم الإسلام لقومي خدمات لا يمكن إحصاؤها، وهي تشمل الجانبين: الدين والحياة.

الدين:

قلت: الدين!؟.. وما علاقة ديننا بإكسير الإسلام؟

قال: إن له علاقة وطيدة.. ليس بالمسيحية وحدها.. بل باليهودية أيضا..

وسأبدأ بتأثيره على اليهودية التي هم أم المسيحية الأولى..

لقد كان الإسلام والتعاليم العظيمة التي جاء بها سببا من أهم أسباب حركات التنوير التي حصلت في اليهودية[2].. فقد انطلق دعاة حركة التنوير اليهودية من المنطلقات نفسها التي انطلقت منها حركة الاستنارة الغربية بكل محاسنها ومساوئها وبكل تعميماتها وتناقضاتها.

فقد أنكر دعاة التنوير ما تصوروه طفيلية اليهود وهامشيتهم، وهي سمات مرتبطة بالوظائف التقليدية لليهود ومسألة التجارة والربا، فطالبوا بضرورة تغيير ذلك حتى يمكن تحويل اليهود من عناصر هامشية منعزلة إلى عناصر منتجة مندمجة.

كما طالبوا بضرورة تشجيع اليهود على الاشتغال بالزراعة والحرف اليدوية.

ولم يكن للدعوة إلى تحديث وظائف اليهود وحرفهم ومهنهم مضمون اقتصادي وحسب، وإنما كان لها مضمون ثقافي ونفسي عميق، إذ كانت دعوة إلى أن يتحرك أعضاء الجماعة من مسام المجتمع كجماعة وظيفية

---

(١) مع شهرة توماس بالاعتدال إلا أن البعض شكك في ذلك (انظر:محمود حمزة عزوني، دراسة نقدية لكتاب الدعوة إلى الإسلام تأليف توماس ولكر آرنولد، بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير في الدعوة من المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة)

(٢) انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري.

وسيطة منعزلة لها ثقافتها الخاصة إلى نخاعه أو صلبه. فيصبحون مثل بقية أعضاء المجتمع، يتحدثون بلغته ويرتدون أزياءه وينتمون إليه ويدينون له وحده بالولاء.

وقد طالب هؤلاء التنويريون بأن تتم العملية التعليمية خارج الإطار الديني وأن تشمل الجماهير كلها وليس الأرستقراطية الفكرية وحدها من الحاخامات وغيرهم، كما طالبوا إخوانهم في الدين بأن يرسلوا أولادهم إلى المدارس غير اليهودية حتى يتقنوا كل الفنون العلمانية، مثل الهندسة والزراعة، وشجعوا ممارسة الأعمال اليدوية، كما دافعوا عن تعليم المرأة.

وبالفعل، بدأت المدارس اليهودية العلمانية تظهر، لأول مرة في تاريخ الجماعات اليهودية الأوربية، مع منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وافتُتحت أول مدرسة يهودية لتعليم المرأة في روسيا عام ١٨٣٦. وكان دعاة التنوير يرون أن التعليم العلماني هو السبيل إلى تحديث اليهود ودمجهم وعلمنتهم.

وقد حاولوا أن يُدخلوا نزعة عقلانية على اليهودية، فأحيوا كتابات المفكر العربي (الإسلامي) المؤمن باليهودية موسى بن ميمون الذي كان يطالب منذ العصور الوسطى بإدخال التعليم غير الديني على الدراسات الدينية اليهودية.

ويُعَدُّ المفكر الألماني موسى مندلسون، الذي تأثر بأعمال موسى بن ميمون، أباً للتنوير اليهودي.

وقد صاغ موسى بن ميمون المبادئ الثلاثة عشر التي جعلها أساس الدين اليهودي وأركان الإيمان فيه على غرار أصول الإيمان في الإسلام، وأدرج فيها بعض أصول الإيمان الإسلامية مما لم يكن معروفًا في اليهودية من قبل أو مدرجًا في العهد القديم، كالاعتقاد بأن الله عالم، وبالثواب والعقاب في الآخرة، والاعتقاد في بعث الموتى.

وحدد مفهوم النبوة والمعجزة لأول مرة في اليهودية، وقد جاء إما متأثرًا بنظرية الفلاسفة المشائين كالفارابي وابن سينا، وإما متابعًا لجمهور علماء الإسلام في استدلالهم على هذه المعتقدات بالنصوص القرآنية.

وقد أقر ابن كمونة بعدم ذكر الثواب والعقاب الأخروي في التوراة وراح يعتذر عن ذلك ويحاول تسويغه، وهذا يؤكد اقتباس ابن ميمون هذه الأصول من الإسلام.

بالإضافة إلى هذا، فقد بدأ نقد التوراة، يقول (واكسمان) صاحب كتاب (الأدب اليهودي):« في القرن الحادي عشر دخلت الفلسفة اليهودية مرحلة جديدة متأثرة بالمؤلفات الفلسفية الإسلامية والأفكار الإسلامية، وكان من أثر هذا أن بدأ الشك في التلمود، وبدأت تظهر أفكار حرة، ولم يقتصر الهجوم والنقد الذي قام به القراءون والطوائف المتصلة بهم على التلمود، بل شمل الكتاب المقدس أعظم إنتاج عقلي في الدين اليهودي »[1]

أما التأثير الإسلامي على المسيحية، فواضح لا شك فيه.

ولعل أهم هذه الآثار هو حماية الإسلام المسيحية من السقوط في حمأة الوثنية التي كان لا يفرق بينها

(١) نقلا عن إبراهيم موسى هنداوي، الأثر العربي في الفكر اليهودي. ص ١٤٤، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣ م.

وبينها إلا قاب قوسين أو أدنى.

قلت: إن ما تقوله غير صحيح.. فلم تقترب المسيحية في يوم من الأيام من رجس الوثنية.

وكيف تقترب من الوثنية، وكتابها المقدس يقول لها:« لا تصنع لك تمثالا منحوتا، ولا صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من أسفل، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن، ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك غيور » (سفر التثنية: ٥: ٨)

ويقول لها:« فَاحْذَرُوا لأَنْفُسِكُمْ جِدّاً، فَأَنْتُمْ لَمْ تَرَوْا صُورَةً مَا حِينَ خَاطَبَكُمُ الرَّبُّ فِي جَبَلِ حُورِيبَ مِنْ وَسَطِ النَّارِ. لِئَلاَّ تَفْسُدُوا فَتَنْحَتُوا لَكُمْ تِمْثَالاً لِصُورَةٍ مَا لِمِثَالِ رَجُلٍ أَوِ امْرَأَةٍ »(تثنية: ٤: ١٥)

ويقول لها:« لاَ تَصْنَعُوا لَكُمْ أَصْنَاماً، وَلاَ تُقِيمُوا لَكُمْ تَمَاثِيلَ مَنْحُوتَةً، أَوْ أَنْصَاباً مُقَدَّسَةً، وَلاَ تَرْفَعُوا حَجَراً مُصَوَّراً فِي أَرْضِكُمْ لِتَسْجُدُوا لَهُ » (اللاويين: ٢٦: ١)

هذه هي نصوص التوراة التي وردت في النهي عن عمل الصور والتماثيل وعن عبادتها، والسجود لها.. وأنت تعرف أن التوراة تعتبر كتابا مقدساً لدى المسيحيين، بالإضافة إلى أن العهد الجديد خال من أي دعوة لعبادة الأوثان.

قال: ولكن المسيحيين اقتبسوا هذه العبادة كما اقتبسوا غيرها.. بل كادت تصبح ديانة وثنية لولا أن حماها الله بالإسلام.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألا تسمع بالأيقونات[1]؟

قلت: بلى..

قال: ألم تسمع بأنه مر بها يوم من الأيام صارت تعبد فيه من دون الله؟

سكت، فقال: لقد جاء يوم على المسيحية عبدت فيه الصور والتماثيل، فلا تكاد تجد ديراً أو كنيسة إلا وهما ممتلئان بشتى الصور والتماثيل، للمسيح، ولمريم، والقديسين منهم، وهي موضع تقديسهم وعبادتهم.

وبالتتبع التاريخي لهذه الشعيرة نجد أنها لم تكن في أول أمرها كما هي عليه الآن، بل قد كانت نشأتها في البداية محدودة النطاق، ثم ما لبثت أن نمت تدريجيا، وانتشرت انتشارا واسعاً، ثم أصبحت من ضمن شعائر المسيحية، وذلك عن طريق مجامعهم.

هذا ليس كلامي.. بل إن الشهود من المسيحيين يثبتون هذا.. يقول المؤرخ المسيحي (ول ديورانت):« كانت الكنيسة أول أمرها تكره الصور والتماثيل، وتعدها بقايا من الوثنية، وتنظر بعين المقت إلى فن النحت

---

(١) «الأيقونة» باليونانية «آيكون» بمعنى «صورة» أو «تمثيل»، ومنها «التأيقن» بالنحت. وفي السياق المسيحي، تشير كلمة «أيقونة» إلى «لوحة» أو «رسم بارز» (بالفرنسية: با رليف bas-relief) أو "لوحة فسيفسائية للمسيح أو العذراء (وأحياناً أحد القديسين). وكانت الأيقونات تُعتبَر أداة مساعدة أو وسيطاً للعابدين حتى يمكن للشخص المقدَّس المصوَّر في الأيقونة والمتجسِّد فيها، أن يستمع لدعواتهم، انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري.

الوثني الذي يهدف إلى تمثيل الآلهة، ولكن انتصار المسيحية في عهد قسطنطين، وما كان للبيئة والتقاليد والتماثيل اليونانية من أثر.. كل هذا قد خفف من حدة مقاومة هذه الأفكار الوثنية.

ولما تضاعف عدد القديسين المعبودين، نشأت الحاجة إلى معرفتهم وتذكرهم، فظهرت لهم ولمريم العذراء كثير من الصور، ولم يعظم الناس الصور التي يزعمون أنها تمثل المسيح فحسب، بل عظموا معها خشبة الصليب، حتى لقد أصبح الصليب في نظر ذوي العقول الساذجة طلسماً ذا قوة سحرية عجيبة.

وأطلق الشعب العنان لفطرته، فحول الآثار، والصور، والتماثيل المقدسة إلى معبودات، يسجد الناس لها، ويقبلونها، ويوقدون الشموع ويحرقون البخور أمامها، ويتوجونها بالأزهار، ويطلبون المعجزات بتأثيرها الخفي.

وفي البلاد التي تتبع مذهب الكنيسة اليونانية بنوع خاص، تستطيع أن ترى الصور المقدسة، في كل مكان، في الكنائس، والأديرة، والمنازل، والحوانيت، وحتى أثاث المترل، والحلي، والملابس نفسها لم تخل منها.

وأخذت المدن التي تتهددها أخطار الوباء، أو المجاعة، أو الحرب، تعتمد على قوة ما لديها من الآثار الدينية أو على ما فيها من الأولياء والقديسين للنجاة من هذه الكوارث»

ولكنه ما إن انتشر الإسلام، وعم أرجاء المعمورة، وخاصة في القرن الثامن الميلادي، وعرفت تعاليمه لغير أهله ـــ وما فيه من النهي عن اتخاذ الصور والتماثيل فضلا عن تقديسها ـــ حتى بدأ بعض المنصفين من المسيحيين وأرباب السلطان في نبذ هذه البدعة والعمل على إزالتها.

ومن هؤلاء الإمبراطور (ليو الثالث)، الذي تشبعت نفسه بفكرة سرت إليه من المسلمين وغيرهم الذين ذموا عكوف جمهرة المسيحيين على تعظيم الصور والتماثيل في الكنائس وفي خارجها، فعقد مجلسا من الأساقفة وأصدر مرسوما عام (٧٢٦م) يطلب فيه إزالة جميع الصور والتماثيل الدينية من الكنائس، وحرم تصوير المسيح والعذراء، وأمر بأن يغطي بالجص ما على جدران الكنائس من صور، لكن لم يقابل هذا المرسوم بالموافقة الجماعية، فكان أن عارضته الكنيسة، وثار عليه الشعب. واتفقوا على عزل (ليو) وطرده من الحكم.

واجتمع مجلس من أساقفة الغرب دعا إليه البابا (جريجوري الثاني)، وصب اللعنة فيه على محطمي الصور والتماثيل، إلا أن أولاد (ليو الثالث) ساروا على نهجه، منهم ابنه (قسطنطين الخامس ٧٤١ – ٧٧٥م) حيث جمع هذا الإمبراطور مجلسا من أساقفة الشرق في القسطنطينية سنة (٧٥٤م) قرر فيه بصفة قاطعة: تحريم اتخاذ الصور والتماثيل في العبادة، ووصفها بأنها عمل ممقوت، وحرم طلب الشفاعة من العذراء، وأمر بأن يمحى أو يدمر كل ما في الكنائس من صور وتماثيل.

وعلى هذا سار أحفاده من بعده حتى كان عام (٧٨٧م) حيث دعت الإمبراطورة (إيريني) ـــ التي كانت معاصرة لهارون الرشيد ـــ رجال الدين في العالم المسيحي إلى عقد مجمع عام للبحث في مسألة (الصور والتماثيل)، واتخاذ قرار حاسم بشأنها. فاجتمع في مدينة نيقية عام (٧٨٧م) حوالي (٣٧٧) أسقفا، وأصدروا قرارا بتعظيم صور المسيح وأمه والقديسين، لا بعبادتها.

وجاء في قرار هذا المجمع ما يلي:« نحكم بأن توضع الصور ليس في الكنائس والأبنية المقدسة والملابس الكهنوتية فقط، بل في البيوت وعلى الجدران في الطرقات، لأننا إن أطلنا مشاهدة ربنا يسوع المسيح ووالدته

القديسة والرسل، وسائر القديسين في صورهم، شعرنا بالميل الشديد إلى التفكير فيهم، والتكريم لهم، فيجب أن تؤدى التحية والإكرام لهذه الصور »

واستمر الحال هكذا، حتى قامت حركة الإصلاح الكنسي في القرن الخامس عشر الميلادي، وكان من مبادئها منع اتخاذ الصور والتماثيل في الكنائس والسجود لها متأثرين في ذلك بما رأوه من المسلمين عن طريق الحروب الصليبية.

بالإضافة إلى هذا، فقد ظهر لمقاومة هذه الظاهرة الخطيرة حركة تُسمَّى (أيكونوكلازم) (iconoclasm)، أي (تحطيم الأيقونات) أو (تحطيم الأوثان)، وقد ظهرت حول القسطنطينية في القرنين الثامن والتاسع تحت تأثير الإسلام.

لقد رأت هذه الحركة أن الأيقونات تشكل سقوطاً في الوثنية باعتبار أن كثيراً من المصلين أصبحوا يظنون أن الأيقونة هي نفسها الشخص المقدَّس المرسوم عليها.

وقد نجحت الحركة بشكل مؤقت إذ ظهر أباطرة معادون للأيقونات، وحتى بعد قمع الحركة، كان الفنانون البيزنطيون يحاولون الابتعاد عن التصوير الواقعي والميل نحو التجريد، وذلك حتى يبتعدوا عن التجسيم والتوثين.

ليس هذا فقط هو تأثير الإسلام في المسيحية..

فمن تأثيره فيها ما دعا إليه البروتستانت من حرية قراءة الكتاب المقدس، ورفض احتكار الكنيسة تفسيره، والتي فتحت الباب أمام حركة نقد الكتاب المقدس في الغرب، تلك الحركة المنهجية التي تدين بالفضل لعلماء الإسلام الذين كتبوا في الرد على هذا الاحتكار كابن حزم والغزالي والقرطبي وابن تيمية وابن القيم، وغيرهم.

لقد شهد قاموس (برتلس مان) لديانات العالم على تأثير الإسلام في المسيحية، فقال:« لقد أثَّر الإسلام تأثيرًا عظيمًا في العقيدة المسيحية والفلسفة، وقاد على سبيل المثال إلى نقاش جديد حول عبادة الصور وتقديسها في المسيحية »

الحياة:

قلت: وعيت كلامك في تأثير الإسلام في الإصلاح الديني.. فما تأثيره في إصلاح الحياة.. حياتنا نحن الأوروبيين؟

قال: لهذا أيضا بعض علاقة بالدين.. وبالخصوص بالكنيسة.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أنت تعلم أن الكنيسة كانت ذات سطوة عنيفة على كل مرافق الحياة فى أوروبا فى قرونها الوسطى المظلمة.. وكان سبب ذلك سيطرة الفساد الكامن فى الكنيسة على كل مرافق الحياة.

لقد أخطأ بعض قومنا، أو كثير منهم، فتصوروا أن الدين هو سبب ذلك التخلف، وسبب ذلك الظلام الذي غمر قروننا الوسطى بينما الدين بريء من ذلك..

لقد كان المسلمون في تلك العصور في أزهى فترات حياتهم مع كونهم كانوا ملتزمين بدينهم.

وقد ذكر التاريخ ــ الذى تكره أوروبا الاعتراف به إلا القلة المنصفة ــ أن أوروبا بدأت تخرج من ظلمات قروها الوسطى المظلمة حين احتكت بالمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، سواء فى الحروب الصليبية، أو البعوث التى بعثتها للتعلم فى مدارس المسلمين فى الأندلس بصفة خاصة، وفى صقلية وغيرها من البلاد التى نورها الإسلام.

بل تذكر الروايات التاريخية أن رجال الدين المسيحى أنفسهم كانوا يتعاطون الثقافة الإسلامية فى تلك المدارس، أو فيما ينقل منها إلى اللغات الأوروبية، وأهم كانوا يترقون فى مناصب الأكليروس بقدر ما يحصلون عليه من تلك الثقافة.

وقد قال روجر بيكون فى القرن الثالث عشر الميلادى:« من أراد أن يتعلم، فليتعلم العربية لأها هى لغة العلم »

لقد وجدت أوروبا عندما احتكت بالمسلمين ــ في المواطن المختلفة التي أتيح لها أن تحتك هم فيها[1] ــ عالما عجيبا بالنسبة لها، ليس فيه بابورات، ولا رجال دين.. وليست فيه أسرار عقدية يختص بعملها فريق من الناس دون فريق.. وليس فيه نبلاء يستعبدون الناس فى إقطاعياهم.. وليس فيه حجر على العقول أن تفكر، ولا حجر على العلم أن يبحث ويجرب وينشر أبحاثه على الناس.

قال (راندال) فى كتابه (تكوين العقل الحديث):« وبنوا ــ يقصد المسلمين ــ فى القرن العاشر فى أسبانيا حضارة لم يكن العلم فيها مجرد براعة فحسب، بل كان علما طبق على الفنون والصناعات الضرورية للحياة العملية، وعلى الإجمال كان العرب يمثلون فى القرون الوسطى التفكير العلمى والحياة الصناعية العلمية اللذين تمثلهما فى أذهاننا اليوم ألمانيا الحديثة »[2]

وقال ليوبولد فايس ــ الذي هره الإسلام، فأسلم، وتسمى محمد أسد ــ فى كتابه (الإسلام على مفترق الطرق):« إن العصور الوسطى قد أتلفت القوى المنتجة فى أوروبة.. كانت العلوم فى ركود، وكانت الخرافة سائدة، والحياة الاجتماعية فطرية خشنة إلى حد من الصعب علينا أن نتخيله اليوم، فى ذلك الحين أخذ النفوذ الإسلامى فى العالم ــ فى بادئ الأمر بمغادرة الصليبيين إلى الشرق، وبالجامعات الإسلامية الزاهرة فى أسبانيا المسلمة فى الغرب، ثم بالصلات التجارية المتزايدة التى أنشأها جمهوريتنا جنوة والبندقية ــ أخذ هذا النفوذ يقرع الأبواب الموصدة دون المدنية العربية.

وأمام تلك الأبصار المشدوهة، أبصار العلماء والمفكرين الأوروبيين، ظهرت مدنية جديدة، مدنية مهذبة راقية خفاقة بالحياة، ذات كنوز ثقافية كانت قد ضاعت، ثم أصبحت فى أووربة من قبل نسيا منسيا، ولكن الذى صنعه العرب كان أكثر من بعث لعلوم اليونان القديمة.. لقد خلقوا لأنفسهم عالما علميا جديدا تمام الجدة.. لقد وجدوا طرائق جديدة للبحث وعملوا على تحسينها، ثم حملوا هذا كله بوسائط مختلفة إلى الغرب،

---

(١) سنذكر بعض هذه المواطن في هذا المبحث.

(٢) تكوين العقل الحديث، ترجمة جورج طعمة: ١ / ٣١٤.

ولسنا نبالغ إذا قلنا إن العصر العلمى الحديث الذى نعيش فيه لم يدشن فى مدن أوروبا النصرانية، ولكن فى المراكز الإسلامية: فى دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة »[1]

قلت: فكيف تسنى لأوروبا أن تتصل بالمسلمين، وتستفيد منهم، بالرغم مما كان بينهما من شحناء وبغضاء لا تزال أثارة منها إلى يومنا هذا؟

قال: لقد كانت لذلك طرق كثيرة.. وجسور ممتدة.. وأنت تعرف المسلمين.. فهم أكثر الناس طيبة ولو مع أعدائهم.

لقد كان من تلك الجسور التي وصلت أوروبا بالإسلام جسر الأندلس[2].. أو إسبانية حالياً.. فالأندلس قطعة من أوروبة، تجاور فرنسا وهي قريبة من إيطاليا وإنكلترا وغيرها من الأقطار الأوروبية.

وقد أرسلت كثير من البلاد الأوروبية أبناءها على شكل بعثات ترعاها مستويات رسمية عالية، للدراسة في بلاد الأندلس.. وتصدى كثيرٌ منهم للقيام بعملية ترجمة لأمهات كتب التراث العربي الإسلامي إلى اللاتينية وغيرها، وعلى رأس ذلك كله القرآن، وقد بدأوا بدراسة العلوم، واستمر الانتفاع مما لدى أهل الأندلس من علوم نظرية وفلسفية وعلوم مادية وتطبيقية طيلة وجود العرب في الأندلس.

وعندما وقعت الأندلس في محنة الضعف والسقوط بادر بعض الإسبان إلى حرق ما وصلت إليه أيديهم من المكتبات العربية تنفيساً عن أحقادهم، ولكن البعض تدارك ذلك فيما بعد، وحفظ ما تركه العرب من تراث، في مستودعات الكنائس، ليحتل مركز الصدارة في مكتباهم فيما بعد.

وبذلك تعتبر المكتبة الإسبانية العامة في مدريد من المكتبات المهمة التي تحتوي على الكثير من المخطوطات العربية والإسلامية، التي تصدى الغرب لدراستها والانتفاع منها بعد نقلها إلى لغاهم، وهكذا كانت بذور النهضة الأوروبية.

ومن تلك الجسور الحروب الصليبية التي وضعت الأوروبيين في مواجهة مباشرة مع الشرق وحضارته وعلومه، ورغم الإساءة في البداية إلى التراث العربي الإسلامي إذ حرق الصليبيون في أنطاكية عند الاستيلاء عليها الكثير من المخطوطات العربية الإسلامية، فقد التفت الأوروبيون إلى ضرورة الانتفاع من هذا التقدم الذي يشاهدونه، فنقلوا في سفنهم كل ما استطاعوا نقله من كتب، وأدوات، ومحاصيل يمكن زراعتها في بلادهم، حتى الحِرَف المختلفة نقلوها إلى بلادهم، ونشطوا في إقامة المعاهد والجامعات وتدريس كتب العرب المسلمين في جامعاهم.

لقد بقي كتاب (القانون) في الطب لابن سينا يُدرّس في بروكسل ــ بلجيكا ــ حتى ١٩٠٩م، ومثل ذلك كتب الجبر، والرياضيات، وعلوم الطب، والصيدلة، وعلم الحيل (الميكانيك)، والكيمياء، والنبات، كل ذلك انتقل إلى جامعاهم، واستمر تدريس تلك الكتب لعدة قرون، وبذل علماؤهم جهوداً كبيرةً في الدراسة

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، ص ٣٩ — ٤٠.

(٢) انظر: الثقافة الإسلامية وأثرها في الحضارة، الأستاذ محمود الشرقاوي.

التطبيقية والتجريبية حتى وضعوا بلادهم على عتبة الحضارة الحديثة والمعاصرة، وعجّت معاجمهم بالمفردات والمصطلحات العربية الإسلامية العلمية، على اختلاف أنواعها مع شيء من تطويع هذه المفردات لإدخالها في لغتهم.

ومن تلك الجسور جسر صقلية وجنوب إيطاليا، فقد فتح العرب المسلمون صقلية في العهد العباسي، وحيثما حلّ العرب حلّت معهم رسالتهم وعلومهم.

وحتى عندما غادر العرب جنوب إيطاليا وصقلية على يد روجر النورمندي، حرص روجر على تشجيع العرب المسلمين للبقاء في صقلية، وذلك لعلمه بغزارة علومهم وعظمة حضارتهم، ومنهم الشريف الإدريسي الذي رسم العالم المعروف لديه على لوح من الفضة وأهداه للملك، كما أهداه كتاباً في الجغرافية هو (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)[1]

كما شجع روجر ترجمة العلوم العربية الإسلامية إلى لغتهم، وسار على نهجه من بعده، أمثال فريدريك ملك صقلية، الذي بشّر بالحضارة الإسلامية في أوروبة، وبنى مدرسة للطب في سالرنو، وأسس جامعة نابولي.. وهكذا وجدت الحضارة العربية الإسلامية طريقاً ثالثاً سلكته إلى أوروبة.. فكانت ولادة الحضارة الأوروبية.

قلت: ولكن الأوروبيين اليوم ينكرون ذلك أعظم إنكار؟

قال: دعهم ينكروا.. فلا خير فيمن ينكر خير غيره..

ومع ذلك، فليس كل الأوروبيين بذلك الحقد.. لقد كان هناك علماء منصفون شهدوا بتأثير الحضارة الإسلامية العظيم في أوروبا وحياة أوروبا ونهضة أوروبا.

ومنهم المؤرخ الفرنسي المعروف (جوستاف لوبون) الذي تناول في كتابه (حضارة العرب) تأثير حضارة الإسلام في الغرب وأرجع فضل حضارة أوربا الغربية إليها وقال:« إن تأثير هذه الحضارة بتعاليمها العلمية والأدبية والأخلاقية عظيم، ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذي أثره العرب في الغرب الا إذا تصور حالة أوربا في الزمن الذي دخلت فيه الحضارة »[2]

وقد ذكر في كتابه هذا بأن عهد الجهالة قد طال في أوربا العصور الوسطى، وأن بعض العقول المستنيرة فيها لما شعرت بالحاجة إلى نفض الجهالة عنها، طرقت أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون إليه، لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم في ذلك العهد.

ويقرر لوبون أن العلم دخل أوربا بواسطة الأندلس وصقلية وإيطاليا، وأنه في سنة ١١٢٠م أنشئت مدرسة للترجمة في طليلة بالأندلس بعناية (ريمولة) رئيس الأساقفة، وأن هذه المدرسة أخذت تترجم إلى اللاتينية أشهر مؤلفات المسلمين، و لم يقتصر هذا النقل على كتب الرازي وابن سينا وابن رشد فحسب بل نقلت اليها كتب اليونان التي كان العرب قد نقلوها إلى لسانهم.

---

(١) انظر: الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي: ١/٢٨٤.

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص ٢٦.

ويضيف لوبون أن عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللاتينية يزيد على ثلثمائة كتاب.

وهو يؤكد فضل العرب على الغرب في حفظ تراث اليونان القديم بقوله:« فإلى العرب، وإلى العرب وحدهم، لا إلي رهبان القرون الوسطى ممن كانوا يجهلون حتى وجود اللغة اليونانية، يرجع الفضل في معرفة علوم الأقدمين، والعالم مدين لهم على وجه الدهر لإنقاذهم هذا الكنز الثمين، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها، مدة خمسة قرون، موردًا علميًا سوى مؤلفاتهم وأنهم هم الذين مدنوا أوربا مادة وعقلاً، وأخلاقًا، وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يفوقهم قوم في الإبداع الفني »[1]

وأكد لوبون أثر الاسلام وأثر حضارته في كل بلد استظلت برايته قائلاً:« كان تأثير العرب في عامة الأقطار التي فتحوها عظيمًا جدًا في الحضارة، ولعل فرنسا كانت أقل حظاً في ذلك، فقد رأينا البلاد تتبدل صورتها حينما خفق علم الرسول الذي أظلها بأسرع مايمكن، ازدهرت فيها العلوم والفنون والآداب والصناعة والزراعة أي ازدهار»[2]

وأشاد لوبون بفضل العرب في نشر العلوم وفتح الجامعات في البلاد التي استظلت برايتهم فيقول:« و لم يقتصر العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه، فالعرب قد نشروها، كذلك بما أقاموا من الجامعات وما ألفوا من الكتب، فكان لهم الأثر البالغ في أوربا من هذه الناحية، ولقد كان العرب أساتذة للأمم المسيحية عدة قرون، وأننا لم نطلع على علوم القدماء والرومان الابفضل العرب، وأن التعليم في جامعاتنا لم يستغن عما نقل إلى لغاتنا من مؤلفات العرب »[3]

ومن الشهداء المنصفين الفيلسوف الفرنسي (رينيه جينو)، الذي أسلم، وتسمى (عبد الواحد يحيى)، فقد قال:« والأثر الواضح الذى يثبت لنا انتقال المؤثرات الثقافية من المسلمين إلى أوربا هو تلك الكلمات العربية الأصل التي تستعمل لنقل الأفكار وإظهار ما تكنه النفوس، فإن من السهل علينا أن نستنتج انتقال تلك الأفكار والآراء الإسلامية نفسها، وفي الحق أن تأثير الحضارة الإسلامية قد تناول إلى درجة بعيدة، وبشكل محسوس كل العلوم والفنون والفلسفة وغير ذلك، وقد كانت إسبانيا مركز الوسط إلهام الذي انتشرت منه تلك الحضارة، فالكيمياء احتفظت دائما باسمها العربي، وعلم الفلك أكثر اصطلاحاته الخاصة ماتزال محتفظة في كل اللغات الأوربية بأصلها العربي، كما أن كثيرا من النجوم مايزال علماء الفلك في كل الأمم يطلقون عليها أسماء عربية، ومن السهل جدًا أن نوضح أن كثيرًا من المعارف الجغرافية عرفت من الرحالة العرب الذين جابوا كثيرًا من الأقطار وحملوا معهم معلومات جمة.. وإننا لنجد أثر الثقافة الإسلامية في الرياضيات أكثر وضوحًا، وهذا علم الحيوان الذي يسهل علينا من اسمه العربي أن نعرف طريق انتقاله إلى الغرب، كما أن الأرقام الحسابية التي يستعملها الأوربيون هي نفس الأرقام التي استعملها العرب، وأن كثيرًا من المعاني التي جادت بها قرائح الكتاب

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ٢٦.

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ٦٦.

(٣) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٥٦٩.

والشعراء المسلمين أخذت واستعملت في الأدب الغربي، كما نلاحظ أن أثر الثقافة الإسلامية واضح كل الوضوح وبصفة خاصة في فن البناء وذلك في العصور الوسطى.

ولم تكن هناك وسيلة لتعرف أوربا الفلسفة اليونانية الا عن طريق الثقافة الإسلامية، لأن التراجم اللاتينية لأفلاطون وأرسطو لم تنقل أو تترجم من الأصل اليوناني مباشرة، وإنما أخذت من التراجم العربية، وأضيف إليها ماكتبه المعاصرون المسلمون مثل ابن رشد وابن سينا في الفلسفة الإسلامية.

ويختم رينيه جينو شهادته بقوله:« هذا جزء من كل من أثر الثقافة الإسلامية في الغرب، ولكن الغربيين لايريدون أن يقولوا به لأنهم لا يريدون الاعتراف بفضل الشرق عليهم، ولكن الزمن كفيل بإظهار الحقائق »[1]

ليس العلماء وحدهم هم الذين شهدوا لفضل الإسلام على الغرب.. هناك ساسة منصفون شهدوا له أيضا.. ففي مطلع القرن الحادي والعشرين الميلادي، ظهر كتاب (توكيد الذات الأوربية: آفاق القرن الحادي والعشرين) للمستشار الألماني هيلموت شميت، وقد وضح فيه مساهمة الثقافة الإسلامية العربية في روافد الثقافة الأوربية، وضرورة الإسلام في تطور أوروبا مستقبلاً.

وقد أفرد لهذه النقطة عشر صفحات في كتابه الذي يقع في ٢٥٥صفحة، وهو يقول في ختام معالجة هذه النقطة:« خلال القرن الجديد سيصبح الجوار الجديد مع الإسلام أحد الشروط الأساسية لتأكيد الذات الأوربية والحفاظ عليها، ومن المحتمل أن يعتمد إحلال السلام والاستقرار في أوروبا على هذا الشرط »

في حفل تكريم المستشرقة الألمانية (آنا ماري شميل) وتسليمها جائزة السلام من (رابطة الكتاب الألمان)، في ١٠/١/١٩٩٥م، لمناصرتها الفكر الإسلامي، ودعوتها إلى فهمه وتغيير الصورة الشوهاء التي شكلها الإعلام الأوربي عن الإسلام والمسلمين، ألقى الرئيس الألماني (رومان هوتسوج) كلمة دعى فيها إلى أهمية فهم الإسلام فهماً صحيحاً، وأشاد فيها بالتنوير الإسلامي الذي حفظ للغرب ـــ قبل ستة أو سبعة قرون ـــ أجزاء عظيمة من التراث القديم

وقال الرئيس الألماني:« هل يجوز لنا أن نصنف المسلمين الأتقياء مع (الأصوليين الإرهابيين) فقط لمجرد افتقادنا نحن للإحساس السليم تجاه استهزاء بالمشاعر الدينية للآخرين، أو لكوننا لم نعد قادرين على التعبير عن هذا الإحساس السليم »

وفي الختام دعا الرئيس الألماني إلى فهم الإسلام فهماً صحيحاً لتحديد موقف آخر منه غير الموقف الذي بنى على الجهل به.

بالإضافة إلى هؤلاء ألقى الأمير تشارلز (ولى عهد بريطانيا) خطاباً في قسم الدراسات الإسلامية بإحدى الجامعات البريطانية في بدايات النصف الثاني من تسعينات القرن العشرين الميلادي، تحدث فيه عن جوانب في علاقة الغرب بالإسلام ودعا إلى ضرورة التعاون بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، وأهمية التواصل فيما بينهما، ونبذ ما تركته الحروب الصليبية في العالم الإسلامي من آثار سيئة لا تزال متبقية في النفوس.

---

(١) انظر: الفيلسوف رينيه جينو أو عبد الواحد يحيى، للدكتور عبد الحليم محمود، ص ٥٠ – ٦٠.

وقد أشار إلى وجود نقاط اتفاق بين الإسلام والغرب أكثر من وجود نقاط اختلاف فيما بينهما، وانتقد الصورة الشوهاء التي يروجها البعض، فيقول:« والكثيرون في الغرب يرون الإسلام على أنه حرب أهلية دامية في الشرق الأوسط، وأصولية إسلامية إن حكمنا قد شابه التشوه لاعتبار أن التطرف هو القاعدة، ويظن الكثيرون أن أحكام الشريعة غير عادلة، ولكن ينبغي أن نتدارس تطبيقاتها قبل أن نصدر أحكاماً.. إن هناك عدداً من الدول الإسلامية أعطت حق التصويت للمرأة في نفس الوقت مع أوروبا، كما أن النساء المسلمات لا يعتبرن مواطنات من الدرجة الثانية »

و لم يتوقف إنصاف الأمير تشارلز للإسلام عند هذا الحد، بل أكد فضل الإسلام والحضارة الإسلامية على أوروبا في نهضتها الحديثة، وقال بصراحة:« كثير من السمات التي تفخر بها أوروبا الحديثة جاءت إلينا من الأندلس.. إن الإسلام جزء من ماضينا ومن حاضرنا »

وأخذ الأمير في خطابه يلح على الحوار بين الإسلام (يقصد المسلمين) والغرب ويوضح أهمية اتسام هذا الحوار بالصبر، ويقول:« لكن ذلك يتطلب جهداً شاقاً لكي يفهم بعضنا الآخر، ولكي نتمكن من إبعاد شبح الخوف والتشكك »

كما دعا الأمير تشارلز في كلمة ألقاها في مؤتمر سنوي للخارجية البريطانية بمـــــــــركز (ويلتون بارك) بلندن، في عام ١٩٩٧م، رجال الدين من بني جنسه، وكذلك خبراء الاقتصاد، إلى الاستعانة بالمسلمين في حماية القيم لدى الصغار، وقال:« في كل أنحاء العالم يمكننا أن نجد من يريد تعلم الإنجليزية، لكننا هنا في الغرب نحتاج إلى التعلم على أيدي مدرسين مسلمين كيف نتدبر الأمور مرة أخرى، بقلوبنا لا بعقولنا فقط »

كما أردف قائلاً:« إننا في الغرب يمكننا الاستفادة من الرسالة الإسلامية في اكتشاف جذور مفاهيمنا الحالية التي ندين فيها للقيم الإسلامية التي تحترم الطبيعية الثابتة للقوانين الطبيعية »

قلت: ذكرت لي الجسور التي كانت صلة وصل بيننا وبين المسلمين، وذكرت لي الشهادات المنصفة التي تثبت حصول ذلك التأثير، و لم يبق إلا أن تحدثني عن نماذج عن بعض ذلك التأثير.. فالنماذج هي التي تحدد المدى الذي وصل إليه التأثير.

قال: لا يمكنني في هذا المجلس أن أعدد لك إلا بعض النماذج التي يظهر فيها أثر المسلمين علينا.. وكل نموذج منها سيل من السيول تكونت بعده أنهار كثيرة لا نزال نستقي منها.

لقد كان تأثير الثقافة الإسلامية على أوربا تأثيرًا عميقًا في شتى نواحى الحياة.. وسأختار لك منها ما يرتبط بالمعارف والعلوم والفنون:

ففي **الأدب**.. قامت صلة وثيقة بين طائفة من عباقرة الشعر في أوربا بأسرها، خلال القرن الرابع عشر الميلادي وما بعده، وموضوعات الأدب العربي والثقافة الإسلامية على وجه لايقبل التشكيك.

ومن هؤلاء (بوكاشيو) و(بترارك) و(دانتي) وهم من أعلام النهضة الايطالية، و(شسر) الكاتب الانجليزي الشهير، و(سرفانيتس) الإسباني، وإلى هؤلاء يرجع التأثير البارز في قيام النهضة الأدبية في أوربا.

ففي عام ١٣٤٦م كتب بوكاشيو حكاياته التي سماها (الليالي العشرة)، وحذا فيها حذو ليالي ألف ليلة

وليلة، التي كانت منتشرة حكاياها في مصر والشام، وقد ضمن حكاياته مائة حكاية على غرار ألف ليلة وليلة، وأسندها إلى سبع من السيدات وثلاثة من الرجال الذين اعتزلوا في بعض ضواحي المدينة فرارا من مرض الطاعون، وفرضوا على كل منهم حكاية يقصها على أصحابه في كل صباح لقضاء وقت الفراغ، وقد ملأت هذه الحكايات أقطار أوربا، واقتبس منها الكاتب الإنجليزي (وليم شكسبير) موضوع مسرحية (العبرة بالخواتيم)، واقتبس منها (ليسينج) الألماني مسرحية (ناتان الحكيم).

وكان شوسر إمام الشعر الحديث في اللغة الإنجليزية من أكبر المقتبسين من بوكاشيو في زمانه، لأنه التقى به حين زار إيطاليا، ونظم بعد ذلك قصصه المشهورة باسم (قصص كانتربري)

وكانت صلة دانتي[1] بالثقافة الإسلامية وثيقة، لأنه أقام في صقلية في عهد الملك فردريك الثاني، الذي درس الثقافة الإسلامية في مصادرها العربية الأصيلة، وقد لاحظ أحد المستشرقين أن الشبه قريب جدًا بين وصف الجنة في كلام الصوفي الكبير محي الدين بن عربي (١١٦٤-١٢٤٠م) في مؤلفه الكبير (الفتوحات المكية) وأوصاف دانتي لها في الكوميديا الالهية.

وقد كان دانتي يعرف شيئا غير قليل من سيرة محمد، فاطلع على الأرجح من هذا الباب على قصة الإسراء والمعراج ومراتب السماء، ولعله اطلع على رسالة الغفران لأبي العلاء المعرى، واقتبس من كل هذه المصادر معلوماته عن العالم الآخر التي أوردها في الكوميدا الالهية، وأكبر القائلين بالاقتباس على هذا النحو هو عالم من أمة الأسبان انقطع للدراسات العربية، وهو الأستاذ آسين بالسيوس[2].

وقد عاش بترارك في عصر الثقافة الإسلامية بإيطاليا وفرنسا، ودرس العلم بجامعتي مونبلييه وباريس بفرنسا وكلتاهما قامتا على تلاميذ علماء المسلمين في الجامعات الأندلسية.

أما سرفانتيس فقد عاش في الجزائر بضع سنوات وألف كتابه (دون كيشوت) بأسلوب لا يشك من يقرأه في اطلاع كاتبه على العبارات العربية والأمثال التي لاتزال شائعة بين العرب حتى هذه الأيام. وقد جزم برسكوت صاحب الاطلاع الواسع على تاريخ الأسبان بأن فكاهة (دون كيشوت) كلها أندلسية في اللباب.

أما عن الشعر، فقد ذكر دانتي إنّ الشعر الايطالي ولد في صقلية بفضل الشعر العربي وبتأثير منه، ولقد شاع نظم الشعر بالعامية في إقليم بروفانس في جنوب فرنسا، وانتشر الشعر في ذلك الإقليم على يد الشعراء الجوالين الذين عرفوا باسم (التروبادور) وواضح أن الأوربيين اشتقوا هذا الاسم من كلمة طروب العربية، وقد وجدت في أشعار الأوربيين بشمال الأندلس كلمات عربية وأشارات لعادات إسلامية.

والشعر العربي الأندلسي في الموشحات والزجل كان السبب في نشأة الشعر الأسباني نفسه، والزجل يكون عادة باللغة الدارجة، بينما يكون الموشح بالعربية الفصحى، وهذان اللونان من النظم من ابتكار أهل

---

(١) هو دانتي البجيري (١٢٦٥-١٣٢١م) وهو من مفاخر عصر النهضة، وهو صاحب الكوميديا الالهية، وقد قام بترجمتها إلى اللغة العربية الدكتور حسن عثمان.

(٢) انظر: عبد الرحمن بدوي: دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، بيروت ١٩٦٥، ص ٦٣-٨٤.

الأندلس، وهما اللذان أثرًا في نشأة الشعر الأوربي، وقد أثبت الباحثون انتقال بحور الشعر الأندلسي والموسيقي العربية إلى أوربا.

وامتد التأثير العربي في نشأة الشعر الأوربي إلى بعض الموضوعات كالمغامرات، وطريقة علاج هذه الموضوعات، كما يتمثل هذا في فكرة الحب العذري التي تسود الغزل في الشعر البروفنسالي، فإنه يرتد إلى الشعر الأندلسي، وأزجال ابن قزمان، وقد عرض فكرة الحب العذري، ابن حزم في كتابه (طوق الحمامة).

أما في مجال القصة الأوربية، فنجد أن هذه القصة تأثرت في نشأتها بما كان عند العرب من فنون القصص في العصور الوسطى وهي: المقامات، وأخبار الفروسية، وأمجاد الفرسان مغامراتهم لإحراز المجد أو في سبيل الحب.

وترى طائفة من النقاد الأوربيين أن رحلات (جليفر) التي ألفها سويفت، ورحلة (روبنسون كروزو) التي ألفها ديفوى، تدين لقصص ألف ليلة وليلة، ولرسالة حى بن يقضان التي ألفها الفيلسوف الأندلسي المسلم ابن الطفيل، وقد وضح أنه كان لترجمة ألف ليلة وليلة إلى اللغات الأوربية أول القرن الثاني عشر أثر عظيم وبالغ الخطورة على الأدب الأوربي.

ولم تنقطع الصلة بين الأدب الإسلامي والآداب الأوربية الحديثة حتى اليوم، ويكفي لبيان الأثر الذي أبقاه الأدب الإسلامي في آداب الأوربيين أننا لا نجد أديبا واحدا من نوابغ الأدباء عندهم قد خلا شعره أو نثره من الإشارة إلى بطل إسلامي، أو نادرة إسلامية، ومن هؤلاء: شكسبير، أديسون، بايرون، سودى، كولردج، شيلي من أدباء الإنجليز، ومن أدباء الألمان، جيته، هرور، وليسنج، ومن أدباء فرنسا: فولتير، لافونتين.

وقد صرح لافونتين باقتدائه في أساطيره التي ألفها بكتاب (كليلة ودمنة) الذي عرفه الأوربيون عن طريق المسلمين.

وقد ذكر (ألفارو القرطبي) اهتمام أهل الأندلس من المسيحيين بالآداب العربية، فقال:« يطرب إخواني المسيحيون بأشعار العرب وقصصهم، فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين لا لتفنيدها، بل للحصول علي أسلوب عربي صحيح رشيق، فأين تجد اليوم علمانيا يقرأ التعليقات اللاتينية علي الكتب المقدسة؟ وأين ذلك الذي يدرس الإنجيل وكتب الأنبياء والرسل؟ وأسفاه! إن شباب المسيحيين الذين هم أبرز الناس مواهب، ليسوا علي علم بأي أدب ولا أية لغة غير العربية، فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهضة ن وإنهم ليترنمون في كل مكان بمدح تراث العرب. وإنك لتراهم من الناحية الأخري يحتجون في زراية إذا ذكرت الكتب المسيحية بأن تلك المؤلفات غير جديرة بالتفاقم، فواحر قلباه! لقد نسب المسيحيون لغتهم، ولا يكاد يوجد منهم واحد في الألف قادر علي إنشاء رسالة إلي صديق بلاتينية مستقيمة! ولكن إذا استدعي الأمر كتابة العربية ن فكم منهم من يستطيع أن يعبر عن نفسه في تلك اللغة بأعظم ما يكون من الرشاقة، بل لقد يقرضون من الشعر ما يفوق في صحة نظمه شعر

العرب أنفسهم»[1]

أما في الفلسفة، فقد كان أثر المسلمين في التفكير الفلسفي لأوربا عظيمًا، وكانت أسبانيا هي مركز تأثير الفلسفة الإسلامية على الفكر الأوربي الغربي، لأن أوربا لم تعرف فلاسفة الشرق إلا عن طريق الأندلس حيث أشرف ريموند أسقف طليطلة على ترجمة أعمال الفارابي وابن سينا والغزالي وغيرهم.

والمسلمون هم الذين حفظوا فلسفة كبار فلاسفة اليونان وعلى ما سطروه في كتبهم وبخاصة أرسطو وأوصلوا هذا التراث إلى الغرب، فاتصال العقلية الأوربية الغربية بالفكر العربي هو الذي دفعها لدراسة الفلسفية اليونانية.

وقد قرر روجر بيكون أن معظم فلسفة أرسطو ظلت عديمة الأثر في الغرب لضياع المخفوظات التي حوت هذه الفلسفة أو لندرتها وصعوبة تذوقها حتى ظهر فلاسفة المسلمين الذين قاموا بنقل فلسفة أرسطو وشرحها وعرضها على الناس عرضًا شاملاً.

ومن فلاسفة الأندلس الذين كان لهم أعمق الأثر في الفكر الأوربي، ابن باجه، وابن الطفيل، وابن رشد.

ويعد ابن رشد الشارح الأعظم لفلسفة أرسطو، وكان أول من أدخل فلسفته إلى أوربا (ميخائيل سكوت) سنة ١٢٣٠م، ولم يأت منتصف القرن الثالث عشر حتى كانت جميع كتب هذا الفيلسوف قد ترجمت إلى اللاتينية، ولم ينتصف القرن الخامس عشر حتى صار ابن رشد صاحب السلطان المطلق في كلية بارو بإيطاليا والمعلم الأكبر دون منازع[2].

ويبدو أثر ابن رشد واضحًا في خروج كثير من الغربيين على تعاليم الكنيسة وتمسكهم بمبدأ الفكر الحر وتحكيم العقل على أساس المشاهدة والتجربة.

وقد ظهر أثر آراء ابن رشد واضحًا في فلسفة القديس توما الأكويني (١١٢٥-١٢٧٤م) حتى أن الفصول التي كتبها توما في العقل والعقيدة وعجز العقل عن إدراك الأسرار الإلهية ليست إلا مقابلاً لما كتبه ابن رشد في باب (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة ومن الاتصال)

وبلغ تأثر توما بفلسفة ابن رشد أن كتاب (الخلاصة) لتوما يحوي بعض مذاهب إسلامية الأصل، مما يثبت أن الأثر الذي تركه ابن رشد في عقلية الغرب لم يكن مجرد شروح كتابات أرسطو، وإنما كان أبعد وأعمق من ذلك بكثير[3].

ويعد الفيلسوف الألماني المعاصر كانت من أكبر تلاميذ ابن رشد، وقد قال جوستاف لوبون عن ابن رشد:« إنه كان الحجة البالغة للفلسفة في جامعاتنا منذ أوائل القرن الثالث عشر من الميلاد، لما حاول لويس الحادي عشر تنظيم أمور التعليم في سنة ١٤٧٣م أمر بتدريس مذهب هذا الفيلسوف العربي ومذهب أرسطو

(١) حضارة الإسلام، جرونيباوم، ص ٨١- ٨٢ م.

(٢) جوده هلال ومحمد صبح: قرطبة في التاريخ الإسلامي، ص١٠٤-١٠٥.

(٣) سعيد عاشور: فضل العرب على الحضارة الأوربية. القاهرة ١٩٥٧، ص ٣٦.

»[1]

وكان للفيلسوف الصوفي المسلم محي الدين بن عربي (٥٦٠هـ ــ ٦٣٨هـ) أثر كبير في عقول النساك والمتصوفة من فقهاء المسيحية الذين ظهروا بعده، وقد ذكر (آسين بلاسيوس) المستشرق الأسباني أن نزعات دانتي الصوفية وأوصافه لعالم الغيب مستمدة من محي الدين بن عربي بغير تصرف كثير.

ومن المعلوم أن أول الفلاسفة الصوفيين من الغربيين هو جوهان أكهارت الألماني، فقد نشأ في القرن التالي لعصر ابن عربي ودرس في جامعة باريس، وهي الجامعة التي كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية في الحكمة والعلوم، وأكهارت يقول كما يقول ابن عربي:« إن الله هو الوجود الحق ولا موجود سواه[2]، وأن الحقيقة الإلهية تتجلى في جميع الأشياء، ولا سيما روح الإنسان التي مصيرها إلى الاتصال بالله من طريق الرياضة والمعرفة والتسبيح، وأن صلة الروح بالله ألزم من صلة المادة بالصورة، والأجزاء بالكل، والأعضاء بالأجسام »[3]

وقد اقتبس الفيلسوف المتصوف الأسباني ــ رايموندلول ــ من ابن عربي خاصة في كتابه (أسماء الله الحسنى) لأنه كان يحسن العربية، وعاش بعد ابن عربي بقرن واحد، وجعل أسماء الله مئة، وهي لم تعرف بهذا العدد في الديانة المسيحية قبل ذاك.

أما في **الطب**.. فقد عرف في طب العرب موسوعات طبية إسلامية ترجمت كلها إلى اللاتينية، اطلع عليها أطباء أوربا، ونهلوا من معينها حتى مطلع العصور الحديثة، كان في مقدمتها كتاب (القانون) لابن سينا في القرن الثاني عشر، وقد جمع خلاصة الطب عند العرب واليونان والسريان والأقباط، وضم ملاحظات جديدة عن الالتهاب الرئوي وعدوى السل، مع وصف لسبعمائة وستين دواء، وقد ترجمه جيرار الكريموني إلى اللاتينية وطبع عشرات المرات.

كما ترجم الحاوي للرازي (ت ٣٢٠هـ/ ٩٢٦م) وهو أكبر من القانون وأوسع مادة وموضوعًا، وقد أكمله تلاميذ الرازي بعد موته، وترجم إلى اللاتينية في عام ١٤٨٦م، وفيه آراء جديدة عن الفتق والحجامة والحميات وأعصاب منطقة الحنجرة وعضلاتها، وله كتاب (المنصوري) الذي ترجم عام ١٤٨١م ورسالة عن الجدري والحصبة بوصف وتشخيص آية في الدقة لأول مرة.

وكان الكتاب الملكي في الطب لعلي بن عباس (ت ٣٨٤هـ / ٩٩٤م) شائعًا عند الأوربيين لستة قرون من الزمان[4]، كما كان خلف بن قاسم الزهراوي (ت٤١٤هـ/١٠١٣م) معروفاً عند الأوربيين بكتابه (التصريف لمن عجز عن التأليف) بأجزائه الثلاثة، وقد أفرد القسم الأخير منها للجراحة، وفيه أشار إلى أهمية

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ٥٦٩.

(٢) ذكرنا المعاني الحقيقية المقصودة من كلام العارفين في هذا المجال الذي أساء البعض فهمه، فراح يرميهم بالكفر والبدعة من غير فهم لمقاصدهم، ولا ذوق لمشاربهم في رسالة (أكوان الله) من (رسائل السلام)

(٣) عباس محمود العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية. القاهرة ١٩٦٣، ص ٩٨-٩٩.

(٤) سيديو، تاريخ العرب العام: ٧٧/٢.

التشريح للجراح، ووصف كثيرًا من الجراحات باسهاب، وأجرى جراحات في شق القصبة الهوائية وتفتيت الحصارة في المثانة وخاصة عند النساء عن طريق المهبل، وسبق إلى استخدام ربط الشرايين، ووصف استعداد بعض الأجسام للتريف وعلاجه بالكى، وقد زود كتابه برسوم للآلات الجراحية، وقد ترجمه إلى اللاتينية جيرار الكريموني وطبع في أوربا عشرات المرات، وكان مرجعًا في جامعات سالرنو ومونيليه وغيرهما.

وفطن المسلمون إلى أمراض النساء والولادة، وقد كتب في هذا المجال علي بن عباس في توليد الجنين الميت، والأدوية المانعة للحمل، أو النصائح التي تتعين مراعاتها عند التوليد.

وكان الأطباء في البلاد الإسلامية في القرن العاشر، يعلمون تشريح الجثث في قاعات مدرجة خصصت لذلك في جامعة صقلية، واكتشف ابن النفيس الدمشقي المصري الدورة الدموية الصغرى، ونقلها عنه (هارفن) الإنجليزي وعزاها لنفسه ومثل ذلك فعل (سرفينوس) الإيطالي، ويدعم ذلك ما قاله المؤرخ المعاصر (مايرهوف):« إن ما أذهلني حقًا، مماثلة الجمل الأساسية في أقوال هذين الطبيبين لما كتبه ابن النفيس وكأنها ترجمت ترجمة حرفية »، ويؤيد ذلك ايضًا العالم (الدوميالي) في كتابه عن علوم العرب، كما يؤيده الأستاذ الدكتور (ليون بينه) أستاذ الفسيولوجيا بباريس.

قلت: أهذه هي العلوم التي برع فيها المسلمون.. واقتبسها منهم أجدادنا؟

قال: هذه بعض العلوم فقط.. والأهم من ذلك كله هو المناهج التي كان يمارس بها المسلمون تفكيرهم، وكنا نفتقر إليها.

قلت: تقصد المنهج العقلي.

قال: لا.. أقصد المنهج التجريبي[1].

قلت: ذلك منهجنا.. به عرفنا.. وعليه قامت حضارتنا.. فقد أسسه في بلادنا (روجر بيكون) و(فرنسيس بيكون)

قال: لقد اعترف الأول بأنه اقتبس هذا المنهج من المسلمين.

يقول دوهرنج:« إن آراء روجر بيكون فى العلوم أصدق وأوضح من آراء سميه المشهور(فرنسيس بيكون).. ومن أين استقى روجر بيكون ما حصله فى العلوم؟»، ثم يجيب:« من الجامعات الإسلامية فى الأندلس »

ويقول بريفولت فى كتابه: (بناء الإنسانية):« إن روجر بيكون درس اللغة العربية، والعلم العربى، والعلوم العربية فى مدرسة أكسفورد، على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس، وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية

(١) سنتحدث عن المناهج المختلفة، ونقارن بينها وبين المناهج التي قررها الإسلام، وأخذ بها علماء المسلمين في فصل (معارف) من هذه الرسالة.

وعلوم العرب، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة. والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي، هي طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوروبية، وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر بيكون قد انتشر انتشاراً واسعاً، وانكب الناس، في لهف، على تحصيله في ربوع أوروبا »[1]

ويقول:« لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج.. إن العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في أسبانيا، لم تنهض في عنفوانها إلا بعد مضي وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام، ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوروبا الحياة، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية »[2]

ويقول:« إنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوروبي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما تكون، في نشأة تلك الطاقة التي تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة، وفي المصدر القوي لازدهاره، أي في العلوم الطبيعية، وفي روح البحث العلمي »[3]

ويقول:« إن ما يدين به علمنا للعرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين لها بوجوده نفسه، فالعالم القديم ــ كما رأينا ــ لم يكن للعلم فيه وجود، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوماً أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم، وأخذوها عن سواهم، ولم تتأقلم في يوم من الأيام، فتمتزج امتزاجاً كلياً بالثقافة اليونانية، وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات، ولكن أساليب البحث في دأب وأناة وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها، والمناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبي، كل ذلك كان غريباً تماماً عن المزاج اليوناني، ولم يقارب البحث العلمي نشأته في العالم القديم إلا في الإسكندرية في عهدنا الهليني، أما ما ندعوه (العلم) فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة، بطرق التجربة والمقاييس وتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان، وهذه الروح، وتلك المناهج أوصلها العرب إلى العالم الأوروبي »[4]

التفت إلي، وقال: هذا في الماضي.. ونحن إلى الآن لا نزال نستفيد من خبرات المسلمين وعلمائهم وباحثيهم.. بل نحن نمارس كل الوسائل لنمتص كل القدرات والكفاءات لننعم بها نحن دونهم[5].. ثم نظل على

---

(١) بناء الإنسانية، ص٢٠٢.

(٢) بناء الإنسانية، ص٢٠٢.

(٣) بناء الإنسانية، ص١٩٠.

(٤) بناء الإنسانية، ص١٠٩.

(٥) أشير بهذا إلى هجرة الكفاءات والعقول.. فالغرب إن كان قد اعتمد في تشييد النهضة الحديثة على إنجازات الحضارة الإسلامية في العصورالوسطى، فإنه لم يتوقف عند ذلك الحد.. بل هاجرت إلى الدول الغربية والأمريكية أعداد من الكفاءات العلمية والخبرات التقنية، تحصيها مجلة (العلم والمجتمع) في عددها الصادر في ديسمبر ١٩٧٧م بثلاثين ألفا، كما ذكر كتاب (رجال ونساء العلم الأمريكيين) ٧٥٤ من العلماء المتخصصين في مجالات متنوعة، منهم ٣٢١ من الدول العربية، ١٦٧ من الهند

جحودنا وكبريائنا وحقدنا.

***

ما وصل (توماس) من حديثه إلى هذا الموضع حتى انهمرت دموع حارة من عينيه، فأخرج منديلا من جيبه، وراح يمسحهما به.

قلت له: ما الذي دعاك إلى البكاء؟

قال: أمران طالما هطلت دموعي بسببهما.

قلت: ما هما؟.. فعساك تهيج من دموعي ما هيج من دموعك.

قال: أولهما.. أني ذكرت تلك النفوس الطيبة التي ربيت على أيدي محمد.. فراحت تنشر خيرها وخلاصها للأمم لا تبتغي بذلك أجرا.. فحررت العبيد.. وأنارت الدنيا.. ونشرت من القيم ما لا تستطيع الدنيا جميعا إحصاءه.

قلت: فما يبكيك من هذا؟

قال: لم يبكني ما فعلوا بنا.. ولا بأهل الأرض من إخواننا.. ولكن يبكيني ما فعلنا بهم..

لقد رحنا بجشعنا وحرصنا وطمعنا ننهب خيرات البلاد التي آوتنا وعلمتنا.. ورحنا نعض الأيدي التي توجهت لتحريرنا من كل القيود التي طوقت أعناقنا.. ورحنا نقتل أحفاد من سالت دماؤهم في سبيل خلاصنا.

قلت: هذا الأول.. وهو جدير بأن يجعلني أشاركك في بكائك.. فما الثاني؟

قال: أبكاني قومي الذين نهلوا من خلاص محمد القشور، وتركوا اللباب.. لقد اهتموا بالظواهر، ونسوا البواطن، واهتموا بالعلوم، ونسوا القيم، واهتموا بالدنيا، ونسوا الآخرة.

قلت: فما كنت فاعلا لو رجعت إلى ذلك الزمان؟

قال: آخذ بخلاص المسلمين روحه وجسده.. باطنه وظاهره.

قلت: أتسمح لي حضرة العلامة الجليل أن أسألك سؤالا قد يحرجك؟

قال: سل ما بدا لك.

قلت: أنا أتعجب من كل هذه الحماسة التي تبديها للإسلام، ولكني مع ذلك أراك تحتفظ بصليبك، ودينك.. هل ترى أن الذي قدم كل هذا الخلاص للبشرية كان كاذبا في دعوى النبوة؟

انتفض، وقال: يستحيل ذلك.. يستحيل ذلك..

قلت: ولكني لا أزال أراك على دينك.. كيف هذا؟

صمت قليلا، ثم قال: لن أحدثك عن نفسي.. سأذكر لك ما قال (اللورد هدلي).. وافهم أنت ما تشاء.

قلت: أعرفه.. فما قال؟

وباكستان، ١٠٦ من إيران وأفغانستان، ٧٦ من تركيا (وهى دولة إسلامية) وحصى الكتاب من العلماء المسلمين ٢٢٦ مهندساً، ٣١٣ في العلوم الطبية البيولوجية، ٢٥٥ في العلوم الطبيعية والرياضية.

قال: لقد قال:« إنني أعتقد أن هناك آلافاً من الرجال والنساء أيضاً، مسلمون قلباً، ولكن خوف الانتقاد والرغبة في الابتعاد عن التعب الناشئ عن التغيير، تآمروا على منعهم من إظهار معتقداتهم »

قلت: لكن (اللورد هدلي) أظهر إسلامه، وتحدى كل من وقف في طريقه.. وقد كان لإسلامه ضجة كبيرة، وذلك لمكانته بين قومه، وعلو قدره العلمي، وقد حج بيت الله الحرام، ومر في طريقه بالإسكندرية، فأقام له أهالي الثغر حفلة كبيرة برعاية الأمير عمر الطوسوني، وبرئاسة الشيخ عبد الغني محمود شيخ علماء الإسكندرية آنذاك.

قال: لقد قال في سبب اعتناقه الإسلام:« عندما كنت أقضي ــ أنا نفسي ــ الزمن الطويل من حياتي الأولى في جو الكنيسة كنت أشعر دائماً أن الدين الإسلامي به الحسن والسهولة، وأنه خلو من عقائد الرومان والبروتستانت، وثبتني في هذا الاعتقاد زيارتي للشرق التي أعقبت ذلك، ودراستي للقرآن الكريم »

ويقول:« فكرت وصليت أربعين سنة كي أصل إلى حل صحيح »

ويقول:« إذا أصبح كل فرد في الإمبراطورية الإنجليزية محمدياً حقيقياً بقلبه وروحه لأصبحت إدارة الأحكام أسهل من ذلك، لأن الناس سيقادون بدين حقيقي »

ويقول:« ليس هناك في الإسلام إلا إله واحد نعبده ونتبعه، إنه أمام الجميع وفوق الجميع، وليس هناك قدوس آخر نشركه معه، إنه لمن المدهش حقاً أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والألباب على هذا القدر من الغباوة، فيسمحون للمعتقدات والحيل الكهنوتية أن تحجب عن نظرهم رؤية السماء »

ويقول في شعوره بعد إسلامه:« إن الدين الإسلامي تملك رشدي صدقاً، وأقنعني نقاؤه، وأصبح حقيقة راسخة في عقلي وفؤادي، إذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتها قط من قبل، كما استنشق هواء البحر الخالص النقي، وبتحققي من سلامة وضياء وعظمة الإسلام ومجده، أصبحت كرجل فر من سرداب مظلم إلى فسيح من الأرض تضيئه شمس النهار »

كانت هذه النصوص تخرج من أعماق أعماق قلبه.. وكأنها قد ولدت تلك اللحظة، قلت: لقد سمعت بكل ما قال من هذا وغيره.. وأنا لا أسألك عنه.. وإنما أسألك عن نفسك.

قال: أحيانا تجد غيرك يوفق في التعبير عما في نفسك أكثر من قدرتك.. فتكتفي بتعبيره عن تعبيرك.. وبلسانه عن لسانك.

قلت: فأنت مقتنع بما قال؟

قال: وأنا حزين لما أفعل.

قال ذلك.. ثم صمت صمتا طويلا.. استحييت أن أقطعه عليه.. فخرجت، ومعي بصيص جديد من النور اهتديت به بعد ذلك إلى شمس محمد.

ثانيا ــ صمود

في اليوم الثاني من تلك الأيام العشرة المباركة، التقيت المستشرق الذي قطفت على يده ثمرة الصمود من شجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، وسر قوله تعالى:﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾(التوبة)

وعرفت بها سر قوله ﷺ:« لن يبرح هذا الدين قائما يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة »[1]

وقوله ﷺ:« لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله، وهم ظاهرون»[2]

وقوله ﷺ:« ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله هذا الدين، بعِزِّ عزيز، أو بذُلِّ ذليل، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر »[3]

فهذه النصوص المقدسة تخبر عن التأييد الذي أمد الله به هذا الدين، فقام صامدا في وجه كل المؤمرات التي كانت ولا تزال تحاك ضده.

وإلى جنب هذا عرفت سر تلك النصوص الكثيرة التي تنبئ المسلمين عن العداوات الكثيرة التي تختزنها لهم الأيام، والتي عبرت عنها النصوص القرآنية والنبوية خير تعبير:

قال تعالى:﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)﴾(البقرة)

وقال تعالى:﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٠٢)﴾(النساء)

وقال تعالى:﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢)﴾(الممتحنة)

وقال تعالى:﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨)﴾(التوبة)

فهذه النصوص المقدسة جميعا تقريرات ربانية تخبر المسلمين عبر التاريخ عما يريد الجاهلون والجاهليون أن

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه أحمد (١٠٣/٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٤/٦):« رجال أحمد رجال الصحيح»

يفعلوه بالشجرة المباركة التي بذر بذورها نبيهم ﷺ.

***

سمعت بـــ (جابرييلي فرانشيسكو)[1] وهو مستشرق إيطالي كان من النوع الذي حدثني عنه مدير جامعة السربون، واسمه من الأسماء التي وضعت في الدفتر الذي سلمني إياه المرشد، وقد كنت أتحين الفرص للقائه والاستماع إليه، ولكني لم أظفر بذلك إلا في ذلك اليوم الجميل...

في صباح ذلك اليوم سرت إلى حديقة جميلة بضاحية باريس، سمعت أن بها شجرة ولدت قبل أن تولد أكثر مباني المدينة، كان يأتيها الشيوخ ليتذكروا شبابهم، ويأتيها الشباب، ليسألوا الله أن يمدهم من العمر ما أمدها.

عندما رأيتها لم أصدق أنها شجرة عجوز، فقد كانت نضارة الشباب تملؤها، فأوراقها لا تزال غضة طرية، وسيقانها الجديدة تضاهي سيقان أصغر الأشجار وأرقها، وثمارها لا تزال تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

ولكن ما أكد لي هذا العمر الطويل الذي رزقها الله إياه هو ضخامة أصولها، وامتداد جذورها، وتعالي هامتها، ورسوخها الشديد في أرضها، فهي لا تهزها العواصف، ولا تعبث بها الأعاصير، ولا تميد بأغصانها الرياح.

وفوق ذلك، فقد اكتسبت مقاومة فعالة ـــ لست أدري مصدرها ـــ ضد كل تلك الحشرات الضارة التي عبثت بصحة نظيراتها، فأسلمتها إلى الموت المحتوم.

هناك رأيت (جابرييلي فرانشيسكو) المستشرق الإيطالي، جالسا على عشب تلك الحديقة، يحدق بشدة إلى تلك الشجرة، وكأنه يرى في أوراقها وأغصانها وهامتها ما لا يرى سائر الناس.

فرحت فرحا شديدا للقائه، فحييته باللغة العربية، لأنال فرصة الحديث معه، فقد كنت أعلم هيامه الشديد بها.

عندما سمعني أتحدث بالعربية، طلب مني أن أجلس بجانبه، فجلست، وبدأ يسألني عني، فذكرت له ما أذن لي في ذكره، وحجبت عنه ما نهيت عن ذكره.

قلت له بعدها: أراك مستغرقا في هذه الشجرة، أتتذكر فيها شبابك؟

قال: لا.. أتذكر فيها رجلا غرس شجرة لا تختلف كثيرا عن هذه الشجرة.. لقد غرسها منذ قرون طويلة، ومع ذلك لا تزال غضة طرية ممتلئة شبابا.

---

(١) هو في الأصل .abrieli Francesco (١٩٠٤ ـــ ١٩٩٧) مستشرق إيطالي، كان مهمتاً باللغة العربية وآدابها حتى عيّن كبير أساتذة اللغة العربية وآدابها بجامعة روما، عرف بدراسته للأدب العربي، وفي تحقيق التاريخ الإسلامي، انتخب عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٤٨. واشتهر فرانشسكو بمواقفه المعتدلة من التاريخ الإسلامي حتى إنه كتب عن صلاح الدين الأيوبي بوصفه بطلاً وشخصية عظيمة بالرغم مما تعرضت له هذه الشخصية من تشويه في الكتابات الغربية (انظر: سمير القريوتي، (رحيل فرانشسكو جابرييلي) في الشرق الأوسط، عدد:٦٥٩٢، ٥شعبان ١٤١٧(١٥ديسمبر ١٩٩٦م)

مرت عليها الأعاصير.. كل الأعاصير.. فلم تجتثها.
أصيبت الأرض بجانبها بالزلازل، ولكن أرضها لاتزال مستقرة ثابتة.
اجتمعت جميع أسود الدنيا وسباعها لتغرز أنيابها في أصولها، وتقطع منابع الرزق عن فروعها، فعادت إليها أنيابها خاسئة حسيرة عاجزة.

صوبت في وجهها المدافع.. فلم تفلح المدافع، و لم يفلح القائمون عليها.

أضرمت حولها النيران، فلم تحرقها، و لم تجفف أوراقها، و لم تشوه صورها.

ثم نظر إلي، وقال: هذه الشجرة تذكرني بتلك الشجرة العظيمة.

قلت: من ذلك العظيم الذي غرس تلك الشجرة العظيمة.

قال: صدقت، فالشجرة العظيمة لا يغرسها إلا عظيم.

قلت: فمن هو؟

قال: محمد.

قلت: أي محمد تقصد؟

قال: وهل هناك غير محمد؟

قلت: لعلك تقصد نبي العرب.

قال: بل نبي العالم.. نعم إن شجرة محمد نبتت في بلاد العرب، ولكن أغصانها وأوراقها وثمارها شملت العالم أجمع.

قلت: أي شيء أغراك بتلك الشجرة حتى نالت منك كل هذا الاهتمام؟

قال: الصمود..

قلت: الصمود!؟.. ما تعني بالصمود؟

قال: لقد كنت مغرما منذ صغري بالأبطال الصامدين الذين لا يهتزون لشيء، ولا يتأثرون لشيء.. الأبطال الثابتون على مبادئهم أمام كل ترغيب، وأمام كل ترهيب.

وقد كان من الأبطال الذين امتلأ قلبي تعظيما لهم محمد.. لقد سمعت قوله لعمه الذي جاء يخبره بما أغراه قومه به، وبما رهبوه.. فقال:« يا عم.. والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»[1]

قلت: والمسيح ــ أيضا ــ ثبت أمام خشبة الصليب.. لقد قضى ست ساعات على الصليب، وقد تألم فيها بأنواع عديدة من الآلام لم تزعزعه، و لم تهد كيانه المقدس.

لقد تألم آلاما كثيرة.. آلاما في جسده.. وآلاما في نفسه.

لقد تفل عليه، وضرب بالسياط، ووضعوا إكليل شوك فوق رأسه القدوس، وهو الملك صاحب التيجان

---

(١) رواه ابن إسحق وغيره.

الكثيرة.

وطعنوه بحربة في جنبه، وسالت منه ينابيع الغفران من خلال ذلك الدم الذي يطهر من كل خطية، والذي لا يزال يتكلم ويطلب الغفران لأجلنا.

ثقبوا يديه ورجليه بمسامير حديدية غليظة بواسطة أيدي الجنود الرومانيين الذين كانت قلوبهم غليظة.

رددت هذا الكلام من غير شعور، فقال: أنت مهتم بالدين المسيحي إذن؟

قلت: وكيف لا أهتم، وأنا مسيحي؟

قال: وأنا مثلك مسيحي.. أذهب كل أحد إلى الكنيسة.. ولكني لا أشعر بأي اهتمام بالمسيحية.

قلت: لم؟

قال: ألم أذكر لك بأني مغرم بالبطولة والصمود إلى الغاية التي لا تتصورها؟

قلت: و لم تتجل البطولة في أحد كما تجلت في المسيح، وهو على خشبة الصليب.

قال: إن شئت الحق، فإن هناك آلاف المصلوبين في العالم أبدوا من البطولة والصمود على ما هو أخطر من الصليب أضعاف ما ذكر عن المسيح..

بل إنه لا أحد من المجرمين المصلوبين من صاح بذلك الرعب الذي صاح به المسيح عندما قوّله كتبتنا قوله:« إيلي إيلي.. لماذا شبقتني!؟ أي إلهي إلهي لماذا تركتني » (متى:٢٧)[1]

ثم التفت إلي، وقال: حتى لو فرضنا أن ما حصل من المسيح صمود لا نظير له[2]، فإنه صمود شخص يبعث على الإعجاب.. لا صمود أمة..

قلت: ولكن أتباع المسيح أبدوا من الصمود والثبات ما لا نظير له.

إن التاريخ يشهد بالبطولات العظيمة التي أبداها أتباع المسيح في القرون الثلاثة الأولى تجاه جميع أنواع المحن والبلايا والاضطهادات التي مورست عليهم.

لقد كان هناك على الأقل عشرة اضطهادات عظيمة أبدى أتباع المسيح تجاهها من البطولة والصمود ما لا يستطيع أحد في الدنيا أن يبديه:

لقد بدأ الأول في عهد نيرون سنة ٦٤م الذي كان مشهوراً بالظلم والقسوة، حتى أنه أحرق مدينة روما، وألقى تبعة ذلك على المسيحيين، فاضطهدهم بعنف.

لقد كان الإقرار بالمسيحية ذنبا وجُرما عظيما.. لقد قتل نيرون بطرس وزوجته وأناساً كثيرين، وكان هذا القتل في العاصمة، وفي سائر الولايات مستمراً إلى نهاية حياة هذا السلطان الملعون الهالك سنة ٦٨ م.

---

(١) هذا بناء على ما يعتقده المسيحيون، أما المسيح.. فقد كان سيد الأبطال الثابتين، والبطولة لا تتجلى على الصليب وحده.. وسنناقش التفاصيل المرتبطة بالصليب في الرسالة الخاصة بـــ (الإنسان) من هذه السلسلة.

(٢) هناك رد مفصل على حادثة الصلب، وما فهمه المسيحيون منها، والأدلة الكثيرة على عدم حدوثها، في رسالة (الإنسان) من هذه السلسلة.

ثم تلاه الاضطهاد الذي حصل في عهد السلطان دوميتيانوس، والذي صار إمبراطور روما عام ٨١م، وهو أخو تيطس الذي ذبح اليهود سنة ٧٠م، وكان طاغية جباراً، وعدواً للمسيحيين مثل نيرون، فأجلى يوحنا الحواري، وأمر بالقتل العام، وأسرف في القتل وفي قتل الكبراء ومصادرة أموالهم وحرق دورهم وكتبهم، ونكل بالمسيحيين تنكيلاً عظيماً فاق ما فعله أسلافه، وكاد أن يستأصل المسيحية، وبقى الحال هكذا إلى أن قُتِل الملعون سنة ٩٦م.

ثم تلاه الاضطهاد الذي حصل في عهد السلطان ترايانوس الذي صار إمبراطور روما عام ٩٨م، فقد بدأ اضطهاده العنيف للمسيحيين سنة ١٠١م، واشتد جداً سنة ١٠٨م، حيث أمر بقتل كل من بقى من ذرية داوود، فقام الضباط بالتفتيش، وبقتل كل من وجدوه منهم، وأعدم كثيرين من الأساقفة بالصلب أو بالضرب أو بالاغراق في البحر مع سلب أموالهم وحرق دورهم، وبقى الحال هكذا طيلة حياته إلى أن فجأه الموت، فهلك سنة ١١٧م.

ثم تلاه الاضطهاد الذي حصل في عهد السلطان مرقس أنطيونينوس ماركوس، الذي صار إمبراطور روما عام ١٦١م، وكان فيلسوفاً رواقياً ووثنياً متعصباً، بدأ اضطهاده للمسيحيين منذ صار إمبراطوراً عام ١٦١م، ولمدة تزيد على عشر سنين أباد فيها الأخضر واليابس حتى بلغ القتل العام شرقاً وغرباً.

وكان يطلب من الأساقفة أن يكونوا من جملة سدنة الأوثان.. أي خدام الأوثان التي كان يعبدها.. ومن رفض منهم يجلسونه على كرسي حديد تحته نار، ثم يمزق لحمه بكلاليب من حديد.

ثم تلاه الاضطهاد الذي حصل في عهد السلطان سيفيروس، الذي صار امبراطور روما عام ١٩٣م، وابتدأ اضطهاده للمسيحيين عام ٢٠٢م، فأمر بالقتل في كل ناحية، وكان القتل أشده على مصر وقرطاجه وفرنسا حيث الألوف في غاية الشدة ولم يبق طفل ولا شاب ولا رجل ولا إمرأة ولا شيخ.. بل واغتنم الدور والأموال، فظن المسيحيون أن هذا الزمان هو زمان الدجال.

ثم تلاه الاضطهاد الذي حصل في عهد السلطان ماكسيمينيوس، والذي صار امبراطور روما سنة ٢٣٥ م فأحيا رسوم الوثنية وعباداتها، وبدأ اضطهاده للمسيحيين عام ٢٣٧م فأصدر أمره بقتل جميع العلماء، لأنه ظن أنه إذا قتل العلماء جعل العوام مطيعين له في غاية السهولة، ثم أمر بقتل كل نصراني بلا فحص ولا محاكمة، فكثيراً ما كان يُطرح منهم في بئر واحد خمسون أو ستون قتيلاً معاً، ثم هم بقتل جميع سكان روما، فقتله أحد الجند سنة ٢٣٨م.

ثم تلاه الاضطهاد الذي حصل في عهد السلطان دنيس، الذي بدأ إضطهاده للمسيحيين سنة ٢٥٣م، وقد أراد هذا السلطان استئصال المسيحية، فأصدر أوامره بذلك إلى حكام الولايات، ونفذ الولاة أوامره بقسوة، فبحثوا عن المسيحيين وقتلوهم في كل مكان بعد التعذيب الشديد، وكان ظلمه وقهره شديداً في مصر وأفريقيا وإيطاليا والمشرق (آسيا الصغرى وبلاد الشام)، حتى ارتد في زمنه كثيرون من المسيحية إلى الوثنية.

ثم تلاه الاضطهاد الذي حصل في عهد السلطان والريانوس، الذي بدأ اضطهاده للمسيحيين سنة ٢٥٧م، عندما أصدر أمره الشديد بقتل جميع الأساقفة وخدام الدين، وإذلال الأعزة ومصادرة أموالهم، وسلب حلي

نسائهم، وإجلائهن من الأوطان مجردين من متاعهم، ومن بقى منهم بعد ذلك مسيحيا ورفض تقديم قربان للإله جوبيتر يُقتل أو يحرق أو يلقى للنمور تفترسه، فقُتل بضعة ألوف بأبشع الطرق، وأُخذ الباقون عبيداً مقيدين بالسلاسل لاستعمالهم في أمور الدولة كخدم وعبيد.

ثم تلاه الاضطهاد الذي حصل في عهد السلطان أريلين، الذي بدأ إضطهاده للمسيحيين بأوامر مشددة ضدهم سنة ٢٧٤م، لكن لم يقتل فيه الكثير لأن السلطان قُتل، ولكنه قد أحرق الكثير من الدور والكنائس.

ثم تلاه الاضطهاد الذي حصل في عهد السلطان دقلديانوس، الذي صار امبراطور روما عام ٢٨٤م، وبدأ اضطهاده للمسيحيين سنة ٢٨٦م، بقتل (٦٦٠٠) من المسيحيين في بداية حكمه، وكانت ذروته سنة ٣٠٢م، واستمر إلى سنة ٣١٣ م، ففي سنة ٣٠٢م أحرق بلدة فريجيا، كلها دفعة واحدة بحيث لم يبق فيها أحد من المسيحيين، وأراد هذا السلطان أن يمحو الكتب المقدسة من الوجود، واجتهد في هذا الأمر اجتهاداً عظيماً فأصدر أمره في شهر آذار (مارس) سنة ٣٠٣م بهدم جميع الكنائس وإحراق الكتب، وعدم اجتماع المسيحيين للعبادة، فنفذ الولاة أمره بصرامة شديدة، فهدمت الكنائس في كل مكان، وأُحرق كل كتاب عثروا عليه بالجد التام، وعُذب عذاباً شديداً كل من ظُن أنه أخفى كتاباً أو صحيفة، وامتنع المسيحيون عن الإجتماع للعبادة، وقد ذكر (يوسي بيس) أنه رأى بعينيه تهديم الكنائس وإحراق الكتب المقدسة في الأسواق.

وأصدر أوامره لعامله على مصر أن يجبر الأقباط على عبادة الأصنام، وأن يذبح بالسيف كل من يأبى، وأن يحرق كل ما تصل إليه يداه من الكتب، فقتل منهم (٨٠٠.٠٠٠) فسمي عصره بعصر الشهداء، وكان يقتل من المسيحيين في كل يوم ما بين ٣٠ إلى٨٠ نفسا.

واستمر إضطهاده شرقاً وغرباً عشر سنين حتى ملأ الأرض قتلاً، فهذا الإضطهاد الأعنف من كل الإضطهادات السابقة وأطولها أمداً عليهم.

قال: ولكنهم ــ في الأخير ــ تزعزعوا أمام إرادة الامبراطور..

نعم.. لم تطق معهم أسلحة الترهيب.. ولكن أسلحة الترغيب جذبتهم.. فتحولت المسيحية من دين المسيح إلى دين قسطنطين.. يغير فيها ما يشاء، ويثبت ما يشاء.

قلت: كيف تقول هذا؟

قال: أنا مؤرخ.. ولا أتعامل إلا مع الوثائق التاريخية، ولدي من الوثائق الكثيرة ما يثبت تلك الانحناءات الخطيرة التي انحناها ورثة المسيح، ليتركوا ــ في الأخير ــ الأمر للبابا الأول حضرة الامبراطور قسطنطين ليتصرف في دينهم كيف يشاء.

اسمح لي.. يا أخي.. أن أقول لك بأن ديننا الذي ندين به ورثناه من الامبراطور، لا من المسيح.

قلت: إن هذا الكلام الذي تقوله خطير جدا.

قال: ولكنه صحيح جدا للأسف..

١ ــ صمود الجاهلية

التفت إلي، فرأى الاستغراب في وجهي، فقال: أنت تريد الأدلة على كل هذا..

قلت: أجل.. فلا يمكن لعقلي أن يتعلق بأي قول لا دليل عليه.

قال: ولن تجد عندي إلا الأدلة.. لقد عقدت مقارنات طويلة بين الأديان والمذاهب والحضارات لأرى مدى صمودها مع عواصف الأيام.. وقد خرجت بالنتيجة التي ذكرتها لك.

قلت: تقصد صمود الإسلام.

قال: أجل.. هو الدين الوحيد الذي صمد أمام كل العواصف والزلازل والبراكين والحروب.. وهو لا يزال صامدا ينتظر عودة جديدة.. عودة قد تكون أقوى بكثير مما كان عليه.. بل إني أستشرف أن يطل بنوره على الأرض جميعا.. ليتحقق ما ذكره القرآن:﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾(التوبة)

قلت: فحدثني عن هذه المقارنة.. واسمح لي أن أناقشك فيما تذكره.. فإنه لا يسهل إقناعي.

قال: أنت مثلي إذن.. إن هذا الخلق هو الذي جعلني أصرف جزءا طويلا من عمري في بحث هذا الجانب.

قلت: ما هو المنهج الذي تعتمد عليه في هذه المناقشة لأرى مدى علميته؟

قال: ألا ترى إلى هذه الشجرة؟

قلت: ما بالها.. وما علاقتها بما نحن فيه؟

قال: إن الصمود ــ على حسب ما توحيه لي هذه الشجرة الصامدة ــ يستدعي صمود ثلاثة أمور:

الأول: صمود المنابع التي تستقي منها هذه الشجرة رزقها، بحيث تستمر في توفير حاجيات الشجرة، لتديم لها نظارتها وبهاءها وحياتها.. لقد أطلقت على هذا النوع من الصمود في أبحاثي (صمود المصادر)

وأما الثاني، فهو صمود الثمار التي تنتجها هذه الشجرة.. بحيث تبقى حلوة نظرة صالحة، فلا قيمة لشجرة حية، ولكنها عقيم.. وقد سميت هذا النوع (صمود الثمار)

وأما الثالث، فصمود الجذور التي تنشرها هذه الشجرة لتمدها بالديمومة والبقاء.. فلا شجرة من غير جذور.. ويمثل هذه الجذور البشر الذين يعتنقون الدين، ويتغذون من منابعه الأصلين.. وقد أطلقت على هذا النوع من الصمود (صمود الانتشار)، فبقدر انتشار الجذور تمتد حياة الأشجار.

اليهودية

تأملت ما ذكره المستشرق (جابريبلي فرانشيسكو) من أركان الصمود وعلاماته، فوجدته محيطا بها، حاصرا لها، فقلت له: نعم.. صحيح ما ذكرته.. فبمن ترى نبدأ مقارناتنا؟

قال: بأصل المسيحية الأول.. ومنبعها الذي لا تزال تشرب منه.

قلت: تقصد اليهودية!؟

قال: أجل.. ألم يكن المسيح يهوديا.. وولد في بيئة يهودية..

قلت: ولكنه جاء بدين جديد مختلف تماما عن اليهودية.

قال: ولكننا لا نزال نستمد من نفس مصادر اليهودية.. حتى لكأن المسيحية مذهب من مذاهب اليهودية.. أو نسخة مشوهة عنها.. بل إننا لا نزال إلى اليوم نحن إلى اليهود، ونقبل أعتابهم، ونقتل أولئك المسلمين الأبرياء في سبيلهم.

قلت: فحدثني عن صمود اليهودية.

قال: اليهودية لم تصمد في يوم من الأيام.. لقد بدأ انحدارها في عهد موسى نفسه.. لقد أذاقوا موسى من ألوان الإيذاء ما تعلمه.. ومن ذلك الحين.. وهم خاضعون للشياطين.

١ ــ المصادر:

قلت: لقد ذكرت أن أول صمود هو صمود المصادر.. ونحن إلى الآن نرى صمود مصادر اليهودية[1].. فكيف تزعم سقوطها؟

قال: ومن ذكر لك بأن مصادر اليهودية صمدت في يوم من الأيام.. سأذكر لك من الشهادات ما يثبت

---

(١) تنقسم الكتب المقدسة عند اليهود إجمالا إلى قسمين هما:

الأول: التوراة، وما يتبعها من أسفار الأنبياء المقدسة عند اليهود، وهذا القسم يسميه اليهود بعدة أسماء منها:

١- أهمها وأشهرها (التناخ) ويكتبونها بالعبرية (ت،ن،ك) وهي حروف اختصار من الألفاظ (توراة)، نبوئيم (الأنبياء)، كتوبيم (الكتب) وهي الأجزاء الثلاثة الكبيرة التي يتألف منها العهد القديم كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى.

٢- (المقرا) ومعناه: النص المقروء، لأنهم مطالبون بقراءته في عباداتهم والرجوع إلى الأحكام الشرعية فيها التي تنظم حياتهم.

٣- (المِسُورَه) أو (المِسُورتْ) وهو عندهم صفة علمية خاصة، يعنون بذلك النص المقدس المروي عن الأسلاف رواية متواترة –على حد زعمهم– ارتضتها أجيال العلماء ورفضت ما عداها.

الثاني: التلمود، وهو الذي يعتبره اليهود مصدراً من مصادر التشريع اليهودي، ومن أسفارهم المقدسة لديهم، ويتكون من جزئين أحدهما يسمى المِشْنا أو المشْنَة، والثاني الجمارا أو الجمارة.

وهناك أسفار أخرى كثيرة عند اليهود لم تدخل ضمن الأسفار القانونية التي يتكوّن منها كتاب اليهود المقدس، وإن كانوا يحيطون تلك الأسفار غير المعترف بها ــ ويسمونها بــ (الكتب غير القانونية) أو (الأبوكريفا) ــ بكثير من العناية والاهتمام ويجعلونها استمراراً لتاريخهم.

لك أن المصادر اليهودية قد عرض لها من التحريف ما أحالها مصادر قومية من القوميات، لا كتابا مقدسا يتعبد لله بتلاوته، وبسلوك هديه.

ولو كان لدي وقت لأتيت بنسخ العهد القديم وتراجمه وطبعاته لأثبت لك بعض التحريف الذي لحقها[1].. أما كل التحريف، فلا يطيق أحد من الناس الاطلاع عليه.

قلت: عساك تأتيني بشهادات القرآن.. أو علماء المسلمين الذين اشتدوا على مصادرنا.

قال: لا.. بل سأذكر لك شهودا من قومنا.. فلا شهادة أصدق من شهادة الإنسان على نفسه.

وأول هؤلاء الشهود **القديس جيروم**، فقد ذكر في (مقدمة كتاب أسئلة العبرانيين)[2]تهمته لليهود بالتحريف فقال:« إن هدف مقدمة أي كتاب هو تقديم البراهين التي سوف تعرض في الموضوع، ولكني مجبر أن أبدأ بالرد علي ما أثير عني..

إن حالتي إلي حد ما تشبه حالة تيرينس[3] الذي حول مقدمة روايته المسرحية إلى الدفاع عن نفسه، ولدينا لاسياس لنيوفينس[4] الذي أزعجه، واتهم الشاعر، وكأنه سارق للكنوز، وعانى شاعر مانشوا نفس المعاناة، فقد ترجم أبياتا قليلة من قصيدة هومار حرفيا فقيل عنه:« ما هو إلا منتحل من العصور القديمة »، ورد عليهم قائلا:« إنه ليس قوة ضئيلة تلك التي تنتزع الهراوة من يد هيركليوس، وتولى الذي تربع علي قمة البلاغة الرومانية وملك الخطابة ومجد اللغة اللاتينية، فلما اتهم بسرقة الأعمال الأدبية من قبل اليونانيين من أجل ذلك لا أندهش أن يتعرض مسكين صغير مثلي لنخير سفلة الخنازير، الذين يدوسون لؤلؤتنا بأقدامهم، حين يكون هناك رجال نيران الحسد ذوي قدر كبير من العلم، مجد هؤلاء الرجال يتعين أن يخمد الحسد ولكن تلهب الحاقدين، نعم قد حدث هذا لأناس رنين فصاحتهم ملئت المسرح. مجالس الشيوخ، تجمعات العامة ومنابر الخطابة، ان الرجل المقدام دائما ينتقض من قيمته كما قال هوريس[5]:« إن قمم الأعالي تتعرض لضربات البرق »

ولكن أنا في الزاوية، بعيد عن المدينة والتجمعات، بعيد عن الساحات المزدحمة، ومع ذلك وكما قال كوينتليان[6]:« الحسد يبحث عني »

---

(١) انظر التفاصيل الكثيرة المرتبطة بالتحريف الذي لحق العهد القديم في رسالة (الكلمات المقدسة)، وسنكتفي هنا بذكر بعض الشهادات المرتبطة بهذا من بعض رؤساء الكنيسة وأعمدتها.. وهي شهادات مهمة جدا، وهي أقوى في إثبات التحريف ـــ بالنسبة لمن يناظرهم ـــ من كل دليل، ذلك أنهم لا يسلمون إلا لقديسيهم ولرجالهم ولأنفسهم، فهذا من خطابهم بمصادرهم التي يعتمدون عليها، وهو من أساليب البرهنة التي حاولنا الاعتماد عليها في هذه السلسلة، وخصوصا في هذه الرسالة.

(٢) العنوان بالإنجليزي PREFACE TO THE BOOK OF HEBREW QUESTIONS.. وقد ترجمها إلي العربية محمود أباشيخ، موقع صوماليانو.

(٣) كاتب كوميدي روماني.

(٤) كاتب درامي روماني اتهم تيرينس بالسرقة الأدبية.

(٥) شاعر روماني في القرن الأول ق م.

(٦) من خطباء الرومان في القرن الأول ق م.

لذلك ألتمس من القارئ إن كان هناك قارئ، إن كان هناك من تعمق برغبة عارمة في هذه السطور، اطلب منه أن لا يتوقع فصاحة أو حسن الخطابة في فصول أسئلة العبرانيين، والتي أنوي أن أكتب عن كل أسفار الكتاب المقدس، وبدل أن يتوقع القارئ الفصاحة من هذه الكتابات، أرجو منه أن يقوم بالدفاع عني بنفسه أمام منتقدي نيابة عني، وقولوا لهم: آن العمل، الجديد من نوعه يستحق قليل من المغفرة، وأنا حاليا رجل فقير وفي حالة سيئة، لا أملك ثروة، ولا أرى أنه يليق أن أقبلها إن عرضت علي، ودعوني أيضا أقول لهم: إنه يستحيل عليهم أن يحوزو علي غنى المسيح، وغنى المسيح هي معرفة الكتاب المقدس، مع غنى العالم.

سوف أجعل هدفي الأول هنا أن أشير إلي خطأ من يشكون في وجود أخطاء في النسخة العبرية، أما هدفي الثاني، فهو تصحيح تلك الأخطاء، ومن الواضح إن الأخطاء انتقلت إلي النسخة اليونانية واللاتينية بسبب اعتمادها علي المرجع الأصلي الخاطئ، وبالإضافة إلي ذلك، سوف أقوم بتوضيح الأشياء والأسماء والبلدان صرفا، وذلك إن كانت ليست واضحة في اللاتينية، ويكون ذلك بإعادة صياغتها باللغة الدارجة.

ولكي يسهل علي الدارسين معرفة ما قمت به من تصحيحات، أقترح في البدء أن نحدد القراءة الصحيحة، وأنا قادر علي فعل ذلك الآن، ثانيا ثم بعد ذلك نأتي بالقراءات اللاحقة ونقارن بما حددنا في الأول، ثم نشير علي ما أنقص، أضيف أو بدل، وليس هدفي من هذا كما يدعي علي الحساد أن أدين الترجمة السبعينية ولا أقصد بعملي أن أنتقص من مترجمي النسخة السبعينية، ولكن الحقيقة هي أن ترجمتها كانت بأمر من الملك بطليموس في إسكندرية، وبسبب عملهم لحساب الملك، لم يرد المترجمون أن يذكروا كل ما يحتويه الكتاب المقدس من الأسرار خاصة تلك التي تعد لمجيء المسيح، خشية أن يظن الناس أن اليهود يعبدون إلها آخر، لأن الناس كانت تحترم اليهود في توحيدها لله، بل أننا نجد أن التلاميذ وأيضا ربنا ومخلصنا وكذلك الرسول بولس استشهدوا بنصوص من العهد القديم، ونحن لا نجدها في العهد القديم، وسوف أسهب في هذا الموضوع في مكانه المناسب، كما أن يوسفوس المؤرخ اليهودي أخبر أن المترجمون ترجموا فقط أسفار موسى الخمسة، ومن الواضح أن الأسفار الخمسة أكثر الأسفار انسجاما من نسختنا بينما ترجمات أكيلا ، سيمشيس وثيودوشن تختلف اختلافا كبيرا عن النسخة التي نستخدمها »

ومن هذه الشهادات **الرسالة التي أرسل بها أريجانوس إلى يوليوس الأفريقي**، سأقرأ لك الرسالة لتكتشف الشهادة بنفسك.

لقد قال له:« سلام من أوريجانوس إلى أفريكانوس (يوليوس الأفريقي) الحبيب في الله الآب خلال ابنه القدوس يسوع المسيح.

عرفت من خلال رسالتك، رأيك في قصة سوسنه المذكورة في سفر دانيال، ذاك السفر الذي يقرأ في الكنائس رغم أنه واضح وجود نقص في القصة نوعا ما، ومع وجود معضلات كثيرة في كلماتها القليلة إلا أن لا معضلة من المعضلات تستلزم بحثا كاملا ويكفينا رسالة مطولة، وأنا إذا أمعنت النظر في مقدرتي العلمية حسب معرفتي أري أني غير مؤهل لأن أرد عليك بالدقة المطلوبة في هذا الموضوع، بالإضافة إلى ذلك أن الأيام القليلة التي قضيتها في نيكوميديا لم تكن كافية لكتابة رد يستوفي استفساراتك وطلباتك ولا حتى علي هيئة هذه

الرسالة، فلتعذرني في تقصيري وضيق وقتي، ولتقرأ هذه الرسالة بتمعن وسوف أمدك إن كان هناك ما لم أذكره.

لقد بدأت رسالتك بقولك أني في نقاشي مع صديقنا بسوس ذكرت قصة سوسنة من نبوة دانيال ، وقلت أني ذكرت القصة، وكأني لم أنتبه إن هذا الجزء من نبوة دانيال زائفة، وقلت أيضا أنك تمدح في فقرات قصة سوسنة، وترى عباراتها رشيقة غير أنك تجد فيها أخطاء، وأنها قد كتبت حديثا لذلك فهي فقرة مزورة، وأضفت أن المزور لجأ إلى ما لم يلجأ إليه حتى الكاتب المسرحي فلستون في تلاعبه بالألفاظ بين كلمة برينوس prinos وبريسن preisen وسيشيس سيشينوس، تلك الكلمات في نطقهم في اليونانية يمكن إستخدامها بهذه الطريقة ولا يمكن ذالك بالعبرية.

في الرد علي ذلك أقول لك، ما ينبغي أن نفعله مثل كل هذه الحالات، وليس فقط في حالة قصة سوسنة، تلك القصة التي نجدها في كل كنائس المسيح في النسخة اليونانية التي يستخدمها اليونانيون، ولكن لا توجد في النسخة العبرية، ولا تحتوي النسخة العبرية أيضا علي الفقرات التي قلت أنها في آخر الكتاب تلك التي تتحدث عن الصنم بال والتنين، ليست فقط تلك الفقرات بل آلاف الفقرات، ولقد أدركت ذلك عندما كنت بإمكانياتي الصغيرة أجمع النسخة العبرية مع نسختنا.

وفي سفر دانيال نفسه وجدت كلمة (أوثق) تلتها نصوص كثيرة في نسختنا، ولا توجد في النسخة العبرية نهائيا.بدأ من (حسب بعض النسخ المتداولة في الكنيسة):« وصلي حننيا و عزريا و ميشائيلو ورنموا للرب » إلى « باركوا يا جميع القانتين الرب اله الالهة سبحوا و اعترفوا لأن إلى الأبد رحمته وحينئذ سمعهم الملك وهم يرنمون » (من دانيال: ٣/٢٥-٩٠ حسب النسخة الكاثوليكية الحالية)، أو كما في نسخة أخرى:« ومشوا في وسط النار يسبحون الله ويمجدون الرب »، إلى:« باركوا يا جميع القانتين الرب اله الآلهة سبحوا و اعترفوا لأن إلى الأبد رحمته »

أما في النسخة العبرية فعبارة (وهؤلاء الثلاثة الرجال شدرخ و ميشخ و عبد نغو سقطوا موثقين في وسط أتون النار المتقدة) تليها مباشرة (حينئذ تحيّر نبوخذناصّر الملك وقام مسرعا، فأجاب، وقال لمشيريه: ألم نلق ثلاثة رجال موثقين في وسط النار. فأجابوا وقالوا للملك صحيح أيها الملك. أجاب وقال ها أنا ناظر أربعة رجال محلولين يتمشون في وسط النار وما بهم ضرر ومنظر الرابع شبيه بابن الآلهة »

أكيلا وهو يتبع القراءة العبرية قد ذكرها، وهو ممن يشهد له اليهود أنه ترجم الكتاب المقدس بعناية غير عادية، وتعتبر ترجمته من أفضل الترجمات لي يستخدمها من لا يجيد العبرية، من ضمن النسخ التي ذكرتها، نسختين تحت حوزتي إحداهما تتبع النهج السبعيني والأخري نهج ثيودوشن، والنسختان تذكران قصة سوسنة التي وصفتها بأنها قصة مفبركة، وكذلك النصوص التي جاءت في آخر دانيال مذكورة، ومجموعها حسب تقديري أكثر من مائتي آية.

وفي أماكن أخرى كثيرة في الكتاب المقدس وجدت إضافية توجد في نسختنا، ولا توجد في النسخة العبرية، وأحيانا وجدت نسختنا تنقصها نصوصا نجدها في العبرية، وسوف أقدم عدة أمثلة حيث يصعب أن

أذكر كل النصوص:

أدعية أستير ومردخاي في سفر أستير التي من شأنها أن تهذب القاري لم تذكر في النسخة العبرية، وكذلك النصوص التي تتحدث عن رسائل أستير إلى مردخاي، ولا تلك الموجهة لهامان عن إبادة اليهود، ولا عن رسالة مردوخ باسم أحشوبيرش لإنقاذ الشعب اليهودي.

و في سفر أيوب، العبارات (مكتوب أنه سوف يقوم مرة أخري مع الذين يقيمهم الرب) إلى النهاية، هذه العبارات ليست في النسخة العبرية، ولا في نسخة أكيله اليونانية بينما توجد في (الترجمة) السبعينية ونسخة ثيودستن، ويتوافقان معا علي الأقل في المعني.

وقد وجدت في أماكن كثيرة في سفر أيوب نصوصا إضافية في نسختنا، هذه الإضافات أحيانا صغيرة وأحيانا كثيرة كثرة هائلة، من الإضافات الطفيفة علي سبيل المثال، نجدها بعد عبارة « وبكّر في الغد واصعد محرقات على عددهم » (أيوب: ١/٥) يضاف بعدها:« عجل صغير لخطايا أرواحهم » إلى « جاء ملائكة الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضا في وسطهم »(أيوب: ٦/١) « من الجولان في الأرض ومن التمشي فيها »، ثم بعد عبارة « الرب أعطي لرب أخذ » النسخة العبرية ليس فيها « وكان كذلك إذ قد بدا جيدا للرب »، كما أن محتويات نسختنا أكثر بكثير من النسخة العبرية عند حديث زوجة أيوب له، بدأ من قول « إلى متى تصبر فقال لها: أنتظر قليلا، انتظر أمل خلاصي » إلى « حتى تنتهي آلامي وأحزاني التي تتوقني » أما النسخة العبرية فلا تحتوي سوي عبارة « ألعن الرب ومت » (أيوب: ٩/٢)

ومن الناحية الأخرى، نجد نصوص كثيرة خلال سفر أيوب تفتقدها نسختنا، عامة أربع أو خمس آيات (أعداد)، ولكن أحيانا النقص يتراوح ما بين أربعة عشر إلى تسعة عشر آية في (مختلف نسخنا)

ولكن لماذا أسرد كل الأمثلة التي جمعتها بمشقة، كي أثبت لك أن الفوارق بين النسخ العبرية ونسخنا لم أغفل عنه؟ في إرميا لاحظت أمثلة عديدة، بل إني وجدت في ارميا تغيرات كثيرة في مواقع النصوص واختلافات في قرأه كثير من النبوات، وفي سفر التكوين في نص خلق السماء، عبارة « ورأى الله أن ذلك حسن »، ولا يوجد جدال صغير بينهم في ذلك.

وفي مثال آخر نجده في سفر التكوين، وقد علمت عليها لأجل التمييز بالعلامة التي يسميها اليونانيون المسلة كما أني أشرت بعلامة نجمية علي النصوص التي تحتويها نسخنا ولا تحتويها النسخة العبرية.

وماذا أقول عن سفر الخروج حيث تجد التضارب في النصوص التي تتحدث عن خيمة الاجتماع ومحكمتها وكذلك ملابس الكهنة ورئيس الكهنة، هذه النصوص أحيانا لا يوجد تشابه بينهما حتى في مضمون معانيها.

وعندما نلاحظ مثل هذه الأشياء علينا أن نرفض فورا النسخ المستخدمة في كنائسنا باعتبارها محرفة، ونفرض علي الإخوة أن يتركوا تلك النسخ، ويتلطفوا إلى اليهود كي يعطونا نسخا لم يتلاعب بها وليس فيها تزوير، أم نحسب أن العناية الإلهية في الكتاب المقدس وخدمتها في توعية الكنيسة لم تفكر في هؤلاء الذين دفع لهم الثمن، ومات المسيح من أجلهم إذ لم يستثني الله شيئا في حبه حتى ابنه تخلي عنه وبذله من أجلنا، وبه

يعطينا كل شيء.

« لا تنقل التخم القديم الذي وضعه آباؤك »

في كل هذه الحالات تمعن ما إن كان ليس حسنا أن يذكر قول:« لا تنقل التخوم القديمة التي وضعها آباؤك » ولا أقول ذلك لأتجنب التحقيق في كتاب اليهود ومقارنتها بنسخنا وملاحظة الفوارق، فقد فعلت ذلك إلى حد بعيد قدر إمكاني، ولا تعتبر قولي نوعا من الغطرسة، فقد بذلت جهدا كبيرا للوصول إلى معاني كل الطبعات وكذلك القراءات المختلفة، وقد ركزت في عملي علي النسخة السبعينية خشية أن يقال أني أنسب التزوير إلى كل الكنائس، وبذلك أمنح فرصة لمن يبحثون عن أي نقطة ينطلقوا منها للافتراء علي الإخوة، ولدى هؤلاء رغبة عارمة في توجيه الاتهامات إلى النخبة من جماعتنا، وأنا أسعي إلى معرفة الفوارق بين النسخ وعدم الجهل بها كي أتمكن في جدالي مع اليهود أن أستحضر الشواهد من النصوص غير المذكورة في نسخهم، وأيضا كي أستشهد بالنصوص التي في نسخهم حتى وإن كانت ليست في نسخنا، فإننا إن تهيأنا لهم في نقاشنا معهم لن يستطيعوا أن يسخروا منا نحن الأميين، فمن أخلاقهم السيئة أن يحتقروننا قائلين إن الأمميين ليس لديهم النسخة الصحيحة التي في حوزتهم.

أما عن عدم ذكر النسخة العبرية لقصة سوسنة.. دعنا الآن ننظر إلى الأشياء التي تجد فيها أخطاء في قصة سوسنة، ولنبدأ بما هو محتمل إن يسبب عدم تقبل قصة سوسنة، أقصد التلاعب بين كلمتي برينوس وبريسي وكذلك شينوس وشيسيس، تقول أن هذا ممكن في اليونانية ولكن لا يمكن في اللغة العبرية لأنه لا يوجد تقارب في الكلمتين في العبرية. ولكني أشك في صحة قولك، لأني عندما بحثت في هذه النقطة (فقد كنت أرى نفس المشكلة من قبل) لقد استشرت عددا من اليهود عن الموضوع، سألتهم عن المرادف العبري لكلمتي برينوس وبرئسين وماذا يسمون شجرة سشينوس زسيشيس، و لم يعرفوا كلمتي برينوس وسشينوس اليونانيتين وطلبوا مني أن أريهم الأشجار كي يخبروني ماذا يسمونها بالعبرية، وللتو فعلت ذلك (من أجل الحقيقة أيها العزيز) ووضعت أمامهم الأشجار، فقال أحدهم أنه لا يستطيع أن يسمي أي شيء بثقة ما لم يذكر في التوراة، وإن تعذر الحصول علي مرادف الكلمة يمكن للواحد أن يستخدم مرادفها السرياني، وأضاف قائلا:« إن بعض الكلمات لا يستطيع أحد ترجمتها حتى »، ثم قال:« إنه من الممكن للواحد أن يعرف معني تلك الكلمات إذا عرفت أين وردت في الكتاب، ولكن إن لم تذكر نهائيا فلا سبيل إلى معرفتها »

هذا هو ما أخبرني اليهودي الذي ناقشته، وهو شخص علي دراية بالتاريخ، ولذلك لا أستطيع أن أتسرع في تأكيد وجود ما يماثل تلك الكلمات في العبرية، أما تأكيدك في عدم وجودها فأنت تعلم ما بنيت عليه نظرتك.

علاوة علي ذلك، أذكر أني سمعت من يهودي دارس وهو ابن لحكيم يهودي يقال إن والده مرنه وأعده ليخلفه من بعده ، لقد حاورته في أمور عدة و لم يرفض قصة سوسنة وأسماء الشيخان كما وردت في ارميا « يجعلك الرب مثل صدقيا ومثل اخآب اللذين شواهما ملك بابل بالنار من أجل إثمهما في إسرائيل »(ارميا: ٢٩/٢٢-٢٣) كيف إذن يقطع أحدهما بالمنشار من قبل الملائكة ويمزق الآخر إربا إربا ، والإجابة علي ذلك

هي أن هذه نبوات تخص يوم الدينونة بعد الرحيل من هذا العالم، مثل (نبوة) ذاك العبد الآثم وسيده وقول العبد:« سيدي يبطئ قدومه » ثم يستسلم للشرب والأكل مع السكارى ويضرب رفاقه العبيد، وعند مجيء سيده « يقطعه إربا ويجعل نصيبه مع غير المؤمنين »

كذلك الملاك الموكل بالعذاب سوف يتمم هذه الأمور علي الرجلين الذين جعلا شيخين ولكنهما استغلا مناصبهما في أعمال شريرة، أحدهما سوف يقطع بالمنشار لظلمه في القضاء بإدانة البريء وتبرئة الجاني، والآخر سوف يمزق إربا، وهو ليس من نسل يهوذا بل من نسل كنعان وقد فتنه الجمال و أضلت الشهوة قلبه.

وأعرف يهوديا آخر ذكر الشيخين وقال اهما تظاهرا ليهود المنفي الآملين بمجي المسيح ليحررهم من العبودية.. تظاهر الشيخان بمعرفة كل ما يتعلق بالمسيح وأهما بذلك خدعا زوجات مواطنيهما من أجل ذلك يقول دانيال لأحدهما:« أيها المتعتق الأيام الشريرة » وقال للآخر:« هكذا كنتما تصنعان مع بنات إسرائيل لكن بنات يهوذا لم تحتمل فجوركما »

غير أنك سوف تقول: إذا كان اليهود تناقلوا هذه القصة، فلماذا إذن ليست مذكورة في النسخة العبرية لدانيال، والإجابة هي أن اليهود يخفون عن الناس قدر الإمكان النصوص الني تحتوي علي فضائح الشيوخ الحكام والقضاء.. بعض هذه القصص وردت في الأسفار الأبوكريفا كقصة عيسو التي شهد لها رسالة العبرانيين غير أننا لا نجدها في أي من أسفار اليهود.. لقد قال كاتب رسالة العبرانيين وهو يتحدث عن الأنبياء وما عانوه، يقول:« رجموا نشروا جربوا ماتوا قتلا بالسيف » (١١/٣٧)

وأنا أسأل، إلى من تشير كلمة (نشروا) التي تعني (قطعوا بالمنشار)

نحن نعلم جيدا أن التقليد يخبرنا أن عيسو النبي قطع بالمنشار، وهذا مذكور أيضا في بعض كتب الأبوكريفا التي من المحتمل أن اليهود حرفوها بإضافة نصوص واضحة في كونها غير صحيحة، وذلك كي تثار الشكوك حول مصداقية السفر كليا.

ولكن ربما أحد ما أمام هذه الحجة القوية يستعين بالرأي القائل إن رسالة العبرانيين لم يكتبها بولس، وهذا الرأي سوف أفنده في وقت أحر وأثبت أن بولس هو كاتبها.. أما الآن فسوف أقدم من الإنجيل شهادة يسوع المسيح عن الأنبياء مع قصة أشار إليها لكنها لم تذكر في العهد القديم لأنها أيضا تخص فضائح القضاء الظلمة في إسرائيل.

كلمات مخلصنا هي « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تبنون قبور الانبياء وتزيّنون مدافن الصديقين ، وتقولون لو كنا في ايام آبائنا لما شاركناهم في دم الأنبياء ، فانتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء فاملأوا انتم مكيال آبائكم. أيها الحيّات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم. لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون في مجامعكم وتطردون من مدينة إلى مدينة. لكي يأتي عليكم كل دم زكي سفك على الأرض من دم هابيل الصدّيق إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح: الحق أقول لكم إن هذا كله يأتي على هذا الجيل يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها كم مرة أردت أن اجمع أولادك كما تجمع الدجاجة أفراخها تحت جناحيها

و لم تريدوا. هوذا بيتكم يترك لكم خرابا »

فلننظر الآن، ألسنا في هذا الحالة ملزمين أن نصل إلى استنتاج وهو إن المخلص يعطينا قصة حقيقية عن اليهود بينما لا نجد أي نص من الكتاب المقدس يؤكد قول يسوع ، فإن الذين يبنون قبور الأنبياء ويزينون مدافن الصديقين ويدينون جرائم آبائهم يقولون لو كنا في أيام آبائنا لما شاركناهم في دم الأنبياء (متي ٢٣/٢٩-٣٩)

فهل من أحد يخبرني: دم أي نبي من الأنبياء وأين ذكر هذا عن عيسو أو ارميا أو أي من الأنبياء الإثني عشر أو دانيال، وحتى زكريا بن برخيا الذي قتل بين الهيكل والمذبح لم نعرف عنه إلا من يسوع، ولولا يسوع لما عرفنا القصة، فالكتاب المقدس لم تذكر القصة أبدا.

من أجل ذلك، أعتقد أنه لا يوجد افتراض آخر سوى أن الحكماء والقضاة وأيضا الشيوخ أخفوا عن الناس النصوص التي تسيء إليهم.. لذلك يجب أن لا نرى غرابة في كون قصة الشيخان الفاجران وشرهما ضد سوسنة قصة حقيقية لكنها أخفيت ومسحت من الكتاب المقدس علي يد شيوخ اليهود.

وفي أعمال الرسل يقول استفانوس:« أي الأنبياء لم يضطهده آباؤكم وقد قتلوا الذين ظهروا قبل مجي صاحب العدل الذي غدرتم به وقتلتموه »(أعمال الرسل ٧/٥٢)

إن كل من يؤمن بقانونية سفر أعمال الرسل يقر بصدق كلام استفانوس، ولكن من المستحيل أن نثبت تهم اضطهاد وقتل الأنبياء من العهد القديم لمن لا يؤمن بيسوع.

ويقول بولس في رسالته الأولى إلى تسالونكي:« فإنكم أيها الإخوة صرتم متمثلين بكنائس الله التي هي في اليهودية في المسيح يسوع لأنكم تألمتم أنتم أيضا من أهل عشيرتكم تلك الآلام عينها كما هم أيضا من اليهود الذين قتلوا الرب يسوع وأنبياءهم واضطهدونا نحن وهم غير مرضين لله وأضداد لجميع الناس »(تسالونكي ٢/١٤-١٥)

أعتقد أن ما قلته كاف لأن يبرهن علي صحة قصة سوسنة، وأن الهجوم القاسي علي سوسنة من قبل الشيخان حقيقة قد كتبت بواسطة روح الحكمة ولكن أزالها قضاة سدوم [1] كما يسميهم الروح »

لما انتهى من قراءة هذه الشهادة الخطيرة التي يحاول رجال الدين في الكنيسة جهدهم أن يخفوها عن العامة وأهل العلم.. قال لي: ها هو شاهد من أهلها أثبت وقوع التحريف..

لا شك أن هذين الشاهدين ليسا مسلمين.. ولا من العوام البسطاء.. ولا من أهل الهرطقة.. بل كلاهما مسيحيان.. ومسيحيان مخلصان لا نشك في إخلاصهما.

قلت: نعم.. إن ما ذكرته شهادات خطيرة.. ولكنا لا نعتمد إلا على نسخنا المخطوطة القديمة.. وهي في نظرنا أقوى من كل شهادة.

ابتسم، وقال: ومن أخبرك بأن نسخنا لم تحرف، وأنها بنفس حالتها الأصلية.

---

(١) عبارة تشبيهية قصد بها كهنة اليهود وحكامهم.

قلت: لأن كلام الله المقدس يستحيل أن يتجرأ أحد.. أو يستحيل أن يقدر أحد على تحريفه.. إن كلام الله لا يمكن أن يحرفه إنسان أو حتى شيطان.

لقد جاء في (إنجيل مرقس: ١٣: ٣١):« السماء و الأرض تزولان، ولكن كلامي لا يزول »

قال: إن هذا الكلام الذي تعود أحبارنا على ترديده لم يرد به هذا.. ولا علاقة له بهذا.. إن المسيح ــ في النص الذي ورد فيه هذا ــ يتحدث عن الأيام الأخيرة، مخبرا عما سيحدث فيها ومبلغا بما يجب أن يفعله الناس يومها.

وسأورد لك النص كاملا من (إنجيل مرقس ١٣: ١ – ٣٢) لتفهم حقيقة المراد منه « وبَينَما هو خارِجٌ مِنَ الهَيكَلِ قالَ له أحدُ تَلاميذِه: (يا مُعَلِّمُ انظُرْ! يا لَها مِن حِجارَة ويا لَها مِن أَبنِيَة) فقالَ لَه: يسوع: (أَتَرى هذهِ الأَبنيَةَ العَظيمة؟ لَن يُترَكَ هُنا حَجَرٌ على حَجَر مِن غَيرِ أَن يُنقَض)

وبَينَما هو جالِسٌ في جَبَلِ الزَّيتونِ قُبالَةَ الهَيكَلِ، اِنفَرَدَ به بُطرُسُ ويَعقوبُ ويوحَنَّا وأَندَراوس وسأَلوه: (قُلْ لَنا متى تكونُ هذه الأُمور، وما تَكونُ العَلامَةُ أَنَّ هذه كُلَّها تُوشِكُ أَن تَنتَهي)، فأَخَذَ يسوعُ يَقولُ لَهم: (إِيَّاكُم أَن يُضِلَّكم أَحَد. فسَوفَ يَأتي كثيرٌ مِنَ النَّاسِ مُنتَحِلِينَ اسمي فيَقولون: أَنا هو! ويُضِلُّونَ أُناساً كثيرين. فإِذا سَمِعتُم بالحُروب وبإِشاعاتٍ عَنِ الحُروب فَلا تَفزَعوا، فإِنَّه لابُدَّ من حُدوثِها، ولكِن لا تكونُ النِّهايةُ عِندَئِذٍ. فستَقومُ أُمَّةٌ على أُمَّةٍ ومَملَكَةٌ على مَملَكة، وتَحدُثُ زَلازِلُ في أَماكِنَ كَثيرة، وتَحدُثُ مَجاعات، وهذا بَدْءُ المَخاض. فخُذوا حِذْرَكم. ستُسلَمونَ إِلى المَجالِسِ والمَجامِع، وتُجلَدون، وتَمثُلونَ أَمامَ الحُكَّامِ والمُلوكِ مِن أَجْلي شَهادةً لدَيْهِم. ويَجبُ قَبلَ ذلك أَن تُعلَنَ البشارَةُ إِلى جَميعِ الأُمَم. فَإِذا ساقوكُم لِيُسلِموكم، فلا تَهتَمُّوا مِن قَبلُ بماذا تَتَكَلَّمون، بل تَكَلَّموا بما يُلقى إِلَيكُم في تلك السَّاعة، لأَنَّكم لَستُم أَنتُمُ المُتَكَلِّمين، بلِ الرُّوحُ القُدُس. سَيُسلِمُ الأَخُ أَخاهُ إِلى المَوت، والأَبُ ابنَه، ويَثورُ الأَبناءُ عَلى والِدِيهِم ويُميتونَهم، ويُبغِضُكم جَميعُ النَّاسِ مِن أَجلِ اسمي. والَّذي يَثبُتُ إِلى النِّهاية، فَذاكَ الَّذي يَخلُص.

وإِذا رَأَيتُمُ المُخَرِّبَ الشَّنيعَ قائماً حيثُ لا يَنبَغي أَن يَكون، فمَن كانَ يَومَئِذٍ في اليَهودِيَّة فَلْيَهرُبْ إِلى الجِبال.ومَن كانَ على السَّطْح، فلا يَنزِلْ ولا يَدْخُلْ بَيتَه لِيأخُذَ مِنْه شَيئاً. ومَن كانَ في الحَقل، فَلا يَرتَدَّ إِلى الوراءِ لِيأخُذَ رِداءُه. الوَيلُ لِلحَوامِلِ والمُرضِعاتِ في تِلكَ الأَيَّام. صَلُّوا لِئَلاَّ يَحدُثَ ذلِكَ في الشِّتاء. فستَكونُ تِلكَ الأَيَّامُ أَيَّامَ شِدَّةٍ لم يَحدُثْ مِثلُها مُنذُ بَدءِ الخَليقَةِ الَّتي خَلَقَها اللهُ إِلى اليَوم ولَن يحدُث. ولَو لم يُقَصِّرِ الرَّبُّ تِلكَ الأَيَّام، لَما نَجا أَحَدٌ مِنَ البَشَر. ولكِن مِن أَجلِ المُختارينَ الَّذينَ اختارَهم قَصَّرَ تِلك الأَيَّام. وعِندَئذٍ إِذا قالَ لَكم أَحَدٌ مِنَ النَّاس: (ها هُوَذا المَسيحُ هُنا، ها هُوَذا هُناك) فلا تُصَدِّقوه. فسَيَظهَرُ مُسَحاءُ دَجَّالونَ وأَنبياءُ كَذَّابونَ يَأتونَ بآياتٍ وأَعاجيب، لِيُضِلُّوا المُختارينَ لو أَمكَنَ الأَمر. أَمَّا أَنتُم فَاحذَروا، فقد أَنبَأتُكم بكُلِّ شَيء.

وفي تلكَ الأَيَّامِ بَعدَ هذهِ الشِّدَّة، تُظلِمُ الشَّمسُ والقَمَرُ لا يُرسِلُ ضَوءَه، وتَتَساقَطُ النُّجومُ مِنَ السَّماء، وتَتَزَعزَعُ القُوَّاتُ في السَّموات. وحينَئذٍ يَرى النَّاسُ ابنَ الإِنسانِ آتِياً في الغَمام في تَمامِ العِزَّةِ والجَلال. وحينَئذٍ يُرسِلُ مَلائكَتَه ويَجمَعُ الَّذينَ اختارَهم مِن جهاتِ الرِّياحِ الأَربَع، مِن أَقْصى الأَرضِ إِلى أَقْصى السَّماء.

مِنَ التِّينَةِ خُذوا العِبرَة: فإِذا لانَت أَغْصانُها ونَبَتَت أَوراقُها، عَلِمتُم أَنَّ الصَّيفَ قَريب. وكذلكَ أَنتُم إِذا

رأيتُم هذهِ الأُمورَ تَحدُث، فَاعلَموا أَنَّ ابنَ الإنسانِ قَريبٌ على الأَبواب. الحَقَّ أَقولُ لَكم: لن يَزولَ هذا الجيل حتَّى تَحدُثَ هذه الأُمورُ كُلُّها. السَّماءُ والأَرضُ تزولانِ وكَلامي لن يزول. وأَمَّا ذلكَ اليومُ أَو تِلكَ السَّاعة فما مِن أَحَدٍ يَعلَمُها: لا المَلائكَةُ في السَّماء، ولا الِابنُ، إِلاَّ الآب »

التفت إلي، وقال: أرأيت.. إن النص واضح في المراد منه.. ولكن قومنا يتعسفون تأويله.. وهم في نفس الوقت يناقضون أنفسهم حين يقرأون في الكتاب المقدس النصوص الكثيرة المثبتة للتحريف كما قال أرميا:« كيف تقولون نحن حكماء وشريعة الرب معنا حقا إنه إلى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب » (أرميا:٨: ٨)

قلت: وما تقول في النسخ الأصلية التي هي عمدتنا في إثبات صمود كتابنا في وجه الأيام؟

ابتسم، وقال: أي نسخ أصلية هذه التي تتحدث عنها.. هذا كلام يصلح لك أن تخاطب به عامة لا باحثين.. أنت تعلم أنه لا يوجد ولا نص واحد له مخطوطة أصلية علي الإطلاق، وأن كل النصوص الأصلية فقدت بأكملها، وحتي لا تظن أني أتحدث بلا بينة سأذكر لك شهادة رجل حاول أن يثبت (عصمة الكتاب المقدس)، بل سمى كتابه بهذا الاسم، وهو الكاتب السير فردريك كينيون، وهو كتيب كما هو واضح من اسمه يدافع عن الكتاب المقدس، ويحاول إثبات عصمته من التحريف.

لقد قال هذا المحامي البارع تحت عنوان (ضياع النسخ الأصلية):« قد يندهش البعض إذا عرفوا أن هذه المخطوطات جميعها لا تشتمل على النسخ الأصلية والمكتوبة بخط كتبة الوحي أو بخط من تولوا كتابتها عنهم، فهذه النسخ الأصلية جميعها فقدت ولا يعرف أحد مصيرها »

إذن النسخ الأصلية فقدت كلها ولا يعرف أحد مصيرها. ثم يتابع محاولا استجداء عطف القارئ وتضليله قائلا:« على أن الدارس الفاهم لا يستغرب لهذا قط، لأنه لا توجد الآن أيضاً أية مخطوطات يرجع تاريخهـــا لهذا الماضي البعيد. ومن المسلم به أن الكتاب المقدس هو من أقدم الكتب المكتوبة في العالم، فقد كتبت أسفاره الأولى قبل نحو ٣٥٠٠ سنة »

أي أنه ــ وببساطة ــ يقارن بين كلام الله وكتبه وبين كتب قدامي البشر مثل الأوديسا والألياذة وملحمة جلجامش مثلا، وهو قياس فاسد، فلو كان لهذه الكتب قيمة لما سمح الله بفقدانها.

أما بخصوص قوله إنه لا توجد مخطوطات ترجع إلي هذا الماضي البعيد، فهو استهانة بعقل القارئ أو استغلالا لجهله، حيث أن هناك العديد من المخطوطات بنفس قدم أو تسبق ظهور مخطوطات الكتاب بالمقدس لازالت بين أيدينا إلي اليوم مثل كتاب الموتي مثلا الذي كان يقدسه الفراعنه أو ملحمة جلجامش، ومن الكتب التي لازالت موجودة أيضا سابقة للتوارة هو كتاب مصري منذ عهد الفراعنة يسمي (قرطاس أحمس) أو (بردية رايند) كتب منذ أكثر من خمسة وثلاثين قرنا، وهو موجود في المتحف البريطاني وهو منسوخ من كتاب سابق له كتب في عهد أمنمحات الأول سنة ٢٢٠٠ ق.م أي منذ أكثر من ٤٢٠٠ سنة تقريبا.

وإذا سألنا حضرة الكاتب الفاضل عن سر ضياع النسخ الأصلية كلها، أجاب ببساطة:« ونحن نعتقد أن السر من وراء سماح الله بفقد جميع النسخ الأصلية للوحـــي هو أن القلب البشري يميل بطبعه إلي تقديس وعبادة المخلفات المقدســـة؛ فماذا كان سيفعل أولئك الذين يقدسون مخلفات القديسين لو أن هذه النسخ

كانت موجودة اليوم بين أيدينا؟ أية عبادة لا تليق إلا بالله كانت ستقدَّم لتلك المخطوطات التي كتبها أواني الوحي بأنفسهم؟ ألا نتذكر ماذا فعل بنو إسرائيل قديمـــاً بالحية النحاسية التي كانت واسطة إنقاذهم من الموت، وكيف عبدوهـــا؟ »

نظر إلي، وقال: أرأيت كيف يتلاعب قومنا بعقولنا.. لقد شهد هذا المسكين على هذا الكتاب الذي حاول أن يثبت عصمته من غير أن يشعر[1].

---

(١) انظر الأمثلة الكثيرة المثبتة للتحريف في رسالة (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

وقد ذكر المسيري في (الموسوعة اليهودية) أن نقد العهد القديم بدأ على يد المؤلف اليهودي القرّائي (حيوي البلخي) الذي عاش في القرن التاسع. وقد ظهرت محاولات متفرقة هنا وهناك، أهمها دراسة إسحق أبرابانيل (١٤٤٧ ـــ ١٥٠٨) الذي قدَّم أول دراسة علمية لنصوص العهد القديم. كما أن ابن حزم الأندلسي وبعض الدارسين المسلمين القدامى لاحظوا أن ما ينسبه العهد القديم إلى الأنبياء من جرائم، يُعدُّ دخيلاً على النص الأصلي. ولكن العلم نفسه، بالمعنى الحديث، بدأ مع الفيلسوف اليهودي إسبينوزا الذي قال بأن أسفار موسى ليست من تأليف موسى، وأن عزرا مؤلفها الحقيقي. وبعد ذلك، تتالى العلماء الغربيون في دراسة العهد القديم من وجهة نظر نقدية. وكان أول الكتب لجان إستروك الأستاذ في جامعة باريس عام ١٧٥٣، وتبعه كتاب ج. آيتشورن عام ١٧٧٩، وهناك آخرون بينوا مصادر العهد القديم المختلفة، ولم يبق سوى تبيان تتاليها التاريخي، وهو ما أنجزه فون جراف عام ١٨٦٦، وفلهاوزن (١٨٧٦ـــ ١٨٧٨)، وكوغيل. ويُلاحَظ أن هـــؤلاء الثلاثة من أشـــهر علماء الإسلاميات في الغرب، ولابد أن النقد القرآني للتحريفات التي وردت في التوراة، كان دافعاً لدراستهم النقدية. وقد انضم إليهم آخرون، من بينهم جايجر (أحد مؤسسي اليهودية الإصلاحية) وجرايتس وكاوفمان وكوهلر. وظهر علم اليهودية الذي يحاول اكتشاف الأسس التاريخية للنصوص المقدَّسة .

وقد استخدم نقاد العهد القديم في دراساتهم المعايير التالية :

١ ـــ التناقض في الأجزاء التشريعية: وكما هو واضح في الحكمة من فرض شريعة السبت، فقد ورد مرة أنه فُرض "لأن الرب استراح في اليوم السابع بعد أن خلق السماوات والأرض" (خروج ٢٠/١١). أما في سفر التثنية، فلا يوجد ذكر للخلق، وإنما الإشارة إلى الخروج من مصر (تثنية ٥/١٢ ـــ ١٥ .(

٢ ـــ التناقض في القصص: فقد ورد في سفر التثنية (٢/٤) أن العبرانيين مرُّوا بأرض الأدوميين (بني عيسو) في طريقهم إلى كنعان. أما في سفر العدد (٢٠/٢١)، فقد ورد شيء مخالف تماماً .

٣ ـــ التناقض بين ما جاء في الشرائع وما ورد في القصص: فسفر التثنية (١٢/٥، ٦) يصر على ضرورة تقديم القرابين في مذبح مركزي، ومع هذا قدَّم إلياهو قرابين على جبل الكرمل (ملوك أول ١٨/١٩ – ٣٧). وتؤكد أسفار موسى الخمسة أهمية تقديم القرابين خلال سنوات التيه، بينما يؤكـــد النبي عامـــوس أن مثل هـــذه القرابين لم تُقدَّم (عاموس ٥/٢٥). وينكر إرميا أن الإله أمر بمثل هذه القرابين (إرميا ٧/٢٢ .(

٤ ـــ تباين الأسلوب الأدبي: وقد توصَّل الباحثون، بعد دراسة الاختلافات الواضحة في مفردات النصوص وأفكارها، إلى أن هذه النصوص تعود إلى فترات زمنية مختلفة. فسفر الخروج يعلن أن الآباء يعرفون الإله باسم «شدَّاي»، وهو ما يساعد على تحديد هذه النصوص وتحديد تاريخها، وأنها تعود إلى المصدر نفسه. كما أن اختلاف الخلفيات التاريخية في سفر أشعياء والمزامير يُسهِّل عملية معرفة المؤلف وتاريخ التأليف.

٢ ـــ الثمار:

قلت: لا بأس.. سلمت لك بهذا.. فلننتقل إلى الركن الثاني من أركان الصمود، والذي سميته (صمود الثمار)

قال: أنت تعلم أن الثمار التي يتناولها الإنسان من أي دين، تتعلق بثلاثة جوانب:

الجانب العقدي.. وهو الذي يتأسس عليه الدين.. أو هو غذاء العقل من الدين.

والجانب الشعائري.. وهو الذي يمارسه المتدين ليثبت وجهته الدينية.

والجانب السلوكي.. وهو الثمرة التي ترتبط بتأثير الدين في النفس والمجتمع.

قلت: ما تقوله صحيح.. والدين ينحصر فيما ذكرت.. فهلم اذكر ثمرات اليهودية.. لنقارن بينها، وبين ثمرات الإسلام.

قال: سنقارن هذا على ضوء الواقع، لا على ضوء المصادر وحدها.

العقيدة:

قلت: هذا صحيح.. ولكن لا غنى لنا عن الرجوع للمصادر لإثبات مدى الانحراف الواقع.

قال: أجل.. إن هذا مقياس صحيح.. وسنعتمد عليه في المقارنة.

أنت تعلم أن الكثير من النصوص في الكتاب المقدس تحمل بذورا للحقيقة التي جاء الأنبياء للدعوة إليها.. وهي الإله الواحد المتره..

لقد ذكر القرآن هذا.. وذكر كيف تحول اليهود من دين الله الخالص إلى دين لا يختلف كثيرا عن أي دين وثني..

ففي القرآن نجد الآيات التي تتحدث عن وصية الله لبني إسرائيل بعبادة الله الواحد.. وتذكر في نفس الوقت كيف انحنوا أمام كل عواصف القوميات والوثنيات:

ففي سورة البقرة نجد هذه الآيات التي تتحدث عن أصل اليهودية.. ومدى الانحراف والتولي الذي وقع فيها.. يقول القرآن:﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ

---

٥ ـــ استخدام ترجمات العهد القديم المختلفة: يجد النقاد أن الترجمات القديمة للعهد القديم تظهر فيها نصوص أو مقطوعات ليست في النص العبري، كما وجدوا أيضاً ما هو مخالف. فالترجمة السبعينية لسفر أيوب (٢/٣٨) تضم فقرة لا توجد في النص العبري تُغيِّر تفسير السفر تماماً .

٦ ـــ الاكتشافات الأثرية: يدرس ناقدو العهد القديم الآثار والمدونات الآشورية والبابلية والمصرية ليحصلوا على المعلومات التي تلقي ضوءاً جديداً على التاريخ. وتتفق هذه المدونات مع الرواية التوراتية أحياناً، وأحياناً تتناقض معها. وقد ألقت عقائد أمم الشرق الأدنى القديم الكثير من الضـــوء على عقائد العبرانيين القــــــدامى، وعلى تطـــوُّر العقيدة اليهودية.

(انظر: الموسوعة اليهودية، للمسيري)

هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)﴾(البقرة)

وقد بدأ هذا الانحناء في عهد موسى نفسه..:﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)﴾(البقرة)

بل إن انحرافهم عن دينهم بدأ قبل أن تجف أرجلهم من تجاوزهم البحر..:﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠)﴾(الأعراف)

وقد حكى القرآن عن تصوراتهم الهزيلة التي انحرفت بهم عن التصور المقدس لله.. ففيه:﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)﴾(المائدة).. ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠)﴾(التوبة).. ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣)﴾(آل عمران)

هذا ما يقوله القرآن.. وهو لا يختلف كثيرا عما يؤكده الكتاب المقدس..

لقد تضمن الكتاب المقدس صورة عن الله لا تختلف كثيراً على الأوصاف التي وصف بها الإغريق آلهتهم[1]:

فهم يصفونه ككائن يتصف بصفات البشر، فهو يأكل ويشرب ويتعب ويستريح ويضحك ويبكي، غضوب متعطش للدماء، يحب ويبغض، متقلب الأطوار، يُلحق العذاب بكل من ارتكب ذنباً سواء ارتكبه عن قصد أو ارتكبه عن غير قصد، ويأخذ الأبناء والأحفاد بذنوب الآباء، بل يحس بالندم ووخز الضمير (خروج ٣٢/١٠ ـــ ١٤)، وينسى ويتذكر (خروج ٢/٢٣ ـــ ٢٤)، وهو ليس عالماً بكل شيء، ولذا فهو يطلب من أعضاء جماعة إسرائيل أن يرشدوه بأن يصبغوا أبواب بيوتهم بالدم حتى لا يهلكهم مع أعدائهم من المصريين عن طريق الخطأ (خروج ١٢/١٣ ـــ ١٤).

وهو إله متجرِّد، ولكنه في الوقت نفسه يأخذ أشكالاً حسية محددة، فهو يطلب إلى اليهود (جماعة

(١) انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري.

يسرائيل) أن يصنعوا له مكاناً مقدَّساً ليسكن في وسطهم (خروج ٢٥/٨)، كما يسير أمام جماعة يسرائيل على شكل عمود دخان في النهار كي يهديهم الطريق، أما في الليل فكان يتحول إلى عمود نار كي يضيء لهم (خروج ١٣/٢١/٢٢).

وهو إله الحروب (خروج ١٥/٣ ــ ٤) يعلّم يدي داود القتال (صمويل ثاني ٢٢/٣٠ ــ ٣٥)، يأمر اليهود بقتل الذكور، بل الأطفال والنساء (عدد ٣١/١ ــ ١٢)، وهو إله قوي الذراع يأمر شعبه بألا يرحم أحداً (تثنية ٧/١٦ ــ ١٨)، وهو يعرف أن الأرض لا تُنال إلا بحد السيف. ولذا، فهو يأمر شعبه المختار بقتل جميع الذكور في المدن البعيدة عن أرض الميعاد « أما سكان الأرض نفسها فمصيرهم الإبادة ذكوراً كانوا أم إناثاً أم أطفالاً » (تثنية ٢٠/١٠ ــ ١٨) وذلك لأسباب سكانية عملية مفهومة.

والمقاييس الأخلاقية لهذا الإله تختلف باختلاف الزمان والمكان، ولذا فهي تتغيَّر بتغير الاعتبارات العملية، فهو يأمر اليهود (جماعة يسرائيل) بالسرقة ويطلب من كل امرأة يهودية في مصر أن تطلب من جارتها ومن نزيلة بيتها « أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين » (خروج ٣/٢٢).

وهكذا، فإن فكرة الإله الواحد المتسامي تتعايش مع أفكار أخرى متناقضة معها، مثل تشبيه الإله بالبشر، ومثل فكرة الشعب المختار، فهي أفكار تتناقض مع فكرة الوحدانية التي تطرح فكرة الإله باعتباره إله كل البشر الذي يسمو على العالمين.

وفي إطار هذه الرؤية للإله ليس من الغريب أن يسقط اليهود في عبادة العجل الذهبي (ويتزعمها بزعمهم هارون أخو موسى)، وأن يقبل العهد القديم عناصر وثنية مثل الترافيم والإيفود (الأصنام)

بالإضافة إلى هذا الانحدار الوثني الذي وقعت فيه اليهودية.. والذين ورثناه عنها.. كان هناك ما هو أخطر منها.. وهو القومية العنصرية التي جعلت من الله خالق كل الكون وكل الأجناس خادما لعنصر معين من الناس يقدم له كل القرابين التي لا تبقي لغيره غير الفتات الذي يقدم للكلاب.

فالإله ــ عند اليهود، وفي الكتاب المقدس ــ يتحول من كونه حقيقة مطلقة تعلو على المادة، إلى امتداد للشعب اليهودي على وجه الخصوص، فهو إله قومي مقصور على الشعب اليهودي وحده، بينما نجد للشعوب الأخرى آلهتها (خروج ٦/٧) حتى تصبح وحدانية الإله من وحدانية الشعب.

ولهذا، ظلت اليهودية دين الشعب اليهودي (جماعة يسرائيل) وحده، ونجد أن الغرض الإلهي يتركز في هذا الشعب دون سواه، فقد اختير من بين جميع الشعوب ليكون المستودع الخاص لعطف يهوه. كما أن مجرى الطبيعة أو تاريخ البشر يدور بإرادة الإله حول حياة ومصير اليهود.

ويخلع التلمود على الإله صفات بشرية بشكل عام، ويهودية بشكل خاص، وبشكل أكثر تطرفاً من التوراة، وقد جاء في التلمود أنه بعد وصول الماشيَّح[1]، سيجلس الإله على عرشه يقهقه فرحاً لعلو شأن شعبه،

---

(١) يقصدون به المسيح.. وهو في الحقيقة المسيح الدجال.

وهزيمة الشعوب الأخرى التي تحاول دون جدوى أن يكون لها نصيب في عملية الخلاص، أي أن الشعب اليهودي والتاريخ اليهودي يزدادان قداسة ومركزية في الدراما الكونية.

ويقضي الإله وقته وهو يلعب مع حوت، ويبكي من أجل هدم الهيكل، ويندم على فعلته، وهو يلبس العمائم، ويجلس على عرشه، ويدرس التوراة ثلاث مرات يومياً.

وتنسب إلى الإله صفات الحقد والتنافس، وهو يستشير الحاخامات في كثير من الأمور.

ويصل الحلول إلى منتهاه في تراث القبَّالاه[1]، فهو تراث يكاد يكون خالياً تماماً من أي توحيد أو تجاوز أو علو للإله، وبحيث لا يصبح هناك فارق بين الجوهر الإلهي والجوهر اليهودي، ويصبح الفارق الأساسي هو بين الجوهر اليهودي المقدَّس وجوهر بقية البشر، ويصبح الفرق بين اليهود والأغيار فرقاً ميتافيزيقياً، فاليهود قد خُلقوا من مادة مقدَّسة (حل فيها الإله بروحه) مختلفة عن تلك المادة (الوضيعة العادية) التي خُلقت منها بقية البشر. ويكتسب الإله صفات بشرية، ولذا فهو يغازل الشعب اليهودي (بنت صهيون) ويدخل معه (أو معها) في علاقة عاطفية قوية ذات إيحاءات جنسية، وهي فكرة أصبحت أساسية في التراث القبَّالي.

وتتضح النزعة نفسها في قصة الخلق في التراث القبَّالي، فالإله لا يخلق العالم من العدم وإنما صدرت عنه التجليات النورانية العشرة (سفيروت) التي تأخذ صورة آدم الأول أو القديم (آدم قدمون) أي أن صورة الإله هي صورة الإنسان.

وتستقل التجليات العشرة تماماً عن الخالق حتى أنه يتحدث مع الشخيناه (التجلي العاشر)، كما أن التجلي المذكر للإله يطارد التجلي المؤنث، وتصبح تلاوة الشماع، حسب الفكر القبَّالي، هي المحاولة التي يبذلها اليهود ليتوحد التجلي الذكوري بالتجلي الأنثوي، ويجتمعان معاً بالمعنى الجنسي.

وفي داخل التراث القبَّالي، يصبح التجلي العاشر (شخيناه) الذات الإلهية والتعبير الأنثوي عن الإله، وهو نفسه جماعة يسرائيل، أي أن الزواج بين الخالق والشعب يصبح هنا توحداً كاملاً، ويقوم هذا الشعب بتوزيع رحمة الإله على العالمين.

ثم تصل الحلولية إلى ذروتها والشرك إلى قمته، حين يصبح الإنسان اليهودي شريكاً للإله في عملية الخلق نفسها، ويزداد الإله اعتماداً على الإنسان. وبعد عملية السقوط، وتَهشُّم الأوعية في القبَّالاه اللوريانية، تتفتت الذات الإلهية نفسها، وتتوزع الشرارات الإلهية، ولا يتأتى للإله أن يستعيد كماله ويحقق ذاته إلا من خلال

---

(١) القبَّـــــــالاه Kabbalah هي مجموعة التفسيرات والتأويلات الباطنية والصوفية عند اليهود. والاسم مُشتَّق من كلمة عبرية تفيد معنى التواتر أو القبول أو التقبل أو ما تلقاه المرء عن السلف، أي «التقاليد والتراث» أو «التقليد المتوارث». وكان يُقصَد بالكلمة أصلاً تراث اليهودية الشفوي المتناقل فيما يعرف باسم «الشريعة الشفوية»، ثم أصبحت الكلمة تعني، من أواخر القرن الثاني عشر، «أشكال التصوف والعلم الحاخامي المتطورة» (إلى جانب مدلولها الأكثر عموماً باعتبارها دالاً على سائر المذاهب اليهودية الباطنية منذ بداية العصر المسيحي).

وقد أطلق العارفون بأسرار القبَّالاه («مقوباليم» بالعبرية و«القبَّاليون» بالعربية) على أنفسهم لقب «العارفون بالفيض الرباني» انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري.

شعبه اليهودي.

فاليهود، بآثامهم، يؤخرون عملية الخلاص التي تؤدي إلى خلاص العالم وإلى اكتمال الإله. وهم، بأفعالهم الخيرة، يعجلون بها. ولذا، فالأغيار والإله يعتمدون على أفعال اليهود الذين يشغلون مكانة مركزية في العملية التاريخية والكونية للخلاص.

ومع بدايات العصر الحديث، كانت الحسيدية أوسع المذاهب انتشاراً، وهي شكل من أشكال الحلولية المتطرفة بكل ما تحمل من شرك وثنوية. ويتضح هذا في الدور الذي يلعبه التساديك فإرادته معادلة لإرادة الإله، فهو الوسيط بين اليهود والخالق، وهو محل القداسة، وهو الإنسان التقي صاحب القدرة الذي يمكنه النطق باسم الإله والتحكم فيه والتأثير في قراراته.

وقد تبنَّى الفيلسوف اليهودي مارتن بوبر رؤية حلولية للإله، فتحدث عن الحوار الدائر بين الشعب والإله باعتبار أنهما طرفان متساويان، وهذا تَصوُّر ممكن داخل إطار حلولي قومي، كما نجد فرقاً يهودية حديثة مثل اليهودية المحافظة واليهودية التجديدية تبنيان تصوراتهما الدينية على أساس فكرة الشعب المقدَّس، مع إسقاط فكرة الإله تماماً، أو وضعها في مرتبة ثانوية.

ويصل الأمر إلى حد أن حاخاماً إصلاحياً مثل إيوجين بوروفيتز يتحدث عن حرب عام ١٩٦٧ باعتبار أنها لم تكن تهدد دولة إسرائيل فحسب، وإنما تهدد الإله نفسه باعتبار أن الإله والشعب والأرض يُكوِّنان جوهراً واحداً، فمن أصاب جزءاً من هذا الجوهر بسوء (أرض دولة إسرائيل على سبيل المثال)، فقد أصاب الذات الإلهية نفسها.

بل إن بعض المفكرين الدينيين اليهود يتحدثون عن «لاهوت موت الإله»، وهي محاولة الوصول إلى نسق ديني خال تماماً من أي جوهر إلهي مفارق، فهي حلولية بدون إله.

وقد تفرَّع من هذا «لاهوت الإبادة» أو «لاهوت ما بعد أوشفيتس» الذي يذهب دعاته إلى أن الإله شرير لأنه هجر الشعب اليهودي. كما يذهبون إلى أن المطلق أو الركيزة النهائية هو الشعب اليهودي (دون الإله) وأن القيمة الأخلاقية المطلقة هي البقاء، وأن الآلية الأساسية لإنجاز ذلك هي الدولة الصهيونية، فكأن الدولة الصهيونية هي الإله أو اللوجوس في الحلولية الصهيونية بدون إله.

ومن الصعب عند هذه النقطة الحديث عن اليهودية كديانة توحيدية، إذ أصبحت ديانة وثنية حلولية.

الشعائر:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن ثبات الشعائر التعبدية.

قال: إن الانحراف الخطير الذي وقعت فيه اليهودية في ميدان العقائد سرى إلى الشعائر..

فاليهودية من أكثر الأديان انشغالا بالشعائر والطقوس[1].. ولكن الشعائر التي تقوم بها مجرد طقوس تستر

---

(١) يطلق اليهود على الأوامر والنواهي الشرعية اسم (متسفوت) Mitzvot التي تعني أيضاً «الوصايا» أو «الفرائض».

الصورة المزيفة التي تحملها عن الله.

قلت: كيف تقول ذلك!؟.. ألم تسمع بالشمَّاع[1].. إنه شهادة التوحيد التي يعلنها اليهود.. أو هو سورة

وللكلمة عند اليهود معنيان: معنى عام، وهو القيام بأي فعل خيِّر تمتزج فيه الأفعال الإنسانية بالقيم الدينية، فإذا ساعد يهودي أخاه منطلقاً من حبه له فهذه «متسفاه» (وتأتي عادةً في هذه الصيغة).

أما المعنى الخاص للكلمة، ويأتي عادةً في صيغة «متسفوت» فهو الوصايا أو الأوامر والنواهي (متسفوت) التي تُكوِّن في مجموعها التوراة. وتشمل المتسفوت ستمائة وثلاثة عشر عنصراً، منها مائتان وثمانية وأربعون أمراً، وثلاثمائة وخمسة وستون نهياً، وهي موجهة إلى اليهود وحسب، إذ أن أبناء نوح لهم وصايا خاصة بهم.

وقد صُنِّفت المتسفوت إلى أوامر ونواهٍ توراتية وأخرى حاخامية. كما قُسِّمت إلى أوامر ونواه أقل أهمية وأخرى أكثر أهمية، وإلى أوامر ونواه عقلانية (أي تُفهَم بالعقل) وأخرى مُوحىً بها (أي يطيعها اليهودي دون تفكير).

ومن التصنيفات الأخرى، أوامر ونواه تُنفَّذ بالأعضاء وأخرى بالقلب، وتلك التي لا تُنفَّذ إلا في فلسطين (إرتس يسرائيل)، وتلك التي تنفذ داخلها وخارجها.

واليهودي البالغ ثلاثة عشر عاماً ويوماً يُكلف بتنفيذها، وكذلك اليهودية البالغة اثني عشر عاماً ويوماً، ومن هنا تسمية الصبي اليهودي الذي يبلغ سن التكليف الديني «برمتسفاه»، أما الفتاة فهي «بت متسفاه». والنساء غير مكلفات بتنفيذ الأوامر المرتبطة بزمن محدَّد أو فصل محدَّد، مثل إقامة الصلاة، وإن كن مكلفات بإقامة شعائر السبت برغم ارتباطها بزمن محدَّد، وكلٌ من الذكور والإناث مكلفون بالنواهي.

وهذه أعدادها، ومضامينها كما ذكرتها (الموسوعة اليهودية):

الأوامر التي تختص بالإله (١ ــ ٩)، وبالتوراة (١٠ ــ ١٩)، والهيكل والكهنة (٢٠ ــ ٣٨)، والقرابين (٣٩ ــ ٩١)، والإيمان (٩٢ ــ ٩٥)، والطهارة (٩٦ ــ ١١٣)، والهبات للهيكل (١١٤ ــ ١٣٣)، والسنة السبتية (١٣٤ ــ ١٤٢)، وذبح الحيوانات (١٤٣ ــ ١٥٣)، والأعياد (١٥٤ ــ ١٧٠)، والجماعة (١٧١ - ١٨٢)، والشرك (١٨٥ ــ ١٨٩)، والحرب (١٩٠ ــ ١٩٣)، والعلاقات الاجتماعية (١٩٤ ــ ٢٠٨)، والأسرة (٢٠٩ ــ ٢٢٣)، والشئون الاقتصادية (٢٢٤ ــ ٢٣١)، والعبيد (٢٣٢ ــ ٢٣٥)، والأذى (٢٣٦ ــ ٢٤٨).

أما النواهي، فتختص بالشرك (١ ــ ٥٩)، والهرطقة (٦٠ ــ ٦٦)، والهيكل (٧٦ ــ ٨٨)، والقرابين (٨٩ ــ ١٥٧)، والكهنة (١٥٨ ــ ١٧١)، وقوانين الطعام (١٧٢ ــ ٢٠١)، ونذيرو الإله (٢٠٢ ــ ٢٠٩)، والزرعة (٢١٠ ــ ٢٢٩)، والإقراض بالربا والتجارة ومعاملة العبيد (٢٣٠ ــ ٢٧٢)، والعدل (٢٧٣ ــ ٣٢٩)، وجماع المحارم والعلاقات المحرمة الأخرى (٣٣٠ ــ ٣٦١)، والملكية (٣٦٢ ــ ٣٦٥).

ومن أهم الأوامر، تلك الأوامر المتصلة بالختان وزراعة الأرض (السنة السبتية) والطعام والأسرة وغيرها.

وعدم الالتزام بالأوامر والنواهي يعني عدم الانتماء إلى الشعب اليهودي، ومن الملاحَظ أن كثرة الأوامر والنواهي والشعائر المرتبطة بها (في اليهودية) قد أدَّت إلى تكبيل اليهود وإلى زيادة سلطة الحاخامات، الأمر الذي جعل عملية تحديث اليهودية أمراً عسيراً.

انظر: الموسوعة اليهودية، لعبد الوهاب المسيري، مادة (الأوامر والنواهي (متسفوت) Mitzvot)

(١) الشماع Shema: دعاء «الشمَّاع» من كلمة «شمَع» العبرية وتعني «اسمع» ويُعرَف أيضاً باسم «قريئات شماع» ويُختصَر إلى «قريشماع»). وكلمة «شماع» أول كلمة في نصٍّ من نصوص العهد القديم تُقرَأ في صلاة الصباح والمساء « اسمع يا

الفاتحة التي يقرؤها اليهود كما يقرؤها المسلمون؟

قال: اقرأ علي النصوص التي يقرأونها في هذا الشماع لأبين لك الانحرافات الخطيرة التي تحملها..

قلت: إنهم في الشماع يقرؤون النصوص التالية.. « اسمع يا يسرائيل الرب إلهنا رب واحد. فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك. ولتكن هذه الكلمات التي أنا أوصيك بها اليوم على قلبك. وقصها على أولادك وتكلّم بها حين تجلس في بيتك وحين تمشي في الطريق وحين تنام وحين تقوم. واربطها علامةً على يدك ولتكن عصائب بين عينيك. واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك »(تثنية ٦/٤ ــ ٩).. « فإذا سمعتم لوصاياي التي أنا أوصيكم بها اليوم لتحبوا الرب إلهكم وتعبدوه من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم، أعطي مطر أرضكم في حينه المبكر والمتأخر. فتجمع حنطتك وخمرك وزيتك. وأعطي لبهائمك عشباً في حقلك فتأكل أنت وتشبع. فاحترزوا من أن تنغوي قلوبكم فتزيغوا وتعبدوا آلهة أخرى وتسجدوا لها فيحمى غضب الرب عليكم ويُغلق السماء فلا يكون مطر ولا تعطي الأرض غلتها. فتبيدون سريعاً عن الأرض الجيدة التي يعطيكم الرب. فضعوا كلماتي هذه على قلوبكم ونفوسكم واربطوها علامةً على أيديكم ولتكن عصائب بين عيونكم. وعلّموها أولادكم متكلمين بها حين تجلسون في بيوتكم وحين تمشون في الطريق وحين تنامون وحين تقومون. واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك. لكي تَكثُر أيامك وأيام أولادك على الأرض التي أقسم الرب لآبائك أن يعطيهم إياها كأيام السماء على الأرض » (تثنية ١٣/١١ ــ ٢١).. « وكلم الرب موسى قائلاً: كلّم بني يسرائيل وقل لهم أن يصنعوا لهم أهداباً في أذيال ثيابهم في أجيالهم ويجعلوا على هدب الذيل عصابة من أسمانجوني. فتكون لكم هدباً فترونها وتذكرون كل وصايا الرب وتعلمونها ولا تطوفون وراء قلوبكم وأعينكم التي أنتم فاسقون وراءها. لكي تذكروا وتعلموا وصاياي وتكونوا مقدَّسين لإلهكم. أنا الرب إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر ليكون لكم إلهاً. أنا الرب إلهكم »(عدد ٣٧/١٥ ــ ٤١)

قال: أهذا هو الشماع الذي شبهته بشهادة التوحيد التي يعلنها المسلمون، وبسورة الفاتحة التي يقرؤونها.

قلت: أجل.. إن الوحدانية تتجلى فيه بعمق.

قال: والقومية تتجلى فيه بعمق.. واللوثات المادية تأبى إلا أن تفضح نفسها فيه..

قلت: كيف ذلك[1]؟

قال: لو أخذنا العبارة الأولى من الشماع بمفردها، فسنلاحظ أنه بينما تبدأ الشهادة الإسلامية بضمير المتكلم (المفرد)، أي أن الإنسان الفرد صاحب الضمير الفردي والمسئولية الخلقية يشهد على أن الله، إله

يسرائيل الرب إلهنا رب واحد » (تثنية ٤/٦)، وتُقرأ الشماع في صلاة الصباح والمساء، ولا تُتلى في صلاة الظهر. وعلى اليهودي أن ينطق بعبارة التوحيد قبل موته، أو ينطق له بها أحد الواقفين بجواره.

انظر: الموسوعة اليهودية لعبد الوهاب المسيري.

(١) انظر المقارنة بين الشماع وشهادة المسلمين في (الموسوعة اليهودية) لعبد الوهاب المسيرى.

العالمين، واحد أحد، أما الشماع فتبدأ بخطاب إلى الأمة ككل، وهو ما يعطي الشمَّاع بعداً جماعياً قومياً.

ثم ينتقل الشماع بعد ذلك للتأكيد على أن «الرب إلهنا».. واستخدام ضمير المتكلمين، في العقيدة اليهودية بأكملها، ذو دلالة قومية جماعية عميقة، فهو يخصص الإله ويجعله مقصوراً على اليهود أو الشعب المختار الذي يحل فيه الإله.

إن تخصيص الإله لشعب معيَّن قد يفيد التوحيد، ولكنه لا يفيد الوحدانية الخالصة ويجعلها تقترب من التغليبية، وهي نوع من التوحيد البدائي يفيد الإيمان بعدد من الآلهة يترأسهم إله واحد، وهو ما يحمل معنى الشرك بالإله على عكس الشهادة الإسلامية التي تعني عدم وجود إله آخر ســـوى اللـــه.

ويتأكد هذا الموضوع الأساسي في بقية الدعاء « وتعبدوا آلهة أخرى وتسجدوا لها».. ويختم الدعاء هكذا « أنا الرب إلهكم الذي أخرجكم من مصر ليكون لكم إلهاً. أنا الرب إلهكم »

والأهم من هذا كله هو بقيـــة العبارات المستقاة من العهد القديم، فثمة إشارات عديدة إلى بعض الشعائر مثل: تمائم الصلاة (تفيلين)، وشال الصلاة (طاليت)، وتميمة الباب (مزوزاه). وتستغرق الإشارات إلى هذه الشعائر نصف الدعاء تقريباً.. وهذه الشعائر ذات اتجاه حلولي واضح فهي تؤكد انفصال اليهود وقداستهم واختيارهم: (وتكونوا مقدِّسين لإلهكم).

والجزء الثاني من الدعاء (تثنية ١١/١٣ ــ ٢١) يؤكد المكافأة المادية المباشرة التي سيمنحها الإله للشعب، لو أنه نفذ الوصايا. وهناك إشارة إلى « الأرض الجيدة التي يعطيكم الرب ».. وبذلك تكتمل كل علامات الحلولية المتطرفة، فثمة إله يحل في الشعب والأرض، فيكتسب كلٌّ من الشعب والأرض قداسة، ولذا، لابد أن يعزل نفسه عن بقية العالم.

قارن كل هذا بما يقرؤه المسلمون في صلواتهم لترى الفرق العظيم بين شعائر المسلمين وهذه الشعائر القومية والمادية.

سكت قليلا، ثم قال: لننظر نفس هذه الأبعاد الجديدة التي يستحيل أن تكون في الدين الذي جاء به موسى في سائر الشعائر..

ولنأخذ كمثال على ذلك كتب الصلوات [1] التي تتجدد باختلاف المناسبات، فهذه الكتب تختلف باختلاف البيئة، فثمة اختلاف بين الكتب الإشكنازية والكتب السفاردية، وهناك أيضاً اختلاف بين الكتب اليهودية الإصلاحية والكتب المحافظة والكتب الأرثوذكسية.

---

(١) كتب الصلوات اليهودية (سدُّور) Prayer Books; Siddur تُسمَّى كتب الصلوات اليومية عند الإشكناز «سدُّور»، من الكلمة العبرية «سدْر» التي تعني «نظام». أما بين السفارد، فتُسمَّى كتب الصلاة «سيفر تفيلاه». وهذه الكتب تضم الصلوات اليهودية المفروضة والاختيارية، كما تضم بعض النصوص الدينية المأخوذة من الكتب اليهودية الدينية، وبعض الأدعية والأغاني (بيوط) التي تُتلى في السبت، وأحياناً كل المزامير، وبعض فصول المشناه التي عادةً ما تُتلى قبل أو بعد الصلاة، وكل المعلومات التي قد يحتاج إليها المصلي أثناء أداء الصلاة في المعبد اليهودي. انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري.

فالإصلاحيون ترجموا كل الصلوات إلى اللغة المحلية، وأبقوا نصوصاً عبرية قليلة، كما استبعدوا كل الصلوات ذات الطابع القومي الديني، مثل الصلوات من أجل العودة إلى فلسطين، والأدعية بسقوط أعداء اليهود، ودعاء كل النذور، وقد بلغ رفض الأرثوذكس لكتب الصلوات الخاصة بالإصلاحيين حد أن أحد الأعضاء المتدينين بصق، أثناء مناقشة مسألة الهوية اليهودية في الكنيست، على نسخة من كتاب صلوات إصلاحي ثم ألقاها على الأرض.

أما كتب المحافظين والأرثوذكس، فقد أكدت أفكار الأمة والشعب المختار والعودة، كما أنها استبقت العبرية تأكيداً لاستقلال اليهود الديني الإثني. وتحتوي كتب المحافظين على إشارات إلى عيد استقلال إسرائيل، كما لو كان مناسبة دينية جليلة.

أما كتب اليهودية التجديدية، فتحوي إشارات إلى الإبادة النازية، كما تحوي أناشيد شكر على توطين اليهود في الولايات المتحدة، كما أنها حذفت كل الإشارات إلى البعث والثواب والعقاب وكل المفاهيم غير العلمية.

ليس ذلك فقط.. بل إن كتب الصلوات اليهودية عرضة للتغيير الدائم بسبب تداخل العنصر الديني والعنصر الدنيوي في هذه الصلوات، حتى أن بعض يهود العالم يقومون بوضع كتب صلوات، ثم يطبعونها على الاستنسل على عجل حينما تجدّ مناسبة قومية دينية يريدون الاحتفال الفوري بها، مثل انتصار عام ١٩٦٧ الفجائي، وذلك حتى لا يضيعوا وقتهم في انتظار المطبعة.

وفي كتب الصلوات التي تنتشر في إسرائيل (فلسطين المحتلة) إشارات لإعلان الدولة الصهيونية، ولأولئك الذين سقطوا أثناء الدفاع عن إسرائيل.

وقد نظمت حاخامية الجيش الإسرائيلي صلاة خاصة بالمظليين كتبها الحاخام جورين.. وبعد حرب يونيه ١٩٦٧، عدلت بعض المعابد في إسرائيل الصلوات الخاصة بها وتغيَّر الدعاء من « الالتقاء العام القادم في أورشليم » إلى الدعاء بإعادة بنائها.

وقد عُدِّلت الصلوات في عيد استقلال إسرائيل، وثمة اتجاه لإعادة تعديلها مرة أخرى لتأكيد الأهمية الدينية لهذه المناسبة، ولتأكيد أن الخلاص يتم على يد جيش إسرائيل لا على يد الإله.

وقد كان يظهر في كتب الصلاة في الماضي دعاء يقول: « نحمد الإله على أنه لم يجعلنا مثل أمم الأرض، فهم يسجدون للباطل والعدم ويصلون لإله لا ينفعهم »، وقد حُذف الجزء الأخير بعد عصر التنوير، ولكنه ظل يُتداوَل شفوياً في شرق أوربا، ثم أضيف من جديد في بعض كتب الصلاة في إسرائيل (فلسطين المحتلة)

إن هذا الذي أقوله ليس رأيا أراه، أو تهمة أتهمهم بها.. بل هذه هي الحقيقة التي يتفق شهودهم على القول بها.

سأذكر لك ما يثبت لك هذا من المقدمة التي كتبها أحد علماء الشريعة اليهودية المصريين، وهو الدكتور هلال يعقوب فارحي، لترجمته لمجموع نصوص الصلوات اليهودية الذي سماه (سِدُّور فارحي)، قال:« أما زمن وضع الصلاة المستعملة في وقتنا الحاضر، فيختلف حسب أقسامها، إنما القسم الأساسي والأهم فيها وهو

الشِمَاع والشِمُونه عِسْرِهِ، ينسب إلى عزرا ومائة وعشرين رجلاً من الشيوخ والعلماء، والأنبياء، ومن ضمنهم النبي دانيال وحجي وزكريا وملاخي، فإن عزرا بعد خراب الهيكل الأول وإبطال الذبائح والتقدمات رأى وجوب وضع صلوات هؤلاء الرجال المعروفين برجال الكنيسة الكبرى، ووضعوا القسم الأساسي من الصلاة المذكور آنفاً، وهو المنبع عند كافة الإسرائيليين، و لم يتغير أساساً إلى الآن إلا في بعض تغييرات لفظية، وإضافة بعض فصول وأناشيد منتخبة من التوراة والمشنا والتلمود، وأغاني روحية مثل (أدُونْ عولام)، وما أشبه لسلمون جابيرول وربِّي يهوذا الليفي، وإبراهيم وموسى عزرا، لتلائم الأوقات والمواسم، أضيفت مؤخراً لغاية الجيل السادس عشر »

إن هذه الشهادة تثبت لك أن أساس التدين اليهودي نفسه، وهو الصلاة الموسوية الموصوفة في كتب الشريعة اليهودية، لا تمت إلى ما كان من طقوس الصلاة الموسوية.

أضف إلى هذا أن الأعياد الدينية الإسرائيلية ضعيفة الصلة كذلك بموسى وشريعته، بل إن كثيراً منها يرجع إلى مناسبات وذكريات تاريخها متأخر عن موسى بكثير.

ومن تلك الأعياد اليهودية المحدثة: عيد البوريم، أو عيد النصيب، ويسميه الكتاب العرب (عيد المسخرة أو عيد المساخر)، والسبب في ذلك ما جرت به بعض التقاليد اليهودية الشعبية في هذا العيد من إسراف في شرب الخمر، ولبس الأقنعة والملابس التنكرية على طريقة المهرجان (الكرنفال)

بالإضافة إلى هذا فهو احتفال تذكاري متصل بملابسات ممهدة للعودة من السبي البابلي في القرن الخامس قبل الميلاد، بناء على وعد صدر من ملك الفرس إلى ممثلي الجالية اليهودية بالعراق، وهو احتفال أشد التصاقاً بالسياسة منه بالدين.

وبالرغم من وضوح مناسبة هذا العيد من الناحية السياسية والتأريخية، فإن التلمود يزعم أنه كان معروفاً محتفلاً به منذ أيام يوشع بن نون لأسباب مماثلة ـــ كما يقول ـــ للأحداث التي وقعت لليهود وفي السبي البابلي.

رأى في عيني العجب من هذا التلاعب بالشعائر، فقال: ليس ذلك فقط..

سأختار لك مثالا عن موقف اليهود من الأمم الأخرى.. والذي ارتبطت به شعائرهم.. والذي يستحيل أن يكون من الدين الحق الذي جاء به موسى.

لدى اليهود ما يمكن تسميته بشعيرة اللعنات[1].. وهذه الشعيرة يمارسها اليهودي ليثبت بها ما ملأه به كتابه المقدس ورجال دينه من عنصرية بغيضة.

فمن أمثلة هذه الشعيرة أن اليهودي إذا مر بمدافن لغير اليهود، يدعو على أمم الموتى.. وإذا رأى حشداً كبيراً من غير اليهود طلب من الإله أن يهلكهم.. وإذا مرّ على مترل مهدم يملكه يهودي، فإنه يدعو الإله أن

---

(١) انظر: الموسوعة اليهودية، مادة (الأدعية (الابتهالات واللعنات) Benedictions and Curses.

يعمره مرة أخرى، أما إذا كان مالكه غير يهودي، فإنه يحمد الإله على انتقامه من الأغيار[1].

وعلى اليهودي أن يبصق حينما يرى صليباً، ويتلو الإصحاح التالي من سفر التثنية: « ولا تُدخل رجساً إلى بيتك لئَلا تكون محرَّماً مثله، تستقبحه وتكرهه لأنه محرم ». والرجس هنا إشارة إلى الصليب.

وفي القرن الرابع عشر، شيَّد ملك بوهيميا تشارلز الرابع ـــ وكان إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة ـــ صليباً ضخماً في براغ، وحينما أخبروه عن عادة البصق هذه فرض على أعضاء الجماعة اليهودية أن يكتبوا على الصليب لفظة (أدوناي) وهو أحد أسماء الإله في اليهودية التي يُجلّونها ولا يجسرون على الإتيان بأفعال تنم عن ازدرائها.

وقد استُخدم سلاح استمطار اللعنات والبركات في انتخابات الكنيست عام ١٩٨٨، فكان حاخامات الأحزاب الدينية يدعون بالبركات (بالمال والبنين) لكل من يدلي بصوته لمرشحهم، ويدعون باللعنات على من لا يفعل. وقد صدر قرار في إسرائيل بمنع استمطار اللعنات أثناء المعارك الانتخابية.

هذا مثال عن توظيف الشعائر التعبدية في العنصرية وفي التنفيس عن الأحقاد..

سأضرب لك مثالا على تلاعب اليهود بالأيمان والعهود.. أو هو مثال على شريعة الخيانة التي شرعها لهم حاخاماتهم.

لدى اليهود شعيرة تعبدية يطلقون عليها (كول نيدري) Kol Nidre أو كل النذور، وهو دعاء يهودي باللغة الآرامية تُفتتَح به صلاة العشاء في يوم الغفران، وهي أولى الصلوات، ويبدأ ترتيله قبل الغروب، ويستمر إلى أن تَغرُب الشمس، ويرتدي المصلون شال الصلاة (طاليت) الذي لا يتم ارتداؤه عادةً إلا في صلاة الصباح في الأيام العادية.

وقد بدأت ممارسة هذه العادة منذ القرن الثامن، لكن مصدرها وأصلها غير معروفين، وقد عارضها بعض فقهاء العراق من اليهود في القرن التاسع، وأكدوا أنها عادة لا تُمارَس في بلادهم.

ومع ذلك، فقد أصبح دعاء كل النذور الدعاء المفضل لدى اليهود، واكتسب قدسية خاصة، وهو عبارة عن إعلان إلغاء جميع النذور والعهود التي قطعها اليهود على أنفسهم، و لم يتمكنوا من الوفاء بها طوال السنة.

وتُتلى هذه الصلاة ثلاث مرات، حتى تتأكد دلالتها، وحتى يسمعها الجميع، وهكذا يتخلصون من عبء الشعور بالذنب، فيبدأون الاحتفال بأقدس يوم عندهم مرتاحي الضمير تماماً.

---

(١) ويذكر المسيري أن نطاق اللعنة قد تقلص، وأصبح ينطبق على الكنائس، وأماكن العبادة التي تخص المسيحيين وغيرهم (استُثنيَت أماكن العبادة الخاصة بالمسلمين، وربما يكون ذلك في فترة من الفترات.

ويذكر كذلك أن مثل هذه الممارسات كان يقوم بها بعض الجماعات اليهودية وليس كلها، وفي بعض المراحل التاريخية وليس في كل زمان ومكان، كما أن كثيراً من هذه التقاليد الدينية العنصرية آخذة في التآكل بين غالبية أعضاء الجماعات اليهودية في العالم، ولكنها آخذة في التزايد بين الصهاينة الأرثوذكس في إسرائيل. انظر: الموسوعة اليهودية، مادة (الأدعية (الابتهالات واللعنات)

ومنطوق الدعاء هو: « نعبِّر عن ندمنا عن كل النذور والتحريمات والأيمان واللعنات التي نذرناها وأقسمنا بها ووعدنا بها والتي حلت و لم نف بها من يوم الغفران هذا حتى الذي يليه، والذي ننتظر مقدمه السعيد، فلتكن كلها منسية، ونكون في حلٍّ منها، معفين منها، ملغاة ولا أثر لها، ولن تكون مُلزمة لنا ولا سلطة لها علينا، والنذور لن تُعَدَّ نذوراً، والتحريمات لن تُعَدَّ تحريمات، ولن تُعدَّ الأيمان أيماناً ».

وقد تَعرَّض اليهود بسبب هذه الشعيرة للهجوم الشديد، فقيل: إن أي وعد، أو أي قَسَم صادر عن يهودي، لا قيمة له ولا يمكن الوثوق به، وقيل أيضاً إن هذا الدعاء كان سلاح اليهود المتخفين الذين تظاهروا بالإسلام أو المسيحية، مثل الدونمه أو المارانو، وظلوا يهوداً في الخفاء، فكان دعاء (كل النذور) وسيلتهم في التحلل من كل العهود التي قطعوها على أنفسهم.

وقد حاول الحاخامات جاهدين شرح المقصود بهذا الدعاء، فهو، حسب تفسير بعضهم، لا يُحل اليهودي من وعوده وتعهداته أمام الآخرين، فهذه لا تحلُّل منها إلا باتفاق الطرفين، وإنما هو يحله من وعوده للإله.

وحينما كانت تتم مناقشة مسألة منح اليهود حقوقهم في روسيا وإعتاقهم، طُلب إلى اليهود إعداد مقدمة للدعاء بالعبرية يأتي فيها أن الوعود التي يُحَلّ منها هي الوعود التي قطعها اليهودي على نفسه تجاه نفسه، وليس العهود التي قطعها على نفسه تجاه الآخرين.

وقد أثر دعاء (كل النذور) في القَسَم اليهودي وصياغته في العصور الوسطى، وقد حذفت اليهودية الإصلاحية هذا الدعاء واستبقت اللحن وحده بعض الوقت، ولكنها أعادته في الآونة الأخيرة.

وفي انتخابات الكنيست عام ١٩٨٨، قام بعض « حكماء » حزب شاس (الليتواني سليل المتنجديم) بتلاوة دعاء كل النذور على شاشة التليفزيون ليُحلُّوا الناخبين الذين وعدوا بإدلاء أصواتهم لحزب أجودات إسرائيل (ذي الأصول الحسيدية) من وعودهم حتى يمكنهم الإدلاء بها لمرشحي حزب شاس.

وتقوم بعض الكيبوتسات العلمانية بإنشاد بعض القصائد والأغاني في عيد يوم الغفران، وقد يكون من بينها الموسيقى المصاحبة لدعاء كل النذور.

سأضرب لك مثالا عن البعد الدنيوي العميق في الشعائر التعبدية اليهودي.. فاليهودي لا ينظر إلى الدين إلى على أنه وسيلة لتحصيل ما استطاع من الدنيا.. ولا علاقه له بالقيم ولا بالجزاء الأخروي.

من شعائر اليهود ما يطلقون عليه (أوث موري جودايكو) oath more judaico، وهي عبارة إنجليزية لاتينية معناها (القَسَم حسب عرف اليهود)

واليهود يتلون هذا القسم في القضايا التي بينهم وبين غير اليهـــود، وهو يعـــود إلى أيام شـــارلمان (٧٧١ — ٨١٤).

وكان نص القسم والطقوس الرمزية التي تصاحبه يعطيانه شكل اللعنة التي يستمطرها المرء على نفسه، ويجعلانه يتضمن وضعاً تفصيلياً للعقوبة التي ستحل إن كان اليهودي كاذباً في قَسَمه، وقد جاء في صيغة أحد الأقسام ما يلي:« إن كنت كاذباً في قَسَمي فلتترل اللعنة على سلالتي ولأتحسس طريقي بين الحوائط كالأعمى، ثم لتنشق الأرض وتبتلعني »

وقد كان الغرض من استمطار اللعنات بهذا الشكل تخويف اليهودي حتى لا يكذب، وخصوصاً أنه كان معروفاً في العصور الوسطى أن اليهود يتلون دعاء (كل النذور) السابق ذكره في صلاة يوم الغفران ويتحللون من خلال ذلك من أي نذور قطعوها على أنفسهم أو أي أيمان التزموا بها في العام السالف.

أما الطقوس التي كانت تصاحب القَسَم، فكانت أكثر تطرفاً حيث كان على اليهودي أحياناً أن يمسك بعصا القاضي ويلقي القَسَم، وفي إحدى المحاكم، كان على اليهودي أن يقف ووجهه نحو الشمس على كرسي نُزعت إحدى أرجله الأربع، فصار بثلاث أرجل، وهو يلبس قبعة اليهود ويلتفع بشال الصلاة (طاليت).

وأحياناً كانت تُوضَع تحت الكرسي مواد قذرة مثل جلد أنثى الخنزير، وهو حيوان كريه لدى اليهود، ولعل الهدف من كل هذا هو أن يحاول اليهودي أن يركز على الاحتفاظ بتوازنه ويردِّد القَسَم، فلا يمكنه أن يكذب في عقله الباطن ويَصدُق في قَسَمه ويستمطر على نفسه اللعنات بالفعل.

هذه أمثلة قليلة عن بعض الشعائر اليهودية..

وقد كان التطرف الذي تمتلئ به سببا في نفور اليهود المعاصرين من الشريعة.. بل يكاد أكثرهم يميل إلى الإلحاد، فالخنزير مثلا من المحرمات الكبرى لدى اليهود، مثلهم في ذلك مثل المسلمين، فبينما نجد المسلمين مع تخلفهم عن دينهم لا يزالون يحرمون أكله، بل ظلوا على ذلك في جميع عصورهم، نجد الأغلبية العظمى من يهود الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، (ما يزيد على ٨٠ بالمائة منهم) والذين يشكلون الأغلبية الساحقة من يهود العالم لا يطبقون أياً من قوانين الطعام، بل يأكل الكثيرون منهم لحم الخنزير، ولا يتجاوز من يطبقون كل قوانين الطعام نسبة ٤ بالمائة[1].

والأمر ليس مختلفاً كثيراً في إسرائيل (فلسطين المحتلة) إذ يوجد نحو ٣٠ ألف شخص يعملون في قطاع تربية الخنزير وبيعه.

ويبدو أن أكثر من نصف السكان اليهود الإسرائيليين يأكلون لحم الخنزير، ومن بينهم كثير من أعضاء النخبة (وزراء وجنرالات، بل أعضاء كنيست) ممن وافقوا على مشروع القرار الخاص بمنع تسويق لحم الخنزير.

بل هناك عدة مؤسسات في إسرائيل تقوم بتربية الخنزير وذبحه وبيع لحمه (أهمها كيبوتس مزرا).

ومع هذا، ونظراً للإيحاءات السلبية التي ارتبطت بلحم الخنزير في الوجدان الديني اليهودي، فإنهم يشيرون إلى لحم الخنزير في المطاعم وفي غيرها من الأماكن بأنه (اللحم الأبيض)، وقد بدأوا في تل أبيب يُسقطون حتى هذه الصيغة الشكلية التمويهية.

ولأن قانون عام ١٩٦٢ يمنع تربية الخنزير على أرض الدولة، فقد قام أحد الكيبوتسات ببناء حظيرة لتربية الخنازير عند مستوى أعلى من مستوى الأرض المقدَّسة.

وهو مظهر آخر من مظاهر التلاعب بالدين.. وبشعائر الدين.. والذي ذكر القرآن مثالا له بتلاعبهم بالسبت، وشعائر السبت.

---

(١) انظر هذه الإحصائيات في (الموسوعة اليهودية)

٣ ـــ السلوك:

قلت: فحدثني عن الثمرة الثالثة من ثمرات الصمود، وهي السلوك.

قال: أنت تعرف اليهود، والسلوك الذي يسلكونه في حياتهم مع أنفسهم، ومع غيرهم من الأمم..

ولن أحدثك الآن إلا على سلوك خطير يتنافى مع الدين.. مع أي دين.. وهو مزاولتهم للسحر، حيث يزاول أحبارهم ورؤساؤهم أعمال السحر والدجل مما هو مدون في كتابهم (القابالاه) وهو أحد كتبهم السرية التلمودية، وقد عُرف اليهود بمزاولة السحر والشعوذة قديماً وحديثاً.

لقد ذكر القرآن ذلك، فقال:﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾(البقرة)

والتلمود يمتلئ بطقوس السحر والشعوذة والعرافة، يقول الحاخام راوهنا: كل منا يوجد عن شماله ألف (من العفاريت)، ويوجد عن يمينه عشرة آلاف.

وقال ربًّا: إن الازدحام أثناء الموعظة بالكنيس بسببهم (العفاريت)، واستهلاك ملابس الحاخام (الإبلاء) بسبب احتكاكهم بها، والأقدام المكسورة بسببهم، ثم يصف الحاخام بعض الطرق السحرية لمن أراد مشاهدة العفاريت.

ولا يزال اليهود يمارسون السحر إلى يومنا هذا، بل تتميز ظاهرة الشعوذة لدى الإسرائيليين أن الأشخاص الذين يمارسونها في الأساس هم رجال دين من الحاخامات.

أما جمهورهم فهو من مختلف قطاعات الشعب وعلى جميع المستويات، ويشتهر في إسرائيل (فلسطين المحتلة) حالياً عدد كبير من الحاخامات الذين يمارسون السحر، حيث يحتاج المرء لتحديد موعد مع أحد هؤلاء الحاخامات إلى وقت طويل.

وتشاهد أحياناً طوابير من الناس أمام مقراتهم بانتظار دور للدخول، ويعتبر الحاخام (إسحاق كادوري) واحداً من أشهر هؤلاء الحاخامات الذي بالإضافة إلى كون قائمة زبائنه طويلة جداً، فإنها تتضمن نخبة من ألمع الأسماء في الحياة السياسية والعسكرية والإجتماعية عامة في إسرائيل (فلسطين المحتلة)، ومن بينهم رئيس الوزراء السابق إسحاق رابين، ووزير الداخلية السابق آربيه درعي، ووزير الإسكان بنيامين اليعازر وغيرهم.

ومن تعاليمهم السرية في كتبهم تقديم ذبيحة أو أضحية بشرية في أعيادهم حيث يخلط الدم البشري المستترف بطريقة بشعة مع عجين الفطير الذي يؤكل في عيد الفصح، وذلك من أشنع وأفظع ما يرتكبه أحبارهم باسم الدين، وقد افتضح اليهود في عدد من حوادث الإختطاف والقتل لذلك الغرض البشع المشين.

فهذه السلوكات المحرفة التي ترتبط بالدين من أعظم ما يبين لك مدى الانحطاط الذي بلغته الديانة اليهودية التي أسلمت نفسها للحاخامات والكهنة يضعون لها شرائعها ويرسمون لها سلكوها، ولهذا كان تقديس

الحاخامات ورجال الدين اليهودي واعتقاد عصمتهم، ومجمع أحبارهم يسمى (السنهدرين) ويسمى الآن (الكهيلا) له دور كبير في حياة اليهود الدينية والاجتماعية والسياسية.

واليهود لا يكتفون بانحرافهم السلوكي.. بل يضمون إليه جهودهم المستميتة من أجل نشر الفساد في الأرض.. ويتخذ اليهود ـــ لأجل ذلك ـــ جميع الوسائل والطرق في إثارة الفتن والحروب ونشر الفساد الأخلاقي والدعوة إلى الإباحية والإجهاض والزنا وإشاعة الربا والفساد الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والديني في سبيل تحقيق أهدافهم وأحلامهم[1].

٤ ـــ الانتشار:

قلت: فحدثني عن صمود الانتشار..

قال: أنت تعلم أن اليهودية ديانة عنصرية بكل المقاييس.. فإلهها مختص بالقومية الإسرائيلية، وشعائرها لا تخدم إلا هذه القومية، وسلوكها لا يحترم إلا هذه القومية.

قلت: أجل.. أعرف ذلك.

قال: فلذلك بقي انتشار هذه الديانة محدودا[2].. بل محدودا جدا.. فاليهودية ليست في الحقيقة دينا، إنما هي قومية لا تكاد تختلف عن النازية.

---

(١) سنرى تفاصيل أكثر لانحرافات اليهود المختلفة في الفصول القادمة.

(٢) رغم أن اليهودية ليست ديانة تبشيرية، إلا أن كثيراً من الشعوب قد تَهوَّدت. فقد فرض الحشمونيون اليهودية قسراً على بعض الشعوب المجاورة لهم، مثل الأدوميين والإيطوريين، كما تَهوَّدت قبائل الخزر (أو نخبتها القائدة) في ظروف لا تزال غامضة. (انظر تفاصيل ذلك في الموسوعة اليهودية، للمسيري)

وهذا يدل على الخرافة العظيمة، والتدليس الخطيرة الذي أسس عليه الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين.

المسيحية

قلت: عرفت الانحرافات الكثيرة التي دخلت اليهودية.. ولم أكن بحاجة ــ في الحقيقة ــ لإثبات ذلك، فالكتاب المقدس والتاريخ والواقع كلها دلائل تشير إلى الشرور الكثيرة التي تحول إليها هذا الدين..ولكني أتعجب أن تقرن المسيحية مع اليهودية.

قال: لقد ذكرت لك أن المسيحية نسخة مشوهة من اليهودية.. أو هي يهودية متأثرة ببعض الوثنيات..

قلت: دعنا من هذه الأحكام الجزافية.. ولنتحدث بالمنطق العلمي.

١ ــ المصادر:

قال: أجل.. ولنبدأ بصمود المصادر.. لقد ذكرت لي أن المسيحيين مروا بفترات عصيبة.

قلت: أجل.. وقد أثبتوا من الصمود ما لا يطيقه أحد من الناس.

قال: ثم مروا بعد ذلك بعهود رخاء.

قلت: أجل.. بعد تلك السنوات الشديدة التي عاناها المسيحيون اعتنق قسطنطين المسيحية في عام ٣١٢م، فكان أول من تحول إلى المسيحية من ملوك الروم.

قال: بل قل: أعلن قسطنطين مسيحيته المشبوهة [1]..

قاطعته قائلا: كيف تقول ذلك؟.. لقد ظهرت المسيحية بفضل هذا الامبراطور العظيم، وبدأت بالانتشار بقوة.. لقد كان له دور هام في تحويلها من فرقة دينية مضطهدة، إلى ديانة مسيطرة ومهيمنة على أوروبا.

لقد كان من أوائل أعماله إصدار (مرسوم ميلان) الذي أصبحت المسيحية بموجبه ديناً شرعياً مسموحاً به.

لقد قضى المرسوم بإعادة أملاك الكنيسة التي كان قد صادرها الأباطرة أيام اضطهاد المسيحية، كما قرر أن يجعل يوم الأحد يوم عبادة وراحة من الأعمال.

قال: وهذا من تحريفه لما جاء به المسيح.. لقد كان يوم الأحد معروفاً من قبل في الإمبراطورية الرومانية التي كانت تقدس الشمس فيما تقدسه، وكان يوم الأحد (Sunday) يوم الشمس.. عندهم يوم راحة، فلما تمسح قسطنطين، نقل ذلك معه إلى المسيحية.

قلت: لا بأس بهذا.. ولكنه مع ذلك اهتم بالمسيحية، وبنشرها، وقد بُديء في عهده ببناء عدة كنائس شهيرة مثل كنيسة المهد في بيت لحم، وكنيسة القيامة في القدس.

وقد أعاد بناء مدينة بيزنطة، ووسعها وسماها القسطنطينية، وجعلها عاصمة له، فأصبحت من أعظم مدن

---

(١) ويدل لذلك ما ذكره المؤرخون من أنه لم يُعمد إلا على فراش الموت، مع أنه كان قد اعتنق المسيحية قبل ذلك بكثير.. وكان يوصف بالقسوة إلى حد كبير، فقد أعدم ابنه الأكبر، وزوجته في عام ٣٢٦م. وقد وصفه (هندريك فان لون) في (قصة الجنس البشري) بقوله:« لقد كان وغداً غليظ القلب لا يرحم »

العالم،وبقيت عاصمة النصف الشرقي للإمبراطورية الرومانية حتى عام ١٤٥٣م.

قال: أنا لا يهمني صمود المباني والجدران.. أنا أهتم بصمود الحقيقة وثباتها.. وهذا ما لم يحصل في جميع عهود المسيحية سواء عهود الرخاء، أو عهود الشدة.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أما في عهود الشدة، فقد كانت الحوادث التي مرت على المسيحيين في القرون الثلاثة الأولى سبباً لقلة النُسخ، ولسهولة التحريف فيها.

وبسبب تلك الحوادث التي ذكرتها وغيرها، فُقِدت الأسانيد المتصلة لكتب العهدين، وصار الموجود باسم كتب العهدين مُلفقاً مُختلقاً منسوبا زوراً لمن كتبوه، فلا يوجد عند اليهود ولا عند المسيحيين سند متصل لكتاب من الكتب.

وقد سمعت أن الشيخ رحمة الله الهندي طلب في مناظرته من القسيسين فندر وفرنج السند المتصل لأي كتاب من الكتاب المقدس، فاعتذرا بأن سبب فقدان الإسناد هو وقوع المصائب والفتن على المسيحيين إلى (٣١٣ م).

أما عهود الرخاء.. فأمرها أخطر بكثير.. وسأقص عليك قصة تلك الانحناءة الخطيرة التي انحنتها الشجرة التي غرسها المسيح.

في سنة ٣٢٥م كانت القسطنطينية قاعدة الدولة الرومانية الشرقية.. ولما كان أغلب رعايا الإمبراطور قسطنطين من المسيحيين، وكان أغلب الوثنيين في روما في الغرب، أراد قسطنطين أن يقوّي مركزه، فقرب المسيحيين إليه.

ولكن لما كان المسيحيون أنفسهم مختلفين حول المسيح، فقد دعاهم الامبراطور إلى عقد مجمع لحسم هذه الخلافات العقدية التي كان لها أثرها على إشاعة عدم الاستقرار في امبراطوريته.

لذلك عقد مجمع نيقيّة سنة ٣٢٥، وقد حضره (٢٠٤٨) أسقفاً من جميع أنحاء العالم، وذلك لتحديد من هو المسيح.

فتناظر المجتمعون وقرر(١٧٣١) من الأساقفة المجتمعين وعلى رأسهم (آريوس) أن المسيح إنسان، ولكن (أثناسيوس) الذي كان شماساً بكنيسة الإسكندرية انتهز هذه الفرصة، فأراد أن يتقرب إلى قسطنطين الوثني، فأعلن أن المسيح هو الإله المتجسد، وتبعه في ذلك الرأي (٣١٧) عضواً.

ومال قسطنطين الذي كان ما يزال على وثنيته إلى رأي (أثناسيوس) لما فيه من عقيدة وثنية تؤمن بتجسيد الآلهة ونزولها من السماء، فأقر مقالة (أثناسيوس)، وطرد الأساقفة الموحدين، وعلى رأسهم (آريوس)

وأخطر من ذلك كله أنه قضى بحبس الكتاب المقدس، فلم يسمح بتداوله بين الناس، وقضى أن يقتصر تعليم الدين على ما يقوم القساوسة بتلقينه للناس.

وبذلك يتحمل مجمع نيقيه وإلى الأبد مسئولية جريمة ضياع الإنجيل المقدس بلغته الآرمية الأصلية، وهي خسارة لا تعوض.

بالإضافة إلى ذلك فقد خرج من مجمع نيقية قرارات اعتبرت مع قرارات مجمع آخر عقد عام ٣٨١م[1] أول تأسيس لعقيدة التثليث عند المسيحيين.

فالتثليث المسيحي لم يكن معروفاً إلى سنة ٣٢٥م حيث عقد مؤتمر نيقية، ولم يعترف المؤتمر إلا بالأب والابن، ثم أدخلوا الروح القدس عام ٣٨١ م في مجمع القسطنطينية.

وقد جاء التثليث بالتصويت في المجامع، وهو تصويت مصحوب بالتهديد والوعيد، فقد أراد الإمبراطور الروماني إلهاً يعجبه هو شخصياً، إلهاً ليس واحدا حتى لا يغضب الوثنيون الذين يؤمنون بتعدد الآلهة، وإلهاً واحداً حتى لا يغضب الموحدين؛ فكان اختراع التثليث، واحد في ثلاثة أو ثلاثة في واحد؛ فهو واحد إن شئت، أو هو ثلاثة إن شئت.

وهكذا فالتثليث اختراع إمبراطوري، صدر على شكل مرسوم أجبر الناس على تكراره دون فهم أو تصديق، آمن به، آمن به فقط و لا تسأل.

لقد كان لي صديق شاعر قروي سوري، هو رشيد سليم الخوري، وقد كان من أسرة أرثوذكسية، وقد سمعته يذكر هذا، ويقول:« إن الكنيسة ظلت حتى مطلع القرن الرابع الميلادي تعبد الله على أنه الواحد الأحد، وأن يسوع المسيح عبده ورسوله حتى تنصر قسطنطين عاهل الروم، وتبعه خلق كثير من رعاياه اليونان والرومان، فأدخلوا بدعة التثليث، وجعلوا لله سبحانه وتعالى أندادا شاركوه منذ الأزل في خلق السماوات والأرض وتدبير الأكوان، ومالأهم الأسقف الأنطاكي مكاريوس، فثار زميله الأسقف أريوس على هذه البدعة ثورة عنيفة، شطرت الكنيسة واتسع بين الطائفتين نطاق الجدل حتى أدى إلى الاقتتال، وفاز أريوس بالحجة القاطعة في المجامع، بيد أن السلطة وضعت ثقلها في الميزان، فأسكتت صوت الحق، وأنفذت صوت الباطل، واستمر المسيحيون يعمهون في ضلالتهم »

قلت: نحن نبحث في صمود المصادر..

قال: وفي مجمع نيقية حصل أخطر تحريف للمصادر المقدسة[2].. كل المؤرخين يقولون هذا.. بل حتى رجال ديننا يعترفون بهذا.. لا شك أنك تعرف القس الذي أسلم، وتسمى (عبد الأحد داود)

قلت: أجل..

قال: لقد قال مبينا تأثير ذلك المجمع المشأوم في مصادرنا المقدسة:« إن هذه السبعة والعشرين سفراً أو الرسالة الموضوعة من قبل ثمانية كتاب لم تدخل في عداد الكتب المقدسة باعتبار مجموعة هيئتها بصورة رسمية إلا في القرن الرابع بإقرار مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م، لذلك لم تكن أي من هذه الرسائل مصدقة لدى الكنيسة.. وهناك ــ أي في مجمع نيقية ــ تم انتخاب الأناجيل الأربعة من بين أكثر من أربعين أو خمسين إنجيلاً، وتم

---

(١) هو مجمع القسطنطينية، والذي حضره (١٥٠) أسقفاً، وقد كان حصيلة هذا المجمع الصغير أن الروح القدس هو إله من جوهر الله.

(٢) انظر التفاصيل المثبتة لهذا في (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

انتخاب الرسائل الإحدى والعشرين من رسائل العهد الجديد من بين رسائل لا تعد ولا تحصى، وصودق عليها، وكانت الهيئة التي اختارت العهد الجديد هي تلك الهيئة التي قالت بألوهية المسيح، وكان اختيار كتب العهد الجديد على أساس رفض الكتب المسيحية المشتملة على تعاليم غير موافقة لعقيدة نيقية وإحراقها كلها »[1]

ألا ترى أن الكنيسة هي التي حددت الكتب الصحيحة التي يجب أن تُداوَل وألغت الباقي، واعتبرتها كتبا غير قانونية، ومنها كتب ورسائل للمسيح نفسه، وكتاب لمريم العذراء، وأناجيل أخرى كثيرة للحواريين تلاميذه؟

ألا ترى أن هذه المجامع مارست دورا بوليسيا على الكتاب المقدس؟

إنها تريد أن تفرض على الله ما يقول.. وتريد أن تفرض على الكتبة ما يلهم لهم.

أتدري سر هذا الحرص من مجمع نيقية؟

إنه ليس الإخلاص للكتاب المقدس.. بل هو الإخلاص للامبراطور.

انتفضت قائلا: كأني بك تريد أن تقول بأن الامبراطور هو الذي حدد الكتب المقدسة، ونفى غيرها.

قال: أنا لا أقول ذلك.. بل التاريخ.. وحقائق التاريخ.. هي التي تقول ذلك.

لقد قال المؤرخ (ديورانت) في كتابه قصة الحضارة:« وصدر مرسوم إمبراطوري يأمر بإحراق كتب آريوس جميعها، ويجعل إخفاء أي كتاب منها جريمة يعاقب عليها بالإعدام »

ويقول الكاتب المسيحي حبيب سعيد:« وبذلك فض المؤتمر النزاع القائم، وقرر إبعاد آريوس وأتباعه وحرق الكتاب الذي أودعه آراءه الملحدة »

وقال آدم كلارك في المجلد السادس من تفسيره:« إن الأناجيل الكاذبة كانت رائجة في القرون الأولى للمسيحية، وأن فابرِ بسينوس جمع أكثرَ من سبعين إنجيلاً من تلك الأناجيل وجعلها في ثلاث مجلدات »

كما ذكر فاستوس ـــ الذي كان من أعظم علماء فرقة ماني في القرن الرابع الميلادي ـــ « إن تغيير الديانة النصرانية كان أمراً محقاً، وإن هذا العهد الجديد المتداول حالياً بين النصارى ما صنعه السيد المسيح ولا الحواريين تلامذته، بل صنعه رجل مجهول الاسم ونسبه إلى الحواريين أصحاب المسيح ليعتبر الناس »

ويقول العالم الألماني (دى يونس):« إن روايات الصلب والفداء من مخترعات بولس ومَنْ شابهه من المنافقين خصوصاً، وقد اعترف علماء النصرانية قديماً وحديثاً بأن الكنيسة العامة كانت منذ عهد الحواريين إلى مضى ٣٢٥ سنة بغير كتاب معتمد، وكل فرقة كان لها كتابها الخاص بها »

ثم التفت إلي، وقال: ألا تزال تنكر تأثير الامبراطور على المجمع؟

صمت، فقال: كل الحقائق التاريخية تدل على أنه كان للامبراطور قسطنطين دور كبير في مجمع نيقية،لأنه كان يعلق أهمية كبرى في تكوين كنيسة واحدة في إمبراطورية واحدة.

ومما يدل على هذا أن علماء الآثار يكتشفون كل مرة مخطوطات جديدة من هذه الكتب تختلف عن

---

(١) الإنجيل والصليب صفحة ١٤.

النسخ المعروفة، ومن ذلك ما ذكرته صحيفة الواشنجتون تايمز THE WASHINGTON TIMES، فقد ذكرت فى عددهـــا الصادر فى ٧ إبريل ٢٠٠٦ مقالا بعنوان Judas stars as 'anti-hero' in gospel By Julia Duin و جاء فى هذا المقال أن الجمعية الجغرافية الدولية National Geographic أزاحت النقاب عن أحد المخطوطات الأثرية أو الأناجيل التى عثر عليهـــا فى المنيا فى مصر، ويعود تاريخهـــا إلى بداية القرن الثالث الميلادى و أطلق على هذا الانجيل إسم إنجيل يهوذا The Gospel of Judas.

وقد اعتبر يهوذا من تلاميذ السيد المسيح، ويذكره التاريخ القبطى أنه هو الرجل الذى خان المسيح.

و قد تم ترميم هذا الإنجيل بعد العثور عليه منذ أكثر من عشر سنوات، وتمت ترجمته من اللغة القبطية إلى اللغة الانجليزية فى نهاية عام ٢٠٠٥ وأفرج عن هذه الترجمة فى ٦ إبريل ٢٠٠٦ وأصبح هذا الإنجيل يباع فى الأسواق[1].

٢ ـــ الثمار:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن صمود الثمار.

العقيدة:

قال: أول الثمار وأخطرها ثمرة العقيدة..

قلت: فهل حرفت هذه الثمرة الطيبة..

قال: لم تحرف فقط.. بل أصبحت ثمرة سامة تقتل كل من اقترب منها.. لقد أصاب عقيدتنا أخطر ما أصاب أي عقيدة في الدنيا، فصرت لا تميز بينها وبين أي ديانة وثنية.

لقد عبرت المسيحية إلى الدولة الرومانية الوثنية في أشد عصور الوثنية والانحلال في هذه الدولة، ثم أخذت تنتشر حتى استطاعت أن تولي قسطنطين امبراطوراً في سنة ٣٠٥ ميلادية، ومن ثم دخلت الإمبراطورية الرومانية في النصرانية، لا لتخضع للنصرانية، ولكن لتخضع النصرانية لوثنيتها العريقة[2].

وفي هذا يقول الكاتب الأمريكي (درابر) في كتابه (الصراع بين الدين والعلم):« دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين، الذين تقلدوا وظائف خطيرة، ومناصب عالية في الدولة الرومانية، بتظاهرهم بالنصرانية. و لم يكونوا يحفلون بأمر الدين. و لم يخلصوا له يوماً من الأيام. وكذلك كان قسطنطين.. فقد قضى عمره في الظلم والفجور، و لم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً في آخر عمره سنة ٣٣٧ ميلادية »

ويقول:« إن الجماعة النصرانية، وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك، ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية، وتقتلع جرثومتها، وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها ونشأ من ذلك

---

(١) انظر: صحيفة وشنطن تايمز على الرابط التالي:
r.htm٣٧٥٨-١٢٠٦٤٢-٢٠٠٦٠٤٠٧http://www.washtimes.com/national/

(٢) انظر: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته لسيد قطب.

دين جديد، تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء.. هنالك يختلف الإسلام عن النصرانية، إذ قضى على منافسه (الوثنية) قضاء باتاً، ونشر عقائده خالصة بغير غبش »

ويقول:« وإن هذا الإمبراطور الذي كان عبداً للدنيا، والذي لم تكن عقائده الدينية تساوي شيئاً، رأى لمصلحته الشخصية، ولمصلحة الحزبين المتنافسين ـــ النصراني والوثني ـــ أن يوحدهما ويؤلف بينهما، حتى أن النصارى الراسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطة. ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ونقحت بالعقائد الوثنية القديمة، وسيخلص الدين النصراني عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها »

ولكن هذا الأمل لم يحصل.. بل لم تزد الأيام طين النصرانية إلا بلة..

فهذه الديانة الجديدة التي نسخت دين المسيح.. والتي انحنت أمام كل التيارات الوثنية.. غرقت في متاهات سياسية وعنصرية وطائفية حولتها إلى ديانات كثيرة تغذي الصراعات بينها.. كما نص القرآن على ذلك في قوله:﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧)﴾(مريم)

لقد وقع انقسام خطير في هذه التصورات الجديدة..

فقالت فرقة: إن المسيح إنسان محض..

وقالت فرقة: إن الأب والابن وروح القدس إن هي إلا صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس.. فالله ـــ بزعمهم ـــ مركب من أقانيم ثلاثة: الأب وروح القدس.. فانحدر الله، الذي هو الأب، في صورة روح القدس وتجسد في مريم إنساناً، وولد منها في صورة يسوع..

وقالت فرقة: إن الابن ليس أزلياً كالأب بل هو مخلوق من قبل العالم، ولذلك هو دون الأب وخاضع له.

وفرقة أنكرت كون روح القدس أقنوماً.

وقرر مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية، ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ أن الابن وروح القدس مساويان للأب في وحدة اللاهوت، وأن الابن قد ولد منذ الأزل من الأب، وأن روح القدس منبثق من الأب.

وقرر مجمع طليطلة سنة ٥٨٩ بأن روح القدس منبثق من الابن أيضاً.. فاختلفت الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية عند هذه النقطة وظلتا مختلفتين..

كذلك ألهت جماعة منهم مريم كما ألّهو المسيح[1].

يقول (سيرت. و. أرنولد) في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) عن هذا الخلاف، ومحاولة هرقل لتسويته بمذهب وسط:« لقد أفلح جستنيان Justinian قبل الفتح الإسلامي بمئة عام في أن يكسب الإمبراطورية الرومانية مظهراً من مظاهر الوحدة. ولكنها سرعان ما تصدعت بعد موته، وأصبحت في حاجة ماسة إلى شعور قومي مشترك، يربط بين الولايات وحاضرة الدولة. أما هرقل فقد بذل جهوداً لم تصادف نجاحاً كاملاً في إعادة ربط الشام بالحكومة المركزية. ولكن ما اتخذه من وسائل عامة في سبيل التوفيق قد أدى لسوء الحظ إلى زيادة الانقسام بدلاً من القضاء عليه. و لم يكن ثمة ما يقوم مقام الشعور بالقومية سوى العواطف الدينية. فحاول

---

(١) انظر: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته لسيد قطب.

بتفسيره العقيدة تفسيراً يستعين به على تهدئة النفوس، أن يقف كل ما يمكن أن يشجر بعد ذلك بين الطوائف المتناحرة من خصومات، وأن يوحد بين الخارجين على الدين وبين الكنيسة الأرثوذكسية، وبينهم وبين الحكومة المركزية.

وكان مجمع خلقيدونه قد أعلن في سنة ٤٥١م أن المسيح ينبغي أن يعترف بأنه يتمثل في طبيعتين، لا اختلاط بينهما، ولا تغير ولا تجزؤ، ولا انفصال. ولا يمكن أن ينتفي اختلافهما بسبب اتحادهما. بل الأحرى أن تحتفظ كل طبيعة منهما بخصائصها، وتجتمع في أقنوم واحد، وجسد واحد، لا كما لو كانت متجزئة أو منفصلة في أقنومين. بل متجمعة في أقنوم واحد: هو ذلك الابن الواحد والله والكلمة.

وقد رفض اليعاقبة هذا المجمع. وكانوا لا يعترفون في المسيح إلا بطبيعة واحدة. وقالوا: إنه مركب الأقاليم، له كل الصفات الإلهية والبشرية. ولكن المادة التي تحمل هذه الصفات لم تعد ثنائية، بل أصبحت وحدة مركبة الأقانيم.

وكان الجدل قد احتدم قرابة قرنين من الزمان بين طائفة الأرثوذكس وبين اليعاقبة الذين ازدهروا بوجه خاص في مصر والشام، والبلاد الخارجة عن نطاق الإمبراطورية البيزنطيةن في الوقت الذي سعى فيه هرقل في إصلاح ذات البين عن طريق المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة: Monotheletism: ففي الوقت الذي نجد هذا المذهب يعترف بوجود الطبيعتين، إذا به يتمسك بوحدة الأقنوم في حياة المسيح البشرية. وذلك بإنكاره وجود نوعين من الحياة في أقنوم واحد. فالمسيح الواحد، الذي هو ابن الله، يحقق الجانب الإنساني، والجانب الإلهي. بقوة إلهية إنسانية واحدة. ومعنى ذلك أنه لا يوجد سوى إرادة واحدة في الكلمة المتجسدة.

لكن هرقل قد لقي المصير الذي انتهى إليه كثيرون جداً ممن كانوا يأملون أن يقيموا دعائم السلام، ذلك أن الجدل لم يحتدم مرة أخرى كأعنف ما يكون الاحتدام فحسب. بل إن هرقل نفسه قد وصم بالإلحاد، وجر على نفسه سخط الطائفتين سواء»[1]

سكت قليلا، ثم قال: لقد أجريت بحثا مقارنا بين معتقداتنا ــ نحن المسيحيين ــ وبين العقائد الوثنية فوجدت شيئا عجيبا.

قلت: ما وجدت؟

قال: لقد وجدت مقاربات كثيرة تحيل أن يكون مصدر عقائدنا هو المسيح، فقد ظهرت عقيدة التثليث ــ أو الآلهة المثلثة ــ في وقت مبكرا جدا، وعلى مستوى بدائي.. بل كانت هذه الآلهة المثلثة ليست آلهة ثلاثة مختلفة أو مستقلة عن بعضها، بل بينها علاقة وثيقة كالعلاقة بين الأقانيم عندنا.

وسأسوق لك من الأمثلة ما يكون برهانا جليا لك على ذلك:

فالآلهة البابلية المثلثة: أنو، بل، أيا، كان (أيا) رمزا للمعرفة، وكان والد بل (الآب) الذي كان يمثل النشاط العملي.

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، من الترجمة العربية للدكتور حسن إبراهيم حسن وزميليه.ص ٥٢.

وهناك ثلاثة آلهة بابلية أخرى هي سن (القمر)، وأداد (العاصفة)، وهنا نجد أن (أداد) هو ابن الآب (أنو)، وفي حكم نبوخذ نصر صار (أداد) رب السماء والأرض، ثم اتضحت العلاقة بين الآب والابن في أيام حمورابي حيث نجد (مردوك بن أيا) يأخذ القوة من الإله (بل)، ويبعده إلى الظل، وكان (أيا) والدا عامرا بالمحبة لابنه الذي يعطيه قوته وحقوقه، أما مردوك فهو أصلاً إله الشمس وكانت له مرتبة (الآب) بينما كان (أيا) وسيطا بين الآب وبين ابشر. وقد قال (أيا) أن كل ما يعرفه هو يعرفه ابنه أيضاً.

ثم يبرز مردوك في صراعه مع (تياماتا) إلهاً مخلّصا، فهو الرب الذي يحب إيقاظ الموتى، والمخلص الحقيقي للبشرية. وكانت هذه الأفكار عن المخلص قد انتشرت في أرجاء البلاد البابلية كلها وما تزال منتشرة إلى الآن عند ورثة هذه الديانات.

بالإضافة إلى هذا، فقد كانت هناك آلهة بابلية مثلثة أخرى مثل: سن (القمر) وشمش (الشمس) ثم عشتار التي تحتل مكان الإله أداد، ولقد ثبت أن الآلهة المثلثة كانت عقيدة لاهوتية أكثر مما كانت قوة حية.

هذا في بابل..

أما في مصر، فقد تطورت فيها الأفكار البدائية في الدين البابلي.. فاللاهوت المصري القديم كان يصر على الوحدة الجوهرية التي كان فيها الفرعون المصري يجمع بين الأب والابن في الألوهة البابلية.

وكان العالم الألماني جاكوبسون قد أشار إلى ذلك في دراسة مهمة، وذلك في كتابه (دراسة العقائد الدينية عند ملوك مصر)، فقد ذكر أن الشخص الثالث بين الأب والابن المجتمعين في شخص الملك هو (كع- موتف)، وهذه عبارة تعني (ثور أمه).

و(كع) هي القوة الخلاقة، وبواسطتها يتحد الآب بالابن على شكل وحدة مؤلفة من الله والملك كع لا على شكل تثليث، وبهذا ــ كما يقول جاكوبسون ــ نستطيع الحديث عن وحدة مثلثة يكون فيها الآب هو الله، والملك هو الابن، و كع هو حلقة الوصل بينهما.

وفي نهاية كتابه يعقد جاكوبسون مقارنة بين هذه الفكرة المصرية، وبين العقيدة المسيحية، ثم يستشهد بكاتب آخر يدعى بارت، كان قد درس التثليث المسيحي.

ويقول جاكوبسون:« إن الروح القدس عند المسيحيين يوازي (كع) عند المصريين، وبه يتحد الآب بالابن فالولادة الإلهية للفرعون تتم عبر (كع)، وذلك من خلال أم بشرية للملك، غير أن هذه الأم ــ كما عند المسيحيين ــ تبقى خارج إِطار التثليث، وهكذا نجد عند الأقباط المصريين في فجر المسيحية هذا التأثر، فقد نقلوا الأفكار المصرية القديمة حول (كع) وألبسوها لروح القدس »

وفي بعض الكتب القبطية القديمة ككتاب (Pistis Sofia) ــ الذي اكتشف في نجع حمادي عام ١٩٤٥، والذي يعود للقرن الثالث الميلادي ــ نرى أن الأقباط كانوا يسمون الروح القدس بــ (كع)، كما كانوا يجعلونه أحياناً شبيهاً بالمسيح.

وفي النصوص المصرية القديمة وصف لولادة الابن الإلهي، وهم يجعلونه أحياناً في حورس الإله، وكيف يقول الأب عن الابن:« لسوف يُمارس ملكا مباركاً في هذه الأرض لأني وضعت روحي فيه »، ويقول

للابن:« إنك ابن جسدي الذي أنجبت».. إن هذا نفسه ما ورد في رسالة بولس إلى العبرانيين (١/٥):« أنت إبني أنا اليوم ولدتك»

وإذا كانت الشمس التي يرثها ابن حورس عن أبيه تبرز فيه من جديد ويقول:« إن عينيه هما الشمس والقمر وهما عينا حورس »، فإننا نقرأ في ملاخي (٤/٢):« ولكم أيها المتقون اسمي تشرق شمس البر والشفاء في أجنحتها » وهذا يشير إلى أجنحة قرص الشمس عند قدامى المصريين.

لقد انتقلت هذه الأفكار إلى التوفيقية الهيلينية، ثم انتقلت بعد ذلك إلى المسيحية عبر فيلون السكندري وبلوتارخ.

لهذا لا بد من القول أنه لا صحة لما يقول اللاهوتيون المسيحيون المعاصرون حين يزعمون أن مصر القديمة لم يكن لها أثر على قيام الأفكار والعقائد المسيحية.

إنني أرى الأمر على نقيض ما يقولونه، فمن المستحيل أن تكون الأفكار البابلية هي الأفكار الوحيدة التي دخلت فلسطين، سيما وأن فلسطين خضعت للسيادة المصرية فترة طويلة، وكانت لها علاقة وثيقة مع جارتها القوية (مصر)، وخاصة عندما كان هناك جالية يهودية في الإسكندرية قبل ولادة المسيح ببضعة قرون، إنني لا أفهم كيف أن البروتستانت اللاهوتيين يعملون المستحيل لإقناعنا بأن الأفكار المسيحية (الحالية) هبطت من السماء و لم تتأثر بشيء قبلها.

بالإضافة إلى هذه التأثيرات الوثنية.. فقد كان هناك **تأثير يوناني** لا شك فيه.

وقد ابتدأ هذا النوع من التأثير في إنجيل يوحنا المعروف بنزعته الغنوصية.. أما لاحقاً في زمن آباء الكنيسة اليونان، فإن الروح الفلسفية اليونانية راحت توسع المضمون الأصيل للوحي، وتشرحه انطلاقاً من أفكارها ومبادئها.

لقد كان فيثاغورس ومدرسته قد أثرا تأثيراً كبيراً على صياغة الفكر اليوناني التثليثي، وبما أن جزءا من مبدأ التثليث يقوم على رمزية الأعداد، فإنه من اللازم علينا أن نفحص النظام الفيثاغوري للأعداد، وأن نرى ما يتضمنه هذا النظام وما يقوله عن الأعداد الثلاثة الرئيسية التي تعنينا هنا.

قال الكاتب الألماني زيللر في كتابه (تاريخ الفلسفة اليونانية):« الواحد هو الأول الذي تصدر عنه كل الأعداد، وبالتالي فإنه تتحد فيه الخصائص المتناقضة للأعداد المزدوجة والمفردة، والعدد اثنان هو أول عدد مزدوج، أما الثلاثة فإنه أول عدد مفرد كامل لأنه أول عدد يتضمن بداية ووسطاً ونهاية »[١]

لقد أثرت آراء الفلاسفة الفيثاغورسيين بأفلاطون تاثيرا كبيرا، كما نرى ذلك في طيماوس، وبما أن هذا التأثير قد أوغل بعيدا في ترك بصماته على التصورات الفلسفية اللاحقة، فإنه لا بد لنا من أن ندرس تصورات الأعداد لدى اليونان دراسة نفسية أعمق.

إن للعدد واحد اعتبارا خاصا، وهذا ما نلحظه في الفلسفة الطبيعية للقرون الوسطي، ووفقا لهذه الفلسفة

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية:١/٤٢٩.

فإن الواحد ليس عددا على الإطلاق.. إن العدد الأول هو الاثنان، ففيه حصل الافتراق والضرب، ثم إنه وحده جعل مسألة العد ممكنة.

ومع ظهور العدد اثنين يظهر الآخر إلى جانب الواحد، وهذا حدث مثير بحيث أن كثيراً من اللغات تستخدم كلمتي (الآخر) و (الثاني) بمعنى واحد.

ثم إن فكرة اليسار واليمين مرتبطة أيضاً بالعدد (اثنين)، وكذلك الأمر بالنسبة للحسن والقبيح، والصالح والطالح. وقد يكون لـــ (الآخر) معنى (مشئوم)، أو أن المرء يشعر بأنه معاد، أو غير أليف.

وهنالك سيميائي من القرون الوسطي كتب يقول انطلاقا من تلك النظرة: لهذا السبب لم يشأ الله أن يُمدح في اليوم الثاني للخلق، لأنه في ذلك النهار (الاثنين، نهار القمر) خلق الشيطان، إن العدد اثنين يتضمن معنى الواحد المختلف (أي العدد الثاني: اثنين) ويتميز عن العدد الواحد اللاعددي، وبتعبير آخر فإنه حالما يظهر العدد فإن ثمة وحدة تصدر عن الوحدة الأصيلة، وهي أصلاً الوحدة التي انشطرت إلى اثنين وتحولت إلى عدد.

إن (الواحد) والآخر يشكلان تضادا، أما الواحد والاثنين فمجرد أعداد لا تتميز إلا بقيمتها الرياضية، غير أن الواحد يحاول أن يتمسك بوجوده الواحد، بينما يناضل الآخر لأن يكون وجودا مضادا للواحد، والواحد يعمل على عدم إخراج الآخر لأنه إذا فعل ذلك فإنه يفقد ميزته بينما نرى الآخر يدفع بنفسه بعيدا عن الواحد في محاولة من أجل أن يظهر في الوجود، وهنا يتأزم التضاد بين الواحد والآخر.

غير أن كل تأزم بين التناقضات تتأوج في حل يخرج منه الثالث.. ففي الثالث ينحل التناقض، وتعود الوحدة المفقودة.

والوحدة، أي الواحد المطلق، لا يمكن عدها، فهي لا تعرف ولا تعرف، وهي لا تعرف إلا حين تبرز كوحدة، أي كالعدد واحد، وذلك لأن الآخر المطلوب من أجل فعل المعرفة هذا ناقص في شرط الواحد.

والعدد ثلاثة هو كشف الواحد لوضع يمكن أن يعرف فيه، وبذلك تصبح الوحدة قابلة للمعرفة، والثلاثة أيضاً تظهر أيضا مرادفاً ملائما لعملية التطور في الزمن، وبالتالي فإنها تشكل ما يعين على الكشف الذاتي الألوهة باعتبارها الواحد المطلق الذي تم الكشف عنه عبر الثلاثة.

وعلاقة الثلاثة بالواحد يمكن التعبير عنها من خلال مثلث متساوي الأضلاع، أي عبر تطابق الثلاثة.

وهذه الفكرة الذهنية للمثلث المتساوي الأضلاع ليست إلا نموذجاً تخيليا للفكرة المنطقية حول التثليث.

وبالإضافة إلى التأويل الفيثاغوري للأعداد، فإن هناك ـــ في الفلسفة اليونانية ـــ مصادر أكثر مباشرة لعقيدة التثليث المسيحية، وهو كتاب (طيماوس) لأفلاطون.

فقد ورد في المقطعين ٣١ ب و٣٢أ قوله:« وإذن فحين ابتدأ الله بصياغة جسد الكون راح يصنعه من النار والتراب، وبما أنه لا يمكن الجمع بين شيئين جمعا سليما بدون الاستعانة بثالث يربط بينهما ويشدهما إلى بعضهما، وأن أفضل هذه الروابط هي تلك التي تتحد مع العنصرين اللذين تجمع بينهما وتجعل من الثلاثة واحداً بكل معنى الكلمة. إن هذا الرابط ينتمي إلى طبيعة البعد الهندسي الذي يمكن أن يصنع هذا الكمال..

ولهذه الحجة أفكار ذات عواقب نفسية بعيدة المدى، فإذا كان مضادان بسيطان مثل النار والتراب

مرتبطين برابط، و إذا كان هذا الرابط هندسيا، فإن رابطا واحدا يستطيع أن يربط بين الأشكال المسطحة فقط، بينما نحتاج إلى رابطين للربط بين جسمين صلبين، و إذا افترضنا أن جسد الكون مساحة مسطحة لا عمق لها فإن رابطا واحدا يكفي، لكن للعالم في الواقع شكلاً صلبا، والأجسام الصلبة بحاجة إلى رابطين.. ومن هنا فإن الرابط ذا البعدين ليس بحقيقة فيزيائية لأنه مسطح لا امتداد له في البعد الثالث (العمق) وهو تفكير مجرد، و إذا أراد أن يكون حقيقة فيزيائية فإن المطلوب ثلاثة أبعاد ورابطان.

لكل هذا وضع الله الماء والهواء بين النار والتراب، وجعلهما متناسقين قدر الإمكان بحيث يمكن أن تكون النار للهواء كما يكون الهواء للماء، ويكون الهواء للماء كما الهواء للتراب، بذلك أحكم الله خلق هذا العالم المرئي المحسوس، وانطلاقاً من هذه الأسباب وهذه المركبات الأربعة (عدديا) خلق العالم بأحجام متناسبة، وانطلاقا من هذه الأحجام صار العالم مفهوماً، وصار متحدا مع نفسه، كما صار من المستحيل تفكيكه من قبل أية قوة أخرى إلاه »

إننا هنا نواجه طريقا مسدودا يصطدم فيه العدد ثلاثة للأقانيم المسيحية بالعدد أربعة للعناصر الأفلاطونية، وهذا هو مأزق الثلاثة والأربعة التي يشير إليها أفلاطون في مقدمة طيماوس.

وكان غوتيه قد التقط هذا بالحدس أثناء حديثه عن البطل الرابع في فاوست:« لقد كان (هذا البطل الرابع في الترتيب العددي) هو الشخص المناسب الذي يفكر عنهم جميعا »، كذلك فإنك « تستطيع أن تتساءل على جبل أوليمبوس (جبل الآلهة اليونانية) عن الثامن الذي لم يكن يفكر فيه أحد »

ومن الجدير بنا هنا أن نشير إلى أن أفلاطون بدأ بحثه بأن صور لنا اتحاد الضدين في بعديهما، وعرض لنا هذه المشكلة باعتبارها مشكلة فكرية يمكن حلها بواسطة التفكير، لكن أفلاطون اكتشف أن حل هذه المشكلة لا يتماشى مع الواقع أبداً، فالحالة الأولى تتعلق بتثليث قائم بحد ذاته، أما الحالة الثانية فخاصة بالتربيع.

وتلك هي المعضلة التي حيرت السيميائيين أكثر من ألف سنة وكانت تُسمى ببديهية (العرافة ماريا) التي كانت يهودية أو قبطية، وتظهر أيضاً في الأحلام الحديثة..

من هنا يمكن فهم الكلمات التي افتتح بها أفلاطون طيماوس:« واحد- اثنان- ثلاثة- ولكن أين هو الرابع يا عزيزي طيماوس؟»

ومثل هذه العبارة تبدو أليفة لسمع عالم النفس والسيميائي معا، ولا شك في أن أفلاطون كان بالنسبة لهؤلاء كما كان بالنسبة لغوتيه أيضاً يشير إلى سرّ دفين..

وقد عرف أفلاطون من تجربته الخاصة صعوبة الانتقال من التفكير ببعدين إلى تحقيقه بثلاثة أبعاد واقعية، وكان قد اختلف في هذا الأمر مع صديقه ديونيزوس العجوز الطاغية السراقسي الذي احتال عليه وأراد أن يبيعه عبدا فلم ينج من هذه المكيدة إلا بعد أن افتداه أصدقاؤه.

وقد أخفق أفلاطون بعد ذلك في تطبيق نظرياته السياسية تحت حكم ديونيزوس الأصغر، ومن يومها تخلى عن طموحاته السياسية، وبدت له الميتافيزيقا أرحب من هذا العالم الذي لا يحكم، فقد كان يركز على عالم الفكر ذي البعدين، وهذا ينطبق بخاصة على طيماوس الذي كتبه أفلاطون بعد خيبة أمله السياسية.

ومن المعروف أن طيماوس آخر أعمال أفلاطون، والواقع أن الكلمة التي افتتح بها كتابه هذا لم تكن دليلا على مرحه ولا تعزى إلى المصادفة وحدها، بل كانت تحمل معنى مأساويا. إن واحدا من العناصر الأربعة غائب لأنه (غير مناسب)

على أن التاريخ في اقترابه من بداية عصرنا صار يرينا الآلهة تزداد تجريدا وروحانية، حتى يهوه نفسه انصاع لهذا التحول. وفي آخر قرن سبق ولادة المسيح رحنا نشهد في الفلسفة الإسكندرية على تبدل هذه الطبيعة وعلى ظهور مفهومين جديدين للألوهة هما (الكلمة) و(الحكمة) راحا يشاركان يهوه في ألوهيته. وقد ألف الثلاثة معا ثالوثا قدم سابقة واضحة جداً للتثليث الذي تبنته المسيحية بعد المسيح.

قلت: أراك تبحث عن أي دين أو فلسفة لتنسب للمسيحية التأثر بها؟

قال: ذلك هو الواقع.. فالتثليث ليس فكرة مسيحية أساسا، وإنما جاء من الأديان الوثنية القديمة.. فأفكار التثليث كانت تنبع من لا وعي الناس في آسيا الصغرى وحدها، وكانت هذه الأفكار تبرز هنا وهناك في أماكن مختلفة من الأرض.

ولهذا لم يشعر آباء الكنيسة بالراحة إلا بعد أن أعادوا بناء عمارة التثليث على غرار نموذجها المصري الأصيل، وهو ما تم نقله أيضا لمريم العذراء عندما أعلن مجمع أفسوس في عام ٤٣١ ميلادي أن مريم العذراء (ولدت الإلة)، وقد تم إعلان ذلك في المكان الذي كان يشهد ترانيم المجد للمعبودة المتعددة الأثداء (ديانا)

وهنا لا بد من ذكر الأساطير التي شاعت بعد المسيح، والتي كانت تقول أن مريم لجأت مع الحواري يوحنا إلى أفسوس حيث ماتت هناك، وأفسوس كانت تعبد ديانا.

ويروي لنا الكاتب المسيحي أبيفانيوس أن نحلة دينية جديدة ظهرت في تلك الفترة وراحت تعبد مريم على غرار عبادة الآلهة الوثنية القديمة، وكانت هذه النحلة تدعى الكولليديين. وانتشرت عبادة مريم في بعض المناطق المعينة مثل الجزيرة العربية وتراقيا وسيثيا Scythia وكان معظم أتباع هذه النحلة من النساء.

لقد أشار القرآن إلى هذه النحلة[١]، فقال:﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾(المائدة)

لقد هاجم الكاتب ابيفانيوس أتباع هذه النحلة، ووجه لومه إلى النساء بخاصة فاتهمهن بأنهن (صغيرات العقول)، ثم قال ابيفانيوس في كتابه (نقض مبادىء الفكر الثمانية):« كانت هناك معابد خاصة شيدت لمريم، كما كان لها كاهنات يحتفلن في أيام معلومة، فيزيّن العربات بالقطن ويضعن على مقاعد العربة لحماً مشويا يقدم لمريم، وبعد ذلك يتناولن الطعام معها، وكانت هذه الاحتفالات تشبه القرابين ويقدم فيها اللحم والخبز أيضاً »

وقد هاجم هذا الكاتب عبادة مريم بعنف قائلًا:« أكرموا مريم ودعوها لشأنها ولا تعبدوا إلا الأب والابن

---

(١) وفي هذا رد بليغ على الشبهة التي يوردها البعض، وهي أن المسيحيين لا يؤلهون العذراء ــ عليها السلام ــ

والروح القدس. أما مريم فلا تدعوا أحدا يعبدها »

الشعائر:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن مدى صمود شعائرنا المقدسة.

ابتسم، وقال: ومتى صمدت شعائرنا حتى نسميها مقدسة.. إن كل ما أعرفه من شعائر بدع حادثة لم يفعلها المسيح.. ولا أحسب أن أحدا من الحواريين فعلها.

لقد بدأ أول انتهاك لشعائرنا بانتهاك بولس ليوم السبت فمع أنه ورد في الكتاب المقدس أن تعظيم السبت كان حكماً أبدياً في الشريعة الموسوية، وما كان لأحد أن يعمل فيه أدنى عمل، كما ورد في (التكوين ٢ / ٣):« وَبَارَكَ اللهُ الْيَوْمَ السَّابِعَ وَقَدَّسَهُ، لأَنَّهُ اسْتَرَاحَ فِيهِ مِنْ جَمِيعِ أَعْمَالِ الْخَلْقِ »، وفي (اللاويين ١٩ /٣):« لِيُوَقِّرْ كُلُّ إِنْسَانٍ أُمَّهُ وَأَبَاهُ، وَرَاعُوا سُبُوتِي. فَأَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ »، وفي (التثنية ٥ /١٢ — ١٥):« احْفَظْ يَوْمَ السَّبْتِ مُقَدَّساً كَمَا أَوْصَاكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ. سِتَّةَ أَيَّامٍ تَشْتَغِلُ وَتَقُومُ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكَ، وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَيَكُونُ يَوْمَ رَاحَةٍ لِلرَّبِّ إِلَهِكَ، لاَ تَقُومُ فِيهِ بِأَيِّ عَمَلٍ أَنْتَ وَابْنُكَ وَابْنَتُكَ وَعَبْدُكَ وَأَمَتُكَ وَثَوْرُكَ وَحِمَارُكَ وَكُلُّ بَهَائِمِكَ، وَالأَجْنَبِيُّ الْمُقِيمُ دَاخِلَ أَبْوَابِكَ، لِيَسْتَرِيحَ عَبْدُكَ وَأَمَتُكَ مِثْلَكَ. وَتَذَكَّرْ أَنَّكَ كُنْتَ عَبْداً فِي دِيَارِ مِصْرَ، فَأَطْلَقَكَ الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ بِقُدْرَةٍ فَائِقَةٍ وَقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ، لِهَذَا أَوْصَاكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ أَنْ تَرْتَاحَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ »، وفي (حزقيال ٢٠ /١٢):« وَأَعْطَيْتُهُمْ كَذَلِكَ سُبُوتِي لِتَكُونَ عَلاَمَةً بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ لِيُدْرِكُوا أَنِّي أَنَا الرَّبُّ الَّذِي أُقَدِّسُهُمْ »

وفي (الخروج ٣١ /١٣ — ١٧) ما يؤكد ديمومته وعدم إمكانية نسخه، ففيه:« قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: احْفَظُوا أَيَّامَ سُبُوتِي لأَنَّهَا عَلاَمَةُ الْعَهْدِ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، عَلَى مَرِّ الأَجْيَالِ، لِتَعْلَمُوا أَنِّي أَنَا الرَّبُّ الَّذِي يُقَدِّسُكُمْ. حْفَظُوا يَوْمَ السَّبْتِ لأَنَّهُ مُقَدَّسٌ لَكُمْ. مَنْ يُدَنِّسْهُ حَتْماً يَمُتْ. فَكُلُّ مَنْ يَقُومُ فِيهِ بِعَمَلٍ، تُسْتَأْصَلُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهَا. فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ تَعْمَلُونَ، أَمَّا يَوْمُ السَّبْتِ فَهُوَ يَوْمُ عُطْلَةٍ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ. كُلُّ مَنْ يَقُومُ بِعَمَلٍ فِي يَوْمِ السَّبْتِ يُقْتَلُ حَتْماً. لِيَحْفَظْ بَنُو إِسْرَائِيلَ السَّبْتَ وَيَحْتَفِلُوا بِهِ فِي كُلِّ أَجْيَالِهِمْ عَهْداً أَبَدِيّاً. هُوَ بَيْنِي وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلاَمَةُ عَهْدٍ إِلَى الأَبَدِ، لأَنَّهُ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ صَنَعَ الرَّبُّ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ، وَفِي الْيَوْمِ السَّابِعِ فَرَغَ مِنَ الْعَمَلِ وَاسْتَرَاحَ »

ولم يرد عن المسيح أي نسخ لهذا الحكم.. بل استمر يعظم السبت مما يعظمه اليهود إلا أن بولس نقض ذلك وبدله.. لقد قال في رسالته إلى كولوسي [٢ /١٦ - ١٧]:« فلاَ يَحْكُمْ عَلَيْكُمْ أَحَدٌ فِي قَضِيَّةِ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ، أَوْ فِي الْقَضَايَا الْمُتَعَلِّقَةِ بِالأَعْيَادِ وَرُؤُوسِ الشُّهُورِ وَالسُّبُوتِ؛ فَهَذِهِ كَانَتْ ظِلاَلاً لِمَا سَيَأْتِي، أَيْ لِلْحَقِيقَةِ الَّتِي هِيَ الْمَسِيحُ »

وقال في رسالته إلى (العبرانيين ٧/ ١٨-١٩):« فَإِنَّهُ يَصِيرُ إِبْطَالُ الْوَصِيَّةِ السَّابِقَةِ مِنْ أَجْلِ ضُعْفِهَا وَعَدَمِ نَفْعِهَا، إِذِ النَّامُوسُ لَمْ يُكَمِّلْ شَيْئاً. وَلَكِنْ يَصِيرُ إِدْخَالُ رَجَاءٍ أَفْضَلَ بِهِ نَقْتَرِبُ إِلَى اللهِ »

هذه البداية فقط.. أما ما حصل بعدها.. فلا يمكن تصوره.

قلت: ما هو السر الذي تراه في ذلك؟

نظر إلى الشجرة الراسخة في الأرض بعمق، ثم قال: لقد أخبرنا القرآن بالسر الذي حصل بسببه ذلك،

لقد قال:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾(آل عمران)

أتدري السر المودع في قوله:﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾؟

لقد وضع القرآن يده على سر شقاء المسيحية، وسر انحرافها الخطير.. إنه تأليه الكنيسة لنفسها..

قلت: الكنيسة لا تفعل هذا..

قال: إنها تمارس من السلطات ما ليس إلا لله.. وبذلك تؤله نفسها من حيث لا تشعر..

لقد قرأت الكتاب المقدس مرات كثيرة لا يمكنني عدها.. ولكني لم أجد شيئا من الشعائر التي نمارسها في كنائسنا.. وكل ذلك بسبب تأليهنا لرجال ديننا، وإعطائهم سلطات تجعل لهم الحق في نسخ تعاليم الكتاب المقدس.

قلت: هل تسمح بذكر أمثلة تثبت هذا؟

قال: كل ما يمارس في الكنيسة أمثلة على هذا.. وسأذكر لك ما تقر به عينك، وتعلم أن ما يمارس فيها هرطقات وبدع ما جاء بها المسيح.

لاشك أنك تعرف (الإفخارسيتا)[1]..

---

(١) وهي شعيرة مستحدثة ما جاء بها (الكتاب المقدس)، وما تعرض لها المسيحيون الأولون، ولا (المجامع المقدسة) الأولى.. وفيها يأكل المسيحيون في الفصح خبزاً، ويشربون خمراً، ويسمون ذلك (العشاء الرباني)، وقد زعمت الكنيسة أن ذلك الخبز يستحيل إلى جسد المسيح وذلك الخمر يستحيل إلى دم المسيح المسفوك، فمن أكلهما وقد استحالا هذه الاستحالة فقد ادخل المسيح في جسده، بلحمه ودمه..

ويستندون في ذلك إلى ما ورد في إنجيل متى على لسان المسيح:« خذوا كلوا. هذا هو جسدي. وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمي» (متى:٢٦/٢٦– ٢٨)

ويُقال إن بعض أتباعه تخلوا عنه عندما قال هذا الكلام، وقالوا على ما ورد في إنجيل يوحنا (٦/٥٣– ٦٦):« فخاصم اليهود بعضهم بعضا كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل. فقال لهم يسوع: الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم. من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير، لأن جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق. من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنه فيه. كما أرسلني الآب الحي وأنا حي بالآب فمن يأكلني فهو يحيا بي. هذا هو الخبز الذي نزل من السماء. ليس كما أكل آباؤكم المن وماتوا. من يأكل هذا الخبز فإنه يحيا إلى الأبد.. فقال كثيرٌ من تلاميذه إذ سمعوا: إن هذا الكلام صعب. من يقدر أن يسمعه. فعلم يسوع في نفسه أن تلاميذه يتذمرون على هذا فقال لهم: أهذا يعثركم، فإن رأيتم ابن الإنسان صاعدا إلى حيث كان أولا، الروح هو الذي يُحيي أما الجسد فلا يفيد شيئا. الكلام الذي أُكلمكم به هو روح وحياةّ. ولكن منكم قوم لا يؤمنون »

وعندما قام الإصلاح البروتستانتي قامت ثورته على رفض هذه العبارة التي تتردد في القداس الكاثوليكي، وكان الخلاف يدور حول الإجابة عن السؤال التالي: ما هي طبيعة القربان تماماً، هل يجب اعتباره ماديا أم يجب اعتباره روحيا خالصاً؟ غير أن نصوص الأناجيل الأربعة الرسمية ورسائل القديس بولس ــ على حسب قول الكاثوليك ــ تدل على أن هذا الطقس أقيم على أساس حسي مادي.

قلت: وكيف لا أعرفها.. وهي من أقدس مقدساتنا.

ابتسم، وقال: أي قوّة استودعت في سلطان الكهنة حتى صار بموجبها يحوّل القربان أو خبز التقدمة والخمر إلى جسد يسوع وروحه ودمه ولاهوته المزعوم[1]!؟

سكت، فقال: بحسب هذا السر، فإن الرب يحضر بشخصه في القداس الإلهي، ويحل فى القربان المقدس، ويتحول الخبز الى جسده الحقيقى والخمر الى دمه الحقيقى.

يقول العّلامة الأنبا غريغورس في كتابه (سرّ القربان):« بصلوات الكاهن المرتّبة والقداس الإلهي على الخبز والخمر يحلّ الروح القدس عليها، فيتحوّل ويتبدّل جوهر الخبز إلى جسد المسيح، وجوهر الخمر إلى دمه »[2]

وفي القداس القبطي عندما يتلو الكاهن الاعتراف الأخير، وهو يحمل الصينية المقدسة على يديه يقول:« أمين أمين أمين أؤمن أؤمن أؤمن أؤمن وأعترف إلى النفس الأخير أنّ هذا (مشيراً إلى الخبز) هو الجسد المحيي الذي أخذه ابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح من سيدتنا وملكتنا كلّنا والدة الإله القديسة مريم الطاهرة وجعله واحداً مع لاهوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير واعترف الاعتراف الحسن أمام بيلاطس البنطي وأسلمه عنّا على خشبة الصليب المقدس بإرادته وحده عنّا كلنا.. بالحقيقة أؤمن أنّ لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين ويعطي عنا خلاصاً وغفراناً للخطايا، وحياةً أبديةً لمن يتناول منه.. أؤمن أؤمن أؤمن أنّ هذا هو بالحقيقة آمين »

وفي الخولاجي المقدس (الباسيلي) عندما يتلو الكاهن التقليدي صلاة حلول الروح القدس سرّاً على الخبز والخمر يخاطب الآب قائلاً:« ليحلّ روحك القدوس علينا وعلى هذه القرابين الموضوعة.. يطهّرها وينقلها — قدساً لقديسيك »، فهذا الخبز يجعله جسداً مقدساً له، وهذه الكأس أيضاً دماً كريماً لعهده الجديد، يُعطى لغفران الخطايا وحياة أبدية لكلّ من يتناول منه.

يقول صاحب كتاب اللالئ النفيسة وأسرار الكنيسة السبعة:« إنّ ذبيحة الصليب كانت دموية، أما ذبيحة القداس فغير دموية »

وعبارة أخرى تقول:« إنّ ذبيحة الصليب كانت للتكفير عن خطايا العالم ووفاء عدل الله وفاءً أبدياً، وأما ذبيحة القداس فتُقدم استعطافاً لله عن خطايا الذين قُدمت لهم وبواسطتهم ولذلك سمّاها الآباء (ذبيحة استعطاف)، وتطوّر الفكر التقليدي فقال:« إنّ ذبيحة القداس ليست غير ذبيحة الصليب فهما ذبيحة واحدة » لأنه ــ كما يقول مجمع نيقية ــ لا فرق حينئذ بين مسيح يُعلق على الصليب والمسيح المتحوّل في القداس من

ثم ظهرت النزعة إلى إعطائه بعدا روحيا كما يدل على ذلك إنجيل يوحنا، وهو أكثر الأناجيل عمقا و غنوصية.

وإنجيل يوحنا يتجاهل الكلام المنسوب إلى المسيح في العشاء الأخير (حول أكل لحمه وشرب دمه) لكنه في المقابل تضمن خطابا بالغ الأهمية في اليوم التالي لتوزيعه الخبز الذي تكاثر بين يديه بأعجوبة.

(١) وهو سر لدى الأرثوذكس والكاثوليك دون البروتسنت الذين هاجموه بشدة.

(٢) سرّ القربان، طبعة يناير ١٩٦٦، ص١٤.

القربان والخمر.

وهذا السر ـــ كما تعلم ـــ يرفضه البروتستانت مستندين إلى تحذير المسيح ذاته من التردّي في التقاليد، فهو يقول:« فقد أبطلتم وصيّة الله بسبب تقليدكم. يا مراؤون حسناً تنبأ عنكم إشعياء قائلاً.. يقترب إليَّ هذا الشعب بفمه، ويكرمني بشفتيه وأمّا قلبه فمبتعد عني بعيداً وباطلاً يعبدونني وهم يعلّمون تعاليم هي وصايا الناس » (متى ١٥:٦-٩)

أتدري ما سر هذا الحرص على هذه الطقوس المبتدعة؟

صمت، فقال: إنه ما ذكره القرآن.. لقد اختلق التقليديون من الكاثوليك والأرثوذكس هذه الأسرار ليفرضوها على تابعيهم حتى يتسلطوا عليهم، لأنهم ربطوا كل البركات الدنيوية والأبدية بالانصياع لهم وقبول أسرارهم والتي تعتبر كمخدّر لهم حتى لا ينشغلوا عن مطالبتهم بطاعة وصايا الله وفروضه، وحتى تطمئن ضمائرهم المضطربة من جرّاء الدينونة التي تطاردهم بسبب عصيانهم لوصايا الله الصريحة.

اسمع ما يقول أحد مصادرهم.. إنه يذكر (الأســـرار تمنح النعمة من ذاتها وبقوتها..لأن صدور النعمة معلّق على مباشرة السرّ)[١]

فالنعمة ـــ على هذا القول ـــ معطّلة بدون ممارسة هذه الأسرار.

وأنا أتعجب.. وأتساءل: هل يمكن أن يقبل أي عاقل بأن القربان المختمر وخمير العنب يرقى لتمثيل جسد الربّ ودمه الطاهرين؟

لقد أنزل الله تعليمه وإرشاداته الواضحة بخصوص الحمل المقدم في عيد الفصح، وكان يلزم أن يكون الحمل ابن حول واحد بلا عيب صحيحاً، وكذلك خبز التقدمة أو الفطير يكون دقيقاً ملتوتاً بالزيت وليس فيه خميرة البتة، وأيضا عصير العنب يجب أن يكون طازجاً بلا تخمّر يُذكر.

ولكن هؤلاء يصرفون النظر عن تعاليم كتابهم المقدس، ويستخدمون أشياء لا تليق، ثم يدعون بعد كل هذا الخرق أنّ الكاهن، المصرّ على كسر ناموس الله، أُعطِيَ له السلطان أن يحوّلها إلى شخص الإله الكامل القدوس الصالح جسداً وروحاً ودماً ولاهوتاً؟!

ليس هذا فقط.. بل ما أكثر الادّعاءات التي يتمسّك بها من يميلون إلى الاعتقاد بأنّ ما تسلموه من الرسل كان شِفاهاً، وهذا دليل في حدّ ذاته على عدم وجود تأييد كتابي موحى به من الروح القدس. ولو كان هناك وجود للقداس في عهد المسيح ورسله بهذه الأهمية الخطيرة، لازمٍ للغفران والخلاص، لوجدنا سجلاً واضحاً في الإنجيل المقدس وتعليماً صريحاً من الربّ، ومنوالاً واحداً لجميع الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية، وليس

---

(١) حبيب جرجس — أسرار الكنيسة السبعة — الطبعة الخامسة ص٦،١٢ ؛ الافخارستيا والقداس — للقمص متى المسكين ص٢٤.

خمسين قداساً منها أربعة عشر قداساً لكنيسة الحبشة وحدها[1].

وهذه القداسات جميعا لا تتفق مع بعضها، ولا تتفق مع كلام الوحي، وهي مليئة بالأخطاء، ولا علاقة لها بأقوال وتوصيات الربّ، ولا بإرشاد الروح القدس، وحتى مرقس الرسول كان بريئاً منها.

إن هذه القداسات اختُلِقت بعد القرن الرابع الميلادي.. بل إنّ بعض الأسماء الواردة في هذه القدّاسات هي لأناس ولدوا بعد المسيح بأربعة أو خمسة قرون ممّا يكذّب إرجاعها إليه، فكيف يستعمل مرقس قداساً خاصاً بأناس جاءوا بعده بمئات السنين.

يقول الأب متى المسكين في كتابه (الأفخارستيا والقداس):« أول من حدد الأسرار الكنسية بالرقم (٧) هي الكنيسة الكاثوليكية بواسطة أسقف باريس بطرس لمبارد مع غيره، ثم قبلها توما الأقويني وقننها بعد ذلك مجمع فلورنسا سنة ١٤٣٩ م، ثم أخذت الكنيسة البيزنطية هذا التقليد عن الكنيسة الكاثوليكية ودخل هذا التقليد الي الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وأول ذكر لها تحت ايدينا هو ما ورد في المخطوطات المعروفة بإسم (نزهة النفوس) وهي لكاهن مجهول وأقدم مخطوطة معروفة هي الموجودة بدير الأنبا مقار مكتوبة بتاريخ ٢٤ / ٣ / ١٥٦٤ م، ويظن أن مؤلف كتاب (نزهة النفوس) ليس قبطياً أرثوذكسياً لأنه يورد أقوالاً ليوحنا الدمشقي وعلي أي حال لم نجد أي ذكر لتحديد أسرار الكنيسة بالعدد (٧)، سبعة في مخطوط العالم (بن كبر) المعروفة (بمصباح الظلمة في إضاح الخدمة) وهو أهم وأدق من كتب عن الأسرار في القرن الثالث عشر تقريباً وحتي ما ذكر في مخطوط لم يكن سبعة وتفرق ما كتبه في كتابه في كل كتابة وعاش هذا العالم حتي أوائل القرن الرابع عشر »

أما عن الإستحالة، فأول من صرح بها في الكنيسة الغربية باسخاسيوس رادبرتس في منتصف القرن التاسع في كتاب ألفه في جسد الرب ودمه. وفي ذلك قال راترامنس في العناصر مانصه:« أما من جهة الجواهر المادية فكما كانت قبل التقديس لم تزل كذلك بعده »، وفي القرن الحادي عشر قام برانجر وافرغ مجهوده في نفي تلك البدعة علي ان السنودس الروماني أثبته سنة ١٠٧٩ م وأخذ تعليم الإستحالة ينتشر ويقوي إلي أن صرح قانونياً بأنه من الإيمان في المجمع الإتراني الرابع سنة ١٢١٥ م تحت رئاسة البابا أنوسنتيوس الثالث ومن ثم حسب من تعاليم البابوية المقررة وأثبته اللاهوتييون البابوييون بالاجمال ومن اشهرهم توما الإكويني سنة ١٢٧٤ م صاحب كتاب الخلاصة اللاهوتية وبلارمين سنة ١٦٢١ م وسواريز سنة ١٦١٧ م و... غيرهم كثير، أما لفظة الإستحالة فلم تعرف إلا بعد زمان رادبرتس المذكور، بنحو مئتي سنة أي بداءة القرن الثاني عشر ومن ثم

---

(١) وهي: ١–قداس الرسل.. ٢–قداس الربّ.. ٣–قداس القديسة مريم.. ٤–قداس يوحنا ابن الوعد.. ٥–قداس الثلثمائة.. ٦–قداس اثناسيوس.. ٧–قداس باسيليوس.. ٨–قداس غريغوريوس.. ٩–قداس أبيفانيوس.. ١٠–قداس يوحنا فم الذهب.. ١١–قداس كيرلس.. ١٢–قداس يعقوب السرجي.. ١٣–قداس ريتورس.. ١٤–قداس غريغوريوس الثاني..

وقد تقلّص عددها إلى ثلاثة قداسات وهي: ١–قداس باسيليوس.. ٢–قداس غريغوريوس.. ٣–قداس كيرلس.

(انظر: المجموع الصفوي لابن العسال، فصل ١٢ بند ٢٨)

صارت من مصطلحات الكنيسة البابوية.

وبهذا نرى أن النظام الكهنوتي والقداسات لم يكن نظاما وضعه الرسل، بل هو نظام متطور مع مرور السنين إلى أن وصل الينا في هذه الايام بهذا الشكل الكامل المتكامل.

لقد فرضت الكنيسة على الناس قبول هذا الزعم ومنعتهم من مناقشته. وإلا عرضوا أنفسهم للطرد والحرمان.

لقد كانت هذه السخافة محل سخرية رحمة الله الهندي، فقد قال فيها:« ومثل أن كل خبز من الخبزات وإن كانت بمقدار مليونات غير متعددة يستحيل في العشاء الرباني في آن واحد في أمكنة مختلفة إلى المسيح الكامل بلاهوته وناسوته الذي تولد من العذراء إذا فرض أن مليونات من الكهنة في أطراف العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً قدسوا في آن واحد.. ومثل أن خبزاً واحداً إذا كسره الكاهن ولو إلى مائة ألف كسرة يصير كل كسرة منه أيضاً مسيحاً كاملاً وإن كان وجود الحبوب ثم الطحن ثم العجن ثم وجود الخبز ثم الكسرة كلها من الحوادث بمشاهدة فتعطل حكم الحبس عندهم في هذه الأمور كلها »

سكت قليلا، ثم قال: أتدري منشأ هذه البدعة التي تدنست به شعائرنا؟

قلت: وهل أمكنك الوصول إلى معرفة ذلك؟

قال: لست أنا الذي عرف ذلك.. وليس عقلي هو الذي استنتج ذلك.. بل الذي دلنا على ذلك هو الدليل الحسي الذي لا يماري فيه أحد.

لقد قدمت لنا الاكتشافات الأثرية فهماً عميقا جداً للعلاقة الوثيقة بين القداس المسيحي، وبين الأسرار في الديانات الوثنية القديمة.

فمن بين الآثار المكتشفة في بلاد فارس، والموجودة حاليا في متحف اللوفر تمثال لأتباع الإله ميترا نراهم فيه يتناولون الخبز والنبيذ.

وقد وصف الكاتب الفرنسي فرانز كومون في مجلة (علم الآثار) لعام ١٩٤٦ هذا الأثر قائلاً:« نظرا لأن لحم الثور كان صعب المنال أحيانا، فقد اضطر أتباع الإله ميترا إلى استخدام الخبز والنبيذ مكان اللحم، وكانوا يرمزون بذلك إلى لحم معبودهم ميترا ودمه تماماً »

إن ذلك هو نفس ما نقوله.. إننا نرمز اليوم إلى لحم المسيح ودمه بالخبز والخمر.

ليس ذلك فقط..

بل إن القداس ــ بجملة تعقيداته الطقسية ــ لا ينتمي إلى اليهودية، بل تضرب جذوره في أعماق التاريخ الوثني القديم:

لقد كان لكل قبيلة طوطمها الحيواني (معبود حيواني)، وكانت تعتبره إلها، وكان أفراد القبيلة يضحون بهذا الحيوان ويلتهمونه لحما ودما، اعتقادا منهم بأن ذلك سيكسبهم فضائل سماوية، كما تعتقد المسيحية الحالية أن التهام لحم المسيح ودمه سيكسب المؤمنين فضائل غير بشرية خالدة.

وبعض المسيحيين يذهلون ويرفضون مثل هذه المقارنات رفضاً قاطعاً. لكن علينا هنا أن نذكر فقرة

واضحة جداً من رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثوس يتحدث فيها عن أكل اللحوم المذبوحة للآلهة عند الوثنيين، وفي هذا المقطع يحذر بولس قائلاً:« إن ما يذبحه الأمم إنما يذبحونه للشياطين لا لله. فلست أريد أن تكونوا أنتم شركاء الشياطين. لا تقدرون أن تشربوا كأس الرب وكأس شياطين. لا تقدرون أن تشتركوا في مائدة الرب وفي مائدة الشياطين. أم نغير الرب. ألعلنا أقوى منه »

وقد غضب القديس جوستين من هذه المقارنة وقال:« إن المقارنة بين القداس المسيحي والذبائح الوثنية أصلا هي مقارنة شيطانية »

لكن علماء التاريخ والأديان الذين يرفضون المقارنة بين الوثنية والمسيحية هم قلة بين العلماء، ومعظمهم يرى أن أكل اللحم النيىء وشرب الخمر في أسرار ديونيزوس مثلاً لم يكن رمزاً بل كان مناولة حقيقية.

ويقول الكاتب الوثني أرنوب في كتابه (ضد الوثنيين) إن هؤلاء حين كانوا يتناولون اللحم النيىء إنما يعتقدون أنهم يمتلئون بالفضيلة الإلهية. وفي هذا الصدد يقول الأب لاغرانج في كتابه عن أورفيوس:« إن أكل اللحم النيىء كان يهدف إلى التوغل في الحياة الإلهية وذلك بالتهام الحيوان الإلهي لحما ودما »

أما فرانز كومون فيذهب إلى أبعد من ذلك عندما يقول إن نبيذ القربان المسيحي هو بديل للنبيذ الذي كان يقدم في أعياد باخوس وإنه شراب يضمن الخلود في العالم الآخر.

ويذكر العالم الفرنسي شارل غينيبير في كتابه عن المسيح أن علماء الآثار وجدوا نصوصا على ورق البردى من مصر القديمة تدل على أن دم الإله أوزيريس كان يتحول إلى خمر.

وكذلك يقول فرانز كومون في كتابه عن الأديان الشرقية القديمة « أن أتباع أتارغاتيس (المعبودة السورية القديمة) كانوا يلتهمون السمك الذي يقدمونه لها ثم ينشدون أنهم بذلك يتناولون لحم معبودتهم » وهذا ما يفعله المسيحيون في القداس أيضاً.

سكت قليلا، ثم قال: ليس هذا فقط ما يرد به هذا القداس وغيره..

إن نصوص القداس نفسها تناقض تعاليم الكتاب المقدس:

ففيه (اسجدوا لإنجيل ربنا يسوع المسيح)، مع أن المسيح ذاته يرد على هذا الخطأ بقوله في (متى ٤:١٠) لإبليس:« للرب إلهك تسجد وإيّاه وحده تعبد »

وفي القداس يطلب السجود للخبز والخمر، مع أنه قد ورد في الكتاب المقدس:« فلا تكونوا عبدة أوثان » (١ كورنثوس ١:٧)

وفي القدّاس تذكر أسماء (قديسين من طائفتهم) مما يستدعي إضافة أسماء أخرى كلما أضفت هذه الكنيسة صفة القداسة على أناس جدد.

وفي القداس، البَشَرُ (الأكليروس) هم الفاعلون والمؤثرون في الربّ وتغييره وخلقه وليس العكس، فهل عجزت يد الربّ على أن تخلّص؟ أم أنّ فهمهم وقوّة إيمانهم وجبروتهم أصبح يفوق خالقهم الكامل القدوس؟

وفي القداس يطلب أوشية الآباء (السحق والإذلال للأعداء) وهو أقرب إلى روح الشيطان منها إلى روح المسيح المحب الذي أوصانا بأن نحب أعداءنا وأن نبارك لاعنينا ونحسن إلى مبغضينا ونصلّي لأجل الذين يسيئون

إلينا ويضطهدوننا، كما في (متى: ٥:٤٤)

ثم بعد هذا كله.. هل يعقل أن يكون المسيح جالساً على المائدة مع تلاميذه ويقدم لهم جسده ودمه حقيقة؟

أليس هو الموحي بكلام الله عن طريق إرشاد روحه القدوس؟

ألم يسطر لنا في سفر اللاويين، وفي الإصحاح الحادي عشر ما يجب أن نأكل وما نتجنبه؟.. وفيه:« كلّ ما شقّ ظلفاً ويجتر من البهائم فإياه تأكلون »(لاويين ١١:٣)، لقد حرّم على الإنسان أكل الدم، فكيف يسمح بأكل لحوم بشرية، ناهيك عن لحم ودم الإله ذاته.

ثم كيف يأخذ المتناولون نفس صفات الله الأزلية الأبدية وقدرته اللامحدودة؟

ثم كيف يملأون كل زمان ومكان؟

ثم كيف يشتركون في صفات الكمال المطلق والصلاح الإلهي السامي؟

وإذا هم حصلوا كل مرّة يمارسون فيها هذه الفريضة، على الكمال الإلهي فلماذا لا يزالون على الأرض؟

ولماذا يتسلّط عليهم إبليس باغراءاته ووساوسه ويجرّهم إلى جميع الويلات؟

وكيف يصلون إلى درجة الكمال المطلق بينما هم يتعدّون ناموس الله الكامل؟

وكيف هم قابعون إلى الآن بلا حول ولا حيلة على أرض مضروبة باللعنة؟

بقي أن يتخيّلوا أنفسهم كآلهة تهيمن على الكون كله وتخلق ملايين الشموس والمجرّات وشتى أنواع الحياة في السماء وعلى الأرض وفي البحر!

أليس هذا العمل أهون عليهم من خلق الله ذاته!؟

وبما أنّ أكل الدم محرّم في العهدين القديم والجديد (تكوين ٩:٣؛ لاويين ١٧:١٠؛ أعمال ١٥:٢٠)، فالإدعاء ذاته بتحويل الخمر إلى دم الربّ فعلياً وتناوله يعتبر جريمة شنعاء في حقّ الربّ وتعاليمه السمحة.

وقد ذكر أحد القداسات[1] أن القربان المقدس يتصف بالصفات المختصة بالأجساد.. وتلك المختصة بالأرواح أيضاً، وهو حيّ إلاّ أنّه بحالة ميتة.. أي أنه لا يسمع ولا يتكلم ولا يحسّ ولا يتحرّك ومع ذلك فهو حيّ ويمنح الحياة لكل من يتناوله.

فهل توجد هرطقة تجلب العار على المسيحية برمتها أكثر من هذه الشعوذة اللامعقولة؟!

ويتجنّى هذا الكتاب بقوله عن المسيح أنه قد ذبح نفسه.. (يا للهول، فلقد اعتُبر المسيح منتحراً مثل يهوذا ابن الهلاك)، وهو الذي ذبح نفسه ذبحاً حقيقياً على الصليب ويذبحها ذبحاً سرّياً على المذابح.

ليس هذه الأسرار والقداسات وحدها هي البدع التي دخلت الكنيسة.. بل إن النظام الكنسي نفسه نظام مبتدع لا علاقة له بتعاليم المسيح.. وليس له أي دليل من الكتاب المقدس.

فلم يكن هناك فكرة بوجود طبقة من الاكليروس أقل رتبة من الأسقف تكون تحت رئاسته وسيطرته، و لم

---

(١) انظر: كتاب علم اللاهوت صفحة ٣٨٦.

تكن في ذلك الوقت إيرادات لدي الكنيسة سوي التبرعات التي كان يجود بها المؤمنون من تلقاء انفسهم، ومع أنها كانت قليلة وزهيدة فقد كان يسد منها أعواز الفقراء والمحتاجين وما بقي وهو شئ يسير جداً يعطى للأسقف ولم يتعين للأكليروس مرتبات شهرية إلا في سنة ٢٤٥ م وحينئذٍ منعوا عن الإستمرار في ممارسة وظائفهم الخاصة العالمية[1].

ومثل ذلك مسألة الإعتراف السري والمحالة الكهنوتية، فقد كانت ولا تزال موضع بحث اللاهوتيين، ولكن لم يوضع لها قانون ثابت نهائي حتى بداية القرن الثالث عشر، إذ في سنة ١٢١٥ م في عهد البابا إنوسنت الثالث أصدر مجمع لتيران الرابع مرسوماً رسمياً بفرض واجب الاعتراف السري علي المؤمنين من الجنسيين، وضرورة ممارسته، ومن ذلك الوقت الي يومنا هذا أصبح الإعتراف معتبراً طقساً إلهياً محتماً في كنيسة روما، كما أنه يمارس أيضا في الكنيستين اليونانية والقبطية الارثوذكسية[2].

لقد وفرنا للمسلمين ــ بسبب السلطات الخطيرة التي منحناها للكنيسة ــ الكثير من أسباب ضحكهم علينا وسخريتهم بنا..

لقد قرأت كلاما لرحمة الله الهندي يقول فيها عن رجال ديننا وما ابتدعوه من أشياء غاية في الغرابة.

لقد قال بعد كلام له في مخالفة المسيحية لما يتطلبه العقل السليم:« ومثل أن أسقف رومية هو البابا دون غيره وهو رأس الكنيسة ومعصوم من الغلط، وأن كنيسة رومية هي أم الكنائس كلها ومعلمتها. ومثل أن للبابا ولمتعلقيه خزانة من قدر جزيل من استحقاقات القديسين أن يمنحوا الغفرانات سيما إذا استوفوا ثمناً وافياً لأجلها كما هو المروج عندهم. ومثل أن البابا له منصب تحليل الحرام وتحريم الحلال »

ثم نقل عن المعلم ميخائيل مشاقة ــ وهو من علماء بروتستنت ــ من كتابه المسمى بــ (أجوبة الإنجيليين على أباطيل التقليديين) المطبوع سنة ١٨٥٢ في بيروت هذا النص:« والآن تراهم يزوجون العم بابنة أخيه، والخال بابنة أخته، والرجل بامرأة أخيه ذات الأولاد خلافاً لتعليم الكتب المقدسة ولمجامعهم المعصومة، وقد أضحت هذه المحرمات حلالاً عند أخذهم الدراهم عليها، وكم من التحديدات وضعوها على الإكليريكيين بتحريم الزيجة الناموسية المأمور بها من رب الشريعة.. وكم حرموا أصناف الأطعمة ثم أباحوا ما حرموه، وفي عصرنا أباحوا أكل اللحوم في صومهم الكبير الذي طالما شددوا بتحريهما فيه »

وينقل عنه في الرسالة الثانية من كتاب (الثلاث عشرة رسالة):« فرنسيس ذابادلا الكردينال يقول: إن البابا مأذون أن يعمل ما يريد حتى ما لا يحل أيضاً، وهو أكبر من اللّه »

سكت قليلا، ثم قال: لقد ربط القرآن بين رجال ديننا وبين المال، فقال:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤)﴾(التوبة)

---

(١) من كتاب (مختصر تاريخ الكنيسة من البداية حتى القرن العشرين)١/ ٢١٦.

(٢) من كتاب (مختصر تاريخ الكنيسة من البداية حتى القرن العشرين)١/ ٢١٦.

لقد وضعت هذه الآية يدها على مكمن من مكامن الداء الذي عرض للمسيحية وللكنيسة.

اسمع ما يقول رحمة الله الهندي، وهو يسخر من سخافة عقولنا:« ومثل أن أنفس الصديقين تتوجه إلى العذاب في المطهر وتتقلب في نيرانه حتى يمنحها البابا الغفران أو يخلصها القسوس بقداساقم بعد استيلائهم على أثمانها، وهو غير جهنم. وأهل هذه يحصلون السندات من نواب البابا وخلفائه لتحصيل النجاة من عذابه. لكن العجب من هؤلاء العقلاء أنهم إذا اشتروا سندات من خليفة اللّه النافذ أمره في الأرض والسماء فلم لا يطلبون منه وصولات ممضية بختم الذين أعتقهم من العذاب.. ولما كانت قدرة الباباوات تزيد يوماً فيوماً بفيض روح القدس اخترع البابا لاون العاشر للمغفرة تذاكر تعطى منه أو من وكيله للمشتري بمغفرة خطاياه الماضية والمستقبلة أيضاً، وكان مكتوباً فيها هكذا (ربنا يسوع المسيح يرحمك ويعفو عنك باستحقاقات آلامه المقدسة. وبعد فقد وهب لي بقدرة سلطان رسله بطرس وبولس والبابا الجليل في هذه النواحي أن أغفر لك أولاً عيوبك الاكليروسية مهما كانت ثم خطاياك ونقائصك مهما كانت تفوت الإحصاء، بل أيضاً الخطايا المحفوظ حلها للبابا، وبقدر امتداد مفاتيح الكنيسة الرومانية أغفر لك كل العذابات التي سوف تستحقها في المطهر وأردك إلى أسرار الكنيسة المقدسة وإلى اتحادها وإلى ما كنت حاصلاً عليه عند عمادك من العفة والطهارة حتى أنك متى مت تغلق في وجهك أبواب العذابات وتفتح لك أبواب الفردوس وإن لم تمت الآن فهي باقية لك بفاعلية تامة إلى آخر ساعة موتك باسم الأب والابن والروح القدس آمين) كتب بيد الأخ يوحنا تترل الوكيل الثاني »

ومما نقله من سخافات عقولنا عن المعلم ميخائيل مشاقة في كتابه الذي ذكرته سالفا:« وربما صوروا بعض قديسين على صورة لم يخلق اللّه مثلها، كتصويرهم رأس كلب على جسم إنسان يسمونه القديس خريسطفورس ويقدمون له أنواع العبادة إذ يلقبونه ويسجدون أمامه ويشعلون له الشموع ويطلقون البخور ويلتمسون شفاعته، فهل يليق بالمسيحيين الاعتقاد بوجود العقل النطقي والقداسة في أدمغة الكلاب؟ أي هي من عصمة كنائسهم من الغلط؟ »

ويواصل رحمة الله الهندي حديثه عن السخافات التي ارتبطت بطقوسنا، فيقول:« ومثل أن خشبة الصليب وتصاوير الأب الأزلي والابن والروح القدس يسجد لها بالسجود الحقيقي العبادي وأن صور القديسين يسجد لها بالسجود الإكرامي »

وقد أبدى رحمة الله ككل عاقل تحيره من هذه الطقوس الغريبة، فقال:« وإني متحير ما معنى استحقاق الأشياء الأولية للسجود العبادي، لأن تعظيمهم لخشبة الصليب لا يخلو إما أن يكون مثلها قد مس جسد المسيح، وهو ارتفع عليه بحسب زعمهم، وإما لأجل أنها واسطة فداء، وإما لأجل أن دمه سال عليه. فإن كان الأول يلزم أن يكون نوع الحمير معبوداً لهم أعلى من الصليب عندهم، لأن المسيح عليه السلام ركب على الأتان والجحش ومساجد المسيح وكانا موضوعي راحته ودخوله ممجداً إلى أورشليم، والحمار يشارك الإنسان في الجنس القريب والحيوانية، فهو جسم نام حساس متحرك بالإرداة بخلاف الخشب الذي ليست له قدرة الحس والحركة. وإن كان الثاني فيهودا الاسخريوطي الدافع أحق بالتعظيم لأنه الواسطة الأولى والذريعة الكبرى للفداء، فإنه لولا تسليمه لما أمكن لليهود مسك المسيح وصلبه، ولأنه مساوٍ للمسيح عليه السلام في الإنسانية

وعلى صورة الإنسان الذي هو صورة اللّه، وكان ممتلئاً بروح القدس صاحب الكرامات والمعجزات فالعجب أن هذه الواسطة الأولى عندهم ملعونة والصغرى مباركة معظمة. وأما الثالث فلأن الشوك المضفور إكليلاً على رأس المسيح عليه السلام قد فاز أيضاً بالمنصب الأعلى، وهو سيلان الدم عليه فما باله لا يعظم ولا يعبد ويشعل بالنار، وهذا الخشب يعبد إلا أن يقولوا إن هذا سر مثل سر التثليث والاستحالة خارج عن إدراك العقول البشرية.

وأفحش منه تعظيم صورة أقنوم الأب، لأن اللّه بريء من الشبه وما رآه أحد ولا يقدر أن يراه أحد في الدنيا [1] فإذا كان كذلك فأي أب من آبائهم رآه فصوره؟ ومن أين علموا أن هذه الصورة مطابقة لصورته تعالى وليست مطابقة لصورة شيطان من الشياطين، أو لصورة كافر من الكفار؟ و لم لا تعبدون كل إنسان سواء أكان مسلماً أم كافراً لأن الإنسان على صورة اللّه بحسب نص التوراة.

والعجب أن البابا يسجد لهذه الصورة الوهمية الجمادية التي لا حس ولا حركة لها ويحقر صورة اللّه التي هي الإنسان ويمد رجله لذلك الإنسان لكي يقبل حذاءه »

ثم يعقب رحمة الله على هذه اللوثات الوثنية التي غزت المسيحية بقوله:« وما ظهر لي فرق بين هؤلاء أهل الكتاب ومشركي الهند وجدت عوامهم كعوامهم وخواصهم كخواصهم في هذه العبادة وعلماء مشركي الهند يقولون مثل قول علمائهم في الاعتذار»

السلوك:

قلت: وعيت هذا.. ولا أملك بعد ما ذكرته من حجج إلا أن أقر به.. فحدثني عن صمود الثمرة الثالثة.. صمود السلوك[2].

قال: لن أطيل الحديث عليك.. فأنت تعرف الانحرافات التي يقع فيها قومنا.. ولذلك سأقتصر لك على مثال واحد تستطيع أن تقارن به سلوكنا مع سلوك المسلمين.

وقد ذكر هذا المثال رجل تعرفه كثيرا.. إنه ذلك الشيخ صاحب اللحية البيضاء الذي ملأ أحلام رجال ديننا بالكوابيس..

قلت: أجل.. تقصد (ديدات)

قال: أجل.. هو يحظى عندي باحترام عظيم.. لا لشيء إلا لأنه امرؤ يحترم عقله.. ويصمد في مواقفه.. إنه يمثل شخصية المسلم الممتدة الجذور في الأرض أحسن تمثيل.

قلت: فما ذكر في هذا الباب؟

قال: لقد عقد مقارنة بين انتشار الخمر بين المسلمين وانتشارها بين المسيحيين، فذكر أن جمهورية جنوب إفريقيا ذات الاقلية البيضاء، والتي تقدر بأربعة ملايين نسمة، من بين مجموع السكان البالغ عددهم أربعين

---

(١) كما ينص الكتاب المقدس.

(٢) سنتحدث عن التفاصيل المرتبطة بهذا النوع من الصمود في فصل (قيم) من هذه الرسالة.

مليون نسمة. بها حوالي ثلاثمائة ألف مدمن خمر، يسموهم (الكحوليين).

وتظهر الاحصائيات أن عدد مدمني الخمر من الملونين في جنوب إفريقيا يوازي خمسة أضعاف عدد مدمني الخمر ضمن أي جنس آخر.

ومثله المبشر الانجليزي، جيمي سواجرت الذي كتب في كتاب له بعنوان (الخمر):« إن أمريكا بها أحد عشر مليون مدمن، وأربعة وأربعين مليون من المفرطين في شرب الخمر »

لا شك أن هذه إحصائيات قديمة.. وفي الواقع أكثر من ذلك بكثير.

قارن هذه الأعداد الضخمة بأعداد الذين يشربون الخمر من المسلمين..

فهم رغم بعدهم عن دينهم إلا أن الخمر والكثير من المحرمات لا تزال راسخة الحرمة في أذهانهم..

إنها منذ أنزل على نبيهم:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ(٩١)﴾ (المائدة) وهم يجتنبون الخمر.. ويبتعدون عنها كل البعد.

أتدري كيف فرض محمد هذا القانون.. قانون تحريم الخمر؟

قلت: لست أدري.. ولكني أعلم أنه لم يكن له شرطة تفرضه.

قال: لقد فرضه بالإيمان.. لم ينفق محمد ﷺ على ذلك درهما واحدا، بل كفاه عن كل ذلك تينك الآيتين.. لقد جعلتا كل القلوب تنفر من الخمر من غير شرطة لا قوانين ولا مصادرات.

فعن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:« يا أيها الناس إن الله يبغض الخمر، ولعل الله سيترل فيها أمراً، فمن كان عنده شيء فليبعه ولينتفع به»، قال أبو سعيد: فما لبثنا إلا يسيراً، حتى قال:« إن الله حرم الخمر، فمن أدركته هذه الآية -يعني آية المائدة السابقة- وعنده منها شيء فلا يشرب ولا يبيع »، قال أبو سعيد: فاستقبل الناس بما كان عندهم منها طرق المدينة فسفكوها[1].

وعن أنس قال: كنت أسقي أبا عبيدة وأبي بن كعب فجاءهم آت فقال: إن الخمر حرمت.. فقال أبو طلحة: قم يا أنس فأهرقها.. فأهرقها[2].

ويحدث أبو موسى الأشعري قال: بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة -أي حلالاً- إذ قمت حتى آتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر، فجئت إلى أصحابي، فقرأتها عليهم.. قال: وبعض القوم شربته في يده شرب بعضاً وبقي بعض في الإناء.. فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا ما في باطيتهم فقالوا: انتهينا ربنا.. انتهينا ربنا[3].

---

(١) مسلم.

(٢) البخاري ومسلم.

(٣) رواه الطبري في تفسير آية المائدة.

قارن هذا بما فعل قومنا عندما فكروا بتحريم الخمر..

أنت تعلم أن الولايات المتحدة فكرت في يوم من الأيام في أن تحرم الخمر على شعبها لما رأت من أضرارها الشديدة على البناء الصحي والخلقي للمجتمع.. وقد فعلت المستحيل لأجل ذلك:

بدأت ــ أولا ــ بإصدار قانون[1].. ولم يكن مجرد أمر ملكي أو منشور إمبراطوري، بل كان تشريعا جاء عن طريق برلمان في بلد ديمقراطي دستوري حر، فحوالي عام ١٩١٨ثارت المشكلة في الرأي العام الأمريكي. وفي عام ١٩١٩أدخل في الدستور الأمريكي تحت عنوان « التعديل الثامن عشر »، وفي نفس السنة أيد هذا التعديل بأمر حظر، أطلق عليه التاريخ قانون (فولستد).

ولم يكتفوا بالقانون، بل جيشوا كل جيوشهم لتطبيقه، فجند الأسطول كله لمراقبة الشواطئ، منعاً للتهريب، وجند الطيران لمراقبة الجو، وشغلت أجهزة الحكومة، واستخدمت كل وسائل الدعاية والإعلام لمحاربة الخمر، وبيان مضارها وجندت كذلك المجلات والصحف والكتب والنشرات والصور والسينما والأحاديث والمحاضرات وغيرها.

ويقدر ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليوناً من الدولارات، وأن ما أصدرته من كتب ونشرات يبلغ عشرة ملايير صفحة، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم -في مدة أربعة عشر عاماًـ لا يقل عن مائتين وخمسين مليون جنيه، وقد أعدم في هذه المدة ثلاثمائة نفس، وسجن ٥٣٢,٣٣٥ نفس، وبلغت الغرامات ستة عشر مليون جنيه، وصادرت من الأملاك ما بلغ أربعمائة مليون وأربعة ملايين جنيه.

ولكن الأمريكيين لم يزدادوا إلا غراماً بالخمر، وعناداً في تعاطيها، حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣الى إلغاء هذا القانون، وإباحة الخمر إباحة مطلقة.

التفت إلي، وقال: أتدري لم نجح الإسلام، وأخفقت أمريكا.

قلت: لم؟

قال: لأن كتاب المسلمين المقدس هو الكتاب الوحيد الذي يستلهمون منه.. وهو ليس متناقضا ككتابنا المقدس، بل ككتبنا المقدسة.

قلت: ما تقول؟

قال: أقول الواقع.. لقد كان الكتاب المقدس هو أحد الأسباب الكبرى لهذا السلوك المنحرف الذي طبع العالم المسيحي بطابعه.

التفت إلي، وقال: ما تتصور من رجل يفكر في التوبة من الخمر.. ثم يرجع إلى كتابه المقدس.. ليجده يغريه بها، ويجد في وصف النبي نوح هذا الوصف:« وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما. وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه »(تكوين ٩: ٢٠)

ويجد أن أول معجزة للمسيح هي تحويل الماء المبارك الطيب الطهور إلى خمر.. لقد ورد في (يوحنا:٢/١-

---

(١) انظر: تنقيحات، أبو الأعلى المودودي، وماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، ص ١٧٧هامش.

١٠):« وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ كَانَ عُرْسٌ فِي قَانَا بِمِنْطَقَةِ الْجَلِيلِ، وَكَانَتْ هُنَاكَ أُمُّ يَسُوعَ. وَدُعِيَ إِلَى الْعُرْسِ أَيْضاً يَسُوعُ وَتَلاَمِيذُهُ. فَلَمَّا نَفِدَتِ الْخَمْرُ، قَالَتْ أُمُّ يَسُوعَ لَهُ: «لَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ خَمْرٌ!» فَأَجَابَهَا: «مَا شَأْنُكِ بِي يَاامْرَأَةُ؟ سَاعَتِي لَمْ تَأْتِ بَعْدُ!» فَقَالَتْ أُمُّهُ لِلْخَدَمِ: « افْعَلُوا كُلَّ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ» وَكَانَتْ هُنَاكَ سِتَّةُ أَجْرَانٍ حَجَرِيَّةٍ، يَسْتَعْمِلُ الْيَهُودُ مَاءَهَا لِلتَّطَهُّرِ، يَسَعُ الْوَاحِدُ مِنْهَا مَا بَيْنَ مِكْيَالَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةٍ (أَيْ مَا بَيْنَ ثَمَانِينَ إِلَى مِئَةٍ وَعِشْرِينَ لِتْراً). فَقَالَ يَسُوعُ لِلْخَدَمِ: «امْلأُوا الأَجْرَانَ مَاءً ». فَمَلأُوهَا حَتَّى كَادَتْ تَفِيضُ. ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «وَالآنَ اغْرِفُوا مِنْهَا وَقَدِّمُوا إِلَى رَئِيسِ الْوَلِيمَةِ!» فَفَعَلُوا. وَلَمَّا ذَاقَ رَئِيسُ الْوَلِيمَةِ الْمَاءَ الَّذِي كَانَ قَدْ تَحَوَّلَ إِلَى خَمْرٍ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ مَصْدَرَهُ، أَمَّا الْخَدَمُ الَّذِينَ قَدَّمُوهُ فَكَانُوا يَعْرِفُونَ، اسْتَدْعَى الْعَرِيسَ، وَقَالَ لَهُ: «النَّاسُ جَمِيعاً يُقَدِّمُونَ الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ أَوَّلاً، وَبَعْدَ أَنْ يَسْكَرَ الضُّيُوفُ يُقَدِّمُونَ لَهُمْ مَا كَانَ دُونَهَا جُودَةً. أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ أَبْقَيْتَ الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ حَتَّى الآنَ!»

هذه هي المعجزة الأولى التي أجراها المسيح، وقد عقب عليها يوحنا بقوله:« هَذِهِ الْمُعْجِزَةُ هِيَ الآيَةُ الأُولَى الَّتِي أَجْرَاهَا يَسُوعُ فِي قَانَا بِالْجَلِيلِ، وَأَظْهَرَ مَجْدَهُ، فَآمَنَ بِهِ تَلاَمِيذُهُ »(يوحنا:٢/١١)

قلت: ولكن الكتاب المقدس ينص على تحريم الخمر، ففيه:« وَقَالَ الرَّبُّ لِهَارُونَ: «خَمْراً وَمُسْكِراً لاَ تَشْرَبْ أَنْتَ وَبَنُوكَ مَعَكَ عِنْدَ دُخُولِكُمْ إِلَى خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ لِكَيْ لاَ تَمُوتُوا. فَرْضاً دَهْرِيّاً فِي أَجْيَالِكُمْ وَلِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُقَدَّسِ وَالْمُحَلَّلِ وَبَيْنَ النَّجِسِ وَالطَّاهِرِ وَلِتَعْلِيمِ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَمِيعَ الْفَرَائِضِ الَّتِي كَلَّمَهُمُ الرَّبُّ بِهَا بِيَدِ مُوسَى »(لاويين ١٠: ٨-١١)

وفيه « مِنْ كُلِّ مَا يَخْرُجُ مِنْ جَفْنَةِ الْخَمْرِ لاَ تَأْكُلْ، وَخَمْراً وَمُسْكِراً لاَ تَشْرَبْ، وَكُلَّ نَجِسٍ لاَ تَأْكُلْ. لِتَحْذَرْ مِنْ كُلِّ مَا أَوْصَيْتُهَا»(قضاة ١٣: ١٤)

وفيه « لَيْسَ لِلْمُلُوكِ يَا لَمُوئِيلُ لَيْسَ لِلْمُلُوكِ أَنْ يَشْرَبُوا خَمْراً وَلاَ لِلْعُظَمَاءِ الْمُسْكِرُ. لِئَلاَّ يَشْرَبُوا وَيَنْسُوْا الْمَفْرُوضَ وَيُغَيِّرُوا حُجَّةَ كُلِّ بَنِي الْمَذَلَّةِ. أَعْطُوا مُسْكِراً لِهَالِكٍ وَخَمْراً لِمُرِّي النَّفْسِ. يَشْرَبُ وَيَنْسَى فَقْرَهُ وَلاَ يَذْكُرُ تَعَبَهُ بَعْدُ » (الأمثال٣١: ٤-٧)

قاطعني، وقال: وفيه « اعطوا مسكرا لهالك و خمرا لمريئ النفس يشرب وينسى فقره ولايذكر تعبه » (الامثال٣١:٦)..

وفيه يقدم بولس ــ الحواري الثالث عشر للمسيح، الذي عين نفسه تلميذا للمسيح، والمؤسس الحقيقي للنصرانية، ينصح احد رعاياه المتحولين حديثا الى النصرانية، ويدعى تيموثاس ــ قائلا:« لاتكن فيما بعد شراب ماء بل استعمل خمرا قليلا من اجل معدتك و اسقامك الكثيرة » (رسالة بولس الى ثيموثاوس ٢٣:٥)

أسمعت إلى هذه النصيحة الغالية.. منذ سمعها قومنا.. وهم يعبدون الله بشرب الخمر في الحانة المقدسة.

قلت: كأنك تشير بأن للكتاب المقدس تأثيره في هذا السلوك المنحرف.

قال: أجل.. ليس هذا السلوك فقط.. بل أكثر الانحرافات التي تنتشر في مجتمعاتنا سببها الأكبر.. أو الأول على الأقل.. هو الكتاب المقدس.

أنت ترى الرذائل الخلقية في المجتمع.

قلت: لذلك أسباب كثيرة.

قال: ومن أهمها كتابنا المقدس.. وكنيستنا المنحرفة التي لم تكتف بالنوادي الكثيرة التي تنشر الانحراف.. بل راحت هي نفسها تعينهم عليها[1].

٣ ـــ الانتشار:

قلت: فحدثني عن صمود الانتشار.. لاشك أن المسيحية أعظم الأديان انتشارا..

قال: ذلك صحيح للأسف..

قلت: لم؟

قال: لأنها انتشرت في البداية على يد أولئك الإرهابيين الذين نقدسهم.. والذين خيروا الناس بين الإيمان المسيحي وبين الموت[2].

وهي الآن تنتشر على يد إرهابيين أعظم خطرا يخيرون الناس بين الموت جوعا أو مرضا وبين الإيمان.. أنت تعلم أن المسيحية لم تنتشر إلا بالسيف.. والصلبان التي نتوجه لها بالتعظيم خير دليل على ذلك..

قلت: أنت تتحدث عن هيئات الإغاثة؟

قال: أجل.. هل تعلم أنَّ ميزانيات المبشرين في هذا المجال تخطَّت المئة وثمانين مليار دولار سنويًا، أما مقابلها من الهيئات الإسلامية، فلا يصل إلى المليار دولار سنويا.

بالإضافة إلى الحصار المفروض على هذه الهيئات، بحيث اتهمت بالإرهاب لئلا يبقى في الساحة غير المبشرين المسيحيين[3].

قلت: ولكني أرى أن الكثير من المسلمين ممن يظهرون في وسائل الإعلام ينتقلون من الإسلام إلى المسيحية.

ابتسم، وقال: لو كانوا مسلمين في البداية لما انتقلوا إلى المسيحية..

لقد ذكرتني بقول أحدهم في مؤتمر (كلورادو) سنة ١٩٧٨م:« إن غالبية المسلمين الذين يحتمل أن يتنصروا هم من الذين يعتنقون ما يطلق عليه الإسلام الشعبي (أو إسلام العامة)، وهم أرواحيون، يؤمنون بالأرواح الشريرة والجن، ويعرفون القليل جدًا عن الإسلام الأصيل، كما يؤمن هؤلاء بدرجة كبيرة بالتعاويذ التي يعتقدون أنها تمدهم بالقوة لمواجهة شرور الحياة وتحدياتها »[4]

وقد خطب (زويمر) في المبشرين يقول:« لقد أديتم الرسالة التي أنيطت بكم أحسن الأداء، ووفقتم لها

---

(١) انظر فصل (قيم) من هذه الرسالة.

(٢) انظر الأدلة الكثيرة على ذلك في الفصل الأول من هذه الرسالة.

(٣) تعرضت الهيئات الإغاثية الإسلامية في بعض البلدان العربية الواعدة في العمل الإغاثي إلى حالة من الجمود بعد أحداث ٢٠٠١/٩/١١م، وتقلصت خدماتها في سعي إلى إعادة تقويم أدائها من حيث الشرائح التي تستفيد منها.

(٤) انظر: دون م. ماكوري. التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي، ص:٢٥٢.

أسمى التوفيق، وإن كان يخيل إلى أنه مع إتمامكم العمل على أكمل وجه، لم يفطن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه. إني أقركم على أن الذين أدخلوا من المسلمين في حظيرة المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقيين، لقد كانوا، كما قلتم، أحد ثلاثة؛ إما صغير لم يكن لــه من أهله من يعرّفه ما هو الإسلام، وإما رجل مستخفٌ بالأديان لا يبغي غير الحصول على قوته، وقد اشتد به الفقر، وعزت عليه لقمة العيش، وإما آخر يبغي الوصول إلى غاية من الغايات الشخصية. ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هدايةً لهم وتكريمًا. وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة لــه بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها. ولذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية. وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المئة السالفة خير قيام. وهذا ما أهنئكم، وتهنئكم دول المسيحية والمسيحيون جميعًا »[1]

ولهذا.. فإن الخطة الشريرة التي يصفها لنشر ديننا هي الحيلولة بين الكثير من الشعوب والحضارة حتى يستغلوا جهل من يدعوهم، كما قال (زويمر):« إن الخطة الفاسدة الخطرة التي تفضــي ببث مبــادئ المدنية مباشرة، ثم نشر المسيحية ثانيًا عقيمة لا فائدة ترجى منها، لأن إدخال الحضارة والمدنية قبل إدخال المسيحية لا تحمد مغبته، بل تنجم عنه مساوئ كثيرة تفوق المساوئ التي كانت قبلا »

نظر إلي، وقال: أرأيت الإرهاب الذي يمارسه قومنا على المسلمين.. ومع ذلك لم تزد الأيام دين محمد إلا رسوخا وانتشارا.. و لم تزد الأيام ديننا إلا ذبولا وانحدارا.

قلت: كيف تقول هذا؟

قال: فلنترل للواقع لنرى مدى صمود العقيدة المسيحية مقارنة بالواقع الإسلامي..

نحن نفخر على المسلمين بأن عدد رعية الكنيسة أكبر من عدد رعية المساجد، ولكن الحقيقة الواقعية تختلف كثيرا..

لقد أظهر استطلاع للرأي في بريطانيا أن غالبية الشخصيات البارزة في المجتمع البريطاني بمن فيهم كبار رجال الدين المسيحي لايؤمنون بأن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام كما ينص الكتاب المقدس.

وقد أعرب ثلاثة فقط من بين ١٠٣ من رجال الدين المسيحي شملهم الاستطلاع عن اعتقادهم في صحة رواية خلق العا لم التي وردت في الكتاب المقدس.

وقال ثمانون ممن شاركوا في التحقيق الذي أجراه أحد برامج هيئة الإذاعة البريطانية إنهم لايعتقدون أن السيدة مريم أنجبت المسيح دون أن يمسسها بشر، كما لايعتقدون بوجود آدم وحواء[2].

---

(١) انظر: عبدالله التل. جذور البلاء.- ط ٢.- بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.- ص ٢٧٥.

(٢) إلا أن الأشخاص الذي أدلوا بآرائهم في هذه الدراسة ومنهم رجال دين ومديرو مدارس وهيئات تعليمية وسياسيون بارزون وعلماء ورؤساء تحرير صحف يؤمنون بأن الله قادر على تصريف شؤون الكون والتأثير على أحداثه وأن الوصايا العشر يمكن تطبيقها في عصرنا هذا.. نقلاً عن هيئة الاذاعة البريطانية.

التفت إلي، وقال: أتدري ما سر هذه الردة التي لم تختص بعصرنا هذا.. بل شملت أكثر عصور المسيحية؟

قلت: ما سرها؟

قال: قارن بين عقيدة الإسلام التي تتوافق مع العقل والمنطق والفطرة، وبين عقيدتنا الغريبة عن ذلك كله.. لقد كنت هذا الصباح أقرأ كتيبا صغيرا يعلم كنيسة الإسكندرية فيما يختص بطبيعة السيد المسيح.. الكتيب معي..

أخرجه من جيبه، وفتحه على صفحة من صفحاته، ثم قال: بعد أن قرر الكاتب أن الكنائس الأرثوذكسية غير الخلقيدونية تؤمن بلاهوت المسيح كما تؤمن أيضاً بناسوته، ولكن المسيح عندهم طبيعة واحدة مع ذلك، نقرأ قوله:« وقد يبدو في هذا النوع من التناقض، ولكن على الرغم مما يبدو في هذا من تناقض منطقي عقلي، إلا أن كنيستنا لا تري فيه شيئاً من التناقض لأنها تنظر إلي طبيعة السيد المسيح نظرة صوفية روحانية ينحل فيها كل ما يبدو أمام الفكر البشري أنه متناقض أو محال، هذه التجربة الصوفية أو الروحانية تعلو على كل تناقض عقلي أو فلسفي، فيها لا يسأل المسيحي لم؟ أو كيف؟ إن في ديانتنا أسرار نؤمن بها ونقبلها بكل يقين وإيمان لا لشيء إلا لأنها قد أعلنت لنا من الله، ونحن نؤمن بها على الرغم من معارضتها لحواسنا ومناقضتها لعقلنا المادي، لا لشيء إلا لأننا أيقنا أنها من الله، وكما نؤمن بوجود الله وأنه قادر على كل شيء، كذلك نؤمن بأسرار ديانتنا من دون أن نكون في حاجة إلي أن نسأل، لم؟ أو كيف؟ ولا شك أن العقل الفلسفي لا يستطيع أن يقبل هذا الإيمان الصوفي »

ويستطرد الكاتب فيقول:« إن لنا أن نستخدم عقولنا إلي حد معين ؛ وحينئذ يجب أن يقف العقل ويسلم قياده للتجربة الروحية الصوفية »

وبعد أن يوضح الكاتب كيفية أن المسيح كما يعتقدون من طبيعتين، ولكنه ليس هو طبيعتين بعد الاتحاد، يقول:« قد تكون هذه مشكلة كبيرة بالنسبة للعقل الفلسفي أو العقل المادي، وقد يكون فيها تناقض، وقد يكون فيها ما يتعارض مع قوانين العقل والمنطق والحس والمادة والمصطلحات الفلسفية، كل هذا قد يكون صحيحاً، ولكننا في الشرق لا نسأل كيف؟ ولا لماذا؟ ولكننا نصدق ونؤمن بتجربة باطنية روحية صوفية عالية علي كل منطق وعقل أن هذا أمر ممكن، ذلك لأن الله أراده، وإذا أراد الله شيئاً فهو ممكن، وحتى لو كان هذا غير معقول للعقل المادي فإنه معقول للعقل الروحاني الذي لا يعرف لقدرة الله حدوداً، وهذا هو (الإيمان الذي بلا فحص) الذي يصرخ من أجله الكاهن القبطي في خدمة القداس الإلهي »

قارن هذا الكلام بما يقوله المسلمون في عقيدتهم عن الله.. والتي هي سر صمود الإسلام وخلوده..

أنا أحمل كتابا معي لشيخ من مشايخ الأزهر هو الشيخ محمود شلتوت.. اسمع ما سأقرؤه عليك، وقارن بينه وبين ما يقوله رجال ديننا لتبصر سر صمود عقيدة الإسلام.

أخرج من محفظة كتاب (الإسلام عقيدة وشريعة) وفتحه على محل وضع فيه علامة خاصة[1]، وراح يقرأ:«

---

(١) انظر: الإسلام عقيدة وشريعة: ٣٢ و ٣٣.

والإسلام حينما يطلب من الناس أن يؤمنوا بتلك العقائد، لا يحملهم عليها إكراهاً، لأن طبيعة الإيمان تأبي الإكراه، ولا يتحقق إيمان بإكراه، وقد جاء في القرآن ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة: ٢٥٦).. وجاء فيه خطاباً لنبيه محمد:﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآَمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)﴾(يونس)

وكذلك لا يحملهم عليها عن طريق الخوارق الحسية، التي يدهش بها عقولهم ويلقي بهم في حظيرة الاعتقاد دون نظر واختيار ﴿ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آَيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾(الشعراء) والمعنى أنا لا نشاء ذلك، لأننا نريد منهم إيماناً عن تقبل واختيار.

لا يحملهم عليها بالإكراه، ولا يحملهم عليها بالخوارق، وإنما يحملهم عليها بالبرهان الذي يملأ القلب، وعلى هذا المبدأ عرض القرآن عقائد الإسلام عن طريق الحجة والبرهان.

وكانت حجته التي لفتت الأنظار إليها فيما يتعلق بعقيدة الإله (وجوداً ووحدانية وكمالاً) دائرة بين النظر العقلي، وبين ما يجد الإنسان في نفسه من الشعور الباطني والإحساس الداخلي »

سكت قليلا، ثم قال: أنا لم أتعجب عندما قرأت تلك الإحصائية التي ذكرتها لك.. ذلك أن الكنيسة في الحقيقة هي راعية الإلحاد والداعية إليه.

أظهرت تعجبا عظيما مما ذكره، فقال: لا تعجب.. لقد كنت مثلك أتعصب للكنيسة.. ولكني بعد أن عرفت أسلوبها في الدعوة إلى الإلحاد قصرت من تعجبي.

قلت: إنك تقول قولا عظيما.

قال: ومع ذلك لا أقول إلا حقا.

ثم استأنف قائلا: أرأيت لو كان لديك علم من العلوم اختصصت به من بين الناس، ثم رحت تقول للناس.. أو من قصدك ليتعلم على يديك ذلك العلم..:« لن أقبلك تلميذا عندي حتى تضرب رأسك بحجر يزيل عقلك.. فتتعلم وأنت مجنون »، فهل ترى عاقلا يقبل هذا؟

قلت: فهل فعلت الكنيسة هذا؟

قال: لم تفعل الكنيسة غير هذا.. فأي فرق بين عقل زائل.. وعقل غير مستعمل.. كلاهما في الحقيقة سواء.

نظر إلى الشجرة الجاثمة أمامنا بعمق، ثم قال: لقد كانت القضية الكبرى التي ناضل من أجلها الإسلام.. وكسب نضاله.. هي الإيمان بوجود الله، الإله الذي لا إله إلا هو، خالق كل شيء، رب كل شيء، منه كل شيء، وإليه كل شيء.

كانت الدعوة إلي هذا الإيمان هي قضية الدين منذ أن كان الدين، وكان الكفر بالله هو عدم الإيمان بوجوده على هذا النحو..

هكذا أتصور دعوات جميع الأنبياء والمرسلين.. جميعهم بما فيهم المسيح نفسه..

لقد كان النضال من أجل هذه القضية ممتعا وناجحا.. لأنها قضية مزودة بكل أنواع الأسلحة.

لكن.. بعد رفع المسيح ظهر بين المسيحيين من قال بأن المسيح نفسه هو هذا الإله أو هو الله، وكان هذا جديداً في المسيحية، ولم يظهر إلا بعد رفع المسيح، ولم يتقبله لذلك كل من تبعوا المسيح، وإنما بقي الكثيرون على إيمانهم بالله على النحو الذي دعاهم إليه المسيح، وعلى النحو الذي دعا إليه جميع الرسل والأنبياء من قبله، وظلوا على إيمانهم هذا، وظلوا على اعتقادهم في المسيح مجرد إنسان بشر، وإن كان رسولاً نبياً، وإن كان قد ولد من عذراء، وإن كان قد صنع ما صنع من المعجزات بإذن الله.

لكن الآخرين أخذهم هذه الدعوة الجديدة، ولعل مبالغتهم في حبه دفعتهم إلي تقبل القول بتأليهه.. وبمضي الزمن دخلت الدعوة إلي تأليه المسيح في صلب المسيحية، وزاد من اتبعوها وإن بقي كثيرون أبوا أن ينحرفوا عن إيمانهم الأول الذي تلقوه من المسيح نفسه، ولكن كانت الغلبة لمن اعتنقوا الإيمان بألوهية المسيح، حتى أصبح من ينفي هذه الألوهية اليوم عدواً للمسيحية حقيقاً بأن يحارب.

لا.. بل حوربت أناجيل كثيرة وأحرقت، ولاشك أن بعضاً منها كان ينفي هذه الألوهية، وإلا لما كان ثمة ما يدعو من آمنوا بهذه الألوهية إلي إحراقها، وبقيت الغلبة إلي اليوم، للذين انحرفوا عن الإيمان الأول، وقالوا بخلاف ما كان معروفاً بألوهية المسيح، ولا يكاد يوجد بين المسيحيين اليوم من ينفي هذه الألوهية.

وبذلك، انقلبت قضية الدين، فبعد أن كانت هي الإيمان بوجود الله، والدعوة إلي عبادته، وبعد أن كانت قضية الدين كلها هي محاولة إثبات ذلك، أصبحت قضية الدين في المسيحية، هي محاولة إثبات ألوهية المسيح، ولم يكن لهذا من نتيجة إلا أن يشتت كل الجهد الذي يبذل لقضية الإيمان.

فإذا كان من الممكن إثبات وجود الله بصورة منطقية ومقبولة ومتفقة مع كل منطق وكل عقل، فإنه من المستحيل إثبات أي ألوهية للمسيح، وبأية صورة من الصور المقبولة.

ولهذا يكاد جهد المسيحيين اليوم ينصرف لا إلي إثبات وجود الله والدعوة إلى عبادته، وإنما إلى محاولة قسر الناس على الإيمان بألوهية المسيح، على ما في كل صور الألوهية التي قالوا بها له من مخالفة للعقل والمنطق.

ولذلك لم يكن في القول بهذه الألوهية للمسيح إلا وبالاً على الدين نفسه، فيه انقسم المسيحيون أولاً إلى قسمين قسم بقي على إيمانه الأول، الذي تلقاه عن المسيح، وظل على إيمانه بالله الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو، وبالمسيح رسولاً نبياً إنساناً بشراً، وقسم آخر اعتنق الإيمان بألوهية المسيح، ثم تغلب من اتبعوا القسم الثاني وانتشر بين المسيحيين الاعتقاد بألوهية المسيح، ولكن لم يكن ذلك توحيداً لكلمة المسيحيين وإيمانهم، وإنما كان بداية لانشقاقات وانقسامات أخرى في الكنيسة وبين المسيحيين استمرت على مدي القرون العديدة التي عاشتها المسيحية على الأرض إلي اليوم، ولم يزدها الزمن إلا انشقاقاً وانقساماً، ومرجع ذلك كله، الاختلاف حول تصور هذه الألوهية، حتى انتهت المسيحية اليوم، وكما يقول المسيحيون أنفسهم، إلي صورة يتساءل معها المرء، عما إذا كان للعهد الجديد قيمة حقاً.

والأخطر من ذلك بكثير، انتشار الحضارة بين الدول المسيحية، وتفتح العقول والمدارك فيها على العلوم الحديثة.. لقد جعل هذا التفتح هذه العقول وتلك المدارك تأبى هذه الصورة لله، ولكن لأن المسيحية وهي الدين الذي يدعوهم إلي عبادة الله، وتصور الله على هذه الصورة الإنسانية التي عرف بها المسيح، حتى أنهم يقولون

عنه الإله المتأنس، فإنهم يأبون تقبل هذه الصورة، وهو ما انتهى بهم إلي إنكار وجود الله كلية، أي إلي الإلحاد.

وبذلك فإن السبب الأساسي لانتشار الإلحاد في الدول المسيحية المتقدمة علمياً، ليس هو أن العلم لا يتفق معه أن يكون هناك إله، وإنما هو أن هذه الصورة للإله التي تحاول المسيحية اليوم أن تقسر العقول على تقبلها، وهي صورة لا تتفق بحق مع العلم، ولا مع العقل ولا المنطق ولا أي شيء مقبول[1].

(١) انظر: دعوة الحق بين المسيحية و الإسلام، القاضي منصور حسين عبد العزيز.

حضارات ومذاهب

قلت: حدثني عن مدى صمود اليهودية والمسيحية..

قال: وسأحدثك عن مدى صمود المذاهب والأفكار التي صاغها البشر لأنفسهم، إما بوحي أهوائهم، أو بوحي الشياطين التي سولت لهم.

ولن أحدثك هنا عن تلك التفاصيل التي ذكرتها لك في الأديان الكبرى.. ولكني سأقتصر على نماذج تعي بها أن الاستمرار لا يكون إلا للحق المجرد.. أما ما عداه فسيقذف به إلى هاوية الفناء.

لقد ذكر القرآن هذا، فقال:﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾(الرعد)

لقد ذكر القرآن سننا لنهاية الحضارات ودمارها وسقوطها.. ولم تزد الأيام ما ذكره القرآن إلا ثبوتا ورسوخا وتأكيدا.

لقد ذكر القرآن أن الترف والبذخ والتسلط الذي تمتلئ به الحضارة هو الذي يجرها إلى السقوط أو الانفجار.. ففي القرآن:﴿ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦)﴾(الإسراء)

وفي الآية التي تليها تأكيد بأن كل القرى هلكت بسبب ذنوبها:﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧)﴾(الإسراء)

إن الترف الذي تقع فيه الحضارات.. فيجعلها تشعر بالقوة التي لا تدانيها قوة، وبالعزة التي لا تدانيها عزة، وبالبطر والكبر الذي يجعل الكل خاضعا لها، جاثيا أمام قدميها هو الذي يسقطها في هاوية الموت.

قلت: ولكن القرآن حمد القوة، ودعا إليها، وأنا أقرأ في القرآن:﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾(لأنفال: من الآية٦٠)

قال: الفرح بالقوة والبطر بها غير القوة،كما أن الاستمتاع بالتفرج على المباريات الرياضية غير ممارسة الرياضة، وذم الفرح بالقوة لا يعني ذما للقوة، بل يعني ذما لجانب من جوانبها وأثر من آثارها.

والأثر المذموم هو الأثر الذي ينشأ عنه الظلم والاستعمار واستغلال الخلق وتسخيرهم واستعبادهم، وقد ألغي الاستعباد في جميع قوانين العالم،ولكن لا يزال الخلق إلى الآن عبيدا تحت سلطة ما يسمى بالقوى العظمى، القوى التي تأمر بما تشاء وتنهى عن ما تشاء،وتكيل بكل المكاييل،ثم تطلب من المستضعفين أن يمجدوها ويحترموها ويسبحوا بحمدها لسبب وحيد هو أنها قوة عظمى.

والحروب العالمية لا تعدو كونها غليانا لنار القوة، ونشوة الفرح بها في الروح الغربية باختراعها لأنواع الأسلحة وفنون الدمار الشامل.

ومن الفوراق الكبرى أن الدول التي تسعى للحد من هذه الأنواع من الأسلحة وتتغنى بالسلام هي التي

تملك أكبر رصيد منها، بل تملك ما يدمر الأرض، ويمحي الأطلال التي يتركها دماره مرات كثيرة.

وقد ذكر القرآن أن عصرنا هذا ليس بدعا في ذلك، وإنما هذا الفرح هو الذي حال بين كل قوة عظمى أو صغرى، بين الحضارات الكبرى أو القبائل البدوية البدائية البسيطة،وبين قبول الحق، وقد ضرب القرآن المثل لذلك بعاد: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(فصلت:١٥)

ولهذا، فإن القرآن يعتبر الغرور بالقوة هو الحائل الأكبر بين الشعوب وبين البحث على الحق أو الوصول إليه، ففي القرآن:﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(التوبة:٦٩)

والقرآن يشير بهذا إلى الدورات التاريخية التي تختلف فيها أسماء الدول والحضارات والشعوب والقوى ولكنها تتفق في مبادئها ونظرتها للحياة وتصورها للوجود ووظائفها فيه، فكلا من تلك الدورات يستمتع بنصيبه من القوة والأموال، ويخوض فيه خوضا باطلا، والنتيجة النهائية التي تختم بها كل دورة هي الإحباط بكل معانيه الدنيوي والأخروي، والنفسي والاجتماعي.

والقوة الغربية ـــ بهذا المفهوم ـــ لم تصدر في نزعتها التسلطية التي استعمرت بها العالم وانتهبت بها خيراته وعقوله أجيالا طويلة بالسلاح أو بالديموقراطية أو بالصناديق الكثيرة أو بالمساعدات إلا من روح رومانية لا تزال تجثم على عقولها ومصادر تفكيرها.

ولهذا، فإنه كلما ازداد تعاظمها، وازدادت ثقتها بنفسها قرب موعد هلاكها كما ورد في القرآن:﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(يونس:٢٤)

والحصيد هنا، وإن كان يراد به في ظاهر اللفظ هو النبات الذي حصد وقطع، إلا أنه يشير إشارة صريحة إلى العمران والتكنولوجيا والثقافة، وكل ما يزهو ويتصور أثناء زهوه أنه لا يموت، وموته وحصاده لا يحتاج إلى تدبير طويل بحسب ما تنص الآية،بل مجرد إتيان أمر الله في ليل أو نهار يكفي لذلك،وأمر الله لا يتكرر،وهو أسرع من لمح البصر:﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (القمر:٥٠)

لقد أشار (توينبي) إلى ما ذكره القرآن.. فذكر أن كارثة السقوط تنطلق من الثلاثي (بطر ـــ حمق ـــ جائحة)[1]، فالبطر يقود إلى ارتكاب الحماقات، وهي تفضي بصاحبها إلى الكارثة.

---

(١) وذكر بعض المفكرين المسلمين ثلاث مراحل لسقوط الحضارات، هي:

١- الهرب من الله.

٢- فتح أبواب كل شيء عليها: الإنتاج والإبداع في ناحية أو نواح كثيرة.

٣- طور الضمور والنحلال فالإستبدال.

وهو يستعير لتأكيد هذا القانون التاريخي بقانون نفسي لأفلاطون هو (قانون التناسب):« إن ارتكب أحد إثماً ضد قوانين التناسب، فأعطى شيئاً كبيراً للغاية إلى شيء صغير للغاية ليتولى حمله، مثل تزويد سفينة صغيرة للغاية بشراع كبير للغاية، وإعطاء وجبات ضخمة للغاية لجسم صغير للغاية، لو تم ذلك لكانت النتيجة وبالاً تاماً، ففي صورة الحمق يسرع الجسم بالبطن نحو المرض، في حين يندفع المتغطرس صوب الفجور الذي يغذيه الحمق »

وقد صدق نابليون عندما ذكر أن الخطر الأعظم يأتي في لحظة الانتصار.

وحسب القانون ٤٧ لكتاب شطرنج القوة (لروبرت غرين) فإنه يحذر بأن لحظة الانتصار قد تدفع إلى الغطرسة والثقة المفرطة بالنفس والاندفاع إلى ما هو أبعد من الهدف الموضوع، وخلق أعداء أكثر من الذين تدحرهم « فلا تدع النجاح يدير رأسك. ضع نصب عينيك هدفا وعندما تصل إليه توقف »

التاريخ كله يؤكد هذا القانون [١]..

ففي عام ٥٥٩ قبل الميلاد قفز شاب إلى مسرح الأحداث يدعى (قورش)[٢] جمع القبائل الفارسية المبعثرة وزحف بها إلى (ميديا) فامتلكها، وهزم ملكها (آستياجس)، وتوج نفسه على ميديا وفارس، وشرع في تكوين (الإمبراطورية الفارسية)، ثم دحر (كروسيوس) حاكم (ليديا) غربي آسيا الصغرى، ثم اتبع سببا فبلغ مغرب الشمس عند الجزر الأيونية غرب اليونان فامتلكها، ثم اتبع سببا فوضع يده على كنوز بابل وحرر سبي بابل من اليهود فأعادهم إلى بلادهم، وتوالت انتصاراته خلال ثلاثين سنة وراح يلقب بقورش الأكبر ملك العالم، ثم اتبع سببا حتى وصل عام ٥٢٩ ق. م إلى منطقة قبائل (الماساجيتاي) الهمجية المحاربة على بحر قزوين، فأراد وضع يده على بلادهم.

وبعد ثلاثين سمة من حكم عادل وملك واسع ارتكب حماقة كبيرة، فعبر نهر (آراكسيس) إليهم، فأرسلت له ملكتهم (توميريس) أنه ليس عندنا ثروة بابل فتطمع بها وأرضنا جبلية وشعبنا محارب فضحك منها.

وقد مرت الحضارة الغربية بها ككل الحضارات العلمانية المادية:

فقد بدأت هذه الحضارة بهربها من الله وإنكارها للأديان، وثورتها عليها..

ثم كانت كلمات الحرية والديموقراطية ومصلحة الأمة تحرك مشاعر الجماهير في أوروبا وتسير الجيوش من أجل استعمار الشعوب وامتصاص خيراتها ودمائها.

ثم حصلت الحرب العالمية الأولى والثانية، وفقدت أوروبا حوالي ستين مليونا من زهرات شباها في ميادين الحرب، وانتهت الحرب ليفقد الشباب كل قيمة كان يتمسك بها، وانتهت هذه الكلمات، لم يعد للحياة أي معنى، وجاء عصر الجاز.. ابتداء من سنة (١٩٢٠م) واستبدل الشباب بأنهار الدماء التي جرت في الحرب أنهار الخمر الذي أصبح المهرب الوحيد للشباب القلق الفارغ، وانطلق الشباب يريد أن يستمتع ويشبع بهيمة الجنس وسعاره الحيواني، وأضحى المجتمع بحاجة ماسة إلى مستشفيات الأمراض الجنسية المريعة، وبحاجة إلى علوم النفس ومستشفيات الأمراض العصبية والعقلية.(انظر: الإسلام ومستقبل البشرية، عبد الله عزام)

(١) انظر هذه النماذج في (الزلزال العراقي) لخالص جلبي..

(٢) هناك من يرى بأن قورش هو ذو القرنين المذكور في القرآن الكريم، ولكن الخاتمة التي انتهت بها حياته تنفي هذا.

وفي خدعة حربية وقع الشاب (سبارغابيزيس) ابن الملكة أسيراً في يده فأرسلت له توميريس تستعطفه أن يطلق لها ابنها، ويكتفي بثلث مملكة الماساجيتاي فأبى.

ثم إن ابن الملكة لم يطق الإذلال والأسر فقتل نفسه، فغرقت الملكة في الأحزان وأرسلت له تقول:« إنني أقسم بإله الشمس سيدنا أن أعطيك دماً أكثر مما تستطيع شربه رغم كل شراهتك »

وفي غمرة غضبهم مزقوا الجيش الفارسي شر ممزق وقتلوا قورش نفسه.

وقد ذكر (روبرت غرين) في كتابه (القوة): أنها بحثت عن جثة قورش وعندما وجدتها قطعت الرأس ودسته في زق جلدي للشراب مملوء بالدم صائحة:« رغم أنني انتصرت عليك، وأعيش الآن، فإنك قد دمرتني بأخذ ولدي عن طريق الغدر، وانظر كيف انفذ تهديدي فلديك ما يشبعك من الدم »، وبعد موت قورش انحلت الإمبراطورية الفارسية وأصبحت في ذمة التاريخ.

وهذا المرض الإمبراطوري يتكرر على وتيرة واحدة عبر التاريخ..

لقد ذكر (توينبي) علة انتحار (آشور) بأن المؤرخ (كسنوفون) عندما مر في المنطقة بعد أكثر من قرنين من زوال آشور من مسرح التاريخ ذهل من فخامة التحصينات في منطقة خالية من السكان.

ولم يكن اسم آشور معروفاً حتى تم العثور عليه في منتصف القرن التاسع عشر، وعرف أن هذه الأمة بقيت قائمة لألفي سنة وأمسكت بمصائر شعوب المنطقة لفترة قرنين ونصف، وتسلطت على الأمم المجاورة بذراع حربية بطاشة ندر مثيلها فاحتلت كل المنطقة حتى مصر، وسوت مدنا كاملة بالأرض وحملت إلى الأسر شعوباً بأكملها: دمشق عام ٧٣٢ ق.م موساسير ٨٢٢ ق.م بابل ٦٨٩ صيدا ٦٧٧ ممفيس ٦٧١ وطيبة ٦٦٣ وسوسا ٦٣٩ ولم ينجو من عدوانهم سوى صور والقدس من جميع كبرى مدن الدول التي بلغتها الذراع الآشورية.

لقد ذكر (توينبي) أن الجائحة المروعة التي دفنت آشور لم تكن تقصيرا في الآلة الحربية، فقد كانت تفحص بدقة وإمعان وتجدد وتعزز حتى يوم دمارها، ولكنها ماتت بنزعة (انتحارية الروح الحربية) التي فرضت ضغطاً متواصلاً على الموارد، فحصل فراق بين متطلبات الآلة وتوسع الرقعة.

وهو نفس القانون الذي توصل إليه المؤرخ الأمريكي المعاصر باول كينيدي في كتابه (صعود وسقوط القوى العظمى) أن قانون (فرط التوسع) هو الذي أودى الإمبراطوريات المهالك في القرون الخمسة الفارطة. كما يحصل في الصدمة الطبية وفراق (الضغط) عن (النبض) فكلما تسارع النبض وانخفض الضغط كان مؤشر الصدمة أشد ومشى المريض باتجاه الموت.

يقول (توينبي) عن نهاية آشور:« إن المحارب الذي لا يقهر الذي وقف متحفزا في نينوى عام ٦١٢ ق.م كان في الواقع جثة في سلاحها أمكن المحافظة على انتصابها بفضل جسامة العتاد الحربي الذي ضيق الخناق على هذا المنتحر فمات به »

وعندما شعر الجيران المعذبون أن آشور لا تزيد عن جثة مختنقة في الدرع انقضوا عليها فقطعوها مثل العقبان. ويعقب (توينبي):« أن مصير آشور يعيد إلى الذهن لوحة (الجثة في سلاحها) كما حصل مع الفيلق

الإسبرطي في ميدان معركة لوكترا عام ٣٧١ ق.م والانكشاريين في الخنادق أمام فيينا عام ١٦٨٣م»

كانت نهاية آشور واحدة من الكوارث التاريخية العارمة التي أودت بالقوة الحربية الآشورية عام ٦١٤ — ٦١٠ ق. م و لم تتضمن دمار أداة الحرب الآشورية فحسب، ولكنها تضمنت كذلك محو الدولة الآشورية من الوجود واستئصال الشعب الآشوري، وهو مصير لا أحد يملك المناعة ضده.

قلت: ولكن أمريكا اليوم في منتهى قوتها.. ولعلك قرأت (نهاية التاريخ)[1]

ابتسم، وقال: بل هي في بداية سقوطها.. إن ما تفعله أمريكا اليوم، هو نفس غلطة دولة آشور وسيف تراجان الروماني واورانجزيب الهندي وكزركسيس الفارسي وورتي من اسرة هان من الصين والصليبيون عام ١٠٩٩م.

في عام ١٩٧٦ م خرج المؤرخ الفرنسي (ايمانويل تود Emmanuel Todd) على الناس بكتاب مثير يحمل عنوان (ما قبل السقوط) يتنبأ فيه بسقوط الاتحاد السوفيتي، وقد فاجأنا هذه الأيام بكتاب جديد يحمل عنوان (نعي القوة العالمية الأمريكية)

وفي المقابلة التي أجرتها معه مجلة در شبيجل الألمانية في عددها ١٢ \٢٠٠٣ قال إن أمريكا تعاني من كل (الأعراض الوصفية) التي تسم مرض انحدار القوى العظمى، فأمريكا يحصل فيها تحلل داخلي، ولا ينتخب معظم الناس، وتحكمها تدريجياً قوة أولغاريكية عسكرية.

نعم.. إن أمريكا اليوم هي العملاق الاقتصادي الأعظم في العالم ومقابل ٤,٥ بالمائة من سكان العالم فهي تنتج ٣١ بالمائة من الاقتصاد العالمي، والإنتاج السنوي لها يبلغ ١٠٤٥٥,٦ مليار دولار، وهي تضم ٢٩٠ مليون نسمة في أرض تتمتع بكل المناخات في خمسين ولاية من المحيط إلى المحيط، ومنها ينال جوائز نوبل أكبر عدد من العلماء، وهي تملك أعظم ترسانة أسلحة لم يحلم بها زيوس رئيس آلهة الأولمب أيام أثينا.

ولكنها مع ذلك تنحدر تحت جنون القوة إلى المنحدرات التي انحدرت لها سائر الحضارات.. فكل القوى العظمى في القرون الخمسة الفارطة أصيبت بنفس المرض ودلفت إلى القبر بنفس العلة وهي ظاهرة (فرط التمدد الاستعماري Expansion). فلم يمر على أمريكا وقت كما هو حالياً تقاتل في كل جبهات الأرض بنفس الوقت وتضع نفقات للتسلح والحروب يتجاوز مجموع العشر دول التالية لها في النفقات.

فهي تدفع ٣٢٩.١ مليار دولار لآلة الحرب (مقابل روسيا ٦٥ مليار والصين ٤٧ واليابان ٤٠.٣ وبريطانيا ٣٥.٤ وفرنسا ٣٣,٦ وأقلهم ألمانيا وهي تنفق ٢٧.٥ مليار دولار).. وهو ما يذكر بنموذج (دولة آشور) التي ماتت (مختنقة في الدرع) على حد تعبير (توينبي) فأحد الكوارث العارمة التي أودت بأقوى دولة في غرب آسيا كانت حماقة الروح الحربية.

وانتبه المؤرخ البريطاني (توينبي) إلى هذا التحول في مصير الأقلية (المبدعة) التي تبني الحضارة حينما تندفع الأكثرية خلفها بآلية (المحاكاة) لتنقلب بعد حين إلى أقلية مسيطرة تسوق الناس بالإكراه و(الكرباج).

---

(١) انظر: الزلزال العراقي، خالص جلبي، فصل(نعي أمريكا، ونهاية الديكتاتوريات العربية)

سكت قليلا، ثم قال: إن قانون موت الحضارات وانهيار القوى العظمى ينص عليه القانون الثاني للديناميكا الحرارية الذي صيغ لأول مرة عام ١٨٢٩م على يد الفرنسي (سادي كارنو Sadi Carno) وهو يدعى في العمل الهندسي بالتآكل، وفي البيولوجيا الشيخوخة، وفي الكيمياء التحلل، وفي علم الاجتماع الفساد، وفي التاريخ الانحطاط.

قلت: ولكن أمريكا لا تزداد إلا قوة.. وهي تطوق العالم أجمع.. وربما تلتهم الأوبيك، وتسيطر على النفط، وتتحكم في سعر البترول، وتعيد رسم خريطة العالم.

ابتسم، وقال: وسيصيبها في الأخير ما يصيب الجسم.. لا شك أنك تعرف أن الجسم إذا اتحدت عليه الأمراض، يبدأ بتشكيل المضادات في الدم، وتبدأ المقاومة، وفي النهاية سترحل أمريكا، وتبقى الدولة الصهيونية في فلسطين لوحدها مطوقة بحزمة من دول تطلب رأسها، ويكرر التاريخ دورته.

ليس ذلك فقط هو ما ينتظر أمريكا.. أو الغرب عموما..

إن هناك قنابل كثيرة في كل بيت وفي كل شارع وفي كل مدينة ستنفجر لتقضي على هذه الحضارة السدومية.. ستفجرها الفطرة السوية التي تختنق [1]..

إن الحضارة الغربية طائر عجيب يريد أن يطير بجناح واحد هو جناح المادة.. هو مثل الدجال تماما يرى بعين واحدة.. ولا يمكن لحضارة تطير بجناج واحد.. أو ترى بعين واحدة أن يكتب لها الاستمرار.

لقد تسلمنا ــ نحن أهل هذه الحضارة ــ قيادة البشرية بعد أن خضنا معركة شرسة مع الكنيسة، وبعد أن دفعنا ثمنا غاليا لنحطم القيود الوثيقة التي كبلتنا بها.. لقد نفضنا عن كاهلنا غبار القرون المتراكم، وانطلقنا لا نلوي على شيء.. لا نقبل وصاية من دين ولا من حزب، ولا نريد أن نؤمن بشيء يغل أيدينا، أو يحجر على عقولنا.

لكن الجوعة الروحية التي نعانيها لم يعد يشبعها شيء..

لقد حصل الفراغ الروحي الهائل، وحاولنا أن نقيم من العقل إلها يسد الفراغ النفسي الرهيب.. فلم يستطع..

لقد نصبنا تمثالا لإله العقل في إحدى المدن الفرنسية، وهو صورة أجمل امرأة في باريس، ودفعنا بأمثال (هيجل ونيتشه) لسد الفراغ من خلال المدرسة (العقلية المثالية) ولكن هيهات هيهات.

جاء (كومت) لينصب الطبيعة إلها مقام الكنيسة، ولكن لم تكن نتيجة محاولته تختلف عن المحاولات السابقة.

وجاء (ماركس) ليقيم من الإقتصاد إلها يسد الفراغ ويفسر التاريخ ويحلل سير الجنس البشري.. وكل هذه المحاولات باءت بالفشل الذريع.

يقول (ليبولد فلم دانز) في كتابه (الإنسان والضمير المأسوي الممزق):« إن الإنسان المنتمي إلى عصرنا هذا

---

(١) انظر: الإسلام ومستقبل البشرية، عبد الله عزام.

لا يؤمن بشيء ولا يفكر أو أنه لم يفكر بعد، ولكنه يعلم كثيرا أن نهاية المسيحية تشمل أيضا نهاية الأيدلوجيات الأخرى كالماركسية التي تجتاز من أجل ذلك أزمة عميقة، وإن هذه الأزمة ليست أبدا علامة حياة بل علامة موت»

ويقول المفكر (لاموني):« إن الجنس البشري بكامله يمشي بخطى حثيثة إلى الهلاك.. إنه في النزع الأخير كذلك الإنسان الجريح المسكين الذي لا يرجى له شفاء، فكثرة الأخطاء في حضارتنا تجرها إلى الغرق »

ومن هنا فإن سبب انهيار هذه الحضارة واضح بسيط، هو أنها قامت بلا دين واتخذت ربها وراءها ظهريا.

لقد قال (برجسبون) الفيلسوف الفرنسي يذكر هذه العلة الخطيرة:« إن فصل الدين عن العلم هو فناء محتوم للإثنين »

ويقول (برناردشو):« كنت أعرف دائما أن الحضارة تحتاج إلى دين، وأن حياتها أو موتها يتوقفان على ذلك »[1]

لقد وضع الكاتب الإنجليزي (كولن ولسون) في كتابه (اللامنتمي) يده على الداء فقال:« إن حل القديس بولس يعتبر أمرا غير مقبول بالنسبة لحضارة في منتصف القرن العشرين، حضارة ذات تطور ميكانيكي عال استمر ثلاثة قرون يصاحبه فراغ كبير لا تعرف الحضارة كيف تملؤه »

لقد استطاعت حضاراتنا أن تبدع في كل ما خضع لمقاييسها، فكل ما حللته في المختبر أو فحصته في مجاهرها أو راقبته من خلال التلسكوب أو شرحته بالمبضع أو وزنته بموازين الكتلة والضغط لديها أبدعت فيه إبداعا عجيبا.

ولذا فقد قدمت إنتاجا ماديا هائلا، وأضافت إلى وسائل الراحة الشيء الكثير الذي أراحت به الإنسان كثيرا..

لقد قربت المسافات ووفرت الأوقات.. لقد قدمت الطائرة والسيارة والثلاجة والمكيف، ولكنها فشلت أن تقدم شيئا واحدا للإنسان وهو (السعادة).. فشلت أن تقدم الراحة للقلوب والطمأنينة للنفوس والسكينة للإنسان والإستقرار للضمير والأعصاب، والسبب بسيط وهو: أن هذه الأمور تتعلق بالروح، والروح لا يشبعها إلا خالقها.. إن قضية السعادة تتعلق بالقلوب، ولا يفتح القلوب إلا خالقها علام الغيوب فيدخل ما شاء من السعاده.

بعد أن نطق (نيتشه) باسم الغرب، وتكلم بلسان حال الحضارة المادية الغربية من خلال فلسفته (هكذا تكلم زرادشت عن موت الإله ونشوء الإنسان السوبرمان).

عندما صاح:« مات الله وقد قتلناه، وإن الإنسانية تشيعه بمأتم حافل، ما الإيمان بالله إلا ضعف ونتيجة ضعف ».. بعد الهروب من الله بهذا الشكل الرهيب ازداد الشقاء.. بل الحضارة المادية هي التي أوقعت الإنسان في جحيم الشقاء المرير.

---

(١) انظر تهافت العلمانية للدكتور عماد الدين خليل، ص٥٦١.

ولهذا.. فإن الكل يشهد بأن حضارتنا في طريقها إلى السقوط.. أو هي بتعبير أفصح في حالة سقوط.. أو هي بعتبير أبلغ من ذلك كله سقطت..

يقول (ماكنيل):« إن الحضارة الغربية في الطور الأخير من أطوار حياتها الأشبه بالوحش الذي بلغت شراسته النهاية في انتهاكه لكل ما هو معنوي، وبلغ اعتداؤه ـــ على تراث السلف وعلى كل مقدس ومحرم ـــ قمته، ثم أغاص مخالبه في أمعائه فانتزعها وأخذ يمزقها ويلوكها بين فكيه بمنتهى الغيظ والتشفي »

إن الخواء الروحي والفراغ في حياة الغرب، وعدم وجود غاية كبرى يهدف إليها الإنسان، والجحود بالإله الذي تفزع إليه وقت الشدة والحزن، كل هذه أوصلت الغرب إلى المصير المؤلم والنهاية الأسيفة المحزنة، إنه الشقاء والتمزق الداخلي والتوتر العصبي والفزع وشبح هول الحرب المسيطر على الأخيلة، إنه الهروب من الحياة إلى الكحول ثم إلى المخدرات، وأخيرا لا بد من وضع حد لهذه الحياة البئيسة التعيسة بالإنتحار الذي هو إعلان عام أن الشقاء في النفس لم يعد يحتمل كما فعل (جاكوب مارينو، وآرنست همنغواي، ونيتشه، وغيرهم).

لقد لخص (شوينهار) حياة الغرب في كلمات فقال:« إن الحياة تتأرجح من اليمين إلى اليسار.. من الألم إلى الملل، وليستغث هذا الغرب المسكين إلهه إذا شاء.. إنه سيظل فريسة مصيره فالقدر لا يرحم »

لقد خنقت مداخن المصانع الروح الإنسانية في الغرب.. لقد قتلت الآلة صانعها ومهندسوها.. لقد تكدست أكوام الإنتاج والآلات على المجتمع الغربي فسحقته.. لقد تكومت أكداس النقود على القلب الغربي فخنقته.. لقد انطلق إشعاع الذرة فأباد الرحمة والخلق في أعماق الإنسان.

قلت: أراك مشؤوما غاية الشؤم..

قال: لست وحدي في ذلك.. لقد تتبعت كتابات كثير من أصحابنا.. وخاصة الكتاب الطليعيين، أو رواد مسرح اللامعقول من الوجوديين.. فرأيت العجب العجاب من القلق والضنك من خلال أسطرهم التي تفوح بالآلام وتعتصر بالأسى.

إن اليأس، والقلق، والأسى والألم، والصدمة، والملل، والعبث، والتمزق، والمأساة، والشقاء.. هذه العبارات لا تكاد تخلو منها صفحة واحدة من صفحات هؤلاء الكتاب، إقرأ إن شئت للكاتب الفرنسي (كامي) مسرحيات (الرجل المتمرد، سوء التفاهم، حالة الحصار..)[1]

يقول (كامي):« (ينبغي ألا نؤمن بشيء في هذا العالم سوى الخمر، إن صيحته هي الموت للعالم، حطموا كل شيء، يجب أن نلغي كل شيء، الإلغاء والإطاحة هو إنجيلي»

ويقول (إرثر ميللر) الأمريكي في مسرحيته (بعد السقوط):« إن أكثر الأماكن براءة في بلدي هو مصحة الأمراض العقلية، وكمال البراءة هو الجنون »

ويقول (سلاكرو) الكاتب الفرنسي:« إن الآلهة لا عمل لها إلا أن تعبث بحطام الإنسان »

واقرأ إن شئت مسرحيات (جان بول سارتر) الفرنسي (جلسة سرية، موتى بلا قبور، الأيدي القذره،

---

(١) انظر: كتاب فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر، عماد الدين خليل، ٣١-١٢١).

البغي الفاضلة، سجناء الطونا) واقرأ من كتبه: (موتة الروح، سبيل العقل، عصر الحرية، الذباب).

يقول (يونسكو) الفرنسي:« الواقع كابوس مؤلم لا يطاق ».. وطالع كتابه (قاتل بلا أجر)

الموت هو مشكلة المشاكل في نظر أصحابنا، فالموت يثير الرعب لأنه واقعة فظيعة في حد ذاتها.. بل لأنه يجعل كل الحياة التي سبقته عبثا، وسخفا كما يقول صموئيل بكت في كتابه (الأيام السعيدة):« فاليأس والعبث والألم والقلق هو عنوان الحياة الغربية»

يرى هيدجر أن الحياة الحقة تكون في اليأس، أما سارتر فيرى أن الحياة الحقة تكون فيما وراء اليأس، بل يقول سارتر: (الإنسان في صميمه قلق).

أما نيتشه ـــ الفيلسوف الألماني ـــ فيرى أن الإنسان بين التسليم والتمرد فوجوده تمزق وسلب وهو العالم اللامعقول ولا يجد الخلاص إلا بالجنون الذي يخلصه من تعاسته الحاضرة، ويرى نيتشه أن اليأس والقلق شرطان دائمان للفطرة، أم للعظمة الإنسانية.

أما كيرك جارد ـــ رائد الفلسفة الوجودية ـــ فيقول: إن الوجود معناه أن نعاني اليأس والقلق حتما، إن من يختار اليأس يختار ذاته في قيمتها الأبدية.

ولذا.. فقد حاول الإنتحار مرارا.

إن الوعي يظهر دائما في صورة القلق، وأما اليأس فهو الحد الذي يفضي إليه، لقد بقيت الكآبة القاتلة ملازمة لكيرك جارد حتى الموت.

هذه هي الملامح الرئيسية للعالم اليوم، والتي تبرز واضحة مجسدة في معطيات كبار الكتاب والمفكرين والأدباء، فوضى تأخذ بخناق العالم تبعثر كل متبقى فيه من نظام، وتسعى إلى تمزيق بقايا خيوط العنكبوت من القيم الغربية، والإنسان اليوم يرى هذا الإعصار الفوضوي المأساوي يحيق بالإنسانية ويدمر كيانها ويسحق آدميتها، آلية طاغية عارمة حولت الإنسان إلى آلة وسحقت كل تجارب الروح والوجدان، وجماعية صماء قضت على كل مطمح بالتفرد والنبوغ والتفوق والإبداع واختلال رهيب بين كفي المادة والروح، وعزلة غربية مضنية إزاء عالم أصم لا يستجيب لتوسلاته، وسقوط وتهافت في سائر النظم الوضعية السياسية والإجتماعية والعسكرية التي تمسك بزمام العالم اليوم، بالإضافة إلى الخوف العالمي من الدمار والحروب والقنابل الذرية.

٢ ـــ صمود الإسلام

قلت: لقد حدثتني عن المدى الذي صمدت فيه الأديان والمذاهب والحضارات.. فحدثني عن مدى صمود الإسلام.

قال: لقد ذكرت لك أنه لم يصمد دين من الأديان.. ولا مذهب من المذاهب.. ولا حضارة من الحضارات ما صمد الإسلام..

فمع أن الإسلام تعرض لجميع أنواع الضغوط والحروب، وتعرض أتباعه لجميع أنواع الشبهات والشهوات إلا أنه لم ينحن و لم يخضع.

صحيح أنه مر ببعض الفترات خيل لأعدائه فيها أنهم قد قضوا عليه.. ولكنه سرعان ما يعود في كل فترة غضا طريا كيومه الذي جاء.. وبالحماسة التي ولد بها.

قلت: ما سر ذلك؟

قال: أول سر لذلك هو بقاء مصادره سليمة صحيحة تقرأ كما كان يقرؤها محمد، وباللغة التي كان يقرؤها بها، وبالفهم الذي كان يفهمها به.. وذلك يعني أن الإسلام الذي جاء به محمد هو نفسه الإسلام الذي ظل بيننا.

إن مثال ذلك هو هذه الشجرة التي تجثو أمامنا بقوة وصمود عجيبين..

تصور لو أن هذه الشجرة انقطع رزقها.. أو اختلطت السموم بتربتها التي منها تتغذى، وبمائها الذي منه تستقي.

قلت: لو حصل ذلك لماتت الشجرة.

قال: ولو حصل ذلك في الإسلام لمات الإسلام.

لقد ظلت شجرة الإسلام تتغذى من مصادر الإسلام النقية الصافية، لتعطي بحسب استعدادات المسلمين كل حين من الثمار ما يظل مددا للمسلمين في جميع أجيالهم.

قلت: هذا السبب الأول.. فما الثاني؟

قال: نوع الغذاء الذي كانت تلك المصادر تغذي به من التجأ إليها.

قلت: ما تقصد؟

قال: أرأيت لو أن هذه الشجرة كان لها نهر ماء يسقيها.. ولكنه نهر مسموم.

قلت: سيقتلها إذن.

قال: لقد كانت المصادر المقدسة للمسلمين والتي هي الغذاء الذي يتغذون به.. والدواء الذي يستشفون به.. تحوي من الخصائص ما يجعلهم في منتهى القوة والصحة.

إن الغذاء الذي تمتلئ به تلك المصادر يناسب الإنسان تماما.. وكأنه مصنوع خصيصا من أجله.. هو غذاء يناسب الفطرة الإنسانية السوية بجميع أركانها..

هو يناسب العقل والروح والنفس..
وهو يناسب الفرد والمجتمع..
وهو يناسب الأمة والعالم..
وهو يناسب المصالح المتناقضة التي احتارت الأديان والمذاهب في التوفيق بينها..
ولذلك استطاع الإسلام أن يصمد في الوقت الذي سقط فيه الكل.

صمود المصادر

قلت: فلنبدأ بالمبدأ.. بالمصادر.. فالإسلام في حقيقته هو المصادر.

قال: صدقت.. لقد ظللت أقول لأصدقائي من المستشرقين الذين يحكمون على الإسلام من خلال المسلمين: خطأ ذلك الذي تفعلونه.. الإسلام لا تمثله تمثيلا صحيحا إلا مصادره.. أما المسلمون، فهم بشر منهم المحسن ومنهم المسيء، ومنهم القريب ومنهم البعيد.. ومنهم الذي تغذى بغذاء الإسلام الخالص، ومنهم من مزج بغذائه شيئا من أغذية الجاهلية.

قلت: فكيف نعرف صمود مصادر الإسلام؟

قال: في إمكانك أن تأخذ نسخة مطبوعة من القرآن من ماليزيا مثلاً، وأخرى من مصر، وثالثة من أمريكا.. ثم قارن بينها.. وبعد أن يتضح لك تطابقها قارنها بأي نسخة مخطوطة منه سواء في إحدى مكتبات الهند أو في أحد متاحف أوروبا لتجد الحقيقة عينها تتكرر لديك.

لقد ذكر البيهقي قصة واقعية رواها عن القاضي يحيي بن أكثم قال: دخل رجل يهودي على المأمون فتكلم فأحسن الكلام، فدعاه المأمون إلى الإسلام، فأبى، فلما كان بعد سنة جاءنا مسلماً، فتكلم فأحسن الكلام فقال له المأمون: ما كان سبب إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتك، فأحببت أن أمتحن الأديان، فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ، فزدت فيها ونقصت وأدخلتها الكنيسة، فاشتريت مني، وعمدت إلى الإنجيل، فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وأدخلتها البيعة، فاشتريت مني، وعمدت إلى القرآن، فعملت ثلاث نسخ فيها نقص وزيادة، وأدخلتها الوراقين فتصفوحها، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها، فلم يشتروها فعلمت أن هذا كتاب محفوظ، فكان هذا سبب إسلامي.

قال يحيى ابن أكثم: فحججت تلك السنة، فلقيت سفيان بن عينية، فذكرت له الحديث، فقال مصداق هذا في كتاب الله تعالى، قلت: في أي موضع؟ قال: قال الله تعالى في التوراة والإنجيل:﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ (المائدة: من الآية٤٤)، فجعل حفظه إليهم فضاع، وقال:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩) فحفظه فلم يضع »[1]

قلت: أتصدق ما قال هذا الرجل؟

قال: لقد رأيت ذلك بعيني كما أراك الآن.. وجاحد أنا إن أنكرت ما رأيته بعيني.

قلت: ولكن هذه المصادر تعرضت لشبهات كثيرة جدا.

قال: ووقفت في وجهها جميعا بإباء وثبات وصمود.

قلت: فلنتحدث حديثا علميا.

قال: لك ذلك.. مصادر الإسلام نوعان: أحدهما أصل.. وهو الكتاب المقدس للمسلمين.. القرآن

---

(١) الخصائص الكبرى:١٢٨/٣.

الكريم.. والثاني تابع.. وهو سنة محمد.. وهي المذكرة التفسيرية والتطبيقية للقرآن.

قلت: فهل حفظ كلاهما؟

قال: بل لم يذهب من كليهما حرف واحد.

١ ــ صمود الكتاب

قلت: فلنبدأ بصمود الكتاب[١].

قال: ليس هناك كتاب في الدنيا صمد صمود القرآن..

لقد صمد في وجه كل الحملات التي أرادت تشويهه..

لقد صمد في وجه المستشرقين والمبشرين بنفس القوة التي صمد بها في وجه أولئك القرشيين الذين استعملوا كل الوسائل للصد عنه.

١ ــ في وجه المستشرقين:

قلت: فلنبدأ بالمستشرقين.

قال: لقد كان المستشرقون بفضل القوالب التي أسسوها لأنفسهم، وبفضل المناهج التي اعتمدوها، وبفضل الموضوعية العلمية التي اشتهروا بها أكثر الناس حظا في مواجهة القرآن، فهم الجدار الأول الذي يحمي من بعدهم من المواجهين.

سأذكر لك بعض هؤلاء المستشرقين، وما واجهوا به القرآن.. لترى مدى التناقض العجيب الذي كتبت به أطروحاتهم وجدلياتهم.

إن الباحث الذكي يستطيع أن يستخرج من تلك الأطروحات ما يرد به على جميعها من غير أن يرجع إلى أي كتاب من كتب المسلمين.

فمن أطروحاتهم ما يتميز بنكهة **مسيحية**، مثل (ج. بوستل) الذي كتب حول (توافق القرآن والإنجيل) سنة (١٥٤٣ م).

ومثل كراديفو الذي كتب (الراهب بحيرا والقرآن) سنة(١٨٩٨ م).

ومثل فلهلم رودلف الذي كتب (صلة القرآن باليهودية والمسيحية)[٢]

ومثل جون بيرتون الذي كتب (جمع القرآن)[٣]

ومثل (ريجي بلاشير) الذي كتب (القرآن)[٤]

ومثل (بوم شتارك) الذي كتب (مذهب الطبيعة الواحدة في القرآن) في مجلة المشرق المسيحي سنة ١٩٥٣م

---

(١) انظر التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (الكلمات المقدسة)، وفيها رد واف على ما ذكره المبشرون والمستشرقون من الشبه في هذا المجال.

(٢) بترجمة عصام الدين حفني ناصف دار الطليعة. بيروت ١٩٧٤ م.

(٣) جامعة كمبردج ١٩٧٧ م.

(٤) ترجمة رضا سعادة وإشراف الأب فريد جبر دار الطليعة. بيروت ١٩٧٤ م.

ومثل سترشتين الذ كتب (القرآن: الإنجيل المحمدي) سنة (١٩١٨م).

ومثل ريتشارد بيل الذي كتب (أصل القرآن في بيئته المسيحية) في لندن سنة ١٩٢٦م، وأعيد طبعه عام ١٩٦٨م.

ومثل تور أندريا الذي كتب (أصل الإسلام والمسيحية) في أوسلو سنة ١٩٢٦ م.

ومنها ما يتميز بترعة **يهودية**، مثل الحاخام إبراهام جيجر الذي كتب (ماذا أخذ محمد من النصوص اليهودية؟)[١]

ومثل هيرشفيلد الذي كتب (العناصر اليهودية في القرآن) سنة ١٨٧٨م، و(مقالة في شرح القرآن) سنة ١٨٨٦ م، و(أبحاث جديدة في فهم القرآن وتفسيره)سنة ١٩٠٢م.

ومثل سيدرسكي الذي كتب (أصل الأساطير الإسلامية في القرآن) سنة ١٩٣٢م.

ومثل هورفيتز الذي كتب (بحوث قرآنية) سنة ١٩٢٦ م.

ومثل إسرائيل الذي كتب (شابيرو الحكايات التوراتية في أجزاء القرآن) سنة ١٩٠٧م.

ومثل جولد زيهر الذي كتب (العقيدة والشريعة في الإسلام)[٢]

ومثل س. د. جويتين الذي كتب (اليهود والعرب: علاقاتهم عبر التاريخ) سنة (١٩٥٥م).

ومثل بيرنات هيللر الذي كتب (عناصر يهودية في مصطلحات القرآن الدينية)، سنة (١٩٨٢ م).

ومثل جوزيف هاليفي الذي كتب (السامريون في القرآن) في (المجلة الآسيوية ١٩٠٨ م).

ومثل ج فانسبرف الذي كتب (المصادر وطرق لتفسير الكتاب المقدس)، والذي طبع بتمويل من جامعة لندن عام ١٩٧٢ م.

ومثل ميشائيل كوك الذي كتب (محمد)، وطبع في مطابع جامعة أكسفورد ١٩٨٧م.

ومثل رودي بارت الذي كتب (محمد والقرآن: تاريخ النبي العربي ودعوته)[٣]

قلت: لقد ذكر هؤلاء المستشرقون وغيرهم شبهات كثيرة حول القرآن.. أفلا تراها كافية لزعزعة ثباته الذي تزعمه له[٤]؟

---

(١) بون ١٨٣٣م، ط ٢ ليبزج ١٩٠٢ م، إعادة طبع ١٩٦٩ م.

(٢) ترجمة محمد يوسف موسى وزميله، القاهرة (١٩٤٨ م)

(٣) نشر دار كول هامر ضمن سلسلة أربان الألمانية عام ١٩٥٧ م. وأعيد طبعه ١٩٦٦م.

(٤) الشبهات المذكورة هنا وردت في موسوعتين إحداهما متخصصة والأخرى عامة، كل واحدة منهما تعد علمًا في مجالها ونموذجًا لهذا المجال:

أما الموسوعة المتخصصة، فهي دائرة المعارف الإسلامية بطبعتها الجديدة (The Encyclopaedia of Islam - New Edition)، وهي من الموسوعات التي لا غنى عنها للمشتغلين بالدراسات الإسلامية والشرقية.

وأما الموسوعة العامة فهي دائرة المعارف البريطانية (Encyclopaedia Britannica)، وهي تتمتع بانتشار واسع في دوائر المثقفين في سائر أرجاء العالم.

والفرق بينهما أن الموسوعة العامة تتجه إلى القارئ العادي غير المتخصص أكثر من اتجاهها إلى الباحث المتخصص فتكون أقل تفصيلًا من الموسوعات المتخصصة، ومن ثم فإن موادّها تناسب القارئ المتعجل الذي يريد أن يلمّ بأطراف الموضوع ويحصل فيه على نوع من المعرفة المتميزة دون التعمق فيه.

أما الموسوعة المتخصصة فتقتصر على مجال محدد تتناوله من مختلف جوانبه وفروعه دون غيره، كدائرة المعارف الإسلامية التي تعنى بكل ما يتعلق بالإسلام من علوم ومعارف.

وتعد الموسوعة البريطانية (دائرة المعارف البريطانية) أشهر الموسوعات العامة على الإطلاق، كما تعد أفضل موسوعة كتبت باللغة الإنجليزية، وهي توزّع على نطاق واسع في كل القارات، ويتباهى بتملكها المثقفون في كل أنحاء العالم.

وكانت قد طبعت لأول مرة في بريطانيا سنة ١٧٧١ في ثلاثة أجزاء بإشراف عدد من كبار العلماء البريطانيين في ذلك الوقت، ثم طبعت بعد ذلك عدة طبعات وصدرت طبعتها الرابعة عشرة في شيكاغو (أمريكا) سنة ١٩٢٩م في ٢٤ مجلدًا.

وكانت دائر المعارف البريطانية قد خلت من مادة مستقلة عن (القرآن) في طبعاتها القديمة التي أحيل فيها إلى الرجوع تارة إلى مادة (محمد) وتارة إلى مادة (الأدب العربي ﷺ) (انظر طبعتي ١٨٩٠و١٩٢٦م) حتى أفردت في طبعه سنة ١٩٢٩للقرآن مادة مستقلة تشتمل على ترجمة لكتاب ألماني بعنوان (موجزات شرقية) نشره المستشرق الألماني تيودور نولدكه (توفي سنة ١٩٣٠) في برلين سنة ١٨٩٢، وقد كان هذا الرجل الذي كتب مادة القرآن في تلك الطبعة كما وصفه المستشرق السويسري ستيفان فيلد Stefan Vild أجهل علماء عصره، وأشدهم عداوة للإسلام (انظر: ثابت عيد: الإسلام في عيون السويسريين، بافاريا، ألمانيا، ١٤٢٠ه – ١٩٩٩م. ص٢١٨)

أما طبعة سنة ١٩٧٤، وهي الطبعة الخامسة عشرة، فقد كتب مادة القرآن فيها باللغة الإنجليزية H. R (كذا دون تعريف كاف). وتقع هذه المادة في المجلد الخامس عشر، في نحو خمس صفحات على عمودين كاملين.

أما دائرة المعارف الإسلامية، وهي موسوعة متخصصة، فقد قرر مجلس إدارتها أن يضرب صفحًا عن طبعتها الأولى، ويعيد كتابة موادها من جديد، فصدرت الدائرة في طبعتها الجديدة بالاسم نفسه وأضيفت إليها عبارة الطبعة الثانية Encyclopaedia of Islam second Edition، وقام بكتابة مواد هذه الطبعة المستشرقون المحدثون وعدد من كتاب الطبعة السابقة ممن ظلوا على قيد الحياة لكي تتضمن خلاصة ما توصل إليه الفكر الاستشراقي الحديث من آراء ونتائج في مختلف الموضوعات الإسلامية.

وبدأت مجلداتها تصدر تباعًا من مطبعة بريل، بمدينة ليدن بهولندا منذ سنة ١٩٦٠م. ثم أعيد طبع هذه الطبعة نفسها مرة أخرى بعد ذلك في سنة ١٩٧٩.

ودائرة المعارف الإسلامية تتوسع في مقالاتها توسعًا يكاد يخرجها عن كونها مجرد إشارات سريعة تتيح أمام الباحث المبتدئ مساحة كافية تعينه على تكوين رأي خاص في الموضوع، بل توشك هذه المقالات أن تكون تقارير شبه كاملة تتضمن الكثير من التقرير والحسم، قلما يجد الباحث فرصة كافية لكي ينفك من تأثيراتها الغالبة وآرائها شبه النهائية ويكون لنفسه رأيًا خاصًا في موضوعاتها.

وإذا نظرنا إلى مادة (القرآن) التي كتبها باللغة الإنجليزية A.T.Welch في الطبعة الثانية المشار إليها، نجد أنها تقع في ٣٣ صفحة من القطع الكبير، بنبط صغير وعلى عمودين كاملين في كل صفحة، مما يساوي كتابًا بأكمله في الموضوع. وقد حشد الكاتب المادة بآراء كبار المستشرقين القدماء منهم والمحدثين في كل جزئية من جزئيات المقال، وبذلك توفر علينا هذه المادة عناء

قال: لقد خالطت أولئك المستشرقين المساكين، وعرفت المنهج الذي اتبعوه في ذلك.. إنه نفس المنهج الذي اتبعوه مع الكتاب المقدس، واستطاعوا بواسطته أن يبينوا مصدره البشري.. إنه ما يسمونه النقد الأعلى[1] والأدنى[2].

لقد كانت محاولتهم مع كتابنا المقدس غاية في السهولة، ذلك أن العهدين: القديم والجديد يمثلان أرقى إنتاج متطور عبر العصور؛ فهما لم يُؤَلَّفا دفعة واحدة أو بقلم واحد، بل مرًّا بمراحل تطور تاريخية وأدبية يمكن رصدها وتحليلها، حيث مرّ في مرحلة تكوينه: تأليفًا وجمعًا وتثبيتًا، بما يزيد على ألف عام بالنسبة للعهد القديم، وما يقارب نصف الفترة بالنسبة للعهد الجديد، وفي تلك الرحلة الطويلة تغيرت المضامين الدينية عبر مراحل التطور، وتغير البناء التركيبي للنصوص أدبيًّا ولغويًّا، مما استوجب بحثًا نقديًّا تاريخيًّا، يفسّر، ويبيّن، ويفصل ما

البحث عن الشبهات المختلفة للمستشرقين في هذا المجال (انظر: الشبهات المزعومة حول القرآن الكريم، للدكتور: محمد السعيد جمال الدين)

(١) يقصد بالنقد الأعلى، أنه لا بد للباحث أن يستخدم قاعدة الشك المنهجي، فلا يجزم بشيء يتعلق بالراوي إلا بعد التثبت من ذلك بأسباب قوية.

ففيما يتعلق بالراوي لا بد من الإجابة عن أسئلة كثيرة، مثل: من الراوي، وما سيرته وما أخلاقه، وما غايته؟.. ومتى كتب كتابه، وفي أي وقت، ولمن كتب؟.. وما مدى تحقق شروط العدالة الأخلاقية والضبط العلمي فيه.

وما البيئات السياسية والاجتماعية والأحداث التاريخية والصراعات العقدية التي عاصرها؟.. وما مدى انعكاسها على الكاتب وبالتالي على النص؟

وكيف جمع النص أولًا، وما الأيدي التي تناولته، وما النسخ التي اشتمل عليها؟

(٢) يقصد بالنقد الأدنى وجوب دراسة لغة الكتاب المقدس (العبرية) لفهم المعنى المقصود دون تدخل من المترجمين.

ويرون أنه لا يؤخذ النص ككل، بل يحلل إلى أجزاء، ويدرك كل جزء على حدة، ثم تجمع العبارات في أقسام رئيسة وتفرز العبارات الواضحة من العبارات المبهمة والمعارضة لفظيًّا، مع تطبيق قاعدة الحقيقة والمجاز اللفظي لا المعنوي في شأن هذه العبارات.

وبعدها يأتي التحليل الداخلي الدقيق للنص للعثور على الأخطاء والاختلافات والتناقضات كالأخطاء الطبيعية والرياضية، أوأن يذكر الحديث في أكثر من موضع بشكل مختلف من حيث تحديد الزمان والمكان والعناصر زيادة كانت أو نقصًا، أو إثبات شيء في موضع ونفيه في موضع آخر، أو ذكر قاعدة شرعية في موضع ونفيها في موضع آخر، أو ورود لفظ لا يمكن أن يكون قد استعمل بهذه الدلالة إلا في عصور لاحقة، أو تباين الأسلوب الأدبي بين أجزاء النص.

وبعدها ملاحظة تطور الفكر العقدي من عصر إلى آخر، لاكتشاف اختلاف تواريخ كتابة أجزاء النص.

وقد أغرى نجاح هذا الأسلوب مع الكتاب المقدس المستشرقين المشتغلين بالدراسات الإسلامية على تطبيق المنهج نفسه على القرآن الكريم، لعلهم يحققون به مع القرآن نتائج مماثلة لما حققها نقاد الكتاب المقدس.

انظر: الشبهات المزعومة حول القرآن الكريم، د. محمد السعيد جمال الدين.

ولتفاصيل تطبيق هذا المنهج على كلا المصدرين: القرآن الكريم والكتاب المقدس انظر الرسالة الخاصة بذلك (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

بين تلك المراحل[1].

ولكنهم حين حاولوا ذلك مع القرآن، لم يجدوا إلا شبهات أوهي من بيت العنكبوت حاكوها بأهوائهم من غير منهج علمي موضوعي.

لقد كانت أول محاولة لتطبيق قواعد هذا المنهج على القرآن هي ما قام به المستشرقون من أصحابي في شأن ترتيبه حسب الترول[2].

وقد توسع صاحبي المستشرق الألماني (تيودور نولدكه) في دراسة النص القرآني لترتيبه زمانيًّا حسب نزوله، فاتجه إلى تقسيم السور المكية من القرآن إلى ثلاث فترات يتميز أسلوب النص القرآني في كل منها عن الآخر.

وقد تأثر صاحبي هذا بمنهج نقد الكتاب المقدس، والذي كتبت أسفاره ـــ كما تبين بالدراسة الفاحصة ـــ على فترات متباعدة تفصل بينها أحيانًا عشرات بل مئات السنين.

لقد لاحظ الدكتور عبد الرحمن بدوي مدى المغالطات التي حملها هذا المنهج، فقال معلقًا على صنيع نولدكه:« فيما يخص الأسلوب، فلو كان مفيدًا في التمييز بين الفترات الطويلة، فلن يفيد فيما يتعلق بالتمييز بين التتابع التاريخي للسور في فترة قصيرة في الواقع أن كل الفترة المكية لا توفّي إلا ١٢ سنة من ٦١٠ – ٦٢٢م، فبأي حق ندعي إذًا التمييز بين أسلوب كاتب خلال ١٢ سنة فقط؟ ناهيك عن استطاعتنا التمييز في تلك الفترة بين ثلاث فترات قصيرة »

وقد ختم الدكتور عبد الرحمن بدوي تعقيبه هذا بقوله:« إنه من الشطط، إن لم يكن من الكذب، أن

---

(١) محمد خليفة حسن، آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، ص ١٠٢.

(٢) صنّف المبشرون من أتباع مدرسة النقد التاريخي عدة مصنفات ضد أصالة القرآن الكريم تضعه في مصافّ الأعمال ذات المراحل التطورية المتعاقبة، ومن هذه المصنفات:

١. تاريخ القرآن، بوتيه (١٨٠٠ ـــ ١٨٨٣م)، باريس ١٩٠٤م.

٢. التطور التاريخي للقرآن، إدوارد سل، مدارس (الهند) ١٨٩٨م.

٣. القرآن، فلهاوزن (١٨٤٤ ـــ ١٩١٨م) مقال بالمجلة الشرقية الألمانية عام ١٩١٣م.

٤. مواد لدراسة تأريخ نص القرآن، آرثرجيفري، ليدن ١٩٣٧م.

٥. تاريخ النص القرآني، أجناس جولدتسهر، جوتنجن ١٨٦٠م، وقد أعيد طبعه والتعليق عليه في مجلدين بواسطة ف. شواللي، ليبتزج ١٩٠٩م.

٦. تاريخ النص القرآني، نولديكه.

٧ . تاريخ قراءات القرآن، برجشتراسر.

وذلك بخلاف المداخل التي صنفها محادلو التبشير للتعريف بالقرآن الكريم وتناولت قضية (مصادر القرآن)، (تاريخ القرآن)، مثل المدخل الذي وضعه: بلاشير الفرنسي ونُشر في باريس ١٩٤٧م بعنوان (مدخل إلى القرآن)، والمدخل الذي وضعه: د. بل، ونشر في أدنبرج ١٩٥٤ م بعنوان (مدخل إلى القرآن)

انظر: عمر رضوان، آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره (١/٢٢٠ ـــ ٢٣١).

نزعم استطاعتنا ترتيب السور تاريخيًّا في الفترة المكية حسب الأسلوب»[1]

هذا النقد لاستعمال هذا المنهج مع القرآن ليس خاصا ببدوي.. بل إن عددا من كبار المستشرقين لاحظوا عدم جدوى تطبيق قواعد النقد الأعلى والأدنى على النص القرآني، لقد قال المستشرق الإنجليزي آربري في ذلك:« أنا ألحّ على الرأي القائل بأن عملًا خالدًا كالقرآن لا يمكن أن يفهم بصورة أحسن لو أخضعناه لتجربة النقد الأدنى، إنه أمر خارج عن الموضوع أن تتوقع أن المواضع المطروحة في السور المستقلة سوف تنظم بعد عملية إحكام رياضي بعض الشيء لتشكل نموذجًا منطقيًّا.

إن منطق الوحي ليس منطقًا مدرسيًّا، فليس هناك (قبل) و(بعد) في رسالة النبي، عند ما تكون هذه الرسالة صادقة فإن الحقيقة الدائمة لا يمكن أن تحصر داخل إطار زمني أو مكاني، ولكن كل لحظة تعرض نفسها بشكل كلي مطلق »[2]

وبمثل هذه الصراحة التي أدى إليها المنهج العلمي الموضوعي صاح المستشرق السويدي (تور أندريه) صاحب كتاب (محمد: حياته وعقيدته).. لقد صارح بمعارضة هذا المنهج العقيم الذي سلكه بعض المستشرقين في البحث، مبينًا أن جوهر النبوة لا يمكن تحليله إلى مجموعة من آلاف العناصر الجزئية، ومهمة الباحث ــ كما ذكر ــ هي أن يدرك في نظرة موضوعية كيف تتألف من العناصر والمؤثرات المختلفة وحدة جديدة أصيلة تنبض بالحياة[3].

التفت إلي، وقال: أنت ترى كيف ألمح كل من آربري وتورأندريه إلى عيوب تطبيق منهج النقد الأعلى والأدنى على دراسة النص القرآني.

لقد حصرا تلك العيوب في طريقة تحليل النص إلى أجزاء صغيرة وفق أصول الكم الرياضي والكيف المنطقي والترتيب الزماني، وتنبّها إلى أن النص القرآني يعلو على هذه المعايير كلها، وهذا كله حق بلا جدال.

قلت: فهل ترى شيئا آخر غير ما ذكرا؟

قال: أجل.. ربانية القرآن.. إن القرآن يصيح في كل آية من آياته بأنه كلام الله، ومحمد يصيح بمثل ذلك.. بل لغة القرآن كلها تدل على هذا..

فلذلك أرى أن المنهج الصحيح أن نتعامل مع القرآن على ضوء هذا.

قلت: إنك بذلك تدعو إلى الإسلام.

قال: لم أقصد ذلك.. أقصد أن نفترض صحة قول القرآن بأنه كلام الله، ثم نتعامل معه بما نشاء من النقد

---

(١) دفاع عن القرآن، ص ١٠٧-١٠٨، وللدكتور بدوي آراء أخرى في نقد نولدكه، انظر ص ١٠٧.

(٢) من مقدمة أربري لترجمة القرآن الإنجليزية، الطبعة الأولى، ١٩٥٥، انظر: أحمد سمايلوفيتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، طبع مصر ١٩٨٠م، ص ١٧٣ – ١٧٤.

(٣) انظر: الدكتور التهامي نقرة: القرآن والمستشرقون، مقال في كتاب (مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية)، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٥ه (١٩٨٥م): ١/ ٢١-٥٧

على هذا الأساس.

أليس الأصل هو تصديق القائلين؟

قلت: بلى..

قال: لقد كان الأصل أن نتعامل مع القرآن على هذا الأساس، ولكنه للأسف لم نر إلا منطق الشك الذي لا مبرر له.

بل أحيانا تجد هؤلاء يقعون في تكلف لا مبرر له جعل بعض الباحثين، وهو الدكتور السيد محمد الشاهد، يقول بسخرية:« من أين لأعجمي ادعاء أن القرآن فيه ركاكة في اللغة.. هذا القرآن الذي أصبح فيما بعد مقياس اللغة العربية.. إلى أن يرث الله الأرض من وعليها، فلو أني اهمت أسلوب جوته الشاعر الألماني بالركاكة لسخر الناس مني، رغم إلمامي باللغة الألمانية، وإجادتي لها لدرجة التأليف بها، فكيف بمستشرق يفهم العربية باستعمال القواميس »[1]

سكت قليلا، ثم قال: سأضرب لك بعض الأمثلة على فساد هذا المنهج الذي لو طبق على أي حقيقة في الدنيا لألغاها:

فمن الشك الذي وصفوه بالمنهجية، والذي دعاهم إلى تطبيقه ما يسمى بالنقد الأعلى **الشك في الراوي**، فلهذا راحوا يستعملون كل الأساليب، بل اختلاق جميع الأكاذيب حول سيرة محمد وأخلاقه وغايته، وجمع كل المفتريات في القديم والحديث وحشدها للقدح في ذلك كله، وبذر بذور الشك في نبوته[2].

ومنه محاولة **حصره في حدود الطاقات والتصورات البشرية**، ولهذا وصفوا كل ما يخرج فيه عن دائرة قدرة العقل البشري والمدركات الحسية في نطاق الأسطورة.

ولهذا اعتبروا من حق الباحث اعتمادًا على عقله وحواسه، وعلى أصول المنطق والمعرفة المتراكمة التاريخية والعلمية أن يرفض أي حقائق تتجاوز الواقع المادي المحسوس، كالغيبيات والعقائد، ويبدو كل ما يتجاوز الواقع المادي خرافة غير قابلة للتصديق.

وهذا يعني الطعن في ما ورد بالقرآن من غيب كالطعن في الألوهية والوحي والملائكة واليوم الآخر والجنة والنار، وما يخرج عن نطاق التاريخ الإنساني المدون[3].

ومنه محاولة **إبراز أثر البيئة**، والزعم بتأثير ما راج بين العرب قبل عصر النبوة من مقولات يهودية

---

(١) قال ذلك في في كتابه: التوحيد والنبوة والقرآن في حوار المسيحية والإسلام، انظر: الإسلام في عيون السويسريين للدكتور ثابت عيد، ص ١٩٨.

(٢) انظر الرد المفصل على هذه الشبهات في رسالة (النبي المعصوم) من هذه السلسلة.

(٣) كمثال على ذلك انظر ما ورد في دائرة المعارف الإسلامية، مادة (القرآن) عن آية الكرسي، وقول كاتب المادة إن لفظي العرش والكرسي ينطويان على « دلالات أسطورية»، ومثل ذلك كلامه على الشهب المرسلة ونفخ الصور يوم القيامة وطوفان نوح وغيرها.

ومسيحية ووثنية على النص والتدليل على ذلك بأكاذيب شتى واضحة البطلان والتماس المشابهات بين ما ورد بالنص القرآني وكل من التوراة والإنجيل من ألفاظ وقصص.

وحين يعييهم البحث عن أي تشابه في الألفاظ يشتطون في الكذب والاختلاق، أما القصص فحين انتابهم اليأس من العثور على أصول لقصص عاد وثمود في العهد القديم شك بعضهم في هذه الأقوام أصلًا، بينما ردّها آخرون إلى أثر المرويات الشفوية التي كانت رائجة في البيئة العربية قبل عصر النبوة، ولا دليل لهم عليه [1].

ومنه النظر إلى **آيات القرآن باعتبارها مرتبطة بزمان معين**، ومشدودة الوثاق بظروف البيئة والعصر الذي نزلت فيه، لا باعتبارها أحكامًا نهائية مطلقة خارجة عن إسار الزمان والمكان قد اكتسبت صفة الديمومة والخلود.. كما لاحظ ذلك صديقي المستشرق آربري في تصريحه الذي ذكرته لك.

وقد أدت بهم هذه النظرة إلى الفشل الذريع الذي منيت به محاولاتهم المتكررة لتقييد النص القرآني بقيود تاريخية وترتيبه حسب الزمن.. بل كانت مقولتهم هذه هي الأساس في اعتبارهم الإسلام حدثًا تاريخيًّا حدث في حينه، لم يكتب له الامتداد في التطبيق الواقعي، أو لم يعد صالحًا للتطبيق[2].

ومنه تمسكهم بالمفاهيم الغربية في النقد الأدبي، **كاشتراط وحدة الموضوع** في كل سورة من السور، وتمسكهم المتعسف بضرورة أن يكون موضوع كل سورة موضوعًا موحدًا، وبالتالي دراسة البناء الداخلي لكل واحدة من السور بمعزل عن غيرها، كما قال كاتب مادة (القرآن) بدائرة المعارف البريطانية:« قلما نجد فكرة واحدة نوقشت مناقشة كاملة في سورة واحدة »

ومثله ما قاله رودي باريت:« ولا يصح أن يظن أن من الممكن مع مرور الأيام توضيح نشأة جميع السور وفهم بنائها الداخلي على أنها وحدة مترابطة الأجزاء »[3]

ومنه محاولتهم **وضع نماذج وأطر معيارية لصيغ القرآن وأساليبه** الإنشائية والخبرية، وهي المحاولة التي باءت بالفشل وعبّر عنها كاتب مقال القرآن بدائرة المعارف الإسلامية بقوله:« إن طبيعة القرآن وترتيبه تجعل

---

(١) انظر ما أثبته علم الآثار في هذا المجال في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة، وقد فسر الأستاذ عباس محمود العقاد سكوت العهد القديم عن عاد وثمود بأنه محاولة من الكتبة للتعفية على كل رسالة إلهية في أبناء إسماعيل (العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء، ص ١١٩)

وليس هذا صحيحا من الناحية التاريخية لأن عادا وثمود كانا قبل إسماعيل عليه السلام وليسا من ذريته.

وربما يكون مقصوده التعفية على كل رسالة من غير بني إسرائيل، وخصوصا من العرب.

والأرجح من ذلك كله هو أن الكتاب المقدس في أصله تأريخ لبني إسرائيل، وما دامت عاد وثمود لم تدخل في أنساب بني إسرائيل، فلم يكن هناك مبرر لذكرها.

(٢) انظر: محمد قطب: المستشرقون والإسلام، ص ٦٠.

(٣) البحوث القرآنية، مقال من كتاب ألمانيا والعالم العربي، ترجمة مصطفى ماهر وكمال رضوان، بيروت: ١٩٧٤، ص ٣٤٧-٣٥٧.

انظر الرد على هذه الشبهة وما يبين سر هذا النظم القرآني الخاص في رسالة (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

من الصعب تصنيف صيغه الأدبية أو تنظيم موضوعاته الرئيسة، وأية محاولة لتصنيف أجزاء القرآن وفق النماذج الأدبية المعيارية تصاب بالانهيار على الفور »

ومنه محاولاتهم المستميتة في البحث عن **مصادر القرآن**، فكونه كلام بشر يقتضي البحث المصادر التي استقى منها أفكاره وتصوراته.

فإن وجدوا في القرآن شيئا شبيها بما في الكتاب المقدس نسبوه إليه، و لم يقولوا بأن القرآن صدق الكتاب المقدس في هذا.

وإن وجدوا أشياء لم يذكرها الكتاب المقدس اعتبروها مردودة، وأطلقوا عليها (غرائب تثير الدهشة) و(أساطير)

ونسبوها إلى البيئة العربية أو إلى روايات من قصص تقليدية توجد في ثقافات الشرق الأدنى، وقد عدّلت لتتطابق مع النظرة العالمية وتعاليم القرآن، ويضربون لذلك أمثلة لا يمكن إن لم يكن من المستحيل التأكد بأن لها أصولًا في ثقافات الشرق القديم، لأن البحث في تلك الثقافات لم يرق إلى درجة اليقين بما كانت تشتمل عليه من تصورات وأفكار.

وإذا ورد في النص القرآني ما يثبت العلم الحديث حقيقة وقوعه ويقع في دائرة المعطيات الحسية.. فإنهم يبادرون إلى التشكيك فيه.

التفت إلي، وقال: هذه بعض الشبهات التي أفرزها الافتراض الذي افترضوه.. وهو بشرية القرآن.. وهو ينطلق من تكذيب ما أخبر به القرآن عن مصدره الإلهي.

قلت: إنك تحصي الشبهات إحصاء، وهذا يدل على اهتمامك الشبيه بالموضوع.

قال: أجل.. أنا أهتم بالموضوع اهتماما لا يقل عن اهتمامي بصمود هذه الشجرة.

قلت: إن لدي بعض الشبهات قرأتها عن هذا النوع من المستشرقين، وأرى فيها من القوة ما لا يمكن رده، فإن شئت ذكرتها لك لعلها ترد عنك هذا الذي تتوهمه حول ربانية القرآن.

قال: اعرض ما تشاء.. لقد بحثت في هذه المسائل بحثا عميقا.. ولا أحسبك تخرج بشبهك عما بحثت فيه.

أصل كلمة (قرآن):

قلت: أول شبهة تثير الانتباه هي **أصل كلمة (قرآن)**، والكلمات التي تدل على معناها، والمصطلحات القريبة منها.

فأكثر المستشرقين يؤكدون صحة النظرية التي قال بها شفالي في كتابه (تاريخ القرآن)، وهي أن (القرآن) قد اشتق من كلمة (قرياءنا) السريانية، ومعناها: القراءة المقدسة، والدرس، وقد اعتمد في ذلك على مخطوطة سريانية من القرن السادس موجودة بالمتحف البريطاني.

ليس هذا فقط، فهناك مصطلحات أخرى وثيقة الصلة بالموضوع:

فالمعنى الأصلي للفظ (آية) كالكلمة الشبيهة في العبرية (أوث)، والسريانية (آثا)، وهي العلامة والدليل، وتأتي كرمز لحقيقة غير مرئية.

وكلمة (سورة) تبدو مشتقة من (صورطا) أو (سورثا) السريانية، ومعناها (الكتاب المقدس)
وكلمة (مثاني) مشتقة من (مشنا)العبرية، أو من (ماثنيتكا) السريانية أو الآرامية.
وكلمة (حكمة)، والتي ربما جاءت من الكلمة الآرامية (حخما)
فهذه الكلمات جميعا ترجع إلى أصول عبرية أو سريانية أو آرامية..

ابتسم، وقال: لا شك أن هذا ليس ناتجا عن بحث موضوعي.. إنه كتعلق الغريق بقشة.. إن هؤلاء المساكين يهدفون من وراء هذا التشكيك في أصالة المصطلحات الرئيسة في القرآن وردّها إلى أصول عبرية أو سامية أو آرامية إلى التمهيد للقول بأن القرآن من اختراع محمد وتأليفه، وأنه قد تعلم هذه الألفاظ من اليهود والمسيحيين.

وهم بذلك يريدون أن يبينوا أن هناك اتصالًا وثيقًا بين القرآن والمصادر المذكورة، وأن هذا الاتصال إنما يبدأ بكلمة (القرآن) نفسها التي ليست في الواقع إلا كلمة مأخوذة من السريانية.

لقد ناقش الدكتور عبد الرحمن بدوي هذه المزاعم، ورد عليها قائلا:« ولكي نفترض صحة هذا الزعم فلا بد أن محمدًا كان يعرف العبرية والسريانية واليونانية، ولا بد أنه كان لديه مكتبة عظيمة اشتملت على كل الأدب التلمودي والأناجيل المسيحية ومختلف كتب الصلوات وقرارات المجامع الكنسية وكذلك بعض أعمال الآباء اليونانيين وكتب مختلف الكنائس: الملل والنحل المسيحية »

ثم عقب على هذا قائلا:« هل يمكن أن يعقل هذا الكلام الشاذ لهؤلاء الكتاب، وهو كلام لا برهان عليه.. إن حياة النبي محمد ﷺ قبل ظهور رسالته وبعدها معروفة للجميع.. ولا أحد قديمًا أو حديثًا يمكنه أن يؤكد أن النبي كان يعرف غير العربية، إذًا كيف يمكن أن يستفيد من هذه المصادر كما يدَّعون »[1]

بالإضافة إلى هذا، فإن اللغات العربية والعبرية والسريانية تنتمي إلى سلالة لغوية واحدة هي سلالة اللغات السامية، ولا بد من أجل ذلك أن يكون بينها الكثير من التشابه والتماثل.

ومن ثم فإن القول بأن إحدى اللغات قد استعارت ألفاظًا بعينها من أخواتها هو ضرب من التعسف، ما لم يقم عليه دليل[2].

كما أنه من المستحيل الآن بسبب غموض تاريخ اللغات السامية أن نحدد من اقتبس هذه الألفاظ المشتركة من الآخر: العربية أم العبرية.. وهذا كاف في الدلالة على إثبات تفاهة حجج من توسع من المستشرقين في باب

---

(١) دفاع عن القرآن، ص٢٨.

(٢) ومن أطرف ما يذكرون في هذا الباب أن لفظ الجلالة (الله) عبرى أو سرياني، وأن القرآن أخذه عن هاتين اللغتين.
مع أن اللفظ (الله) ليس له وجود فى غير العربية، فالعبرية مثلاً تطلق على (الله) عدة إطلاقات، مثل ايل، الوهيم، وأدوناى، ويهوا أو يهوفا. فأين هذه الألفاظ من كلمة (الله) فى اللغة العربية.
وفى اللغة اليونانية التي ترجمت منها الأناجيل إلى اللغة العربية نجد (الله) فيها (الوى)، وقد وردت فى بعض الأناجيل يذكرها المسيح عليه السلام مستغيثاً بربه هكذا (الوى الوى) وترجمتها إلهى إلهى، انظر: شبهات المشككين.

الاشتقاق من اللغات السامية[1].

قلت: ولكن علماء المسلمين يقرون بوجود مفردات غير عربية الأصل فى القرآن، ويذكرون منها (مِنْسَأَة) بمعنى عصى فى سورة (سبأ)، ومنها (اليم) بمعنى النهر فى سورة (القصص) وغيرها.

قال: ما ذكر من ذلك غير صحيح.. فليس في القرآن كلمات غير عربية الأصل اللهم إلا أسماء الأعلام مثل (إبراهيم، يعقوب، إسحاق، فرعون)، وهذه أعلام أشخاص.

ما عدا ذلك، فكل الكلمات التي نطق بها القرآن كلمات كان يعرفها العرب، ويتداولونها فيما بينها.

بالإضافة إلى هذا كله، فإن وجود مفردات أجنبية فى أى لغة سواء كانت اللغة العربية أو غير العربية لا يخرج تلك اللغة عن أصالتها، فمن المعروف أن الأسماء لا تترجم إلى اللغة التى تستعملها حتى الآن، فالمتحدث بالإنجليزية إذا احتاج إلى ذكر اسم من لغة غير لغته، يذكره برسمه ونطقه فى لغته الأصلية ومن هذا ما نسمعه الآن فى نشرات الأخبار باللغات الأجنبية، فإنها تنطق الأسماء العربية نُطقاً عربيًّا.

ولا يقال: إن نشرة الأخبار ليست باللغة الفرنسية أو الإنجليزية مثلاً، لمجرد أن بعض المفردات فيها نطقت بلغة أخرى.

والمؤلفات العلمية والأدبية الحديثة، التى تكتب باللغة العربية ويكثر فيها مؤلفوها من ذكر الأسماء الأجنبية والمصادر التى نقلوا عنها، ويرسمونها بالأحرف الأجنبية والنطق الأجنبى لا يقال: إنها مكتوبة بغير اللغة العربية، لمجرد أن بعض الكلمات الأجنبية وردت فيها، والعكس صحيح[2].

محمد والقرآن:

قلت: ومن الشبهات التي عرضها أصحابك من المستشرقين قول بعضهم بأن كتاب الإسلام المقدس، وتجربة محمد النبوية ترتبطان ارتباطًا وثيقًا بحيث لا يمكن فهم أيهما فهمًا كاملًا دون الآخر.

ثم يشير إلى ما استقر عليه الرأي من أن الله في القرآن هو المتكلم دائمًا، وأن محمدًا هو المتلقي، وأن جبريل هو وسيط الوحي.

ويضيف: ولكن تحليل النص يبين أن الموقف أشد تعقيدًا من هذا.

ويبدأ هذا المستشرق في عرض نصوص من القرآن لبيان العلاقة التي تربط بين أطراف القضية الثلاثة: المتكلم، والوسيط، والمتلقي، استنادًا إلى منهج (النقد الأعلى والأدنى)الذي يعمد إلى تحليل هذه النصوص، وربط بعضها ببعض ربطًا تاريخيًّا.

---

(١) انظر: تعليقات إبراهيم عوض في كتابه (دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية: أضاليل وأباطيل)، وهو الكتاب الذي ألفه في نقد ما كتب في الطبعة الأولى من الدائرة المذكورة، حول آراء المستشرقين في المسائل اللغوية، وما أثبته من وجود عدد كبير من هذه الألفاظ في الشعر الجاهلي قبل نزول القرآن الكريم.

وانظر: شبهات المشككين.

(٢) انظر الرد على وجود كلمات أعجمية في القرآن في (شبهات المشككين)، وانظر (الكلمات المقدسة)

قال: فلنبدأ بمعالجة ما ذكره واحدا واحدا..

قلت: لقد بدأ بالطرف الأول، وهو **المتكلم**، فقال:« فيما يبدو أن الأجزاء الأقدم من القرآن، لا يتبين المتكلم أو مصدر الوحي، ففي بعض السور كسورة الشمس، والقارعة، والتكاثر، والعصر لا نجد حتى مجرد إشارة بأن الرسالة تأتي من الإله »[1]

ابتسم، وقال: وهل هذه السور هي أول ما نزل من القرآن.. إن الجميع منا معشر المستشرقين، ومن المسلمين، يعتقدون بأن أول ما نزل من القرآن سورة العلق[2]، ففي أول آياتها:﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾(العلق)

ثم إن ما ورد في سورة الشمس ينفي مزاعمه ففيها هذه الآيات:﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧)﴾(الشمس)، فهذه وغيرها كلها إشارات إلى الخالق وصنعه في الكون وفي النفس البشرية.

قلت: وهذا المستشرق يذكر أن السور المبكرة التي يشار فيها إلى إله محمد لا ترد فيها إشارة إلى اسم الإله، إنما هو لفظ لشخص الثالث، إذ ترد في العبارة (ربي) و(ربك)، وهو يضرب على ذلك مثلًا بما ورد في سورة الذاريات، والطور، والمدثر وغيرها.

ابتسم، وقال: ألم أقل لك إن هؤلاء المساكين يتعلقون بقشة، وهم في غرقهم في أوهامهم ينتقون ما يشاءون، ويتغافلون عما يشاءون.

ألم يقرأ هؤلاء ما ورد في سورة العلق التي يقرون بأنها أول ما نزل من القرآن:﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾(العلق:١٤)؟

ألم يقرأوا ما ورد في السورة الثانية، سورة المدثر:﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ (المدثر:٣١)، وقوله:﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (المدثر:٥٦

وقوله في سورة الذاريات التي استشهد بها من ذكرت:﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الذريات:٥٠)، وقوله:﴿ وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الذريات:٥١)، وقوله:﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذريات:٥٨)

وقوله في سورة الطور التي استشهد بها من ذكرت:﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾

---

(١) هذا ما ذكره المستشرق (نولدكه)، وهو منقول عن المستشرق موير Muri في كتابه (إله محمد)

(٢) ترد سورة العلق في ترتيب (نولدكه) الزماني للقرآن، وهو الترتيب الذي يعتمده المستشرقون، برقم ١ (انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة القرآن في الفقرة ٣ تاريخ القرآن)

(الطور:٢٧)، وقوله:﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الطور:٤٣)

بالإضافة إلى هذا كله، فقد ورد في سورة المدثر ــ التي يستشهد بها هذا المستشرق ــ والتي هي من أوائل ما نزل من القرآن ما يدل على أن القرآن هو كلام الله، ففيه:﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآَيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧)﴾(المدثر)

سكت قليلا، ثم قال: أتدري ما سر هذا الحرص على هذه المقولات التي لا دليل عليها؟

قلت: ما هو؟

قال: إن هذا المستشرق، ومن تبعه، ومن اعتمد عليه، جعل أمام عينيه هدفا راح يضرب أخماسا وأسداسا من أجل تحقيقه، وذلك ما أوقعه فيما أوقعه فيه.

قلت: وما هو هذا الهدف؟

قال: إن الهدف من تشكيكه في الطرف الأول من أطراف القضية، وهو المتكلم ــ بزعمه أنه كان طرفا غامضًا في الفترة المكية المبكرة، وأن السور التي تنتمي لتلك الفترة لم تحدده أو تعينه بوضوح ــ هو الإيحاء بأن اسم هذا الإله ما تحدد بوضوح إلا في الفترة المدنية بعد أن اتصل محمد باليهود الذين تعلم منهم.

ولكن هذا المستشرق المسكين ينسى هذا الهدف حين يريد أن يبث شبهة أخرى، فيقول:« ورد في القرآن أن محمدًا (الذي زعم لتوه أنه لم يكن يعرف ربه تمامًا) قد رأى الله مرات عديدة Muhammed had Visions of God كما ورد في سورة النجم [١]، وعلى الأقل في الفترة المكية كان صوت الله نفسه، وليس أي وسيط، ما سمعه محمد »

قلت: أما الطرف الثاني الذي شكك فيه هذا المستشرق، ومن أخذ عنه، ومن تبعه، فهو **الوسيط**، فقد قال:« وفي السور المبكرة، ومن أجل تحديد مصدر الوحي، فإن الله هو المتكلم، وهو المصدر المباشر، مثلًا:﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ (المزمل:٥)، و﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾ (الأعلى:٦)، وعدد آخر من السور المكية المتأخرة والمدنية المبكرة يتحدث عن آيات القرآن والكتاب لمحمد[٢].

لكن في خلال الفترة نفسها نجد مجموعة من السور تقول بتعالي الله عن الإيحاء المباشر، كقوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الشورى:٥١)، وقوله:﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْأِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى:٥٢)

---

(١) يشير إلى قوله ﷻ:﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (لنجم:١٣)، والآية تشير إلى جبريل عليه السلام لا إلى الله، فقد رآه النبي ﷺ في ذلك الموقف على صورته الحقيقية.

(٢) يشير هنا إلى قوله تعالى:﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾(البقرة: ٢٥٢)، و(آل عمران ١٠٨) وكلاهما مدنية، و(الجاثية: ٦) مكية.

ولهذا نجد في أول سورة مدنية مبكرة، وهي سورة البقرة، يشار إلى وسيط الوحي لأول مرة في القرآن على أنه جبريل[1]، وبناء على هذه الآية وعدد من الأحاديث النبوية، فإن المفسرين حددوا الروح في الأجزاء المبكرة بأنه جبريل، ووضعوه منذ بداية منصب محمد كوسيط للتتريل.

وكما أن جبريل، وعلى عكس المعتقد السائد، لم يعرف أبدًا في القرآن على أنه واحد من الملائكة، كما لم يذكر أن الملائكة وسطاء للتتريل.

ابتسم، وقال: أولا.. لا شك أن الاحتجاج بالكلمات: (سنلقي عليك)، (سنقرئك)، (نتلوها عليك)، يدل على جهل مطبق بأساليب العربية، وهي لا تدل بحال على الإلقاء المباشر أو القراءة والتلاوة المباشرة على المتلقي.

ومن ثم فليس هناك تناقض ولا تعارض بين الآيات المبكرة والمتأخرة كما يزعمون.

وأما الملاك الموكل بالوحي، فقد ذكرت صفاته فيما نزل في الفترة المكية الأولى، فإنا نجد في سورة التكوير هذه الآيات:﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١)﴾(التكوير)

ونجد في سورة النجم:﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾(النجم:٥-٦) إلى غير ذلك من الآيات التي تبين شخصية هذا الملك ذي القوة العلوية العالمة التي توحي إلى النبي، وتبلغه رسالة ربه.

بل إن النبي ــ بنص القرآن وحسب السور المكية ــ يعرفه ويراه:﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾(النجم:١٠-١١).. بل ويناديه باسمه جبريل كما ورد في حديث الإسراء والمعراج، فلم تكن بالنبي والمسلمين حاجة إلى النص على هذا الاسم في القرآن.

أما الآية التي ذكرت اسمه، والتي استدل بها ذلك المستشرق المسكين، فقد نزلت ــ كما يذكر المفسرون ــ حين سأل اليهود محمدا عن صاحبه الذي يترل عليه بالوحي، فقال:« جبريل»، فقالوا: فإنه عدو لنا ولا يأتي إلا بالحرب والشدة والقتال، فترلت الآية.

وأما المرة الأخرى التي ذكر فيها اسمه، وهي في سورة التحريم:﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ (التحريم:٤)، فقد ذكر في موضع المحبة للنبي والاستعداد لتأييده ونصرته حتى في مواجهة أقرب الأقربين إليه وهن زوجاته.

ولذلك، فإن الملك الذي أبلغ الوحي كان معروفًا للنبي قريبًا منه، ويصبح التعلل بتأخير ورود اسمه في التتريل أمر لا طائل وراءه.

أما ما قاله هذا المستشرق المسكين من أن القرآن لم يذكر أن الملائكة وسطاء للوحي، فيكفي أن نستشهد بالآية الأولى من سورة فاطر المكية:﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾(فاطر: من

---

(١) يشير إلى قوله ﷻ:﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة:٩٧)

الآية١)، وبالآية (٧٥) من سورة الحج المدنية، والتي تقول:﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾

وللدلالة على أن جبريل من الملائكة ما جاء في وصفه بالآية (١٩) من سورة التكوير:﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ فهو إذن رسول من الملائكة الذين يصطفيهم الله حسب القرآن، وهو ما يدحض كل ما ذكره ذلك المستشرق المسكين.

قلت: أما الطرف الثالث الذي شكك فيه هذا المستشرق، ومن أخذ عنه، ومن تبعه، فهو **محمد**، فقد قال:« يتحدث القرآن أيضًا لأول مرة عن معلم محمد من البشر في سياق مجموعة الاتهامات التي وجهها له معارضوه:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٦) وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨)﴾(الفرقان)

ويعقب على هذا بقوله:« وفيما عدا عنصر الإفك، فإن القرآن ينكر ما سجّل في هذه الآيات »

ضحك ملء فيه، وقال: هكذا يكون العبث بالألفاظ، وإلا فلا..

قلت: ألا ترد على هذا؟

قال: هو في حقيقته لا يحتاج إلى رد.. ولكن الحكمة تقتضي أن يعامل المجانين بالطريقة التي يفهمون بها. نعم.. لقد رد على الافتراء الأول بـــ قوله:﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾

أما الافتراء الثاني، وهو ما لم يلاحظه هذا المستشرق المسكين، فقد رد عليه بالآية التالية:﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

ومثلما رد القرآن على هذين الافتراءين اللذين ساقهما كفار مكة رد على ما سجله بعدهما في السورة نفسها بقوله:﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾(الفرقان ٩)، فهو إذًا قد رد على كل الاتهامات لا على اتهام واحد كما يزعم هذا المستشرق المسكين.

قلت: وهو يستشهد على هذا أيضا بما ورد في القرآن من تسليمه بأن محمدًا كان له معلم أجنبي، ففي سورة النحل:﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل:١٠٣)، ففي هذه الآية لا ينفي القرآن هذه التهمة[١].

قال: لقد ذكرني كلامهم هذا بما قاله سيد قطب في (ظلال القرآن) عن هذا، فقد قال:« وحتى الماديون الملحدون في روسيا الشيوعية، عند ما أرادوا أن يطعنوا في هذا الدين في مؤتمر المستشرقين عام ١٩٥٤ كانت

(١) هناك رد مفصل على هذه الشبهة في رسالة (الكلمات المقدسة)، وانظر: الدكتور محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، ص ٦٢ وما بعدها.

دعواهم أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عمل فرد واحد، هو محمد، بل من عمل جماعة كبيرة، وأنه لا يمكن أن يكون قد كتب في الجزيرة العربية، بل إن بعض أجزائه كتب خارجها، فكيف كان يمكن ــ وهذا رأي جماعة من العلماء في القرن العشرين ــ أن يعلمه بشر لسانه أعجمي عبد لبني فلان في الجزيرة؟»[1]

سكت قليلا، ثم قال: وأنا أقول لهذا المستشرق المسكين: قل لنا ما اسم هذا المعلم؟ ومن الذي رآه وسمعه؟ وماذا سمع منه؟ ومتى كان ذلك؟ وأين كان؟ ولماذا لم يدع ذلك المعلم العارف بكل ما جاء به القرآن كل ذلك لنفسه؟

وأسئلة أخرى كثيرة لا يجدون لها أي إجابة.

قلت: لقد ذكر هذا المستشرق، ومن تبعه، ومن نقل عنه أن هناك سورا مدنية تعطى انطباعًا بأن محمدًا جهد في الحصول على معلومات من الكتاب المقدس عند اليهود، حيث جرى اتهامهم بأنهم يخفون كتابهم عنه، وقد عرضت بعض النسخ المكتوبة على محمد أو أتباعه، كما في سورة الأنعام:﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأنعام: ٩١)

قال: الرد على هذا من وجهين: الأول أن المستشرق الذي ذكر هذا، وهو تيودر نولدكه هو نفسه الذي ذكر في كتابه (تاريخ القرآن) ــ وهو يعتبر عند المستشرقين عمدة في ترتيب النزول ــ أن السورة مكية، وليست مدنية.. ومن ثم فالخطاب هنا لقريش، لا لليهود الذين وصفتهم الآية بأنهم يخفون بعض أجزاء التوراة لغرض في نفوسهم.

وأما الوجه الثاني، أن الخطاب موجه إلى اليهود ــ وهو ما اختاره بعض المفسرين ــ فالمعنى هو هو، ولا يحتمل غيره.

لقد ورد الخطاب بالمعنى نفسه إلى اليهود في سورة مدنية هي المائدة:﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥)، وغيرها من الآيات.

وهي كلها تفضح اليهود الذين كانوا يتاجرون بكتبهم، وتبين لهم في نفس الوقت الحقائق التي يكتمونها، كما في القرآن:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (البقرة: ١٥٩)

وهو نفس الأسلوب الذي تعامل به القرآن مع المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر، ففي القرآن:﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ (المائدة: ٦١)

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: ٤ /٢١٩٥.

وقد بين القرآن هدف اليهود من إخفاء جانب كبير من الكتاب، فقال:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة:١٧٤)، فهذا هو هدفهم على نحو ما حدده القرآن نفسه.

سكت قليلا، ثم قال: هؤلاء المساكين يخادعون أنفسهم، ويخادعون الناس حين يتلاعبون بالآيات بهذه الطريقة..

لقد قدم ذلك المستشرق تلك المقدمات ــ التي تصورها مقدمات علمية ــ ليبني على أساسها النتيجة التي ظل يضمرها، ويتحايل بكل حيلة معقولة كانت أو غير معقولة ليلبسها مسوحًا زائفة من العلم والدراسة النقدية يدلس بها على الناس ويفتري بها على محمد.

وقد قدم لتلك النتيجة مستشهدًا بآيات لم يذكرها وإنما أشار إلى موضعها فحسب لكي يوهم بأنه إنما يتقدم بخطى علمية واثقة نحو الحقيقة التي اطمأن إليها؛ مع أن النتيجة لا تتصل بالمقدمة من قريب أو بعيد، فقد قرأت له قوله:« وهناك أجزاء (سور) تتهم اليهود بأنهم يكتبون أجزاء بأنفسهم ويقولون:﴿ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾(البقرة: من الآية٧٩) وانظر أيضًا (البقرة ١٧٤،١٤٠،٧٧، آل عمران ٧١، المائدة ١٥)، وفي تلك الأجزاء (السور) لا نجد صعوبة في أن نرى محمدًا يتلقى قصصًا ومعلومات أخرى من معلمين مختلفين، بمن فيهم اليهود والنصارى، ثم إنه في لحظات الوحي ينقح المادة، ويحيلها على صيغتها القرآنية »

هكذا يفعل هذا المستشرق وغيره من إخوانه.. إنهم يحشدون حشودا هائلة من النصوص، يفسرونها كما يشاءون غير عابئين بالأصول العلمية، ولا المبادئ النقدية، ولا بأولويات الحيدة والتجرد العلمي بهدف الوصول إلى الحقيقة، بل هم يلوون عنق الحقائق لكي يصلوا إلى القول بأن محمدًا هو الذي ألف القرآن.

قلت: لقد صرح هذا المستشرق بالنتيجة التي يروم إليها من كل ذلك الحشد من النصوص، فقال:« في الفترة المكية المتأخرة والمدنية المبكرة قيل إن محمدًا قد تم تحديه لكي يخرج للناس كتابًا يمكنهم قراءته بأنفسهم (٩٣:١٧)[1] وأن أتباعه شكوا بأنه ليس لهم كتاب مقدس كاليهود والنصارى (١٥٥:٦)[2]

ابتسم، وقال: لقد ذكرت لك.. إن هؤلاء يتلاعبون بالنصوص.. هم كمن يصف قصرا ضخما ممتلئا جمالا بكونه لا يعدو كونه كوخا حقيرا، فإن قيل له برهن على ذلك أخذ يهدم ذلك القصر لبنة لبنة، ثم يشكل من لبناتها أكواخا حقيرة، ويجعل من ذلك الهدم وذلك البناء براهين على ما يريد.

إنهم لا يختلفون عن هذا الرجل.. بل هم هذا الرجل.

إن تلك الآيات التي اكتفى بالإشارة إليها تذكر الاقتراحات التي عرضتها قريش على محمد..

ثم قال: اصبر علي، فسأقرأ عليك الحديث الوارد في ذلك.. فهو من أعجب أحاديث الثبات والصمود..

---

(١) يشير إلى قوله ﷺ:﴿ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾ (الاسراء: من الآية٩٣)

(٢) يشير إلى قوله ﷺ:﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأنعام:١٥٥).

وكلما قرأته لم أهم بشيء سوى إعادة قراءته لأرى البطولة الصامدة، والصمود البطل الذي أبداه محمد مع جميع الذين صوبوا نحوه رماح حربهم.

ذكر ابن عباس صاحب محمد أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، ورجلا من بني عبد الدار، وأبا البَخْتَري أخا بني أسد، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية، وأمية ابن خلف، والعاص بن وائل، ونُبَيها ومُنَبِّها ابني الحجاج السَّهْمَيَّين، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه: أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا، وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصًا، يحب رُشْدَهم، ويعز عليه عَنَتُهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنُعْذرَ فيك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك! لقد شتمت الآباء، وعِبتَ الدين، وسَفَّهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقي من أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك! فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا، سوّدناك علينا، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئيًا تراه قد غلب عليك — وكانوا يسمون التابع من الجن: الرئي — فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب، حتى نبرئك منه، أو نُعذَر فيك.

فقال رسول الله ﷺ: « ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن بعثني إليكم رسولا وأنزل عليّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم » أو كما قال رسول الله ﷺ.

فقالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلادًا، ولا أقل مالا ولا أشد عيشًا منا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضَيَّقت علينا، وَلْيبسُط لنا بلادنا، وَلْيُفَجر فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يُبْعث لنا قُصيّ بن كلاب، فإنه كان شيخًا صدوقًا، فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك، صدقناك، وعرفنا منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول، فقال لهم رسول الله ﷺ: « ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم »

قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فاسأل ربك أن يبعث ملكًا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جنانًا، وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك، إن كنت رسولا كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: « ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى

يحكم الله بيني وبينكم »

قالوا: فأسقط السماء، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل، فقال لهم رسول الله ﷺ:« ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك »

فقالوا: يا محمد، أما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة، يقال له: الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدًا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلا.

فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، ابن عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا، فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله، فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أؤمن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سلمًا، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتي معك بنسخة منشورة، معك أربعة من الملائكة، يشهدون أنك كما تقول. وأيم الله، لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك.

ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينًا أسفًا لما فاته، مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه[1].

التفت إلي، وقال: لو قرأوا هذا النص وأمثاله من النصوص التي تبين الواقع الذي أنزلت فيه هذه الآيات لعلموا الحق من أقرب أبوابه.. ولكنهم لا يفعلون.

ثم قال: دعنا من ذلك النص.. ألا يعلم هؤلاء المساكين أن القرآن إنما أتى به محمد استجابة لهذا التحدي من جانب خصومه، مع أن القرآن كان ينزل على محمد ويتلى قبل هذا التحدي ببضع سنوات؛ وإنما اقترح الكفار هذه الاقتراحات لإظهار إنكارهم للدعوة إلى الإيمان بالغيب وبما لا تدركه حواسهم، وهو ما جاءت به السور التي نزلت من القرآن قبل نزول هذه السورة، ولم تكن بين محمد وقومه من خصومة قبل نزول القرآن، فقد لبث عمرًا بين ظهرانيهم لا يتحدونه ولا يتحداهم حتى نزل القرآن، ولم يكن هناك مجال للتحدي ولا سبب له قبل نزوله.

إذن لم يصرح الكفار بهذا التحدي إلا بعد نزول القرآن بزمن، ولا يمكن أن يكون هذا التحدي سابقًا على النزول.

قلت: لقد ذكر هذا المستشرق، ومن تبعه، ومن أخذ عنه أن المسلمين شكوا بأنه ليس لديهم كتاب مقدس كالذي عند اليهود والنصارى..

---

(١) رواه ابن جرير وابن إسحق وغيرهما.

وقد استنبط هذا من آيتين من سورة الأنعام، جاء فيهما:﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ(١٥٧)﴾(الأنعام)

ثم ذكر أن هذه الشكوى قد تمت بالمدينة، وأن محمدًا قد استجاب لأتباعه الذين تلاقت إرادالهم مع إراداته بإنشاء مجتمع إسلامي متميز بالمدينة.

يقول هذا المستشرق:« إن إنشاء مجتمع إسلامي مستقل بالمدينة متميز عن أهل الكتاب كان مرهونًا بالإتيان بكتاب إسلامي مقدس منفصل، يؤدي دوره كفرقان لتثبيت حقيقة الكتب المقدسة السابقة (٣:٣،٤:١٠٥، ٥:٤٨ وغيرها)[1]

ابتسم، وقال: أولا.. إن معنى الآيتين واضح، لقد ذكر الطبري ــ وهو من يتخذونه حجة في التفسير ــ في تفسيرها قوله:« وهذا كتاب أنزلنا لئلا تقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، يعني لينقطع عذركم.. فالكتاب قد أنزل لقطع الحجة »

وهذا يعني أن المسلمين لم يشكوا إلى محمد ــ كما يزعم هذا المستشرق المسكين ــ افتقارهم إلى كتاب مقدس كاليهود والمسيحيين، وهو ما لم يرد في مصدر من المصادر ؛ لأن كتاب المسلمين المقدس كان يترل على رسولهم منذ مدة طويلة، وقد دارت حوله منذ أنزل معارك عنيفة وجدل كثير بين المؤمنين والكافرين، وكان أمر القرآن هو شغلهم الشاغل وهمهم الناصب، فما الذي يحمل المسلمين على أن يطلبوا إلى محمد أن يأتيهم بما هو لديهم ويعدونه مصدر عزهم وفخارهم!؟

وثانيا.. ما ذكره هذا المستشرق من الآيات التي أشار إليها من سورة الأنعام نزلت بمكة، والخطاب فيها لأهل مكة.

وثالثا.. يقال لهذا المستشرق المسكين: أيهما أسبق في الوجود: نزول القرآن أو إنشاء المجتمع الإسلامي بالمدينة؟

قلت: لقد واصل هذا المستشرق يقرر النتيجة التي وصل إليها من تلك الحشود من المقدمات بقوله:« وهذا من شأنه أن يبرهن على أن محمدًا بدأ في جمع كتاب مقدس مكتوب في السنوات المبكرة من الفترة المدنية لكن مسؤوليات قيادة المجتمع المسلم السريع النمو أجبرته على أن يترك هذه المهمة دون إتمامها »

قال: إن هذا الكلام يعني أن محمدا ــ بحسب زعم هذا المستشرق ــ لم يعن بتدوين القرآن وكتابته في الفترة المكية، وأن كتابة القرآن لم تستكمل في حياة محمد.

قلت: أجل.. هذا ما يرمي إليه، وقد قال نفس هذا الكلام كثير من المستشرقين، وخاصة (بوهل) الذي

---

(١) هذه عادة المستشرقين والمبشرين وغيرهم من المعادين للإسلام من الاكتفاء بالإشارة إلى الآيات دون ذكرها ليحملوها ما يشاءون.

كتب مادة (القرآن) في الطبعة الأولى من دائرة المعارف الإسلامية وذكر فيها أن القرآن لم يسجل كله في الفترة المكية.

قال: لقد رد بعض علماء العرب المحدثين[1]، فقال:« ترى أيمكن أن نتصور أن ينشق أوائل من آمن بالرسول على قومهم ودينهم وأسلوب حياتهم معرضين أنفسهم للهلاك بسبب القرآن ثم هم مع ذلك لا يتنبهون لأهميته ولا يبالون بتسجيله »

التفت إلي، وقال: إن الخطأ الأكبر الذي أوقع هؤلاء في هذا هو عدم تفريقهم بين كتابة الوحي وجمع القرآن[2]، فعند وفاة محمد كان القرآن كله مكتوبًا كما كان محفوظًا في صدور المؤمنين، يدل على ذلك قول زيد:« فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال »[3]

٢ ــ في وجه المبشرين:

التفت إلي مبتسما، وقال: لم يقف القرآن في وجه المستشرقين فقط، بل وقف في وجه المبشرين أيضا.. ألا تعرف التبشير[4]؟

قلت: وكيف لا أعرفه.. إنه التبشير بالمسيح.. وبالخلاص.. وبالملكوت.

ابتسم، وقال: لكأني بك مبشر تختفي في ثياب باحث.

قلت: لو كنت مبشرا لذهبت إلى إفريقيا أو آسيا، أو البلاد التي لا يوجد فيها مسيحيون، أما أنت، فمسيحي بالأصالة.

قال: أنت لا تعلم إذن الصلة بين التبشير والاستشراق.. إن أكثر من درسنا على أيديهم مبشرون.. وأكثر من تخرج على أيديهم من زملائي مبشرون يلبسون لباس الاستشراق.

سكت قليلا، ثم قال: دعنا من ذلك.. ولنحاول التعرف على صمود القرآن في وجه المبشرين.

قلت: المبشرون منشغلون بالمسيح.. ولا علاقة لهم بالقرآن.

جيوش المبشرين:

---

(١) وهو الدكتور إبراهيم عوض، انظر: د. إبراهيم عوض: دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية: أضاليل وأباطيل، ص ١٤.

(٢) انظر تفاصيل الفرق بينهما، والشبه المرتبطة بذلك في (الكلمات المقدسة)

(٣) رواه البخاري.

(٤) نحن نستعمل هذا المصطلح هنا مع أن الكثير ينفر منه، ويعدل بدله إلى (التنصير)وذلك لسببين:

أولهما أنه المصطلح الذي سمى به المبشرون لأنفسهم، وما كان لنا أن نسميهم بغير ما ارتضوه لأنفسهم.

وثانيهما أن التبشير ــ في أصل اللغة العربية، وفي القرآن الكريم ــ يعبّر به عن الحسن والطيب، وعن السوء، وما لا تُحمد عقباه، كما قال ﷻ:﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(آل عمران: ٢١)، وقال ﷻ:﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾(النحل: ٥٨ ــ ٥٩)، وقال ﷻ:﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (لقمان: ٧)

انظر: محمد عثمان بن صالح، النصرانية والتنصير، أم المسيحية والتبشير، مكتبة ابن القيم، المدينة المنورة ١٤١٠هـ ــ ١٩٨٩م

قال: إن أكثر المبشرين انشغلوا بالقرآن أكثر من انشغالهم بالمسيح.. دعنا نبدأ الحكاية من أولها.. دعنا نبدأ من التاريخ[1].

لقد كانت كلية الثالوث المقدس القاعدة التي انطلق منها التبشير المؤسَّسي فهي أولى لَبِنَات مؤسسة تبشير ضد الإسلام.

و لم يكن ريموند لول أول معلم فيها فقط، بل كان أول من مارس التبشير ضد الإسلام، فجال في بلاده وناقش علماءه.

ولما كان الرهبان ورجال الدين من المسيحيين يؤلفون الطبقة المتعلمة في أوربا؛ كان من الطبيعي أن يقودوا العمل التبشيري ضد الإسلام نظرًا لمعرفتهم لغات المسلمين، فأصبحت الكنائس والأديرة مرتكزات وقواعد للعمل التبشيري لتخريج أهل الجدل الذين يجادلون ضد الإسلام والقرآن.

ومن أوائل المبشرين الذين وقفوا في مواجهة القرآن: الراهب الدومنيكاني(ريكولدو دي مونت كروس﴾ (١٢٤٣ ــ ١٣٢٠ م) الذي بعثه البابا نقولا الرابع إلى الشرق، فتجول مبشرًا في فلسطين ومجادلا باللغة العربية ضد القرآن، ثم ألّف أهم الكتب الجدلية ضد القرآن بعنوان(الجدل ضد المسلمين والقرآن) Disputatio Contra Saracenos et Alchoranem [2]

وبعده كتب الكاردينال نيقولا دى كوزا (١٤٠١ ــ ١٤٦٤) بتوجيه من البابا بيوس الثاني (نقد الإسلام وتفنيده)، و(غربلة القرآن)

وتلاهما قيام عدد من الآباء الدومينيكانيين والجزويت بتصنيف جدليات ضد القرآن منهم دينيس الذي كتب (حول الخداع المحمدي) سنة ١٥٣٣ م.. وألفونس سينا الذي كتب (التحصين الإيماني)سنة ١٤٩١ م.. وجان دي تيريكريماتا الذي كتب (بحث للرد على الأخطاء الرئيسية الخادعة لمحمد) سنة ١٦٠٦ م.. ولويس فييف الذي كتب (الإيمان المسيحي الحقيقي ضد المحمديين) سنة ١٥٤٣ م.. وميشيل نان الذي كتب (الكنيسة الرومانية اليونانية في الشكل والمضمون للدين المسيحي ضد القرآن والقرآنيين دفاعًا وبرهانًا) سنة

---

(١) استفدنا أكثر المعلومات والاقتباسات في هذا المطلب من كتاب: الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم، د. عبد الراضي محمد عبد المحسن.

وهي دراسة مهمة جدا، وقد قال مؤلفها في مقدمتها:« تهدف هذه الدراسة إلى تحصين المسلم المعاصر وتزويده بنظرة نقدية للفكر التبشيري حول القرآن الكريم، وتاريخ الجدل ضد أصالته، ومسالك المنصرين في جدلياتهم ضد أصالة القرآن الكريم بما يتمكن معه المسلم المعاصر من الفكاك من أسر الأطروحات التي قدمها التبشير خلال مراحل ارتقائه التاريخي منذ نشأته حتى يومنا هذا.

كما تهدف الدراسة من جانب آخر إلى توجيه الدعاة إلى الله بين غير المسلمين إلى الردود والشواهد العقلية والنقلية، والبراهين العلمية، والحقائق التاريخية التي تعينهم في الدعوة إلى كتاب الله، وتمكنهم في الوقت نفسه من تصحيح المفاهيم المغلوطة التي روّجها المنصِّرون حول القرآن الكريم بغرض صرف الناس عنه » فجزاه الله خيرا على هذا الهدف النبيل.

(٢) عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، بيروت: دار العلم للملايين. ١٩٨٩م. ص ٢١١.

١٦٨٠ م.. ولودو فيجو مرتشي الذي كتب (مقدمة في دحض القرآن) سنة ١٦٩٨ م.

هذا في القديم.. وأولئك كانوا سلفا لأمة المبشرين العظيمة التي تلتهم.

أما في **العصر الحديث**، فقد برز كثير من المبشرين الجدليين ضد القرآن الكثير منهم هنري لامانس، وهو مبشر يسوعي، وراهب متعصب خلف لويس شيخو في إدارة مجلة المشرق، وإدارة المجلة التبشيرية (البشير)، وقد أودع جدليته ضد القرآن في مقاله (هل كان محمد أمينًا؟)، وفي كتابه (الإسلام: عقائد ونظم)[1]

ومنهم وليم موير (١٨١٩ ــ ١٩٠٥ م)، وهو مبشر إنجليزي أحد أعضاء البعثة التبشيرية الإنجليزية في شمال الهند، وقد كتب جدليتين ضد القرآن، أولاهما (القرآن: تأليفه وتعاليمه) سنة ١٨٧٧ م، وثانيهما (الجدال مع الإسلام) سنة ١٨٩٧ م.

ومنهم ريتشارد بل (توفي في النصف الثاني من القرن العشرين)، وهو أحد رجال المسيحية، وقد صرف سنين كثيرة في دراسة القرآن، وقد كتب في الجدل ضد القرآن عدة كتب ومقالات تبرز التأثير المسيحي على محمد، وأهمها مقدمته لترجمة القرآن التي ضمّنها جدليته الأساسية ضد أصالة القرآن.

ومنهم سانت كلير تسدال (توفي في أوائل القرن العشرين)، وهو قسيس مبشر في إيران، وقد صنّف أعنف وأخطر جدلية ضد أصالة القرآن الكريم، وهي(المصادر الأصلية للقرآن) وقد كتبها بالألمانية، ثم ترجمها المبشر وليم موير إلى الإنجليزية.

ومنهم آرثر جيفري (توفي في النصف الثاني من القرن العشرين)، من محرري مجلة العالم الإسلامي التبشيرية، وأبرز كتّابها، وقد بُعث للعمل في الجامعة الأمريكية في بيروت، ثم للتبشير في أمريكا اللاتينية، ثم إلى مدرسة اللغات الشرقية بالقاهرة.

وله عدة جدليات ضد القرآن الكريم وأصالته نشر بعضها في مجلة العالم الإسلامي ١٩٣٥م، ونشر بعضها في كتابه (مصادر تاريخ القرآن)، وأودع بقيتها في مقدمة تحقيقه لكتاب المصاحف لأبي بكر بن أبي داود.

ومنهم آريتر مبشر، له جدلية بعنوان (عناصر نصرانية في القرآن)

ومنهم كينث كراج، وهو خليفة زويمر في توجيه النشاط التبشيري في منطقة الشرق الأوسط، ورئيس تحرير مجلة العالم الإسلامي التبشيرية، ورئيس مؤتمر التبشير المنعقد في أكسفورد عام (١٩٨٦)، وقد كتب جدليتين ضد أصالة القرآن، طبعتا أكثر من مرة لمساعدة وعاظ التبشير، وهما: (نداء المئذنة)، و(القبة والصخرة)

ومنهم بول بوبارد، وهو راهب فرنسي معاصر أشرف على إعداد قاموس للأديان(Dictionnair e des Religians)، وقد شرت طبعته الأولى عام ١٩٨٤ م، وقامت على طبعه (المنشورات الجامعية الفرنسية)، وأنجز أغلب مواده أساتذة المعهد الكاثوليكي بباريس.

بالإضافة إلى هؤلاء جميعا، فقد ظهر كثير من **المبشرين في البلاد الإسلامية** في القرون السوالف، وقد

(١) عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ٣٤٨ ــ ٣٤٩.

واجهوا القرآن مواجهات شديدة، ولكنها لم تؤثر فيه أي تأثير.

سأذكر لك منهم ما تعرف به عظم الهجمات التي ووجه بها القرآن:

فمنهم **يوحنا الدمشقي** (ت ٧٥٠م)، وهو أحد أكبر آباء الكنيسة الأرثوذكسية، وبسبب قيمته الدينية الكبرى نال لقبين ذوي شأن، فلقِّب بـــ (القديس يوحنا)، و(يوحنا ينبوع الذهب)[١]

وبحكم كونه في خط الصراع الأول ضد الإسلام، فإنه سارع بالعكوف على القرآن يقرؤه حرفا حرفا، مسخِّرًا قدراته اللغوية، وموظِّفًا إلمامه بالبيئة الثقافية الإسلامية التي يعيش في رحابها، ويعايش أعلى مستوياتها العلمية والسلطوية حيث كان من كبار موظفي بلاط الخلافة الأموية.

وقد عُدَّ يوحنا الدمشقي بالنسبة للكنيسة الشرقية مثل توما الإكويني بالنسبة للكنيسة الغربية، بسبب استخدامه الدلائل العقلية إلى جانب الدينية في خدمة الإيمان الأرثوذكسي وتسويغه، وذلك باستخدامه الفلسفة اليونانية والهللينستية في تفسير الدين والدفاع عنه.

وقد انتهى يوحنا الدمشقي إلى عدة آراء جدلية ضد الإسلام والقرآن والرسول، لخّصها في كتابه (ينبوع المعرفة) الذي قسمه ثلاثة أقسام، أولها عن المنطق والفلسفة، والثاني عن البدع، والثالث شرح لمبادئ الدين القويم.

وتتلخص رؤية يوحنا الدمشقي للإسلام ونبيه وكتابه في التشكيك في كون الإسلام امتدادًا لحنيفية إبراهيم، لذلك يصف المسلمين على نحو لا يخلو من الخبث، بالسرازانيين[٢] (Saracens) ويعد أول كاتب مسيحي يستخدم هذا التشويه الإتيمولوجي لأغراض الجدل العنيف، كذلك يصف المسلمين بـــ (المفسدين)، وهي التسمية التي تكثر في الجدليات التالية ليوحنا.

وهو يصف الإسلام بأنه هرطقة مسيحية.. بل ويعتبره مُؤْذنا بالمسيح الدجّال.. ويجعل محمدا أحد أتباع آريوس، كما يجعله على عقيدة المذهب النسطوري، وذلك بسبب تأكيده على أن المسيح مخلوق وإنسان مجرد، وذلك ما قال به آريوس ونسطور.

وهو يحصر ما جاء به محمد في أمرين:

أولهما: معرفته الضحلة بما قَلَّتْ قيمته من أسفار العهدين القديم والجديد اللذين وقع عليهما محمد مصادفة.

وثانيهما ما أخذه محمد عن الراهب الأريوسي (بحيرا).

وهو يعتبر القرآن نتاج لأحلام اليقظة؛ لأن محمدا تلقاه وهو نائم.

وتعتبر جدليات يوحنا ضد القرآن هي الأهم في تاريخ الجدل التبشيري ضد القرآن، حيث وضع الدمشقي آراءه في قوالب جدلية مكثفة، أصبحت ركيزة الجدل التبشيري في كل أدواره ومراحله التالية، فقد ردد جميع

---

(١) انظر: د. جواد علي، يوحنا الدمشقي، مجلة الرسالة (مصر)، (عدد ٦١٠)، ص ٢٤٣، ربيع الأول ١٣٦٤ هـــ ـــ مارس ١٩٤٥ م.

(٢) أي: الذين أبعدهم سارة باحتقار.

المجادلين بعده بعض أو كلّ قوالب الدمشقي من (الإسلام هرطقة مسيحية ـــ القرآن تلفيق من العهد القديم والعهد الجديد ـــ تعلم محمد من بحيرا الراهب ـــ المسلمون سراسنة)

ومنهم **تيودور أبو قرة** (ت ٨٢٦م)، وهو تلميذ ليوحنا الدمشقي، وقد تبع رأي أستاذه في (محمد والقرآن)، فعدّ محمدا نبيًّا أريوسيًّا مزيفًا[١].

ومنهم **بارشولوميو الرهاوي** (ت حوالي القرن الثاني عشر الميلادي)، من مدينة الرها، وقد تركزت جدليته زعمه أن محمدا أخذ القرآن عن راهب نسطوري، فقد قال:« فعندما شهد ذلك الراهب الفاسق سذاجة القوم رأى أن يمنحهم عقيدة وشريعة على غرار مذهب أريوس وغيره من ألوان الكفر والزندقة التي حرم من أجلها، فراح يسطر كتابًا هو الذي يسمونه القرآن، وهو شريعة الله ناثرًا فيه كل ما أودع من مروق... وعند ذلك أعطى كتابه لتلميذه (مؤمد)، وأبلغ أولئك البلهاء أن ذلك الكتاب أنزل على محمد من السماء، حيث كان في حفظ جبريل الملك، فصدقوه فيما قال، وبذلك مكّن الراهب لذلك القانون الجديد»[٢]

ومنهم **عبد المسيح الكندي** (عاش في القرن العاشر الميلادي تقريبًا)، وكان عاملا في بلاط الخليفة المأمون، وكتب ردًّا على رسالة الهاشمي التي يدعوه فيها إلى الإسلام، وقد لقيت رسالة عبد المسيح الكندي عناية كبيرة من دوائر التبشير، حيث نشرت أكثر من مرة لخدمة الإرساليات، ليتعلموا منها أساليب مجادلة المسلمين حول القرآن ومحمد[٣].

ومنهم **بولس الأنطاكي** (عاش في القرن السابع الميلادي تقريبًا)، قيل إنه أحد أساقفة سوريا، وله عدة رسائل مطوّلة ضد الإسلام، أهمها رسالته إلى أحد المسلمين التي ضمَّنها خلاصة معتقد النصارى في الإسلام، وفي عقائد النصرانية، حيث يدلل على صحة الديانة النصرانية، وعلى عدم حاجة العالم إلى القرآن ؛ إذ جاءت التوراة بشريعة العدل وجاء الإنجيل بشريعة الفضل، ولا يتبقى بعدهما جديد يحتاج الناس إليه[٤].

---

(١) انظر: رشا الصباح، الإسلام والمسيحية في العصور الوسطى، ص ٧٠٦، مجلة عالم الفكر، عدد (٣) المجلد الخامس عشر. وزارة الإعلام، الكويت.

(٢) د. محمد الفيومي، الاستشراق رسالة استعمار، ص ٣٦٤ ـــ ٣٦٥، دار الفكر العربي. القاهرة ١٤١٣هـــ ـــ ١٩٩٣م.

(٣) د. قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، الرياض: دار الرفاعي، ١٤٠٣ هـــ ـــ ١٩٨٣م. ص ٥٧.

(٤) الرسالة منشورة بمجلة المشرق المسيحي، العدد (١٥) من السنة السابعة، عام ١٩٠٤م. ونسخة أخرى نشرها لويس شيخو في كتابه: «مقالات دينية قديمة لبعض مشاهير الكتبة النصارى» ص / ١٥ ـــ ٢٦، طبع الآباء اليسوعيين.

ومما ورد في الرسالة عند حديثه عن الأناجيل:« وأما تعظيمه لإنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا فقوله:﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٤٦)، ثم قوله:﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (يونس: ٩٤)، فثبت بهذا المعنى ما معنا ونُفِيَ عن إنجيلنا وكتبنا التهم بالتبديل لها والتغيير لما فيها بتصديقه إياها.

قلت: فإن قال قائل: إن التبديل قد يجوز أن يكون بعد هذا القول.

وتكشف الرسالة عن معرفة جيدة ودقيقة بالقرآن، فأكثرها نقول قرآنية احتج بها المؤلف من باب الجدل على المعتقدات المسيحية في الصلب والتثليث والفداء وصحة الأناجيل.

ومنهم **ابن كمونة اليهودي** (ت ١٢٨٤م)، ويُعَدُّ أول مجادل تنصيري من اليهود ضد القرآن، وقد ضمّن جدلياته ضد القرآن كتابه (تنقيح الأبحاث للملل الثلاث)، فعقد فصلا للقرآن أورد فيه خمسة عشر اعتراضًا، منها ثلاثة تتعلق بأصالة القرآن، سأذكرها لك لتتبين تفاهة التفكير الذي يفكر به هؤلاء:

فأول اعتراض هو (لِمَ لا يجوز أن يكون القرآن أنزل إلى نبي آخر دعا محمدًا أولا إلى دينه، وإلى هذا الكتاب، فأخذه محمد منه وقتله؟)[١]، وهو اعتراض ينبئ عن نفسية مجرم يحمل كل شيء على أسلوب تفكيره، وطريقة تعامله[٢].

والاعتراض الثاني، هو (يحتمل أن محمدًا طالع في كتب من تقدمه أو سمعها، فانتخب أجودها، وضمّ البعض إلى البعض)

والاعتراض الثالث هو (كيف يستبعد سماعه ذلك من الآخرين، وقد سافر إلى الشام قبل دعواه النبوة مرتين، وهي مملكة أهل الكتاب؟ وأيضا فقد كان في العرب من أهل الكتاب جماعة فلا يبعد أنه سمع ذلك منهم)[٣]

وقد تسببت جدليات ابن كمونة ضد أصالة القرآن في هياج العامة عليه، ومحاصرة داره إلا أنه تمكن من الهرب، واختفى عدة أيام توفي بعدها.

بالإضافة إلى هذا، فقد كانت **فترة الحكم الإسلامي للأندلس** عصر ازدهار علمي وحضاري في مختلف الجوانب، وفيها ارتفع صوت الحرية الدينية، وقد استغل المبشرون ذلك، فصنَّفوا مؤلفات جدلية كثيرة ضد الإسلام، تصدى لها بعض علماء الإسلام كابن حزم والقرطبي وأبو الوليد الباجي وغيرهم.

وتكمن أهمية هذا الدور في أنه كان معبرًا انتقلت خلاله الجدليات التبشيرية إلى الغرب.

ومن الأمثلة على ذلك كتاب (نقض الفقهاء) Contrarietas elfolica لأحد المسيحيين الإسبان، الذي كان له تأثير بالغ في ريكولدو دي مونت كروس الحانق على الإسلام، وقد أفاد كروس من هذا الكتاب في تصنيف أشهر كتبه (تفنيد القرآن) Canfutatia Alcorani الذي عُني به مارتن لوثر، وسارع إلى ترجمته للألمانية

قالوا: هذا ما لا يجوز لقائل أن يقوله لأن كتبنا قد جاز عليها من نحو ستمائة سنة وصارت في أيدي الناس يقرؤونها باختلاف ألسنتهم » (انظر: رسالة بولس أسقف صيدا الراهب الأنطاكي، ص ١٧ من نشرة لويس شيخو)

وهذا القول لا زال المبشرون ــ للأسف يتداولونه في واقعهم وكأنه حقيقة مقررة.

(١) سعد بن منصور بن كمونة، تنقيح الأبحاث للملل الثلاث، ص ٧٠، نشره موسى برلمان، مطبوعات جامعة كاليفورنيا.

(٢) لقد ذكر الله ﷻ تسارع اليهود إلى قتل أنبيائهم، فقال ﷻ:﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة: من الآية٨٧).

(٣) هناك ردود مفصلة على هذه الاعتراضات في رسالة (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

عام ١٥٤٢م[1].

ومن الذين قادوا حملة التبشير في هذه الفترة **بطرس المحترم** (١٠٩٢ ــ ١١٥٦م)، وهو راهب لاهوتيّ رئيس لدير (كلون) الذي قام بدور كبير في حركة الجدل التبشيري ضد أصالة القرآن، ويعتبر أول جدليّ ضد الإسلام في الكنيسة الغربية، وقد قام برحلة إلى الأندلس، وألّف عقب عودته منها كتابًا في الرد على الإسلام والقرآن عام ١١٤٣ م، وأمر بترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية.

ومنهم **روجر بيكون** الراهب الفرنسيسكاني (١٢١٤ ــ ١٢٩٤م)، وهو الذي وجّه رسالة إلى البابا أكليمنص الرابع سنة ١٢٦٦ م ضمَّنها دعوته إلى: وجوب إدخال اللغات الأجنبية إلى مناهج الدراسات الجامعية، وبخاصة اللغة العربية للإفادة منها وسيلة للتبشير ضد الإسلام.

ودعا فيها إلى دراسة أحوال المسلمين للوقوف على الطرق التي يمكن النفاذ منها إلى هدم عقيدتهم وتقويضها.

وقد صنف جدلية ضد أصالة القرآن، جاء فيها:« بعد أن مات (محمد) أراد أنصاره أن يعالجوا العقيدة والشريعة معالجة شاملة قائمة على تعاليمه، فلما تبينوا أن الرجل الذي نيط به العمل لم يرزق الكفاية اللازمة لأداء ذلك على الوجه الأكمل طلبوا إلى اليهود والمسيحيين الذين أسلموا أن يساعدوه، وعند ذلك رأى هؤلاء من الأفضل أن ينتقوا فقرات مناسبة من العهد القديم والجديد، وأن يمزجوها بالكتاب كيفما اتفق، وبذا أصبح الكتاب على عظيم من الرونق والجمال المنقول من الكتب المترلة ما بين مسيحية ويهودية»[2]

ومنهم **ريموند مارتيني** (١٢٢٠ ــ ١٢٨٤ م)، وهو راهب مبشر دومينيكاني أسباني، تبحر في دراسة القرآن، واجتهد في الجدل ضده، فألف كتابًا بعنوان (الخلاصة ضد القرآن)

وقد بلغت به رغبته في تفنيد القرآن محاولته معارضته بعد أن علم أنه معجزة محمد، فوضع سورة غاية في السخافة والسقامة، قال فيها:« بسم الله الغفور الرحيم، أعارض قرآن مَنْ آخر اسمه الدال وأوله الميم، بلسان فصيح عربي مبين، لا يمنعني منه سيف ولا سكين، إذ قال لي بلسان الإلهام سيد المرسلين: قل المعجزة لا شريك فيها لرب العالمين، وفي الفصاحة يشترك كثير كثيرين، يغلب فيها أحيانًا الصالح الطالح والكافر المؤمنين، فليست الفصاحة ولو في النهاية آية ولا معجزة، اللهم إلا عند الذين أوطاهم عشوة معلم مجنون، حتى قالوا عنه خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، مع أنه بإقراره في سورة الأحقاف لم يدر قط ما يُفْعل به، ولا بتباعه أجمعين أكتعين، فقل يا من اسمه رمند، ولقبه مرَتِّين: آه، لقومٍ يقبل الباطل والخرافات والترهات كأنها اليقين، وإن كنتم في شك مما ألهمنا إليه عبدنا يا معاشر المسلمين، فأتوا بحلِّ هذه الحجة، وبمثل هذه السورة وادعوا لذلك إخوانكم من الجن إن كنتم مهتدين. فإن لم تقدروا، ولن تقدروا فقد زهق الباطل، وانتقام اليقين والحمد والشكر لله آمين،

(١) قاسم السامرائي، الاستشراق به الموضوعية والافتعالية، ص ٧٨.

(٢) محمد الفيومي، الاستشراق رسالة استعمار، ص ٣٦٨.

آمين »[1]

بالإضافة إلى هذا كله، فقد كان **البيزنطيون** أول من كتب من الأوربيين ضد الإسلام والقرآن[2].

وكان أول هجوم مفصل على القرآن في أعمال (نيكتياس البيزنطي) في مقدمة كتابه (نقد الأكاذيب الموجودة في كتاب العرب المحمديين)

أما أكبر هجوم جدلي ضد القرآن، فهو ما قام به إمبراطور بيزنطة (جان كنتا كوزين) في كتابيه (ضد تمجيد الملة المحمدية)، و(ضد الصلوات والتراتيل المحمدية)، وكان هذا الهجوم باللغة اليونانية[3].

مسالك المبشرين:

قلت: أشكرك على هذه الإلمامة التاريخية التي قربت لي من خلالها صورة عن الجيوش التي جيشت لمواجهة القرآن.. فأخبرني الآن عن المسالك التي سلكها هؤلاء لتشويه القرآن، وإثارة الشبهات حوله.

قال: لقد سلكوا كل فج، وركبوا كل صعب، وصعدوا كل شاهق ليثبتوا الهدف الذي انطلقوا منه، وهو بشرية القرآن، وعدم علاقته بما يذكره محمد من الوحي الذي يترل عليه من السماء.

ومن تلك المسالك **ترجمة القرآن**، فقد كانت الترجمة هي السلاح الذي يمكنهم من محو القرآن، ومنعه من الغلبة في الصراع الذي يتوهمونه بين المسيحية والإسلام.

فترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية لم تتم بقصد المعرفة الخالصة أو الفهم المجرد، أو التفاعل والتكامل مع الآخرين، بل إنها تمت بقصد معرفة المواطن التي يمكن الوثوب منها عليه، أو البحث عما يمكن أن يكون نقاط ضعف يتم التركيز عليها لقهره وهزيمته والسيطرة عليه[4].

يقول يوهان فوك في تأريخه للدراسات العربية في أوربا:« لقد كانت فكرة التبشير هي الدافع الحقيقي خلف انشغال الكنيسة بترجمة القرآن »

وهو يذكر أن هذه الفكرة التي أدت إلى ترجمة القرآن قد شهدت توسعًا من خلال تنقلات الوعاظ الدينيين لطائفتي الدومنيكان والفرنسيسكان.

ويظهر هذا بوضوح من خلال أمور كثيرة:

منها أن أول نصوص مترجمة من القرآن إلى اللغات الأجنبية جاءت ضمن كتاب (الجدل) الذي ألفّه ابن الصليبي مطران ديار بكر (ت ١١٧١ م)[5]

---

(١) قاسم السامرائي، الاستشراق به الموضوعية والافتعالية، ص ٩٠.

(٢) محمد الفيومي، الاستشراق رسالة استعمار، ص ٣٧٣.

(٣) عبد الرحمن بدوي، دفاع عن القرآن ضد منتقديه، ص ٥.

(٤) انظر: عبد الحميد مدكور، الترجمة والحوار مع الآخر، كتاب المؤتمر الدولي الأول للفلسفة الإسلامية (الفلسفة الإسلامية والتحديات المعاصرة) المنعقد بدار العلوم، القاهرة، ١٩٩٦ م، ص ٤٧.

(٥) وهو مخطوط بالسريانية، وموجود في كنيسة بطريركية السريان ببيروت (محمد صالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، دار الآفاق الجديدة، ط٢، بيروت ١٤٠٣، ص ٧)

ومنها أن بطرس المحترم أمر بترجمة القرآن للمرة الأولى عام ١١٤٣م حتى يستطيع دحضه، وقد أكد زويمر ـــ المبشر اليهودي ـــ على أن تلك الترجمة تمت بدافع تنصيري.

ومنها ما ذكره جورج سيل في مقدمة ترجمته للقرآن بأن الهدف منها هو تسليح النصارى البروتستانت في حربهم التبشيرية ضد الإسلام والمسلمين؛ لأنهم وحدهم قادرون على مهاجمة القرآن بنجاح، وأن العناية الإلهية قد ادَّخَرَتْ لهم مجد إسقاطه[1].

ولما أعيد نشر هذه الترجمة في طبعة أخرى عام ١٨٩٦م بتقديم المبشر (هويري) وتحقيقه، أعاد هويري التأكيد على دور هذه الترجمة في تنشيط العمل التبشيري ضد الإسلام وتدعيمه.

ومنها أن الكنيسة حرمت طبع أو نشر ترجمة القرآن، حتى إن ترجمة بطرس المحترم ظلت حبيسة محفوظات دير كلويي، ولم يفرج عنها إلا بعد أربعة قرون، ثم أعيد تحريم الطبع والنشر مرة ثانية، ولم يسمح بطباعة الترجمة إلا عام ١٦٩٤ م، عندما قام راهب مدينة هامبورج الألمانية إبراهام هنكلمان بطبعه.

ومن الأساليب التي مارسها هؤلاء المبشرون مع ترجمات القرآن **تشويه الترجمة**، حيث عمد المترجمون إلى تشويه ترجمة القرآن بإسنادها إلى مترجمين من الدرجة الثانية والثالثة، ومعاملة النص القرآني معاملة مؤلفات بشرية، وذلك للحد من إمكان إقبال غربيّ على هذه الترجمات والإفادة منها، وبذلك تألَّف حاجز نفسي عميق بين غير المسلم والقرآن، وكانت هذه الترجمات أحد أسباب سيول الأباطيل والمطاعن والشتائم التي ساقها كتّاب التبشير ضد القرآن.

ومن وجوه تشويه ترجمات القرآن إزاحة الآيات من مكانها التوقيفي، لتضليل القارئ وإبعاده عن الإحاطة بحقيقة النص القرآني.

ومنها الترجمة الحرّة، وتحاشي الترجمة العلمية إمعانًا في التحريف والتضليل، مما يترتب عليه تحوير المعاني وتبديلها، وعرض النص القرآني كما يراه المترجم، لا كما تقتضيه آياته وألفاظه.

ومنها التقديم والتأخير والحذف والإضافة.

ولهذا وغيره فقد أعطت هذه الترجمات صورة مشوهة للقرآن لا يمكن الوثوق فيها، فالترجمة اللاتينية الأولى للقرآن ـــ مثلا ـــ وهي ترجمة بطرس المحترم، والتي تمت عام ١١٤٣ م اضطلعت فقط بتقديم مضمون الفكرة، ولم تكترث بأسلوب الأصل العربي وصياغته، وقام الدافع التبشيري حائلا أمام الوفاء بتحقيق هذا الغرض.

وقد كانت هذه الترجمة المشوّهَة الأصل الذي نبعت منه الترجمات الأخرى؛ فمنها نبعت الترجمة الإيطالية الأولى التي أشرف عليها أريفابيني عام ١٥٤٧ م، وفي سنة ١٦١٦ م ترجم سالمون شفايجر إلى الألمانية عن الإيطالية، وعن الألمانية إلى الهولندية في سنة ١٦٤١م.

وعن هذه الترجمة اللاتينية الأولى وضع الحاخام اليهودي يعقوب بن إسرائيل أول ترجمة بالعبرية عام

---

(١) انظر: أحمد عبد الحميد غراب، رؤية إسلامية للاستشراق، ص ٣٥، المنتدى الإسلامي، لندن ١٤١١هـ.

١٦٣٤م [1].

ومن تلك المسالك **إضافة المقدمات والملاحق**، فقد أضيف إلى نصوص الترجمات المشوّهة للقرآن مقدمات تفسيرية وملاحق شارحة لا لمضمون النص المترجم، بل جدليات ضد أصالته، وسخرية من محتواه، ومحاولات للحطّ منه.

فقد تضمنت الترجمة اللاتينية الأولى (ترجمة بطرس المحترم) التي قام بها الراهب الإنجليزي روبرت الرتيني والراهب الألماني هرمان الدالماني عددًا من المقدمات والملاحق سميت بمجموعة (دير كلوني)، وهي خطاب بطرس إلى بيرنهارد (القديس برنار دي كليوفر)، ومجموعة مختصرة من (الوثائق الشيطانية المضادة للطائفة الإسلامية الكافرة)، ومقدمة روبرت الرتيني، و(تعاليم محمد) لهرمان الدالماني، و(أمة محمد ونشوزها)) لهرمان الدالماني.

ومثل ذلك ما فعله الكاردينال يوحنا الأشقوبي الإسباني (ت ١٤٥٦ م)، فإنه لمّا انتهى من ترجمة القرآن إلى اللاتينية بمساعدة آخرين ألحق بالترجمة جدلية ضد الإسلام بعنوان(طعن المسلمين بسيف الروح)

وحينما نشرت مطبعة بتافيا بإيطاليا الترجمة اللاتينية ذائعة الصيت التي قام بها الراهب الإيطالي لودوفيجو مرّتشي ١٦٩٨ م بموافقة البابا أنوسنت الحادي عشر جاءت الترجمة في قسمين:

القسم الأول منهما يشتمل على النص العربي للقرآن مع ترجمته اللاتينية وحواشي جزئية للرد على بعض المواضع، ويشتمل القسم الثاني على كتاب (الرائد إلى الرد على القرآن)[2]

أما ترجمة جورج سيل الإنجليزية التي ظهرت في لندن عام ١٧٣٤ م وأعيد طبعها أكثر من ثلاثين مرة، فقد تضمنت مقدمة جدلية ضد القرآن وصفت في أدبيات التبشير بأنها قيِّمة، وأنها أفضل وصف موضوعي للإسلام، لذلك أصبحت هذه المقدمة إحدى الجدليات الأساسية التي يعتمد عليها التبشير في الجدل ضد أصالة القرآن.

ومن تلك المسالك **عنونة ترجمات القرآن**، فقد حملت تلك العناوين تأكيدا قويا وخطابيا لما يذكرونه في جدلياتهم، فمن تلك العناوين (كتاب محمد، قرآن محمد، القرآن العربي، القرآن التركي، مبادئ السراسنة، الشرائع التركية، الكتاب المقدس التركي، تشريعات المسلمين)[3]

---

(١) أما الترجمات الفرنسية للقرآن ــ سواء ما اعتمد منها على الترجمة اللاتينية الأولى أم ما اعتمد على الأصل العربي، أم على ترجمة مرتشي الإيطالي ــ فإنها شوهت النص الأصلي، وابتعدت عنه كما تقول الباحثة هداية عبد اللطيف مشهور في دراستها حول ترجمات القرآن الفرنسية:« رجعت إلى خمس وعشرين ترجمة للقرآن بالفرنسية، فوجدتها كلها محرَّفة، وتضيف نصوصًا من التوارة إلى آيات القرآن الكريم دون الإشارة إلى ذلك » (مجلة الحرس الوطني، المملكة العربية السعودية (ذو القعدة ١٤١٣هـــ مايو ١٩٩٣ م، العدد ١٢٩، ص ٣٧)

(٢) عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص ٣٠٣.

(٣) راجع رصدًا لهذه العناوين لدى: محمد أبو فراخ، تراجم القرآن الأجنبية في الميزان، مجلة كلية أصول الدين بجامعة الإمام ابن سعود الإسلامية. العدد الرابع (عام ١٤٠٢هـــ ١٤٠٣هـ)

ومن تلك المسالك إصدار **الدوريات والقواميس ودوائر المعارف المتخصصة**، ومن أبرز الدوريات التبشيرية المتخصصة في الجدل ضد القرآن: مجلة العالم الإسلامي، والحقيقة الواضحة، ومجلة الإسلام: الألمانية، والفرنسية، والروسية.

ومن أهم دوائر المعارف التبشيرية في هذا المجال (دائرة المعارف الإسلامية) التي صدرت طبعتها الأولى باللغات الثلاث: الإنجليزية والفرنسية والألمانية في الفترة من ١٩١٤م إلى ١٩٤٢م، وتوفر على إصدارها كبار المستشرقين والمبشرين بإشراف الاتحاد الدولي للمجامع العلمية، ولما نفذت هذه الطبعة بدأ إصدار طبعة جديدة اعتبارًا من سنة ١٩٥٤م[1].

وتعد هذه الدائرة أضخم عمل مرجعي عن الإسلام، كما أنها تتصف بصفة العالمية حيث شارك في تصنيفها قرابة ثلاثة آلاف مؤلف ينتمون إلى مختلف الجنسيات والديانات، مما أعطاها زخمًا كبيرًا في مجال الجدل ضد أصالة القرآن بما لها من انتشار وقبول.

وقد وفّرت كل تلك الخصائص للدائرة سمات العمل التبشيري الناجح في تشويه حقائق الإسلام وإثارة الشبهات حول أصالة القرآن.

لقد لاحظ الأستاذ فريد وجدي طغيان المبشرين على تلك الدائرة، فقال:« إن أكثر كتّاب الدائرة قسس مبشرون يهمهم أن يحيفوا الإسلام لا أن ينصفوه »

وقد وصف رشيد رضا مباحث الدائرة بما فيها من أغلاط ومطاعن ومخالفة الحقائق، بأنها (أضرُّ من شر كتب دعاة المبشرين وصحفهم)[2]

شبهات المبشرين:

قلت: فلم اعتبرت هذه الجحافل التي ذكرتها من المبشرين، مع هذه المسالك الدقيقة التي سلكتها قد انهزمت في مواجهتها القرآن والإسلام؟

قال: لأنها لم تعدو الشبهات الجدلية التي عارض بها مشركو مكة القرآن، هم ومن أعانهم من اليهود والمنافقين، والتي تولى القرآن نفسه الرد عليها.

سأضرب لك أمثلة توضح ذلك:

لقد ذكر القرآن قول المشركين بأن الوحي المترل على محمد هو من إلهام شيطان الشعر، حيث كان العرب يتوهمون أن لكل شاعر شيطانًا من الجن يقول الشعر على لسانه، وهو ما نفاه القرآن في قوله:﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾(الحاقة:٤١)، وقوله:﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾(التكوير:٢٥)

فاستبدل مجادلو التبشير شيطان الشعر الجاهلي، وأحلوا محله الراهب النسطوري الفاسق الملحد كما

---

(١) بدأ صدور الترجمة العربية للطبعة الأولى منذ عام ١٩٣٤م، وفي عام ١٩٩٧م صدرت ترجمة كاملة لدائرة المعارف الإسلامية بالتعاون بين الهيئة المصرية العامة للكتاب ومركز الشارقة للإبداع الفكري.

(٢) أعراب عبد الحميد، دائرة المعارف الإسلامية، ص ٩.

تصوره بارشولوميو الرهاوي، أو أحلام اليقظة كما اقترح يوحنا الدمشقي.

ومن ذلك أن مشركي مكة زعموا أن محمدا ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾(النحل:١٠٣)، وقد رد عليهم القرآن بقوله:﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾(النحل:١٠٣)

فجعل الدمشقي وتلميذه أبو قرة من هذا البشر هو بحيرا الراهب الأريوسي.

ومن ذلك أنه لما زعم المشركون جماعية مصدر تعليم الرسول القرآن، كما في القرآن:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ (الفرقان:٤) زاوج ابن كمونة في احتمالاته، وأرجحها بين بحيرا الراهب أو أحد أهل الكتاب ممن كانوا بمكة أو الشام.

وقال المستشرق اليهودي إبراهام جيجر في كتابه (ماذا اقتبس محمد من اليهودية):« إن القرآن مأخوذ باللفظ أو بالمعنى من كتب اليهود »

وقال اليهودي برنارد لويس:« إن محمدًا خضع للتأثيرات اليهودية والمسيحية كما يبدو ذلك واضحًا في القرآن »

ويشرح جولد تسهر ذلك قائلا:« تبشير النبي العربي ليس إلا مزيجًا منتخبًا من معارف وآراء دينية عرفها بفضل اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التي تأثر بها تأثرًا عميقًا، والتي رآها جديرة بأن توقظ في بني وطنه عاطفة دينية صادقة، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يُعد هذه التعاليم وحيًا إلهيًا»[1]

وقد استدل الخوري الحداد المبشر اللبناني في جدليته الضخمة ضد أصالة القرآن[2] على صحة هذه المزاعم بقوله:« فوجود العالِم المسيحي ورقة بن نوفل في جوار محمد خمسة عشر عامًا قبل البعثة، وأعوامًا بعدها في أوائل الدعوة ووجود هذه الحاشية الكريمة في المدينة مع النبي في كل زمان ومكان حجة قاطعة على أن بيئة النبي والقرآن كانت كتابية من كل نواحيها، وأن ثقافة محمد والقرآن كتابية في كل مظاهرها، وذلك بمعزل عن الوحي والتتريل »[3]

ومن ذلك أن المشركين زعموا أن القرآن من أساطير الأولين، كما جاء فيه:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾(الفرقان:٤ ــ ٥)، ففسر مجادلو المشرق كلهم أساطير الأولين بأنها قصص التوراة والإنجيل:

يقول جولدتسهر:« لقد أفاد محمد من تاريخ العهد القديم وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص

---

(١) جولد تسهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، بترجمة محمد يوسف موسى وآخرون، القاهرة ١٩٤٨م، ص ١٢.

(٢) صدرت هذه الجدلية منتصف القرن العشرين في أربع مجلدات طبعتها مطبعة حريصا البولسية في لبنان بعنوان (دروس قرآنية)، مع عنوان خاص لكل كتاب، يجسد فيه مضمون جدليته.

وعناوين هذه الكتب الأربعة هي (الإنجيل والقرآن)، (القرآن والكتاب)، (القرآن والكتاب) وهو تكملة للجزء الثاني، و(نظم القرآن والكتاب)

وقد تصدى له الشيخ محمد عزة دروزة في ردٍّ تفصيلي في كتابه (القرآن والمبشرون)

(٣) الحداد، القرآن والكتاب (٢/١٠٦٠)

الأنبياء ليذكّر على سبيل الإنذار والتمثيل بمصير الأمم السالفة الذين سخروا من رسلهم ووقفوا في طريقهم»[1]، ويوضح طريقة الإفادة، فيقول:« إن محمدًا أخذ يجمع ما وجده في اتصاله السطحي أثناء رحلاته التجارية مهما كانت طبيعة هذا الذي وجده، ثم أفاد من دون أي تنظيم »[2]

ويقول المستشرق اليهودي فنسنك:« النبي كان يُبَشّر بدين مستمد من اليهودية والنصرانية، ومن ثمَّ كان يردد قصص الأنبياء المذكورين في التوراة والإنجيل، لينذر قومه بما حدث لمكذّبي الرسل قبله، وليثبّت أتباعه القليلين من حوله »

ومن ذلك زعم المشركين عدم احتواء القرآن على أي آية أو معجزة، بحيث تكفي للدلالة على نبوة محمد، كما جاء في القرآن:﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت:٥١)

وقد رد عليهم القرآن بقوله:﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الاسراء:٨٨)

وهو نفس ما سلكه هؤلاء في شبهاتهم، من محاولاتهم إبطال فاعلية التحدي القرآني المستمر، وتحجيم قيمته، ونفي أصالته، تمهيدًا لمحاولة سلب محمد شرف النبوة بحجة (عدم وجود معجزة تؤيد نبوته)[3]

وقد حدد الواعظ التبشيري (جون تاكلي) هذا الباعث من الجدل التبشيري ضد أصالة القرآن قائلا:« يجب أن نستخدم كتابهم، وهو أمضى سلاح في الإسلام ضد الإسلام نفسه لنقضي عليه تمامًا، يجب أن يرى الناس أن الصحيح في القرآن ليس جديدًا وأن الجديد فيه ليس صحيحًا »[4]

بل إن ما استعمله المشركون من لغو وتصفيق وتصفير أما القرآن ليحجبوا الناس عنه، كما ورد في القرآن:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾(فصلت:٢٦)

هو نفس ما فعله هؤلاء، كما قال المبشر وليم جيفورد بالكراف:« متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه »[5]

وهو نفس المعنى الذي قاله المبشر وليم موير:« إن سيف محمد والقرآن هما أكثر أعداء الحضارة والحرية والحقيقة الذين عرفهم العالم عنادًا حتى الآن »[6]

والمقصود بالحضارة التي حَالَ القرآن بين المسلمين وبينها، فيما أشار إليه هؤلاء هي الحضارة ذات المفهوم

---

(١) جولدتسهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٥.

(٢) جولدتسهر، العقيدة والشريعة، ص ٢٥.

(٣) تيودور أبو قرة، ميمر في وجود الخالق والدين القويم، ص ٨٥، بتحقيق: إغناطيوس ديك.

(٤) مصطفى خالدي ــ عمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد الإسلامية، ص ٤٠.

(٥) جلال العالم، دَمِّرُوا الإسلام وأبيدوا أهله، ص ٦٣، مكتبة الصحابة جدة ــ مكتبة التابعين، القاهرة. ١٩٩٤م..

(٦) إدوارد سعيد، الاستشراق، ص ١٦٨.

الغربي، ذلك النموذج الذي أكد (جياني ديميكليس) رئيس المجلس الوزاري الأوربي على ضرورة فرضه، وإلا فالحرب هي الخيار[1].

وهذا الذي ذكره هؤلاء ليس جديدا، فقد سبقهم إليه غلادستون أحد موطدي دعائم الإمبراطورية البريطانية في الشرق الإسلامي حين قال:« ما دام هذا القرآن موجودًا فلن تستطع أوربا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان »[2]

وهكذا.. فإن جميع تلك الجحافل لم تزد على ما ذكره مشركو مكة، وإن فاقوهم في القوالب التي حاولوا أن يموهوا بها الحقائق[3].

٣ ــ شهادات المنصفين:

سكت قليلا، ثم قال: لقد كان من صمود القرآن أن قيض الله له باحثين منصفين من بني جلدتنا يذبون عنه.. ويصف كل منهم ما أداه إليه اجتهاده من فضائل القرآن التي حاول الجاحدون سترها.. بل إن منهم من امتلأ قلبه خشوعا للقرآن.. فراح يعلن إسلامه، وسأذكر لك من ذلك ما تعلم به عظمة التحدي الذي توجه به أولئك الحاقدون على القرآن[4].

فمن الذين أسلموا تحت تأثير القرآن **إبراهيم خليل أحمد**، وهو قس مبشر[5]، يحمل شهادات عالية في علم اللاهوت من كلية اللاهوت المصرية، ومن جامعة برنستون الامريكية. عمل استاذاً بكلية اللاهوت باسيوط. كما ارسل عام ١٩٥٤ الى اسوان سكرتيراً عاماً للإرسالية الالمانية السويسرية. وكانت مهمته الحقيقية التنصير والعمل ضد الاسلام.. لكن تعمقه في دراسة الاسلام قاده الى الايمان بهذا الدين واشهر اسلامه رسمياً عام ١٩٥٩.

كتب العديد من المؤلفات، ابرزها (محمد في التوراة والانجيل والقرآن)

ومما قال هذا القس المسلم يشهد به للقرآن:« يرتبط هذا النبي ﷺ باعجاز أبد الدهر بما يخبرنا به المسيح عليه السلام في قوله عنه:« ويخبركم بامور آتية »، هذا الاعجاز هو القرآن الكريم، معجزة الرسول الباقية ما بقى الزمان. فالقرآن الكريم يسبق العلم الحديث في كل مناحيه: من طب، وفلك، وجغرافيا، وجيولوجيا، وقانون، واجتماع، وتاريخ.. ففي أيامنا هذه استطاع العلم أن يرى ما سبق اليه القرآن بالبيان والتعريف »

ويقول:« اعتقد يقيناً أني لو كنت انساناً وجودياً.. لا يؤمن برسالة من الرسالات السماوية، وجاءني نفر

---

(١) د. محمد عمارة، إستراتيجية التبشير، ص ٢٩.

(٢) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧م، ص ٤١.

(٣) انظر الرد على تفاصيل هذه الشبهات وغيرها في (الكلمات المقدسة)

(٤) قالوا عن القرآن، الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل، وهو كتاب يعرض العديد من أقوال علماء وأدباء ومفكري الغرب حول القرآن الكريم، منهم من أسلم ومنهم من لم يسلم.

(٥) من مواليد الاسكندرية عام ١٩١٩.. وهذه الشهادات من كتابه (محمد في التوراة والانجيل والقرآن)

من الناس وحدثني بما سبق به القرآن العلم الحديث ــ في كل مناحيه ــ لآمنت برب العزة والجبروت، خالق السماوات والارض ولن أشرك به احداً»

ويقول:« في هذا الظلام الدامس ــ أيها المسيحي ــ يترل القرآن الكريم على رسول الله ليكشف لك عن الله عز وجل »

ويقول:« للمسلم أن يعتزّ بقرآنه، فهو كالماء فيه حياة لكل من نهل منه »

ومنهم **عامر علي داود**، وهو ينحدر من أسرة هندية برهمية، دخلت المسيحية على أيدى المبشرين الذين قدموا مع طلائع الاستعمار، وقد أسلم بمجرد اطلاعه على القرآن.. قال:« تناولت نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الانجليزية، لأني عرفت أن هذ هو الكتاب المقدس عند المسلمين، فشرعت في قراءته وتدبر معانيه، لقد استقطب جل اهتمامي، وكم كانت دهشتي عظيمة حين وجدت الإجابة المقنعة عن سؤالي المحير: (الهدف من الخلق) في الصفحات الاولى من القرآن الكريم.. لقد قرأت الآيات (٣٠ – ٣٩) من سورة البقرة [١].. وهي آيات توضح الحقيقة بجلاء لكل دارس منصف، ان هذه الايات تخبرنا بكل وضوح وجلاء وبطريقة مقنعة عن قصة الخلق »[٢]

وقال:« إن دراستي للقرآن الكريم وضحت أمام ناظري العديد من الاشكالات الفكرية، وصححت الكثير من التناقضات التي طالعتها في الكتب السماوية السابقة»

ومنهم د. **موريس بوكاي** Maurice Bucaille الطبيب والعالم الفرنسي المعروف.. هو صاحب كتاب (القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم).. وهو من أكثر المؤلفات التي عالجت موضوعاً كهذا، اصالة واستيعاباً وعمقاً.

وقد كان عمله في هذا الكتاب القيم هو الذي منحه قناعات مطلقة بصدق القرآن، وبالتالي صدق الدين الذي جاء به.

لقد قال يحدث عن نفسه:« لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة باحثاً عن درجة اتفاق نصّ القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت أعرف، قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظاهرات الطبيعية، ولكن معرفتي كانت وجيزة. وبفضل الدراسة الواعية للنصّ العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوى على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث. وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والاناجيل. اما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب الى أبعد من الكتاب الاول، أي سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين اكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا. وأما بالنسبة للأناجيل.. فاننا نجد نص انجيل متي يناقض بشكل جلي انجيل لوقا، وان هذا الاخير يقدم لنا صراحة امراً لا

(١) تناولنا هذه الآيات بالدراسة مستخلصين منها حقيقة الإنسان في الإسلام في فصل (إنسانية) من هذه الرسالة.

(٢) رجال ونساء اسلموا، ١١٦/٧ – ١١٨.

يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الانسان على الارض »[1]

ويقول:« لقد أثارت الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية، فلم أكن اعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير الى هذا الحدّ من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقته تماماً للمعارف العلمية الحديثة، ذلك في نص كتب منذ اكثر من ثلاثة عشر قرناً. في البداية لم يكن لي أي ايمان بالاسلام. وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة »[2]

ويقول:« تناولت القرآن منتبها بشكل خاص الى الوصف الذي يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية. لقد اذهلتني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات وهي تفاصيل لا يمكن ان تدرك الا في النص الاصلي. اذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرات والتي لم يكن ممكنا لاي انسان في عصر محمد ﷺان يكون عنها ادنى فكرة »[3]

ويقول:« كيف يمكن لانسان – كان في بداية امره اميّاً –.. أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور اي انسان في ذلك العصر ان يكونها، وذلك دون ان يكشف تصريحه عن اقل خطأ من هذه الوجهة؟»[4]

ومنهم وليم بيرشل بشير بيكارد: W. B. Beckard وهو أديب نكليزي[5]، انبهر بعظمة القرآن، فراح يقول:« ابتعت نسخة من ترجمة سافاري الفرنسية لمعاني القرآن وهي أغلى ما أملك، فلقيت من مطالعتها أعظم متعة وابتهجت بها كثيراً حتى غدوت وكأن شعاع الحقيقة الخالد قد اشرق علي بنوره المبارك »[6]

ومنهم **ايتين دينيه**[7] الرسام الذي اعتنق الإسلام، وتسمى بناصر الدين، قال:« لقد حقق القرآن معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها، ذلك انه مكّن للغة العربية في الارض بحيث لو عاد احد اصحاب رسول الله إلينا اليوم لكان ميسوراً له أن يتفاهم تمام التفاهم مع المتعلمين من أهل اللغة العربية، بل لما وجد

---

(١) القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم، ص ١٣، وانظر البراهين العلمية الكثيرة المثبتة لهذا القول في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

(٢) القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم، ص ١٤٤.

(٣) القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم، ص ١٤٥.

(٤) القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم، ص ١٥٠.

(٥) تخرج من كانتر بوري. مؤلف وكاتب مشهور. ومن بين مؤلفاته الادبية بالانكليزية (مغامرات القاسم) و (عالم جديد). شارك في الحرب العالمية الاولى وأسر. عمل فترة من الوقت في اوغندا. اعلن اسلامه عام ١٩٢٢م.

(٦) رجال ونساء اسلموا ٢/٨٦.

(٧) هو Et.Dinet (١٨٦١ – ١٩٢٩): تعلم في فرنسا، وقصد الجزائر، فكان يقضي في بلدة بو سعادة نصف السنة من كل عام، واشهر اسلامه وتسمى بناصر الدين (١٩٢٧)، وحج الى بيت الله الحرام (١٩٢٨)، من آثاره: صنف بمعاونة سليمان بن ابراهيم (محمد في السيرة النبوية)، وله بالفرنسية (حياة العرب)، و(حياة الصحراء)، و(أشعة خاصة بنور الإسلام)، و(الشرق في نظر الغرب)، و(الحج الى بيت الله الحرام)

صعوبة تذكر للتخاطب مع الشعوب الناطقة بالضاد، وذلك عكس ما يجده مثلاً أحد معاصري (رابيليه) من أهل القرن الخامس عشر الذي هو أقرب إلينا من عصر القرآن، من الصعوبة في مخاطبة العدد الاكبر من فرنسيّي اليوم »[1]

ويقول:« أحسّ المشركون، في دخيلة نفوسهم، أن قد غزا قلوبهم ذلك الكلام العجيب الصادر من أعماق قلب الرسول ﷺ وكلهم كثيراً ما كانوا على وشك الخضوع لتلك الالفاظ الأخاذة التي ألهمها ايمان سماوي، و لم يمنعهم عن الاسلام الا قوة حبهم لأعراض الدنيا»[2]

ويقول:« إن معجزة الانبياء الذين سبقوا محمداً كانت في الواقع معجزات وقتية وبالتالي معرضة للنسيان السريع. بينما نستطيع أن نسمي معجزة الآيات القرآنية: (المعجزة الخالدة) وذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها مستمر، ومن اليسير على المؤمن في كل زمان وفي كل مكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة في كتاب الله، وفي هذه المعجزة نجد التعليل الشافي للانتشار الهائل الذي احرزه الاسلام، ذلك الانتشار الذي لا يدرك سببه الاوروبيون لانهم يجهلون القرآن، أو لانهم لا يعرفونه الا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة فضلاً عن انها غير دقيقة »[3]

ويقول:« إن كان سحر اسلوب القرآن وجمال معانيه، يحدث مثل هذا التأثير في [نفوس علماء] لا يمتون إلى العرب ولا إلى المسلمين بصلة، فماذا ترى يكون من قوة الحماسة التي تستهوى عرب الحجاز وهم الذين نزلت الآيات بلغتهم الجميلة؟... لقد كانوا لا يسمعون القرآن إلا وتتملك نفوسهم انفعالات هائلة مباغتة، فيظلون في مكانهم وكأنهم قد سمّروا فيه. أهذه الايات الخارقة تأتي من محمد ﷺ ذلك الأمي الذي لم ينل حظاً من المعرفة؟.. كلا إن هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن محمد، وأنه لا مناص من الاعتراف بأن الله العلي القدير هو الذي أملى تلك الايات البينات »[4]

ويقول:« لا عجب أن نرى النبى الأمي يتحدى الشعراء، ويعترف لهم بحق نعتهم له بالكذب، إن أتوا بعشر سور من مثله، فقد آمن بعجزهم عن ذلك »

ومنهم **ليوبولد فايس**[5] الذي تسمى بعد إسلامه (محمد اسد)، وهو مفكر وصحفي نمساوي، اشهر إسلامه، وتسمى بمحمد أسد وحكى في كتابه القيم (الطريق الى مكة) تفاصيل رحلته الى الاسلام. وقد أنشأ بمعاونة وليم بكتول، الذي اسلم هو الآخر، مجلة (الثقافة الاسلامية)، في حيدر آباد، الدكن (١٩٢٧) وكتب

---

(١) اشعة خاصة بنور الاسلام، ٣٥.

(٢) محمد رسول الله، ص ١٠٦.

(٣) محمد رسول الله، ص ١١٨.

(٤)محمد رسول الله، ص ١١٩ – ١٢١.

(٥) من آثاره: ترجم صحيح البخاري بتعليق وفهرس، والف (اصول الفقه الاسلامي)، و(الطريق الى مكة)، و(منهاج الاسلام في الحكم)، و(الاسلام على مفترق الطرق).

فيها دراسات وفيرة معظمها في تصحيح أخطاء المستشرقين عن الاسلام.

لقد قال يحكي عن نفسه وعن زوجته:« أصبحت السا (زوجتي)، شأني أنا، اكثر تأثراً مع الوقت بذلك الالتئام الباطني بين تعاليم (القرآن) الأخلاقية وتوجيهاته العملية. إن لله بمقتضى القرآن، لم يطلب خضوعاً أعمى من جانب الإنسان بل خاطب عقله: إنه لا يقف بعيداً عن مصير الانسان بل إنه (أقرب اليك من حبل الوريد) انه لم يرسم اي خط فاصل بين الايمان والسلوك الاجتماعي »[1]

وقال:« لقد عرفت الآن، بصورة لا تقبل الجدل أن الكتاب الذي كنت ممسكاً به في يدي كان كتاباً موحى به من الله، فبالرغم من أنه وضع بين يدي الانسان منذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا فانه توقع بوضوح شيئاً لم يكن بالامكان أن يصبح حقيقة الا في عصرنا هذا المعقد، الآلي. لقد عرف الناس التكاثر في جميع العصور والازمنة ولكن هذا التكاثر لم ينته قط من قبل الى ان يكون مجرد اشتياق الى امتلاك الاشياء والى ان يصبح ملهاة حجبت رؤية ايما شئ آخر.. اليوم اكثر من امس وغداً اكثر من اليوم.. لقد عرفت ان هذا لم يكن مجرد حكمة انسانية من انسان عاش في الماضي البعيد في جزيرة العرب النائية فمهما كان هذا الانسان على مثل هذا القدر من الحكمة فانه لم يكن يستطيع وحده ان يتنبأ بالعذاب الذي يتميز به هذا القرن العشرون، لقد كان ينطق لي، من القرآن، صوت اعظم من صوت محمد »

ومنهم **اللادي ايفلين كوبولد**، وهي نبيلة إنكليزية، اعتنقت الإسلام وزارت الحجاز، وحجت حج المسلمين، وكتبت مذكراتها عن رحلتها تلك في كتاب لها بعنوان: (الحج الى مكة) (لندن ١٩٣٤)، والذي ترجم الى العربية بعنوان: (البحث عن الله)، لقد قالت تتحدث عن تأثير القرآن فيها:« وذكرتُ ايضاً ما جاء في القرآن عن خلق العالم وكيف ان الله سبحانه وتعالى قد خلق من كل نوع زوجين، وكيف ان العلم الحديث قد ذهب يؤيد هذه النظرية بعد بحوث مستطيلة ودراسات امتدت اجيالاً عديدة»[2]

وقالت:« إن أثر القرآن في كل هذا التقدم (الحضارى الاسلامي) لا ينكر، فالقرآن هو الذي دفع العرب الى فتح العالم، ومكنهم من انشاء امبراطورية فاقت امبراطورية الاسكندر الكبير، والامبراطورية الرومانية سعة وقوة وعمرانا وحضارة »[3]

وقالت:« الواقع أن جمل القرآن، وبديع أسلوبه أمر لا يستطيع له القلم وصفاً ولا تعريفاً، ومن المقرر ان تذهب الترجمة بجماله وروعته وما ينعم به من موسيقى لفظية لست تجدها في غيره من الكتب. ولعل ما كتبه المستشرق جوهونسن بهذا الشأن يعبر كل التعبير عن رأي مثقفي الفرنجة وكبار مفكريهم قال:« إذا لم يكن شعراً، وهو أمر مشكوك به، ومن الصعب ان يقول المرء بانه من الشعر او غيره، فانه في الواقع اعظم من الشعر، وهو إلى ذلك ليس تاريخاً ولا وصفاً، ثم هو ليس موعظة كموعظة الجبل ولا هو يشابه كتاب البوذيين في شئ،

---

(١) الطريق الى مكة، ص ٣١٨.

(٢) البحث عن الله، ص ٤٥.

(٣) البحث عن الله، ٥١.

قليل او كثير، ولا خطبا فلسفية كمحاورات افلاطون، ولكنه صوت النبوة يخرج من القلوب السامية، وان كان عالمياً في جملته، بعيد المعنى في مختلف سوره وآياته، حتى انه يردد في كل الاصقاع، ويرتل في كل بلد تشرق عليه الشمس »

وقالت:« اشار الدكتور ماردريل المستشرق الافرنسي الذي كلفته الحكومة الافرنسية بترجمة بعض سور القرآن، إلى ما للقرآن الكريم من مزايا ليست توجد في كتاب غيره وسواه فقال:« أما اسلوب القرآن فانه اسلوب الخالق عز وجل وعلا، ذلك ان الاسلوب الذي ينطوي عليه كنه الكائن الذي صدر عنه هذا الاسلوب لا يكون الا الهياً. والحق والواقع ان اكثر الكتاب ارتياباً وشكاً قد خضعوا لتأثير سلطانه وسحره، وان سلطانه على ملايين المسلمين المنتشرين على سطح المعمور لبالغ الحدّ الذي جعل اجانب المبشرين يعترفون بالاجماع بعدم امكان اثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه الى الآن. ذلك أن هذا الاسلوب.. الذي يفيض جزالة في اتساق منسق متجانس. كان لفعله الاثر العميق في نفس كل سامع يفقه اللغة العربية، لذلك كان من الجهد الضائع الذي لا يثمر ان يحاول المرء (نقل) تأثير هذا النثر البديع الذي لم يسمع بمثله بلغة أخرى »[1]

وقالت:« الواقع ان للقرآن اسلوباً عجيباً يخالف ما كانت تنهجه العرب من نظم ونثر، فحُسنُ تأليفه، والتئامُ كلماته، ووجوه إيجازه، وجودة مقاطعه، وحسن تدليله، وانسجام قصصه، وبديع امثاله، كل هذا وغيره جعله في اعلى درجات البلاغة، وجعل لاسلوبه من القوة ما يملأ القلب روعة، لا يمل قارئه ولا يخلق بترديده.. قد امتاز بسهولة ألفاظه حتى قلّ ان تجد فيها غريباً، وهي مع سهولتها جزلة عذبة، والفاظه بعضها مع بعض متشاكله منسجمة لا تحسّ فيها لفظاً نابياً عن اخيه، فاذا اضفت الى ذلك سمّو معانيه ادركت بلاغته واعجازه »[2]

هؤلاء نزر قليل ممن بهرتهم أنوار القرآن..

ومن المنصفين الذين لم يشهروا إسلامهم.. ولكن ذلك لم يمنعهم من الشهادة للقرآن بما علموا **توماس أرنولد**[3].. إنه من أعز أصدقائي.. وهو مهتم مثلي بالإسلام.. ولو أن اهتمامه انصب إلى الإسلام المخلص.. أما أنا فاهتممت بالإسلام الصامد.. وكلاهما يدل على كمال الإسلام.. وعلى طيب الثمرة التي غرس شجرتها محمد.

لقد قال:« إننا نجد حتى من بين المسيحيين مثل الفار "A"va" الاسباني الذى عُرف بتعصبه على الاسلام، يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى أن المسيحيين لم يسعهم الا قراءته والاعجاب

(١) البحث عن الله، ص ١١٢ – ١١٣.
(٢) البحث عن الله، ص ١١٣.
(٣) سبق تعريفه والحديث معه في الفصل السابق.

به »[1]

ومنهم **واشنجتون ايرفنج** W. Irving [2] المستشرق الأمريكي.. لقد قال:« كانت التوراة في يوم ما هي مرشد الإنسان وأساس سلوكه. حتى إذا ظهر المسيح اتبع المسيحيون تعاليم الانجيل، ثم حلّ القرآن مكانهما، فقد كان القرآن أكثر شمولاً وتفصيلاً من الكتابين السابقين، كما صحح القرآن ما قد ادخل على هذين الكتابين من تغيير وتبديل. حوى القرآن كل شئ، وحوى جميع القوانين، إذ أنه خاتم الكتب السماوية »[3]

وهو يقول:« يدعو القرآن إلى الرحمة والصفاء وإلى مذاهب أخلاقية سامية »[4]

ومنهم د. **ميلر بروز** Mllar Burrows، وهو رئيس قسم لغات الشرق الادنى وآدابه وأستاذ الفقه الديني الانجيلي في جامعة (بيل)[5].. فقد قال:« إنه ليس هناك شئ، لاديني في تزايد سيطرة الانسان على القوى الطبيعية، هناك آية في القرآن يمكن أن يستنتج منها أنه لعل من أهداف خلق المجموعة الشمسية لفت نظر الانسان لكي يدرس علم الفلك ويستخدمه في حياته:﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥)﴾(يونس)، وكثيراً ما يشير القرآن إلى إخضاع الطبيعة للانسان باعتباره إحدى الآيات التي تبعث على الشكر والايمان:﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣)﴾(الزخرف)، ويذكر القرآن ـــ لا تسخير الحيوان واستخدامه فحسب ـــ ولكن يذكر السفن أيضاً.. فاذا كان الجمل والسفينة من نعم الله العظيمة، أفلا يصدق هذا اكثر على سكة الحديد والسيارة والطائرة؟» " [5]

ومنهم **بلاشير**[6]، وهو من أهل هذه البلاد، قال:« إن الفضل بعد الله يعود إلى الخليفة عثمان بن عفان

---

(١) الدعوة الى الاسلام (بحث في تاريخ نشر العقيدة الاسلامية)، ص ١٦٢.

(٢) هو مستشرق أمريكي، أولى اهتماماً كبيراً لتاريخ المسلمين في الأندلس. من آثاره: (سيرة النبي العربي) مذيلة بخاتمة لقواعد الإسلام ومصادرها الدينية (١٨٤٩)، و(فتح غرناطة﴾ (١٨٥٩)، غيرها.

(٣) حياة محمد، ص ٧٢.

(٤) حياة محمد، ص ٣٠٤.

(٥) وعمل استاذاً بجامعة براون، واستاذاً زائراً بالجامعة الامريكية في بيروت، ومديراً للمدرسة الامريكية للبحوث الشرقية بالقدس، ومن مؤلفاته: What Means these Stones,.Palestines ،Founders of Great religions, is our Busness, ١٩٤١.

(٦) بلاشير r.l.Blachere، ولد بالقرب من باريس، وتلقى دروسه الثانوية في الدار البيضاء، وتخرج بالعربية في كلية الاداب بالجزائر (١٩٢٢)، وعين استاذاً لها في معهد مولاي يوسف بالرباط، ثم انتدب مديراً لمعهد الدراسات المغربية العليا بالرباط (١٩٢٤ – ١٩٣٥)، واستدعته مدرسة اللغات الشرقية بباريس استاذاً لكرسى الادب العربي (١٩٣٥ – ١٩٥١)، ونال الدكتوراه (١٩٣٦)، وعين استاذاً محاضراً في السوربون (١٩٣٨)، ومشرفاً على مجلة (المعرفة)، التي ظهرت في باريس باللغتين

لإسهامه قبل سنة ٦٥٥هـ في ابعاد المخاطر الناشئة عن وجود نسخ عديدة من القرآن، وإليه وحده يدين المسلمون بفضل تثبيت نص كتابهم المترل، على مدى الاجيال القادمة »[1]

ويقول:« لاجرم في أنه اذا كان ثمة شئ تعجز الترجمة عن ادائه فانما هو الاعجاز البيانى واللفظي والجرس الايقاعي في الآيات المترلة في ذلك العهد.. ان خصوم محمد قد احطأوا عندما لم يشاءوا ان يروا في هذا إلاّ أغاني سحرية وتعويذية، وبالرغم من أننا على علم ــ استقرائياً فقط ــ بتنبؤات الكهان، فمن الجائز لنا الاعتقاد مع ذلك بخطل هذا الحكم وتهافته، فان للآيات التي أعاد الرسول ذكرها في هذه السور اندفاعاً وألَقاً وجلالةً تخلّف وراءها بعيداً اقوال فصحاء البشر كما يمكن استحضارها من خلال النصوص الموضوعة التي وصلتنا »[2]

ويقول:« إن القرآن ليس معجزة بمحتواه وتعليمه فقط، انه ايضاً ويمكنه ان يكون قبل اى شئ آخر تحفة ادبية رائعة تسمو على جميع ما أقرّته الانسانية وبجّلته من التحف.. إن الخليفة المقبل عمر بن الخطاب المعارض الفظ في البداية للدين الجديد، قد غدا من أشد المتحمسين لنصرة الدين عقب سماعه لمقطع من القرآن.. وسنورد الحديث فيما بعد عن مقدار الافتتان الشفهي بالنص القرآني بعد ان رتّله المؤمنون »[3]

ويقول:« في جميع المجالات التي أطللنا عليها من علم قواعد اللغة والمعجمية وعلم البيان، أثارت الواقعة القرآنية وغذت نشاطات علمية هي أقرب إلى حالة حضارية منها الى المتطلبات التي فرضها إخراج الشريعة الاسلامية. وهناك مجالات اخرى تدخل فيها (الواقعة القرآنية) كعامل أساسى.. ولا تكون فاعليتها هنا فاعلية عنصر منبه فقط، بل فاعلية عنصر مبدع تتوطد قوته بنوعيته الذاتية »

ومنهم **مارسيل بوازار**، وهو مفكر، وقانونى فرنسى، وهو أستاذ معنا بهذه الجامعة.. وهو مغرم غراما عظيما بموقف الإسلام من الإنسان.. والحقوق التي أعطاها له، والتي لم يظفر بها في غيره من الأديان والمذاهب والحضارات [4].. لقد قال يتحدث عن القرآن:« لابدّ عند تعريف النصّ القدسى في الاسلام من ذكر عنصرين: الأول انه كتاب مترل أزلي، والثاني أنه (قرآن) أي كلام حي في قلب الجماعة.. وهو بين الله والإنسانية (الوسيط) الذى يجعل أي تنظيم كهنوتى غير ذي جدوى، لانه مرضيّ به مرجعاً أصلياً، وينبوع إلهام اساسي.. ومازال حتى ايامنا هذه نموذجاً رفيعاً للادب العربى تستحيل محاكاته، إنه لا يمثل النموذج المحتذى للعمل الادبي الأمثل وحسب، بل يمثل كذلك مصدر الادب العربي والاسلامي الذي ابدعه، لأن الدين أوحى به هو في

العربية والفرنسية، من آثاره: دراسات عديدة عن تاريخ الادب العربى في اشهر المجلات الاستشراقية، وكتاب (تاريخ الادب العربى) (باريس ١٩٥٢)، وترجمة جديدة للقرآن الكريم في ثلاثة اجزاء (باريس ١٩٤٧ – ١٩٥٢)، وغيرها.

(١) تاريخ الادب العربى ٢/٢٢.

(٢) تاريخ الادب العربى ٢/٣١.

(٣) القرآن الكريم، ص ١٠٢ – ١٠٣.

(٤) سيكون الحوار معه في فصل (إنسانية) من هذه الرسالة.

اساس عدد كبير من المناهج الفكرية التي سوف يشتهر بها الكتاب »[1]

ويقول:« لقد أثبت التنزيل برفضه الفصل بين الروحي والزمني أنه دين ونظام اجتماعي.. ومن البديهي أن التنزيل والسبيل الذي ظن إمكان استخدامه فيه قد طبعا المجتمع بعمق »[2]

ويقول:« إن القرآن لم يقدّر قط لإصلاح أخلاق عرب الجاهلية، إنه على العكس يحمل الشريعة الخالدة والكاملة والمطابقة للحقائق البشرية، والحاجات الاجتماعية في كل الأزمنة »[3]

ويقول:« يخلق الروح القرآني مناخ عيش ينتهي به الأمر إلى مناغمة التعبيرات الذهنية والمساواة بين العقليات والنظم الاجتماعية بأكثر مما تفترض التصريفات السياسية والطوابع الايديولوجية التي تسند الى الدول، ولا يكفي قط ما يتردد عن درجة تأثير القرآن الكبرى في (الذهنية الاسلامية) المعاصرة، فهو ما يزال مصدر الالهام الفردى والجماعي الرئيسى، كما أنه ملجأ المسلمين وملاذهم الأخير »[4]

ويقول:« إن الأدوات التي يوفرها التنزيل القرآني قادرة ولا ريب على بناء مجتمع حديث »[5]

ومنهم د. **فيليب حتي**[6]، المستشرق العربي المعروف، فقد قال:« إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثم انه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يقلّد. وهذا في أساسه هو إعجاز القرآن [7].. فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى»[8]

وقال:« إن إعجاز القرآن لم يحل دون أن يكون اثره ظاهراً على الادب العربي. أما اذا نحن نظرنا الى النسخة التي نقلت في عهد الملك جيمس من التوراة والانجيل وجدنا أن الأثر الذي تركته على اللغة الانكيزية ضئيل، بالإضافة إلى الاثر الذي تركه القرآن على اللغة العربية. إن القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية وصانها

---

(١) انسانية الاسلام، ص ٥٢ – ٥٣.

(٢) انسانية الاسلام، ص ٢٠٦ – ٢٠٧.

(٣) انسانية الاسلام، ص ١٠٩.

(٤) انسانية الاسلام، ص ٣٤٣.

(٥) انسانية الاسلام، ص ٣٤٥..

(٦) ولد عام ١٨٨٦م، لبناني الاصل، امريكي الجنسية، تخرج من الجامعة الامريكية في بيروت (١٩٠٨م)، ونال الدكتوراه من جامعة كولومبيا (١٩١٥م)، وعين معيداً في قسمها الشرقي (١٩١٥ – ١٩١٩)، واستاذاً لتاريخ العرب في الجامعة الامريكية ببيروت (١٩١٩ – ١٩٢٥)، واستاذاً مساعداً للاداب السامية في جامعة برنستون (١٩٢٦ – ١٩٢٩م)، واستاذاً ثم استاذ كرسي ثم رئيساً لقسم اللغات والاداب الشرقية (١٩٢٩ – ١٩٥٤م)، حين احيل على التقاعد، انتخب عضواً في جمعيات ومجامع عديدة.

من آثاره: (اصول الدولة الاسلامية﴾ (١٩١٦م)، (تاريخ العرب﴾ (١٩٢٧م)، (تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين﴾ (١٩٥١م)، (لبنان في التاريخ﴾ (١٩٦١م)، وغيرها.

(٧) هذا وجه من وجوه الإعجاز، وليس كل الإعجاز.

(٨) الاسلام منهج حياة، ص ٦٢.

من أن تتمزق لهجمات»[1]

ومنهم الدكتور **جوج حنّا**[2]، فمع كونه مادي التفكير إلا أن ذلك لم يمنعه من الإدلاء بشهادته للقرآن، فقال:« إنه لابدّ من الاقرار بأن القرآن، فضلاً عن كونه كتاب دين وتشريع، فهو أيضاً كتاب لغة عربية فصحى. وللغة القرآن الفضل الكبير في ازدهار اللغة، ولطالما يعود إليه ائمة اللغة، في بلاغة الكلمة وبيانها، سواء كان هؤلاء الائمة مسلمين ام مسيحيين. واذا كان المسلمون يعتبرون أن صوابية لغة القرآن هي نتيجة محتومة لكون القرآن منزلاً، ولا تحتمل التخطئة، فالمسيحيون يعترفون أيضاً بهذه الصوابية، بقطع النظر عن كونه منزلاً أو موضوعاً، ويرجعون إليه للاستشهاد بلغته الصحيحة، كلما استعصى عليهم امر من امور اللغة »[3]

ومنهم **درمنغم** [4] وهو مستشرق من هذه البلاد، قال:« للمسيح في القرآن مقام عالٍ، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس، وهو رسول الله الذي خاطب الله جهراً عن مقاصده، وحدث عن ذلك أول شخص كلمه، وهو كلمة الله الناطقة من غير اقتصار على الوحي وحده.. والقرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول: إن عيسى كلمة الله، او روح الله، ألقاها الى مريم وأنه من البشر.. وهو يذمّ مذهب القائلين بألوهية المسيح، ومذهب تقديم الخبز إلى مريم عبادةً ثم أكله وما إلى ذلك من مذاهب الإلحاد النصرانية، لا النصرانية الصحيحة، ولا يسع النصراني إلا أن يرضى بمهاجمة القرآن للثالوث المؤلف من الله وعيسى ومريم »[5]

ويقول:« سيكون القرآن حافزاً للجهاد يردده المؤمنون كما يردد غيرهم أناشيد الحرب، محرضاً على القتال جامعاً لشؤونه، محركاً لفاتري الهمم، فاضحاً للمخلّفين مخزياً للمنافقين، واعداً الشهداء بجنات عدن »[6]

ويقول:« كان محمد يعد نفسه وسيلة لتبليغ الوحي، وكان مبلغ حرصه أن يكون أميناً مصغياً أو سجلاً صادقاً أو حاكياً معصوماً لما يسمعه من كلام الظل الساطع والصوت الصامت للكلام القديم على شكل دنيوي، لكلام الله الذي هو أمّ الكتاب، للكلام الذي تحفظه ملائكة كرام في السماء السابعة، ولا بد لكل نبي من دليل على رسالته، ولابد له من معجزة يتحدى بها.. والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة[7]، فأسلوبه المعجز وقوة أبحاثه لا تزال.. إلى يومنا يثيران ساكن من يتلونه، ولو لم يكونوا من الاتقياء العابدين، وكان محمد

---

(١) الاسلام منهج حياة، ص ٢٨٧ – ٢٨٨.

(٢) مسيحي من لبنان، ينطلق في تفكيره من رؤية مادية طبيعية صرفة، كما هو واضح في كتابه المعروف (قصة الانسان)..

(٣) قصة الانسان، ص ٧٩ – ٨٠.

(٤) هو إميل درمنغم E.Dremenghem: عمل مديراً لمكتبة الجزائر، من آثاره: (حياة محمدﷺ (باريس ١٩٢٩)، و(محمد والسنة الاسلاميةﷺ (باريس ١٩٥٥)، ونشر عدداً من الابحاث في المجلات الشهيرة مثل: (المجلة الافريقية)، و(حوليات معهد الدراسات الشرقية)، و(نشرة الدراسات العربية)، وغيرها.

(٥) حياة محمد، ص ١٣١ – ١٣٢.

(٦) حياة محمد، ص ١٩٥.

(٧) هناك معجزات أخرى للنبي ﷺ.. انظر الغرض من هذا القول الذي يلح عليه الكثير من المستشرقين والمبشرين في رسالة (معجزات حسية)

يتحدى الانس والجن بان يأتوا بمثله، وكان هذا التحدى أقوم دليل لمحمد على صدق رسالته.. ولا ريب أن في كل آية منه، ولو أشارت إلى أدق حادثة في حياته الخاصة، تأتيه بما يهزّ الروح بأسرها من المعجزة العقلية، ولا ريب في أن هنالك ما يجب أن يبحث به عن سرّ نفوذه وعظيم نجاحه »[1] " [1]

ومنهم **الكونت هنري دي كاستري** [2]، وهو مقدم في الجيش الفرنسي، قال:« إن العقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمي، وقد اعترف الشرق قاطبة بالها آيات يعجز فكر بني الانسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى، آيات لما سمعها عقبة بن ربيعة حار في جماها، وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب فآمن برب قائلها، وفاضت عين نجاشيّ الحبشة بالدموع لما تلى عليه جعفر بن ابى طالب السورة التي ذكر فيها زكريا وما جاء في ولادة يحيى وصاح القسس إن هذا الكلام واردٌ من موارد كلام عيسى.. لكنا نحن معشر الغربيين لا يسعنا أن نفقه معاني القرآن كما هي لمخالفته لافكارنا ومغايرته لما ربيت عليه الامم عندنا، غير أنه لا ينبغي ان يكون ذلك سبباً في معارضة تأثيره في عقول العرب، ولقد اصاب (جان جاك روسو) حيث يقول:« من الناس من يتعلم قليلاً من العربية، ثم يقرأ القران ويضحك منه، ولو انه سمع محمداً يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المشبع المقنع الذي يطرب الاذان ويؤثر في القلوب.. لخرّ ساجداً على الارض وناداه: ايها النبي رسول الله خذ بيدنا الى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والاخطار فنحن من أجلك نودّ الموت أو الانتصار».. وكيف يعقل أن النبي ألّف هذا الكتاب باللغة الفصحى مع انها في الازمان الوسطى كاللغة اللاتينية ما كان يعقلها إلا القوم العالمون.. ولو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولي على الافكار ويأخذ بمجامع القلوب»[3]

ويقول:« أتى محمد بالقرآن دليلاً على صدق رسالته، وهو لا يزال إلى يومنا هذا سرّاً من الاسرار التي تعذر فك طلاسمها، ولن يسبر غور هذا السر المكنون إلاّ من يصدق بأنه منزل من الله »[4]

ويقول:« قد نرى تشابهاً بين القرآن والتوراة في بعض المواضع، إلا أن سببه ميسور المعرفة.. إذا لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها، كما أن النبي خاتم الانبياء والمرسلين»[5]

ومنهم **ول ديورانت**[6]، وهو أشهر من كتب مؤرخا للحضارات البشرية عبر مساراتها المعقدة المتشابكة،

---

(١) حياة محمد، ص ٢٧٩ – ٢٨٠.

(٢) هو Castries Cte.H.de(١٨٥٠ – ١٩٢٧)، قضى في الشمال الافريقي ردحاً من الزمن، من آثاره: (مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب﴾ (١٩٠٥)، (الاشراف السعديون﴾ (١٩٢١)، (رحلة هولندي الى المغرب﴾ (١٩٢٦)، وغيرها..

(٣) الاسلام: خواطر وسوانح، ص ١٨ – ٢٠.. ولا يخفى ما في كلامه هذا من الأخطاء، ولكن محل الشاهد هو تقديره للقرآن بغض النظر عن جهة التقدير.

(٤) الاسلام: خواطر وسوانح، ص ٢٠.

(٥) الاسلام: خواطر وسوانح، ص ٢٢ – ٢٣.

(٦) ول ديورانت W.Durant: مؤلف امريكي معاصر، يعد كتابه (قصة الحضارة) ذو الثلاثين مجلداً، وأصدر جزأه الاول عام ١٩٣٥، ثم تلته بقية الاجزاء، ومن كتبه المعروفة كذلك (قصة الفلسفة)..

قال:« ظل [القرآن] أربعة عشر قرناً من الزمان محفوظاً في ذاكرة [المسلمين] يستثير خيالهم، ويشكل اخلاقهم، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال، والقرآن يبعث في النفوس أسهل العقائد، وأقلها غموضاً، وابعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس، وأكثرها تحرراً من الوثنية والكهنوتية، وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية، وحرضهم على اتباع القواعد الصحية، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والاوهام، ومن الظلم والقسوة، وحسّن احوال الارقاء، وبعث في نفوس الاذلاء الكرامة والعزة، وأوجد بين المسلمين.. درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض »[1]

ومنهم **فرانز روزنثال** F.rsenthal [2].. قال:« من الدوافع العملية لدراسة التاريخ توفر المادة التاريخية في القرآن مما دفع مفسريه إلى البحث عن معلومات تاريخية لتفسير ما جاء فيه، وقد اصبح الاهتمام بالمادة التاريخية، على مر المزمن، أحد فروع المعرفة التي تمت بالارتباط بالقرآن. واذا كان الرسول قد سمع بعض الاخبار والمعلومات التاريخية، فان هذا لا يبرر الافتراض بانه قد قرأ المصادر التاريخية كالتوراة في ترجماتها العربية. لقد وردت في القرآن معلومات تاريخية تختلف عما يدعي اليهود وجوده في التوراة. وقد ذكر الرسول أن اليهود والنصارى حرفوا التوراة، وتمسك المسلمون بما جاء في القرآن.. لقد اشار القرآن الى كثير من الاحداث التي احاطت بالرسول، وكان لذلك اهمية في التاريخ الاسلامي لأن الاحداث التي أشارت اليها الآيات صارت لها أهمية تاريخية كبرى للمسلمين، واستثارت البحوث التاريخية »[3]

٤ ـــ شهادات المعتدين:

سكت قليلا، ثم قال: ليس ذلك فقط.. بل إن أعداء الإسلام.. ومن قديم.. أدركوا سر شموخ القرآن وعظمته.. ولهذا لاحت منهم في أوقات غضبهم، أو أوقات تهديدهم كلمات تبين ما للقرآن من عظمة وصمود.

اسمع إلى هذا الحقد الدفين الذي يغلي في قلوب هؤلاء نحو القرآن:

يقول رئيس وزراء بريطانيا (جلادستون) في مجلس العموم البريطاني بعد ما حمل القرآن بيده:« إننا لا نستطيع القضاء على الإسلام والمسلمين إلا بعد القضاء على ثلاثة أشياء:صلاة الجمعة، والحج، وهذا الكتاب »، فقام أحد الحاضرين ليمزق القرآن فقال: ما هكذا أريد يا أحمق، إني أريد تمزيقه في قلوبهم وتصرفاتهم.

ويقول:« ما دام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق »

---

(١) قصة الحضارة، ص ٦٨/١٣ – ٦٩.

(٢) من أساتذة جامعة ييل. من آثاره: العديد من الدراسات والابحاث في المجلات الشهيرة مثل (الثقافة الاسلامية)، (الشرقيات)، (صحيفة الجمعية الامريكية الشرقية).كما الف عدداً من الكتب من اشهرها: (مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي)، (وعلم التاريخ عند المسلمين).

(٣) علم التاريخ عند المسلمين، ص ٤١ – ٤٢.

ويقول المُبَشر (وليم جيفورد بالكراف):« متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيداً عن محمد وكتابه »

ويقول المبشر تاكلي:« يجب أن نستخدم القرآن، وهو أمضى سلاح في الإسلام، ضد الإسلام نفسه، حتى نقضى عليه تماماً، يجب أن نبين للمسلمين أن الصحيح في القرآن ليس جديداً، وأن الجديد فيه ليس صحيحاً»

وقال الحاكم الفرنسي في الجزائر في ذِكْرى مرور مائة سنة على استعمار الجزائر:« إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن، ويتكلمون العربية، فيجب أن نُزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم »

لم يكتف الحكام الفرنسيون بالقول.. بل راحوا يمارسون كل الأساليب لمواجهة القرآن..

ومن ذلك أنهم قاموا بتجربة عملية، قامت بانتقاء عشر فتيات مسلمات جزائريات، أدخلتهن الحكومة الفرنسية في المدارس الفرنسية، وألبستهن الثياب الفرنسية، ولقنتهن الثقافة الفرنسية، وعلمتهن اللغة الفرنسية، فأصبحن كالفرنسيات تماماً.

وبعد أحد عشر عاماً من الجهود هيأت لهن حفلة تخرج رائعة دعي إليها الوزراء والمفكرون والصحفيون .. ولما ابتدأت الحفلة، فوجئ الجميع بالفتيات الجزائريات يدخلن بلباسهن الإسلامي الجزائري ، فثارت ثائرة الصحف الفرنسية وتساءلت: ماذا فعلت فرنسا في الجزائر إذن بعد مرور مائة وثمانية وعشرين عاماً!؟

فأجاب لاكوست، وزير المستعمرات الفرنسي:« وماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا!؟ »

٢ ـــ صمود السنة

قلت: عرفت صمود القرآن.. فكيف صمدت السنة، وقد دخلها الضعيف والموضوع، واختلف الناس في كثير مما ورد فيها؟

قال: إن ذلك كله من دلائل صمودها.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألا نستدل ببقاء المريض حيا معافى بعد أن اعترته الأمراض الكثيرة، أو تناولته السموم الكثيرة على ما له من قوة مناعة؟

قلت: أجل.. ذلك صحيح.. فكيف تطبقه على هذا؟

قال: لقد تعرضت السنة لمحاولات تشويه كثيرة، فظهر كذابون كثيرون يحاولون تحريف هدي محمد.. بل تحريف الدين نفسه، بعد أن عز عليهم تحريف القرآن.. والتمسوا لذلك كل الوسائل، ولكن كل وسائلهم باءت بالفشل، فقد نهض رجال كثيرون، ليس لهم من هم إلا الذب عن كل ما وصلهم من نبيهم.. فحموه بمثل الجهود التي حموا بها القرآن.

وقد صمدت السنة بذلك، وخلصت من كل محاولات التشويه التي لحقتها.

قلت: فحدثني كيف تم ذلك؟

نظر إلى الشجرة الجاثية أمامنا، كأنه يستلهم منها ما يريد قوله، ثم قال: لقد كان ذلك معجزة من معجزات هذا الدين الخالدة.. لقد ظهر رجال كثيرون.. كثيرون أكثر مما تتصور.. لا هم لهم في هذه الحياة إلا أن يستظهروا مئات الألوف من الأسانيد والأحاديث غيباً.. لو أن أحدهم شك في كلمة، بل في حرف لذكر ذلك في روايته أداء للأمانة وتبرئة للذمة.

ونتيجة للضبط المتقن والدقة البالغة في حفظ الأسانيد والتثبت منها حفظت السنة، وكشف كل مدسوس فيها.. وقد جيء إلى الرشيد بزنديق، فأمر بقتله فقال: يا أمير المؤمنين، أين أنت من أربعة آلاف حديث وضعتها فيكم، أحرم فيها الحلال، وأحل فيها الحرام ما قال النبي منها حرفاً واحداً؟

فقال الرشيد: أين أنت يا زنديق من عبد الله بن المبارك، وأبي إسحاق الفزاري ينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً[1].

قلت: حدثني عن قصة حفظ السنة من أولها.

حفظ الصحابة:

قال: صدقت.. فلنبدأ القصة من أولها.

لقد كان أول من تولى حفظ سنة محمد هم أصحاب محمد.. فهم الذين نقلوا كل ما رأوه من أفعاله

---

(١) تحذير الخواص:السيوطى ١٦٣.

وأقواله.. وذلك ما لم يحصل في ديننا، فالأناجيل التي رويت فيها حياة المسيح لا تمثل إلا جزءا بسيطا مما روي عن حياة محمد، وهدي محمد.

بالإضافة إلى أن من تولى ذلك ــ خلافا لنا ــ هم أصحاب محمد أنفسهم.

لقد كانت أعينهم وآذانهم تلتقط كل حركة لرسول الله ﷺ، وكل قولة يقولها بكل دقة وتثبت.

وقد بلغ من حرصهم على هدي نبيهم أنهم كانوا يتناوبون ملازمته حتى لا يضيع شيء من هديه عنهم، فهذا عمر بن الخطاب يقول:« كنت وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد ــ من عوالي المدينة ــ وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يومًا، وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك ليوم، وإذا نزل فعل مثل ذلك»[1]

وكانوا يقطعون المسافات الطويلة ليسألوا نبيهم عن حكم الله في بعض ما يعرض لهم، فعن عقبة بن الحارث: أن امرأة أخبرته أنها أرضعته هو وزوجه، فركب من فوره من مكة إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، فلما بلغ رسول الله ﷺ سأله عن حكم الله فيمن تزوج امرأة لا يعلم أنها أخته من الرضاع، ثم أخبرته بذلك من أرضعتهما؟ فقال له النبي ﷺ:« كيف وقد قيل؟» ففارق زوجه لوقته، وتزوجت بغيره[2].

وكانوا حريصين على أن يسألوا أزواج نبيهم عن سيرته وسنته في بيته، وكانت النساء يذهبن إلى بيوت أزواج النبي يسألنهن عما يعرض لهن.

بل كانوا ــ لشدة التزامهم بهدي نبيهم ــ يلتزمون ما يفعل، ويتركون ما يترك دون أن يعرفوا لذلك حكمة، ودون أن يسألوا عن ذلك، ثقة منهم بأن فعله وحي، فعن ابن عمر قال:« اتخذ رسول الله ﷺ خاتمًا من ذهب، فاتخذ الناس خواتيم من ذهب، ثم نبذه النبي ﷺ، وقال:« إني لن ألبسه أبدًا »، فنبذ الناس خواتيمهم »[3]

وعن أبي سعيد الخدري قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعها عن يساره، فلما رأى القوم ذلك ألقوا نعالهم، فلما قضى صلاته قال:« ما حملكم على إلقاء نعالكم؟»، قالوا: يا رسول الله رأيناك ألقيت نعليك، فقال:« إن جبريل أخبرني أن فيهما قذرا»[4]

وعن ابن مسعود أنه « جاء يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب، فسمعه يقول:« اجلسوا»، فجلس بباب المسجد ــ أي حيث سمع محمدا يقول ذلك ــ فرآه النبي ﷺ فقال:« تعال يا عبد الله بن مسعود »[5]

قلت: فما الذي ولد فيهم كل هذا الحرص، بل كل هذا الذوبان فيما يصدر عن نبيهم؟

قال: لا يمكن للرسول ــ أي رسول ــ أن يبلغ دعوة ربه، وأن يهدي الناس إلى طريقه ما لم تتوفر في

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه أحمد وأبو داود والدارمي.

(٥) رواه أبو داود.

المتلقين عنه القابلية المطلقة لكل ما جاء به.

ولهذا جاءت النصوص الكثيرة تربي في نفوس الصحابة، ومن بعدهم، هذه القابلية التي تنم عن الثقة المطلقة بكل ما يقوله النبي، وكل ما يفعله.

ففي القرآن آيات كثيرة تدل على أن الله فرض على أتباع محمد اتباع كل ما يقوله ويفعله ويقره، ففي القرآن:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (النساء:٥٩)، وفيه:﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ (النساء:٨٠)

ففي هاتين الآيتين أمر صريح يعتبر طاعة الله وطاعة الرسول شيئا واحد لا يقبل أحدهما إلا مع الآخر.. وما طاعة الله إلا اتباع كتابه، وما طاعة الرسول إلا إتباع سنته.

ومن ذلك قوله:﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾ (الأحزاب:٣٦)، وقوله:﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (النساء:٦٥)، ففي هاتين الآيتين إلزام باتباع حكم النبي، وما الحكم إلا جزء من أقواله أو أفعاله، وكلاهما من السنة.

ومثل ذلك الآيات التي تدل على أن الرسول لا يقول أو يفعل شيئًا في الدين إلا بوحي من عند الله، ففي القرآن:﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف:١٥٧)، فقد أسندت الآية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحلال الحلال، وتحريم الحرام إلى الرسول مباشرة دون أن تقيد ذلك بكونه قرآنًا أو سنة.

ومثل ذلك قوله:﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم:٣-٤)، ففيها دليل على أن ما جاء به محمد من السنة إنما هو وحي من عند الله، وما كان من عند الله وجب اتباعه، لأن الله هو المشرع، فلذلك كانت السنة واجبة الاتباع.

ومثل ذلك الآيات التي تنص على أن ما يحرم الرسول بسنته مثل ما يحرم بالكتاب، كلاهما من عند الله، وذلك مثل قوله:﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾(التوبة:٢٩)، فهذه الآية ذكرت نوعين من المحرمات: ما حرم الله، وما حرم رسوله، وجمعت بين الأمرين في جملة واحدة عاطفة ما حرم الرسول على ما حرم الله، وذلك يدل بوضوح على أن ما حرم الرسول هو مثل ما حرم الله، وأن الأمرين على مترلة واحدة من حجية التشريع وحكمه، وأن ما شرع الله في كتابه هو مثل ما شرع الرسول في سنته.

ليس هذا فقط..

بل هناك شيء آخر جعل في الصحابة، ومن بعدهم ذلك الحرص الشديد على حفظ السنة..

أنت تعلم أن القرآن هو الكتاب الذي يحمل الحقائق الكبرى التي ينبني عليها الإسلام، وهو لذلك لم

يتفرغ لتفصيل الكثير من الأمور العملية، فكانت السنة هي الهدي الذي يكمل القرآن..

والقرآن في ذلك كالقوانين التي تحتاج إلى مذكرات تفسيرية، وقد كانت السنة هي خير مذكرة تفسيرية للقرآن، وذلك ما يشير إليه القرآن نفسه، ففيه:﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:٤٤)

ففي الصلاة التي ورد الأمر بها مجملا في القرآن نجد في السنة التفاصيل الكثيرة المبينة لها، حيث بين محمد أركانها ومواقيتها وشروطها وكيفية التعامل مع الأخطاء التي قد تقع فيها.

ومثل ذلك في الزكاة، حيث بيّن حقيقتها، وعلى من تجب، وبيّن أنصبتها، والمقادير المخرجة منها.

ومثل ذلك في الصيام، حيث بين تفاصيل المفطرات وعلى من يجب وما هي مواقيته وما هي سننه وغير ذلك كثير.

ومثل ذلك في الحج، فقد بين محمد أن الحج لا يجب في العمر إلا مرة واحدة، وبيّن ما يلبس المحرم مما لا يلبسه، وحدّد مواقيت الحج والعمرة وبيّن عدد الطواف وكيفيته، وكلّ ذلك ليس في القرآن تفاصيل بيانه.

ومثل ذلك سائر الأحكام..

وقد كان محمد ينبههم إلى أخذ كل ذلك عنه، فيقول في الحج:« خذوا عني مناسككم»[١]

ويقول في الصلاة:« صلوا كما رأيتموني أصلي»[٢]

ويقول في سائر الأمور:« كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى »، قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال:« من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»[٣]

وقد عرف الصحابة ذلك، فكانوا يعرفون للسنة قدرها، فهذا جابر بن عبد الله يقول أثناء سرده صفة الحج:« ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه يترل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به»[٤]

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: « ائذنوا للنساء بالليل إلى المساجد » فقال ابن له، يقال له واقد: إذن يتخذنه دَغَلاً، قال: فضرب في صدره وقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ، وتقول: لا »[٥]

وعن عمران بن حصين أنه ذكر الشفاعة، فقال رجل من القوم: يا أبا نجيد، إنكم تحدثونا بأحاديث لم نجد لها أصلاً في القرآن، فغضب عمران وقال للرجل: قرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: فهل وجدت فيه صلاة العشاء أربعاً ووجدت المغرب ثلاثاً، والغداة ركعتين، والظهر أربعاً والعصر أربعاً؟ قال: لا. قال: فعمن أخذتم ذلك؟ ألستم عنّا أخذتموه وأخذناه عن رسول الله ﷺ؟ أوجدتم فيه: في كل أربعين شاة شاة، وفي كل كذا بعيراً كذا،

---

(١) رواه أحمد والنسائي.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه مسلم.

وفي كل كذا درهماً كذا؟ قال: لا. قال: فعمن أخذتم ذلك؟ ألستم عنا أخذتموه وأخذناه عن النبي ﷺ؟ وقال: في القرآن:﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾(الحج: ٢٩). أوجدتم في القرآن: « لا جلب ولا جنب ولا شغار في الإسلام»؟ أما سمعتم الله قال في كتابه:﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ قال عمران:« فقد أخذنا عن رسول الله أشياء ليس لكم بها علم »[1]

وعن أيوب السختياني أن رجلاً قال لمطرف بن عبد الله بن الشخير: لا تحدثونا إلا بالقرآن. فقال له مطرف:« والله ما نريد بالقرآن بدلاً ؛ ولكنا نريد من هو أعلم بالقرآن منا »[2]

قلت: لك أن تقول ذلك.. ولكنه ورد في المقابل أن كبار أصحاب محمد كانوا يكرهون رواية الحديث، بل كان عمر يهدد رواة السنة، بل إنه نفذ وعيده، فحبس ثلاثة من الصحابة بسبب إكثارهم من رواية السنة.

قال: لم يكن الصحابة يكرهون رواية الحديث، وإنما كانوا يخشون روايته ويهابون من ذلك، لعظم المسؤولية، ولما ورد من الوعيد على من يكذب على محمد.

أما دعوى حبس عمر ثلاثة من الصحابة، وهم عبد الله بن مسعود، وأبو ذر، وأبو الدرداء، بسبب روايتهم للحديث، فهي رواية غير صحيحة جرت على الألسنة من غير تحقيق في صحتها.

وقد تولى تمحيص هذه الدعوى ابن حزم، وبين انقطاعها وعدم صحتها، ثم قال معقبا:« إن الخبر في نفسه ظاهر الكذب والتوليد، لأنه لا يخلو: إما أن يكون عمر اتهم الصحابة، وفي هذا ما فيه، أو يكون نهى عن نفس الحديث وتبليغ السنة وألزمهم كتمانها وعدم تبليغها، وهذا خروج عن الإسلام، وقد أعاذ الله أمير المؤمنين من كل ذلك، وهذا قول لا يقول به مسلم، ولئن كان حبسهم وهم غير متهمين فلقد ظلمهم، فليختر المحتج لمذهبه الفاسد بمثل هذه الروايات أي الطريقين الخبيثين شاء »[3]

حفظ التابعين:

قلت: فلنفرض أن السنة حفظت في عهد الصحابة، وقد كان لهم من الورع ما جعلهم يحفظون سنة نبيهم، فهل توفر مثل هذا الورع لمن بعدهم؟

قال: أجل.. لقد قام الصحابة الذين تربوا على يد رسول الله ﷺ بنقل ذلك لمن بعدهم.. بل قد ربى الصحابة أجيالا من أمة محمد لا يقلون ورعا ولا دينا ولا حرصا من الصحابة أنفسهم.

وهكذا من جاء بعدهم من تابعيهم ومَن بعدهم إلى أن اكتمل تدوين علم الحديث في الكتب المصنفة التي تناقلتها الآلاف المؤلفة من المسلمين جيلاً بعد جيل عن طريق الحفظ والكتابة معاً، بحيث يستحيل معه التشكيك فيها وفي نسبتها إلى مؤلفيها [4].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١ / ١٠٩) وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢ / ١١٩٢) مختصراً.

(٢) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢ / ١١٩٣)

(٣) ابن حزم. الإحكام ٢: ١٩٣.

(٤) انظر: بينات الرسول ﷺ ومعجزاته، عبد المجيد الزنداني.

قلت: لقد ابتدأ الكذب في الحديث في الزمن الأول، فكيف ميز المحدثون بين الصحيح والمكذوب؟

قال: لما ظهر الكذب على الرسول، وخشي الحريصون على الدين من أن يصيبه ما أصاب سائر الأديان من تحريف وضعوا ضوابط شديدة تقي الحديث من هؤلاء العابثين، وهي من الشدة بحيث لا تكاد تختلف عن الضوابط التي يضعها الشرطة في تحقيقاتهم ليحققوا الأمن.

لقد أسس هؤلاء العلماء دواوين ضخمة تشمل ما يسمى بعلم الرجال والتاريخ والجرح والتعديل، والذي ضم آلاف الرواة مبيناً حال كل راوٍ من حيث أنه معروف أو مجهول، ومن حيث مدى حفظه وضبطه وإتقانه وشيوخه وتلاميذه وسنة ولادته وسنة موته، وهل بقي حفظه كما هو أم تغير في آخر عمره لِكِبَر سنِّه، أو لحادثٍ أصابه، وما أشبه ذلك من مقاييس الجرح والتعديل، بل وصل الأمر إلى جمع روايات الثقات العدول ومقارنتها لمعرفة إن كان أحدهم قد وهم في لفظة أو جملة.

وقد وضع علماء الحديث خمسة شروط لقبول الأحاديث النبوية: ثلاثة منها في السند، واثنان في المتن [1]:

١ ــ فلابد في السند من راو واع يضبط ما يسمع، ويحكيه بعدئذ طبق الأصل..

٢ ــ ومع هذا الوعي الذكي لابد من خلق متين وضمير يتقي الله ويرفض أي تحريف.

٣ ــ وهاتان الصفتان يجب أن يطردا في سلسلة الرواة، فإذا اختلتا في راو أو اضطربت إحداهما فإن الحديث يسقط عن درجة الصحة.

وهم لا يكتفون بهذين الشرطين، بل ينظرون بعد السند المقبول الى المتن الذي جاء به، أي الى نص الحديث نفسه..

٤ ــ فيجب ألا يكون شاذا.

٥ ــ وألا تكون به علة قادحة.

والشذوذ أن يخالف الراوي الثقة من هو أوثق به.. والعلة القادحة عيب يبصره المحققون في الحديث فيردونه به..

وهذه الشروط ضمان كاف لدقة النقل وقبول الآثار.. ولا أعرف في تاريخ الثقافة الإنسانية نظيرا لهذا التأصيل والتوثيق.

وقد توفر للسنة المحمدية علماء أولو غيرة وتقوى بلغوا بها المدى، وكانت غربلتهم للأسانيد مثار الثناء والإعجاب، ثم انضم اليهم الفقهاء في ملاحظة المتون، واستبعاد الشاذ والمعلول.

ذلك أن الحكم بسلامة المتن يتطلب علما بالقرآن، وإحاطة بدلالاته القريبة والبعيدة، وعلما آخر بشتى المرويات المنقولة لإمكان الموازنة والترجيح بين بعضها والبعض الآخر [2].

وقد كان عمل الفقهاء متمما لعمل المحدثين، وحارسا للسنة من أي خلل قد يتسلل اليها عن ذهول أو

---

(١) انظر: السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث، محمد الغزالي.

(٢) انظر: السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث.

تساهل.

بالإضافة إلى هذا، فقد وضع العلماء لمعرفة الحديث الموضوع الكثير من الضوابط التي تعين على إدراكه ليُعرف فيحذرَ..

منها اشتمال الحديث على مجازفات لا تتناسب مع ما ورد في سائر الأحاديث من أنواع الجزاء، وذلك مثل ما ورد في الحديث المكذوب:« من صلى الضحى كذا وكذا ركعة أعطي ثواب سبعين نبياً »، قال ابن القيم معلقا عليه:« وكأن هذا الكذاب الخبيث لم يعلم أن غير النبي لو صلى عمر نوح ﷺ لم يعط ثواب نبي واحد »[1]

ومنها سماجة الحديث وكونه مما يسخر منه كحديث:« لو كان الأرز رجلاً لكان حليماً، ما أكله جائع إلا أشبعه »

ومنها مناقضة الحديث لما جاءت به السنة الصريحة المتواترة مناقضة بينة، ولهذا حكموا على كل حديث يشتمل على فساد أو ظلم أو عبث أو مدح باطل أو ذم حق، بكونه مكذوبا موضوعا.

ومنها أن يكون الحديث باطلاً في نفسه كحديث:« المجرة التي في السماء من عرق الأفعى التي تحت العرش »[2]

ومنها أن يكون في الحديث تاريخ كذا وكذا مثل قوله:« إذا كان سنة كذا وكذا وقع كيت وكيت، وإذا كان شهر كذا وكذا وقع كيت وكيت »

ومنها مخالفة الحديث صريح القرآن كحديث مقدار الدنيا وأنها سبعة آلاف سنة، قال ابن قيم الجوزية:« وهذا من أبين الكذب، لأنه لو كان صحيحاً لكان كل أحد عالماً أنه قد بقي للقيامة من وقتنا هذا مئتان وإحدى وخمسون سنة، قال تعالى:﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (الأعراف:١٨٧)»[3]

ومنها أن تكون ألفاظ الحديث أو معانيه ركيكة يمجها السمع ويدفعها الطبع ويسمج معناها للفطن، كحديث:« إن لله ملكاً من حجارة يقال له: عمارة يترل على حمار من حجارة كل يوم فيسعر الأسعار ثم يعرج »[4]

ومنها ما يقترن بالحديث من القرائن التي يُعلم بها أنه باطل مثل حديث وضع الجزية عن أهل خيبر، قال ابن القيم:« وهذا كذب من عدة وجوه: أحدها أن فيه شهادة سعد بن معاذ، وسعد قد توفي قبل ذلك في غزوة

---

(١) المنار المنيف في الصحيح والضعيف ٤٦.

(٢) المنار المنيف في الصحيح والضعيف ٥٦.

(٣) المنار المنيف ٧٨..

(٤) المنار المنيف: ٧٨.

الخندق، ثانيها: أن فيه (وكتب معاوية بن أبي سفيان) هكذا، ومعاوية إنما أسلم زمن الفتح، وكان من الطلقاء»[1]

و لم يكتف المحدثون بهذا، بل أفردوا الموضوعات بكتب تحذر منها.. ككتاب (الموضوعات) لابن الجوزي، والذي اشتمل على نحو خمسين كتاباً على ترتيب الكتب المصنفة في الفقه.

كما أن كتب العلل تذكر كثيراً من الحديث الموضوع، فهي السباقة لتنبيه الناس إلى الأحاديث الموضوعة.

و لم يقتصروا على ذلك، بل ألّفوا كتباً لبيان الضعفاء والمتروكين والوضاعين وأحاديثهم كالضعفاء للعقيلي والكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي وكتاباهما جامعان لما سبقهما من الكتب المؤلفة في الضعفاء كالضعفاء لعلي بن المديني والضعفاء للبخاري والشجرة في أحوال الرجال للجوزجاني والضعفاء والمتروكين للنسائي.

شبهات وردود:

قلت: لقد تعرضت سنة محمد لكثير من شبهات المستشرقين [2] من إخوانك كما تعرض القرآن.. ألا تراها

---

(١) المنار المنيف: ٩٤.

(٢) للأستاذ أكرم ضياء العمري (وهو أستاذ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة كلية الدعوة) بحث حول (موقف الاستشراق من السنة والسيرة النبوية) ذكر فيه تأريخا ملخصا لجملة من آراء المستشرقين في السنة النبوية نذكره هنا ــ ببعض التصرف ــ لأهميته، ولارتباط ما نورده من الرد عن الشبهات به:

قال: لم يفرد المستشرقون القدامى السنة بدراسات مستقلة، بل ركزوا على العقيدة والقرآن والسيرة والتاريخ.. ففي نهاية القرن السابع عشر كتب هربلو وهو فرنسي (١٦٣٥ - ١٦٩٥ م) صاحب المكتبة الشرقية ــ وهي دائرة معارف عن الشرق نُشرت ١٧٣٨ م - بحثاً في (حديث، قصة، خبر مسموع مقول، أحاديث الرسول، حديث عن أشياء قالها الرسول الزائف وقد نقل من فم إلى فم ومن شخص إلى آخر).

وخلاصة رأيه أن جملة الأحاديث التي في الكتب الستة والموطأ والدارمي والدارقطني والبيهقي والسيوطى مأخوذة إلى حد كبير من التلمود.

ويلاحظ أنه يفرق بين السنة التي التزم المسلمون بتطبيق أحكامها وبين الحديث الذي هو مجرد خبر تاريخي غير موثوق.

وهو يزعم بأن المحمدية مستقاة من التلمود، واليهود الذين دخلوا في الإسلام، مما سيتطور فيما بعد إلى الاستقاء من عدة ديانات وحضارات كانت على صلة بجزيرة العرب.

وفي القرن الثامن عشر قسم المستشرقون حقول الدراسات الشرقية بصورة موضوعية، وفي نهاية القرن برز الأمير كايتاني (١٨٦٩ - ١٩٢٦ م) وميور (ت ١٩٠٥ م) وشبرنجر Sprenger(ت ١٨٩٣ م). وكانوا مهتمين بتاريخ السنة واعتقدوا الشك في صحة الأحاديث وسعوا للكشف عما أسموه (المادة الأصلية للحديث)

وقد أفاد من الثلاثة أحد المتضلعين بأصول اللغات السامية والتاريخ الإسلامي هو إجناس جولد تسيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١ م) الذي درس بالأزهر، وهو مجري الجنسية يهودي الديانة، وقد اعتبره المستشرقون ــ ومن تأثر بهم ــ الرائد الأول في دراسة الحديث ونقده بالاستعانة بمنهج النقد التاريخي، حيث توصل إلى فكرة تطور الأسانيد والمتون في الفكر الإسلامي.

وهو يرى أن وضع الحديث بدأ في جيل الصحابه المبكر، وإن كان يثبت وجود مادة أصلية، فهو يعترف بوجود أحاديث مكتوبة في الصحف في ايدي الصحابة، لكنه رغم ذلك يرى أن التدوين للسنة لم يبدأ إلا في القرن الثاني.

ويرى أن معظم الأحاديث وضعتها الفرق السياسية الكلامية والمذهبية في القرنين الثاني والثالث، لذلك هي تعكس تطور المسلمين السياسي والفكري خلال القرنين ولا تمت غالباً إلى القرن الأول بصلة.

وقد عزا أصول الإسلام إلى اليهودية والمسيحية، وأكد على تأثير الهلينية في تطور الإسلام، وتأثير القانون الروماني في نمو التشريع الإسلامي.

وقد صارت دراساته دستوراً للمستشرقين من بعده، وقليل منهم انتقد بعض آرائه أو عدَّل فيها مثل فيوك Fueck (ت ١٩٣٩ م) وهوروفتس Horovitz (ت ١٩٣١ م)، أما الأكثرية الساحقة فاكتفوا بتعميق آرائه بإضافة براهين جديدة أو تعميمها على حقول جديدة مثل كيوم ونيكلسون وهاملتون كب وواط وفنسنك (ت ١٩٣٩ م).

وقد ركز فنسنك على أحاديث العقيدة في كتابه العقيدة الإسلامية في حين ركز جوزيف شاخت (ولد ١٩٠٢ م) — وهو يهودي الديانة بريطاني الجنسية — على أحاديث الأحكام في كتابه أصول الشريعة المحمدية وكتابه الآخر مقدمة في الفقه الإسلامي.

وقد أكد شاخت على اختلاق الأحاديث، وأثنى كيب وسافوري على كتابه، واعتبره كيب أساساً لكافة الدراسات في الحضارة الإسلامية والتشريع الإسلامي في الغرب – على الأقل – في حين عده سافوري من أكبر علماء الشريعة الإسلامية في العالم.

وقد درس شاخت في مؤلفه (أصول الشريعة المحمدية) كتابي (الموطأ) لمالك و(الأم) للشافعي ثم عمم نتائج دراسته على كتب الحديث والفقه الأخرى، فقال بنظرية (القذف الخلفي) لتفسير تطور الأسانيد، وتتلخص آراؤه في زعمه اختلاق الجزء الأكبر من الأسانيد، واعتقاده أن أقدم الأحاديث لا يرقى إلى ما قبل سنة ١٥٠هـ، وأن الأحاديث اختلقها الفقهاء وأصحاب الفرق، وأن الشافعي هو الذي استحدث مبدأ حجية السنة، وكان العمل قبله على السنة المذهبية، وقد كان أثره كبيراً على جيله من المستشرقين.

وقد طعن شاخت في سند مالك عن نافع عن ابن عمر بأن نافعاً مات ومالك صغير، وهذا خطأ، فمالك كان صاحب حلقة في مسجد المدينة في حياة نافع.

وقد رد روبسون على شاخت في هذا السند في مقاله (الإسناد في الحديث النبوي)، وفي هذه المقالة عدل عن آرائه التي تابع فيها شاخت عندما نشر بحثه، حيث كان يشك في جملة الأحاديث ويرى أن ما يمكن عزوه إلى الرسول ﷺ هو القرآن وحده.

والملاحظ أن كيوم وواط وروبسون كلهم من رجال الكنيسة.

وقد ظهر توجه نحو دراسة موارد الحديث ونقد بعض وثائقه عند روبسون (ولد ١٨٩٠ م) الأستاذ في مانشستر منذ سنة ١٩٤٩ م، وقد أثبت أن ثمة مادة أصلية من الأحاديث خلافاً لما ذهب إليه شاخت ومن قبله جولد تسيهر، كما أنه لم يوافق كايتاني وشبرنجر (١٨١٣ – ١٨٩٣ م) في القول بأن أسانيد عروة بن الزبير (ت ٩٣ هـ) مختلقة ألصقها به المصنفون المتأخرون.

وقد أشار شبرنجر (ت ١٨٩٣ م) إلى تعاسة نظام الإسناد وأن اعتبار الحديث شيئاً كاملاً سنداً ومتناً قد سبَّب ضرراً كثيراً وفوضى عظيمة، وأن أسانيد عروة مختلقة ألصقها به المصنفون المتأخرون، وكذلك مقاله (أصول تدوين الوثائق عند المسلمين)، لكنه أثبت تدوين الحديث في عهد النبي ﷺ بالاعتماد على كتاب (تقييد العلم) للخطيب. وهذا ما خالفه فيه جولد تسيهر فيما بعد.

قد أثرت في مصداقيتها؟

ابتسم، وقال: وهل ترى الرياح العاتية أثرت على هذه الشجرة؟

قلت: لا.. وإلا لما بقي لها وجود.

قال: فكذلك أولئك المتلاعبون من أصحابي.. كان المساكين لا يرضيهم إلا أن يجدوا من الشبه ما يحاولون به أن يحجبوا ضوء الشمس، ولم يكن لهم من العلم الكافي ما يخول لهم أن يتحدثوا فيما تحدثوا فيه، فلذلك كان كلامهم لا يزيدهم إلا وصما بالجهالة.

أما ميور معاصر شبرنجر فينتقد طريقة اعتماد الأسانيد في تصحيح الحديث لاحتمال الدس في سلسلة الرواة، ورغم أنه مثل شبرنجر أقر بأن ثمة مادة أصلية في الحديث لكنه اعتبر نصف أحاديث صحيح البخاري ليست أصلية ولا يوثق بها.

وأما كايتاني (ت ١٩٢٦ م) فقد ذكر في حولياته أن الأسانيد أضيفت إلى المتون فيما بعد بتأثير خارجي لأن العرب لا يعرفون الإسناد، وأنها استعملت مابين عروة وابن اسحق، وأن عروة لم يستعمل الإسناد مطلقاً، وابن إسحق استعملها بصورة ليست كاملة.

وقد أثبت هوروفتس (١٨٧٤ – ١٩٣١ م) معرفة عروة للإسناد، وأن الإسناد دخل في الحديث منذ الثلث الأخير من القرن الأول. وألمح إلى الإسناد الجمعي عند الزهري حيث يفيد وقوفه على عدة أسانيد للمتن الواحد.

ويرى هوروفتس أن العرب أخذوا فكرة الإسناد عن المدارس التلسودية عند اليهود. ويرى ــ ويوافقه كيوم ــ تشابه المسلمين واليهود في نسبة شرائعهما إلى نبييهما.

ورد فيوك Fueck(ت ١٩٣٩ م) على جولد تسيهر فبرأ المحدثين والفقهاء من تهمة وضع الأحاديث، وكشف عن منهج جولد تسيهر في التعامل مع الإسلام وأنه يستخدم المذهب المادي لنقد التاريخ ومنهج الشك فانتهى إلى أن كل أحاديث الأحكام تعتبر زائفة حتى يثبت العكس.

أما مرجليوث المعاصر لجولد تسيهر (١٨٥٨ – ١٩٤٠ م) فقد تابع جولد تسيهر بل ذهب إلى أن الرسول ﷺ لم يترك أوامر ولا أحكاماً سوى القرآن.

ويرى كيوم أنه لا يمكن إثبات صحة نسبة الأحاديث في الكتب الستة إلى الصحابة ولكن لعل بعضها تسلم نسبته.

ويفسر كيوم قول الزهري:« إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث » تفسيراً خاطئاً ليدلل على وضعه للأحاديث، وهو فهم جولد تسيهر من قبله.

ويتشبث نيكلسون بقول أبي عاصم النبيل:« ما رأيت الصالح يكذب في شيء أكثر من الحديث »، فذهب إلى أن شواهده في (دراسات محمدية) لجولد تسيهر وأن أتقى العلماء كان يستعمل الغش في الحديث لتأييد أغراض سياسية ومذهبية.

وقد بين الإمام مسلم أن الكذب يجري على لسانهم ولا يتعمدونه. وقال يحيى بن سعيد القطان:« ما رأيت الكذب في أحد أكثر منه فيمن ينسب إلى الخير والزهد »

ويرى كولسون وكيوم أن المحدثين يبحثون في الأسانيد شكلياً بدون الاهتمام بنقد المتون، يقول كولسون:« إذا كانت سلسلة الإسناد متصلة، وكان كل فرد من أفراده عدلاً – من وجهة نظرهم – فحينئذ قبلوا الحديث وصار شرعاً واجباً، ولا يمكن بسبب الإيمان السؤال عن متن الحديث لأنه وحي إلهي فلا يقبل أي نقد تاريخي »

ويقول كيوم:« متى اقتنع البخاري بتحديد بحثه في سلسلة الرواة في السند مفضلاً ذلك على نقد المتن، صار كل حديث مقبول الشكل حتمياً بحكم الطبع »

قلت: لقد لقنت في مراحل تعليمي الكثير من الشبه في هذا الجانب، فهل تأذن لي بطرحها؟

قال: لقد لقنت مثلك تلك الشبه.. فاطرح ما تشاء منها[1].

قلت: من الشبهات التي ذكرها الكثير من المستشرقين.. ومن قديم.. هي أن الحديث بقي مائتي سنة غير مكتوب، ثم بعد هذه المدة الطويلة قرر المحدثون جمع الحديث.

قال: لقد قرأت هذه الشبهة عن عدد من المستشرقين منهم جولد تسيهر وشبرنجر، ودوزي، فقد عقد جولد تسيهر فصلاً خاصاً حول تدوين الحديث في كتابه (دراسات إسلامية)، وشكك في صحة وجود صحف كثيرة في عهد محمد، ورأى شبرنجر في كتابه (الحديث عند العرب) أن الشروع في التدوين وقع في القرن الهجري الثاني، وأن السنة انتقلت بطريق المشافهة فقط، أما دوزي فهو ينكر نسبة هذه (التركة المجهولة)ـــ بزعمه ـــ من الأحاديث إلى محمد.

وقد أراد المستشرقون من وراء هذه المزاعم إضعاف الثقة باستظهار السنة وحفظها في الصدور، والتشكيك في صحة الحديث واتهامه بالاختلاق والوضع على ألسنة المدونين، وأنهم لم يجمعوا من الأحاديث إلا ما يوافق أهواءهم، وصاروا يأخذون عمن سمعوا الأحاديث، فصار هؤلاء يقول الواحد منهم: سمعت فلاناً يقول سمعت فلاناً عن النبي ﷺ، وبما أن الفتنة أدت إلى ظهور الانقسامات والفرق السياسية، فقد قامت بعض الفرق بوضع أحاديث مزورة حتى تثبت أنها على الحق، وقد قام علماء الحديث بدراسة أقسام الحديث ونوعوه إلى أقسام كثيرة جداً، وعلى هذا يصعب الحكم بأن هذا الحديث صحيح، أو هذا الحديث موضوع.

قلت: لقد عرفت من تاريخ إيراد هذه الشبهة ما عرفت.. ولم أرد منك أن تحدثني عنه.. وإنما أردت عن كيفية صمود الحديث أمامها.

قال: هذه شبهة متهافتة.. لو طبقناها على جميع التراث الإنساني لما بقي هناك أي تراث.. فكثير من التراث الإنساني لم ينقل لنا إلا بهذا الطريق.

لقد كان العمدة فيه هو الوثوق في الشهود، ودقة شهادتهم.

أجبني.. لو أن شيخا كبيرا بلغ من العمر عتيا جاء يحدثك عن شبابه.. وكنت لا تشك في صدقه.. أتراك تطالبه بذكريات مسجلة حتى تصدقه، أم تكتفي منه بما حكى لك؟

قلت: بل أكتفي بما حكى لي.. فلا يمكن لشخص من الناس أن يسجل كل ما يحصل له.

قال: فهكذا حصل الأمر.. لقد كان أصحاب محمد في معرض تعليمهم للتابعين يذكرون لهم ما حصل في عهد نبيهم، وما قال لهم في المواقف المختلفة، وكان التابعون الكثيرون الذين كان لهم شوق عظيم للتراث الذي تركه نبيهم يحرصون على تلك الأحاديث، فيحفظونها أو يسجلونها في قراطيسهم الخاصة لينقلوها لمن بعدهم.. وهكذا حتى جاء زمن التصنيف الذي لم يبتعد كثيرا عن زمن النبوة.

---

(١) انظر هذه الشبه والرد عليها في (شبهات المستشرقين حول السنة النبوية) لأحمد محمد بوقرين، وشبهات القرآنيين لعثمان بن معلم محمود بن شيخ علي.

سكت قليلا، ثم قال: إن المنطق يقتضي تأخر كتابة هذا النوع من النصوص..
سأضرب لك مثالا يقرب لك هذا [١]..

لنفترض أنّ تابعيّاً سأل صحابيّاً عن حكم أكل لحم الضّب، ولنفترض أنّ الإجابة كانت: كنتُ يوماً آكل لحم الضب والرسول، ينظر.. ولنفترض أنّه حصل بعد خمسين سنة أن سُئل هذا التابعي، السؤال الآتي: بما أنّكم عاصرتم الصحابة، فهل تعلمون شيئاً في حكم أكل لحم الضب؟.. سيكون جواب التابعي حينها: نعم سألتُ يوماً الصحابي الفلاني عن ذلك فقال: إنّه كان يأكل لحم الضب والرسولُ ينظر.

فليس كل ما كان يعرفه الصحابي يكتبه أو يفطن إلى ضرورة ذكره، حتى يأتي أحد التابعين فيسأل الصحابي فيجيب بما يعرف. وقد يكتفى هذا التابعي بما سمع ولا يخطر بباله أن يكتب، حتى يأتي أحد أتباع التابعين، بعد خمسين سنة مثلاً، فيسأل عن ذلك، ويدون الجواب، إن كان من أهل العلم والاعتناء بالحديث.

ولهذا كان من الطبيعي أن يُكتب الحديث في أكثر من عصر، لعدم إمكانية أن يَكتُب الصحابة كل ما لديهم من علم.

فحتى تتم كتابة الحديث بالكامل لا بد من انقضاء عصر محمد، ثم عصر الصحابة، ثم عصر التابعين؛ لأنّ الحديث يتعلّق بكل ما ورد عن محمد من قول أو فعل أو تقرير أو صِفه، وهذا يُحتّم أن يقوم التابعون باستفراغ كل ما عند الصحابة من حديث، بالتتلمذ عليهم والإكثار من سؤالهم، ويُحتّم أيضاً أن يستفرغ أتباع التابعين ما عند التابعين من حديث، بالتتلمذ عليهم والإكثار من سؤالهم.

وهكذا إلى أن دخل عصر التصنيف ابتداء من تابعي التابعين..

بالإضافة إلى ذلك.. فإن تصنيف الحديث على الأبواب في المصنفات والجوامع ــ والذي يشير أولئك المستشرقين إلى تأخره ــ ليس إلا مرحلة متطورة متقدمة جداً في كتابة الحديث، وقد تم ذلك قبل سنة ٢٠٠ للهجرة بكثير، فتم في أوائل القرن الثاني، بين سنة ١٢٠ ــ ١٣٠ هــ، بدليل الواقع الذي بين لنا ذلك، فهناك جملة من هذه الكتب مات مصنفوها في منتصف المائة الثانية، مثل جامع معمر بن راشد، وجامع سفيان الثوري، وهشام بن حسان، وابن جريج، وغيرها كثير.

بالإضافة إلى هذا.. فقد ذكرنا أن علماء الحديث وضعوا شروطاً لقبول الحديث، تكفل نقله عبر الأجيال بأمانة وضبط، حتى يُؤدَّى كما سُمِع من نبيهم، فهناك شروط اشترطوها في الراوي تضمن فيه غاية الصدق والعدالة والأمانة، مع الإدراك التام لتصرفاته وتحمل المسئولية، كما أنها تضمن فيه قوة الحفظ والضبط بصدره أو بكتابه أو بهما معاً، مما يمكنه من استحضار الحديث وأدائه كما سمعه، ويتضح ذلك من الشروط التي اشترطها المحدثون للصحيح والحسن والتي تكفل ثقة الرواة، ثم سلامة تناقل الحديث بين حلقات الإسناد، وسلامته من القوادح الظاهرة والخفية، ودقة تطبيق المحدثين لهذه الشروط والقواعد في الحكم على الحديث بالضعف لمجرد فقد دليل على صحته، من غير أن ينتظروا قيام دليل مضاد له.

---

(١) انظر: دراسات في الفكر الإسلامي، بسام نهاد جرار.

و لم يكتف علماء الحديث بهذا، بل وضعوا شروطاً في الرواية المكتوبة لم يتنبه لها أولئك المتحاملون على ما لا يعلمون، فقد اشترط المحدثون في الرواية المكتوبة شروط الحديث الصحيح، ولذلك نجد على مخطوطات الحديث تسلسل سند الكتاب من راوٍ إلى آخر حتى يبلغ مؤلفه، ونجد عليها إثبات السماعات، وخط المؤلف أو الشيخ المسمَع الذي يروي النسخة عن نسخة المؤلف أو عن فرعها، فكان منهج المحدثين بذلك أقوى وأحكم وأعظم حيطة من أي منهج في تمحيص الروايات والمستندات المكتوبة.

بالإضافة إلى هذا كله، فإن البحث عن الإسناد لم ينتظر مائتي سنة كما زعموا، بل فتش الصحابة عن الإسناد منذ العهد الأول حين وقعت الفتنة سنة ٣٥ هجرية لصيانة الحديث من الدس، وضرب المسلمون للعالم المثل الفريد في التفتيش عن الأسانيد، حيث رحلوا إلى شتى الآفاق بحثاً عنها واختباراً لرواة الحديث، حتى اعتبرت الرحلة شرطاً أساسياً لتكوين المحدث.

بالإضافة إلى هذا كله، فقد وردت النصوص الكثيرة التي تثبت اهتمام أصحاب محمد بتدوين أحاديثه في حياته وبعد مماته بإذن منه.

فعن أبي هريرة قال:« ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً مني، إلا ما كان من حديث عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب »[1]، وعنه قال: « لما فتح الله على رسوله ﷺ مكة.. فقام أبو شاه ـــ رجل من أهل اليمن ـــ فقال: اكتبوا لي يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ:« اكتبوا لأبي شاه »[2]

وعن أبي جحيفة قال: قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة، قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر»[3]

وعن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص، وسئل أي المدينتين تفتح أولاً: القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال: فأخرج منه كتاباً، قال: « فقال عبد الله: بينا نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل رسول الله ﷺ أي المدينتين تفتح أولاً:قسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ:« مدينة هرقل تفتح أولاً يعني قسطنطينية »[4]

ففي هذه الأحاديث وغيرها كثير دليل صريح على أن الصحابة كانوا يكتبون الأحاديث النبوية، وقد كانت لبعضهم صحائف مثل صحيفة عبد الله بن عمرو وصحيفة جابر بن عبد الله، وقد أحصى الدكتور محمد مصطفى الأعظمي الصحابة الذين كانوا يكتبون أو كانت لهم صحف، فبلغ عددهم اثنين وخمسين صحابيا[5].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه أحمد والحاكم.

(٥) دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ٩٢ – ١٤٢.

وبعد الصحابة نجد أن الكتابة انتشرت أكثر من جيل الصحابة، فقد أوصل محمد مصطفى الأعظمي التابعين الذين كانت لهم صحائف ورسائل إلى أكثر من اثنين وخمسين ومائة تابعي[1].

ومما شجع على ذلك أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بكتابة الحديث، فقد روي أنه كتب إلى الآفاق:« انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه »[2]

وأصدر أمره إلى أبي بكر بن حزم أن « انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء »[3]

وأما جيل تابعي التابعين، فقد أخذت كتابة الأحاديث النبوية منحى آخر إذ أضيف إليها آثار الصحابة والتابعين، وصُنفت على حسب الكتب والأبواب الفقهية.

وما من حاضرة من حواضر العالم الإسلامي إلا وقام علماؤها بتدوين هذه الكتب وتصنيفها، وكانت هذه الكتب مادة أساسية للكتب الستة، قال ابن حجر:« ثم حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار وتبويب الأخبار لما انتشر العلماء في الأمصار وكثر الابتداع، فأول من جمع ذلك الربيع بن صبيح، وسعيد بن أبي عروبة وغيرهما، وكانوا يصنفون كل باب على حدة، إلى أن قام كبار أهل الطبقة الثالثة فدونوا الأحكام، فصنف الإمام مالك الموطأ وتوخى فيه القوي من حديث أهل الحجاز ومزجه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومن بعدهم، وصنف أبو محمد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج بمكة، وأبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي بالشام، وأبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري بالكوفة، وأبو سلمة حماد بن سلمة بن دينار بالبصرة، ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم في النسج على منوالهم إلى أن رأى بعض الأئمة منهم أن يفرد حديث النبي ﷺ خاصة، وذلك على رأس المائتين، فصنف عبيد الله بن موسى العبسي الكوفي مسنداً، وصنف مسدد بن مسرهد البصري مسنداً، وصنف أسد بن موسى الأموي مسنداً، وصنف نعيم بن حماد الخزاعي نزيل مصر مسنداً، ثم اقتفى الأئمة بعد ذلك أثرهم، فقلَّ إمام من الحفاظ إلا وصنف حديثه على المسانيد، كالإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وعثمان بن أبي شيبة وغيرهم من النبلاء، ومنهم من صنف على الأبواب وعلى المسانيد معاً، كأبي بكر بن أبي شيبة »[4]

قلت: ولكن لماذا لم يهتم المسلمون بكتابة الحديث بنفس الاهتمام الذي اهتموا فيه بكتابة القرآن؟

قال: لقد كان ذلك من أقوى أسباب صمود هذا الدين بمصادره وثمراته.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألا ترى أن كتبنا اختلط فيها الوحي بالتاريخ وبالحكايات وبالأوصاف المملة؟

---

(١) دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ١٤٣ - ٢٢٠.

(٢) رواه أبو نعيم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) هدي الساري:٦.

قلت: أجل.. لك أن تقول ذلك.

قال: فسبب ذلك هو هذا الاختلاط.. حيث يترك للراوي حرية الحديث كما يشاء، فيخلط الوحي المقدس بما شاء له هواه أو شاءت له ثرثرته من الكلام.

لكن الإسلام حمى كتابه المقدس من ذلك.. فتميز القرآن عن السنة، وكان هذا من مظاهر ذلك التميز.

بالإضافة إلى هذا.. فأنت تعلم البيئة التي كان فيها محمد.. لقد كان العرب أمة أمية، وكان يندر فيهم الكتبة، وكانت أدوات الكتابة عزيزة ونادرة، حتى إن القرآن كان يكتب على جريد النخل والعظام والجلود، وقد عاش محمد بين أصحابه بعد البعثة ثلاثًا وعشرين سنة، ولهذا كان التكليف بكتابة الحديث كله أمراً في غاية الصعوبة والمشقة، لأنه يشمل جميع أقواله وأفعاله وأحواله وتقريراته وما يحتاجه هذا العمل من تفرغ عدد كبير من الصحابة له، مع الأخذ في الاعتبار أن الصحابة كانوا محتاجين إلى السعي في مصالحهم ومعايشهم، وأنهم لم يكونوا جميعا يحسنون الكتابة، بل كان الكاتبون منهم أفراداً قلائل، فكان تركيز هؤلاء الكتبة من الصحابة على كتابة القرآن دون غيره حتى يؤدوه لمن بعدهم تامًا مضبوطًا لا يُنْقص منه حرف.

ومن أجل ذلك اقتصر التكليف على كتابة ما يترل من القرآن شيئاً فشيئاً حتى جمع القرآن كله في الصحف.

ثم إنه لم يحصل لحفاظ السنة في عهد الصحابة ما حصل لحفاظ القرآن، فقد استحرَّ القتل بحفاظ القرآن من الصحابة، أما السنة فإن الصحابة الذي رووا الحديث عن محمد كانوا كثر، و لم يحصل أن استحر القتل فيهم قبل تلقي التابعين عنهم.

ومن الأسباب المهمة لذلك أيضاً أن السنة كانت متشعبة الوقائع والأحداث فلا يمكن جمعها كلها بيقين، ولو جمع الصحابة ما أمكنهم فربما كان ذلك سبباً في رد من بعدهم ما فاتهم منها ظناً منهم أن ما جمع هو كل السنة.

ثم إن جمعها في الكتب قبل استحكام أمر القرآن كان عرضة لأن يُقبِل الناس على تلك الكتب، ويدعوا القرآن، فلذلك رأوا أن يكتفوا بنشرها عن طريق الرواية، وبعض الكتابات الخاصة.

أضف إلى ذلك كله أن القرآن يختلف عن السنة من حيث أنه متعبد بتلاوته، معجز في نظمه ولا تجوز روايته بالمعنى، بل لا بد من الحفاظ على لفظه المترل، فلو ترك للحافظة فقط لما أمن أن يزاد فيه حرف أو ينقص منه، أو تبدل كلمة بأخرى، بينما السنة المقصود منها المعنى دون اللفظ، ولذا لم يتعبد الله الخلق بتلاوتها، و لم يتحداهم بنظمها، وتجوز روايتها بالمعنى، وفي روايتها بالمعنى تيسير على الأمة وتخفيف عنها في تحملها وآدائها.

قلت: لدي شبهة أخرى ترتبط بهذا.

قال: ترتبط بالرواية بالمعنى.

قلت: أجل.. فكل الروايات التي نسبت إلى محمد جاءت بالمعنى، و لم تأت بألفاظه.. والمعروف أن تغيير اللفظ موجب لتغيير المعنى ولو يسيرا.

قال: أولا.. لقد حث محمد أتباعه على أن ينقلوا عنه سنته ويُعْنَوْا بها ويبلّغوها كما سمعوها منه فقال:«

نضر الله امرأ سمع منا شيئا فبلّغه كما سمع، فرب مبلغ أوعى من سامع »[1]

وقد حرص أتباع محمد على ذلك حرصا شديدا.. ونحسب أن الكثير مما رووه من أقواله من هذا النوع..

ولكن مع ذلك.. فإن العلماء لم يتركوا رواية الحديث بالمعنى لهوى الرواة، بل وضعوا لرواية الحديث بالمعنى ضوابط تكفل صونه من تغيير المعنى، قال الخطيب البغدادي:« قال جمهور الفقهاء: يجوز للعالم بمواقع الخطاب ومعاني الألفاظ رواية الحديث على المعنى، وليس بين أهل العلم خلاف في أن ذلك لا يجوز للجاهل بمعنى الكلام وموقع الخطاب، والمحتمل منه وغير المحتمل.. فأما الدليل على أنه ليس للجاهل بمواقع الخطاب، وبالمتفق معناه والمختلف من الألفاظ فهو أنه لا يؤمن عليه إبدال اللفظ بخلافه بل هو الغالب من أمره.

وأما الدليل على جواز ذلك للعالم بمعناه فهو اتفاق الأمة على أن للعالم بمعنى خبر النبي ﷺ وللسامع بقوله أن ينقل معنى خبره بغير لفظه وغير اللغة العربية، وأن الواجب على رسله وسفرائه إلى أهل اللغات المختلفة من العجم وغيرهم أن يرووا عنه ما سمعوه وحملوه مما أخبرهم به وتعبدهم بفعله على ألسنة رسله سيما إذا كان السفير يعرف اللغتين.. وإذا ثبت ذلك صح أن القصد برواية خبره وأمره ونهيه إصابة معناه وامتثال موجبه، دون إيراد نفس لفظه وصورته.

وعلى هذا الوجه لزم العجم وغيرهم من سائر الأمم دعوة الرسول إلى دينه والعلم بأحكامه.

ويدل على ذلك أنه إنما ينكر الكذب والتحريف على رسول الله ﷺ وتغيير معنى اللفظ، فإذا سلم راوي الحديث على المعنى من ذلك كان مخبرا بالمعنى المقصود من اللفظ، وصادقا على الرسول ﷺ »[2]

وقد ضرب المعلمي مثالا يبين صحة هذا، ما دام لا يؤثر على المعنى، فقال:« ولو قلت لابنك: اذهب فقل للكاتب: أبي يدعوك، فذهب وقال له: والدي ــ أو الوالد ــ يدعوك، أو يطلب مجيئك إليه، أو أمرني أن أدعوك له، لكان مطيعا صادقاً، ولو اطلعت بعد ذلك على ما قال، فزعمت أنه قد عصى أو كذب وأردت أن تعاقبه لأنكر العقلاء عليك ذلك، وقد قص الله عز وجل في القرآن كثيرا من أقوال خلقه بغير ألفاظهم ؛ لأن من ذلك ما يطول فيبلغ الحد المعجز، ومنه ما يكون عن لسان أعجمي، ومنه ما يأتي في موضع بألفاظ وفي آخر بغيرها، وقد تتعدد الصور كما في قصة موسى، ويطول في موضع ويختصر في آخر، فبالنظر إلى أداء المعنى كرر النبي ﷺ بيان شدة الكذب عليه، وبالنظر إلى أداء اللفظ اقتصر على الترغيب»[3]

بالإضافة إلى هذا، فإن الأحاديث ليست كلها قولية، بل منها ما هو إخبار عن أفعال محمد، وهي كثيرة، ومنها ما أصله قولي، ولكن الصحابي لا يذكر القول، بل يقول: أمرنا النبي ﷺ بكذا، أو نهانا عن كذا، أو قضى بكذا، أو أذن في كذا، وأشباه هذا وهذا كثير أيضا.

بالإضافة إلى هذا، فمن تتبع الأحاديث التي يرويها صحابيان أو أكثر ووقع اختلاف بينهما، فسيرى أن

---

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم وابن حبان وغيرهم.

(٢) الكفاية في علم الرواية ٣٠٠ – ٣٠٤.

(٣) الأنوار الكاشفة ٧٨ – ٧٩.

هذا الاختلاف يقع في بعض الألفاظ، وهو يبين أن الصحابة لم يكونوا إذ حكوا قول محمد يهملون ألفاظه البتة، لكن منهم من يحاول أن يؤديها فيقع له تقديم وتأخير، أو إبدال الكلمة بمرادفها ونحو ذلك.

ومع هذا فقد عرف عن جماعة من الصحابة أنهم كانوا يتحرون ضبط الألفاظ، وكان ابن عمر ممن شدد في ذلك، وقد آتاهم الله من جودة الحفظ ما أتاهم.

فعلى هذا ما كان من أحاديث المشهورين بالتحفظ فهو بلفظ محمد، وما كان من حديث غيرهم فالظاهر ذلك ؛ لأنهم كلهم كانوا يتحرون ما أمكنهم، ويبقى النظر في تصرف من بعدهم[1].

قلت: لدي شبهة أخرى ترتبط برواة الحديث.. فقد كان من حَمَلَةَ السنة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من كانوا جنودا للسلاطين والملوك في العصر الأموي والعباسي، فكانوا ــ لذلك ــ يضعون لهم من الأحاديث ما يوافق رغباتهم ويثبت ملكهم.

قال: أولا.. هذه المقولة تدل على جهل كبير بالسنة، فليس هناك حديث واحد في فضل بني أمية، بل هناك أحاديث كثيرة في ذمهم، وفي ذم منهج الحكم الذي جاءوا به[2].. وهو ما ينطبق على منهج الحكم الذي استمر عليه العباسيون.

بالإضافة إلى هذا فقد كان موقف الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة الإسلام من ملوكهم وأمرائهم معروفة، فالنماذج المشرفة الدالة على ذلك كثيرة، فمنها موقف أبي سعيد الخدري من مروان والي المدينة، وموقف ابن عمر من الحجاج، وموقف الإمام الزهري مع هشام بن عبد الملك الأموي، وغيرهم كثير.

بالإضافة إلى هذا.. فقد كان المحدثون ــ خوفا من الكذب على نبيهم ــ لا يحابون في حكمهم على الرجال أحدا لا أبا ولا ابنا ولا أخا ولا صديقا ولا شيخا.

فهناك أمثلة كثيرة على نزاهتهم في حكمهم على الرجال:

فمنهم المُجَرِّحُونَ لآبائهم، كالإمام علي بن المديني الذي سئل عن أبيه فقال:« سلوا عنه غيري »، فأعادوا المسألة، فأطرق ثم رفع رأسه فقال:« هُوَ الدِّينُ، إِنَّهُ ضَعِيفٌ»

ومنهم المجرحون لأبنائهم، كالإمام أبي داود السجستاني صاحب السنن الذي قال:« ابني عبد الله كذاب »

ومنهم المجرحون لإخوانهم، كزيد بن أبي أنيسة الذي قال:« لا تأخذوا عن أخي يحيى المذكور بالكذب »

ومنهم المجرحون لأصهارهم وأختانهم، كشعبة بن الحجاج الذي قال:« لو حابيت أحدا لحابيت هشام بن حسان كان خَتَني، و لم يكن يحفظ »

ومنهم المجرحون لبعض أقاربهم، كأبي عروبة الحراني الذي قال عن الحسين بن أبي السري العسقلاني:« هو خال أمي، وهو كذاب »

---

(١) الأنوار الكاشفة ٧٨ - ٧٩.

(٢) انظر الرسالة السابقة (معجزات حسية)، فصل (نبوءات)

بل منهم الذين لم يحابوا مشايخهم، فقد روى الإمام ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن مهدي قال: اختلفوا يوما عند شعبة، فقالوا: اجعل بيننا وبينك حكما فقال: قد رضيت بالأحول يعني: يحيى بن سعيد القطان، فما برحنا حتى جاء يحيى فتحاكموا إليه فقضى على شعبة وهو شيخه ومنه تعلم وبه تخرج، فقال له شعبة: ومن يطيق نقدك ــ أو من له مثل نقدك ــ يا أحول؟!

قال ابن أبي حاتم: هذه غاية المترلة ليحيى بن سعيد القطان إذ اختاره شيخه شعبة من بين أهل العلم، ثم بلغ من عدالته بنفسه وصلابته في دينه أن قضى على شعبة شيخه ومعلمه.

وبلغ من نزاهة أئمة الحديث أنهم كانوا لا يقبلون شفاعة إخوانهم للسكوت عمن يرون جرحه، وكيف يرتضون تلك الواسطة وهم الذين طعنوا في أبنائهم وآبائهم وإخوانهم لما رأوا منهم ما يستوجب القدح.

قلت: هناك شبهة أخرى يرددها الكثير من المستشرقين، وهي أن نقد المحدثين اقتصر على نقد الإسناد، و لم يشمل نقد المتون، قال غاستون ويت:« وقد درس رجال الحديث السنة بإتقان إلا أن تلك الدراسة كانت موجهة إلى السند ومعرفة الرجال والتقائهم وسماع بعضهم من بعض »

ثم قال:« لقد نقل لنا الرواة حديث الرسول مشافهة ثم جَمَعَهُ الحُفَّاظ ودوَّنوه إلا أن هؤلاء لم ينقدوا المتن لذلك لسنا متأكدين من أن الحديث قد وصلنا كما هو عن محمد من غير أن يضيف إليه الرواة شيئا عن حسن نية في أثناء روايتهم الحديث »

قال: لقد عرفنا في عرضنا السابق اهتمام علماء الحديث بدراسة متن الحديث، بل إنهم استوفوا تلك الدراسة، وبذلوا قصارى جهدهم في العناية بها بحيث لا يوجد مزيد على ما قدموه.

وقد عرفنا أن صحة إسناد الحديث لا تعني بالضرورة صحة الحديث لأن من شروط الصحيح ألا يكون شاذا ولا معللا، والشذوذ والعلة يكونان في السند كما يكونان في المتن، فقد يصح إسناد حديث ما ويكون في متنه علة قادحة تقدح في صحته، وهكذا الشذوذ.

ولذا لم تكن دراستهم قاصرة على الأسانيد، وإنما بحثوا في علل المتون وشذوذها، وجمعت أبحاثهم هذه في علل المتون والأسانيد في مصنفاتهم من كتب العلل وهي كثيرة.

ومن أجل ذلك نشأت علوم لا تكتفي بدراسة الإسناد بل تعني بدراسة الإسناد والمتن جميعا فمن ذلك: الحديث المقلوب، والمضطرب، والمدرج، والمعلل، والمصحف، والموضوع، وزيادة الثقة.

كما أنشئت علوم تتعلق بدراسة المتن خاصة من ذلك غريب الحديث، أسباب وروده، ناسخه ومنسوخة، مشكله، ومحكمه.

يقول الدكتور صبحي الصالح صاحب كتاب علوم الحديث و مصطلحه مؤكدا عدم تفرقة المحدثين بين السند والمتن في حكمهم على الحديث:« على أننا لا نرتكب الحماقة التي لا يزال المستشرقون، وتلامذتهم المخدوعون بعلمهم (الغزير) يرتكبونها كلما عرضوا للحديث النبوي، إذ يفصلون بين السند والمتن مثلما يفصل بين خصمين لا يلتقيان أو ضرتين لا تجتمعان، فمقاييس المحدثين في السند لا تفصل عن مقاييسهم في المتن إلا على سبيل التوضيح والتبويب والتقسيم، وإلا فالغالب على السند الصحيح أن ينتهي بالمتن الصحيح، والغالب

على المتن المعقول المنطقي الذي لا يخالف الحس أن يرد عن طريق صحيح »

صمود الثمار

قلت: عرفت صمود مصادر الإسلام.. فكيف صمدت الثمار التي جاء الإسلام ليحققها؟

نظر إلى الشجرة برهة، ثم قال: ألم تتساءل عن سر نشاط هذه الشجرة وحياتها واستمرارها في العطاء طول تلك السنين التي مرت بها؟

قلت: لا أحتاج إلى التساؤل عن ذلك.. فهو واضح.. فأرضها طيبة تمدها بالماء وما تحتاجه من غذاء الأرض، وهواؤها عليل يمدها بما تحتاجه من غذاء السماء.. وهي مع ذلك كريمة لا تحتفظ بهذه الأقوات لنفسها.. بل تمد بها من قصدها، فتحييه بحياتها، وتشمله ببركاتها.

قال: فكذلك الشجرة التي غرسها محمد.. لقد كان لصمود المصادر التي تغذت بها شجرته أثرها الكبير في حفظ حياة دينه، وحفظ ثمراته.

قلت: ولكنا نرى الإسلام تقزم بعد أن كان عملاقا، وهرم بعد أن كان شابا.

قال: هو هرم مزيف، وهو تقزم تكذب العين في رؤيته.. الإسلام في حقيقته لا يزال يحتفظ بكل مقومات حياته.. ولكن الحروب العظيمة التي ووجه بها جعلتنا نرى في المسلمين ما نراه.. ولو أن هذه الحروب توقفت أياما، وتركت المسلمين لأنفسهم لعادوا إلى قوتهم التي تختزن في مصادرهم.

إن الشجرة التي غرستها المصادر المقدسة لهذا الدين شجرة لا تنتج إلا الثمار الطيبة.. وهي ثمار قد يعرض عنها البعض في وقت من الأوقات، ولكنهم سرعان ما يحنون إليها، ويحدو بهم الشوق للأكل منها.

قلت: هذا كلام عام أريد تفاصيله [1].

قال: ولن تجد عندي إلا تفاصيله.. لقد عشت كثيرا في المجتمعات المسلمة.. ومع كونها تخلفت كثيرا عن دينها، ولكنها مع ذلك لا تزال تحتفظ بكل المقومات التي يمكن أن تعيد لها الحياة من جديد، وتعيد لهذا الدين دوره الرائد في العالم.

العقيدة:

قلت: فلنبدأ بالعقيدة.. والتي هو أصل أصول الدين، وأساس أسسه.

قال: قال: لقد بحثت في الأديان جميعا.. وقرأت تراثها المقدس.. وتغلغلت في أديرتها ومعابدها لأبحث عن صورة مقدسة لله.. فلم أجدها إلا في دين محمد..

إنه الدين الوحيد الذي يعرض تعريفا لله ينسجم مع الفطرة والعقل والكون والحياة..

إن كل شيء يبرهن على كل كلمة يحملها دين محمد عن الله.

والمسلمون في جميع فترات تاريخهم بجميع فرقهم ومذاهبهم يحملون تصورات مقدسة عن الله تسمو كثيرا

(١) سنعرض للتفاصيل الكثيرة المرتبطة بثمار الإسلام في هذه الجوانب في الرسائل التالية (الرسائل الست الأخيرة)، أما هذه الرسالة، فهي مخصصة للمقارنات العامة.

عن كل ما حصل في جميع الأديان من تحريفات.

أنت مثلي تحب التفاصيل.. ولا تقنع بالأسلوب الخطابي.. فلذلك سأذكر لك ما يبرهن لك على أن الشجرة الوحيدة التي صمدت في وجه جميع التحريفات هي الشجرة التي غرسها محمد.

إن أهم ما يميز العقيدة الإسلامية هو تناسبها مع الفطرة السليمة التي يلتقي فيها العقل والروح والنفس من غير أن يحصل بينها أي اضطراب.. لقد عبر القرآن عن هذه الخاصية بقوله:﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠)

هذه العقيدة الفطرية تشرحها سورة قصيرة قل أن يوجد مسلم لا يستظهرها هي سورة الإخلاص.. وهي السورة التي نزلت جواب إلهياً للمشركين عندما سألوا محمدا أن يصف لهم ربه

وهذه الحقيقة هي التي تجذب اهتمام وتركيز دارسي الإسلام من أول لحظة، وتدفع من كتبت له الهداية منهم إلى نفض ما علق بفطرته من ركام والدخول في دين الله بطمأنينة ذلك، أن « أول ما يستشعره القلب والعقل أمام العقيدة الإسلامية هو الاستقامة والبساطة والوضوح..وهذه السمة التي تجتذب الأفراد الذين يدخلون في هذا الدين من الأوربيين والأميركيين المعاصرين فيتحدثون عنها بوصفها أول ما طرق حسهم من هذا الدين وهي ذاتها السمة التي تجتذب البدائيين في إفريقيا وآسيا في القديم والحديث لأنها سمة الفطرة التي يشترك فيها الناس أجمعين متحضرين وبدائيين »[1]

لقد قال بعض قومنا من المسيحيين ممن عشقوا هذه العقيدة الفطرية المنطقية:« بدأت أدرس الأديان بصفة عامة، والإسلام على وجه الخصوص، فأيقنت في غضون دراستي أن دنيا تفكيري وإحساسي أقرب للإسلام منها للمسيحية، وبالتدريج اكتشفت أن الإسلام كمنهج حياة كان ينسجم من كافة الوجوه مع فطرتي البشرية »

ويقول:« عندما درست وجهة النظر الإسلامية حول النبي عيسى عليه السلام ابن الله، كما عرفت فيما بعد من أستاذ بروتستانتي أن عدداً كبيراً من المسيحيين ــ حوالي ٨٠ بالمائة ــ منهم أقرب إلى الإسلام منه إلى المسيحية في هذه الناحية على الأقل من عقيدتهم، أما من الناحية العملية فحتى قبل إسلامي كنت أنفر من الخمور والرقص وما شابه ذلك من الأمور التي عرفت فيما بعد أنها محرمة في الإسلام، وهكذا كان الإسلام بالنسبة لي كعملية اكتشافي لفطرتي »[2]

ويقول:« والعجيب في قضية التثليث التي تنسب أوروبا الفضل في إنكارها إلى فلاسفة عصر التنوير (ق١٨) من أمثال فولتير، ويعرب بعض الباحثين عن دهشتهم لان عقلية جبارة كتلك التي يتمتع بها ديكارت لم تستنكر هذه العقيدة ولو بكلمة واحدة.. هذا في حين أن الإسلام ــ دين الله الحق ــ سبق إلى نقص هذه العقيدة وإبطالها ليس من خلال تنفيره العام من الشرك وإنكاره المطلق فحسب بل أفرد الحديث عنها استقلالاً

---

(١) خصائص التطور الإسلامي:٢٢٨.

(٢) رجال ونساء اسلموا، عرفات كامل العشي:١/٢٤-٢٥.

وفصله من وجوه منوها بأنها عقيدة وثنية قديمة وهي الحقيقة التي لم تعرفها أوروبا إلا بعد ظهور علم مقارنة الأديان الذي يعد من أحداث علومها النظرية، قال تعالى:﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (التوبة:٣٠)»[١]

هذا في العقيدة في الله التي هي أصل العقائد ولبابها[٢].. وهكذا في سائر العقائد.

قارن بين موقفنا من الخطيئة الموروثة التني تنبني عليها المسيحية، وبين قول القرآن:﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الأنعام:١٦٤).. وقوله:﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الاسراء:١٥).. وقوله:﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الزمر:٧)

وغيرها من الآيات الكثيرة التي تنفي مسؤولية الإنسان على ما لم يعمله.. بل إن القرآن ينفي مسؤولية الإنسان على ما أكره عليه.. لأن العمل لايعتبر عملا يستحق الجزاء إلا إذا كان عن طواعية تامة.. يقول القرآن:﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْأِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل:١٠٦).. ويقول:﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (النساء:٦٥)

قارن هذه العقيدة التي تنسجم مع المنطق العقلي بعقيدتنا في الخطيئة الموروثة..

لقد أزعجت الخطيئة المورثة فولتير وباسكال.. بل أقلقت الضمير الأوروبي كله وأرقته منذ أن اعتنقها إلى الآن..

أما القرآن، فإنه يذكر الحادثة باعتبارها حدثا تاريخيا يذكر للعبرة.. لا لتبنى حياة البشر كلها على أساسه..

بالإضافة إلى ذلك.. فالقرآن ذكر القصة مذيلة بذكر التوبة والاستغفار وبيان أن الله قبل التوبة وغفر الخطيئة، ففي سورة البقرة ينتهي سياق القصة إلى قوله:﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة:٣٧)

وفي سورة الأعراف تنتهي القصة بقوله:﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (لأعراف:٢٣)

---

(١) رجل ونساء اسلموا،عرفات كامل العشي:١/٢٤ – ٢٥.

(٢) هنا رسالة خاصة بهذه العقيدة هي رسالة (الله) من هذه السلسلة، وفيها مقارنة مفاصلة بين عقيدة المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات في هذا الباب.

وفي سورة طه يقول:﴿ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى(١٢١)ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)﴾(طه)

انظر.. إن الآيات القرآنية لا تعطي الخطيئة ذلك الحجم الضخم الذي تعطيها إياه تعاليم الكنيسة، فهي أمر عرضي في حياة آدم، بل في حياة كل بشر، تمحوه التوبة ويذهبه الاستغفار.

أما الهبوط إلى الأرض ــ على حسب القرآن ــ فقد كان هو الغرض الأصلي من خلق آدم .. فقد قال الله للملائكة قبل خلق آدم:﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: من الآية٣٠).. و لم تكن المعصية إلا سببا لذلك [1]..

إن هذه العقيدة المنطقية ــ مقارنة بعقيدتنا ــ هي الأساس السليم الذي بني عليه السلوك الإسلامي الرفيع.

أما تصوراتنا.. فقد كانت محل سخرية من المسلمين.. ومحل نقد لاذع.. وقد كان علماء المسلمين أسبق من فلاسفة عصر التنوير وأتباع مدرسية النقد التاريخي في هذا المضمار.. كما قال ابن القيم:« فنسبوا الإله الحق سبحانه إلى ما أنف أسقط الناس وأقلهم أن يفعله بمملوكة وعبده، وإلى ما يأنف عباد الأصنام أن ينسبوا إليه.. ونسبوه إلى غاية السفه حيث خلصهم من العذاب بتمكينه أعداءه من نفسه حتى قتلوه وصلبوه وأراقوا دمه، ونسبوه إلى غاية العجز حيث عجزوه أن يخلصهم بقدرته من غير هذه الحيلة ونسبوه إلى غاية النقص حيث سلط أعداءه على نفسه وابنه ففعلوا به ما فعلوا.. وبالجملة فلا نعلم أمة سبت ربها ومعبودها وإلهها بما سبت به هذه الأمة كما قال عمر رضي الله عنه:« إنهم سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر »، وكان بعض أئمة الإسلام إذا رأى صليباً أغمض عينيه، وقال: لا أستطيع أن أملأ عيني ممن سب إلهه ومعبوده بأقبح السب »

هذا الكلام نموذج من بين انتقادات عقلية لا حصر لها دونها علماء المسلمين قبل أن يخلق سبينوزا وباسكال وفولتير بقرون، وقبل أن تفكر أوروبا في شيء اسمه (النقد التاريخي) أو حرية التفكير.

قلت: أنا أقر بالكثير مما ذكرت من الانحرافات الخطيرة التي دخلت المسيحية.. ولكنها مع ذلك لا تقل عن الانحرافات التي دخلت الإسلام.. وبذلك انحنى الإسلام أمام الهرطقات الكثيرة التي دخلته كما انحنت المسيحية..

قال: لا.. لقد أتيحت لي فرصة الاطلاع على مقولات الفرق الإسلامية المرتبطة بهذا الجانب.. فوجدتها كلها تصب في بحر واحد هو بحر الوحدانية والتقديس والتعظيم.. المسلمون كلهم موحدون لله.. يحملون تصورات غاية في القداسة عن الله.

---

(١) ويدل لهذا ما روي من محاجة آدم موسي ــ عليهما السلام ــ حين عاتبه على أنه تسبب في إخراج بنيه من الجنة، فرد عليه آدم كما ذكر النبي ﷺ:« أفليس تجد فيما أنزل الله عليك أنه سيخرجني منها قبل أن يدخلينها »، قال: بلى قال ﷺ:« فحج آدم موسى (ثلاثاً) » رواه البخاري.

قلت: ولكني قرأت الكثير من الكتب والمطويات التي تحذر من طوائف المبتدعة من المؤولة والمفوضة والمشبهة والمجسمة..

قال: تلك ــ كما يقال ــ زوبعة في فنجان.. وأولئك قوم من المتطرفين.. هم أشبه الناس بأولئك الذين اجتمعوا بأمر قسطنطين في مجمع نيقية.. ليس لهم من هم إلا التفريق بين صفوف إخوانهم..

قلت: ولكن لقولهم مصداقية عظمى.

ابتسم، وقال: لقد أتيحت لي مخالطة بعضهم.. وقد رأيت من قصر عقولهم ما صرفني عن الاستماع لهم..

قلت: ولكن كلامهم مهم جدا.. لقد لاحظت اهتمام الكنيسة به.

قال: إن الكنيسة تهتم بمقولاتهم لأنها من التبشير غير المباشر.. أما الحقيقة.. فلا خلاف بين المسلمين جميع المسلمين في جميع مسائل العقيدة[1].

قلت: الشيعة والسنة والمعتزلة والخوارج..

قال: أجل.. جميعهم يعبدون إلها واحدا.. ويؤمنون بنبي واحد.. وكل الذي يثار ليس إلا زوبعة في فنجان[2].

الشعائر:

قلت: عرفت صمود ثمار عقائد الإسلام.. فهل صمدت ثمار شعائره؟

قال: أجل.. وبنفس صمود عقيدته.. ذلك أن كليهما يستمد من مصادر ثابتة صحيحة غاية في القوة..

قلت: فهل صمد الإسلام في هذا الميدان؟

قال: كما لم يصمد دين من الأديان.. بل هو لا يزال غضا طريا كما جاء.. وقد كان للنظام الذي اتسمت به شعائر الإسلام السر الأكبر في بقائها وصمودها.

فكل الشعائر التي وضعت النصوص الإسلامية المقدسة طرقها وأساليبها ليس لها إلا هدف واحد هو ربط المسلمين بربهم ورسولهم ودينهم، فلا يمر وقت من الأوقات على المسلم يكون فيه بعيدا عن ربه وذكره وعبادته[3]:

فارتباط المسلم بربه مستمر دائم في كل لحظة من لحظات عمره، بل هو على صلة دائمة به: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ (الأنعام)

فهو يصلي كل يوم وليلة خمس صلوات مفروضة، في أوقات محددة موقوتة، ليس له أن يتقدم عليها أو

---

(١) لدينا رسالة خاصة بهذا من جملة (رسائل السلام)، تحاول التوفيق بين المدارس الإسلامية، وتهون من شأن الخلاف بين المسلمين.

(٢) هناك تفاصيل كثيرة ترتبط بهذا، وتجيب عن الشبه المتعلقة به في رسالة (الله جل جلاله)

(٣) انظر: الإسلام دين هداية ورحمة واستعصاء، د. عبد الله قادري الأهدل.

يتأخر بدون عذر شرعي.. وهو مأمور بالطهارة الكبرى والصغرى لكل صلاة منها..هذا عدا نوافل الصلاة المؤكدة وغيرها مما لا حصر له منها..

وهو يصوم شهرا كاملا في السنة فرضا لا يسقطه عنه سقوطا مؤقتا أو مطلقا إلا عذر شرعي..هذا عدا نوافل الصوم التي أفضلها صوم يوم وإفطار يوم على القادر في عمره كله.. وهناك أيام محدودة في الأسبوع وفي الشهر وفي العام يشرع للمسلم صيامها..

وهو يحج حجا مفروضا عليه مرة في عمره، لا يجوز له تركه إلا بعذر شرعي.

وهو يخرج زكاة ماله في أوقاته المحددة، لا يجوز له تأخير ذلك، وأمره الله تعالى بنوافل الصدقات والإنفاق مما رزقه الله، في كل ما يحقق الخير للإسلام والمسلمين..

وهو مأمور بذكر الله تعالى الواجب والمندوب، بحيث لا يزال لسانه رطبا بذكر ربه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢)﴾ (الأحزاب)

وهو مأمور بتعاطي ما أحل الله، وترك ما حرم الله في كل تصرفاته، فلا يخلو المسلم في أي وقت من أوقاته من فعل طاعة أو ترك معصية.

فليس له أن يعصر خمرا ولا يبيعها ولا يعلن عنها ولا يسقيها ولا يملكها..

وليس له أن يصنع سلاحا أو يبيعه لمن يقتل به نفسا حرم الله قتلها مسلما كان أو غير مسلم بغير حق، ولا يتلف به مالا ولا حرثا ولا حيوانا..

وليس له أن يبيع أو يشتري بيعا أوشراءا فيه غش للناس، وضرر بهم.

وليس له أن يسرق مال غيره ولا يغتصب أرضه ولا يستحل عرضه ولا يطلع على عورات جاره..

فهو في كل حال من أحواله مرتبط بربه، لأنه يضبط جميع تصرفاته بطاعته وترك معصيته..

وهو مرتبط بجماعة المسلمين من أي جنس كانوا، وفي جميع أنواع الشعائر.. ففي الإسلام عبادات جماعية، يقوم بها المسلمون قياما جماعيا، سواء كان التكليف بها فرض عين أو فرض كفاية أو مندوبا..

ولهذا شرع للمسلمين عمارة الجوامع والمساجد في مدنهم وأحيائهم، وشرع لهم عمارتها بذكر الله فيها، وبخاصة صلوات الجماعات خمس مرات في اليوم والليلة، وصلوات الْجُمَع الأسبوعية، التي ينادي المؤذنون فيها لكل صلاة من تلك الصلوات.

وشرع لهم أن يكون أئمتهم من القراء الذين يحفظون كتاب الله أو كثيرا منه، ويفقهون أحكام الله، فيسمع منهم المصلون في الصلوات الجهرية ما يقرؤون من كتاب الله، فيتدبرونه وينتفعون به..

والمسلم في هذه الحالة العبادية الخاشعة الراغبة الراهبة، شديد البحث والتفتيش عن نفسه في آيات كتاب ربه، ليعرف أين هو فيها من النواحي الإيمانية والعبادية والأخلاقية، والاجتماعية، والفقهية والدعوية، أين هو من رضا ربه أو سخطه.. وهل يتصف بصفات من رضي الله عنهم من المؤمنين، أو بصفات من سخط الله عليهم من الكافرين والمنافقين، وهل صلته بالله تؤهله لدخول الجنان أو لعقاب ربه في النيران.

ويتدبر ذكر ربه المشروع في قيامه وركوعه وسجوده وقعوده، فيمتلئ قلبه حبا لله ورغبة فيما عنده وخوفا

ورهبة من قوته وجبروته، وطمعا في عزته ونصره على أعدائه، فلا يخاف إلا الله ولا يطلب العزة إلا من مولاه، فلا يخرج من صلاته إلا وقد تحقق له الهدف من إقامتها والحكمة من أدائها.. ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت:٤٥)

يضاف إلى هذه الصلوات الخمس صلوات أخرى لها مناسبات معينة.. لا علاقة لأي منها بأي قومية أو عنصرية أو وثنية:

منها صلاة الاستسقاء عند الجدب والقحط لطلب الغيث من ربهم الذي يسقي أرضهم وينبت زرعهم ويدر ضرعهم ويغذيهم ويغذي أنعامهم..

ومنها صلاة الكسوف والخسوف عندما تكسف الشمس ويخسف القمر، تضرعا إلى الله تعالى من أن لا يترل بهم غضبه عقابا على معصيته، ففي الكسوف والخسوف تذكير لعباده بكمال قدرته، وتغيير الأحوال المعتادة إلى غيرهما مما لا قدرة لأحد على اتقائه إلا برحمة الله وفضله [1]..

ومنها صلاة العيدين: عيد الفطر وعيد النحر، اللتين يؤديها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، في يوم واحد أو أيام متقاربة، بحسب المطالع.

وللمسلمين يومُ عيدٍ أسبوعي، وهو يوم الجمعة الذي فرض فيه على كل مكلف من رجالهم، حضور خطبتيه وصلاته، حيث يعلو خطباء الجوامع الكبيرة والصغيرة في القرى و المدن و الأحياء المنابر، أمام الجموع الحاشدة، لتذكيرهم بكل ما يحتاجون إليه في حياتهم من أمر الإيمان والعبادة والأخلاق والحلال والحرام في المعاملات، والشئون السياسية والعلاقات الدولية، مبنية كلها على كثير من آيات القرآن والسنة وما استنبطه منهما علماء الإسلام.

إنها مظاهرة مشروعة في يوم واحد وفي كل مكان من الأرض لنصر هذا الدين وجمع كلمة المسلمين على الحق، وتفقههم في دين الله، لا يستطيع أحد أن يمنعها.

وفرض علي المسلمين جميعا فرض عين على كل قادر صيام شهر رمضان كله، لذلك ترى المسلمين في هذا الشهر المبارك، جميعا صائمين نهاره، تجتمع أسرهم في المنازل لتنال وقت الإفطار ووقت السحور، في غاية من الفرح والحبور، يتسابقون في مناولة أحدهم أخاه حبات التمر أو لقمة العيش.

وهكذا تجد جماعاتهم في المساجد عند أذان المغرب، يمدون موائدهم ويقربون تمرهم وأطعمتهم، ويتنافسون في استضافة المصلين على مشاركتهم في الإفطار معهم.

ثم تراهم بعد صلاة المغرب يتسابقون إلى منازلهم، ليستعدوا لصلاة العشاء وصلاة التراويح التي يختم فيها كثير من الأئمة القرآن في ليالي رمضان، يتلونه تلاوة تؤثر في القلوب وتغذي الألباب، فلا يخرج شهر رمضان إلا وقد تزود المسلمون منه زادا يربطهم بربهم بقية أشهر السنة.

إنه شهر تربية وتدريب وإيمان وتقوى وعبادة جماعية ذات أثر عظيم في جمع الكلمة والثبات على هذا

---

(١) انظر مراعاة الشريعة للنواحي الصحية في صلاة الكسوف في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

الدين وقوة الصلة برب العالمين..

وفرض على الصائمين في ختامه حقا لفقرائهم، سميت بزكاة الفطر، لتكون طهرة لهم وغناء لإخوانهم المحتاجين في يوم العيد الذين يفرحون فيه بتوفيق الله لهم بإتمام الصيام، فلا يفرح فيه الغني دون الفقير، ولا يترك الفقير فيه يتكفف لقمة عيشه وعيش أولاده.

وهكذا تراهم في الحج يفدون إلى البيت الحرام من كل فج عميق، يملأون الجو والبر والبحر، متحدين لباسا ونية وذكرا، مؤدين نسكهم في وقت واحد طوافا وسعيا ووقوفا، ومبيتا ورميا ونحرا، بصفة قلما تجد لها نظيرا في أمة من الأمم، وهم يلهجون في كل أوقاتهم بذكر الله.

يلتقي المسلمون ليحققوا في لقائهم ما ذكره القرآن من حكم الحج ومنافعه: ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ (الحج:٢٨)

يُعَلِّم عالِمُهم جاهلَهم، ويتحاورون فيما يعود عليهم وعلى أمتهم بالخير في دينهم ودنياهم.

التفت إلي، وقال: قارن هذا بشعائرنا وقداساتنا التي يتحول فيها الخبز جسدا، والخمر دما.. أو قارنه بصكوك الغفران..

إن كثيرا من قومنا امتلأوا إعجابا بشعائر المسلمين التعبدية التي يتوجه فيها المسلم مباشرة إلى الله من غير حاجة إلى أي وسائط..

يقول توماس أرنولد:« إنه لا يتأتى لأحد يكون قد رأى ذلك المشهد أن يبلغ تأثره به أعماق قلبه وأن لا يلحظ ببصره القوة التي تمتاز بها هذه الطريقة من العبادة عن غيرها»[١]

وقال رينان:« لم أدخل مسجداً إلا شعرت بانفعالات نفسية وأسف بالغ حينما أذكر أنني لست مسلماً »[٢]

ويقارن المستشرق الأمريكي (بودلي) بين المسيحية والإسلام في ذلك قائلاً:« لو أن القديس بطرس عاد إلى روما لامتلأ عجباً من الطقوس الضخمة وملابس الكهنوت المزركشة والموسيقى الغربية في المعبد المقرونة باسمه، ولن يعيد البخور والصور والرقى إلى ذهنه أي شيء من تعاليم سيده المسيح.. ولكن إذا ما عاد محمد إلى أي مسجد من المساجد المنتشرة بين لندن وزنجبار فإنه سيجد نفس الشعائر البسيطة التي كانت تقام في مسجده في المدينة الذي كان من الآجر وجذوع الشجر»[٣]

أما المهزلة العظمى (صكوك الغفران) التي تعد صفحة سوداء في تاريخ الإنسانية، فلا يستطيع أحد من أعداء الإسلام أو دعاة العلمانية مهما بلغت به المكابرة أن يزعم أنها وجدت في التاريخ الإسلامي فضلاً عن أصوله التشريعية ذاتها.

---

(١) إلى الدين الفطري الأبدي:الطرازي:٢٦٣.

(٢) إلى الدين الفطري الأبدي:الطرازي:٢٦٤.

(٣) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين:٢٣-٢٤.

فهذه المهزلة لم يعرفها المسلمون حتى في أحط وأحلك عصورهم حين فشا الجهل وعلقت بعض الخرافات بأذهان الجهلة والعوام.. فلم يحدث قط أن كتب أحد ممن يسمون أولياء وثيقة غفران.. ذلك أن الأمة الإسلامية مهما انحرفت وتخبطت تظل لديها مسكة من عقل وبقية من إيمان تمنعها عن ارتكاب مثل هذه الحماقات الصفيقة التي لم يتورع عنها بابوات الكنيسة قرابة ثلاثة قرون.

قلت: ولكن مع ذلك.. فقد انتشرت بدع كثيرة بلاد المسلمين.

قال: لقد طفت المجتمعات الإسلامية كما ذكرت لك.. بل دخلت مساجدها.. فلم أر إلا صلاة واحدة، لعلها هي الصلاة التي صلاها محمد.. بل إن الأسانيد الكثيرة تشير إلى أنها نفس صلاة محمد..

و لم أر المسلمين يصومون إلا شهرا واحدا قد يختلفون في يوم من أيامه.. ولكنهم يتفقون في كل أيامه.. ويتفقون مع ذلك في كل أحكامه..

وأنت ترى المسلمين يقصدون كعبة واحدة، ويصلون خلف إمام واحد، ويقفون على جبل واحد.. هو نفس الجبل الذي وقف عليه محمد، وخطب خطبة الوداع.

ألا ترى في كل هذا دلائل صمود الإسلام؟

قلت: ولكني أرى حلقا كثيرة تعقد تختلف فيها المجتمعات..

قال: تقصد حلق الذكر التي قد يختلط فيها الرقص واللعب.

قلت: أجل.. أليس ذلك انحناء؟

قال: لا.. تلك عادات توارثتها تلك الشعوب، وحاولت أن تمزجها ببعض شعائر الإسلام.. والإسلام يتساهل كثيرا في هذا الباب.

قلت: فهو انحناء إذن.

قال: ليس هذا انحناء.. وإن كان انحناء فهو انحناء عادات الشعوب للإسلام وعقيدة الإسلام.

قلت: كيف ذلك؟

قال: إن تلك العادات كانت مملوءة بالوثنية أو بغيرها من العناصر التي يرفضها الإسلام، وهي في حركاتها من اللهو المباح الذي لا يرفضه الإسلام.. ولذلك وقف العدول من المسلمين موقفا وسطا.. حفظوا بها عادات تلك الشعوب.. وحفظوا به في نفس الوقت سلامة عقيدتها.

قلت: فما هذا الموقف الوسط؟

قال: أقروا الحركات التي لا علاقة لها بالدين.. وأضافوا إليها ذكر الله.. والترنم بحبه.. فتحولت العادة عبادة.. وتحولت الطقوس الوثنية طقوسا دينية.

قلت: لم أفهم ما تقصد.. فإني أرى البعض يعتبر هؤلاء مارقة من الدين.

قال: تلك نظرة المتطرفين.. وهم لا يشكلون إلا جزءا لا يكاد يذكر أمام جماهير المسلمين.

أما عوام المسلمين.. وعلماء المسلمين.. فهم متشددون في أصول الدين.. متساهلون في العادات التي لا تمس جوهر الدين، ولا تؤذي حقيقته.

قلت: فأنت تقر كل ما يمارس في تلك المجامع.

قال: أنا ليس لي سلطة الإقرار ولا سلطة الإنكار.. ولكني لا أرى في ذلك خطرا على الإسلام.. بل أرى فيه صمودا عجيبا للإسلام.

ذلك أن أولئك يمارسون كل شعائر الإسلام بحرص شديد.. ولا يكتفون بذلك، بل يحولون عاداتهم عبادة، ولهوهم ذكرا.

قلت: ولكن العوائد مختلفة.. وهي تفرق بين المسلمين.

قال: مفهوم الوحدة في الإسلام مفهوم أسمى من كل المفاهيم التي نعرفها.. ذلك أنه يقرر القواعد والأصول.. ثم يترك لأتباعه ميادين كثيرة يمكنهم أن يختلفوا فيها من غير أن ينكر بعضهم على بعض[1].

السلوك:

قلت: فلنتحدث عن الناحية الثالثة من نواحي الدين.. وهي السلوك.. وهي الناحية التي أرى أن حضارتنا المؤسسة على الكنيسة أفلحت فيها.. وخفق الإسلام.

قال: كيف عرفت ذلك؟

قلت: ألسنا أصحاب السلوك الحضاري الذي لم يصل أحد في الدنيا إلى سلوكه.

ابتسم، وقال: أي سلوك حضاري؟.. لو كنت قلت: إن هذه الحضارة التي سلمت زمامها للشيطان جمعت كل جرائم من سبقها من الحضارات كنت صادقا..

قلت: كيف ذلك؟

قال: تفصيل ذلك يطول.. وربما تجد من يتحدث لك عن تفصيل المقارنات في هذا الجانب[2].. ولكني أقول لك من وحي دراستي للمصادر الإسلامية والتاريخ الإسلامي.. بل والواقع الإسلامي لكثير من شعوب المسلمين:

ليس هناك في الدنيا.. ولا في التاريخ.. ولا في مصادر الأديان سلوك أنظف ولا أرفع ولا أسمى من سلوك المسلمين.. ذلك أن السلوك في الإسلام عبادة لا تقل عن أي عبادة شعائرية.

ولهذا وردت النصوص الكثيرة تخبر بأن أرفع المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، ففي الحديث:« خياركم أحاسنكم أخلاقا »[3]، وفي الحديث:« إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم »[4]

بل ورد ما هو أعظم من ذلك، وهو أن درجة القرب من محمد ــ الذي يمثل الكمال الإنساني ــ بقدر

---

(١) سنتحدث عن التفاصيل المرتبطة بهذا في فصل (الروحانية) من هذه الرسالة.

(٢) سنذكر الكثير من الأدلة المثبتة لهذا في الفصول القادمة.

(٣) أحمد عن أبي هريرة.

(٤) الترمذي، وقال: حديث صحيح.

حسن الخلق، ففي الحديث:« إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون » قالوا:« يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون » قال:« المتكبرون »[1]

ولذلك، فإن الدرجات العليا والأجور العظيمة لا يحوزها إلا من حسن خلقه، ففي الحديث:« ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء »[2]، وفي الحديث:« أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه »[3]، فجعل البيت العلوي جزاء لأعلى المقامات الثلاثة، وهي حسن الخلق والأوسط لأوسطها وهو ترك الكذب، والأدنى لأدناها وهو ترك المماراة وإن كان معه حق ولا ريب أن حسن الخلق مشتمل على هذا كله.

وسئل محمد عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال:« تقوى الله وحسن الخلق»، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال:« الفم والفرج »[4]

بل أخبر أن « المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم »[5]

ولهذا فإن القرآن يربط بين قضايا الإيمان والعبادة والسلوك في كل آياته.. ففي الآية التي تصف أصول البر يقول:﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٧٧)

وفي الآية التي تثني على أوصاف المؤمنين يقول:﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ (الأحزاب:٣٥)

انطلاقا من هذا.. فإن للأخلاق الإسلامية مزايا كثيرة تميزها عن غيره من أنواع الأخلاق التي جاءت بها الأديان والمذاهب والفلسلفات..

فمن مزاياها [1] الثبات.. فالثبات في الأخلاق ضرورة، لأنها الضوابط التي تضبط سلوك الناس، ولأنّها

---

(١) الترمذي.

(٢) الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) الطبراني، وإسناده صحيح.

(٤) الترمذي، وقال: حديث صحيح.

(٥) أبو داود.

المقياس الذي يلتقي عنده الجميع.. وتتميز الأخلاق الإسلاميّة في ذلك على الأخلاق المنبثقة عن العادات والتقاليد، والتي هي متغيرة لأنها من وضع الإنسان القاصر.

ومن مزاياها الفطرية.. وذلك ما يجعلها يسيرة وفعّالة في حياة البشر.. أمّا الأخلاق المنبثقة عن العادات والتقاليد فتكون في أحيان كثيرة منافية للفطرة، وعلى وجه الخصوص في حالات انتكاس المجتمع وتدهور أخلاقياته، وتكون في أحيان أخرى مثاليّة ومجافية لواقع النفس البشريّة، وهذا يعني أنّ الأخلاق الإسلاميّة واقعيّة، لأنها تراعي واقع الإنسان وفطرته.

ومن مزاياها العملية.. فهي إيمان وعمل، وهي تختلف عن الأخلاق في المنظور الفلسفي، حيث أنّ الفلسفة تقدم الجانب المعرفي ولا تهتم بالجانب العملي التطبيقي.

ومن مزاياها.. أنها تستند إلى العقيدة، وتنبثق عنها، وهذا ما يجعلها قناعات قبل أن تكون سلوكاً، على خلاف الأخلاق التي تستند إلى العادات والتقاليد؛ فكثيراً ما تُمارس هذه الأخلاق على أساس من التقليد غير الواعي وبُحكم العادة، ويغلب أن يكون الدافع إليها الرغبة في إرضاء المجتمع.

ومن مزاياها.. أنها عبادة يثاب فاعلها، ويتقرب بها إلى الله تعالى، مما يجعلها ذات منفعة دنيويّة وأخرويّة، على خلاف الأخلاق المنبثقة عن العادات والتقاليد، ولذلك يسهل نبذها عندما تتعارض مع المصالح الدنيويّة للفرد أو الجماعة.

ومن مزاياها.. أنها مُلزمة، وتأتي سلطة الإلزام ابتداءً من القناعة الدينيّة، ثم من الرغبة في مثوبة الخالق والرهبة من عقوبته، ثم من نظرة المجتمع المؤمن الذي يعيش فيه المسلم، ثم ما يكون من قانون يُنظّم المجتمع ويحمي قيمه.. أمّا الأخلاق المنبثقة عن العادات والتقاليد فتضعف فيها سلطة الإلزام والتي يغلب أن تكون منحصرة في نظرة المجتمع، حيث أنّ القانون الوضعي لا يشمل الكثير من مسائل الأخلاق.

ومن مزاياها.. أنها شاملة لكل سلوكيات الإنسان، لا يستثنى من ذلك أي سلوك.. ثم هي تشمل الفرد والجماعة، والحاكم والمحكوم، وتشمل جميع فئات المجتمع في جميع الظروف.. وهي تشمل ظاهر الإنسان وباطنه وجميع جوانب شخصيّته، على خلاف الأخلاق المنبثقة عن العادات والتقاليد والفلسفات، حيث أنها قاصرة ولا تشمل كل سلوك، ثم هي تتعامل مع الظاهر ولا سلطان لها على الباطن، ثم هي في ظروف الحرب، مثلاً، تختلف عنها في ظروف السلم، ونجدها أحياناً تختلف بين حاكم ومحكوم، وخادم ومخدوم، وصغير وكبير، وطبقة اجتماعيّة أخرى.

قلت: ولكن الواقع الإسلامي يختلف كثيرا عن هذه المثالية التي تذكرها.

قال: نعم.. الواقع الإسلامي متخلف كثيرا عن هذه المثل.. ولكن.. ألم تتساءل عن سر ذلك؟

قلت: لم أتساءل.

قال: أنا تساءلت عن ذلك، وبحثت عنه، وقد وجدت أن أولئك المتخلفين لم يتتلمذوا على محمد في

---

(١) انظر: دراسات في الفكر الإسلامي، بسام نهاد جرار.

سلوكهم، و لم يتعرضوا لأشعة محمد حتى يرتفعوا إلى هذه المثل.

قلت: فعلى من تتلمذوا؟

قال: علينا نحن.. تتلمذوا على ما نبثه لهم عبر وسائل الإعلام الكثيرة التي لا هم لها إلا إفسادهم وتضليلهم.

قلت: فقد انحنى الإسلام في هذه الناحية إذن؟

قال: لا.. مدرسة الإسلام لم تنحن.. ولكن بعض المسلمين انحنوا.. ولو أتيح لهم الجو المناسب، فسيقومون من جديد..

قلت: من ضمن لك ذلك؟

قال: أنا لست في شك من ذلك.. لأن الفطرة التي تملأ نفوسهم لن يؤثر فيها أي انحراف.

صمود الانتشار

قلت: فحدثني عن صمود الانتشار..

قال: لقد ذهبت إلى التاريخ أقارن أنواع البلاء التي تعرضت لها العقائد والمذاهب والأفكار، فلم أجد مواجهات عنيفة كتلك المواجهات التي قوبل بها الإسلام.. ولم أجد صمودا كذلك الصمود الذي أبداه المسلمون.

إن تاريخ الإسلام حافل بالمواجهات بينه وبين أعدائه والمكيدين له والمتآمرين عليه.. وفي كل مرة كان الإسلام يخرج منتصرا شامخا[1]..

لقد اجتمع على محمد العدوان الثلاثي: المشركون كلهم في جزيرة العرب، واليهود والمنافقون في غزوة الأحزاب، فخرجوا من ذلك العدوان منتصرين.

وارتدت جزيرة العرب بعد وفاة محمد في عهد أبي بكر، وكان المسلمون في ضعف مادي شديد، ولكنهم خرجوا منتصرين..

وحاربتهم الدول العظمى في ذلك العهد: الروم في الشمال، والفرس في الشرق، والأحباش في الجنوب، فكان النصر لهم على تلك الدول جميعا.

واجتمعت على حربهم الدول الصليبية، وكانوا في غاية من الضعف والتفرق، ولكن أعداءهم خرجوا في النهاية يجرون أذيال الهزيمة..

واجتاح التتار وزعيمهم هولاكو عاصمة الخلافة بغداد، وسيطروا على المسلمين سيطرة لم يكونوا يظنون أنهم سيطردون منها شر طردة، ولكن النصر كان حليف المسلمين.

واستجاب أتاتورك لليهود والصليبيين، وقضى على آخر رمز للخلافة الإسلامية، وأغلق مدارس المسلمين وغير مناهجهم وأكرههم على إظهار موافقته في كتابة أغلى كتاب على وجه الأرض بغير حروفه العربية، وأرغمهم على الأذان بغير ألفاظه العربية، وأنزل بالمسلمين من المحن والمصائب ما لا يخفى على قارئ التاريخ، ولكن المسلمين درَّسوا أولادهم في دهاليز منازلهم، وفي حظائر دوابهم القرآن والحديث، والفقه، والتفسير، والتاريخ الإسلامي، وإذا الجيل الذي نشأ في عهده يظهر بعد إدباره حافظا للقرآن، متقنا للغة العربية، متمسكا بدينه.. رافضا مبادئ أتاتورك وزمرته على رغم تسلطهم واستبدادهم الشامل الذي تدعمه القوة العسكرية..

وجثم الاتحاد السوفييتي على صدور المسلمين في آسيا الوسطى سبعين عاما، قتل من قتل، واعتقل من اعتقل، وشرد من شرد، وحظر على المسلمين حمل القرآن، ومع ذلك خرج الجيل الذي نشأ في ظل هذا النظام الظالم، وهو يحفظ القرآن، ويحفظ أحكام دينه ويلتزم بها، وما جوهر دوداييف، وزملاؤه الذين سلكوا سبيله إلى الآن إلا دليل على أن المسلمين يستعصون على أي عدو يحاول القضاء عليهم وعلى دينهم..

---

(١) انظر: العالم الإسلامي والمكائد الدولية، فتحي يكن، والإسلام دين رحمة وهداية واستعصاء.

والمحتلون الأوربيون البريطانيون، والفرنسيون والإيطاليون، والبرتغاليون، والألمان والأسبان، الذين اغتصبوا بلدان المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وبقوا فيها فترات طويلة، حتى أصبحت في ظاهر الأمر جزءا من بلد المحتل، خرجوا جميعا وهم يجرون أذيال الهزيمة..

وهاهم المسلمون اليوم، يجاهدون أعداءهم الأقوياء ماديا المعتدين عليهم في بلدانهم، في فلسطين والعراق والفيليبين والشيشان وأفغانستان وغيرها من البلدان، برغم ضعفهم المادي، صابرين مستبسلين، لا يخافون إلا ربهم، وسيبقون كذلك حتى يحقق الله لهم النصر على عدوهم..

ولم تكن الحرب حربا عسكرية فقط.. ولم يكن الصمود صمودا عسكريا فقط..

لقد وضعت مخططات كثيرة.. وحيكت مؤامرات كثيرة لينحرف المسلمون عن دينهم.. لكنها كلها باءت بالفشل..

لقد قال (زويمر) في بداية المؤتمر العالمي للتبشير في القدس سنة (١٩٣٣) يفضح هذه المؤامرات، ويبين الهدف منها:« إن مهمتكم إخراج المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاقية التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، إنكم أعددتم شبابا في بلاد الإسلام لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقا لما أراده له الإستعمار، لا يهتم بعظائم الأمور ويحب الراحة والكسل ولا يصرف همه في الدنيا إلا في الشهوات، فإذا تعلم فللشهوات وإذا جمع المال فللشهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بأغلى ما يملك »

ويقول زويمر:« إن السياسية الإستعمارية لما قضت منذ سنة (١٨٨٢) على برامج التعليم في المدارس الإبتدائية أخرجت منها القرآن، ثم تاريخ الإسلام، وبذلك أخرجت ناشئة لا هي مسلمة ولا هي مسيحية ولا هي يهودية، ناشئة مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقا للدين ولا للوطن حرمة »

ويقول (هاملتون جب) المستشرق الإنجليزي في كتابه (جهة الإسلام) سنة (٢٣٩١م):« إن العالم الإسلامي سيصبح خلال فترة قصيرة لا دينيا في كل مظاهر حياته »[1]

هذا ما كان قومنا يتوقعونه من الأجيال القادمة.. لقد عادوا يفركون أيديهم فرحا بعد أن رأوا مجموعات من خريجي جامعاتهم لا يعبأون بدين، ولا يهتمون بخلق ولا قيمة، ولكن كل تلك المخططات باءت بالفشل، وانحنت أمام صمود الإسلام.

لقد أنفقوا أموالهم وأحكموا خططهم ودبروا مكائدهم لإخراج جيل لا ديني، توقع سادته أن يكون سحق الإسلام في المنطقة على يده، وأقموا الجامعات وفرضوا الإختلاط وأقصوا الصادقين من حملة القيم والأخلاق عن كل المراكز الحساسة، وقربوا دعاة الإباحية والإلحاد والعلمانية والفساد إليهم، ونصبوهم قضاة وسادة وأقاموا حولهم الهالات، ونفخوا في الأقزام حتى أضحوا عمالقة في أعين الرعاع والدهماء، ولكن هل كان لهم

---

(١) انظر هذه المقولات وغيرها في كتاب (الخنجر المسموم) لأنور الجندي، و(أجنحة المكر الثلاث) لعبد الرحمن حبنكه، و(قادة الغرب يقولون) لجلال العالم.

الذي أرادوا؟ هل أقصي الإسلام نهائيا عن حياة الفرد والأسرة والمجتمع؟

قلت: نعم.. لقد نجحوا في كثير من ذلك..

قال: ولكن تلك المدارس التي خططوا لها أن تصير مدارس علمانية لا صلة لها بدين ولا خلق راحت تدفع بالأفواج إلى الإسلام.

لقد أضحت الجامعات التي سهروا على منهاجها وظنوها مراكز التدمير تقدم نماذج من الشباب الصادق الملتزم الذي يضحي بكل شيء من أجل عقيدته ودينه.

لقد أصبحت الجامعات كبلاط فرعون يربى فيه موسى عليه ليهدم بيده عرش فرعون ويسحب البساط من تحت رجليه.

أما سحر حضارتنا.. فلم يعد يخدع الأبصار.. فقد تفتحت أعين المسلمين على نور الإسلام، وانفتحت بصائرهم لتقبل الحق، بعد انبلاج الحق وسطوع نوره على القلوب والنفوس.

فحيثما تتوجه الآن في الكرة الأرضية تجد رجوعا إلى الإسلام.. تجد نفوسا متعطشة للدين، حتى تستظل بفيئه بعد أن أضناها لفح الهاجرة وأرهقها طول المشي في التيه[1].

قلت: ولكن الإسلام ــ الآن ــ يواجه حروبا عظيما.. حروبا في كل النواحي، ومن كل الجهات.. فهل تراه سيصمد لها؟

قال: لا أقول يصمد لها فقط.. بل إنه سينتصر فيها.. وسيعود أولئك المحاربون إلى الإسلام أفواجا كما عاد القرشيون..

هذا (ديياسيكييه) المفكر الفرنسي، يرشح الإسلام كمنقذ وحيد للبشرية فيقول:« إن الغرب لم يعرف الإسلام أبدا، فمنذ ظهور الإسلام اتخذ الغرب موقفا عدائيا منه، ولم يكف عن الإفتراء عليه والتنديد به لكي يجد المبررات لقتاله، وقد ترتب على هذا التشويه أن رسخت في العقلية الغربية مقولات فظة عن الإسلام، ولا شك أن الإسلام هو الوحدانية التي يحتاج إليها العالم المعاصر ليتخلص من متاهات الحضارة المادية المعاصرة التي لا بد أن استمرت أن تنتهي بتدمير الإنسان »[2]

إن هؤلاء الكتاب الغربيين يقفون نفس الموقف الذي وقفه هرقل عندما وصله كتاب محمد، فقد سأل أبا سفيان عن أحوال محمد، وبعد أن أخبره قال هرقل لأبي سفيان:« إن كان ما تقول حقا، فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه »[3]

لقد كان هرقل عاقلا يدرك أن أمر العقائد إلى إقبال، وأمر السلطان الذي لا يدعمه فكر وعقيدة إلى

---

(١) انظر: الإسلام ومستقبل البشرية، عبد الله عزام.

(٢) مجلة الإيمان اللبنانية عدد (٧٥) السنة الثانية آذار سنة (١٩٨٠م)

(٣) رواه البخاري ومسلم.

زوال، كان هرقل آنذاك يحكم إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس، ولكنه يراها متفسخة من داخلها، وسرعان ما تتهاوى على رؤوس أصحابها، ولأول ضربة من ضربات أعدائها.

ولهذا فإن أعداء الإسلام الذين درسوا تاريخه يعرفون قدرته على الممانعة والمواجهة والخروج من الأزمات.. يقول ابن غوريون:« نحن لا نخشى الإشتراكيات ولا القوميات ولا الملكيات في المنطقة، إنما نخشى الإسلام، هذا المارد الذي نام طويلا وبدأ يتململ في المنطقة، إني أخشى أن يظهر محمد جديد في المنطقة »

وبمثل هذا شهد أصدقاؤنا من المستشرقين، يقول (كوستاف لوبون):« مع ما أصاب حضارة العرب من الدثور، كالحضارات التي ظهرت قبلها: لم يمس الزمن دين النبي الذي له من النفوذ ما له في الماضي، والذي لا يزال ذا سلطان كبير على النفوس، مع أن الأديان الأخرى التي هي أقدم منه تخسر كل يوم شيئًا من قوتها.. وتجمع بين مختلف الشعوب التي اتخذت القرآن دستورًا لها وحدة اللغة والصلات التي يسفر عنها مجيء الحجيج إلى مكة من جميع بلاد العالم الإسلامي. وتجب على جميع أتباع محمد تلاوة القرآن باللغة العربية بقدر الإمكان، واللغة العربية هي لذلك أكثر لغات العالم انتشارًا على ما يحتمل، وعلى ما بين الشعوب الإسلامية من الفروق العنصرية ترى بينها من التضامن الكبير ما يمكن جمعها به تحت علم واحد في أحد الأيام »[1]

ويقول:« كان سلطان الإسلام السياسي والديني قويًا في بلاد الهند، ورسخ فيها ثمانية قرون بفضل ملوك الإسلام الذين تداولوا حكمها، ولا يزال سلطان الإسلام الديني قائمًا في بلاد الهند، وإن توارى سلطانه السياسي عنها، وهو يمضي قدمًا نحو الاتساع »[2]

ويقول:« تأثير دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أي دين آخر، ولا تزال العروق المختلفة التي اتخذت القرآن مرشدًا لها تعمل بإحكام كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرنًا »[3]

ويقول:« دخلت حضارة العرب في ذمة التاريخ منذ زمن طويل، ولا نقول، مع ذلك أنهم ماتوا تمامًا، فنرى الآن ديانتهم ولغتهم اللتين أدخلوهما إلى العالم أكثر انتشارًا مما كانتا عليه في أنضر أدوارهم.. ولا يزال الإسلام جادًا في تقدمه.. واليوم يدرس القرآن، فيما عدا جزيرة العرب، في مصر وسورية وتركية وآسية الصغرى وفارس وقسم مهم من روسية وأفريقية والصين والهند، وتناول القرآن مدغشقر وأفريقية الجنوبية، وعرف في جزر الملايو، وعلمه أهل جاوة وسومطرة وتقدم إلى غينيا الجديدة، ودخل أمريكا مع زنوج أفريقية.. ويتقدم الإسلام في الصين تقدمًا يقضي بالعجب.. حيث اضطر المبشرون الأوروبيون إلى الاعتراف بالحدود وسيقوم الإسلام – كما يقول وازيليف – مقام البوذية، ومسلمو الصين لا يشكون في ذلك وهذه المسألة على جانب عظيم من الأهمية. فإذا اعتنقت الصين دين الإسلام تغيرت علاقات العالم القديم السياسية تغيرًا عظيمًا

---

(١) حضارة العرب، ص ١٢٦.

(٢) حضارة العرب، ص ١٨٦.

(٣) حضارة العرب، ص ٤١٧.

وأمكن دين محمد أن يهدّد النصرانية من جديد »[1]

يقول جب في كتابه (Wither Islam) (جهة الإسلام)، وهو كتاب كتبه مجموعة من المستشرقين نتيجة أبحاث قدمت لمؤتمر في جامعة (برنستون في أمريكا:« إن الحركات الإسلامية تتصور عادة بسرعة مذهلة مدهشة، فهي تنفجر انفجارا مفاجئا قبل أن يتبين المراقبون من إماراتها ما يدعوهم إلى الإسترابة في أمرها، فالحركات الإسلامية لا ينقصها إلا الزعامة وظهور صلاح الدين »

***

ما وصل (جابرييلي فرانشيسكو) من حديثه إلى هذا الموضع حتى انتفض قائما، فتعجبت من موقفه هذا، فقلت: ما الذي حصل؟

قال: لقد ذكرت صلاح الدين..

قلت: أعلم أنك كتبت عن صلاح الدين الأيوبي واعتبرته بطلاً وشخصية عظيمة بالرغم مما تعرضت له هذه الشخصية من تشويه في الكتابات الغربية.

قال: لست أدري.. كلما تذكرت صلاح الدين أجدني أقوم ممتلئا نشاطا.. إنه مثال للصمود والبطولة والرجولة الحقيقية الكاملة..

قلت: فهل يئست من قيام مثله؟

قال: لا.. ليس هناك جيل من أجيال المسلمين إلا وكان فيه نماذج كثيرة من أمثال هذا الرجل الصامد.. إن لمدرسة الإسلام قدرة عجيبة على تخريج الأبطال.

قلت: اسمح لي حضرة الأستاذ الفاضل أن أسألك هذا السؤال الذي حيرني..

قال: تريد أن تسأل عن سر عدم إسلامي مع هذه الحماسة التي أبديها للإسلام.

قلت: أجل.. فأنا في غاية العجب منك.

قال: أنت تعلم ما قاله (اللورد هدلي)

قلت: تقصد قوله:« إنني أعتقد أن هناك آلافاً من الرجال والنساء أيضاً، مسلمون قلباً، ولكن خوف الانتقاد والرغبة في الابتعاد عن التعب الناشئ عن التغيير، تآمروا على منعهم من إظهار معتقداتهم »

قال: أجل.. وهذا ما أستطيع أن أجيبك به، ولن أزيد.

قال ذلك.. ثم انصرف سائرا من غير أن يسألني عني..

بقيت أتأمل تلك الشجرة العظيمة لأرى فيها من عزة الإسلام وصموده ما كان محجوبا عن بصيرتي.

وفي تلك الأثناء تترلت علي أنوار جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

---

(١) حضارة العرب، ص ٦١٦ – ٦١ ٧.

ثالثا ــ قيم

في اليوم الثالث من تلك الأيام العشرة المباركة، التقيت المستشرق الذي قطفت على يده ثمرة القيم من شجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى:﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)﴾ (المائدة)

وسر قوله تعالى:﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩)﴾(الإسراء)

وعرفت بها سر قوله ﷺ:« إنما بعث لاتمم مكارم الاخلاق »[1]

فهذه النصوص المقدسة تخبر عن مقصد شريف من مقاصد الإسلام، وهو التزكية والتربية وبث القيم الرفيعة في النفوس والمجتمعات المسلمة، وهو هدف لم يتحقق إلا في الإسلام.. ولم أعرف برهان ذلك إلا في ذلك اليوم المبارك.

***

منذ وطئت قدماي أرض السربون كان لي شوق عظيم لأن ألتقي (آرثر جون آربري)[2].. لقد كنت أشعر بأن بيننا صلات قرابة كثيرة..

فهو يهتم بالقيم الإنسانية الرفيعة، ويعتبرها الثمرة الكبرى لكل دين، بل يقيم الأديان على أساسها،

---

(١) البخاري ومسلم.

(٢) هو Arthur John Arberry (١٩٠٥-١٩٦٩) ولد في مدينة بورتسموث بجنوب بريطانيا، التحق بجامعة كامبريدج لدراسة اللغات الكلاسيكية اللاتينية واليونانية، وشجعه أحد أساتذته (منس) على دراسة العربية والفارسية.

ارتحل إلى مصر لمواصلة دراسته للغة العربية. عاد إلى مصر ليعمل في كلية الآداب رئيساً لقسم الدراسات القديمة (اليونانية واللاتينية) وزار فلسطين وسوريا ولبنان.

اهتم بالأدب العربي فترجم مسرحية (مجنون ليلي) لأحمد شوقي كما حقق كتاب (التعرف إلى أهل التصوف)، واصل اهتمامه بالتصوف وذلك بنشره كتاب (المواقف والمخاطبات) للنفري، وترجمه إلى الإنجليزية.

عمل آربري مع وزارة الحرب البريطانية في أثناء الحرب العالمية الثانية مهتماً بشؤون الإعلام والرقابة البريدية، وأصدر كتابه (المستشرقون البريطانيون) سنة ١٩٤٣ تولى منصب أستاذ كرسي اللغة العربية في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، ثم انتقل لجامعة كمبردج ليحتل منصب أستاذ كرسي اللغة العربية في هذه الجامعة.

ومن أبرز جهود آربري ترجمته لمعاني القرآن الكريم حيث أصدر أولاً مختارات من بعض آيات القرآن الكريم مع مقدمة طويلة، ثم أكمل الترجمة وأصدرها عام ١٩٥٥.

(انظر: عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين: ٥-٨)

وكنت مثله في ذلك.

وقد كانت القيم التي يبشر بها هي نفس القيم التي أشعر بأهميتها الكبرى في بناء الحياة الإنسانية.

وقد كان مع ذلك يتألم كثيرا لتخلف القيم عن المجتمعات المعاصرة التي باعت نفسها للشياطين الذين وضعوا لها دساتير تخالف دساتير الفطرة التي طبعت عليها.

في ذلك الصباح الجميل.. وفي حديقة من حدائق باريس تشتهر بأنواع جميلة من الأزهار.. تفوح بكل روائح العطر العذبة.. وتشرق منها جميع ألوان الابتسامة.. رأيته كراهب يجثو أمام زهرة من الزهرات يتأملها، ويغرق في تأمله.

كنت أعلم حبه للغة العربية.. فلذلك اقتربت منه، وأنشدته قول مسعود سماحة:

تمتعْ بأزهارِ هذي الحياةْ فإن حياتكَ بعضُ الزمنْ
وخلِّ النضارَ وجمعَ النضارْ فما زادُ نفسكَ غيرُ الكفنْ

التفت إلي، وقال: صدقت.. ولا فض فوك..

ثم نظر إلى الأزهار، وقال: صدق مسعود سماحة.. لقد عبر خير تعبير عن جمال الحياة التي تختزنها هذه الأزهار.

قلت: أراك غارقا في التأمل فيها.. فهل ترى فيها ما لا نرى؟

قال: ربما ترى فيها أنت ــ ما دمت تتذوق الشعر ــ ما أرى.. ولكن الكثير ممن ترى لا يرى ما نرى.

قلت: أنا لا أرى إلا زهرة تفوح بأريج العطر، وتملأ العين بثغرها الجميل المبتسم.

قال: إن هذه الزهرة التي تراها تختزن جميع القيم الكريمة..

ثم التفت إلى البشر الذين حوله، وقال: لقد كان في إمكان كل فرد من هؤلاء أن يكون كهذه الزهرة.. وكان في إمكان البشر جميعا أن يتحولوا إلى أزهار طيبة تفوح بأعذب ألحان العطر.. وكان في إمكان الأرض أن تصبح بذلك حقلا كبيرا وحديقة عظيمة وجنة من الجنان لا تقل عن جنان الآخرة..

قاطعته قائلا: فما الذي حال بينهم وبين أن يكونوا كذلك؟

قال: الشهوات التي ملأهم بها الشياطين، والأنانية التي جعلتهم يدوسون كل زهرة، ويخنقون كل عطر.

قلت: فأنت يائس إذن من البشر.. سلمت نفسك لعالم الأزهار..

قال: لا.. لست يائسا.. لقد ترك رجل من البشر وطئت قدماه ثرى الأرض ذات يوم بذورا كثيرا لأزهار جميلة ظلت تتفتح في كل العصور.. لعلها في يوم من الأيام تستطيع أن تحول الأرض حديقة غناء..

قلت: تقصد المسيح.. لا شك أنك تقصده.

قال: المسيح ترك بذورا كثيرا لأزهار جميلة.. لكن المجرمين خنقوها في مهدها، لعلهم حافظوا على ألوانها وبعض روائحها، ولكنهم سقوها السم الزعاف، فلا يقترب منها أحد إلا أصابه من سمها.

قلت: فمن هذا الذي بقيت أزهاره سالمة لم تخنق؟

قال: محمد.

قلت: نبي المسلمين.

قال: نبي العالمين.. إنه النبي الوحيد الذي لا تزال بذور أزهاره حية عطرة جذابة يمكنها أن تحول الأرض جميعا حديقة غناء.

قلت: أنت مغرم باللغة والأدب.. وقد قرأت لك ترجمتك لمسرحية (مجنون ليلي) لأحمد شوقي.. فما الذي جعلك تربط بين تعاليم محمد، وبين الأزهار؟.. أو ما هو وجه الشبه بينهما؟

قال: انظر إلى هذه الزهرة الجميلة.. وأخبرني عن سر جمالها.

قلت: أنت تكلفني عنتا.. فالجمال ذوق من الصعب الحديث عن أسراره.

قال: أما أنا.. فقد حاولت أن أجعله علما.. وحاولت أن أبحث عن سر أسراره.

قلت: لم؟

قال: لأبحث عن كيفية تحويل البشر إلى أزهار.. لقد وجدت أثناء بحثي المضني سبعة أسرار.. فلما انتهيت من تحديدها رحت أبحث في الفلسفات وفي الأديان عمن عبقت تلك الأسرار السبعة من تعاليمه، وفي الأجيال التي تربت على تعاليمه، فلم أجد ذلك إلا في دين محمد.

قلت: فما هذه الأسرار السبعة.

قال: العفاف، والكرم، والنبل، والتضحية، والقوة، والأمانة، والصدق.. وقد رأيت من خلال بحثي عن سر الزهرية في الأزهار أنها كلها ترجع إلى العفاف.. أو كلها تنطلق من العفاف.. فالفرد العفيف مأوى لكل فضيلة، والمجتمع العفيف مأوى لكل القيم.

لقد صدق محمد عندما عبر عن ذلك، فقال:« إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[1].. فالحياء الذي أساس العفة.. هو الحاجز بين الإنسان وكل رذيلة، وهو الحامل لكل إنسان على كل فضيلة.

قلت: فهل ترى في هذه الأزهار ما تذكره من هذه الصفات؟

قال: لولا توفر الأزهار على هذه الصفات ما كانت أزهارا..

قلت: فحدثني عنها.

قال: حديثها طويل.. وسأختصره لك اختصارا.. ولكني لن أحدثك عن القيم التي جاء بها محمد حتى أحدثك عن القيم التي نشرها شياطين الرذيلة في مجتمعاتنا.. فلا يظهر جمال النور إلا في الظلمة.

---

(١) البخاري وغيره.

١ ــ قيم الجاهلية

نظر إلى الأزهار بحزن، ثم قال: لقد خلق الله البشر مثل هذه الأزهار براءة وعذوبة وجمالا.. لقد كان عبير البشر الأزهار يسيح في الأرض، فيملأها بالجمال..

لكن المجرمين الذين استسلموا لأهوائهم راحوا يحولون من تلك الأزهار الجميلة أشواكا وسموما.. فصارت الأرض التي كانت جنة سجنا.. وصارت الأرض التي كانت مأوى الطيبة والعفاف ماخورا للخبث والرذيلة..

لقد صارت كما ذكر القرآن في (جاهلية)..

قلت: نعم.. لقد وصف القرآن قوم محمد بأهم كانوا يعيشون جاهلية.

قال: كما وصف غيرهم بأهم في جاهلية.. فالجاهلية في المفهوم القرآني لا تعني فترة زمنية.. ولا محلا مكانيا.. بل تعني قيما منحطة، ونظما جائرة، وأخلاقا منحرفة، وفكرا شيطانيا..

إن الجاهلية في المفهوم القرآني هي الكلمة البديلة عن كل ذلك..

لقد ذكر القرآن جاهلية التصور، فقال:﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (آل عمران: من الآية١٥٤)

وذكر جاهلية الحكم، فقال:﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة:٥٠)

وذكر جاهلية التبرج، فقال:﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ (الأحزاب: من الآية٣٣)

وذكر جاهلية العصبية والقومية والوطنية، فقال:﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (الفتح: من الآية٢٦)

قلت: ولكن الجاهلية مشتقة من الجهل.. والجهل لا يعني إلا تخلف العلم.

قال: أعظم الجاهليات هي الجاهليات التي تحول من العلم حمارا تركبه لتنفذ به مآربها الخسيسة.. لا تحول العلم فقط.. بل تحول كل مسؤولية تناط بها.

وقد كان قومنا من هؤلاء..

أما رجال ديننا، فحولوا من الكتاب المقدس شبكة يصطادون بها أموال الناس وأعراضهم..

وأما رجال دنيانا، فحولوا من السلطات التي خولت لهم وسيلة لجر رعاياهم إلى مستنقعات الشياطين، لأنه لا يستقيم لهم الأمر إلا إذا عبدت رعيتهم الشياطين.

قلت: أراك متحاملا على رجال الدين ورجال الدنيا!؟

قال: لست متحاملا.. ولكنها الحقيقة التي عرفتها بعد كل تلك السنين..

لقد عرفت أن القيم النبيلة لم تكن في يوم من الأيام إلا في الإسلام.. وأنها لن تكون في يوم من الأيام إلا بالإسلام..

الإسلام وحده هو الإكسير الذي يقضي على كل سموم الجاهلية.

المسيحية

نظر إلي، ثم قال: قد تتهمني بالحياد.. وتخطئ في ذلك.. لأني لم أكن في يوم من الأيام مسلما، ولكني أحدثك عن جهود وبحوث امتدت بي إلى ما تراه من عمر.

لقد بدأت بالمسيحية.. بحكم كوني من أسرة مسيحية.. وأعجبت بالرهبان الذين مثلوا العفاف والمروءة والنبل ـــ في نظري في ذلك الوقت ـــ في أرقى درجاتها.. ولكني بعد ذلك عرفت أن سلوك الرهبان لم يزد الفجور إلا انتشارا، ولا الانحراف إلا رسوخا.

قلت: كيف ذلك؟

قال: حديث ذلك يطول.. فالجاهلية التي تغلغلت في جميع مناحي الحياة من الصعب جمع جميع تفاصيلها.. ولذلك سأحدثك عن بذرة خطيرة من بذور الجاهلية، وهي في نفس الوقت ثمرة من أخطر ثمارها.

لقد اعتبرها الإسلام حماية الفرد والمجتمع منها مقصدا من مقاصده، بل من ضروريات مقاصده.

قلت: تقصد حفظ العرض والنسل.

قال: أجل.. لقد قال محمد يبين خطورة هذا النوع من الانحراف:« من وقاه الله شر ما بين لحييه، وشر ما بين رجليه دخل الجنة »[1]

وقد وضع الإسلام لأجل وقاية المجتمع لأجل تحقيق هذا المقصد منظومة كاملة من التشريعات.. لا يزال قومنا يسخرون منها ويضحكون مع أنه لا يمكن للبشر أن يتحولوا إلى أزهار من دونها.

قلت: لقد كنت تحدثني عن الرهبان..

قال: أجل.. لقد أراد الرهبان أن يصادموا الفطرة بموقفهم من المرأة، فصدمتهم.

لقد كان الرهبان..حسب ما استنتجت بعد ذلك سببا من أسباب الرذائل التي تعيشها مجتمعاتنا.

لقد كانوا ينشرون إيحاء عاما في المجتمع بأن المرأة مخلوق شيطاني دنس ينبغي الابتعاد عنه.. وكانوا يرون أن الزواج ضرورة غريزية حيوانية للعامة، ولكن السعيد الأتقى من استطاع أن يرتفع عنها ولا يتزوج[2].

لقد قال أحد رجال الكنيسة لتلاميذه مرة:« إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائناً بشرياً، بل ولا كائنا وحشياً، وإنما الذى ترون هو الشيطان بذاته والذى تسمعون هو صفير الثعبان »[3]

وقد عبرت (رأى ستراتشى) إحدى المطالبات بحقوق المرأة فيما بين الحربين، عن موقف الرهبانية، فقالت:« يستفاد من النظرية التى أوصت بهذا التطاول عن المرأة أن الشهوة الجنسية هى أشنع الخطايا جميعاً، وأنها كانت فى الحقيقة الخطيئة التى سببت سقوط الإنسان، وإن العفة الكاملة هى أعلى مثل فى الحياة وأنه يجب

---

(١) رواه الترمذي والحاكم وابن حبان.

(٢) انظر: جاهلية القرن العشرين، لمحمد قطب.

(٣) أشعة خاصة بنور الإسلام: ٢٩.

أن يلعن النساء لأنهن سبب الغواية، وكان يقال أن الشيطان مولع بالظهور فى شكل أنثى وأنه طالما زار النساك بهذه الصورة فى كهوفهم الجبلية وصفوة القول أن مجرد التفكير فى النساء كان خطراً وأن المرأة نفسها كان نحساً من النحوس »[1]

ومضت الأمور على ذلك حيناً طويلا: مباذل شنيعة بشعة فى الإمبراطورية الرومانية على اتساعها، ورهبانية واسعة الآفاق على حدود الصحارى، وفى داخل المدن، فراراً من الفساد.

لقد ذكر (ليكى) فى كتابه (تاريخ الأخلاق فى أوروبا) تأثير سلوك الرهبان السلبي في انتشار الرذائل، فقال:« كانت الدنيا فى ذلك الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوى والفجور الأقصى، وإن المدن التى ظهر فيها أكبر الزهاد كانت أسبق المدن فى الخلاعة والفجور، وقد اجتمع فى هذا العصر الفجور والوهم اللذان هما عدوان لشرف الإنسان وكرامته »[2]

ويصور الكاتب النفور من المرأة وما يرتبط بها من علاقات فى ظل الرهبانية، فيقول:« وكانوا يفرون من ظل النساء، ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهن فى الطريق والتحدث إليهن، ولو كن أمهات أو أزواجاً وشقيقات تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية »

وقال ترتوليان Tertulian، وهو أحد أقطاب المسيحية الأول وأئمتها، مبينا نظرية المسيحية فى المرأة:« إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان، وإنها دافعة بالمرء إلى الشجرة الممنوعة، ناقضة لقانون الله. ومشوهة لصورة الله ـــ أى الرجل ـــ »

وقال كرائى سوستام Chry Sostem الذى يعد من كبار أولياء الديانة المسيحية فى شأن المرأة:« هى شر لابد منه، ووسوسة جبلية، وآفة مرغوب فيها، وخطر على الأسرة والبيت، ومحبوبة فتاكة، ورزء مطلى مموه »

لقد كانت هذه أقوالهم.. ولكن أفعالهم لم تكن كأقوالهم..

فالتاريخ يشهد في جميع فتراته على الفضائح الكثيرة التي كانت تنتشر داخل دور العبادة وبين الرهبان والراهبات.. ولا تزال مثل هذه الفضائح تنشرها الجرائد كل حين..

وكمثال بسيط على ذلك أني كنت قبل أيام كنت أقرأ جريدة نقلت عن وكالات الأنباء خبرا تحت عنوان «الفاتيكان يعترف باغتصاب راهبات من قبل قساوسة »

وقد نص الخبر على أن الفاتيكان « اعترف بصحة تقارير صحفية تحدثت عن انتهاكات أخلاقية في صفوف الكنيسة، وقالت إن قساوسة ورجال دين كبارا أرغموا راهبات على ممارسة الجنس معهم، وتعرضت بعض الراهبات للاغتصاب وأجبرت أخريات على الإجهاض.

وقال الفاتيكان في بيان له إن القضية محدودة ومتعلقة بمنطقة جغرافية محددة، لكنه لم يشر إلى هذه المنطقة

---

(١) تاريخ العالم: ٢٩٧/١.

(٢) عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبى الحسن الندوى.

الجغرافية، وكانت التقارير أكدت أن هذه الانتهاكات موجودة في ٢٣ بلدا من بينها الولايات المتحدة الأميركية والبرازيل والفلبين والهند وإيرلندا وإيطاليا نفسها.

وأكد البيان أن الكرسي البابوي يتعامل مع القضية بالتعاون مع الأساقفة، والمؤسسات الدينية الكاثولكية الأخرى لمعالجة الموضوع.

وأدانت وكالة الأنباء التبشيرية ما أسمته مفاسد المبشرين لكنها في الوقت نفسه دعت إلى تذكر أن هؤلاء القساوسة ورجال الدين يظلون بشرا.

لكن المتحدث الرسمي باسم المؤتمر الأميركي للأساقفة الكاثوليك قال: إن أقل ما يمكن قوله عن هذا التقرير هو أنه مروع ومزعج، لكنه أوضح أنه لا علم له بمثل هذه الانتهاكات في الولايات المتحدة.

وقال تقرير نقلته صحيفة لا ريبيليكا الإيطالية: إن بعض الراهبات أجبرن على أخذ حبوب منع الحمل.

وأشار إلى أن معظم حالات الاعتداء الجنسي على الراهبات حدثت في أفريقيا حيث تعرف الراهبات على أنهن آمنات من الإصابة بفيروس الإيدز المنتشر في القارة السمراء.

وكانت الاتهامات قد ظهرت للمرة الأولى في التقرير الكاثوليكي القومي الأسبوعي في مدينة كانساس في ١٦ مارس/ آذار ونقلته وكالة أنباء أديستا ـــوهي وكالة إيطالية دينية صغيرةـــ مما أدى إلى وصوله لأجهزة الإعلام العامة.

وقد أعدت التقرير الذي تحدث عن حالات محددة بالأسماء وحالات تورط أصحابها راهبة وطبيبة تدعى ماورا أودونوهو، وقدمت الراهبة تقريرها إلى رئيس مجمع الفاتيكان للأوامر الدينية الكاردينال مارتيتز سومالو في فبراير/ شباط عام ١٩٩٥.

وقد أمر الكاردينال آنذاك بإنشاء فريق عمل من المجمع لدراسة المشكلة مع أودونوهو والتي كانت تعمل منسقة الإيدز في منظمة (كافود) وهي منظمة دينية تابعة لطائفة الروم الكاثوليك تتخذ من لندن مقرا لها.

وأشارت أودونوهو إلى أدلة واضحة على اتهاماتها، وقالت إنه في إحدى الحالات أجبر قسيس راهبة على الإجهاض مما أدى إلى موتها، ثم قام بنفسه بعمل قداس لها.

وبشأن أفريقيا قال تقريرها: إن الراهبات لا يستطعن هناك رفض أوامر القساوسة بهذا الشأن، وأكدت أن عددا من القساوسة هناك مارسوا الجنس مع الراهبات خوفا من إصابتهم بالإيدز إذا مارسوه مع العاهرات، وترغم الراهبات على تناول حبوب لمنع الحمل، لكنها قالت إن مؤسسة دينية اكتشفت وجود ٢. حالة حمل دفعة واحدة بين راهباتها العاملات هناك.

وأشار التقرير إلى أن الأسقف المحلي لإحدى المناطق طرد رئيسة دير عندما اشتكت له من أن ٢٩ راهبة من راهبات الدير حبالى بعد أن أرغمن على ممارسة الجنس مع القساوسة[1].

---

(١) المصدر: رويترز - أسوشيتد برس ـــ الأربعاء ١٤٢١/١٢/٢٦هـــ الموافق ٢٠٠١/٣/٢١م، (توقيت النشر) الساعة: ٥:٣٨(مكة المكرمة)،٢:٣٨(غرينيتش)

بل الأمر الأخطر من ذلك هو تفشي الشذوذ الجنسي في هذه الكنائس، ففي بعض الأخبار ـــ وهي قليل من كثير ـــ أن نحوا من ثلاثة آلاف من القساوسة ووجهوا باتهامات التحرش الجنسي بالأطفال. وقد وجهت انتقادات شديدة للكاردينال لو لعدم معاقبة القس السابق في بوسطن، جون جيوجان، الذي يعتقد بأنه تحرش بنحو مائة شخص خلال عشرين عاما، بل اكتفى بنقله إلى أبرشية أخرى.

وقد كلفت هذه الفضائح الكنيسة مبالغ طائلة وصلت إلى مليار دولار حيث اضطرت لعقد تسوية خارج المحكمة في عدد من القضايا. وذكر أن عدد من الأبرشيات قد أفلست تمام بسبب الفضائح[1].

وفي خبر آخر:« صوت أساقفة الكنيسة الكاثوليكية في الولايات المتحدة على العمل بقواعد جديدة تهدف إلى التخلص من الاعتداءات الجنسية من قبل الكهنة على الأطفال.

جاء التصويت في مؤتمر قمة لبحث الأزمة في مدينة دلاس بولاية تكساس الأمريكية. وكان الهدف من الدعوة إلى عقد المؤتمر إعادة الثقة في الكنيسة.

وتنص القواعد الجديدة على أن الكاهن الذي يعتدي جنسيا على طفل يمنع من الالتقاء بالناس ولكن يبقى في الخدمة الكنسية.

ولكن عددا من ضحايا الاعتداءات يقولون: إن الخطة الجديدة لم تذهب إلى الحد المطلوب.

وناشد رئيس المؤتمر الأسقف ويلتون غريغوري الضحايا أن يغفروا لرجال الكنيسة المعتدين، وقد هزت الازمة الكنيسة الكاثوليكية الأمريكية من أساسها.

ووقف الأساقفة مصفقين بعد أن تم التصويت على القواعد الجديدة بنسبة ٢٣٩ مقابل ١٣.

وقال الأسقف غريغوري:« من اليوم فصاعدا لن يسمح لأحد يعرف أنه اعتدى جنسيا على طفل أن يعمل في الكنيسة الكاثوليكية في الولايات المتحدة »

وتنص الخطة الجديدة على أن رجال الدين الذين اعتدوا على أطفال لن يسمح لهم بالقيام بأي نشاط داخل الكنيسة، سواء بإقامة القداسات او بالتعليم. ولكن يمكن أيضا تجريدهم من الرتبة الكنسية بقرار من الأساقفة بنصيحة من مجلس استشاري مؤلف من الناس العاديين.

وكان يتوقع أن يتخذ الأساقفة سياسة « عدم تسامح كامل » مع أي انتهاكات بحيث أن رجل الدين الذي يثبت اعتداؤه على طفل أن يجرد من رتبته الكنسية على الفور. ولكن المؤتمر لم يقر ذلك.

وغضب بعض الضحايا من النتائج التي توصل إليها المؤتمر، وقال مارك سيرانو، وهو من الضحايا:« إن ذلك يشبه أن نقول لقاتل في الطريق: إننا سنرسلك إلى الريف»، وقال:« إن المعتدين من رجال الدين سيجدون الأطفال الذين يعتدون عليهم »

وعند بداية المؤتمر، اعترف الأسقف غريغوري بصراحة بالألم الذي تسببت به الكنيسة وأعرب عن الندم لوقوع الفضيحة، وقال:« باسمي وباسم جميع الأساقفة، أعبر عن الاعتذار العميق لكل واحد منكم ممن عانوا

---

(٢) نقلاً عن موقع بي بي سى باللغة العربية.BBCARABIC.COM

من الاعتداءات الجنسية على يد كاهن أو أي مسؤول آخر في الكنيسة »
وبعد ذلك استمع الوفود إلى أربعة ضحايا لاعتداءات الكهنة يروون قصصهم، وقالت بولا روورباشر إن كاهنا اعتدى عليها بعد أن صادقته أسرتها، وقالت:« إن هذه الجريمة خلفت آثارا عميقة في روحي »

وقال كريغ مارتن انه جاء إلى المؤتمر لكسر حاجز الصمت ولكسر الألم الذي كان يقتله.

ووقف حوالي ٥. شخصا خارج مبنى المؤتمر يرفعون رايات تدعو الأساقفة إلى التعاطف مع ضحايا الاعتداءات الجنسية على أيدي الكهنة[1].

نظر إلي، وقال: لا تستغرب.. فمن يقرأ ما في الكتاب المقدس من نصوص تكاد تصور الرذيلة للعين، بل تكاد تجعلها شيئا مقدسا لا يستغرب أن يحصل كل ذلك.

ففي الكتاب المقدس نصوص كثيرة تبيح الرذيلة، بل تكاد تقدسها[2].

فـ (البغاء) من الوظائف المحترمة في الكتاب المقدس، والبغيُّ شخصية مقبولة فيه، وإن كانت مُحتقَرة في المجتمع العبراني القديم، ففي سفر التكوين (١٤/٣٨ ــ ١٩) ذكر أن يهودا عاشر عاهرةً نظير أجر، ولا يوجد في السياق ما يدل على أن هذا أمر مرفوض أخلاقياً، وقد اتضح فيما بعد أن العاهرة هي تامار زوجة ابنه الذي مات، وقد أنجبت من والد زوجها طفلين.

ويذكر سفر يشوع قصة العاهرة راحاب التي ساعدت العبرانيين على دخول أريحا (يشوع ٢/١ ــ حتى نهاية السفر)، وترد في سفر الملوك الأول ٣/١٦) ــ ٢٧) قصة سليمان مع الأُمَّين اللتين تنازعتا طفلاً، وهما في القصة عاهرتان.

وتوجد في سفر القضاة (١/١٦) إشارة إلى زيارة شمشون لعاهرة في غزة.

ليس ذلك فقط.. بل إن إبراهيم ذلك النبي الذي اجتمعت الأمم على فضله يتحول في الكتاب المقدس إلى بائع لعرضه.. ففي العهد القديم إشارة صريحة إلى أن إبراهيم قد استفاد مالياً من العلاقة الجنسية لزوجته بفرعون مصر.

وإستير البطلة اليهودية التي يوجد في الكتاب المقدس سفر مسمَّى باسمها هي الأخرى عاهرة.

والإشارات والقصص في الكتاب المقدس كلها تدل على أن مهنة البغاء مهنة طبيعية، قد تكون وضيعة ولكنها، مع هذا، جزء من البناء الاجتماعي والأخلاقي.

وقد ورد في العهد القديم فقرات لا تُحرِّم البغاء في حد ذاته، وإنما تُحرِّم على العبرانيين أن يدعوا بناتهم يعملن بهذه المهنة: « لا تدنس ابنتك بتعريضها للزنى لئلا تزني الأرض وتمتلئ الأرض رذيلة » (لاويين ٢٩/١٩)

وهناك فقرات تُحرِّم على الكهنة الزواج من عاهرات: «امرأة زانية أو مدنَّسة لا يأخذ ولا يأخذوا امرأة مطلقة من زوجها » (لاويين ٧/٢١). وهي تحريمات ليست عامة أو مطلقة وإنما مقصورة على أفراد معيَّنين

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر الأمثلة الكثيرة من الكتاب المقدس الدالة على ذلك في (الكلمات المقدسة)، فصل(الأدب)

وتحت ظروف معيَّنة. ولذا، فإننا نجد إشارات عديدة في العهد القديم إلى عاهرات يقمن بوظيفتهن بشكل شبه عادي (أمثال ١/٧٠ ـــ ٢٣، أشعياء ١٦/٢٣، ملوك ٣٨/٢٢)[١]

طأطأت رأسي خجلا، فقال: ليت الأمر اقتصر على هذا.

قلت: أهناك ما هو أخطر من هذا؟

قال: أجل.. لقد تحولت الكنائس التي يأوي إليها الشاردون الذين غلبتهم شهواتهم لتملأهم بالعفاف محال لا تكتفي بالسكوت على الرذائل فقط.. بل تيسر الطريق إليها..

سأذكر لك شهادة رجل مسلم عاش في أمريكا مدة، واختلط ببعض كنائسها، وقد وصف بدقة ما رآه..[٢]

لقد قال يقدم لتلك الشهادة: إن كثيرين ممن لم يعيشوا بعض الوقت فى أوروبا أو أمريكا ـــ أو ممن عاشوا هناك ولكنهم لم يتعمقوا وراء الظواهر ـــ كثيراً ما تخدعهم كثرة الكنائس وانتشارها ـــ وبخاصة فى الولايات المتحدة ـــ حيث تقوم فى البلد الصغير الذى لا يتجاوز تعداده عشرة آلاف نسمة أكثر من عشرين كنيسة أحياناً.. وكثيراً ما تخدعهم كثرة مظاهر الاحتفالات الدينية والمراسم والأعياد الدينية.. وكثيراً ما تخدعهم كثرة الأحزاب التى تحمل أسماء (المسيحية).. ثم كثيراً ما يخدعهم ما يكتبه ويذيعه رجال الدين من كتب ومقالات وبحوث وإذاعات فى موضوعات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية البحتة أحياناً..

كثيراً ما يخدعهم هذا كله فيحسبون أن للدين شأناً فى أوروبا وأمريكا، وأن لرجال الدين أثراً فى الحياة الاجتماعية هناك.. وهذه نظرة سطحية لا تدرك حقيقة ما هو واقع هناك.

إن الكنيسة ـــ بعد أن ذاقت مرارة الإهمال، ووحشة البعد عن الحياة الاجتماعية، بعد شرود الناس منها منذ عصر النهضة، وخاصة منذ عصر التنوير، ثم عصر الفلسفة الوضعية المادية ـــ قد عادت تلهث وراء المجتمع، وتتعلق بأهداب الناس. لا لتقود المجتمع ولا لتنقل الناس إلى الدين. ولكن لتجرى وراء المجتمع، ولتتملق شهوات الناس!

عادت لتقيم فى الكنائس ـــ بعد القداس ـــ حفلات مختلطة للجنسين يشرب فيها النبيذ، وتدور حلقات الرقص، وتعرض فيها ألعاب التسلية، ويتخاصر فيها الفتيان والفتيات المخمورين، ويلتذون نشوة المخاصرة والعناق حتى الفجر.. كل أولئك لاجتذاب الشبان والشواب إلى الكنيسة!

لقد جربت الكنيسة حين وقفت ـــ بالباطل ـــ فى وجه ميول الناس الفطرية، كيف خرجوا عليها وداسوها وأهملوها، فعادت الآن تتجنب أن تقف ـــ بالحق ـــ فى وجه شهواتهم ونزواتهم، فيدوسوا عليها ويهملوها!

---

(١) انظر: الموسوعة اليهودية لعبد الوهاب المسيري.

(٢) هو سيد قطب، وقد ذكر ذلك في كتابيه: الإسلام ومشكلات الحضارة، وأمريكا التي رأيت.

لقد عادت أوروبا إلى حياة الرومان القديمة التى تسمح للآلهة والأرباب أن تنطق بالرجز على ألسنة الكهان، وأن تكون مواسمها مواسم بهجة ولذة ومتاع.. وذلك دون أن يسمحوا لها بالتدخل فى شئون حياقم أو توجيهها وجهة تنافى اللذة والمتاع.

بعد هذه المقدمة ذكر بعض مشاهداته في كنائس أمريكا، فقال:« إذا كانت الكنيسة مكاناً للعبادة فى العالم النصرانى ــ على تفاوت ــ فإنها فى أمريكا مكان لكل شىء إلا للعبادة، وإنه ليصعب عليك أن تفرق بينها وبين أى مكان آخر معد للهو والتسلية، أو ما يسمونه بلغتهم good (fun) time ومعظم قصادها إنما يعدونها تقليداً اجتماعياً وضرورياً، ومكاناً للقاء والأنس، ولتمضية (وقت طيب) وليس هذا شعور الجمهور وحده، ولكنه كذلك شعور سدنة الكنيسة ورعايتها.

ولمعظم الكنائس ناد يتألف من الجنسين ــ شباناً وشواب ــ ويجتهد راعى كل كنيسة أن يلحق بالكنيسة أكبر عدد ممكن، وبخاصة أن هناك تنافساً كبيراً بين الكنائس المختلفة بالمذاهب والنحل.

ولهذا تتسابق جميعاً فى الإعلان عن نفسها بالنشرات المكتوبة، وبالأنوار الملونة على الأبواب والجدران، للفت الأنظار، وبتقديم البرامج اللذيذة المشوقة، لجلب الجماهير، بنفس الطريقة التى تتبعها المتاجر، ودور العرض السينمائى والتمثيل.. وليس هناك من بأس فى استخدام أجمل فتيات المدينة وأرشقهن وأبرعهن فى الغناء والرقص والترويح.. تماماً كما تقف فتيات فى ثياب شديدة اللمعان والإثارة فى مداخل وطرقات دور السينما لجذب الأنظار..

وهذه ــ مثلاًــ محتويات إعلان عن حفلة كنيسة، كانت ملصقة فى قاعة اجتماع الطلبة فى إحدى الكليات،لجذب طلبة الكلية وطالباتها إلى كنيسة معينة فى المدينة الجامعية الصغيرة: (يوم الأحد ــ أول أكتوبر سنة ١٩٥٠ــ فى الساعة السادسة مساء.. عشاء خفيف. ألعاب سحرية. ألغاز. مسابقات. تسلية. رقص)

وليس فى هذا أى غرابة. لأن راعى الكنيسة لا يحس أن عمله يختلف فى شئ عن مدير المسرح، أو المدير المتجر.. النجاح أولاً وقبل كل شئ.. ولا تهم الوسيلة.. وهذا النجاح يعود عليه بنتائجه الطيبة: المال، والجاه، فكلما كثر عدد الملتحقين بكنيسته عظم دخله وزاد كذلك احترامه ونفوذه فى البلدة. لأن الأمريكى بطبيعته يؤخذ بالضخامة فى الحجم والعدد. وهى مقياسه الأول فى الشعور والتقدير »

وقد حدث هذا الرجل المسلم عن نفسه، فقال:« كنت ليلة فى إحدى الكنائس ببلدة(جريلى) بولاية(كولورادو) فقد كنت عضواً فى ناديها، كما كنت عضواً فى عدة نواد كنيسة فى كل جهة عشت فيها ما بين واشنطن فى الشرق وكاليفورنيا فى الغرب. إذ كانت هذه ناحية هامة من نواحى المجتمع، تستحق الدراسة عن كثب، ومن (الباطن) لا من (الظاهر)، وكنت معنياً بدراسة المجتمع الأمريكى..

وبعد أن انتهت (الخدمة الدينية) فى الكنيسة، واشترك فى التراتيل فتية وفتيات من الأعضاء من الأعضاء، وأدى الآخرون الصلاة.. دلفنا من باب جانبى إلى ساحة الرقص الملاصقة لقاعة (الصلاة).. يصل بينهما باب.. وصعد (الأب) إلى مكتبه، وأخذ كل فتى بيد فتاة، وبينهم وبينهن أولئك الذين واللواتى، كانوا وكن يقومون بالترتيل ويقمن.

وكانت ساحة الرقص مضاءة بالأنوار الحمراء والأضواء الزرقاء، وقليل من المصابيح البيضاء.. وكان الجو كله غراماً.. حين هبط الأب من مكتبه، وألقى نظرة فاحصة على المكان ومن فى المكان، وشجع الجالسين والجالسات ممن لم يشتركوا فى الحلبة، على أن ينهضوا فيشاركوا.. وكأنما لحظ أن المصابيح البيضاء تزيد نسبتها فتفسد ذلك الجو الحالم، فراح فى رشاقة الأمريكانى وخفته، يطفئها واحداً واحداً، وهو يتحاشى أن يعطل حركة الرقص، أو يصدم زوجاً من الراقصين، فى الساحة.

وبدا المكان بالفعل أكثر (رومانسية)، ثم تقدم إلى (الجرامفون) ليختار أسطوانة للرقص، تناسب ذلك الجو، وتشجع القاعدين والقاعدات على المشاركة فيه.

واختار أغنية أمريكية مشهورة اسمها But, baby it is cold (outside) (ولكن الجو — يا صغيرتى — بارد فى الخارج)..

وهى تتضمن حواراً بين فتى وفتاة عائدين من سهرتهما. وقد احتجزها الفتى فى داره، وهى تدعوه أن يدعها تمضى لتعود إلى دارها، فقد تأخر الليل، وأمها تنتظرها، وكلما تذرعت بحجة أجابها بتلك (اللازمة)

وانتظر الأب، حتى رأى خطوات (بناته وبنيه) تناسب على موسيقى تلك الأغنية المثيرة. وبدا راضياً مغتبطاً. وغادر ساحة الرقص إلى داره، تاركاً لهم ولهن إتمام هذه السهرة اللذيذة.. البريئة.. على أن يسلم مفتاح الكنيسة فى داره آخر (زوج) ينصرف من الكنيسة. فالانصراف يكون تباعاً حسب مزاج كل زوج.

(وأب) آخر يتحدث إلى صاحب لنا عراقى من الطلبة، توثقت بينه وبينه عرى الصداقة، فيسأله عن (مارى) — زميلته بالكلية — لم لا تحضر إلى الكنسية الآن؟ ويبدى أنه لا يعنيه أن تغيب فتيات الكنيسة جميعاً وتحضر (مارى)، وحين يسأله الشاب عن سر هذه اللهفة، يجيب (الأب).. إنها جذابة. وإن معظم الشبان إنما يحضرون وراءها!

ويحدثنى شاب من شياطين الشباب العرب العراقيين الذين كانوا يدرسون فى أمريكا.. وكنا نطلق عليه اسم (أبو العتاهية) أن (صديقته) كانت تنتزع نفسها من بين أحضانه أحياناً، لأنها ذاهبة للترتيل فى الكنيسة.. وكانت إذا تأخرت لم تنج من إشارات (الأب) وتلميحاته، إلى جريرة (أبى العاهية) فى احتجازها عن حضور الصلاة!.. هذا إذا جاءت من غيره.. فأما إذا استطاعت أن تجره وراءها، فلا لوم ولا تثريب.

ويقول لك هؤلاء (الآباء): إننا لا نستطيع أن نجتذب هذا الشباب إلا بهذه الوسائل. ولكن أحداً منهم لا يسأل نفسه: وما قيمة اجتذابهم إلى الكنيسة.. وهم يخوضون إليها مثل هذا الوحل، ويقضون ساعاتهم فيه؟ أهو الذهاب إلى الكنيسة هدف فى ذاته؟ أم إثارة التهذيبية فى الشعور والسلوك؟ من وجهة نظر (الآباء) مجرد الذهاب إلى الكنيسة هو الهدف، وهو وضع لمن يعيش فى أمريكا مفهوم[1].

قلت: علمت ما حصل للعفة.. فما حصل لغيرها؟

قال: لقد ذكرت لك أن العفاف هو الأساس الذي تقوم عليه القيم.. فمن ذهب العفاف عنه تملكته

---

(١) من كتاب (أمريكا التي رأيت) لسيد قطب.

الشياطين، و لم يدر في أي واد من أوديتها يهلك.

ولهذا كان محمد يحذر من الوقوع في الفواحش.. وكان يقول:« إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعلمون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فان أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء »[1]

---

(١) رواه مسلم.

اليهودية

التفت إلي، فرآني صامتا لا أجد كلمة أستطيع أن أرد بها على ما ذكره من فضائح الكنيسة.. فقال: ذلك عندنا.. معشر أتباع المسيح.. أو معشر عبدة المسيح..

أما عند اليهود.. فالأمر لا يختلف كثيرا.. ولا يستغرب ذلك من دين يمتلئ كتابه المقدس بكل تلك الرذائل الخلقية.

ولهذا كان من أهم الوظائف التي مارسها اليهود في المجتمعات التي حلوا فيها في جميع فترات التاريخ تجارة الرقيق الأبيض[1].

ففي الفترة بين عامي ١٨٨٠و١٩٣٠ عمل عدد كبير من اليهود في تجارة الرقيق الأبيض قوادين وعاهرات، وأصبحت منطقة الاستيطان في روسيا، خصوصاً جاليشيا، أهم مصدر للعاهرات في العالم بأسره، وامتدت شبكة الرقيق الأبيض اليهودية من شرق أوربا إلى وسطها وغربها، ومنها إلى الشرق، فكانت هناك مراكز في جنوب أفريقيا ومصر والهند وسنغافورة والصين.

وقد أصبح البغاء جزءاً من حياة قطاعات بعض يهود اليديشية في شرق أوربا حتى صار عملاً محايداً ــ مجرد نشاط اقتصادي ومصدر للرزق ــ وتحولت قطاعات من الجماعات اليهودية إلى جماعات وظيفية تعمل بالبغاء.

وقد أشار أحد الأطباء اليهود من غرب أوربا إلى أن كثيراً من أمهات البغايا كن ينظرن إلى البغاء باعتباره مصدراً مشروعاً للرزق.

ومسرحية الانتقام للكاتب اليديشي شولم آش توضح هذه الصورة، فبطل المسرحية يدير ماخوراً للدعارة في الدور الأرضي من مترله، ولكنه يصر على أن هذا لا علاقة له بالقيم الأخلاقية التي تسود بين أعضاء أسرته، وبغتة تفر ابنته من المترل وتعمل بالدعارة في ماخور آخر، وحين تعود نادمة على فعلتها، يرفضها أبوها ويرسلها إلى الدور الأرضي لتعمل فيه مع بقية البغايا.

وقد أصبحت البغيّ اليهودية شخصية معروفة في كثير من عواصم أوربا وإلى جوارها القواد اليهودي الذي لم يكن يكتفي بطبيعة الحال بتجنيد البغايا اليهوديات، وإنما كان يتاجر بفتيات من كل قطاعات المجتمع.

وقد أصبح القفطان (زي يهود اليديشية) رمز تجارة الرقيق الأبيض، كما أصبحت اليديشية لغة هذه التجارة، وقد زاد عدد البغايا اليهوديات بشكل واضح في النمسا حيث زاد عدد اليهود في فيينا من بضعة آلاف في منتصف القرن التاسع عشر إلى مائة وخمسين ألفاً مع نهايته، وحيث زادت معدلات العلمنة بشكل واضح وتفشت قيم اللذة.

---

(١) انظر هذه المعلومات والإحصاءات في (الموسوعة اليهودية) للمسيري، وهي من أوثق المراجع في التاريخ اليهودي والفلسفة اليهودية، جزى الله مؤلفها خير الجزاء.

وقد ذهب هتلر إلى فيينا، ولاحَظ الوجود اليهودي في هذه التجارة المشينة، وسجل ملاحظته في كتابه (كفاحي)، كما شهدت ألمانيا نفسها نشاط البغايا والقوادين اليهود بشكل مكثف إذ أنها كانت المعبر بين جاليشيا وبقية العالم.

وقد كانت الأرجنتين تُعَدُّ أهم مراكز البغاء اليهودي في العالم، وتوجد هناك، حتى الآن، دار للمسنين تضم البغايا اليهوديات المسنات.

وقد بلغ تجار الرقيق الأبيض اليهود درجة من القوة مكنتهم من التحكم في المسرح اليديشي، وفي جوانب أخرى كثيرة من حياة الجماعة اليهودية، ويرجع هذا إلى وجود قطاع اقتصادي لا بأس به، من بقالين وأصحاب عقارات وخياطين وغيرهم، مرتبط بهؤلاء التجار، ولذا فقد كونوا جماعة ضغط.

أما في إسرائيل (فلسطين المحتلة)، فيُلاحَظ زيادة البغاء بشكل واضح حتى بين طالبات المدارس والفتيات القاصرات.

بل إن إسرائيل تُصدِّر العاهرات إلى دول العالم الغربي، ففي فرانكفورت، يُلاحَظ وجود عدد كبير من العاهرات الإسرائيليات. وفي أمستردام، تزايد عدد القوادين الإسرائيليين، حتى أن لغة الدعارة هناك أصبحت العبرية أو رطانة عبرية. وهناك، في إسرائيل، اتجاه لإصدار قانون يبيح البغاء، وبحسب مشروع القانون المذكور، يُسمَح للمرأة الوحيدة (أي غير المتزوجة) بممارسة البغاء في بيت أو فندق أو سيارة أو قارب، كما يُسمَح لها بنشر (الإعلانات المعقولة)، وعلى كلٍّ، فإن الصحافة الإسرائيلية زاخرة بمثل هذه الإعلانات (المعقولة) حتى قبل صدور القانون[1].

نظر إلى الأزهار الجاثية أمامه بألم، ثم قال: ليت الأمر اقتصر على البغاء المجرد.. لقد حاول هؤلاء الذين لم ينالوا من أنبيائهم غير اللعنات أن يجعلوا الأرض جميعا ماخورا من مواخير الرذيلة.

لقد نقلوا فن الرذيلة إلى الجامعات والمدارس.. بل إلى المستشفيات والعيادات النفسية.. ليجعلوا الإنسان كائنا جنسيا لا هم له إلا إرواء شهواته.. وبأي السبل؟

قلت: أراك تلمح إلى فرويد!؟

قال: فرويد وغيره من الذين أرادو أن يمسحوا كل براءة لا زالت تطبع وجه البشرية.

قلت: ولكن ما علاقة فرويد وأوليائه باليهود؟

ابتسم، وقال: لم يكن فرويد إلا ثمرة من الثمار اليانعة التي أثمرتها شجرة اليهودية الملقحة ببراعم الوثنية.

قلت: نعم.. فرويد نبت بين اليهود.. ولكنه ليس واحدا منهم.. ولا ينبغي أن نتهم دينا من الأديان لانحراف فرد من أفراده.. وإلا لم يبق دين في الأرض.. بما فيها الإسلام.

قال: لقد كنت أقول قولك هذا إلى أن بان لي وجه الحق الذي حاول البعض ستره.

---

(١) انظر: الموسوعة اليهودية لعبد الوهاب المسيري.

قلت: فما بان لك[1]؟

قال: لقد قرأت أقوال الكثير من المحللين الذين ربطوا بين فرويد واليهودية [2].. ولم أقتنع بكل ما قالوا إلى أن سمعت ما قال فرويد نفسه.

قلت: فما قال؟

قال: لقد رأيت فرويد يربط كثيرا بين التحليل النفسي وانتمائه اليهودي، فالمقاومة التي لاقاها التحليل النفسي كانت، في تَصوُّره، جزءاً من رفض الحضارة الغربية لكل ما هو يهودي، والتحليل النفسي في تصوره كان من إبداعه.. لقد قال:« لمدة عشر سنوات كنت أنا الشخص الوحيد الذي انشغل به ولا أحد يعرف أكثر مني ما هو التحليل النفسي»

وكان فرويد يتصور أن عالم الأغيار (غير اليهود) سيرفض التحليل النفسي بسبب يهوديته، ولذا كان يتصـــور أنه لابد من إعطائه واجهة (مسيحية)، وكان هذا هو الدور المُوكَل ليونج ابن الراعي السويسري.

فكتب فرويد إلى كارل أبراهام خطاباً يحثه فيه على كسب مودته، « فيونج مسيحي وابن قسيس [ولذا فهو] يجد عناصر مقاومة داخلية شديدة تعوق اقترابه مني. ونحن لا غنى لنا إطلاقاً عن رفاقنا الآريين كافة، وإلا سقط التحليل النفسي ضحية معاداة اليهود»

وحينما اعترض أتباع فرويد على ترشيح يونج لرئاسة الجمعية الدولية قال لهم فرويد:« إن معظمكم من اليهود، ومن ثم فإنكم لن تستطيعوا ضم أصدقاء للفكر الجديد، على اليهود أن يَقنَعوا بدورهم المتواضع في تمهيد الطريق، فمن أشد الأمور أهمية بالنسبة لي أن أستطيع إيجاد روابط مع دنيا العلم. وها أنتم ترون أني أتقدم في

---

(١) انظر: الموسوعة اليهودية، البُعـــــد اليهـــودي في رؤيـــــــة فرويـــــــد The Jewish Dimension Of Freud's World VIEW.

(٢) ذكر المسيري في (الموسوعة اليهودية) أن الكثير من مؤرخي الأفكار يذهبون إلى القول بأن التحليل النفسي « علم يهودي » يضرب بجذوره في طبيعة اليهود النفسية (وهذه مقولة أخذ بها النازيون وكثير من الصهاينة).

والمدافعون عن هذا الرأي (أ. روباك A.Roback ــ إيزيدور سادجر Sadger ــ إرنست جونز Jones)، وهم يسوقون قرائن عديدة من بينها أن اليهود دائمو التأمل في أسباب الظواهر، ويتضح هذا في مزامير داود وفي التلمود، وهذا التفسير يربط بين التحليل النفسي وبعض الصفات الأزلية الثابتة في طبيعة اليهود.

وهناك من يحاول أن يُدخل بُعداً تاريخياً فيذهب إلى القول بأن التحليل النفسي هو محاولة اليهودي أن يعالج عُصابه الناجم عن وجوده الدائم في المنفى.

وتذهب سوزان هاندلمان إلى أن فرويد إن هو إلا تعبير عن تقاليد الهرمنيوطيقا المهرطقة، وهو جزء من انتقام اليهودي من مجتمع الأغيار الذي اقتلعــه من مكانه، ولذا فاليهـــودي يقـــوم بتفكيك الحضارة الغربية المسيحية، تماماً كما قامت هذه الحضارة بتفكيكه.

وقد ذكر المسيري أن مثل هذه الأفكار تلاقي رواجاً غير عادي في بعض الأوساط في العالم العربي، وتُستخدَم في تدعيم الرأي القائل بوجود (مؤامرة يهودية) تعبِّر عن الجوهر اليهودي.

السن وأشعر بالتعب من الهجوم المتواصل. إننا جميعاً (أي اليهود العاملين في حقل التحليل النفسي) في خطر»

ثم أمسك فرويد بثنية سترته، ومضى يقول بطريقة مسرحية: « إنهم لن يتركوا لي سترة أغطي بها ظهري ولكن السويسريين (أي المسيحيين) سينقذوننا سينقذونني، وسينقذونكم جميعاً أيضاً »

وكان فرويد كثيراً ما يتباهى باليهودية وبانتمائه اليهودي، فكان يرى أن الشعب اليهودي قَدَّم التوراة للعالم، وأن اليهودية مصدر طاقة لكثير مما كتب.

وقد أكد أكثر من مرة أنه كان دائماً مخلصاً لشعبه « ولم أتظاهر بأنني شيء آخر: يهودي من مورافيا جاء أبواه من جاليشيا»

وحينما سأله صديق يهودي عما إذا كان من الواجب على اليهود أن يوجهوا أولادهم لاعتناق المسيحية، وهو أمر كان شائعاً بين اليهود آنذاك، بل من المعروف أن بعض أقارب فرويد قد تَنصَّروا، رد قائلاً: « اليهودية مصدر طاقة لا يمكن أن تُعوَّض بأي شيء آخر، (فاليهودي) عليه كيهودي أن يكافح، ومن الواجب أن يُنمِّي في نفسه كل هذا الكفاح، فلا تحرمه من هذه الميزة »

وقد انضم فرويد لجماعة (بناي بريت) عام ١٨٩٥ وفيها ألقى أولى محاضراته عن تفسير الأحلام. وفي ٦ مايو عام ١٩٢٦ أقامت الجمعية حفلاً خاصاً بمناسبة بلوغه السبعين من عمره، ولم يَحضُر فرويد هذا الحفل وأناب عنه في حضوره طبيبه الخاص البروفسور لدفيج براون الذي ألقى كلمته والتي تضمنت قوله «.. إن كونكم يهوداً لأمر يوافقني كل الموافقة لأنني أنا نفسي يهودي. فقد بدا لي دائماً إنكار هذه الحقيقة ليس فقط أمراً غير خليق بصاحبه، بل هو عمل فيه حماقة أكيدة. إنني لترتبطني باليهودية أمور كثيرة تجعل إغراء اليهودية واليهود أمراً لا سبيل إلى مقاومته، قوى انفعالية غامضة كثيرة كلما زادت قوتها تَعذَّر التعبير عنها في كلمات. بالإضافة إلى شعور واضح بالذاتية الداخلية، الخلوة الآمنة لتركيب عقلي مشترك. ثم بعد هذا كله كان إدراكي أنني مدين بالفضل لطبيعتي اليهودية فيما أملك من صفتين مميزتين لم يكن في وسعي الغناء عنهما خلال حياتي الشاقة: فلأني يهودي وجدت نفسي خلواً من التحيزات التي أضلت غيري دون استخدام ملكاتهم الذهنية، وكيهودي كنت مستعداً للانضمام إلى المعارضة وللتصرف دون موافقة الأغلبية الساحقة. وهكذا وجدت نفسي واحداً منكم أقوم بدوري في اهتماماتكم الإنسانية والقومية، واكتسبت أصدقاء من بينكم، وحثثت الأصدقاء القليلين الذين تبقوا على الانضمام إليكم»

ولكنه بعد خمسة أعوام نجده يكتب رداً على تهنئة حاخام فيينا له بمناسبة عيد ميلاده الخامس والسبعين يقول: « في مكان ما في أعماق روحي أشعر أني يهودي متعصب.. وأني شديد الدهشة أن أكتشف نفسي هكذا، رغم كل جهودي للوصول للموضوعية ولإنكار التحيز »»، أي أن اليهودية التي جعلته خلواً من التحيزات في سن السبعين، جعلته غير قادر على إنكار التحيز في سن الخامس والسبعين.

بل إن فرويد كان يغازل الصهيونية ويظهر هذا في تباهيه بما يُسمَّى (الشعب اليهودي)، وكان يعرف تيودور هرتزل ويوليه الاحترام ويشير إليه باعتباره (الشاعر والمحارب من أجل حقوق شعبنا)، وأرسل إليه أحد كتبه مع عبارة إهداء شخصي عليه، وكان أحد أبناء فرويد عضواً في جماعة قديما الصهيونية،

كما كان هو نفسه عضواً فخرياً بها.

وقد كتب فرويد إلى إحدى تلميذاته من العاملات بالتحليل النفسي، وهي إشبيلر اين، بعد أن علم أنها توشك أن تضع طفلاً، يقول لها:« أود لو خرج الطفل ذكراً أن يصير صهيونياً متعصباً.. إننا يهود، وسنظل يهوداً.. وسيبقى الآخرون، على استغلالهم لنا، دون أن يفهمونا، أو يقدرونا حق التقدير »[1]

بالإضافة إلى هذا، فقد كان عدد اليهود بين أتباع فرويد كبيراً بشكل ملحوظ، فحلقة النقاش الأسبوعية التي بدأها عام ١٩٠٢ كان يحضرها يونج وأدلر ورانك وجونز وأبراهام وإيتنجتون ورايك وفيتلز وفرنزي، وكلهم من اليهود ما عدا يونج وجونز.

ويشير الدكتور قدري حفني إلى الصهاينة منهم، فماكس إيتنجتون، مثلاً، وهو أحد أعضاء القيادة السرية للتنظيم الفرويدي الصهيوني، قرر، في سبتمبر ١٩٣٣، أن يغادر ألمانيا إلى فلسطين، حيث أقام هناك بقية حياته، وأنشأ «الجمعية الفلسطينية للتحليل النفسي » التي ما زالت قائمة حتى الآن، بعد أن تغيَّر اسمها طبعاً. وقال المحلل النفسي سيدني بومر: « لم يكن انتقال إيتنجتون إلى إسرائيل مجرد استجابة لضرورات الحرب، بل كان نتيجة طبيعية لميله، طوال حياته، إلى الصهيونية »

أما المحلل النفسي الشهير، إرنست سيميل، والصديق الصدوق لماكس إيتنجتون، فهو صاحب الكتاب المعروف المعاداة للسامية مرض اجتماعي، وفيه يُرجع المشكلة اليهودية برمتها إلى أسباب نفسية خالصة. ولقد بلغ من تقدير فرويد لسيميل أنه أهداه، عام ١٩٣٩، ذلك الخاتم الشهير نفسه الذي سبق أن أهدى مثله لأعضاء القيادة السرية للتنظيم قبل ذلك بسنوات طوال.

أما سيجموند برنفيلد، المحلل النفسي، فهو نفسه ذلك العضو البارز في المنظمات الصهيونية، الذي تَبنَّى أفكار الفيلسوف الصهيوني مارتن بوبر، وكرَّس جانباً كبيراً من كتاباته النفسية لإبراز خصائص الشعب اليهودي، والدفاع عن فكرة (فلسطين كوطن قومي لليهود)، وقد زكَّاه فرويد بقوله:« إنه خبير بارز في التحليل النفسي. واعتبره واحداً من أقوى العقول بين تلامذتي وأتباعي »، وكذلك الحال بالنسبة للطبيب والمحلل النفسي فيلكس دويتش، الذي كان، منذ شبابه، من أنشط أعضاء التنظيم الطلابي الصهيوني في فيينا، والذي التقى، في صفوف هذا التنظيم، بمارتن فرويد، ابن سيجموند فرويد؛ ومن خلال لقائهما، عرف دويتش طريقه إلى فرويد والفرويدية.

أما تكوين فرويد الثقافي، فقد درس فرويد العبرية والتوراة في طفولته، ومن المؤكد أنه كان على علم بالتراث القبَّالي فأبواه كانا من خلفية حسيدية، وكان جلينيك، وهو واحد من أشهر العلماء القبَّاليين، يعطي محاضراته في فيينا في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر.

قلت: أراك تريد أن تثبت لي بأن المنظومة الفرويدية (منظومة يهودية)، وأن التحليل النفسي (علم يهودي).. إن هذا هو نفس ما يدَّعيه الصهاينة وأعداء اليهود في آن واحد؟

---

(١) الخطاب مؤرخ في أغسطس ١٩١٣ ولكنه لم يُنشَر إلا عام ١٩٨٢، الموسوعة اليهودية.

قال: بل هو نفس ما يدعيه فرويد..بل هو نفس ما تبرزه الأدلة الكثيرة التي تبين النشأة الحقيقية لتلك النظرية التي لم يكن لها من هدف غير الإجهاز على البقية الباقية من البراءة الإنسانية.

ولتستوعب ذلك، وتقتنع به تحتاج إلى دراسة متمعنة للتلمود، وللقبَّالاه، باعتبارها من التراث المقدس لليهود[1].

فأهم نقط التماثل بين المنظومة الفرويدية والمنظومة القبَّالية هي مركزية الجنس في كليهما، فقد سُمِّيت الفرويدية (النظرية الجنسية الشاملة) أي (الواحدية الجنسية)، وهي تسمية لها ما يبررها، فالجنس ـــ حسب تصور فرويد ـــ ليس وراء كل سقم نفسي وحسب، بل إن طاقته هـــي المحرك أيضـــاً لكل ما يَصدُر عنه من وجوه النشـــاط من لحظة أن نُولَد، والجنس ليس مقصوراً على العلاقة الجنسية، ولكنه في واقع الأمر صورة مجازية تتخلل على نحو ما كل النشاط الإنساني، وضمن ذلك نشاط الإنسان العلمي والفني، وهذا لا يختلف كثيراً عن استخدام القبَّالاه للجنس كصورة مجازية أساسية في رؤيتها للعالم، فقد عزا التراث القبَّالي إلى الإله صفة الجنسية، فالتجليات النورانية العشرة (سفيروت) كان يتم التعبير عنها من خلال رموز وصور مجازية جنسية، وتُعدُّ الشخيناه (السفيروت العاشر) التعبير الأنثوي عن الإله.

وفي صدد ما جاء عن الجنس في التراث القبَّالي يذكر باكان أن هذا التراث يتضمن عشرة أسفار هي الفيض القدسي والسلطات الخفية للإله، وكل جزء منها مرتبط بجانب من الإله. وتاسع هذه الأسفار اسمه (يسود) أي الأساس، ومكان اليسود الأعضاء الجنسية لآدم قدمون أو الإنسان الأول وهو المايكروكوزم (العالم الأصغر) الذي يقابل الماكروكوزم (العالم الأكبر).

وقد وصف بعض الحاخامات القبَّالاه بأنها قامت بتجنيس الإله وتأليه الجنس، وهذا وصف دقيق أيضاً للمنظومة الفرويدية على الأقل في جانبها الاختزالي الشائع.

ومن نقاط الالتقاء بين الفكر القبَّالي والفكر الفرويدي المعرفة أو (داث)، فداث في التراث القبَّالي تَنتُج من اتحاد (حوخماه) أو الحكمة و(بيناه) أو الفهم. والحوخمـــاه مفهـــوم ذَكَري والبيـــناه مفهـــوم أنثوي، وبذا تكون داث النسل المقدَّس لاتحادهما الخفي.

غير أن المعرفة (داث) تُستخدَم أيضاً في التوراة بمعنى الاتصال الجنـــسي، وأول اســـتخدام لهـــا ورد في (تكوين ٤: ١) بهـــذا المعـــنى، « وعرف آدم امرأته حواء فحبلت.. »، وقد تكرر استخدام الكلمة بالمعنى نفسه في مناسبات متعددة بعد ذلك.

ويذكر باكان أن الزوهار يتحدث عن الاتصال الجنسي بوصفه (الكشف عن العرى)، ولما كانت كلمة بيناه التي تعني (الفهم) تعني في الوقت نفسه (الأم)، فإن الرجل الذي يخطئ جنسياً يكون في الوقت نفسه كأنه قد (كشف عن عرى الأم)

وفرويد يخال أنه وصل إلى الفهم (بيناه) بالكشف عن اللاشعور، أي الكشف عن عرى العقل في

---

(١) ذكر المسيري أنه اعتمد في هذا على كتاب صبري جرجس، وعلى دراسة باكان فرويد والتقاليد الصوفية اليهودية.

الإنسان. ويتضمن مفهوم الموقف الأوديبي خيال الأم العارية. والمعرفة (داث) في التراث القبَّالي تَنتُج من اتحاد الحكمة والفهم، والمعرفة (الاستبصار) عند أصحاب التحليل النفسي الفرويدي ثمرة اتحاد الشعور واللاشعور. وهذا الاتحاد في ذاته كما يقولون خبرة شهوية عميقة من حيث أنه يتناول الكشف عن الموقف الأوديبي، أي اكتشاف المرء عقدة أوديب داخل نفسه والكشف عنها ثم الكشف عما تنطوي عليه من خيال الأب والأم في العلاقة الجنسية، ومن حلول الطفل، خيالاً أيضاً، محل الأب في هذه العلاقة.

والعلاقة بين المعرفة والجنسية لها شواهد أخرى عند فرويد أيضاً، فقد ذكر في مجموعة مقالاته أن الطفل في سن الثالثة إلى الخامسة، حين تصل حياته الجنسية إلى قمتها الأولى، يبدأ يبدي من النشاط ما يمكن أن يُعزَى إلى رغبته في التقصي والمعرفة، كما أن الرغبة في المعرفة لدى الأطفال، فيما يرى فرويد، تتجه على نحو عنيف وفي فترة مبكرة إلى المشكلات الجنسية. بل إن التحليل الفرويدي ليمضي في هذا الاتجاه إلى مدى أبعد فيزعم أننا نكون أكثر دقة إذا قلنا إن هذه المشكلات (الجنسية) قد تكون أول ما ينبه رغبته في المعرفة عموماً.

ومن نقاط الالتقاء تلك المرتبطة بما جاء بالزوهار من نسبة الجنسية الثنائية للإنسان، فالإله ينطوي داخل نفسه على الشخيناه وهي مرادفه الأنثوي. وآدم الذي خُلق على مثال الإله كان ينطوي على مرادف أنثوي هو الضلع الذي خُلقت منه حواء، والفكر القبَّالي ينطوي على أن الذكر والأنثى قطبان لكيان واحد، كما أن الزوهار يتضمن أن « الإله لا يبارك مكاناً إلا حيث يجتمع فيه رجل وامرأة، وأن الرجل لا يُسمَّى رجلاً إلا إذا اتصل بامرأة، والرجل غير المتزوج ناقص وتعوزه نعمة الإله»

ويذهب فرويد إلى أن الإنسان يُولَد بتركيب جنسي ثنائي، وأن هذه الثنائية تنفصل فيما بعد، ولكن التحقيق في حياة الإنسان لا يصل إلى غايته إلا بعودة هذه الثنائية إلى الاتصال مرة أخرى في العلاقة الجنسية السوية.

وفي سفر براخوت في التلمود وردت آراء عن الأحلام تشبه كثيراً من آراء فرويد، فقد ورد في هذا السفر « إن المرء لا يرى في الحلم إلا ما توحي به أفكاره»، فالأحلام تعبير عن رغبة لدى الحالم وبالإمكان تفسيرها عن طريق اللعب بالألفاظ وهي ذات مدلول جنسي،وهي في أساسها تعبير رمزي،كما أنها تعبِّر عن الصراع بين دوافع « الخير» ودوافع « الشر» وهذه جميعاً تطابق ما قال فرويد عن الأحلام.

ومن المعالم البارزة في سفر براخوت أنه يستخدم الخيالات الجنسية ليرمز إلى المعرفة فيقول « إذا حلم إنسان بأنه يتصل بأمه جنسياً فله أن يتوقع الوصول إلى الفهم، وإذا حلم بأنه يتصل جنسياً بعذراء مخطوبة، فله أن يتوقع الوصول إلى معرفة التوراة، وإذا حلم شخص بأنه يتصل جنسياً بامرأة متزوجة فله أن يثق في أنه على موعد مع القدر بالنسبة لمستقبل العالم، بشرط ألا يكون على معرفة بها، وألا يكون قد فكَّر فيها أثناء المساء»

الحضارة الغربية

قلت: حدثني عن بحثك في موقف المسيحية واليهودية من قيم العفاف والحرص على العرض والشرف.. ولكن المجتمعات ــ وخاصة المجتمعات الحديثة ــ لا يحكمها الدين وحده.. فهناك فلسفات ومذاهب وشيع.

قال: أجل.. لقد أمضيت في الاهتمام بهذا الجانب جزءا مهما من حياتي، وكان من أهم ما بحثت فيه البذور التي أنبتت أشجار الرذيلة في المجتمعات الغربية التي تتوهم أنها تعيش قمة قمم الحضارة مع أنها في حقيقتها لا تعدو نوعا من التطوير المخزي لحضارة سدوم وعمورية.

جذور الانحطاط:

قلت: فماذا وجدت؟

قال: لقد أدت الثورة على الكنيسة التي لم تعرف كيف تمثل الدين تمثيلا صحيحا إلى ظهور فلسفات كثيرة لا هم لها إلا خلع اللباس الإنساني عن الإنسان، وإلباسه لباس البهيمية الغارقة في مستنقعات الشهوات.

لن أطيل الحديث عليك.. ولكني سأذكر لك ثلاثة من أعمدة الرذيلة التي قامت عليها مواخير الفساد التي تعج بها مجتمعاتنا: ماركس.. فرويد.. ودركايم[1].. فهؤلاء الثلاثة وغيرهم كثير هم الذين تأسست عليهم الحضارة الغربية والقيم الغربية والانحرافات الغربية.

أما ماركس ــ صاحب التفسير المادى للتاريخ ــ فيبرز موقفه من العفاف في قوله:« إن (العفة) الجنسية من فضائل المجتمع الإقطاعى البائد كقيمة موقوتة لابد أن توجد فى هذا الطور الاقتصادى.. لا كقيمة ذاتية ينبغى أن تتبع بصرف النظر عن الظروف الاقتصادية، لأنها مرتبطة بكيان (الإنسان) ذاته المتميز عن الحيوان »

أما فرويد، فقد عرفنا موقفه من قبل.. إنه لا يكتفى بتصوير الإنسان حيواناً، وإنما يصوره حيواناً ممسوخاً مشوهاً، ينبع كله من طاقة واحدة من طاقاته.. هى الطاقة الجنسية.

الحيوان يأكل بلذة الأكل. ويشرب بلذة الشرب. ويجرى بلذة الجرى. ويمارس النشاط الجنسى بلذة الجنس. ولكن إنسان فرويد، أو حيوانه المشوه الممسوخ، يرضع بلذة الجنس، ويمص إبهامه بلذة الجنس، ويتبول ويبرز بلذة الجنس، ويحرك عضلاته بلذة الجنس، ويعشق أمه بلذة الجنس.. ثم لا يكتفى بهذا الحد، وإنما يكون كيانه (المعنوى) كله من دين وأخلاق وتقاليد، نابعاً كذلك من حمأة الجنس المسعور، فهو يقول:« إن الإنسان لا يحقق ذاته بغير الإشباع الجنسى. وكل قيد ــ من دين أو أخلاق أو مجتمع أو تقاليد ــ هو قيد باطل، ومدمر لطاقات الإنسان..وهو (كبت) غير مشروع »

أما دوركايم، فيقول:« إن الأخلاقيين يتخذون واجبات المرء نحو نفسه أساساً للأخلاق، وكذا الأمر فما يتعلق بالدين، فإن الناس يرون أنه وليد الخواطر التى تثيرها القوى الطبيعية الكبرى أو بعض الشخصيات الفذة لدى الإنسان (يقصد الرسل والأنبياء والقديسين)، ولكن ليس من الممكن تطبيق هذه الطريقة على الظواهر

---

(١) انظر فصل (اليهود الثلاثة) في كتاب (التطور والثبات فى حياة البشر) لمحمد قطب.

الاجتماعية اللهم إلا إذا أردنا تشويه طبيعتها »[1]

ويقول:« ومن هذا القبيل أن بعض هؤلاء العلماء يقول بوجود عاطفة دينية فطرية لدى الإنسان، وإن هذا الأخير مزود بحد أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين ومحبة الأبناء، وغير ذلك من العواطف، وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو، ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية فى الإنسان »

ويقول:« وحينئذ فإنه يمكن القول بناء على الرأى السالف بأنه لا وجود لتفاصيل القواعد القانونية والخلقية فى ذاتها إذا صح هذا التعبير.. ومن ثم فليس من الممكن، تبعاً لهذا الرأى، أن تصبح مجموعة القواعد الخلقية التى لا وجود لها فى ذاتها موضوعاً لعلم الأخلاق »

أما الدين الذي كان يمكن أن يغرس وازع الفضيلة في النفس، فقد وقف هؤلاء الثلاثة، كما وقف غيرهم ممن هو تبع لهم، أو ممن كان مثلهم يحتقرونه ويزدرون به:

أما دركايم، فيقول إن الدين ليس فطرة!

وأما ماركس، فيقول: إن الدين أفيون الشعب، ويقول إنه مجموعة من الأساطير ابتدعها الإقطاعيون والرأسماليون لتخدير الجماهير الكادحة، وتلهيتها بنعيم الآخرة عن حياة الحرمان فى الأرض.

وأما فرويد، فيقول: إن الدين ناشئ من الكبت، من عقدة أوديب.. من العشق الجنسى الذى يحسه الولد نحو أمه.. ومن رغبة الابن فى قتل أبيه.

وراح هؤلاء الثلاثة الذين رضعنا فلسفاتهم مع حليب أمهاتنا يرمون بمعاولهم على الأخلاق:

أما دركايم، فراح يبشر بأن الجريمة ظاهرة سوية، والزواج ليس من الفطرة، والأخلاق شيء لا يمكن الحديث عنه ككيان ثابت، وإنما كل ذلك من صنع (العقل الجمعى) الذى لا يثبت على حال، وينتقل من النقيض إلى النقيض.

وأما ماركس، فراح يبشر بأن الأخلاق مجرد انعكاس للوضع الاقتصادى المتطور على الدوام، وليس قيمة ثابتة.

وأما فرويد، فراح يبشر بأن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى فى صورتها الطبيعية العادية، وهى كبت ضار بكيان الإنسان.

لقد كانت هذه الأفكار الخطيرة هي البذور التي تلقفها جميع سدنة الرذيلة ليحولوا الحضارة الغربية إلى ناد من نوادي سدوم وعمورية.

لقد بدأوا.. فأخرجوا المرأة من بيتها، ومن حضن أولادها الدافئ إلى الطريق، لتجد ماركس يدعوها للعمل أي عمل.. وتجد دركايم يقول لها: إن الزواج ليس فطرة.. وتجد فرويد يتلقفها، ليهمس في أذنها:« إنها لابد أن تحقق كيانها تحقيقاً جنسياً خالصاً من القيود »

---

(١) قواعد المنهج فى علم الاجتماع ص١٦٥.

وتجد بعد هؤلاء جميعا مجتمعا من الناس كان قد استمع لداروين، فصار فى نظر نفسه حيواناً، لا علاقة له بالأخلاق، ولا بالقيم، ولا بالمبادئ.

وتجد بعدهم (التجريبيين) الذين يفسرون الحياة كلها من خلال الجسم.. فالمشاعر والأفكار نشاط كهربى وغدى وكيماوى.. وغدة الجنس تصنع مشاعر الجنس.. وغدة الأمومة تصنع مشاعر الأمومة.. وغدة الكظر التي فوق الكلى تصنع الشجاعة أو الجبن.. والغدة الدرقية تصنع المزاج العصبى أو المزاج المعتدل أو المزاج البارد.. الجسد هو الذى يتحرك دائماً فى مبدأ الأمر.. ثم ينتج عن ذلك مشاعر وأفكار[1].

ثم تجد بعد ذلك مجتمعا غارقا في فى حمأة الرذيلة بتأثير هذه المبادئ الهدامة، ليقول لها: إن الجنس عملية (بيولوجية) بحتة لا علاقة لها بالأخلاق.

قلت: أراك لا ترى من فلسفات هؤلاء إلا جانبها المظلم.

قال: لأنه لم يكن فيها أي نور.. لقد حملت جميع مصابيح الحقيقة لأبحث عن ذرة من النور في فلسفاقم، فلم أجدها.

قلت: ولكن الحضارة الغربية بفضل فلسفاقم وصلت إلى ما وصلت إليه من رقي مادي.

ابتسم بسخرية، وقال: نعم.. نسيت.. لقد وصلنا إلى صناعة السينما والتلفزيون والكمبيوتر والإنترنت..

قلت: أجل.. وغيرها كثير.

قال: ولكنا لم نستخدمها إلا في تمكين الرذائل والانحرافات.. لنجعل في كل بيت ماخورا من مواخير الرذيلة..

كان يمكننا بهذه الأجهزة ـــ لو أنا التزمنا الهدي العظيم الذي جاء به محمد، وجاء به قبله الأنبياء ـــ أن نحول البشر إلى زهور.. ونحول الأرض إلى حديقة.. ولكنا أبينا إلا أن نحولها إلى ما تراها.

لقد قال الدكتور (بلومر):« إن الأفلام التجارية التي تنتشر في العالم تثير الرغبة الجنسية في معظم موضوعاها، كما أن المراهقات من الفتيات يتعلمن الآداب الجنسية الضارة من الأفلام، وقد ثبت للباحثين أن فنون التقبيل والحب، والمغازلة، والإثارة الجنسية، والتدخين يتعلمها الشباب من خلال السينما، والتلفزيون »[2]

وقد أجرى بعضهم دراسة على (٥٠٠) فيلم طويل تبين أن موضوع الحب والجريمة والجنس يشكل ٧٢ بالمائة منها[3].

---

(١) يقول وليم جيمس، وهو رائد المدرسة التجريبية فى علم النفس، فى كتابه (نظرية العاطفة) theorie de Lemotion ص٦٠:« إن الفكرة التي نتخذها عن العواطف عادة، هي أن الإدراك العقلي لشيء ما، يستثير الحالة الوجدانية التي نسميها العاطفة، وأن هذه الحالة العاطفية الأخيرة هي التي يتولد عنها التعبير الجسدي. ولكن نظريتي، على العكس من ذلك هي أن التغيرات الجسمية تأتى لاحقة مباشرة لإدراك المؤثر، وأن الإحساس الذي نشعر به نتيجة لهذه التغيرات الجسمية هو العاطفة »

ففي رأيه أن الجسد هو منبع النفس.. وليست (النفس) أصلاً جوهرياً في كيان الإنسان.

(٢) بصمات على ولدي، طيبة اليحى.

(٣) هو د. حمود البدر، انظر: الحاجة إلى تنسيق وتكامل تربوي ص ١٤.

ليس ذلك فقط.. بل إن قيم الشرف والغيرة والعرض لم يبق لها وجد في ظل هذا الواقع المتعفن.. أذكر أني قرأت قبل أيام خبرا عن الممثلة الأمريكية (كيم باسنجر).. هذه الممثلة رفضت تنفيذ بعض المشاهد العارية في فيلمها الذي تعاقدت عليه (فيلم هيلينا).. فرفعت عليها الشركة قضية تعويض وجاء حكم القاضي بغرامة ٨ ملايين دولار تدفعها الممثلة لأنها رفضت خلع ملابسها الداخلية، وامتنعت عن تنفيذ السيناريو كما أراده المخرج.

ألا ترى كيف انقلبت الأوضاع!؟.. فأصبحت التي تدفع الغرامة هي التي تتمسك بالعفة وترفض الفجور.. لقد أصبح الشرف هو الجريمة التي تستدعي توقيع أقصى العقاب[1].

أما الإنترنت التي استطاعت أن تصل العالم جميعا بعضه ببعض، لتحوله مجتمعا واحدا، بل أسرة واحدة، فقد مارست هي الأخرى الوظائف المنحطة التي مارسها قبلها التلفزيون والسينما.. بل إن ممارستها لها تفوق جميع الممارسات السابقة.

أنت تعلم أن حجم الإقبال على شبكة الإنترنت يتضاعف تقريبا كل مائة يوم[2]، حيث صرحت وزارة التجارة الأمريكية بأن عدد الصفحات في النسيج العالمي بلغ ٢٠٠ مليون صفحة في نهاية عام ١٩٩٧ و ٤٤٠ مليون صفحة في نهاية عام ١٩٩٨ وأن عدد رواد النسيج بلغوا ١٤٠ مليون في عام ١٩٩٨م.

لقد أقر هذا العدد شركة جنيرال ماجيك ومجلة تايم، ولكن هناك من يرى أن هذا العدد فيه تحفظ، وأن العدد الحقيقي للصفحات في عام ١٩٩٨ قد بلغ ٦٥٠ مليون صفحة، ويتوقع لهذا العدد أن يزداد إلى ٨ مليار في عام ٢٠٠٢م.

أما عدد الصفحات الإباحية في الإنترنت، فيقدر بنحو ٢.٣ بالمائة من حجم الصفحات الكلية في الإنترنت.

وهذا العدد يعد صغيرا نسبيا إلا أنه لا يعطي الصورة الحقيقية لحجم المشكلة.. وكمثال على ذلك يمكن أن يكون في مدينة واحدة مائة سوق، ولكن أكثر الناس مقبلون على سوق واحد بين هذه المائة.

وبالفعل نجد الأرقام تعضد هذه النظرية. فشركة (Playboy) الإباحية مثلا تزعم بأن ٤.٧ مليون زائر يزور صفحاتها في الأسبوع الواحد.

وقامت بعض الشركات بدراسة عدد الزوار لصفحات الدعارة والإباحية في الإنترنت فوجدت شركة (WebSide Story) أن بعض هذه الصفحات الإباحية يزورها ٢٨٠٠٣٤ زائر في اليوم الواحد، وهنالك أكثر من مائة صفحة مشابهة تستقبل أكثر من ٢٠٠٠٠ زائر يوميا وأكثر من ٢٠٠٠ صفحة مشابهة تستقبل أكثر من ١٤٠٠ زائر يوميا.

---

(١) حتى في بعض بلاد الإسلام التي سارت وراء ركب الغرب، فقد أصبح الحجاب فيها يدعو إلى المساءلة.. ففي تركيا عوقبت نائبة البرلمان بالحرمان من الجنسية لأنها رفضت خلع الحجاب، انظر: سواح في دنيا الله لمصطفى محمود.

(٢) انظر: المواقع الإباحية على شبكة الإنترنت وأثرها على الفرد والمجتمع، د. مشعل بن عبدالله القدهي.

بل إن صفحة واحدة فقط من هذه الصفحات قد استقبلت خلال سنتين ٤٣٦١٣٥٠٨ زائر.. وواحدة من هذه الجهات تزعم أن لديها أكثر من ثلاثمائة ألف صورة خليعة تم توزيعها أكثر من مليار مرة.

وقد قام باحثون في جامعة كارنيجي ميلون بإجراء دراسة إحصائية على ٩١٧٤١٠ صورة استرجعت ٨.٥ مليون مرة من ٢٠٠٠ مدينة في ٤٠ دولة، فوجدوا أن نصف الصور المستعادة من الإنترنت هي صور إباحية وأن ٨٣.٥ بالمائة من الصور المتداولة في المجموعات الأخبارية هي صورٌ إباحية.

وفي عملية إحصاء أجرتها مؤسسة زوجبي (Zogby) في مارس عام ٢٠٠٠ وجد أن أكثر من ٢٠ بالمائة من سكان أمريكا يزورون الصفحات الإباحية.

ويقول الباحث ستيف واترز أنه غالبا ما تبدأ هذه العملية بفضول بريء، ثم تتطور بعد ذلك إلى إدمان مع عواقب وخيمة كإفساد العلاقات الزوجية أو تبعات شر من ذلك.

ولهذا، فقد وجد التجار صعوبة فائقة في جمع الأموالً عن طريق صفحات الإنترنت إلا في شريحة واحدة وهي شريحة صفحات الدعارة، فإنها تجارة مربحة جدا، ويقبل الناس عليها بكثرة، ولو اضطروا لدفع الأموال الطائلة مقابل الحصول على هذه الخدمة.

وفي سنة ١٩٩٩ بلغت مجموعة مشتريات مواد الدعارة في الإنترنت ٨ بالمائة من التجارة الإلكترونية والبالغ دخلها ١٨ مليار دولارا، كما بلغت مجموعة الأموال المنفقة على الدخول على الصفحات الإباحية ٩٧٠ مليون دولارا، ويتوقع أن ترتفع إلى ٣ مليار دولارا في عام ٢٠٠٣، وهذه الصفحات تتكاثر بشكل مهول تبلغ مئات الصفحات الإباحية الجديدة في الأسبوع الواحد، كثير منها تؤمن هذه الخدمة مجانا.

وقد صرحت وزارة العدل الأمريكية قائلة:« لم يسبق في فترة من تاريخ وسائل الإعلام بأمريكا أن تفشت مثل هذا العدد الهائل الحالي من مواد الدعارة أمام هذه الكثرة من الأطفال في هذه الكثرة من البيوت من غير أي قيود »

كما تفيد الإحصاءات بأن ٦٣ بالمائة من المراهقين الذين يرتادون صفحات وصور الدعارة لا يدري أولياء أمورهم طبيعة ما يتصفحونه على الإنترنت علما بأن الدراسات تفيد أن أكثر مستخدمي المواد الإباحية تتراوح أعمارهم ما بين ١٢ و١٧ سنة، والصفحات الإباحية تمثل بلا منافس أكثر فئات صفحات الإنترنت بحثا وطلبا. [1]

ثمار الانحطاط:

نظر إلى الأزهار بألم.. وقال: وهكذا قام المجرمون بخنق أزهار الفضيلة.. ليغرسوا بدلها شجرة الرذيلة..

لقد تعاون العلم مع التكنولوجيا مع الفلسفة ليملأوا النفوس العطشة بكل ما تبتغي من شهوات.. فانحط الأفراد، وانحطت الأسر، وانحط المجتمع.

قبل عقود كثيرة.. في سنة ١٩٢٩م.. نادى كاتب أمريكي بالويل والثبور على المصير المرعب الذى ينتظر

---

(١) المواقع الإباحية على شبكة الإنترنت وأثرها على الفرد والمجتمع، د. مشعل بن عبدالله القدهي.

أمته... هو ول ديورانت.. كتب يقول:« فحياة المدينة تفضى إلى كل مثبط عن الزواج، فى الوقت الذى تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها. ولكن النمو الجنسى يتم مبكرا عما كان من قبل، كما يتأخر النمو الاقتصادى. فإذا كان قمع الرغبة شيئا عمليا ومعقولا فى ظل النظام الاقتصادى الزراعى فإنه الآن يبدو أمرا عسيرا وغير طبيعى فى حضارة صناعية أجلت الزواج حتى بالنسبة للرجال حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين، ولا مفر من أن يأخذ الجسم فى الثورة، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان فى الزمن القديم، وتصبح العفة التى كانت فضيلة موضعا للسخرية، ويختفى الحياء الذى كان يضفى على الجمال جمالا، ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم، وتطالب النساء بحقها فى مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال، ويصبح الاتصال قبل الزواج أمرا مألوفا، وتختفى البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس، لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقى الزراعى، و لم يعد العالم المدنى يحكم به »[1]

ثم يصف ول ديورانت جانبا من هذا الشر، كما وجده فى بلاده فى أوائل القرن، وكما تخيل نتائجه المقبلة، وإن كان الواقع الذى حدث بالفعل أخطر بكثير مما تخيله فى ذلك الحين:« ولسنا ندرى مقدار الشر الاجتماعى الذى يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسؤولا عنه. ولا فى أن بعض هذا الشر يرجع إلى ما فينا من رغبة فى التعدد لم تهذب، لأن الطبيعة لم تهيئنا للاقتصار على زوجة واحدة، ويرجع بعضها الآخر إلى ولاء المتزوجين الذين يؤثرون شراء متعة جنسية جديدة على الملال الذى يحسونه فى حصار قلعة مستسلمة، ولكن معظم هذا الشر يرجع فى أكبر الظن فى عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعى لحياة الزوجية. وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو فى الغالب ثمرة التعود قبله، وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية فى هذه الصناعة المزدهرة، وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه فى عالم خلقه الإنسان. وهذا هو الرأى الشائع لمعظم المفكرين فى الوقت الحاضر. غير أنه من المخجل أن نرضى فى سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية، وهى تعرض علينا فى المسارح وكتب الأدب المكشوف، تلك التى تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية فى الرجال والنساء المحرومين — وهم فى حقى الفوضى الصناعية — من حمى الزواج ورعايته لصحة.

ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة، لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن فى ابتذال ظاهر، ويجد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة فى هذه الفترة من التأجيل نظاما دوليا مجهزا بأحدث التحسينات ومنظما بأسمى ضروب الإدارة العلمية.. ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقه يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها »

ويذكر أسباب هذه الميوعة التي انتشرت في المجتمعات الغربية، فيقول:« وأكبر الظن أن هذا التجدد فى الإقبال على اللذة، قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم دارون على المعتقدات الدينية، وحين اكتشف الشبان والفتيات — وقد أكسبهم المال جرأة — أن الدين يشهر بملاذهم التمسوا فى العلم ألف سبب وسبب للتشهير

---

(١) انظر: مباهج الفلسفة، ول ديورانت، ص ١٢٦ — ١٢٧.

بالدين، وأدى التزمت فى حجب الحياة الجنسية والزهد فيها إلى رد فعل فى الأدب وعلم النفس صور الجنس مرادفا للحياة، وقد كان علماء اللاهوت قديما يتجادلون فى مسألة لمس يد الفتاة أيكون ذنبا؟ أما الآن فلنا أن ندهش ونقول: أليس من الإجرام أن نرى تلك اليد ولا نقبلها؟ لقد فقد الناس الإيمان وأخذوا يتجهون نحو الفرار من الحذر القديم إلى التجربة الطائشة.

وكانت الحرب العظمى الأولى آخر عامل فى هذا التغيير، ذلك أن تلك الحرب قوضت تقاليد التعاون والسلام المتكونين فى ظل الصناعة والتجارة، وعودت الجنود الوحشية والإباحية، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عاد آلاف منهم إلى بلادهم فكانوا بؤرة للفساد الخلقى، وأدت تلك الحرب إلى رخص قيمة الحياة بكثرة ما أطاحت من رؤوس، ومهدت إلى ظهور العصابات والجرائم القائمة على الاضطرابات النفسية، وحطمت الإيمان بالعناية الإلهية، وانتزعت من الضمير سند العقيدة الدينية، وبعد انتهاء معركة الخير والشر بما فيها من مثالية ووحدة، ظهر جيل مخدوع وألقى بنفسه فى أحضان الاستهتار والفردية والانحلال الخلقى. وأصبحت الحكومات فى واد والشعب فى واد آخر، واستأنفت الطبقات الصراع فيما بينها. واستهدفت الصناعات الربح بصرف النظر عن الصالح العام، وتجنب الرجال الزواج خشية مسؤوليته، وانتهى الأمر بالنساء إلى عبودية خاملة أو إلى طفيليات فاسدة، ورأى الشباب نفسه وقد منح حريات جديدة تحميه الاختراعات من نتائج المغامرات النسائية فى الماضى وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الجنسية فى الفن والحياة »

٢ ـــ قيم الإسلام

قلت: حدثني عن ضياع القيم في ظل الأديان والمذاهب والفلسفات.. فأين نجدها إذن؟

قال: في الإسلام.. لقد ذكرت لك أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي احتفظ بالقيم الإنسانية النبيلة، وأنه الوحيد الذي يستطيع أن يحول البشر إلى حقل كبير من الأزهار التي تفوح بأجمل ألوان العطر..

قلت: فحدثني عن قيم الإسلام.

قال: لقد ذكرت لك أن القيم النبيلة تجتمع في سبع.

قلت: أجل.. وقد ذكرت لي أن تلك السبع هي سر جمال الأزهار.

العفاف:

قال: وقد ذكرت لك أن أول سر من أسرار الأزهار (العفاف)؟

قلت: أجل.. فعليه تبنى سائر القيم.

قال: نعم.. فهو يعني البراءة والطهر والصفاء.. ولا يمكن أن تكون الأزهار أزهارا من غير براءة ولا طهر ولا صفاء.

إن جمال محيا العفيف لا يختلف كثيرا عن جمال محيا أجمل زهرة من أزهار العالم..

ألا تعلم سر جمال يوسف؟.. لقد اعتبره القرآن رمزا للعفاف.. كما اعتبره المصريون والناس رمزا للجمال.. وفي ربط القرآن بينهما دليل على أن قمة الجمال لا تكون إلا مع قمة العفاف.

قلت: ولكن هذه الناحية لم تتحقق إلا في المسيحية.. فهي الدين الوحيد الذي يعتبر العفاف أصل أصوله..

قال: لعلك تقصد قول المسيح:« وَسَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: لاَ تَزْنِ! أَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ بِقَصْدِ أَنْ يَشْتَهِيَهَا، فَقَدْ زَنَى بها فِي قَلْبِهِ! فَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ الْيُمْنَى فَخّاً لَكَ، فَاقْلَعْهَا وَارْمِهَا عَنْكَ، فَخَيْرٌ لَكَ أَنْ تَفْقِدَ عُضْواً مِنْ أَعْضَائِكَ وَلاَ يُطْرَحَ جَسَدُكَ كُلُّهُ فِي جَهَنَّمَ »(متى:٥/ ٢٧-٢٩)

قلت: أجل..ألا ترى في هذا قمة العفاف؟

قال: بلى.. وهو يتفق تماما مع ما جاء في القرآن من الأمر بغض البصر والتشديد فيه، ففي القرآن:﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾(النور)

ففي هاتين الآيتين منظومة كاملة للعفاف.. فهي لا تأمر فقط بغض البصر، والذي قد يطيقه فرد من الناس، وتعجز عنه أمة منهم، ولكنه يوفر الجو المناسب للعفاف والبراءة والطهر.

نظر مليا إلى الزهرة الجميلة التي كانت سبب التقائنا، ثم قال: لا يمكن للبراءة والطهر أن تتم من خلال زهد يمارسه بعض الناس فقط..

الطهارة والبراءة والعفاف تقتضي منظومة كاملة.. وللأسف لم أجد في أي دين من الأديان ولا فلسفة من الفلسفات هذه المنظومة فيما عدا الإسلام.

قلت: إن من قومنا من يعتبرون موقف الإسلام من هذا.. ودعوته الملحة للعفاف نوعا من الكبت الذي لا ينسجم مع الفطرة السوية.. ففي الإنسان غرائز.. والمواقف السليم من الغرائز أن تطلق لا أن تحد[1].

قال: أنت تذكرني بمواقف كثير من علماء النفس عندنا.. وموقفهم من الدين.. فقد ذكروا أن الدين يكبت النشاط الحيوي للإنسان، ويظل ينكّد عليه حياته نتيجة الشعور بالإثم، ذلك الشعور الذي يستولي على المتدينين خاصة، فيخيل لهم أن كل ما يصنعونه خطايا لا يطهرها إلا الامتناع عن ملذات الحياة.

ولهذا ظلت أوربا غارقة في الظلام طيلة تمسكها بالدين، فلما نبذت قيود الدين تحررت مشاعرها من الداخل، وانطلقت في عالم العمل والإنتاج.

قلت: أجل.. إنك تردد ما يقولونه بدقة.. أفلا ترى في هذا القول حجة كافية للرد على الإسلام في موقفه من العفاف؟

قال: إن الرد على هذا يحوجنا إلى التعرف على معنى (الكبت)، فإن هذه اللفظة كثيراً ما يساء فهمها واستخدامها في كلام المثقفين، فضلاً عن العوام والمقلدين.

قلت: الكبت على حسب ما أعرف.. على حسب ما يقولون.. هو الامتناع عن إتيان العمل الغريزي.

قال: لا.. ليس هو الكبت هو الامتناع.. وإلا لكان كل الإنسان حدثته نفسه بفاحشة من الفواحش، فلم يقع فيها مصابا بالكبت.

قلت: فما هو الكبت إذن؟

قال: الكبت في الحقيقة هو استقذار الدافع الغريزي في ذاته، وعدم اعتراف الإنسان بينه وبين نفسه أن هذا الدافع يجوز أن يخطر في باله أو يشغل تفكيره.

والكبت بهذا المعنى مسألة لا شعورية، والعمل الغريزي قد لا يكفي وحده لعلاجها.. فالذي يأتي هذا العمل، وفي شعوره أنه يرتكب قذارة لا تليق به، شخص يعاني الكبت حتى ولو فعل هذا عشرين مرة كل يوم.. لأن الصراع سيقوم في داخل نفسه كل مرة بين ما عمله وما كان يجب أن يعمله.

وهذا الشد والجذب في الشعور وفي اللاشعور هو الذي ينشئ العقد والاضطرابات النفسية.

قلت: هذا تفسيرك للكبت؟

قال: لا.. بل هذا تفسير علماء النفس أنفسهم.. بل هو تفسير فرويد نفسه الذي أنفق حياته العلمية كلها في هذه المباحث، وفي التنديد بالدين الذي يكبت نشاط البشرية. فهو يقول في كتاب Three Contributions

---

(١) انظر: شبهات حول الإسلام، محمد قطب.

to the Sexual Theory :« ويجب أن نفرق تفريقاً حاسماً بين هذا (الكبت الشعوري)، وبين عدم الإتيان بالعمل الغريزي، فهذا مجرد (تعليق للعمل)»

قلت: فهل ترى هذا التفسير كافيا لدفع هذه الشبهة عن الإسلام؟

قال: هذه الشبهة لا تقع إلا من دين ينفر من الغرائز، ويدعو إلى كبتها.. والإسلام لم يفعل هذا.. بل ليس في أديان العالم ونظمه ما هو أصرح من الإسلام في الاعتراف بالدوافع الفطرية، وتنظيف مكانها في الفكر والشعور.. فالقرآن يقول:﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران:١٤)

ففي هذه الآية يجمع القرآن شهوات الأرض، ويقرر أنها أمر واقع مزين للناس، لا اعتراض عليه في ذاته، ولا إنكار على من يحس بهذه الشهوات.

قلت: فالإسلام إذن دين إباحي؟

قال: أنت تتصور أن أمر الغرائز إما أن يكون كبتا، وإما أن يكون إباحية؟

قلت: أنا أذكر ما يقولون.. فهل ترى أن هناك منطقة وسط بينهما؟

قال: أجل.. وقد وضع لها الإسلام منظومة من الشرائع والتوجيهات لا يكفي هذا المحل لسردها جميعا[1].

فالإسلام لا يبيح للبشر أن يهبطوا لعالم الحيوان بحجة مقاومة الكبت.. لأن هناك فرقاً هائلاً بين هذا وبين الكبت اللاشعوري، أي أن هناك فرقا بين استقذار هذه الشهوات في ذاتها، ومحاولة الامتناع عن الإحساس بها رغبة في التطهر والارتفاع.

وطريقة الإسلام في معاملة النفس الإنسانية هي الاعتراف بالدوافع الفطرية كلها من حيث المبدأ، وعدم كبتها في اللاشعور، ثم إباحة التنفيذ العملي لها في الحدود التي تعطي قسطاً معقولاً من المتاع، وتمنع وقوع الضرر سواء على فرد بعينه، أو على المجموع كله.

والضرر الذي يحدث للفرد من استغراقه في الشهوات، هو إفناء طاقته الحيوية قبل موعدها الطبيعي، واستعباد الشهوات له بحيث تصبح شغله الشاغل، وهمه المقيم، فتصبح بعد فترة عذاباً دائماً لا يهدأ، وجوعة دائمة لا تشبع ولا تستقر.

أما الضرر الذي يحدث للمجتمع، فهو استنفاد الطاقة الحيوية التي خلقها الله لأهداف شتى، في هدف واحد قريب، وإهمال الأهداف الأخرى الجديرة بالتحقيق، فضلاً عن تحطيم كيان الأسرة، وفك روابط المجتمع، وتحويله إلى جماعات متفرقة لا يجمعها رابط ولا هدف مشترك.

وفي هذه الحدود التي تمنع الضرر يبيح الإسلام الاستمتاع بطيبات الحياة، بل يدعو إليها دعوة صريحة فيقول مستنكراً على من حرمها:﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ

---

(١) سنرى التفاصيل المرتبطة بهذه الناحية في الرسائل التالية.

آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (لأعراف:٣٢).. ويقول:﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (القصص: من الآية٧٧).. ويقول:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة:١٧٢).. ويقول:﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (لأعراف:٣١)

بل يصل في صراحته في الاعتراف بهذا النوع من الغرائز أن يقول محمد:« حُبِّبَ إليَّ من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة »[١]

انظر كيف يقرن محمد الصلاة التي هي أزكى ما يتقرب به الإنسان لله بحبه للنساء وللطيب.. ذلك أن هذه الدوافع ليس فيها أي حرج إذا وجهت التوجيه السليم، وانسجمت مع الفطرة السوية.

بل إن محمدا يذكر في حديث له أن الرجل يثاب على أداء ما تتطلبه هذه الغريزة زوجته، فيقول المسلمون متعجبين:« يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟»، فيرد عليهم:« أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر »[٢]

ولهذا.. فإنه يستحيل أن يحصل أي كبت في ظل الإسلام.. فإذا أحس الشباب بالرغبة الجنسية الدافقة، فليس في ذلك أي منكر، ولا يوجد داع لاستقذار هذا الإحساس والنفور منه.. وإنما يطلب الإسلام من هذا الشباب شيئا واحدا، وهو أن يضبط هذه الشهوات فقط دون أن يكبتها.. يضبطها في وعيه وبإرادته، وليس في لاشعوره، أي يعلق تنفيذها إلى الوقت المناسب، وليس تعليق التنفيذ كبتاً باعتراف فرويد، وليس فيه من إرهاق الأعصاب ما في الكبت، وليس يؤدي مثله إلى العقد والاضطرابات النفسية.

قلت: ولكن أولئك يعتبرون هذا نوعان من الحرمان، ولو كان حرمانا مؤقتا؟

قال: ليست في الدعوة إلى ضبط الشهوات أي تحكم.. لأنه لا يمكن أن تقوم أمة من الأمم، وهي لا تتحكم في شهواتها.. ولا تنظمها.. إنها تتحول بذلك إلى غابة لا يأمن فيها الإنسان على نفسه، ولا على عرضه..

اقرأ ما تقول الإحصائيات عن نتائج الشهوات التي تمتلئ بها مدننا وحضارتنا، والتي غذتها تلك المخترعات التي حولناها إلى مواخير للرذيلة[٣]..

لقد صرح الدكتور براندون سنتروال المتخصص بدراسة مصادر الأمراض (Epidemiology) أنه لو لم يخترع جهاز التلفاز لكان هنالك في أمريكا في هذا العصر انخفاض في الإجرام بنسبة عشرة الآف جريمة قتل سنويا وسبعين ألف جريمة اغتصاب وسبعمائة ألف جريمة عنيفة.. وقد توصل الدكتور براندون إلى هذه النتائج إثر دراسة دامت قريبا من ثلاثين سنة.

---

(١) .

(٢) رواه مسلم.

(٣) المواقع الإباحية على شبكة الإنترنت وأثرها على الفرد والمجتمع، د. مشعل بن عبدالله القدهي.

فجهاز التلفاز دخل أمريكا وكندا سنة ١٩٤٥م، وفي الفترة ما بين ١٩٤٥ و١٩٧٤ ارتفعت نسبة القتل في تلك الدولتين بنسبة ٩٣ بالمائة في أمريكا و٩٢ بالمائة في كندا.

وقد رأى الدكتور أن يعضد نظريته بعلاقة وسائل الإعلام في تفشي الإجرام بأن أجرى بحثا على مجتمع جنوب أفريقيا.

فحكومة جنوب أفريقيا كانت قد منعت دخول جهاز التلفاز لأسباب سياسية حتى سنة ١٩٧٥م، وقد كانت وسائل الإعلام الأخرى كالكتب والإذاعة والمجلات وغيرها متوافرة بكثرة ومتطورة، لذا أمكن استبعاد تأثيرها على دراسته هذه.

وقد لاحظ الدكتور براندون أن نسبة جريمة القتل قد انخفضت في جنوب أفريقيا بنسبة ٧ بالمائة في نفس الفترة ما بين ١٩٤٥ و ١٩٧٤ التي ارتفعت فيها نسبة جرائم القتل في أمريكا وكندا.

وفي سنة ١٩٧٥ دخل جهاز التلفاز في جنوب أفريقيا فرأى الدكتور أن يتابع أثر هذا الجهاز على سلوك المجتمع وقيمه.

وقد تنبأ الدكتور براندون بأن مجتمع جنوب أفريقيا سيشهد ارتفاعا في نسبة الإجرام خلال ١٠ إلى ١٥ سنة من تاريخ ١٩٧٥ سنة دخول التلفاز، وأن أول فئة ستقبل على هذه الجريمة الشباب البيض، ثم يلحقهم الشباب السود بعد ذلك بحوالي ثلاث سنوات.

وبالفعل، لقد نشرت سنة ١٩٨٩ إحصاءات عن عدد ضحايا جريمة القتل في جنوب إفريقيا في سنة ١٩٨٧ فوجدوا أن نسبة القتل في تلك السنة قد ارتفعت بنسبة ١٣٠ بالمائة عما كانت عليه سنة ١٩٧٥، أي أن عدد ضحايا جريمة القتل قد ازداد إلى أكثر من الضعفين خلال فترة الإثنا عشرة سنة هذه[1].

التفت إلي، وقال: هذه دراسة واحدة فقط من ضمن عدد كبير جدا من الدراسات المشابهة التي تثبت خطر عدم التحكم في الشهوات.. وهي تثبت كذلك أن حضارتنا لم تعطنا أي كابح يجعل طاقات الأمة تتوجه نحو القيم الرفيعة لتوجه طاقتها فيها كما فعل الإسلام.. وهو دليل خطير على هزيمة الحضارة في هذا الجانب المهم من الحياة.

قلت: أيقنت هذا ووعيته.. فأخبرني عن التشريعات التي وضعها الإسلام ليحفظ بها الفرد والمجتمع من هذه الانحرافات الخطيرة التي وقعت فيها مجتمعاتنا.

قال: لا يمكن إحصاء ذلك في هذه الجلسة.. ولكني سأذكر لك أصول ما شرعه الإسلام في هذا الجانب

---

(١) وحينما سُئل الدكتور براندون كيف عرف أن الشباب البيض سيسبقون الشباب السود إلى هذا الأمر صرح قائلا أن الطائفة الثرية في مجتمع جنوب أفريقيا في ذلك الوقت كانت طائفة البيض، لذا عرف الدكتور أنهم سيكونون أول المقتنين لتلك الأجهزة الجديدة وأن أطفالهم سيكونون أول الأطفال تعرضا لهذه الوسيلة وتشبعا منه، ثم بعد مضي ثلاثة سنوات سيشتري السود الأجهزة المستخدمة عند البيض فتبدأ بالتأثير عليهم، فإذا مضى قرابة عشرة سنوات فسوف يشب أولئك الأطفال البيض الذين تربوا على التلفاز فيبدأ ظهور تأثيره عليهم، وهكذا مع السود، وبالفعل حصل الأمر كما توقع الدكتور براندون.

الخطير.. والذي لم أجد مثيلا له في أي دين من الأديان، أومذهب من مذاهب الأخلاق.

أولا.. لقد بدأ الإسلام، فملأ النفس نفورا من الفواحش وهربا منها حتى صارت بالنسبة لها هي القذارة بعينها، ففي الحديث:« إذا زنى الرجل أخرج منه الإيمان وكان عليه كالظلة فإذا أقلع رجع إليه الإيمان »[1]

وفي حديث آخر:« لا تزال أمتي بخير ما لم يفش فيهم الزنا فإذا فشا فيهم الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب »[2]

وفي حديث آخر:« إذا ظهر الزنا ظهر الفقر والمسكنة »[3]

وفي حديث آخر:« ما ظهر في قوم الزنا والربا إلا أحلوا بأنفسهم عذاب الله »

وفي حديث آخر عن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة: أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم، فليست من الله في شيء، ولن يدخلها الله جنته، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه يوم القيامة وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين »[4]

ولهذا وصف القرآن المؤمنين بأهم لا يقعون في مثل هذه الفواحش:﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً ﴾ (الفرقان:٦٨)

و لم يكتف الإسلام بتحريم الزنا، بل حرم كل ما يقرب منه، أو يؤدي إليه، ففي القرآن:﴿ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ (الأنعام: من الآية١٥١).. وفيه:﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ (الاسراء:٣٢)

أنت ترى كيف أن القرآن يحذر من مجرد مقاربة الزنا، وهي مبالغة في التحرز، لأن الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة، فالتحرز من المقاربة أضمن، فعند المقاربة من أسبابه لا يكون هناك ضمان.

ومن ثم يأخذ الإسلام الطريق على أسبابه الدافعة، توقياً للوقوع فيه.. فيكره الاختلاط في غير ضرورة.. ويحرم الخلوة.. وينهى عن التبرج بالزينة.. ويحض على الزواج لمن استطاع.. ويوصي بالصوم لمن لا يستطيع.. ويكره الحواجز التي تمنع من الزواج كالمغالاة في المهور.. وينفي الخوف من العيلة والإملاق بسبب الأولاد.. ويحض على مساعدة من يبتغون الزواج ليحصنوا أنفسهم.. إلى آخر وسائل الوقاية والعلاج، ليحفظ الجماعة الإسلامية من التردي والانحلال[5].

و لم يكتف الإسلام بهذا.. بل وضع معه الكثير من التشريعات الرادعة التي تملأ النفس نفورا من هذا النوع من المعاصي..

---

(١)رواه أبو داود واللفظ له والترمذي والبيهقي.

(٢) رواه أحمد بسند حسن.

(٣) رواه البزار.

(٤) رواه أبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه.

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب.

ومن هذه العقوبات ما نص عليه القرآن بقوله:﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور:٢)

قلت: إن قومي يؤلبون الخصومات على محمد بسبب هذا.

قال: أولئك جهلة أو منحرفون.. وهم لا يفهمون الإسلام.. ويتعجبون من مثل هذه التشريعات..

الإسلام يهتم بالإنسان، ويعتبره محور التشريعات والتنظيمات والحضارة.. فلذلك يتعامل مع النفس الإنسانية بجميع ما في هذه النفس من الرغبة والرهبة.

فيخاطب الرغبة بالحث على العفاف وبالإخبار بما في الجنة لمن صبر من الحور العين.. ويخاطب الرهبة بالعذاب الأليم.. وبأنواع الحدود التي شرعها.

نعم.. نحن في واقعنا اليوم نضحك على الحدود التي شرعها الإسلام في هذا الجانب.. ولكنا ننسى ما أدى إليه التساهل فيه من انتشار الأمراض، وانحلال الأسر، وتحطم المجتمعات.. وهو ما يفوق ذلك العقاب البسيط المحدود الذي وضعه الإسلام رادعا لا منتقما[1].

الكرم:

قلت: عرفت السر الأول.. فحدثني عن السر الثاني.

قال: السر الثاني هو الكرم.. ألا ترى إلى هذه الأزهار الكريمة التي تجود بتلك الروائح الطيبة، ولا تبخل بها على أحد من الناس!؟

قلت: بلى.. فلم نر من الأزهار منذ اختلطنا بها إلا خيرا.

قال: وهكذا الإسلام.. وهكذا من يستنير بأشعة شمس محمد.. فإنك لن تجد عنده إلا الكرم..

الكرم أصل أصيل من أصول الإسلام.. وهو ما نفتقده نحن معشر البخلاء الذين لم نكتف بالشح بما لدينا، بل رحنا ننهب ثروات الشعوب وخيراتها نتلاعب بها كما نشاء.. وقد نجود عليهم ببعض فتاتها، ثم نزعم أننا نتصدق عليهم بذلك.

قلت: تلك حضارة الاستعمار.. والمسيحية لم تفعل هذا.

قال: المسيحية فعلت أخطر من هذا.. فقد راحت تبيع ما لا تملك..

قلت: ما تقصد؟

قال: ألم تكن الكنيسة تبيع صكوك الغفران!؟

طأطأت رأسي خجلا، فقال: أصدقك القول.. إن كل رجال الدين من كل الأديان التي عرفتها انقلبوا لصوصا.. وحولوا معابدهم إلى دور للعصابات.. لقد ذكر القرآن هذا.. ففيه:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا

---

(١) سنرى التفاصيل المرتبطة بالحدود الشرعية والشبهات المثارة حولها في رسالة (عدالة للعالمين)

﴿ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة:٣٤)

قلت: والإسلام!؟

قال: لقد بحثت في آداب العالم وقيمه.. فلم أجد دينا يحث على الكرم، ويربي أتباعه عليه، كما وجدت في الإسلام..

لقد وردت النصوص المقدسة الكثيرة التي تحث على الكرم، وتعتبره من الكمال، بل تعتبره من مقاييس الكمال، فقد اعتبر محمد:« السخاء خلق الله الأعظم »[1]، وذكر أن « السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة قريب من النار، والجاهل السخي أحب إلى الله من عابد بخيل»[2].. وقال:« إن الله يدخل بلقمة الخبز، وقبضة التمر ومثله، مما ينفع المسكين ثلاثة الجنة: صاحب البيت الآمر به، والزوجة المصلحة، والخادم الذي يناوله المسكين »[3].. وقال:« إن المكثرين هم الأقلون يوم القيامة، إلا من أعطاه الله خيرا فنفخ فيه بيمينه وشماله وبين يديه ووراءه »[4].. وقال:« ما من مسلم ينفق من كل مال له زوجين في سبيل الله، إلا استقبلته حجبة الجنة، كلهم يدعوه إلى ما عنده»[5].. وقال:« كم من حوراء عيناء، ما كان مهرها، إلا قبضة من حنطة، أو مثلها من تمر»[6].. وقال:« اليد العيا خير من اليد السفلى، واليد العليا هي المنفقة، واليد السفلى هي السائلة »[7].. وقال:« لا حسد إلا في إثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»[8]

وأخبر أن الله يتقبل الصدقة، ويربيها لصاحبها، فقال:« إن الله يقبل الصدقة، ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد »[9]، وفي رواية:« إن الله ليربي لأحدكم التمرة واللقمة، كما يربي ولده، أو فصيله حتى يكون مثل أحد »[10].. وقال:« إن العبد ليتصدق بالكسرة، تربو عند الله حتى تكون مثل أحد »[11]

وأخبر أن أحب الأعمال إلى الله الكرم، فقال:« أحب الأعمال إلى الله تعالى، من أطعم مسكينا من

---

(١) ابن النجار عن ابن عباس.

(٢) الترمذي، عن أبي هريرة، والبيهقي عن جابر والبهقي والطبراني في الأوسط، عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) الحاكم، عن أبي هريرة.

(٤) الشيخان عن أبي ذر.

(٥) أحمد، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم عن أبي ذر.

(٦) العقيلي في الضعفاء عن ابن عمر.

(٧) أحمد، والشيخان، وأبو داود، والترمذي: عن ابن عمر.

(٨) أحمد، والشيخان، وابن ماجة، عن ابن مسعود.

(٩) الترمذي عن أبي هريرة.

(١٠) أحمد، وابن حبان في صحيحه عن عائشة.

(١١) الطبراني عن أبي برزة.

جوع، أو دفع عنه مغرما، أو كشف عنه كربا»[1].. وقال:« أحب الأعمال إلى الله بعد الفرائض، إدخال السرور على المسلم»[2]

وأخبر عن حب الله للمكرمين، فقال:« إن أحب عباد الله إلى الله، من حبب إليه المعروف، وحبب إليه أفعاله »[3].. وقال:« إن الله تعالى استخلص هذا الدين لنفسه، ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق، ألا فزينوا دينكم بهما »[4].. وقال:« إن الله تعالى جواد يحب الجود، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها »[5]، وقال:« ما عظمت نعمة الله على عبد إلا اشتدت عليه مؤنة الناس، فمن لم يحتمل تلك المؤنة للناس فقد عرض تلك النعمة للزوال »[6]

وقال:« خلقان يحبهما الله، وخلقان يبغضهما الله، فأما اللذان يحبهما الله فالسخاء والسماحة، وأما اللذان يبغضهما الله تعالى، فسوء الخلق والبخل، وإذا أراد الله بعبد خيرا، استعمله على قضاء حوائج الناس »[7]

وأخبر أن الصدقة تقي صاحبها من النار، فقال:« ليتق أحدكم وجهه من النار ولو بشق تمرة »[8].. وقال:« اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجد فبكلمة طيبة »[9]، وفي رواية:« اجعلوا بينكم وبين النار حجابا ولو بشق تمرة »[10]، وفي أخرى:« تصدقوا ولو بتمرة، فإنها تسد من الجائع، وتطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار »[11]، وفي حديث آخر قال:« تصدقوا فإن الصدقة فكاككم من النار »[12]، وقال:« إن الصدقة لتطفىء عن حر القبور، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته »[13]، وقال:« من أطعم أخاه من الخبز حتى يشبعه، وسقاه من الماء حتى يرويه، بعده الله من النار سبع خنادق، كل خندق مسيرة سبعمائة عام »[14]

---

(١) الطبراني عن الحكيم بن عمير.

(٢) الطبراني عن ابن عباس.

(٣) ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ عن أبي سعيد.

(٤) الطبراني عن عمران بن حصين.

(٥) البيهقي عن طلحة بن عبيد الله، وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس.

(٦) ابن أبي الدنيا عن عائشة، والبيهقي عن معاذ.

(٧) البيهقي عن ابن عمر.

(٨) أحمد عن ابن مسعود.

(٩) الشيخان، والنسائي عن عدي بن حاتم، وأحمد عن عائشة، والبزار، والطبراني، والضياء عن أنس والبزار، والطبراني، والضياء عن أنس، والبزار عن النعمان بن بشير وعن أبي هريرة، والطبراني عن ابن عباس وعن أبي أمامة.

(١٠) للطبراني عن فضالة بن عبيد.

(١١) الطبراني عن فضالة بن عبيد.

(١٢) الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية عن أنس.

(١٣) الطبراني عن عقبة بن عامر.

(١٤) النسائي، والحاكم عن ابن عمر.

وفي حديث آخر يرسم الصورة التي تمثل ذلك بقوله:« ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا ير إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، ولو بكلمة طيبة »[1]

وأخبر عن تأثير الكرم في الوقاية من نيران الدنيا، فقال:« صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات، وأهل المعروف في الدنيا، هم أهل المعروف في الآخرة، وإن أهل المنكر في الدنيا، هم أهل المنكر في الآخرة»[2]

بل ذكر ما هو أعظم من ذلك، فقال:« تسد الصدقة سبعين بابا من السوء »[3]، وقال:« الصدقة تمنع سبعين نوعا من أنواع البلاء، أهونها الجذام والبرص»[4]، وقال:« الصدقة تمنع ميتة السوء »[5]، وقال:« مناولة المسكين تقي ميتة السوء »[6]، وقال:« تداركوا الهموم والغموم بالصدقات، يكشف الله تعالى ضركم، وينصركم على عدوكم»[7]، وقال:« الصدقة على وجهها، واصطناع المعروف، وبر الوالدين، وصلة الرحم، تحول الشقاء سعادة، وتزيد في العمر، وتقي مصارع السوء »[8]

وأخبر عن عظم الغبن الذي يحيق بالبخلاء، فقال:« إعلموا أنه ليس منكم أحد، إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، مالك ما قدمت، ومال وارثك ما أخرت »[9]، وفي رواية:« أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله، فإن ماله ما تقدم، ومال وارثه، ما تأخر »[10]

وأخبر عن الجزاء المعد للكرماء في الدنيا قبل الآخرة، فقال:« إذا أراد الله بقوم نماء، رزقهم السماحة والعفاف، وإذا أراد الله بقوم اقتطاعا فتح عليهم باب خيانة »[11]، وقال:« استعينوا على الرزق بالصدقة »[12]، وقال:« استنزلوا الرزق بالصدقة »[13]

---

(١) أحمد، والشيخان، والنسائي، وابن ماجة عن عدي بن حاتم.

(٢) الحاكم عن أنس.

(٣) الطبراني عن رافع بن خديج.

(٤) الخطيب عن أنس.

(٥) القضاعي عن أبي هريرة.

(٦) الطبراني والبيهقي عن حارثة بن النعمان.

(٧) الديلمي عن أبي هريرة.

(٨) أبو نعيم في الحلية عن علي.

(٩) النسائي عن ابن مسعود.

(١٠) أحمد، والترمذي عن ابن مسعود.

(١١) ابن عساكر، والطبراني عن عبادة بن الصامت.

(١٢) الديلمي عن عبد الله بن عمرو المزني.

(١٣) البيهقي عن علي، وابن عدي عن جبير بن مطعم، وأبو الشيخ عن أبي هريرة.

وأخبر « أن ملكين يترلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا »[1]، وقال:« إن الله تعالى يقول يا ابن آدم أودع من كترك عندي، ولا حرق، ولا سرق، ولا غرق، أوفيكه أحوج ماتكون إليه »[2]

وغيرها من النصوص الكثيرة التي جعلت الكرم من القيم النبيلة التي يتنافس فيها الأغنياء والفقراء على حد سواء.

و لم يكتف الإسلام بهذا.. بل شرع التشريعات الكثيرة التي تجعل من الكرم خلقا مفروضا.. لا مجرد تكرم يرتبط بقوة الإيمان وضعفه.

ولهذا، فإن الزكاة ــ التي تمثل شريعة من شرائع الكرم ــ ركن من أركان الإسلام.. والإسلام لم يكتف بها.. بل ربط الكثير من العبادات والكفارات بالصدقات.

المروءة:

قلت: فحدثني عن السر الثالث من أسرار زهرية الأزهار.

قال: المروءة.. المروءة هي السر الثالث من أسرار الأزهار.

قلت: لم أفهم علاقة المروءة بالأزهار.

قال: المروءة هي الترفع عن السفاسف.. والبحث عن المعالي.

قلت: عرفتها في البشر.. و لم أعرفها في الأزهار.

قال: ألا ترى الأزهار كيف تتنافس في ألوالها وأشكالها وعطورها.. بحيث تحاول كل زهرة أن تفوق غيرها!؟

قلت: ما تقوله صحيح..

قال: فإذا وصل البشر إلى هذه المرتبة من التعالي عن السفاسف، والبحث عن الرتبة النفيسة كانوا كالأزهار..

وقد بحثت في الأديان والمذاهب عن هذا النوع الشريف من أنواع التنافس، فلم أجده في الإسلام.

لقد ظهر في المجتمعات الإسلامية جماعات ليس لها من هم إلا التنافس في المروءة.. وقد أطلق على هؤلاء لقب « الفتيان »، وأطلق على سلوكهم « الفتوة »،

استنباطا لذلك مما ورد في القرآن من مدح الفتوة.. فقد ورد في وصف أهل الكهف:﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾ (الكهف: من الآية١٣)، وفيه عن قوم إبراهيم ألهم قالوا:﴿ سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (الانبياء: من الآية٦٠)

وقد عرف ابن القيم « الفتوة » باعتبارها مترلا من منازل السائرين، فقال:« حقيقتها هي مترلة الإحسان

---

(١) الشيخان وغيرهما.

(٢) البيهقي عن الحسن مرسلا.

إلى الناس، وكف الأذى عنهم، واحتمال أذاهم، فهي استعمال حسن الخلق معهم، فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله»[1]

وعرفها السبكي، فقال:« والفتوة من أعظم خصال الخير جامعة كمال المروءة وحسن الخلق والإيثار على النفس واحتمال الأذى وبذل الندى وطلاقة الوجه والقوة على ذلك ، حتى تكون فتوته على ذلك فتوة الفتيان والصفح عن العثرات ويكون خصما لربه على نفسه وينصف من نفسه ولا ينتصف ولا ينازع فقيرا ولا غنيا ويستوي عنده المدح والذم والدعاء والطرد ولا يحتجب ولا يدخر ولا يعتذر ويظهر النعمة ويحقق المحبة سرا وعلنا فإذا قوي على ذلك فهو الفتى وإذا اجتمع قوم على ذلك وتعاهدوا عليه فنعم ما هو »[2]

وقد ذكر ابن القيم أن أقدم من تكلم في الفتوة جعفر بن محمد ثم الفضيل بن عياض والإمام أحمد وسهل بن عبدالله والجنيد ثم الطائفة، فذكر عن جعفر بن محمد أنه سئل عن الفتوة فقال للسائل:« ما تقول أنت؟» فقال:« إن أعطيت شكرت وإن منعت صبرت»، فقال:« الكلاب عندنا كذلك »، فقال السائل:« يا ابن رسول الله ﷺ فما الفتوة عندكم؟»، فقال:« إن أعطينا آثرنا، وإن منعنا شكرنا »

وقال الفضيل بن عياض:« الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان »، وقال الإمام أحمد، وقد سئل عن الفتوة:« ترك ما تهوى لما تخشى »، وسئل الجنيد عن الفتوة فقال:« لا تنافر فقيرا ولا تعارض غنيا »، وقال الحارث المحاسبي:« الفتوة أن تنصف ولا تنتصف »، وقال عمر بن عثمان المكي:« الفتوة حسن الخلق »

ويعبر الدقاق عن كمال الفتوة، فيقول:« هذا الخلق لا يكون كماله إلا لرسول الله ﷺ، فإن كل أحد يقول يوم القيامة نفسي نفسي، وهو يقول أمتي أمتي »[3]

وعرف صاحب المنازل منبع الفتوة وأصلها، فقال:« أن لا تشهد لك فضلا، ولا ترى لك حقا »، وقد شرحه ابن القيم بقوله:« قلب الفتوة وإنسان عينها أن تفنى بشهادة نقصك وعيبك عن فضلك وتغيب بشهادة حقوق الخلق عليك عن شهادة حقوقك عليهم»[4]

والحكايات والقصص الورادة عن هؤلاء الفتيان تبرز ناحية مهمة، وهي التنافس على الأخلاق العالية النبيلة، ووجود التنافس على الخير في المجتمع يرفع المجتمع إلى آفاق عالية من التحضر، ولهذا مر المجتمع الإسلامي بفترات يكاد يعدم فيها الفقر لكثرة من يتنافس على الرحمة بالفقراء وخدمتهم.

ومن تلك الحكايات، وهي متعلقة بجانب من الفتوة، وهو التغافل عن عيوب الغير وأخطائهم، أن رجلا من الفتيان تزوج امرأة، فلما دخلت عليه رأى بها الجدري، فقال: اشتكيت عيني، ثم قال: عميت، فبعد عشرين سنة ماتت، و لم تعلم أنه بصير، فقيل له في ذلك، فقال:« كرهت أن يحزنها رؤيتي لما بها »، فقيل له:« سبقت

---

(١) مدارج السالكين:٢/٣٤٠.
(٢) فتاوى السبكي: ٢/٥٤٨.
(٣) مدارج السالكين:٢/٣٤٢.
(٤) مدارج السالكين:٢/٣٤٣.

الفتيان »

ومثل ذلك أن امرأة سألت حاتما عن مسألة، فاتفق أنه خرج منها صوت في تلك الحالة، فخجلت، فقال حاتم:« ارفعي صوتك »، فأوهمها أنه أصم، فسرت المرأة بذلك، وقالت:« إنه لم يسمع الصوت » فلقب بحاتم الأصم »

واستضاف رجل جماعة من الفتيان، فلما فرغوا من الطعام خرجت جارية تصب الماء على أيديهم، فانقبض واحد منهم، وقال:« ليس من الفتوة أن تصب النسوان الماء على أيدي الرجال » فقال آخر منهم:« أنا منذ سنين أدخل إلى هذه الدار، و لم أعلم أن امرأة تصب الماء على أيدينا أو رجلا »

وقدم جماعة فتيان لزيارة فتى، فقال الرجل:« يا غلام قدم السفرة »، فلم يقدم، فقالها ثانياوثالثا فلم يقدم، فنظر بعضهم إلى بعض، وقالوا:« ليس من الفتوة أن يستخدم الرجل من يتعاصى عليه في تقديم السفرة كل هذا »، فقال الرجل:« لم أبطأت بالسفرة »، فقال الغلام:« كان عليها نمل، فلم يكن من الأدب تقديم السفرة إلى الفتيان مع النمل، و لم يكن من الفتوة إلقاء النمل وطردهم عن الزاد، فلبثت حتى دب النمل »، فقالوا:« يا غلام مثلك يخدم الفتيان »

قال ابن القيم:« ومن الفتوة التي لا تلحق ما يذكر أن رجلا نام من الحاج في المدينة، ففقد هميانا فيه ألف دينار، فقام فزعا فوجد جعفر بن محمد ﷺ، فعلق به وقال:« أخذت همياني »، فقال:« أي شيء كان فيه؟»، قال:« ألف دينار »، فأدخله داره، ووزن له ألف دينار، ثم إن الرجل وجد هميانه، فجاء إلى جعفر معتذرا بالمال، فأبى أن يقبله منه، وقال:« شيء أخرجته من يدي لا أسترده أبدا »، فقال الرجل للناس:« من هذا؟»، فقالوا:« هذا جعفر بن محمد ﷺ »[1]

التضحية:

قلت: فحدثني عن السر الرابع من أسرار زهرية الأزهار.

قال: لن تكون الأزهار أزهارا حتى تمتلئ بمعاني التضحية والبذل والإيثار.

قلت: لم أفهم علاقة الأزهار بذلك..

قال: ألا ترى الزهرة تظل تمنحنا أريجها العطر إلى أن تذبل؟

قلت: بلى..

قال: فهي تبذل لنا ــ مع أنفاس عطرها ــ روحها.. هي كالشمعة تحرق لتضيء لنا.

قلت: فأين وجدت مثل هذا النبل؟

قال: لم أجده إلا في الإسلام.. وفي القيم التي ربى الإسلام عليها المسلمين.. إن التضحية بالنفس والمال والوقت في سبيل الله من أسمى أخلاق الإسلام، ومن أرفع واجباته.

قلت: في سبيل الله.. لا في سبيل الخلق.

(١) مدارج السالكين:٢/٣٤٣.

قال: سبيل الله في الإسلام يراد به سبل الخلق.. وإنما اعتبر سبيلا لله حتى لا يطلب صاحبه عليه أجرا إلا الأجر الذي أعطاه الله له.

لقد قال القرآن في الأمر بالتضحية في سبيل نصرة المستضعفين:﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾ (النساء:٧٥)

ويصف القرآن معنى آخر من معاني التضحية، فيقول:﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر:٩)

ففي هذه الآية إخبار عن الإيثار الذي تحلى به الأنصار لما قدم المهاجرون إليهم، بعد أن تركوا في بلادهم كل ما يلزم لنفقتهم، فوجدوا لهم إخوانا لهم اقتسموا معهم زادهم، بل آثروهم على أنفسهم.

وقد سبق ذكر الآية السابقة قوله:﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحشر:٨)، فأخبر بفضل المهاجرين الذي آثرهم الأنصار على أنفسهم ليبين أن ذلك الإيثار وتلك النفقات لم تذهب عبثا، بل وقعت في موقعها الصحيح، لأن الإنسان قد ينفق، ويؤثر ولكنه لا يسد خللا، لا يحقق مقصدا، لأنه رمى بنفقته في غير مواضعها، فعبثت بها الرياح.

وقد حفظت لنا كتب الحديث بعض ما فعله الأنصار مع المهاجرين، فعن أنس قال: قال المهاجرون:« يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم، أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله »، فقال ﷺ:« لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم »[1]

وظلوا هكذا حتى بعد أن فتح الله على المؤمنين، وقد روي أن محمدا دعا الأنصار أن يقطع لهم البحرين، فقالوا:« لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها »، قال:« إما لا، فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم أثرة »[2]

بل روي أكثر من ذلك، فعن أبي هريرة قال: قالت الأنصار:« اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل »، فقال:« لا »، فقالوا:« أتكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة؟» قالوا:« سمعنا وأطعنا »[3]

بل روي أكثر من ذلك، فقد كان الأنصار من حرصهم على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين أنه ما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة.

---

(١) أحمد.

(٢) البخاري.

(٣) البخاري.

وكان المهاجرون في قمة الاستغناء، كما كان إخوانهم الأنصار فيقم البذل، فقد روي أنهم لما قدموا المدينة آخى محمد بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال سعد لعبد الرحمن:« إني أكثر الأنصار مالا، فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك، فسمِّها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها »، فقال عبد الرحمن:« بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟؟»

وقد عبر القرآن الكريم عن هذا التكافل بصورة أخرى جميلة، فقال:﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾ (الانسان:٨ ـــ ٩)

ففي هاتين الكريمتين إخبار عن إيثار هؤلاء المحاويج من المؤمنين غيرهم بالطعام مع حبهم له وحاجتهم إليه، ثم هم لا يطلبون على ذلك جزاء ولا شكورا.

وهو موقف يشبه كثيرا موقف النبي موسى عندما سقى للفتاتين، ثم أوى إلى الظل من غير أن يشعر نفسه أو يشعر غيره أنه فعل شيئا، قال:﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص:٢٤)

وهذه المواقف ـــ في حقيقتها، وفي حقيقة الإسلام ـــ ليست شيئا ثانويا مستحبا، وإنما هي واجب من واجب من واجبات الدين، فقد ورد في الحديث:« ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به »[١]، وقال:« أيما أهل عرصة بات فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله »[٢]

بل نص القرآن على هذا في مواضع مختلفة بصيغ مشددة تدل على أن الأمر ليس موكولا لرغبات الناس، وإنما هو واجب من واجبات الدين، فلا يصح أن يموت الناس جوعا في نفس الوقت الذي تمتلئ يه خزائن الكثيرين، ولو دفعوا الزكاة.

القوة:

قلت: فحدثني عن السر الخامس من أسرار زهرية الأزهار.

قال: السر الخامس هو (القوة)

قلت: ولكني أرى الأزهار ضعيفة تطؤها الأقدام، وتطحنها الأصابع.

قال: القوة في عيون الحقائق أرفع من أن تختصر في عضلات مفتولة، أو قامة متطاولة.

قلت: فما هي القوة؟

قال: لقد عبر محمد عن بعض مظاهما، فقال:« ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »[٣]، وفي رواية أخرى:« أتحسبون أن الشدة في حمل الحجارة؟ إنما الشدة في أن يمتلئ أحدكم غيظا ثم

---

(١) البزار، والطبراني في الكبير عن أنس.
(٢) مسلم عن ابن عمر.
(٣) أحمد والبيهقي عن أبي هريرة.

يغلبه »[1]

قلت: فهل للأزهار مثل هذه القوة؟

قال: أجل.. ألا ترى المجرمين يدوسونها بأقدامهم، أو يذبحونها بأيديهم، أو يطحنونها بأصابعهم.. ولكنها لا تبخل بعطرها عليهم!؟

قلت: أجل.. أرى ذلك.

قال: فهذا مظهر من مظاهر القوة.

قلت: تقصد ما نسميه (قوة الشخصية)

قال: لقد جاء الإسلام بكل أنواع القوة.. وحث على كل أنواع القوة.. وأمر بأن تسخر كل ألوانها في صالح الخير والحق والجمال.

لقد قال القرآن آمرا بالأخذ بالقوة لحماية المستضعفين:﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال:٦٠)

وأهم أنواع القوة التي حث الإسلام عليها، وأمر بها قوة النفس وترفعها وتعاليها بالحق الذي تملكه.

قلت: تقصد العزة؟

قال: العزة مظهر من مظاهر القوة، بل هي من أجلى مظاهرها، وقد وصف القرآن بها المؤمنين، فقال:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة:٥٤)

وأخبر أنها خلق من أخلاق المؤمنين التي يجب أن يتحلوا بها ويحرصوا عليها فقال:﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ)(المنافقون: من الآية٨)، وقال:﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(آل عمران:١٣٩)

فهذه الآية تعلم المؤمنين إباء الضيم، والثورة على المذلةِ والهوان.

ولهذا وصف الله المؤمنين في الأجيال السابقة للإسلام بهذا الخلق، فقال:﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)﴾ (آل عمران)

بل إن القرآن يسمي الله بـــ (الْعَزِيزُ) ما يقرب من تسعين مرة، ليملأ أسماع المؤمنين بحديث العزة والقوة، فإذا ما سيطر عليهم اليقين بعزة ربهم تأبوا على الهوان حين يأتيهم من أي مخلوقٍ.

---

(١) ابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن عامر بن سعد بن أبي وقاص.

وقد علم القرآن المؤمنين الإقدام والاحتمال والثبات في مواطن اليأس موقنين أن الله معهم في تلك المواقف الشديدة.. ﴿ وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ (النساء:١٠٤).. ﴿ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (محمد:٣٥)

قلت: أليس في هذا تناقضا مع دعوة الإسلام إلى السلام.. ففي الآية التي قرأتها نهي عن الدعوة إلى السَّلْم!؟

قال: فرق كبير بين السلم والسلام.. فالسلم هو الاستسلام لشروط الأعداء وكبرهم والتذلل لهم والتضعضع أمامهم.. أما السلام فهو تحقيق الأمن للنفوس والمجتمعات في ظلال العدل والحرية والإخاء والمساواة.

فإذا لم يحقق السلام هذه المطالب.. فليس هو بسلام.. والشدة في ذلك الحين قد تكون هي البلسم الذي يعيد للحياة صفاءها وسلامها.

ولهذا أخبر القرآن أن الفتنة أشد من القتل، فقال:﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (البقرة: من الآية١٩١)

الأمانة:

قلت: فحدثني عن السر السادس من أسرار الأزهار.

قال: السر السادس هو (الأمانة)

قلت: تقصد رد الودائع..

قال: رد الودائع مظهر من مظاهر الأمانة.. أما الأمانة في ذاتها فإن لها من المظاهر عدد زبد البحر.

قلت: فما حدها الجامع؟

قال: لقد أناط الله بكل مخلوق في كل محل من المحال، وفي كل زمن من الأزمان وظيفة ألزمه بأدائها، فإذا أداها كما ينبغي من غير غش ولا خداع ولا خيانة ولا احتيال كان أمينا.

ألا ترى كيف أن ابنة الشيخ الصالح سمت موسى أمينا من غير أن تودعه أي وديعة، فقالت لأبيها:﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ (القصص: من الآية٢٦)؟

قلت: فكيف عرفت أمانته؟

قال: لقد كان الموقف الذي وقفه موسى يقتضي إعانة الفتاتين الضعيفتين، ولو قصر في ذلك كان خائنا..

نظرت إلى الأزهار، وقلت: فهل تحققت الأزهار بهذا؟

قال: أجل.. لقد أنيط بها أن تكون متعة للعين وراحة للنفس ولذة للشم.. وهي تؤدي كل ذلك بكل تفان من غير أي تقصير.

قلت: فما أمانة البشر؟

قال: لقد ذكر القرآن أن الله حمل البشر أمانة عظيمة عجزت السموات والأرض عن حملها، فقال:﴿ إِنَّا

عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْأِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (الأحزاب:٧٢)

قلت: فما هذه الأمانة؟

قال: أمانة الخلافة.. لقد ذكر القرآن أن الله خلق الإنسان لأجل الخلافة.

قلت: فما الخلافة؟

قال: لها جهتان: جهة إلى الله تستدعي التسليم له ومحبته وطاعته المطلقة، وجهة إلى الخق تستدعي التعامل معهم وفق ما يقتضيه العدل والرحمة.

وقد ذكر القرآن الجهة الثانية، فقال عن داود:﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (صّ:٢٦)

قلت: لقد كان داود حاكما، وليس كل الناس كذلك.

قال: كل إنسان له حكم يرتبط به.. لقد ذكر ذلك محمد فقال:« كلكم مسئول عن رعيته، فالامام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته، وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »[1]

قلت: فكيف تزعم أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تحقق له هذا السر العظيم؟

قال: لأني لم أجد دينا يحرص على الأمانات مع كل الخلق من الأصدقاء والأعداء مثل الإسلام..

لقد قرأت الكتب المقدسة، فلم أجد نصا يقول لأتباعه:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة:٨)

ويقول لأتباعه، في أحوال شدهم:﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (لأنفال:٥٨)

أتعلم ما تعني هذه الآية؟

قلت: ما تعني؟

قال: أي إذا خشيت من قوم نقض عهدهم، وأردت أن تلغي عهدك معهم، فلا تغدر بهم، بل أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك[2].

---

(١) البخاري ومسلم.

(٢) ابن كثير.

إن الإسلام لا يجيز نقض العهد حتى في حالات الشدة انتهازا للفرصة.

قارن هذا بالعهود الكثيرة التي يقطعها قومنا على أنفسهم، ثم سرعان ما ينكثون بها، بل يغدرون في نكثهم.

الصدق:

قلت: فحدثني عن السر السابع.

قال: السر السابع هو (الصدق)

قلت: فما الصدق؟

قال: الصفاء والخلاص الذي لم يكدر بأي شائبة.. ألا ترى إلى هذه الأزهار التي تمتلئ صفاء ورقة وشفافية!؟

قلت: الصدق ممدوح في الشرائع جميعا.

قال: ولكني لم أجد دينا يحرص على الصدق ويملأ القلب به، بل يضعه في ذروة المقامات الرفيعة مثل الإسلام.. فهو الدين الوحيد الذي رفع الصدق إلى أعلى الدرجات، ونزل بالكذب إلى أخفض الدركات.

لقد قال محمد في الآثار التي يحدثها الصدق والكذب:«:« إنّ الصِدقَ يَهدي إلى البّر وإنّ البرّ يهدي إلى الجَنّةِ، وإنّ الرجُلَ لَيَصدِقُ حتّى يُكتَبَ عِندَ اللّه صِدّيقا، وإنّ الكَذِبَ يهدي إلى الفُجورِ وإنّ الفُجورَ يَهدي إلى النّار، وإنّ الرَجُلَ لَيَكذِبُ حتى يُكتَبَ عِندَ اللّهِ كَذابا »[1]

بل اعتبر الكذب وما يرتبط به من النفاق الذي توعد القرآن أهله بالدرك الأسفل من النار، ففي الحديث:« أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر »[2]

***

ما وصل (آرثر جون آربري) من حديثه إلى هذا الموضع حتى امتلأت عيناه بدموع لم يملك حبسها.

قلت: ما الذي يبكيك؟

قال: يبكيني أمران:

أما أولهما، فنقض الكثير من المسلمين للعهود التي عهد إليهم بها نبيهم، وتركهم للقيم الرفيعة التي جاءهم بها طلبا لما عندنا، وهم يعلمون أنا لسنا على شيء.

وأما الثاني، فتكبرنا على محمد وعلى أمة محمد وعلى القيم التي جاء بها محمد.. وهو ما أحالنا إلى شريعة الغاب التي نحياها.

ثم ابتسم، وقال: أنا لست يائسا.. يوشك أن تعود البشرية إلى هذا الهدي العظيم.. ولكن بعد أن تصلى

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري.

بنيران الأشواك التي نسجتها بأهوائها.

قلت: متى ذلك؟

قال: إذا تخلت عن كبريائها، وفخرها، وتطاولها.. حينذاك ستجد محمدا وهدي محمد أقرب إليها من نفسها.

قلت: أنا أعجب لك حضرة الأستاذ الفاضل كيف تحزن على البشرية، ولا تحزن على نفسك.

قال: لن أقول لك إلا ما قاله (اللورد هدلي)

قلت: تقصد قوله:« إنني أعتقد أن هناك آلافاً من الرجال والنساء أيضاً، مسلمون قلباً، ولكن خوف الانتقاد والرغبة في الابتعاد عن التعب الناشئ عن التغيير، تآمروا على منعهم من إظهار معتقداتهم »

قال: لقد صدق الرجل.. لقد صدق الرجل..

أردت أن أسأل، فتركني، ومضى، وقد امتلأ قلبي بأنوار جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

رابعا ــ إنسانية

في اليوم الرابع من تلك الأيام العشرة التقيت المستشرق الذي قطفت على يده ثمرة الإنسانية من شجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى:﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥)﴾(التين)

وسر قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (الاسراء:٧٠)

وسر قوله تعالى:﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْأِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (الأحزاب:٧٢)

فهذه النصوص المقدسة تخبر عن التكريم العظيم الذي ناله الإنسان في الإسلام، وتخبر في نفس الوقت عن المسؤولية العظيمة المناطة به.

ولا يمكن أن يعرف الإنسان إلا بهما.. بمعرفة حقيقته الشريفة، ووظائفة العظيمة.

***

سمعت بمارسيل بوازار، وهو مفكر، وقانوني فرنسي، كان له اهتمام كبير بالعلاقات الدولية وحقوق الانسان، وقد كتب عدداً من الأبحاث للمؤتمرات والدوريات المعنية بهما.

وكان يضم إلى هذا الاهتمام اهتمامه بالإسلام، وقد كتب كتابه (إنسانية الإسلام)، الذى انبثق عن اهتمامه الشديد بالإنسان، وبالإسلام في نفس الوقت..

ولهذا الكتاب أهمية كبرى في الدراسات الغربية للإسلام، بما تميز به من موضوعية، وعمق، وحرص على اعتماد المراجع التى لا يأسرها التحيز والهوى، زيادة على رجوعه للمصادر الإسلامية نفسها.

وبسبب هذا الكتاب.. وبسبب موضوعية الرجل.. كان اسمه من الأسماء التي وضعت في الدفتر الذي سلمني إياه المرشد، مع كونه لم يكن ينتسب لجامعة السربون.

وقد كنت أتحين الفرص للقائه والاستماع إليه، ولكني لم أظفر بذلك إلا في ذلك اليوم الجميل...

في ذلك اليوم كنت أسير في شارع مزدحم من شوارع باريس.. كانت أصوات السيارات فيه تكاد تصيبني بالصمم.. وكان الهواء مكدرا.. والروائح التي تنبعث من المحلات المختلفة تملأ الأنف بالتقزز..

ربما هناك من يحب هذه الأجواء المزدحمة.. ولكني لم أكن من هذا النوع.. فأنا أحب الحياة الهادئة الوديعة المسالمة الساكنة..

في ذلك الجو الكئيب ــ بالنسبة لي على الأقل ــ التقيت ضالتي التي كنت أبحث عنها (مارسيل بوازار).. وقد عجبت إذ رأيته ينشغل في ذلك الزحام بشجرة من الأشجار، يطأطئ رأسه إليها، ويحرك بيديه تربتها، ويزيل عنها ما علق بها من آثار الازدحام، ثم يخرج من حقيبته قارورة ماء، يسقيها بها، ويمسح على أغصانها

وأوراقها كما يمسح أحدنا على رأس اليتيم والمسكين.

تعجبت من سلوكه الطيب هذا.. واقتربت منه، وحييته، فرد علي التحية، ثم عاد إلى الشجرة يمسح عنها ما علق بها.

قلت له: ألست (مارسيل بوازار)؟

قال: أجل.. هل تعرفني؟

قلت: أجل.. لقد قرأت كتابك عن (إنسانية الإسلام).. وأنا أتعجب كيف كتبت ذلك الكتاب، ولماذا كتبته؟

قال: كتبته لأجل هذه الشجرة التي تراها تئن، ولا يسمعها أحد.. وتبكي ولا تجد من يمسح دموعها.. وتمتلئ الأرض التي تستقر عليها بالقاذورات، ثم لا تجد من ينظفها.

قلت: لم أرك في كتابك تذكر شجرة من الأشجار..

قال: بل لم أذكر غير الأشجار..

قلت: إلى ما يرمز قولك هذا.

قال: الإنسان لا يختلف عن الشجرة.. فطرة الإنسان التي لم تتدنس بالأفكار الشيطانية لا تختلف عن فطرة الأشجار.. ولذلك جعلت الشجرة رمزي الذي أصل به إلى حقيقة الإنسان.. وحقوق الإنسان.

قلت: فأنت لا تختلف عن دارون إذن.. لقد اعتبر دارون الحيوانات.. أو الخلية الحيوانية هي أصل الإنسان.. وأنت تجعلها الخلية النباتية.

قال: أنت تسيء إلي بهذه المقارنة.

قلت: كيف؟

قال: أنا أبحث عن حقوق الإنسان.. والتي تنطلق من كرامة الإنسان.. أما ذلك الرجل ــ قصد أو لم يقصد ــ فقد كان فكره معاديا للإنسان.. وحقيقة الإنسان.. وحقوق الإنسان.

قلت: فأنت لا تؤمن بتفسير دارون للحياة.

قال: إن كل عاقل لا يجد في نظرية دارون إلا الانحطاط..

أنا لا يهمني استغلال دارون لبعض المعلومات التي توصل إليها في رحلاته.. والتي حاول من خلالها أن يرسم للإنسان صورة حيوانية.. بل صورة لا يرضاها الحيوان لنفسه[1].. ولكن يهمني استغلال المعادين للإنسان نظريته ليحطموا بها حقيقة الإنسان، ثم يفرضوا ــ بعد ذلك ــ ما توهموه من حقوق الإنسان.

قلت: فهل حصل هذا؟.. هل خرجت نظريته من علم الحياة إلى علم القانون والاجتماع..

قال: بل خرجت نظريته إلى كل ميادين الحياة.. ألست ترى نظريته تدرس فى معظم مدارس الأرض، لا على أنها فرضية علمية، كما اعتبرها دارون نفسه.. ولا على أساس أنها نظرية علمية لم تثبت ثبوتا قاطعا

(١) انظر الرد العلمي على نظرية دارون في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

يرشحها لأن تكون حقيقة علمية.. بل هي تدرس على أنها حقائق نهائية فى علم الحياة.

قلت: فما يضرك من تدريسها؟.. أم أنك تقف مع الكنيسة التي كفرت دارون ابتداء، ووصفته بأنه زنديق مهرطق مارق من الدين، لأنه ينفى الخلق المباشر من الله للإنسان على صورته؟

قال: ربما يكون هذا أحد الأسباب.. ولكن السبب الأخطر له علاقة بهذه الشجرة.

قلت: أراك تعود إلى الشجرة من جديد؟

قال: أجل.. هذه الشجرة تمثل الإنسان.. لقد رأيت أخواتها في الغابات الطليقة، ورأيت لها من الجمال ما لا يمكن وصفه، وذقت من ثمارها ما لا يستطيع لساني أن ينساه، وشممت من روائحها الطيبة ما ملأني بالروحانية العذبة..

أما هذه الشجرة المسكينة التي عزلت عن أخواتها، وأكرهت على أن تعيش في واقع غير واقعها.. وأن تعيش حياة غير حياتها.. فأنت تراها ذابلة ميتة.. نعم لها أوراق وسيقان تجعلها تعيش حياة بدائية.. ولكن بلا ثمار طيبة.. ولا روائح زكية.. ولا حياة مطمئنة.

قلت: ما علاقة ذلك ببغضك لنظرية دارون؟

قال: دارون نقل شجرة الإنسان من الغابة التي غرست فيها إلى غابة اختلط فيها الكل.. فلم تعد للإنسان رائحة الإنسان، ولا طعم الإنسان، ولا جمال الإنسان.

قلت: لم أفهم مرادك.

قال: لقد كان الإنسان منذ وجدت الدنيا ينظر إلى نفسه على أنه مخلوق مميز مكرم مزين بالعقل والمشاعر.. وبما لا يمكن حصره من القيم والمثل النبيلة.

ولكنه بمجيئ دارون.. وبتغلغل أفكاره في المجتمع.. تغير الموقف تماما.

فنظرية دارون تقرر حيوانية الإنسان وماديته.. أي أن الظروف المادية المحيطة بالإنسان هى التى أثرت فى تطوره وإعطائه صورته.. وهي بذلك تنفى القصد والغاية من خلقه، وتنفى التكريم الربانى له بإفراده بين الكائنات الأخرى بالعقل والقدرة على الاختيار والقدرة على التمييز فضلا عن المزايا الإنسانية الأخرى.

إن نظرية كهذه يمكن أن تعطى إيحاءات خطيرة فى كل اتجاه [1]..

فحين يكون الإنسان حيوانا أو امتدادا لسلسلة التطور الحيوانى، فأين مكان العقيدة فى تركيبه، وأين مكان الأخلاق، وأين مكان التقاليد الفكرية والروحية والأخلاقية والاجتماعية!؟

وحين يكون حيوانا، أو امتدادا لسلسلة التطور الحيوانى، فما مقياس الخطأ والصواب فى أعماله؟.. وكيف يقال عن عمل من أعماله إنه حسن أو قبيح، جائز أو غير جائز.. أو بعبارة أخرى: كيف يمكن إعطاء قيمة أخلاية لأعماله؟

وحين يكون حيوانا، أو امتدادا لسلسلة التطور الحيوانى، فما معنى الضوابط المفروضة على سلوكه؟.. وما

---

(١) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب.

معنى وجود الضوابط على الإطلاق[1]؟

التفت إلي، وقال: أتدري ما سر انتشار هذه النظرية، وما نتج عنها من خلل؟

قلت: ما سره؟

قال: الكنيسة..

قلت: ما علاقة الكنيسة بهذا؟.. لقد كانت الكنيسة من أهم المعارضين لدارون.

قال: ولكن الخلل الفكرى الذي حدث فى حياة أوروبا فى ظل سيطرة الكنيسة الفكرية هو الذى رشح للهزة التى أصابت هذا الفكر يوم أطلقت عليه فكرة التطور، فقد كان كل شئ فى حس أوروبا المسيحية الكنسية ثابتا منذ الأزل، وسيظل ثابتا إلى الأبد.. ليست فكرة الألوهية فقط هى التى ينطبق عليها تصور الثبات، ولا القيم الدينية والأخلاقية وحدها، ولكن الجبال والشجر والحيوان والطير، والأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. وكل شئ فى الحياة.

البابا هو البابا ذو القداسة، يذهب واحد ويجئ آخر، والبابوية ذاتها وقداستها أمر ثابت لا يتغير..

الملوك والأباطرة هم الملوك والأباطرة.. يذهب منهم من يذهب ويجئ من يجئ.. ولكن الملكية ذاتها أمر ثابت لا يتغير..

الإقطاع هو الإقطاع.. يذهب أمير ويجئ أمير.. بنفس الصورة، ونفس المعاملة، نفس السيادة من جهة، والعبودية من الجهة الأخرى.. وكلها أمور ثابتة لا تتغير.

من ثم غلب على الفكر الأوروبى المسيحى الكنسى تصور الثبات فى كل شئ.

فلما وقعت الثورة الفرنسية وأزالت الإقطاع والملكية، وزلزلت نفوذ الكنيسة كان ذلك حدثا حادا فى تاريخ أوروبا أثر تأثيرا عميقا فى كل اتجاه، ولكنه كان قمنا ــ بعد فترة من الزمن ــ أن يفقد حدته، ويستقر على صورة فيها لون من الثبات.

ولكن دارون جاء، فأطلق قذيفته على أمر لم تهزه حتى الثورة الفرنسية ذاتها، التى زلزلت كثيرا من الأوضاع فى أوروبا، فقال: إن الخلق ذاته غير ثابت، وإن الإنسان لم يكن إنسانا حين وجد أول مرة بل كان شبيها بالحيوان.

وفي ذلك الوقت سارع المفسدون في الأرض إلى تولي هذه النظرية، بل وإخراجها من إطارها الضيق الذي وردت فيه، إلى إطار أوسع وأضخم..

لقد سارع هؤلاء المفسدون يرمون فكرة (الثبات) ذاتها وقالوا ــ مستغلين فكرة التطور ــ إنه لا شئ ثابت على الإطلاق، وإن طلب الثبات فى أى شئ.. في الدين أو الأخلاق أو التقاليد.. هو فى حد ذاته فكرة خاطئة.. فكرة غير علمية.. فكرة مخالفة لطبيعة الأشياء.

---

(١) قالت الداروينية الحديثة – فيما بعد – إن الضوابط موجودة فى الكيان " البيولوجى " للإنسان، فى تركيب مخه وجهازه العصبى، وإنه متفرد بهذا عن الحيوان.

ثم ظلوا يرددون هذه الأقاويل، وينشرونها ويؤكدون عليها، حتى صارت هى الصبغة المسيطرة على الفكر البشري، لا يقبلون فيها جدلا ولا مناقشة.. ومن ناقش فهو الرجعى المتزمت الجامد المتأخر الذى يريد أن يرجع عقارب الساعة إلى الوراء.. وعقارب الساعة لا ترجع أبدا إلى الوراء.. وستسحقه عجلة التطور التى لا تبقى ولا تذر[1].

التفت إلي، وقال: هل ترى هذه الحياة التي نعيشها في وسط هذا الزحمة؟

قلت: نعم.. وأصدقك القول بأن نفسي تضيق في هذه المحال.

قال: نفسك تضيق، لأنه لا زال فيك بعض الفطرة.. أما أكثر من تراهم، فقد انتكست فطرهم.. فلذلك لا يحبون إلا مثل هذه الأجواء المدنسة.

قلت: ولكن التطور اقتضى هذا؟

قال: أرأيت.. أنت نفسك تقع في وهم التطور.. إن التطور هو القنبلة التي ستلقينا في أودية الهلاك.

قلت: ألذلك أيضا علاقة بهذه الشجرة؟

قال: أجل.. هذه الشجرة التي قلعها دارون من غابة الإنسانية ليغرسها كما شاء له هواه في غابة الحيوانية صارت عرضة لكل تبديل وتغيير..

جاء ماركس.. فقلع من هذه الشجرة جذور الروحانية والإيمان والتوجه للملأ الأعلى..

وجاء فرويد.. وقلع عن هذه الشجرة ثيابها، ليحيلها عارية، لا يسترها حياء، ولا تحفظها قيم..

وجاء دركايم، فأنشأ نظرية اجتماعية لتفسير الظواهر الاجتماعية بناها على حيوانية الإنسان، وغلبة نزعة القطيع الحيوانية عليه من جهة، وعلى انعدام الثبات فى القيم الاجتماعية من جهة أخرى.. فقلع عن هذ الشجرة جميع أصولها التي تربطها بالإنسان.

وهكذا ظل المفكرون الذين يستوحون أفكارهم من الشياطين، وظلت معهم الحكومات الجبرية، تضع تعديلاتها على شجرة الإنسان إلى أن حولتها إلى مسخ لا علاقة له بالإنسان.

قلت: فأنت يائس إذن من حياة شجرة الإنسان.

قال: لا.. لست يائسا.. ولو كنت يائسا، لما رأيتني أسقي هذه الشجرة، وأمسح آهاتها.

قلت: وما الذي دفعك إلى عدم اليأس.. أتراك ظفرت بمن يعيد شجرة الإنسان إلى غابة الإنسان.

قال: أجل.. لقد وجدته.. لقد نجح في الحفاظ على شجرة الإنسان طوال قرون عديدة، وترك لنا من التعاليم السامية ما يعيد الإنسان إلى فطرته وطبيعته التي جبل عليها.

قلت: من تقصد؟

قال: محمد..

قلت: نبي الإسلام!؟

---

(١) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب.

قال: بل نبي الإنسان.. محمد هو النبي الوحيد الذي لا تزال تعاليمه هي العلاج الوحيد للإنسانية.. وهي الأمل الوحيد لعودة الفطرة الإنسانية.

قلت: ما سر ذلك؟

قال: إن محمدا يتلقى معارفه عن الإنسان، لا من عقله، ولا من تجاربه، ولا من بحوثه، بل يتلقاها من مصدر لعله هو المصدر الذي خلق الإنسان.. ومن خلق الإنسان عرف حقيقته، وعرف حقوقه.

قلت: نحن الآن في عصر العلوم.. أترى مخابرنا التي وسعت كل شيء ضاقت بمعرفة الإنسان.

قال: أجل.. لأن الإنسان ليس مادة جامدة.. وليس شيئا واحدا.. إنه في كل لحظة كيان جديد، بل هو في كل لحظة كيانات كثيرة..

والأمر ليس قاصرا على الفرد.. بل على المجموع.. فلكل إنسان إنسانيته الخاصة التي تميزه عن غيره.

فهل يمكن لمخابرنا مهما دقت مقاييسها أن تضع كل البشر وفي كل لحظة من لحظات حياتهم في محك مخابرها؟

قلت: ذلك غير ممكن.

قال: فلذلك كانت معرفة حقيقة الإنسان انطلاقا من المخابر غير ممكنة..

١ ــ حقيقة الإنسان

قلت: فهل عرف محمد حقيقة الإنسان؟

قال: أجل.. لقد تضمن الكلام المقدس الذي تنزل عليه.. وتضمنت الكلمات العظيمة التي نطق بها حقيقة الإنسان.. وهي الحقيقة التي بنيت على أساسها حقوق الإنسان في الإسلام..

قلت: أراك تدمج كلامك عن الحقيقة بالحقوق.

قال: لأن الخطأ الذي وقع فيه قومنا هو فصلهم بين الحقيقة والحقوق.. أو هو انطلاقهم في سن الحقوق من معلومات خاطئة.

نظر إلى الشجرة، وقال: هذه الشجرة.. إذا لم نعرف حقيقتها ونوعها وجنسها وأصناف حاجاتها، فإننا لا يمكن أن نتعامل معها معاملة صحيحة.. بل قد نسقيها سما، ونحن نتصوره دواء.

قلت: فحدثني عن تصور الإسلام لحقيقة الإنسان التي بنى عليها تصوره لحقوقه.

قال: لقد طفت المذاهب.. وسألت أرباب الأفكار.. وجلت على الحضارات والأديان أسألها عن الإنسان، فلم أجده إلا عند محمد.

قلت: فماذا قال لك محمد؟

قال: لقد أخبرني القرآن المقدس الذي تنزل على محمد عن حقيقة الإنسان في مواضع كثيرة تجتمع جميعها في قصة خلق الإنسان.. ففي القرآن:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾(البقرة)

وفيه:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنْ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنْ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ

أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)﴾(الأعراف)

وفيه:﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢)﴾(ص)

إن هذه الآيات تجمع جميع الحقائق التي تفصل النظرة الإسلامية الإنسان عن جميع النظرات المدنسة بلوثات الأهواء:

العبودية:

لقد بدأت الآية الأولى بذكر الله رب الإنسان.. وذكر الخالقية.. وأن الإنسان مخلوق لله..

وهذه نقطة خلاف جوهرية بين الإسلام وجميع المذاهب المادية التي تسيطر على عقول بناة الحضارة الغربية وكل الحضارات الجاهلية..

ذلك أن الإنسان يدرس في جميع العلوم الإنسانية بمعزل عن خالقه، كأنما هو قد خلق نفسه، أو كأنما وجد بغير موجد.. وقد ترتب على هذا ألا تكون للإنسان مرجعية خارج حدود ذاته، إنما يكون هو مرجع نفسه، فما يراه هو يكون هو الأصل وهو الصواب.. إنه بعبارة أفصح هو الإله.

لقد نشأ هذا الانحراف الخطير في مدارسنا ومعارفنا وعلومنا من التصورات الخاطئة التي كانت تحملها الكنيسة، وتفرضها على الناس..

لقد كان رد فعلنا تجاه طغيان الكنيسة منذ عصر النهضة هو التمرد على سلطان الكنيسة، والتمر على الله ذاته، وإقامة الإنسان نفسَه مرجعا بدلا من الله، وكانت هذه بداية العلوم الإنسانية.. أي العلوم التي يؤخذ العلم فيها من الإنسان، لا من خالق الإنسان.

لست الوحيد الذي يقرر هذا.. ولست الوحيد الذي اكتشف هذا.. لعلك قرأت كتاب (مبادئ الفلسفة) لـــ (رايو برث)، لقد قال يتحدث عن عصر النهضة:« وامتاز هذا العصر بشعور الإنسان بشخصيته المطلقة، وبمعارضته للسلطة وذويها، وذهابه شوطا بعيدا في اعتبار العالم كله وطنا له.. وقد أعلت النهضة شأن الطبيعة الإنسانية والحياة الدنيوية، مخالفة في ذلك طريقة التفكير في القرون الوسطى، ولذلك يسمى العلماء الذين خصصوا أنفسهم لدراسة آداب اليونان والرومان والعلوم عند القدماء الإنسانيين.. وكان من خير ما أحدثه

هؤلاء الإنسانيون نمو الفردية، أعني الرأي القائل بأن الإنسان ينبغي أن يفكر بنفسه لنفسه، وهو رأي كان قد أهمل في عصر عبودية العقل »[1]

سأضرب لك نموذجا يوضح لك هذا.. يقول (جوليان هكسلي) في كتابه (الإنسان في العالم الحديث):« إن الإنسان قد خضع لله في الماضي بسبب عجزه وجهله، والآن ــ وقد تعلم وسيطر على البيئة ــ فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل في عصر العجز والجهل على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله »

ويقول في نفس الكتاب:« إن أسطورة بروميثيوس[2] ما تزال كامنة في كيان الأوربي الحديث توجهه على غير وعي منه، فالأوربي المعاصر هو بروميثيوس الحديث الذي يريد أن يضع نفسه في مكان الإله، وكلما تعلم، وزادت سيطرته على البيئة، ارتفع في حس نفسه درجة، وهبط الإله مقابل ذلك في حسه بنفس القدر، حتى إذا استطاع يوما أن يخلق الحياة انتهى الإله من حسه تماما، وأصبح هو الله »

التفت إلي، وقال: أرأيت مبلغ الخطر الذي وصلت إليه العلوم الإنسانية في عزلها الله عن خلق الإنسان..

قلت: هذا رجل مجنون لا ينبغي أن نقيس عليه، ولا أن نأخذ بقوله.

قال: كلهم مجانين.. كل من أخرج هذه الشجرة من غابتها ليضعها في هذا المستنقع مجنون..

لم يكن هكسلي وحده هو الذي قال ذلك.. الكل قال ذلك.. صرح أو كتم، يقول برنتون:« فالمذهب العقلي يتجه إلى إزالة الله وما فوق الطبيعة من الكون، ومن الوجهة التاريخية فإن نمو المعرفة العلمية، وازدياد الاستخدام البارع للأساليب العلمية يرتبط بشدة مع نمو الوضع العقلي نحو الكون »[3]

ويقول:« إن السببية تهدم كل ما بنته الخرافات والإلهامات والمعتقدات الخاطئة في هذا العالم (يقصد المعتقدات الدينية).. فالإله في عرف نيوتن أشبه بصانع الساعة، ولكن صانع هذه الساعة الكونية ــ ونعني بها الكون ــ لم يلبث أن شد على رباطها إلى الأبد، فبإمكانه أن يجعلها تعمل حتى الأبد، أما الرجال على هذه الأرض فقد صممهم الإله كأجزاء من آلته الضخمة ليجروا عليها، وإنه ليبدو أنه ليس ثمة داعٍ أو فائدة من

---

(١) رايبو برث، مبادئ الفلسفة، ترجمة محمد أمين، طبع دار الكتاب العربي ببيروت، ص ١١٩ — ١٢٠.

(٢) (بروميثيوس) كائن أسطورى كان الإله (زيوس) يستخدمة فى خلق الناس من الماء والطين، وقد أحس بالعطف نحو البشر، فسرق لهم النار المقدسة من السماء وأعطاها لهم. فعاقبه (زيوس) على ذلك بأن قيده بالسلاسل فى جبال القوقاز حيث وكل به نسر يرعى كبده طول النهار وتتجدد الكبد فى أثناء الليل، ليتجدد عذابه فى النهار.

ولكى ينتقم (زيوس) من وجود النار المقدسة بين أيدى البشر أرسل إليهم (باندورا) — أول كائن أنثى على وجه الأرض — ومعها صندوق يشتمل على كافة أنواع الشرور ليدمر الجنس البشرى.. فلما تزوجها (إبيميثيوس) — أخو (بروميثيوس) — وتقبل منها هدية (الإله!) فتح الصندوق فانتشرت الشرور وملأت وجه الأرض.

وهذه الأسطورة ــ في الفكر الغربي ــ ترمز إلى طبيعة العلاقة بين البشر والله، فالنار المقدسة، نار (المعرفة) قد استولى عليها البشر سرقة واغتصاباً من الآلهة، ليعرفوا أسرار الكون والحياة، ويصبحوا آلهة! والآلهة تنتقم منهم فى وحشية وعنف، لتنفرد وحدها بالقوة، وتتفرد دونهم بالسلطان.. (انظر: منهج الفن الإسلامى، محمد قطب)

(٣) جرين برنتون، منشأ الفكر الحديث، ترجمة عبد الرحمن مراد ص ٢٧.

الصلاة إلى الإله صانع هذه الساعة الكونية، الذي لا يستطيع ــ إذا ما أراد ــ التدخل في شئون عمله »[1]

أرأيت هذا المجنون الثاني.. إنه يقر بإله.. ولكنه يعزله.. وما جدوى إله معزول.

أتدري ما الذي أفضى إليه هذا القول؟

قلت: أنبئني.

قال: إن كل اختلال حصل في هذه الحضارة لم يحصل إلا بسبب هذا الموقف من الإله.. إن عزلها الإنسان عن الله هو الذي جعلها تسقط في أحضان الشيطان.. وهي سائرة خلف خطاه لن ينقذها إلا هدي محمد.

قلت: لم؟

قال: لأنه يستمد من المنبع الذي نبع منه الإنسان.

قلت: إن كان ذلك بسبب إخباره بأن الإنسان مخلوق خلقه الله.. فهو مما تتفق عليه جميع الأديان.. بل إن قوم محمد من المشركين كانوا يقولون ذلك، فقد ذكرهم القرآن، فقال:﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧)﴾(الزخرف)

قال: ليس ذلك فقط ما أقصده.. إن هؤلاء المشركين، ومثلهم كل الأديان التي تحمل تصورات خاطئة عن رب الإنسان لا تساهم إلا في زيادة خطأ معرفة الإنسان بنفسه، وبالتالي الخطأ في كل ما يرتبط به.

التفت إلي، وقال: فلنفرض أنه أتيحت لك طاقة كهربائية تستطيع أن تستخدمها في مجالات شتى، فهل يكون سلوكا علميا سليما أن تقول: لا يهمني مصدر هذه الطاقة، ولن أشغل نفسي بمحاولة التعرف على هذا المصدر، إنما الذي يعنيني هو هذه الطاقة ذاتها، وطريقة استخدامها، والمجالات التي يمكن أن تستخدم فيها!؟

قلت: ربما أقول هذا.. وربما يقول هذا أكثر الناس.

قال: إن هذا قد يستقيم لو أن هذه الطاقة كانت تجري على منوال واحد، وبحسب ما تشتهي.. لكنها إذا فاجأتك كل مرة بأمور لا تستطيع تفسيرها، ومن ثم لا تستطيع أن تستخدمها على الوجه الأمثل، فمرة تجدها متدفقة ومرة تراها منحسرة بغير سبب ظاهر لك.. مرة تنير، ومرة تحرق.. مرة تزيد من حيويتك، ومرة تعرضك للهلاك..

ألا ترى أن التعرف على المصدر، وطبيعته، وطريقة تصريفه لهذه الطاقة، سيعينك على فهم تلك الظواهر التي لا تفسير لها عندك، ويعينك ذلك على استخدام تلك الطاقة في أحسن أوضاعها!؟

قلت: أجل.. ذلك صحيح.. بل إني في تلك الحالة لا أستغني عن معرفة مصدرها.

قال: أرأيت لو بحثت.. ولكنك سقطت على معلم جاهل، فدلك على معلومات خاطئة تتعلق بمصدر الطاقة؟

قلت: حينها لا يختلف الأمر.. بل قد أقع في دواهي لا تقل عن الدواهي التي كنت أمر بها قبل أن أتعرف عليه.

---

(١) جرين برنتون، منشأ الفكر الحديث، ترجمة عبد الرحمن مراد ص ١٥١.

قال: فقد عرفت إذن أهمية المصدر الصحيح في السلوك الصحيح.

قلت: فهل جاء محمد بالمعلومات الصحيحة عن مصدر الإنسان[1]؟

قال: أجل.. فالله ــ في التصور الإسلامي ــ لا ينحصر في أنه هو مصدر الوجود البشري وخالقه، وإنما هو إلى جانب ذلك المنعم المتفضل.. الرزاق ذو القوة المتين.. المدبر لأمر الوجود كله.. الفعال لما يريد.. يقول القرآن في صفة الله:﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد:٣) وهو الذي ﴿ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:٢٨).. و﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)﴾(الحشر).. و﴿ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (٤)﴾(الإخلاص)

ولله في التصور الإسلامي سنن في التعامل مع خلقه.. هي بمثابة القوانين التي تنظم حياتهم كما تنظم حياة جميع الوجود.

فالبذخ المادي.. والترف المعيشي الذي نتصوره حضارة، ونقيس الأمم على أساسه لا يعني شيئا بالنسبة للسنن الإلهية.. ذلك أنه قد يكون نوعا من التخمة القاتلة، أو من السمن الكاذب:

ففي القرآن:﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤)﴾(الأنعام)

وتوزيع الأرزاق بين الناس ومثلها المواهب فضل من فضل الله يدعو إلى التواضع والعبودية.. لا الكبر والبطر، ففي القرآن:﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾(الزخرف:٣٢)

وهذا التفضيل المؤقت.. أو المرتبط ببعض الجوانب لا يعني التفضيل المطلق.. فالقرآن ينكر تلك التصورات التي تجعل الإنسان يقيس غيره بمقدار ما عنده من ثروة:﴿ فَأَمَّا الإنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧)﴾(الفجر)

ولهذا.. فإن النظرة الإسلامية للإنسان في غاية السمو والرفعة [2].. لأنها تستمد قوانينها وسننها من المنبع الذي جاء منه الإنسان.. لا من العقول التي أوحت لها الشياطين بزخرف القول لتشغل الإنسان عن الإنسان.

فتلك العقول التي تدرس الإنسان بمعزل عن خالقه، وعن السنن الربانية التي تحكم حياته، تتيه في المعيار

---

(١) انظر التصور الإسلامي للألوهية مقارنا بسائر الأديان والمذاهب في رسالة (الله جل جلاله) من هذه السلسلة.

(٢) في هذه السلسلة رسالة خاصة بـــ (الإنسان) تصف التصورات التي جاء بها الإسلام للإنسان مقارنة بسائر النظرات الدينية والفلسفية.

الذي تقيس به تصرفاته، وتتيه في المعيار الذي تقيس به إنجازاته..

وتتيه بحسب ذلك فيمن تعتبره مرتفعا راقيا، ومن الذي نعتبره منتكسا هابطا.. أم الكل سواء.

وتتيه في التصرفات.. أيها تعتبره خيرا.. وأيها تعتبره شرا.. أم لا خير ولا شر..

وتتيه في الإنجازات.. أيها تعتبره صالحا.. وأيها نعتبره فاسدا.. أم يستوي الأمران في الميزان.

من هنا تتخبط النظريات، وتتخبط التفاسير التي تحاول أن تفسر السلوك البشري والحياة البشرية، ما بين مبدأ اللذة والألم، ومبدأ النفعية، ومبدأ نسبية القيم ؛ وما بين التفسير المادي للتاريخ، والتفسير اللبرالي ؛ وما بين الغاية التي تبرر الوسيلة، واللاغائية، والعدمية، والفوضوية، والوجودية.. وكلها مذاهب، وكلها تفاسير.. وكلها لا تزيد الإنسان إلا بعدا عن الإنسان.

الازدواج:

قلت: وعيت هذا.. وأدركت أهميته.. فأنبئني عما فهمته من ذلك النص القرآني من موقف الإسلام من الإنسان.

قال: في ذلك النص يبين القرآن أركان الإنسان.. فهو قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله.. وهما مترابطان متماسكان متفاعلان، يتكون منهما معا كيان موحد[1].

هذا الكيان ليس قبضة طين خالصة، كما كان قبل النفخة العلوية فيه.. وليس روحا خالصة طليقة من قبضة الطين.. إنما هو الأمران معا فى وحدة مترابطة تختلف فى خصائصها اختلافا جذريا عن قبضة الطين الخالصة، ونفخة الروح الخالصة، وإن كانت تحمل بين الحين والحين بعض أوجه الشبه من هذه وتلك، حين تجنح جنوحا شديدا نحو عالم الجسد أو عالم الروح، ولكنها حتى فى تلك الحالات لا تكون مماثلة أبدا لأي من العنصرين منفصلين.

فالإنسان فى لحظة الشهوة الجامحة غير المنضبطة يكون أقرب إلى قبضة الطين، لأنه يتعامل بجسده أكثر من أى جانب من جوانبه، ومع ذلك لا يكون أبدا جسدا خالصا كالحيوان، لأن فيه ــ على الأقل ــ قدرا من الوعي والإرادة والاختيار حتى فى هذا العمل اللاصق بالطين، بينما الحيوان لا يعمل بوعى ولا إرادة حرة ولا اختيار.

وفى لحظة التوجه الروحي الراقي يكون أقرب إلى نفخة الروح، لأنه ينطلق بروحه من إطار الحس المحدود، ومع ذلك لا يكون أبدا روحا خالصة كالملائكة، لأن له جسدا لا يستطيع أن يتخلص من وجوده، وعقلا لا يكف تماما عن التفكير.

هذا هو الإنسان كما يفسره الإسلام بعنصريه المكونين له: قبضة الطين، ونفخة الروح.

والخطأ الذي وقعت فيه كل الحضارات والمذاهب والأديان هو محاولتها تفسير الإنسان بعنصر واحد من عنصريه دون الآخر.. وهذا هو الخطأ الأكبر الذي تسللت منه سائر الأخطاء..

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة، سيد قطب، بتصرف.

فالحضارة المادية التي تأسست على المذاهب المادية تبرز جانب الجسد، وجانب الحس، وجانب المادة، فإذا أخذت شيئا من النفخة العلوية أخذت جانب العقل وأبت جانب الروح، وسخرت العقل ــ من ثم ــ فى شهوات الجسد ومطالب الحس وعالم المادة، ففقد علويته ورفعته، وأسف مع قبضة الطين، وأنشأ عمارة مادية للأرض خالية من إشراقة الروح.

والمذاهب الروحية تبرز جانب الروح، وتهمل الجسد وتكبته وتقهره وتحتقره وتقوم بتعذيبه من أجل رفعة الروح، كما تفعل الهندوكية والرهبانية، كما أنها تهمل عالم الحس وعالم المادة، فلا يقوم الإنسان بعمارة الأرض، ولا يقاتل الشر والطغيان، ولا يجاهد لإقامة الحق والعدل، اكتفاء بلذة الفناء فى عالم الروح، التى يتم من خلالها الوجود[1].

الآدمية:

قلت: وعيت هذا.. وعرفت أهميته.. فما فهمت من القرآن من تميز التصور الإسلامي للإنسان.

قال: الآدمية.. لقد ورد في الآيات التي تلوتها عليك أن أول البشر هو آدم.. وآدم لم يكن من عائلة الشمبانزي.. بل هو مخلوق بالأصالة.. لقد أراد الله القادر على كل شيء أن يخلق الإنسان، فخلق الإنسان، وكان أول إنسان هو آدم.

ولهذا نرى القرآن يذكر البشر بأبيهم الذي ينتسبون إليه، ففيه:﴿ ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾(الأعراف).. وفيه:﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧)﴾(الأعراف)

قلت: أراك تشتد ككثير من المسلمين في إنكار هذا.. مع أني لا أرى فيه من المبالغة ما ترى.. اللهم إلا ما أدى إليه استغلال هذه النظرية، وتحميلها ما لا تحتمل.

قال: لا.. هذا من أصول الأخطاء، وليس من فروعها.. فالداروينية التي تقول بأن الإنسان لم يخلق إنسانا من أول لحظة، إنما هو تطور عن كائن آخر هو القرد الشبيه بالإنسان، والمتطور بدوره عن أحد القردة العليا الأربع: الشمبانزي والغوريلا والأورانج أوتانج والجيبون، وأنه مر في تطوره بمراحل عدة، كان يقترب فيها في كل مرة من وضعه الحالي.. فكان في مبدأ أمره يمشي على أربع، وينتصب قائما أحيانا كما تفعل القردة العليا، ثم زاد انتصاب قامته حين أخذ يأكل من ثمار الأشجار، فأصبح رأسه من ثم يرتكز على الجذع أكثر مما يكون معلقا في الفضاء، فأتيح لمخه أن يكبر، فتكلم وتعلم، ورويدا رويدا على مدى من الزمن لا يكاد يحصى أصبح هو الإنسان..

هذه النظرية لا تهتم بالإنسان.. كما ذكره القرآن.. باعتباره أصلا قائما بذاته، وإنما تهتم بالخيوط التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان.. لتقول للإنسان: أنت بسبب هذه الخيوط حيوان لا إنسان.

---

(١) انظر: الإسلام ومشكلات الحضارة، سيد قطب.

ففي هذه النظرية جرى التركيز على الخصائص الجديدة التي يكتسبها الكائن المتطور، لا على السمات التي يشترك فيها مع الكائنات السابقة عليه، التي لم تسر على خط التطور مثله.

فهناك مثلا — بحسب النظرية — كائن ليس له جهاز سمعي، تلاه في التطور كائن يشبهه في كثير من الخصائص، ولكنه اكتسب جهازا سمعيا لم يكن موجودا في الكائنات المشابهة له، السابقة عليه، والتي تطور عنها.. فعند الحديث عن هذا الكائن يكون التركيز على هذه الحاسة الجديدة التي اكتسبها والأطوار التي مرت بها حتى اكتملت في وضعها النهائي.. وكذلك لو كان الكائن قد اكتسب جهازا بصريا أو جهازا للطيران، أو جهازا لتنظيم الدورة الدموية.. مما لم يكن لأقرانه الذين تطور عنهم.

وكان مقتضى ذلك بالنسبة للإنسان أن يكون التركيز على ما تفرد به الإنسان عن أشباهه من الكائنات السابقة عليه، التي تطور عنها، لا على أوجه الشبه بينه وبين تلك الكائنات.. وذلك كله على فرض صحة الفرضية من أساسها.. ولكن الذي جرى على يد داروين كان هو التركيز على أوجه الشبه بين الإنسان والقردة العليا (مع افتراض وجود حلقة مفقودة بينهما) أكثر من التركيز على ما تفرد به الإنسان.. أي — بعبارة أخرى — التركيز على حيوانية الإنسان، وليس على إنسانيته.

لقد حاولت الداروينية الحديثة سدّ هذا الخلل في تطبيق النظرية بالنسبة للإنسان، فكتب جوليان هكسلي، وهو من عمد الداروينية الحديثة كتابا سماه (الإنسان في العالم الحديث) بدأه بفصل طويل بعنوان تفرد الإنسان، ذكر فيه أن المعلومات التي بنى عليها داروين نظريته كانت ناقصة، وأن العلم الحديث كشف عن جوانب كثيرة من تفرد الإنسان لم تكن معلومة لداروين، وجاء في هذا الفصل قوله:« وبعد نظرية داروين لم يعد الإنسان مستطيعا تجنب اعتبار نفسه حيوانا، لكنه بدأ يرى نفسه حيوانا غريبا جدا، وفي حالات كثيرة لا مثيل له. ولا يزال تحايل تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية غير تام »

وجاء فيه:« وهكذا وضع علم الحياة الإنسان في مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات كما تقول الأديان ».. وفيه:« وأخيرا، فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره »[1]

ولكن على الرغم من هذه المحاولة من جانب الداروينية الحديثة ما زال الإنسان — في أذهان الناس جميعا — حيوانا.. وما زال التركيز على الجانب البيولوجي من كيانه، ولا ذكر على الإطلاق للجانب الروحي من الإنسان.

إن السخرية بالإنسان تصل بالداروينية حدها حين تقصر تطور في الإنسان في عقله وإبهامه.

عقله تطور حين تعود الإنسان — أو الكائن الشبيه بالإنسان — على الوقوف منتصبا لفترات طويلة ليأكل من ثمار الشجر، فارتكز رأسه على الجذع، فأتيح للمخ أن يكبر، فتعلم وتكلم.

وإبهامه تطور (ولا أدري لماذا!) فصار يحسن الإمساك بالأشياء، فاستخدم الأدوات، ثم سعى إلى تحسينها، فصارت له حضارة.. وصار له تاريخ.

---

(١) جوليان هكسلي، الإنسان في العالم الحديث، مقتطفات من ص ٣ — ص ٩.

وفيما عدا هذين.. بقي الإنسان حيوانا..كان وما يزال.

قلت: ألم ير هؤلاء الأغبياء الإنجازات الحضارية العظيمة التي قام بها الإنسان دون سائر الحيوانات؟.. ألم يكن في هذا ما يكفيهم ليصدهم عن وساوسهم تجاه حقيقتهم؟

ابتسم، وقال: لم يصعب عليهم أن يجدوا حلا لذلك..

لقد ذكروا أن الإنسان حيوان.. كان وما يزال.. تطور منه ما تطور، ولكنه لم يخرج من حيوانيته.

وما دامت أهداف ومشاغل الحيوان تنحصر في صراع البقاء، والاستمتاع، المتمثل في الطعام والشراب والجنس.. فإن هذه نفس مشاغل الإنسان وأهدافه.

والفرق بينهما.. بين الإنسان المتطور، والحيوان.. هو أن الحيوان يقوم بهذين الأمرين بدافع الغريزة، بغير وعي منه لما يفعل، ولا وعي منه بأنه يقوم بما يقوم به من أعمال وتصرفات لتحقيق هذين الهدفين الرئيسيين في حياته.

أما الحيوان المتطور الذي هو الإنسان، فقد اكتسب الوعي حين كبر مخه نتيجة انتصاب قامته، فلم تعد كل أعماله غريزية، بل حتى الغريزي منها صار يمارسه بوعي، يبدأ بإدراك الرغبة وينتهي إلى تحقيقها مرورا بالبحث عن الوسائل المادية إلى إشباعها.. ولكن الأهداف تبقى هي الأهداف.. وهي صراع البقاء والاستمتاع.

أما الحيوان، فهو يستخدم قوته العضلية ليأخذ مكانه في صراع البقاء، وليحصل على ضروراته، وأحيانا يستخدم الحيلة، ولكن بوحي الغريزة، وفي نطاقها.

وأما الحيوان المتطور فهو ــ إلى جانب عضلاته ــ يستخدم الأداة المستجدة التي اكتسبها في تطوره، وهي العقل، وكلما ارتقى صار استخدامه للعقل أوسع مدى وأكثر فاعلية، وذلك فضلا عما يتيحه له التطور الآخر ــ تطور إبهامه ــ من استخدام أدوات لا حصر لها لتحقيق أهدافه.

وأما الاستمتاع فقد ارتقى كذلك مع الحيوان المتطور، باستخدام التطورين الرئيسيين في كيانه، فدخل فيه العقل على نطاق واسع، يستجد فيه كل حين لونا جديدا من ألوان الاستمتاع، ويستخدم في سبيل ذلك مزيدا من الأدوات يخترعها العقل، وتستخدمها اليد ذات الإبهام المتطور.

ونشأ من ذلك التطور الحضارة..

فالحضارة بهذا هي حصيلة سعى الإنسان لإثبات ذاته في صراع البقاء، وسعيه إلى الاستمتاع من جانب آخر..

فسعيه إلى إثبات ذاته في صراع البقاء يتمثل في القوة الحربية، والقوة السياسية، والقوة العلمية، والقوة الاقتصادية.

وسعيه إلى الاستمتاع يتمثل في الفن بمختلف أنواعه إلى جانب المتاع الحسي المباشر بما يلبي نداء الشهوات..

وهذه ــ بشقيها ــ هي معايير إنجازاته.

فالأمم تقاس بالقوة الحربية والقوة السياسية والقوة العلمية والقوة الاقتصادية التي تمكنها من البقاء في حومة الصراع، وتكفل لها ــ كلما تمكنت ــ سحق القوى الأخرى أو التغلب عليها ــ كما تقاس كذلك بتعدد الفنون التي تستخدمها من أجل الاستمتاع.

ويكون هذا هو المعيار التاريخي، والاجتماعي، الذي تقاس به عظمة الأمم خلال التاريخ.

أما القيم النبيلة ــ من نشر العدل وإزالة الظلم ونشر الخير، وإشراك الناس في الخير بدافع الإنسانية بصرف النظر عن المنفعة ، والتعاون على البر والتقوى ــ فلا وجود لها في ظل هذا التصور.. إنما مجرد كلام جميل يتحدث عه المتحدثون، وشعارات يرفعونها، ولكنها عند الجد لا تؤخذ مأخذ الجد، لأنه لا مكان لها عند الحيوان الأصلي، ولا مكان لها كذلك عند الحيوان المتطور.

الخلافة:

قلت: وعيت هذا.. فهل هذا وحده تصور الإسلام عن حقيقة الإنسان؟

قال: لا.. كل ما ذكرته لك مقدمات عن حقيقة الإنسان.

إن الإنسان ككل شيء في هذا الوجود خلق لغاية يؤديها، وحكمة هي التي تحدد وظيفته، ثم تحدد بعد ذلك الحقوق التي يستدعيها توفير الجو لأدائه لوظيفته.

قلت: تقصد واجبات الإنسان.

قال: أجل.. فمن الخطأ أن نتحدث عن حقوق الإنسان، ولا نتحدث عن واجبات الإنسان.

قلت: الحضارة الحديثة.. بل كل حضارة.. طوقت الإنسان بكثير من الواجبات.. في مقابل ما تعطيه من حقوق.

قال: نظرة الإسلام للحقوق والواجبات تختلف كثيرة عن نظرة هذه الحضارة.. وعن نظرة كل حضارة.. وكل دين.. وكل فكر.

قلت: فما هي هذه النظرة؟

قال: الإسلام يعتبر الإنسان خليفة.. والآيات التي قرأتها لك تحدد هذه الوظيفة الكبرى التي تفسر سر وجود الإنسان على هذه الأرض، وتفسر سر الطاقات التي منحت له.

لقد قدم القرآن لقصة خلق آدم هذه المقدمة:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(البقرة:٣٠)

وبما أن الخلافة تتضمن الهيمنة والسيطرة والقدرة على الإنشاء والتعمير والقدرة على التمييز والاختيار .. فقد أمد الله الإنسان بالأدوات الصالحة للخلافة..

وفي القرآن ذكر لهذه الأدوات.. والتي هي أول الحقوق التي تستدعيها وظيفة الخلافة:﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا..﴾(البقرة:٣١).. ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾(العلق).. ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ (النحل).. ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد).. ﴿

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)﴾(الشمس).. ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(هود:٦١).. ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾(الجاثية:١٣).. ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾(الملك:١٥)

هذه أول الحقوق التي نالها الإنسان بفضل الله.. لا بفضل التطور.. ولا بفضل الصراع كما تدعي جميع النظريات البشريات.. إنما هي مواهب إلهية زود بها الإنسان ليستطيع أن يؤدي الوظيفة الخطيرة التي وكلت إليه.

قلت: لا أزال حائرا في معنى الخلافة.. وفي علاقة حقيقة الإنسان بها.. وفي علاقة حقوق الإنسان بها.

قال: الإنسان في التصور الإسلامي مخلوق كريم لغاية رفيعة.. هو لم يخلق كما تتوهم الفلسفات ليأكل ويشرب ويسيطر.. ويمارس من أنواع المتع ما يغذي الفراغ الذي تعاني منه روحه، وإنما خلق ليكون خليفة.. يتولى إدارة الأرض وعمارتها وتطويرها.. وبما أنه خليفة فإن ذلك يقتضي أمورا.. على أساسها تنبني حقيقة الإنسان وحقوقه[1]:

أولها.. انتماء الجماعة البشرية إلى محور واحد هو الله، بدلاً من كل الانتماءات الأخرى، والايمان بسيد واحد للكون.. وهذا هو التوحيد الخالص الذي قام عليه الإسلام.

والثاني.. إقامة العلاقة الاجتماعية على أساس العبودية المخلصة لله، وتحرير الإنسان من عبوديات الأسماء التي تمثل ألوان الاستغلال والجهل والطاغوت.

والثالث.. تجسيد روح الأخوة العامة في كل العلاقات الاجتماعية بعد محو ألوان الاستغلال والتسلط، فما دام الله تعالى واحداً ولا سيادة إلاّ له، والناس جميعاً عباده ومتساوون بالنسبة إليه، فمن الطبيعي أن يكونوا اخوة متكافئين في الكرامة الإنسانيّة والحقوق.

والرابع.. الخلافة استئمان، والأمانة تفترض المسؤولية والاحساس بالواجب، اذ بدون ادراك الكائن انّه مسؤول لا يمكن أن ينهض بأعباء الامانة أو يختار لممارسة دور الخلافة.

والإنسان بهذا المفهوم الذي جاء به الإسلام للخلافة خارج عن أي نوع من أنواع التبعية لأي قوّة اجتماعية أياً كانت، بل هو خاضع لله وحده.. فلا قمية لنسب ولا لون ولا وطن ولا قومية.. ولا أي شيء من هذه الأشياء التي قام عليها التناحر بها بين البشر.

والخلافة بهذا الشكل حركة دائبة نحو قيم الخير والعدل والقوّة.. حركة لا توقف فيها لأنها متجهة نحو المطلق، وأي هدف آخر للحركة سوى المطلق سوف يكون هدفاً محدوداً، وبالتالي سوف يجمد الحركة ويوقف عملية النمو.

قلت: فما الفرق بين هذا الفهم الذي جاء به الإسلام.. وبين سائر المذاهب والأفكار؟

---

(١) انظر: خلافة الإنسان وشهادة الانبياء، الشهيد آية الله الصدر، ص ١١ ــ ١٢.

قال: الفروق عظيمة لا يمكن حصرها.. سأضرب لك أمثلة عنها لتدرك سمو التصور الإسلامي، وانحطاط سائر التصورات.

الإسلام يعتبر الإنسان.. كل إنسان.. خليفة لله.. أي انتماء الإنسان الأول لله، فهو الذي خلقه.. ومنه يستمد وجوده، ورزقه، وإليه يتوجه بالعبادة والدعاء.

وهذا الانتماء يجعله يمحو من خاطره وسلوكه كل تلك الانتماءات الضيقة التي تمليها عليها حدود المكان والزمان والمصالح.

ولهذا.. فهو يشعر بأخوة تنتظم جميع الكون.. ولا تنحصر في البقع الضيقة التي ولد فيها، أو انتسب إليها.

قارن هذا المفهوم الذي ينطلق من قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾(الحجرات) بجميع المفاهيم العنصرية التي تفوح من الأديان والمذاهب والحضارات..

إن القوميات والشعوب والقبائل والآباء والأنساب التي ابتعد بها الإنسان عن الانتماء لله.. كما يعنيه مفهوم الخلافة.. هو الذي صدر مع صداه الضارب في أحقاب التاريخ أكثر الحروب، وأبشع العصبيات، وأرذل الجرائم الإنسانية.

فعندما انطلق الرومان من أرضهم الخصبة، ومعيشتهم الميسرة، وفلسفتهم وأساطيرهم لم يكونوا يحملون مع جيوشهم الجرارة من فضل حضارة وإنسانية، ليساهموا في رفعة الإنسان، بل كان زادهم الوحيد، وهاجسهم الوحيد، ودافعهم الوحيد هو أن يعرفوا العالم الذي نعتوه بالبربرية من هو الإنسان الروماني وأي دماء تسري في عروقه.

وعندما أباد خلفهم من الأوروبيين سكان أمريكا وأستراليا، واستعبدوا سكان إفريقيا واستعمروا سكان آسيا لم يكونوا يشعرون بأي ألم، وهم يستغلون الأرض، ويستسخرون البشر، ويمصون دماءهم، لأنهم كانوا يعتقدون، بل قد يصرحون، بأنهم الجنس السامي، والإنسان الممتاز، الإنسان الذي يجوز له أن يستغل من دونه كما يستغل سائر البشر النبات والحيوان.

ومرت حقبة على البشرية تصوروا أنهم تخلصوا من العبودية والاستعمار، وأن الإنسان ترقى ليمحو آثار الشعوبية والقبلية والعرقية، وأن العالم يتجه نحو الإنسان المفصول عن أعراقه، ولكن الأخبار التي تبث كل يوم، بل كل ساعة تكذب كل هذا.

فالآلاف يموتون في أنحاء العالم بجريمة من جرائم ذلك الإنسان الأشقر، فلا يلتفت العالم لهم، ولا يترحم عليهم، ولا يعزي ذويهم في مصابهم، لأن الموت هو المصير الحقيقي لهم، وهو الخاتمة السعيدة لمأساة وجودهم، فإذا ما جرح فرد من أفراد ذلك الجنس المتميز انتهض البشر جميعا لمداواة جراحه، وإذا ما فقد انتهضوا جميعا للبحث عنه، فإذا مات تحولوا جميعا معزين ومواسين، والويل لمن لم يفعل كل ذلك، أو بعض ذلك.

هذه الشعوبية والقبلية والعرقية هي التي وقفت قديما حائلا بين الشعوب واتباع أنبيائها، وهي التي تقف حاليا بين هذا العالم الذي يدعي معرفة كل شيء، ويتصور أنه حقق كل شيء، وبين الالتفات للبحث عن

التفسير الصحيح للكون، والبحث الجاد عن حقيقة الإنسان[1].

التفت إلي، وقال: هذا مثال واحد عن أثر الوعي بحقيقة الخلافة في تقويم سلوك الإنسان والجماعات.. وهو مثال لم يكتمل نضجه إلى على أيدي محمد.

الخلود:

قلت: وعيت هذا.. فهل هذا وحده تصور الإسلام عن حقيقة الإنسان؟

قال: لا.. إن هناك شيئا عظيما.. بل هو أكسير لم يأت به إلا محمد.. وهو الذي يضع للحياة طعمها الجميل.. وهو الذي ينفي الصراع الذي يتوهمه الغافلون.

قلت: ما هو؟

قال: الخلود.

قلت: ما الخلود؟

قال: ألا ترى البشرية تتنازع وتتصارع من أجل البقاء؟

قلت: بلى.. وقد ولد ذلك الاستعمار والحروب الكثيرة التي لا نزال نرى آثارها.

قال: إن سر ذلك كله يكمن في عدم الإيمان بخلود الإنسان.. فلذلك تجده يلهث ليملأ ذلك الفراغ العظيم الذي تمتلئ به نفسه.

قلت: وهل أوجد الإسلام ما يملأ به ذلك الفراغ؟

قال: أجل.. لقد ذكر الإسلام للإنسان أنه خالد.. وأن الموت مجرد مرحلة يمر بها كما يمر بمرحلة الجنين.. وأنه بعد موته سيعيش الحياة الحقيقية التي هي نتيجة لحياته الدنيا[2]..

إن هذا التصور الذي ذكره القرآن.. وجاء به الإسلام.. بصورة لا نظير لها في جميع الأديان والمذاهب.. هو الحل الوحيد الذي يقضي على ذلك الفراغ العظيم الذي يجعل هم الإنسان محصورا في الصراع والاستمتاع.

ولكن أولئك الدجالين الذين وقفوا يملأون عقول البشر بأهوائهم اجتهدوا جهدهم لينفوا هذا.. فلهذا لا ترى في جميع الدراسات الغربية التي اهتمت بالإنسان رعاية هذا البعد.

فجميع الدراسات تدرس الإنسان باعتباره يعيش حياته الدنيا وحدها، ولا معاد له في الآخرة، وبذلك اختلت الموازين تماما.

فاعتبار الحياة الدنيا هي المبدأ والنهاية يؤثر تأثيرا بالغا في رؤية الإنسان للأشياء، ليس فقط من الناحية الاعتقادية، ولكن كذلك من الناحية السلوكية والعملية والعلمية.

فحين يكون أمامك منظر متكامل تعرف مبدأه ومنتهاه، وتستطيع أن تعرف مكان كل جزئية فيه، ودلالتها في المنظر المتكامل، ثم تقتطع جزءا من المنظر، وتقول: يكفيني هذا الجزء، ولست بحاجة إلى باقيه! هل

---

(١) انظر: رسالة (أفراح الأنا) من رسائل السلام.

(٢) انظر رسالة (الحياة) من هذه السلسلة.

يكون سلوكك عقلانيا؟.. وهل يكون واقعيا؟.. وهل تحصل على نتائج علمية صحيحة؟!

إن إدراك الدلالة الخاصة لكل جزئية في الصورة يرتبط ارتباطا وثيقا بالرؤية الشاملة للكل المتكامل المتمثل في الصورة، أما في القطاع الذي تقتطعه ــ أيا كان حجمه ــ فكيف تأخذ الجزئية دلالتها؟ وكيف تتكامل النظرة؟ فإذا كان الجزء الذي اقتطعته هو الأصغر، والمتروك هو الأكبر، فأي خلل يمكن أن ينشأ في الرؤية، وإلى أي مدى تفقد الجزئيات دلالتها؟!

والعلوم الاجتماعية التي نشأت وترعرعت في الغرب في ظل الصراع الحاد مع الكنيسة ودين الكنيسة ألغت اليوم الآخر من حسابها تماما، على أنه غيبيات لا تخضع للبحث العلمي، وميتافيزيقيا ضارة ومعوّقة عن التقدم العلمي والعمراني، فلا ينبغي الاهتمام يها والالتفات إليها، ونشأ من ذلك اختلال هائل في رؤية القيم والأهداف.

فحين يعيش الإنسان للدنيا وحدها، ويعتقد أن ما يجنيه فيها من خير أو شر هو الحصية النهائية لجهده، وألا بعث ولا نشور ولا حساب ولا جزاء في الآخرة، فكيف تكون قيمه، وكيف تكون أهدافه؟

إنه بذلك، سيركز على الهدفين الرئيسيين للحيوان: الغلبة في صراع البقاء، والاستمتاع، وإن كانت أدواته لتحقيق كل من الهدفين هي أدوات الحيوان المتطور، أي باستخدام العقل، واستخدام العدد والآلات.

ولأجل هذا يبرز مثل هذا الشعار (القوة هي الحق) أو بالإنكليزي(Might is right) ويكون قانون التعامل بين التجمعات البشرية بعضها وبعض هو قانون الغاب: القوي يأكل الضعيف أو ينحيه من الطريق، بصرف النظر عما هو حق وما هو عدوان.

وإن كان الكلام الحلو الذي تعلمه الحيوان المتطور حين أتيح لمخه أن يكبر، يفيض رقة وعذوبة وهو يتكلم عن التعاون الدولي، وعن الحرية والديمقراطية واحترام حقوق الآخرين ولا ينفي هذا أن تكون هناك أخلاقيات في السياسة والاجتماع، وعلاقات الناس بعضهم وبعض في داخل كل تجمع على حدة، قائم على رابطة الدم أو العصبية القومية، ولكنها ــ باعترافهم ــ أخلاقيات نفعية، يتواضعون عليها لتقليل الاحتكاك في التجمع الواحد إلى أقصى حد ممكن، وتوجيه العدوان إلى الآخرين، ثم لينال كل إنسان حظه من الاستمتاع الحيواني بأقل قدر من المنغصات.. وحتى هذه الأخلاقيات ــ كما يقول دركايم ــ دائمة التقلب لا تثبت على حال.

٢ ـــ حقوق الإنسان

قلت: وعيت حقيقة الإنسان كما يصورها القرآن.. وكما تصورها مذاهب البشر وأفكارهم، فما الحقوق التي تتطلبها هذه الحقيقة؟

قال: فما هي الحقوق التي تتصورها أنت؟

قلت: ثلاث: الحرية.. والإخاء.. والمساواة.. وهي الحقوق التي جاءت بها الثورة الفرنسية..

قال: وما الثورة الفرنسية؟

قلت: تلك التي أعلنت حقوق الإنسان.

قال: وأعلنت معها عقوق الإنسان..

قلت: ما تقول؟

قال: سأحكي لك القصة من أولها لتعلم أنه بقدر الحقوق التي تصور الإنسان أنه نالها في هذه الثورة بقدر الضرائب الضخمة التي دفعها.

نظر إلى الشجرة الجاثية أمامنا بحزن، ثم قال: لقد قام أولئك الثوار المساكين بقلع شجرة الإنسان قلعا شديدا ممتلئا بالفوضى، فقطعوا عروقها، وسملوا أعين أوراقها، ثم ملأوها بالصور التي شاءت لهم أهواؤهم أن تحجب أشعة الشمس عنها، ثم أحضروا مياه المستنقعات، فسقوها بها، فامتلأت بالأدواء.

قلت: كيف حصل كل ذلك؟

قال: في ذلك اليوم الذي اختلط فيه البغض بالحب.. والحقوق بالعقوق.. قام الثوار الذين انفجر بهم الظلم الاجتماعي، وقام معهم المفسدون في الأرض[1]، إلى الثورة..

---

(١) يدعي اليهود في تبجح وغرور أنهم صناع الثورة الفرنسية ومدبروها، تقول البروتوكولات المنسوبة لهم:« تذكروا الثورة الفرنسية التي نسميها الكبرى.. إن أسرار تنظيمها التمهيدي معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا »

وتقول:« كذلك كنا قديماً أول من صاح في الناس (الحرية والمساواة والإخاء) كلمات ما انفكت ترددها منذ ذلك الحين ببغاوات جاهلة متجمهرة من كل مكان حول هذه الشعائر » (البروتوكولات:١١١،١٠٣)

وقد أيدهم في دعواهم هذه بعض الكتاب من أمثال وليم كار في (أحجار على رقعة الشطرنج) وسيبريدوفيتش في (حكومة العالم الخفية﴾ (انظر أحجار على رقعة الشطرنج:فصل الثورة الفرنسية.وحكومة العالم الخفية:٧٩)

ويدل لهذا أن اليهود تغلغلوا في منظمات الثورة المختلفة كالجمعية التأسيسية ونادي اليعاقبة وبلدية باريس، ولهذا استطاعوا أن ينفثوا تلك الشعارات التي رددتها الجماهير ببلاهة لا سيما شعار الثورة البارز (الحرية والإخاء والمساواة)، فهذا الشعار الذي قامت عليه الثورة وحققته كان له عند اليهود تفسير آخر:

فهم يقصدون بالحرية تحطيم القيود الأخلاقية والتقاليد الموروثة التي تحول بينهم وبين إفساد الأمم وتدميرها.

ويقصدون بالإخاء والمساواة كسر الحواجز النفسية والاجتماعية التي تحول بينهم وبين الانسلال إلى أجهزة الدولة وتنظيماتها، وإذابة الفوارق الدينية بينهم وبين غيرهم كي تزول عنهم وصمة الاحتقار والمهانة.

لقد كان النظام الاجتماعي الذي هيمن على الحياة الأوروبية طيلة القرون الوسطى هو نظام (الإقطاع) [1].. وربما كان هذا النظام أبشع النظم الاجتماعية في التاريخ [2].

وقد كان من رحمة الله بأمة محمد أنه لم يكن فيها هذا النوع من النظم.. ذلك أن سياسة المال التي اتسم بها الإسلام، كانت تمنع ظهور الإقطاع.

والأخطر من ذلك.. ولعله هو الذي جر الثورة الفرنسية إلى ذلك الانحلال أو ذلك الاستغلال السيء لمبادئها هو أن الكنيسة كانت أكبر الملاك الإقطاعيين، فلذلك وقفت ضد الثورة، بدل أن تتولاها وتحميها وترشدها.

إن الكنيسة ــ التي حكمت أوروبا طيلة عصورها المظلمة ــ لم تكتف بصد الناس عن نور الإسلام، بل ناقضت تعاليم الإنجيل الداعية إلى المحبة والتسامح ونافست الأمراء الإقطاعيين في إذلال الشعوب وقهرها.

لقد برر القديس توما الاكويني نظام الاسترقاق الإقطاعي بقوله:« إنه نتيجة لخطيئة آدم »[3] وكأن رجال الكنيسة والبارونات ليسوا من بني آدم.. ولهذا لم تكن تلك الثورة في حقيقة أمرها تمرداً على الكنيسة، لأنها كنيسة، وإنما كان ذلك لأنها مالك إقطاعي.

يقول ويلز:« كانت ثورة الشعب على الكنيسة دينية ...فلم يكن اعتراضهم على قوة الكنيسة، بل على مساوئها ونواحي الضعف فيها، وكانت حركات تمردهم على الكنيسة حركات لا يقصد بها الفكاك من الرقابة، بل طلب رقابة دينية أتم وأوفى ... وقد اعترضوا على البابا لا لأنه الرأس الديني للعالم المسيحي، بل لأنه لم يكن كذلك، أي لأنه كان أميراً ثرياً دنيوياً، بينما كان يجب أن يكون قائدهم الروحي »[4]

بسبب هذا.. ولدت أول مرة في تاريخ أوروبا المسيحية دولة جمهورية لا دينية تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب، وعلى حرية التدين بدلاً من الكثلكة، وعلى الحرية الشخصية بدلاً من التقيد بالأخلاق الدينية، وعلى دستور وضعي بدلا من قرارات الكنيسة.

ونتج عن هذا أن حلت الجمعيات الدينية، وسرح الرهبان والراهبات، وصودرت أموال الكنيسة، وألغيت كل امتيازاتها.

وكان ذلك كله يمكن أن يتم باعتدال.. لولا أن الثورة الغوغائية لا يمكن أن تحصد الاعتدال..

والأخطر من ذلك كله أن القائمين على الثورة والناشرين لها أو الذين تربوا في أحضانها ومهدها انطلقوا

وهكذا نجحوا في تحويل الثورة من ثورة على مظالم رجال الدين نفسه وجعلوا لفظة الدين عند الشعوب الأوربية مرادفة للظلم والرجعية والتخلف والاستبداد.

(١) سنتحدث عن هذا النوع من النظم في فصل (نظام) من هذه الرسالة.

(٢) انظر: العلمانية، لسفر الحوالي، وغيره من المراجع السابق ذكرها.

(٣) قصة الحضارة:٤٠٦/١٤.

(٤) معالم تاريخ الإنسانية:٩٨٩/٣.

من الثورة.. ولم ينطلقوا من العلم.. فوقعوا في أخطاء لا تقل عن الأخطاء التي ثاروا عليها.

لقد كان من أخطر ما ولدت الثورة.. وأخطر من ولدها تلك الأفكار التي سميت أفكارا تنويرية مع أنها كانت تحوي من الظلمات ما لا يقل عن الظلمات التي أرادت رفعها.

فمن المدارس التي ظهرت.. والتي طبعت الحياة العقدية والسلوكية والاجتماعية.. وحاولت أن تفسر حقيقة الإنسان، وتستنتج منها حقوقه مدرسة الكتاب الموسوعيين الذين كتبوا دائرة المعارف بزعامة (ديدرو)، وكانوا كما يقول ويلز:« يناصبون الأديان عداوة عمياء »

ومنها مدرسة (روسو)، وهي مدرسة ذات طابع اجتماعي وسياسي، وروسو هو صاحب كتاب (العقد الاجتماعي) الذي أطلق عليه (إنجيل الثورة الفرنسية).. ومن أعمدة هذه المدرسة (مونتسيكو) صاحب (روح القوانين)

ومن كتابات هؤلاء استلهم زعماء الثورة مبادئهم واقتباساتهم.

والغرض من فكرة العقد الاجتماعي واضح للعيان فهي تهدف إلى استبدال (المصلحة الاجتماعية) أو الرابطة النفعية للأفراد بالأخلاق والنظم الدينية، لتحل عبادة المجتمع ممثلاً في الوطن أو القوم محل عبادة الله، وذلك ما نادت به الثورة حرفياً.

وروسو لم يكن ــ في الحقيقة ــ صاحب هذه الفكرة.. بل سبقه إليها الفلاسفة المثاليون في المدن الفاضلة ففي (جمهورية أفلاطون) و(اليوتوبيا) لتوماس مور، و(مدينة الشمس) لكامبانيلا، وكلها نماذج واضحة للحياة اللادينية التي تقوم على أساس من التفاهم والوفاق المجرد بين الأفراد، وهو ما عبر عنه روسو بالعقد الاجتماعي، إلا أنه أضاف إلى هذا النموذج ما اقتبسه من (هوبز) و(ميكافيلي) اللذين غلبا جانب الشر لدى الإنسان على الخير، لذلك كان روسو هداماً أكثر منه فيلسوفاً.

ومن تلك المدارس مدرسة الدين الطبيعي، وهي مدرسة ذات طابع فلسفي هدام، وقد سبق الفلاسفة العقلانيون غيرهم في بحث علاقة الفرد بالدولة والمناداة بمجتمع ينفصل فيه الدين عن الدولة، وكانت فكرتهم اللادينية أوسع مما تصوره ميكافيلي، لأن الدين نفسه عندهم يجب أن يلغى ليحل محله (الدين الطبيعي أو القانون الطبيعي)

وربما كان الفيلسوف (سبينوزا) رائد الفكرة العلمانية باعتبارها منهجاً للحياة، فهو يقول في كتابه (رسالة في اللاهوت والسياسة):« ومن الخطورة على الدين وعلى الدولة على السواء إعطاء من يقومون بشؤون الدين الحق في إصدار القرارات أيا كانت أو التدخل في شؤون الدولة، وعلى العكس يكون الاستقرار أعظم إذا اقتصروا على الإجابة على الأسئلة المقدمة إليهم والتزموا في أثناء ذلك بالتراث القديم الأكثر يقيناً والأوسع قبولاً بين الناس »[1]

واكتملت لدى فولتير فكرة الدين الطبيعي التي ورثها عن سبينوزا ولايبنتز واشتق منها فكرة (القانون

(١) رسالة في اللاهوت والسياسة، ص:٤٢٦.

الطبيعي)، حيث نجده يقول:« إن دين أهل الفكر دين رائع خال من الخرافات والأساطير المتناقض وخال من العقائد المهينة للعقل والطبيعة ...لقد منع الدين الطبيعي آلاف المرات المواطنين من ارتكاب الجرائم ...أما الدين المصطنع فإنه يشجع على جميع مظاهر القسوة ... كما يشجع على المؤامرات والفتن وعلى أعمال القرصنة وقطع الطريق..ويسير كل فرد نحو الجريمة مسروراً تحت حماية قديسه »

ويقول:« هناك قانون طبيعي مستقل عن الاتفاقات الإنسانية..يبدو لي أن معظم الناس قد أخذوا من الطبيعة حساً مشتركاً لسن القوانين »[1]

وإذا كان روسو وفولتير لم يدركا الثورة الفرنسية، فإن الفيلسوف الألماني (كانت) (١٨٠٤ م) عاصرها واشتهر بتأييدها، وهو الذي طور فكرة العقد الاجتماعي في كتابه (الدين في حدود العقل وحده)

وهكذا بتأثير هذا الفكر اللاديني جسمت الثورة الفرنسية الفكرة الفلسفية القديمة بإقامة مجتمع يرفض القيم والأخلاق الدينية، ويجعل العلاقات النفعية المحضة هي الرباط المقدس الوحيد.

قلت: فهل تتصور تلك الجماهير البسيطة من الفلاحين والعمال الذين قهوهم الإقطاع قد قرأوا أفكار روسو، وانتقادات فولتير، ليقوموا بالثورة؟

قال: ربما لم يقرأوا.. ولكنهم قد قرأوا الواقع.. قرأو مخازي الكرادلة والقساوسة وفضائحهم وثراءهم البازخ.. ورأو بأعينهم ما عبر عنه توماس جفرسن بقوله:« إن القسيس في كل بلد، وفي كل عصر من أعداء الحرية، وهو دائماً حليف الحاكم المستبد يعينه على سيئاته في نظير حمايته لسيئاته هو الآخر »[2]

وكان كل ذلك مدعاة لأن تصب الجماهير جام غضبها على الكنيسة، وتصرخ خلف (ميرابو):« اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس »

قلت: أرانا انشغلنا بالحديث عن الثورة الفرنسية عن حقوق الإنسان.

قال: لا.. لم ننشغل.. لابد أن نفهم كل هذا حتى نعي معنى حقوق الإنسان التي نادت بها الثورة الفرنسية، والتي اعتبرت بعد ذلك دستورا لحقوق الإنسان.. فلا يمكن مقارنة ما جاء به الإسلام إلا بعد أن نعرف ما جاءت به هذه الثورة التي زعم لها أنها أول من نادى بحقوق الإنسان.

قلت: أنا إلى الآن لم أعرف كيف دخلت فكرة حقوق الإنسان إلى الثورة الفرنسية..

قال: لا يزال ذلك لغزا.. أو قريبا من اللغز.. ذلك أن تلك الجماهير كان يمكن ككل الثورات أن تكتفي بالإنجازات البسيطة.. ولكنها لم تكتف بذلك.

لم تكتف الثورة بمصادرة أملاك الكنيسة.. أو القضاء على نفوذها.. لتظل بعد ذلك مؤمنة بدينها، وفيه لتاريخها، متمسكة بتقاليدها العريقة، لولا أنه وجد عامل آخر قلب أهداف الثورة وحول خط سيرها.

فعندما اندفعت الجموع الغوغائية لهدم الباستيل، وهو رمز العبودية والاستبداد لم تكن ترفع سوى شعار

---

(١) القاموس الفلسفي لفولتير:سلسلة تراث الإنسانية:٢٠٧/٨.

(٢) أفكار ورجال:٥٠٢.

واحد هو (الخبز)، والخبز وحده.

لكنها ما إن بدأت في قطف أولى نتائج ثورتها حتى وجدت نفسها تهتف بشعار (الحرية المساواة الإخاء)، وهو شعار لقنته تلقيناً.. كما لقنت شعار (لتسقط الرجعية)، وهي كلمة ملتوية تعني الدين.

وعندما بدأت المقصلة في تطبيق تلك الشعارات كان الضحايا يقدمون على مذبحها بحجة واحدة هي أنهم من أعداء الشعب، مع أنه كان بينهم من يعرف الشعب براءته، ودهش الشعب حين كان يرى من يقرأ بيان القتل اليوم باسم الشعب، يقدم هو نفسه غدا إلى المقصلة باسم الشعب أيضاً.

قلت: كيف هذا.. هل ترى الثورة فشلت في تحقيق أهدافها؟

قال: بل انحرفت عن أهدافها..

لقد تولى مفسدون كثيرون رعاية الثورة وتوجيهها.. فلذلك انحرفت ذلك الانحراف الخطير.. وانحرفت معها حقوق الإنسان انحرافا لا نزال نعاني منه.

قلت: ما هو هذا الانحراف؟

قال: عزل الدين عن الحياة.. وعزل حقيقة الإنسان عن حقوقه.

قلت: فهل تحدثني عن آثار ذلك؟

قال: سأحدثك عن بعض آثار ذلك، لتكتشف الزور الذي تحتوي عليه أكذوبة حقوق الإنسان التي جاءت بها الثورة الفرنسية، وأعلنتها القوانين العالمية[1].

---

(١) معظم القوانين التي نصت على حقوق الإنسان لم ينص إلا على بعد جهود كبيرة، ومع ذلك فإن أكثرها مخترق وغير ملزم.

وهذا ذكر لبعض القوانين المتلعقة بحقوق الإنسان متسلسلة تاريخيا:

١. أجبر الملك جون في بريطانيا على إصدار العهد الأعظم في سنة ١٢١٥ م ويسمى الماجنا كارتا، وهذا العهد يلزم الملك بألا يعتدي على الممتلكات الشخصية لأحد رعاياه ما لم يكن ذلك إنفاذا لقضاء محكمة من نظراء هذا الشخص المنتمين لطبقته نفسها، وهذا يكرس سلطة محاكم النبلاء والأشراف كطبقة مميزة، كما يلاحظ أن هذا العهد على الرغم من أنه يسمى بوثيقة الحريات العظمى إلا أن صياغته تكشف عن أنه يخدم نظام الطبقات ويحفظ للبارونات والأمراء حقوقهم كطبقات ممتازة، وهي المعنية بهذه الحقوق والمستفيدة منها.

٢. أصدرت بريطانيا سنة ١٦٧٩ وثيقة المثول أمام القضاء وهي تشمل ضمانات للمتهم حتى لا يتم القبض عليه دون سند من القانون، أي تحميه ضد الاعتقال والسجن.

٣. أصدرت بريطانيا وثيقة إعلان الحقوق سنة ١٦٨٩ وتتضمن وجوب إقرار البرلمان لحرية القول وعدم فرض ضرائب دون سند من القانون.

٤. أصدرت الولايات المتحدة الأمريكية وثيقة إعلان الاستقلال سنة ١٧٧٦ وتضمنت أن الرجال سواسية أمام القانون.

٥. أصدرت فرنسا إعلان حقوق الإنسان والمواطن، وذلك سنة ١٧٨٩ وهذا على إثر قيام الثورة الفرنسية.

٦. توجت هيئة الأمم المتحدة هذه الوثائق بإصدارها للإعلان العالمي لحقوق الإنسان في العاشر من ديسمبر سنة ١٩٤٨، وهو كسائر قرارات المنظمة الدولية ليس له قوة إلزامية، ولهذا تنتهك حقوق الإنسان، بل يغتال هذا الإنسان في كثير من الدول.

الحرية

قلت: فلنبدأ حديثنا بالحرية..

نظر إلى الشجرة بعمق، ثم قال: هل ترى هذه الشجرة المسكينة التي تتنفس السموم، وترضع من المستنقعات.

قلت: ما بها؟

قال: هذه هي نهاية الحرية التي نادى بها أولئك الشياطين الذين اعتلوا عرش البشرية.

قلت: إن ما تقوله خطير جدا.

قال: وصادق جدا.. الحرية التي يريدها أولئك الشياطين هي أن تتمرد هذه الشجرة على جميع الغابة التي ولدت في أحضانها لتشرب غير الماء الذي تشربه، وتأكل من غير الكلأ الذي تأكل منه.

إن أول ما فعلته تلك الثورة التي أعلنت الحرية أن بترت الإنسان عن الإنسان، لأنها تصورته قيدا يكبت حرية الإنسان.

وقد بدأت ذلك بتحريره من الله.. أو بعزل الله عن حياته.

ثم كان الانقلاب الصناعى[1] الذى أتى على بقية ما كان من بنيان.. لقد أحدث هذا الانقلاب تغيراً كاملاً فى صورة المجتمع.. فى كل شىء فيه..

وكان عاملاً من أهم العوامل فى التركيز على (فردية) الإنسان..

لقد جاء العمال من الريف فرادى.. غير متعارفين ولا مترابطين، وسكنوا فى المدينة كذلك فرادى.. لا يلتقون إلا فى زمالة العمل وحده، ولكن لا تقوم بينهم الروابط التى كانت تقوم بين الفلاح وأخيه فى الريف، حيث الناس متعارفون، متعاونون، تربطهم القرابة والمصاهرة والجوار ودوام الاتصال.. والتقاليد المشتركة التى توحد كيانهم من الداخل فيلتقون متعارفين بالمشاعر والأفكار.

بل إنهم جاءوا كذلك فرادى بلا أسر.. فقد كان الجيل الأول من العمال النازحين من الريف يتحسسون الطريق فى المدينة، فلا يحضرون معهم أسرهم حتى يطمئنوا أولاً إلى الجو الذى يعيشون فيه، وكان معظمهم من الشبان العزاب الذين لم يرتبطوا بعد برباط الزواج..

وهكذا أحس كل إنسان فى المدينة بفرديته المتميزة أكثر مما أحس بالرباط الجمعى..

ثم عملت المرأة.. وأحست كذلك بفرديتها وحريتها..

لقد كانت من قبل هملاً لا وجود له ولا كيان ولا استقلال، مجرد تابع للرجل، تعيش عن طريقه اقتصادياً واجتماعياً ونفسياً وفكرياً.. وكل شىء.. فلما اشتغلت حدث فى نفسها انقلاب، وصار فى يدها مال تملكه ملكاً حقيقياً، مباشراً، كاملاً، تستطيع أن تتصرف فيه كما تشاء.

---

(١) انظر كتب سيد قطب ومحمد قطب، خصوصا (مذاهب فكرية معاصرة).

وتعاملت ــ بشخصها مباشرة ــ مع المجتمع، فى المصنع والمتجر والطريق..

وتعاملت مع الرجل ــ أو بدأت ــ إن لم يكن على أنها ند له، فعلى الأقل على أنها لم تعد ذلك التابع الذى لا كيان له، وإنما صارت كائناً يحاول أن يصل إلى مستوى الرجل وينازعه السلطان..

وفى كل ذلك برزت فرديتها التى لم يكن لها وجود من قبل..

واشتغل الأطفال كذلك.. وبرزت ــ رويداً رويداً ــ لهؤلاء الصغار فردية متميزة، يكتسبونها من عرك العمل لهم منذ طفولتهم، ومن العملة القليلة التى تتحصل فى أيديهم..

وهكذا صار الجميع أفراداً متميزى الفردية.. تحرر بعضهم من بعض..

قلت: وما الخطر في ذلك.. إن الحياة لا تستقيم إلا بهذه الفردية..

قال: ولكن الفردية التي ولدت في ذلك الوقت كانت انحرافا خطيرا.. ذلك أنها ولدت في ظل الجاهلية المنحرفة..

لقد ذاق هؤلاء جميعاً فرديتهم المستقلة (المتحررة) من غير طريقها السوى، الذى كان يضمن لهم ــ مع الإحساس بالذاتية المتميزة ــ توازناً فى الإحساس بالحقوق والتبعات، والحرية والالتزام.

فسكان المدينة الجدد كانوا ــ رويداً رويداً ــ قوماً يتحللون من الدين والأخلاق والتقاليد، بتأثير الانتقال من الكبت العنيف فى الريف إلى (حرية) المدينة وبحبحتها، وبتأثير الانسلاخ التدريجى الدائم من الدين، وبتأثير التفسير الحيوانى للإنسان الذى بثته الداروينية فى النفوس؛ وبتأثير التفسير الجنسى للسلوك الذى بثه فرويد؛ وبتأثير وجود الشباب الفاره القوة بلا أسر تعصمه من الخطيئة، فيلجأ إلى الحل الرخيص الذى تقدمه المدينة فى صورة بغاء..

والمرأة ــ وهى تحس رويداً رويداً بفرديتها ــ كانت تستقى هذه الفردية على انحراف، فهى خارجة من حالة انعدام الكيان.. فى كل شىء.

فلما أحست بذاتيتها أخذت تناضل لتحطيم كل قيد.. لازماً أو غير لازم.. وأخذت بالذات تسعى إلى تحطيم الدين والأخلاق والتقاليد لأنها استخدمت ضدها فى معركة (التحرر).. استخدمها الرجل ليصدها عن منافسته، بينما كان هو فى واقع حياته متحللاً من الدين والأخلاق والتقاليد.

وحدث عند هذا انحلال مدمر شنيع..

لقد تحطمت روابط المجتمع، وروابط الأسرة، وفسد كيان الرجل والمرأة كليهما.. فلم يعودا رجلاً وامرأة كما خلقهما الله.

أما الرجل ــ وقد فقد روابطه الاجتماعية وضعفت فى نفسه روابط الأسرة وروابط الرجولة ذاتها ــ فقد أصبح شيئاً أقرب إلى الآلة منه إلى الإنسان.. آلة منتجة، ولكنها لا تكاد تفكر أو تحس.. وإنما تعيش الحياة لحظة لحظة، بلا هدف شامل ولا وعى بإنسانية الإنسان.. ثم إذا فرغ من الإنتاج المادى الذى يكبت كيانه الحى ويطمس إشعاعه الروح فيه ــ بسبب الأسلوب الآلى الذى يؤدى به العمل ــ انطلق فى حيوانية هابطة يشبع دوافع الحيوان.. وتتحول فى نظره إلى هذين الهدفين القريبين: إنتاج كالآلة.. وانطلاق كالحيوان.

قلت: وعيت هذا.. بل إني أرى هذا بعيني، وأتألم له كما تتألم.. بل إنه في كل يوم يظهر شذوذ جديد من هذا العالم الحر.. ويطالب الجميع بقبوله، لأنه مظهر من مظاهر الحرية.. ومن ينكر ذلك يعتبر من محور الشر الذي ينبغي أن يحارب ويباد لتحفظ الحرية في العالم.

قال: أما الإسلام.. دين الحرية الحقيقية.. فقد بنى مفهوم الحرية على أسس صحيحة تخدم الفرد، وتخدم المجتمع.. وتقيم عمارة الأرض التي لا تستقيم إلا بالحرية المنضبطة بضوابط المسؤولية.

قلت: لقد ذكرت لي أن حقوق في الإسلام تنطلق من تصوره لحقيقته.

قال: أجل.. ولذلك فإن الحرية في الإسلام تنطلق من الخصائص التي عرف بها الإسلام الإنسان.. وأولها العبودية لله..

قلت: إن قومنا من دعاة الحرية يعتبرون هذا من القيود التي تمنع انطلاقة الحرية..

قال: لا.. إن العبودية لله، والتي تعني الانقياد التام والطاعة الكاملة لله هي التي تحرر الإنسان من كافة العبوديات والانقيادات والتبعات لأية جهة أخرى.

وهذا ما يكشف عن التحرر الحقيقي للانسان من كافة الأغلال والقيود التي طالما كبلت إرادته وفكره وجسمه وروحه وحتى عواطفه خلال مسيرته الحافلة بالعناء.

فالعبودية لله تعني أسمى أنواع الحرية التي لم يحلم بها الإنسان، ولم يتصورها أبداً، وهو يصارع ألوان العبوديات التي سلبت منه نعمة الحرية والحياة الآمنة والعيش الهانىء.

إن العبودية لله تحرر الإنسان من كل القيود.. لا من قيود الظلم والامتهان والاستعباد والآلهة المزورة فحسب، وانما من قيود النفس وأهوائها الجامحة ونزعاتها الجنونية.

وذلك ما يتيح للانسان شق طريقه بشكل أفضل وأداء دوره بالصورة المطلوبة.

ولئن كانت الحرية في الحضارات الغربية تبدأ من التحرر لتنتهي إلى ألوان من العبودية والأغلال، فإن الحرية الرحيبة في الإسلام على العكس.. لأنها تبدأ من العبودية المخلصة لله تعالى لتنتهي إلى التحرر من كل اشكال العبودية المهينة[1].

قلت: ولكن الذين ثاروا في الثورة الفرنسية ثاروا على الكنيسة التي ترمز للعبودية لله.

قال: لا.. لم تكن الكنيسة في يوم من الأيام ترمز للعبودية لله.. لقد قال القرآن في الانحراف الخطير الذي آلت إليه:﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:٣١)

أنت تعلم ما فعله رجال ديننا متذرعين بما أعطي لهم من سلطة المنح والمنع، والغفران والحرمان، والإدخال في رحمة الله، والطرد منها، لأن المسيح قال لبعض تلاميذه: سأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما ربطته على الأرض يكون مربوطا في السموات، وكل ما حللته على الأرض يكون محلولا في السموات.

---

(١) الاضواء، العدد ٢، مقالة للشهيد آية الله الصدر.

أما الإسلام فليس فيه هذا النوع من العبودية..

الإسلام يأمر بالعبودية التي تتوجه لله وحده من دون أي وسائط.. ولذلك فإن هذه العبودية هي عين الحرية.. فهي تحرره من أي قيد فكري أو سياسي أواجتماعي أونفسي.. وغيرها من القيود التي تحاول فرضها عليه الافكار والعقائد والتقاليد والقوى التي لاتمت إلى الله بصلة ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤)

وانطلاقا من هذه العبودية الجميلة التي يعيشها الفرد المؤمن كما تعيشها الجماعة المؤمنة يتحرك المؤمن في الحياة طبقاً لمرضاة من توجه إليه بالعبودية..

فالمسلم مطالب بتحقيق مرضاة الله، والبحث عنها في التكاليف التي كلف بها..

قلت: أليس هذا قيدا للحرية؟

قال: أرأيت لو أن طبيبا نهاك عما يضرك، أو أمرك بما ينفعك، ثم فعلت ما طلبه منك عن رضا تام.. وطواعية محبة.. أكان ذلك قيدا؟

قلت: لا.. فالطواعية تتنافى مع القيد.

قال: فهكذا العبودية التي أمر بها الإسلام، والتي يقوم بها المؤمن، ففيها وصفان يزيلان عنها ما نتوهمه من قيود:

أما أولهما، فكونها لا يمكن أن تتحقق إلا بالرضى التام والطواعية التامة.. ولهذا يربط الإسلام بين العبادة والمحبة.. فالعبادة التزام من قلب ممتلئ بحب الله.. قلب يشعر أنه ليس في الوجود من هو أجدر من الله بأن يحب، والإسلام بمصادره المقدسة يعمق في المؤمنين هذه المحبة.. فهو يصف الله بأنه صاحب الفضل والإحسان، الذي خلق الإنسان ولم يكن شيئا مذكورا، وخلق له ما في الأرض جميعا، وأسبع عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وخلقه في أحسن تقويم، وصوره فأحسن صورته، وكرمه وفضله على كثير من خلقه، ورزقه من الطيبات، وعلمه البيان، واستخلفه في الأرض، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته.

فإذا امتلأ المؤمن بهذه المحبة مارس العبودية ــ بجميع أنواعها ــ برضا وتلذذ وطواعية..

وأما الثاني.. فهو أن هذه العبودية التي يمارسها المؤمن عن طواعية تامة لم يقصد منها إلا مصالحه.. والمصالح بالمفهوم الإسلامي تشمل مصالح الدنيا، ومصالح الآخرة.

ولهذا.. فإن النصوص المقدسة تربط بين طاعة الله والمصالح..

قلت: إن قومنا يقصدون بالحرية حرية الرأي.. وهو ما أتاحته الديمقراطية الحديثة؟

قال: تقصد ديمقراطية المشاغبين؟

قلت: ما تقول؟

قال: أرأيت لو كنت معلما.. وكان لك تلاميذ.. وكان أكثرهم مشاغبين لا علاقة لهم بالعلم، ولا اهتمام لهم به.. وراحوا يطالبونك بانتخابات تحدد لهم الدروس التي يقرؤونها، والمنهج الذي تدرسهم به.. أترى هذا

الأسلوب نافعا لهم؟

قلت: لا أراه مجديا معهم.. فهم سيرمون جميع الدروس في سلة المهملات.. وسيجعلون من المدرسة ملعبا لأهوائهم وشغبهم.

قال: فهكذا هذه الديمقراطية المزيفة.. إنها تتيح للص والمجرم والقاتل والمنحرف من الأصوات ما تتيحه للمفكر والعالم والعبقري.

وهي مع ذلك لا تتيح لهم إلا حرية محدودة في أطر رسمتها [1].. فالمتتبع لواقع حرية الرأي في الفكر الغربي يجدها قد قيدت بقيدين: أولهما سيطرة الاحتكارات الرأسمالية الكبرى على وسائل الإعلام، وقدرتها على توجيه الإعلام، والتحكم في مصادر الأخبار والمعلومات.. وثانيهما تلك القيود المثيرة التي تفرضها الدولة، بحجة عدم الاعتداء على حريات الآخرين، والمحافظة على الأمن الداخلي، والتي غالباً ما تستخدم كذريعة للحد من قدرة الأفراد على التعبير عن آرائهم.

قلت: والإسلام.. لقد سمعت أنه يكبت حرية الرأي!؟

قال: هو يكبت حرية الرأي الذي يريد أن يخرب المجتمع، أو يفتت وحدته، أو يحول وجهته عن الله الذي خلقه..

أما الرأي الذي يكون نصحا أو نقدا بناء.. فإن الإسلام لا يكتفي باعتباره حقا.. بل يعتبره واجبا على الكل.. وهو لا يسميه رأيا.. بل يسميه نصيحة، ويشرع له من الأخلاق ما يضعه في قمة قمم الأدب.

لقد كان أبو بكر هو أول خليفة للمسلمين، وقد رسم في أول خطبة له سياسة الحاكم المسلم، وموقف الرعية منه، فقال:« يا أيها الناس، إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستكلفوني، ما كان رسول الله ﷺ يطيق، إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن استقمت فتابعوني، وإن زغت فقوّموني »

ومن الجرأة على قول الحق ما روي أن عمر سأل سلمان الفارسي:« أملك أنا أم خليفة؟»، فأجابه سلمان بقوله:« إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر، ثم وضعته في غير حقه، فأنت ملك غير خليفة »

وروي أن عمر قال للصحابة يوماً:« أما والله لوددت أني وإياكم في سفينة في لجة البحر، تذهب بنا شرقاً وغرباً، فلن يعجز الناس أن يولوا رجلاً منهم، فإن استقام اتبعوه، وإن جنف قتلوه، فقال طلحة: وما عليك لو قلت: إن يعوج عزلوه، فقال: لا، القتل أنكى لمن بعده »

قلت: وعيت هذا.. ولكن الإسلام يقمع حرية المعتقد.

قال: الإسلام ينهى عن الإكراه في الدين.. ولا يجيز لأحد أن يكره أحد على أي اعتقاد.

قلت: لا أقصد هذا.. ولكني أقصد أمره بقتل المرتد، وقد قاتل أبو بكر المرتدين حتى عادوا.. أليس ذلك

---

(١) انظر: د. محمد مفتي/ د. سامي الوكيل، الحرية السياسية الغربية وحق إبداء الرأي في التصور الإسلامي.

إكراها[1]؟

قال: لا.. لأن قتل المرتد ليس من باب الإكراه على المعتقد من غير اقتناع، وإنما لطمس عنوان سوء ينفر الناس من اعتناق الإسلام، أو التفكير في قبول دعوته.

لقد مارس بعض اليهود هذا في عهد النبوة، كما ذكر القرآن:﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢)﴾(آل عمران).. فلذلك جعل الإسلام هذا الرادع التشريعي ليحفظ حماه.

قلت: ولكن المرتد يظل على كفره حتى لو أرغم على الإسلام.

قال: الإسلام لا يتوجه بالعقوبة إلا للمرتد الذي لا هدف له إلا تخريب المجتمع، وتفتيت وحدة المسلمين، وخرق صفوفهم.. أما المرتد الذي يحتفظ بردته لنفسه، ويحتفظ بكفره لنفسه، فلا يسمع به الإسلام، ولا يهتم له.

بل إن محمدا كان يرى المنافقين ويعلم أسماءهم.. و لم يقتل واحدا منهم.

ثم التفت إلي، وقال: أنا أتعجب من المسيحيين الذين ينكرون هذا.. ألم يقرأو ما كتبه القديس (أوغستان) إلى الكونت (بونيفاس) يشير عليه باستعمال القوة لردع أهل البدع من المسيحيين، وردهم إلى النصرانية، وقد مثلهم في كتابه ببغال تعض وترفس من يعالجها من مرضها، والذي يعالجها مضطر إلى إيلامها؛ ليستطيع أن يضمد جراحها، ومثّلهم بالطفل الصغير الذي لا تتيسر تربيته بغير الحوط والعقاب، وقال: إن القسوة العادلة هي التي تأتيها كنيسة المسيح ضد الكافرين، لكن القسوة الظالمة هي التي يستعملها الكافرون ضد كنيسة المسيح

وأتعجب مثل ذلك لمن ينكرون هذا بينما هم يمارسونه في أبسط الأمور، ومن غير أي مبرر؟

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألا تعتبر أكثر الأنظمة العالمية.. أو كل الأنظمة العالمية.. المساس بثوابتها، أو موالاة أعدائها خيانة عظمى.

قلت: بلى.. ذلك صحيح.

قال: فهكذا الردة عن الإسلام.. فهي ليست مجرد موقف عقلي، بل هى فوق ذلك ومع ذلك تغيير للولاء، وتبديل للهوية وتحويل للانتماء.

فالمرتد ينقل ولاءه وانتماءه من أمة إلى أمة أخرى، فهو يخلع نفسه من أمة الإسلام التى كان عضواً فى جسدها، وينقم بعقله وقلبه وإرادته إلى خصومها.. ولهذا ورد في الحديث الجمع بين الأمرين: التارك لدينه المفارق للجماعة [2]، فكلمة المفارق للجماعة وصف كاشف لا منشئ، فكل مرتد عن دينه لابد أن يكون مفارقا للجماعة.

---

(١) سنذكر التفاصيل الكثيرة المرتبطة بشبهة قتل المرتد في رسالة (سلام للعالمين) من هذه السلسلة.

(٢) رواه مسلم.

ابتسم وقال: أنا أتعجب من هؤلاء الذين يثيرون مثل هذه الشبهة.. إن الإسلام بهذا الحكم يدعو إلى التعقل في اتخاذ القرار المرتبط بالدين.. إنه يقول لكل من يريد أن يعتنقه: تثبت أولا.. وتثبت ثانيا.. فالإسلام لا يقبل أن تتلاعب به.. والإسلام لا يقبل منك إلا القناعة التامة والرضى التام.. فإن كنت لا تزال مترددا.. فابق على ترددك إلى أن يتضح لك الحق

إنه بهذا يكاد يحد من انتشاره..

سكت قليلا، ثم قال: ومهما يكن جرم المرتد، فإن المسلمين لا يتبعون عورات أحدٍ ولا يتسورون على أحدٍ بيته ولا يحاسبون إلا من جاهر بلسانه أو قلمه أو فعله مما يكون كفراً بواحاً صريحاً لا مجال فيه لتأويل أو احتمال فأى شك فى ذلك يفسر لمصلحة المتهم بالردة.

إن التهاون فى عقوبة المرتد المعالن لردته يعرض المجتمع كله للخطر، ويفتح عليه باب فتنة لا تعلم عواقبها.. فلا يلبث المرتد أن يغرر بغيره، وخصوصاً من الضعفاء والبسطاء من الناس، وتتكون جماعة مناوئة للأمة تستبيح لنفسها الاستعانة بأعداء الأمة عليها، وبذلك تقع فى صراع وتمزق فكرى واجتماعى وسياسى، وقد يتطور إلى صراع دموى بل حرب أهلية تأكل الأخضر واليابس[1].

التفت إلي، وقال: أجبني.. وكن صادقا في إجابتك.

قلت: لن تجد عندي غير الصدق.

قال: سأخاطبك باللغة التي يفهمها قومنا.. أرأيت لو أن لاعبا مشهورا في كرة القدم.. سلب ملايين من محبيه قلوبهم وعقولهم.. هل يوجد ــ أولا ــ مثل هذا؟

قلت: لا يوجد إلا هذا وأمثاله.

قال: فلو أن هذا الرجل أغرته بعض شبكات الإجرام بأن يظهر في إشهار لنوع قاتل من الغذاء، يجهل الناس ضرره، فخضع للإراء.. وراح يمثل دور المشتهي والآكل لذلك الغذاء.. هل ترى من الحكمة منعه؟

قلت: بل حبسه، والتشديد عليه.. فإن هذا الرجل سيقتل بهذا الأسلوب كل من يحبه.

قال: فهكذا حكم المرتد.. فالعامي البسيط الذي يبقى ارتداده بينه وبين ربه لا يلتفت له أحد.. ولا يعاقبه أحد.. ولكن المرتد المعقد الذي ينشر ارتداده بقلمه ولسانه، فيثير بذلك فتنة خطيرة بين الناس حكم عليه الشرع بهذا الحكم الرادع.

وهو مع ذلك لا يطبقه عليه إلا في حال إصراره.

لقد أعطى الإسلام فرصة لهذا المرتد ليراجع نفسه عسى أن تزول عنه الشبهة، وتقوم عليه الحُجة.. ويكلف العلماء في ذلك الحين بالرد على ما فى نفسه من شبهة حتى تقوم عليه الحُجة.

ولذلك لما حصلت الردة في عهد أبي بكر أعذر المرتدين بكتبه ورسله، وحاول اقناعهم بالحسنى، ولم يجيش الجيوش لحربهم إلا بعد أن أغار فريق منهم على المدينة، واعتدى فريق آخر على ولاته، وتحزب فريق

---

(١) انظر: شبهات المشككين.

ثالث لحربه، وكان قواده الذين أرسلهم لحرب المرتدين دعاة هداية وإرشاد، لم يبدأوا أحدا بقتال إلا بعد دعوته إلى الإسلام.

الإخاء

قلت: لقد حدثتني عن الحرية.. فحدثني عن الإخاء.

قال: أأحدثك عن الإخاء الذي علمته الثورة الفرنسية للثوار الذين قاموا بها، أم عن الإخاء الذي جاء به الإسلام؟

قلت: حدثني عن كليهما.

قال: أول مظهر من مظاهر الإخاء الذي علمتنا إياها الثورة الفرنسية هو الاستعمار والنهب والسيطرة على حقوق المستضعفين، ثم قتلهم بعد ذلك.

لاشك أنك تعرف نابليون.. وتعرف رحلته إلى مصر.

قلت: أجل.. في تلك الرحلة أعلنت مصر بداية التحضر.

قال: وفي تلك الرحلة أعلنت الثورة الفرنسية ومعها الغرب جميعا بداية الانحطاط.

سأذكر لك حادثة واحدة تبين لك معنى الأخوة كما تفهمها شعوبنا، وكما يفهمها قادتنا.

لقد واجه الإحتلال الفرنسي عدة ثورات وانتفاضات شعبية خلال السنوات الثلاث التي هيمن فيها على مصر.. وفي ٢١ تشرين الأول ١٧٩٨، أي بعد ثلاثة أشهر فقط من دخول الفرنسيين، نشبت ثورة بدأها شيخ أزهري خرج إلى الأسواق ينادي: أن كل مؤمن موحد بالله عليه بجامع الأزهر، لأن اليوم ينبغي لنا أن نغازي الكفار.

وصارت الأصوات ترتفع من فوق المآذن والسطوح العالية تدعو المسلمين للجهاد، فتجمعت الجماهير حاملة البنادق والأسلحة، وبدأ الناس بمهاجمة الجنود الفرنسيين، كما هوجمت دار العلوم والمستشفى العسكري.

في ذلك الحين، أمر نابليون بتوجيه المدافع المصوبة في القلعة صوب الجامع الأزهر وما حوله من الدور والأسواق، وبدأت بدك المباني بالقنابل، فأثارت الرعب فهرب الناس من المكان.

وفي المساء أحاط الجنود الفرنسيون يصحبهم ثلاثمائة خيال بالجامع، ثم دخلوا فيه، وأخذوا يأسرون من كان فيه من الثوار، ويعبثون به وبمحتوياته عبثاً شديداً.

وذهب شيوخ الأزهر لمقابلة نابليون يرجونه الكف عن انتهاك الجامع وقتل الناس، فأخذ يلومهم ثم أعلن العفو عنهم.. لكن إعلانه للعفو كان ظاهرياً، إذ أنه أصدر أوامره خفية بقتل كل من قاد الثورة أو شارك فيها.

وكان من أوامره لأحد قواده: تفضل أيها المواطن القائد بأن تأمر قومندان القاهرة بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين أمسكوا وبيدهم سلاح، فليؤخذوا إلى شاطئ النيل، بعد هبوط الظلام، ولتلق جثثهم المقطوعة الرؤوس في النهر.

ثم أمر نابليون بإعدام ثمانين رجلاً من الذين كانوا أعضاء في (ديوان الدفاع) وهو الديوان الذي كان بمثابة مركز القيادة للثورة.

هكذا تصرف القائد المتنور بمبادئ الثورة الفرنسية، إذ حمل معه المقصلة (الجيلوتين) التي أصبحت من أبرز

معالم الثورة الفرنسية.. وأعدم عشرات من شيوخ الأزهر وطلابه دون محاكمة أو تحقيق.

وبعد أن تمت عمليات الإعدام والتصفيات الجسدية، أذاع نابليون منشوراً أشار فيه إلى عفوه، إذ بدأه بالتهديد والوعيد، ثم ذكر أنه فعل ما فعل بتقدير الله وإرادته، وأنه لا ينجو أحد من عقابه، وأن لديه قدرة عجيبة على أن يعرف ما في داخل المرء بمجرد أن يراه..

اسمع ما يقول هذا التلميذ النجيب الذي تتلمذ على الثوة الفرنسية:« أيها العلماء والأشراف، أعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذي يعاديني ويخاصمني إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره، فلا يجد ملجأً ولا مخلصاً ينجيه مني في هذا العالم، ولا ينجو من بين يدي الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى.. والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله وإرادته وقضائه، ومن يشك في ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة. وأعلموا أمتكم أن الله قدر في الأزل هلاك أعداء الإسلام وتكسير الصلبان على يدي، وقُدِّرَ في الأزل أني أجيء من المغرب إلى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها وإجراء الأمر الذي أُمِرْتُ به. ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضائه. وأعلموا أيضاً أمتكم أن القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل، وأشار في آيات أخرى إلى أمور تقع في المستقبل، وكلام الله في كتابه صدق وحق. إذا تقرر هذا وثبتت هذه المقالات في آذانكم، فلترجع أمتكم جميعاً إلى صفاء النية وإخلاص الطوية، فإن منهم من يمتنع عن الغي وإظهار عداوتي خوفاً من سلاحي وشدة سطوتي، و لم يعلموا أن الله مطلع على السرائر، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. والذي يفعل ذلك يكون معارضاً لأحكام الله ومنافقاً، وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب. واعلموا أيضاً أني أقدر على إظهار ما في نفس كل أحد منكم، لأنني أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه، وإن كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذي عنده. ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم بالمعايشة، أن كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم إلهي لا يُرَد، وإن اجتهاد الإنسان غاية جهده ما يمنعه عن قضاء الله الذي قدره وأجراه على يدي. فطوبى للذين يسارعون في اتحادهم وهمتهم مع صفاء النية وإخلاص السريرة، والسلام »[1]

(١) اتبع نابليون سياسة براغماتية تميل إلى كثير من النفاق، فحاول التقرب من المسلمين والتحبب إليهم، فقد أعلن أنه مسلم في قلبه وأنه سيعتنق الإسلام، ولبس العمامة والقفطان في أحد الأيام، وصلى مع المصلين. وذهب إلى أكثر من ذلك في نفاقه، إذ قال لأحد مشايخ الدين أنه ينوي إقامة حكومة موحدة تقوم على مبادئ القرآن التي هي وحدها المبادئ الحقة القادرة على إسعاد الناس.

ونسي نابليون الفكر الأوربي ومبادئ الثورة الفرنسية، وأخذ يتصرف تصرف المشايخ الصوفية فأشاع أنه شاهد النبي ﷺ في منامه وأنه قال له: اجهر بإيمانك، بأركان ديني لأنه دين الله. إن العرب في انتظار هذه العلامة، وسأخضع آسيا كلها لسلطانك. وأخذ يساهم في المواليد النبوية وينفق عليها.

وكان المسلمون يشكون في ادعاءاته وتصرفاته فهو (نصراني ابن نصراني) ـــ على حد تعبيرهم ـــ وقد حاول إقناع الناس بسلوكه، وذكر يوماً لشيخ الأزهر أنه يرغب باعتناق الإسلام، ولكن الذي يمنعه من ذلك عقبتان، الختان وتحريم الخمر.

أرأيت الأسلوب الذي يتعامل به قومنا مع أولئك المتحضرين أصحاب القلوب الطيبة والإيمان العظيم..

هذا ما علمتهم أفكار التنوير التي حملتها الثورة الفرنسية.

أما ما علمتهم المسيحية.. فلا أحتاج إلى ذكره لك.. فأنت تعرف الحروب الصليبية.. لقد قادها رجال دين.. لينفخوا فيها الحقد المسيحي..

لم يكتف تلاميذ الثورة الفرنسية النجباء بإعلان أخوتهم للعالم بهذا الأسلوب..

لقد ساروا إلى الأرض يقسمونها كما يحلو لهم.. وكأنها تركة لأبيهم الذي مات، فهم يرثونها عنه.. أما أهل الأرض من البسطاء والمستضعفين، فلهم مصيران لا ثالث لهما: إما الموت.. وإما السخرة.

أما السخرة.. فلن أحدثك عنها، فهم يسمونها أسام كثيرة يحرفون بها الحقائق.

وأما الموت.. فإن جرائم الإبادة التي نالت البشر في الفترة التي أعلنت فيها حقوق الإنسان، والأخوة الإنسانية لا تعدلها جرائم البشر في جميع فترات تاريخهم.

لقد بلغ عدد الذين أبادتهم بريطانيا العظمى من أجل إخضاع الصين لتاجها أكثر من عشرين مليون إنسان.

وكانت فرنسا تستعمر الجزائر رغم إرادة شعبها الذين قاوموا الاستعمار بعنف، و لم تستجب فرنسا لنداء الحرية المدوي في صفوف الشعب الجزائري، إلا بعد أن قتلت من ذلك الشعب المضطهد ما يقارب المليونين نسمة وبصورة بشعة قاسية.

وفي أثناء حرب الجزائر طلب حكام فرنسا من القائد العام للجيش أن يحول أجمل مسجد في الجزائر إلى كنيسة، فوقع اختياره على مسجد الحي الأورلي في القشارة فتقدمت مجموعة من آلية الهندسة للسلاح الفرنسي إلى المسجد، وكان الوقت وقت صلاة المغرب، وكان المسجد غاصاً بالمصلين الذي قدر عددهم بـــ(١٤٠٠) مصلٍّ، فدخلوا عليهم وقتلوا فيهم إلى منتصف الليل، حيث أبادوهم جميعاً.

وقد أحصي عدد القنابل التي ألقاها الطيران الأميركي من سنة ١٩٦١ إلى سنة ١٩٧٢م زهاء ستة ملايين وسبعمائة وسبعة وعشرين ألف طن من القنابل على منطقة الهند الصينية وحدها.

وألقت الطائرات الأميركية واحد وسبعين مليون لتراً، من المواد الكيمياوية السامة على منطقة في جنوب فيتنام توازي مساحة إيرلندا الشمالية.

والمثال الواضح الذي يتفق عليه الجميع.. ليظهروه على أنه المجرم الوحيد.. هتلر.. تعرف طريقة تعامله الأخوي مع الشعوب.

قلت: أجل.. لقد فعل ما فعل باليهود.. لقد كاد يبيدهم..

وبينما كان نابليون سادراً في ألاعيبه وأكاذيبه، كان هناك قائد فرنسي قد أعلن إسلامه فأصبح اسمه عبد الله مينو. فكان يتلو القرآن ويؤدي الصلاة. فأرسل إليه نابليون يهنئه على «تضحيته» في سبيل القضية «الوطنية» (انظر: القانون الدولي والقانون الإسلامي، رسالة ماجستير قدمت إلى قسم الدراسات الإسلامية في جامعة ليدن بهولندا)

قال: وهذا من الجرائم التي يتفنن إخواننا التلاعب بها، ليتاجروا بها في إبادة أولئك المسلمين البسطاء المستضعفين.

قلت: أتنكر إبادة هتلر لليهود[1]؟

قال: بل أنكر نزعة التفرقة بين اليهود وغيرهم في هذا.. أليس البشر جميعا إخوة؟

قلت: بلى..

قال: فلم يفرق بين اليهود والغجر؟

قلت: وما علاقة اليهود بالغجر؟

قال: لقد نال الغجر المستضعفين من الإبادة ما نالهم.. ولكن لا أحد يتحدث عنهم.. سأذكر لك بعض ما وصفت به إحدى منشورات اليونسكو ما حصل للغجر المساكين[2]:

لقد كان لدى شرطة إقليم بافاريا الألماني منذ عام ١٨٩٩ قسمٌ خاص « بشئون الغجر» يتلقى نسخاً من قرارات المحاكم المكلّفة بالبت في المخالفات التي يرتكبها الغجر. وتحوَّل هذا القسم عام ١٩٢٩ إلى « مركز وطني »مقره ميونيـــخ، وحُظر على الغـــجر منذ ذلك التاريخ التنقل بدون تصريح الشرطة.

وكان الغجر الذين يزيد أعمارهم على السادسة عشرة، ولا يعملون يُجبرون على العمل لمدة سنتين في مركز من مراكز التأهيل، وابتداءً من عام ١٩٣٣، وهو تاريخ وصول هتلر إلى الحكم، زادت تلك القيود شدة وصرامة. وطُرد الغجر الذين لا يحملون الجنسية الألمانية، وزُجّ بالباقين في المعتقلات بحجة أنهم (غير اجتماعيين)

ثم بدأ الاهتمام بالبحث في الخصائص العِرقية للغجر، فأعلن الدكتور هانز جلوبكه ــ أحد المساهمين في صياغة قوانين نورمبرج ــ عام ١٩٣٦ ــ أن الدم الذي يجري في عروق الغجر « دم أجنبي ». ثم صنَّفهم الأستاذ هانز ف. حينثر في فئة مستقلة تمثل مزيجاً عرْقياً غير محدَّد (إذ لم يستطع نفي أصلهم الآري). وبلغت الخصائص العرْقية لدى الغجر من الأهمية درجة أهلتها لأن تصلح موضوعاً لرسالة دكتوراه، ومما قالته إيفا جوستين مساعدة الدكتور ريتّر في قسم الأبحاث العِرقية بوزارة الصحة (عند مناقشة رسالتها) إن الدم الغجري (يُشكِّل خطراً بالغاً على صفاء الجنس الألماني)

ووجَّه طبيب يُدعَى الدكتور بورتشي مذكرة إلى هتلر يقترح فيها فرض الأشغال الشاقة على الغجر وتعقيمـــهم بالجملة نظراً لأنهم (يُشكِّلون خطراً على نقاء دم الفلاحين الألمان)

وفي ١٤ ديسمبر عام ١٩٣٦، صدر قرار أدى إلى تفاقم أوضاع الغجر، إذ وصمهم بأنهم (مجرمون

---

(١) ارتبطت الإبادة النازية بــ (اليهود) بحيث استقر في الأذهان أن النازيين لم يبيدوا سوى اليهود، وقد ساعد الإعلام الغربي والصهيوني على ترسيخ هذه الفكرة حتى أصبح دور الضحية حكراً على اليهود.. بل تطور الأمر إلى حد أنه إذا ما أراد باحث أن يبيِّن أن الإبادة النازية لم تكن مقصورة على اليهود، وإنما هي ظاهرة شاملة ممتدة تشمل الغجر والسلاف والبولنديين وغيرهم، فإنه يصبح هدفاً لهجوم شرس (انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري)

(٢) نقلا عن الموسوعة اليهودية للمسيري.

معتادون على الإجرام)

وفي نهاية عام ١٩٣٧ وخلال عام ١٩٣٨ شُنت حملات اعتقال جماعية عديدة ضد الغجر، وخُصِّص لهم جناح في معتقل بوخنولد، وكانت قوائم الوفيات في كثير من المعسكرات تحوي أسماء غجرية يُذكَر منها: ماوتهاوسن وجوسن وداوتمرجن وناتلزفايلر وفلوسنبورج. وفي رافنسبروك، راحت كثيرات من نساء الغجر ضحايا لتجارب أطباء الشرطة العسكرية الهتلرية الإس. إس. (SS).

وفي عام ١٩٣٨، أصدر هملر بنفسه أمراً بنقل مقر المركز الوطني لشئون الغجر إلى برلين.. وفي السنة نفسها اعتُقل ثلاثمائة غجري كان قد استقر بهم المقام في قرية مانفويرت حيث كانوا يملكون الحقول والكروم.

وقد أمر هملر بتصنيف الغجر في الفئات التالية: غجري صرف (Z)، وخلاسي يغلب عليه العرْق الغجري (ZM+)، وخلاسي يغلب عليه العرْق الآري (ZM-)، وخلاسي يتساوى فيه العرْقان الغجري والآري (ZM).

ويميِّز المؤرخ ح. بلّنج في كتابه (ألمانيا وإبادة الجنس) بين أساليب مختلفة لإبادة الجنس تتمثل في الإبادة عن طريق إزالة القدرة على الإنجاب واختطاف الأطفال، والإبادة عن طريق الزج في المعتقلات، والإبادة عن طريق الإفناء.

وقد عُقِّمت في مستشفى برسلدورف - لبيرنفلد نساء غجريات متزوجات من غير الغجر، ومات بعضهن على أثر تعقيمهن وهنَّ حوامل. وفي رافنسبروك، قام أطباء الإس. إس. بتعقيم مائة وعشرين فتاة غجرية صغيرة.

وكان من أمثلة الإبادة الجماعية عن طريق الاعتقال ترحيل خمسة آلاف غجري من ألمانيا إلى جيتو لودز في بولندا، وكانت ظروف المعيشة في هذا الجيتو من الفظاعة بحيث لم ينج أحد من هؤلاء الغجر من الهلاك.

ومع ذلك فإن الطريقة التي كان يؤثرها النازيون هي طريقة الإفناء المباشر..

ويُعتقد أن قرار إبادة الغجر بالإفناء اتُخذ في ربيع عام ١٩٤١ عندما شُكِّل ما عُرف باسم (فرق الإعدام)، ولكي يتحقق ذلك كان يتعيَّن جمع الغجر في أماكن محددة، فمنذ صدور قرار هملر في ٨ ديسمبر ١٩٣٨، كانت أماكن سكنى الغجر قد أصبحت معروفة لدى الشرطة، ثم جاء قرار ١٧ نوفمبر ١٩٣٩ ليحظر عليهم ترك منازلهم، أو ليضعهم تحت طائلة الحبس في معسكرات الاعتقال. ورُحل ثلاثون ألف غجري إلى بولندا فلاقوا حتفهم في معتقلات الموت في بلزك وتربلينكا وسوبيبور ومايدانك، شأنهم شأن آلاف آخرين رُحلوا من بلجيكا وهولندا وفرنسا إلى معتقل أوشفيتس.

ويروي هويس، قائد المعتقل، في مذكراته أنه كان بين المعتقلين شيوخ يناهزون المائة سنة من العمر ونساء حوامل وأعداد كبيرة من الأطفال. كذلك يروي بعض السجناء الذين نجوا من الهلاك، كما يسرد كولكا وكرواس في كتابهما المعنون (مصنع الموت)، قصة مذبحة الغجر الرهيبة التي وقعت في ليلة ٣١ يوليه عام ١٩٤٤.

وفي بولندا، كان الغجر يُقتلون في معسكرات الموت أو يُعدمون في البراري. وامتد نطاق القتل إلى الاتحاد

السوفيتي عندما اندلعت نيران الحرب بين الألمان والسوفييت، فكانت فرق الإعدام التابعة للإس. إس. تسير مع الجيوش الألمانية، وكانت القبور الجماعية تملأ مناطق البلطيق وأوكرانيا والقرم.

وفي ليلة ٢٤ ديسمبر ١٩٤١ أُعدم رمياً بالرصاص في سيمفيروبول ثمانمائة غجري من الرجال والنساء والأطفال. وحينما زحفت الجيوش النازية، كان الغجر يُعتقلون أو يُرحلون إلى المعسكرات أو يُقتلون. وفي يوغسلافيا، كان الغجر واليهود يُعدمون في غابة باجنيس.

ومن الصعب تقدير عدد الغجر الذين كانوا يعيشون في أوربا قبل الحرب العالمية الثانية وعدد ضحايا هذه الحرب، ويُقدِّر المؤرخ راؤول هيلبرج عدد الغجر في ألمانيا قبل الحرب بأربعة وثلاثين ألف نسمة؛ أما عدد من بقي منهم على قيد الحياة بعدها فغير معروف.

ويتبيَّن من تقارير فرق الإعدام أن عدد الضحايا في روسيا وأوكرانيا والقرم بلغ ثلاثمائة ألف غجري، بينما تُقدر السلطات اليوغسلافية عدد القتلى من الغجر بثمانية وعشرين ألفاً في الصرب وحدها، أما عدد الضحايا في بولندا، فمن الصعب تقديره وإن كان المؤرخ تيننباوم يؤكد أن الشعب الغجري فقد على الأقل خمسمائة ألف من أبنائه.

هذا، مع العلم بأن الشعب الغجري شعب عريق وكثير النسل، وعلى كل حال، ومهما اختلفت النسب، فإن نسبة من أُبيد من الغجر (إلى عددهم الكلي) يفوق نسبة من أُبيد من اليهود.

قلت: لقد اقشعر جلدي مما ذكرت..

قال: أنا لم أذكر لك إلا مثالا واحدا عن بعض جرائم الإبادة التي تهدف إلى تنقية العرق.. أما جرائم الإبادة التي تهدف إلى نشر ديمقراطية الدماء.. فاذهب وسل عنها أفغانستان والعراق وفلسطين.. بل سل عنها جميع عوالم المستضعفين ليخبروك بما يفعل بهم عالم المستكبرين.

قلت: يكفيني ما حدثتني به.. لقد جعلتني أنظر إلى تاريخ قومي بخجل.

قال: ليس إنسانا من لم يخجل من جرائمه، أو من جرائم قومه.

قلت: فحدثني عن الأخوة التي دعا إليها الإسلام.. والتي عاشها المسلمون.

قال: ليس هناك في الأديان أخوة إلا الأخوة التي دعا إليها الإسلام.. وليس هناك في التاريخ أخوة إلا الأخوة التي مثلها المسلمون.

أما الإسلام.. فقد اعتبر البشر جميعا إخوة.. مهما اختلفت أعراقهم وألوانهم وأديانهم.

ولهذا تجد القرآن ينادي البشر بهذا الوصف:﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (لأعراف:٢٦).. ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (لأعراف:٢٧)..:﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الاسراء:٧٠)

بل إنه اعتبر الأنبياء الكرام إخوة لأعدائهم الذين كانوا يسومونهم الخسف فقد اعتبر قوم نوح إخوانا

لنوح:﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء:١٠٦).. واعتبر قوم هود إخوانا لهود:﴿)إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء:١٢٤).. واعتبر ثمود إخوانا لصالح:﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء:١٤٢)

وقد روي أن محمدا كان يقول دبر كل صلاة:« (اللهم ربنا ورب كل شئ ومليكه أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك.. اللهم ربنا ورب كل شئ ومليكه، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك.. اللهم ربنا ورب كل شئ ومليكه أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة »[1]

ألا ترى كيف اعتبر محمد إقرار مبدأ (الأخوة) بعد الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولمحمد بالعبودية والرسالة!؟

أخوة الإسلام:

قلت: ولكن القرآن يتحدث عن أخوة الدين.. ففيه:﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة:١١).. وفيه:﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ (الأحزاب: من الآية٥)

بل إن القرآن حصر علاقة المؤمنين في الأخوة، ففيه:﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الحجرات:١٠)

قال: هذه مرتبة من مراتب الأخوة..

فالإسلام يعتبر المسلمين جميعا ــ مهما تعددت أوطانهم وأعراقهم وألوانهم ــ أسرة واحدة لها أب روحي واحد هو محمد.. ولها دين واحد هو الإسلام.

وهذه الأخوة هي العلاقة الوحيدة التي تحكم بين المسلمين جميعا.. فليس في المسلمين أي عنصرية كتلك العنصرية التي تمتلئ بها شعوب الأرض.

وقد زخر التراث الإسلامي بجميل الأخلاق وعظيم الآداب التي طبعت علاقات المسلمين بعضهم ببعض.. والتي استوحت معانيها من نصوص القرآن ومن حديث محمد، فقد قال معبرا عن أصل أصول ذلك:«: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[2]

فمن آداب الأخوة الإسلامية[3] ما ورد في الحديث عن ابن عمر قال:« رآني النبي ﷺ ألتفت فقال:« إلام تلتفت؟» قلت: إلى أخ لي أنا في انتظاره فقال ﷺ:« إذا أحببت رجلاً فسله عن اسمه واسم أبيه وجده وعشيرته ومترله فإن مرض عدته وإن استعان بك أعنته »[4]

---

(١) رواه أحمد.

(٢) البخاري:١/١٠.

(٣) انظر تفاصيل هذه الآداب وغيرها في: آداب العشرة وذكر والصحبة والأخوة ، لأبي البركات الغزي.

(٤) قريب منه في: الطبراني في الكبير عن ابن عمر، والخرائطي في مكارم الأخلاق عن ابن عمر.

ومنها القيام بأعذارهم والذب عنهم والانتصار لهم، كما قال الجنيد، وقد قيل له: ما بال أصحابك أكلهم كثير قال: لأنهم لا يشربون الخمر فيكون جوعهم أكثر وقيل له: ما بالهم لهم قوة شهوةٍ قال: لأنهم لا يزنون ولا يدخلون تحت محظورٍ قيل: فما بالهم لا يطربون إذا سمعوا القرآن قال: لأنه كلام الحق ما فيه ما يوجب الطرب نزل بأمر ونهيٍ ووعدٍ ووعيدٍ فهو يقهر قيل: فما بالهم يطربون عند القصائد قال: لأنها مما عملت أيديهم قيل: فما بالهم يطربون عند الرباعيات قال: لأنها كلام المحبين والعشاق قيل: فما بالهم محرومين من الناس قال: قد قال أستاذنا القصار إذ سئل عن ذلك: لخلال ثلاث أحدها: أن الله لا يرضى ما لهم لهم والثانية: أنه تعالى لم يرض حسناتهم بصحائف الناس والثالثة: أنهم قومٌ لم يسيروا إلا إلى الله فمنحهم كل ما سواه وأفردهم له.

ومنها الصفح عن عثرات الإخوان وترك تأنيبهم عليها، قال الفضيل بن عياض:« الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان »

ومنها قلة الخلاف للإخوان ولزوم موافقتهم فيما يبيحه العلم والشريعة، قال أبو عثمان:« موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم »

ومنها أن يحمدهم على حسن ثنائهم وإن لم يساعدهم باليد، كما قال علي:« من لم يحمل أخاه على حسن النية لم يحمده على حسن »

ومنها سلامة قلبه للإخوان والنصحية لهم وقبولها منهم كما قال القرآن:﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء:٨٩)، وقال سري السقطي:« من أجل أخلاق الأبرار سلامة الصدر للإخوان والنصيحة لهم »

ومنها ألا يعدهم ويخالفهم، قال الثوري:« لا تعد أخاك وتخلفه فتعود المحبة بغضة»

ومنها ملازمة الحياء معهم، قال عليٌّ:« أحيوا الحياء بمجالسة من يستحيا منه »، وقال أحمد بن حنبل:« ما أوقعني في بلية إلا صحبة من لا أحتشمه »

ومنها أن يراعي في صحبة إخوانه صلاحهم لا مرادهم ودلالته على رشدهم لا على ما يحبونه، قال أبو صالح المزي:« المؤمن من يعاشرك بالمعروف ويدلك على صلاح دينك ودنياك والمنافق من يعاشرك بالمماذعة ويدلك على ما تشتهيه والمعصوم من فرق بين ترك الأذى »

ومنها إظهار احترامهم، كما قال عمر بن الخطاب:« ثلاث يصفين لك ود أخيك: أن تسلم عليه إذا لقيته وتوسع له في المجلس وتدعوه بأحب أسمائه إليه»

ومنها حمل كلام الإخوان على أحسن الوجوه ما وجدت لذلك سبيلا، قال سعيد بن المسيب:« كتب إلي بعض إخواني من الصحابة أن ضع أمر أخيك على الأحسن ما لم تغلب »

ومنها الإغضاء عن الصديق في بعض المكاره، قال ابن المبارك:« من استخف بالعلماء ذهبت آخرته ومن استخف بالأمراء ذهبت دنياه ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته »

ومنها ألا تقطع صديقاً بعد مصادقته ولا ترده بعد قبول، كما قال حمدون القصار:« اقبلوا إخوانكم بالإيمان وردوهم بالكفر فإن الله سبحانه وتعالى أوقع قدسية الصداقة »

ومنها ألا يضيع صداقة صديق بعد ود فإنها عزيزة وكتب عالم إلى من هو مثله:« أن اكتب لي بشيءٍ

ينفعني في عمري » فكتب إليه:« بسم الله الرحمن الرحيم. استوحش من لا إخوان له وفرط المقصر في طلبهم وأشد تفريطاً من ظفر بواحد منهم فضيعه ولوجد أن الكبريت الأحمر أيسر من وجدانه وإني أطلبه منذ خمسين سنة و لم أجد إلا نصف صديق » .

ومنها إيثار الإخوان بالكرامة على نفسه، قال أبو عثمان:« من عاشر الناس و لم يكرمهم وتكبر عليهم فذلك لقلة رأيه وعقله فإنه يعادي صديقه ويكرم عدوه فإن إخوانه في الله أصدقاؤه ونفسه عدوه » ، وقال القاسم بن محمد:« قد جعل الله في الصديق البار عوضاً من الرحم المدبر »

ومنها حفظ أسرار الإخوان، قيل:« أفشى رجل لصديق له سرا من أسراره فلما فرغ قال له: حفظته قال: لا بل نسيته »

ومنها المشورة مع الإخوان وقبولها منهم، كما في القرآن:﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾(آل عمران: من الآية١٥٩)

ومنها قلة مخالفة الإخوان في أسباب الدنيا لأنها أقل خطراً من أن يخالف فيها أخ من الأخوان، قال يحيى بن معاذ الرازي:« الدنيا بأجمعها لا تساوي غم ساعة فكيف بغم طول عمرك وقطع إخوانك بسببها مع قلة نصيبك منها »

ومنها ترك المداهنة في الدين، قال سهل بن عبد الله التستري:« لا يشم رائحة الصدق من داهن نفسه أو غيره »

ومنها قلة الخلاف على الإخوان وتحري موافقتهم فيما يريدون في غير مخالفة الدين قالت جويرية:« دعوت الله أربعين سنة أن يعصمني من مخالفة الإخوان »

ومنها مجانبة التباغض والتدابر والتحاسد لما ورد في الحديث عن محمد:« إياكم والظن! فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك »[١]

ومنها قبول العذر من فاعله صدق أو كذب لقول محمد:« من اعتذر إليه أخوه بمعذرة فلم يقبلها كان عليه من الخطيئة مثل صاحب مكس[٢] »[٣]، وقال عبد الله بن المبارك:« المؤمن طالب عذر إخوانه والمنافق طالب عثراتهم»

ومنها التسارع إلى قضاء حاجة رافعها إليك، لقول جعفر الصادق:« إني لأسارع إلى قضاء حوائج

---

(١) مالك، وأحمد، ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة.

(٢) بفتح الميم وسكون الكاف هو النقص والظلم، ودراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية، ولا زالت في بعض المجتمعات.

(٣) ابن ماجة عن جودان (جودان غير منسوب ويقال ابن جودان سكن الكوفة مختلف في صحبته. تهذيب التهذيب ١٢٢/٢).

الإخوان مخافة أن يستغنوا عني بردي إياهم »، وقال ابن المنكدر:« لم يبق من الله إلا قضاء حوائج الإخوان »

ومنها ألا ينسيك بعد الدار كرم العهد والتروع إلى مشاهدة الإخوان، قال ابن الأنباري:« من كرم الرجل حنينه إلى أوطانه وشوقه إلى إخوانه »

ومنها الصبر على جفاء الإخوان وإسقاط التهمة عنهم بعد صحة الأخوة، قال يحيى بن أكثم: لما حضرت علقمة العطار الوفاة قال لابنه:« يا بني إذا صحبت الرجال فاصحب من إذا أخدمته صانك وإن صحبته زانك وإن تحركت بك مؤنة صانك وإن أمددت بخير مد وإن رأى منك حسنة عدها أو سيئة سترها وإن أمسكت ابتدأك أو نزلت بك نازلةٌ واساك وإن قلت صدقك أو حاولت أمراً أمرك وإذا تنازعتما في حق آثراك »، قال عبد الملك: سمع الشعبي هذه الوصية فقال: تدري لم أوصاه بها فقلت: لا! قال: لأبنه أوصاه ألا يصحب أحداً لأن هذه الخصال لم تكمل في أحد.

أخوة الذمة:

قلت: ولكن هذه العلاقات محصورة بين المسلمين فيما بينهم..

قال: هذه مرتبة من مراتب العلاقات.. وهي مرتبة ضرورية.. ألا ترى أن الناس جميعا يمارسون في علاقاتهم هذا الأسلوب.. فيفرقون بين إخوانهم وأصدقائهم وأقاربهم وأهل بلدهم وسائر الناس!؟

قلت: بلى.. ذلك صحيح.

قال: فقد اعتبر الإسلام هذا النوع من الأخوة مرتبة من المراتب.. وهي لا تلغي غيرها من المراتب، كما لا تلغي الصداقة ولا القرابة غيرها من العلاقات.

قلت: فما المرتبة الثانية من الأخوة التي دعا إليها الإسلام؟

قال: لقد اعتبر الإسلام غير المسلمين في المجتمع المسلم أهل ذمة.. وقد فرض لهم حقوقهم الخاصة.

قلت: أليس في ذلك تفرقة عنصرية؟

قال: نحن نسمي هؤلاء في عصرنا أقليات.. وهي عنصرية أخطر من اعتبارهم أهل ذمة.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أليست الديمقراطية هي حكم الأكثرية؟

قلت: بلى..

قال: فالأكثرية تفرض قوانينها وشخصيتها على الأقلية.. أليس ذلك صحيحا؟

قلت: بلى..

قال: فهي بذلك تقمع الأقلية، وتحرمهم من شخصيتهم وهويتهم.

قلت: يمكن أن يقع ذلك.

قال: إن عدل الإسلام جعله يعتبر هذه الأقلية.. ويفرض لها من الحقوق ما يحميها من طغيان الأكثرية.

قلت: فلم سموا أهل ذمة، و لم يعتبروا مواطنين عاديين.

قال: إن اسم المواطنة اسم حادث.. وهو اسم من أسماء الجاهلية.. فهذه الحدود التي يسمونها أوطانا هي

التي ملأت الأرض بالعنصرية وبالمظالم..

الإسلام قسم سكان البلاد الإسلامية المقيم فيهم وغير المقيم إلى قسمين:

مسلمون.. لهم جميع حقوق الأخوة الإسلامية التي سبق ذكرها.

وذميون.. ولهم حقوقهم الخاصة بهم..

وقد لجأ الإسلام إلى هذا التقسيم رحمة بغير المسلمين حتى تبقى لهم هويتهم الخاصة.

قلت: كيف ذلك؟

قال: سأقرب لك هذا بذكر مراتب التسامح الديني والفكري.. لترى من خلالها أن الإسلام تعامل بأخوة متسامحة غاية التسامح مع هؤلاء الذميين[1]:

فالدرجة الدنيا من التسامح: أن تدع لمخالفك حرية دينه وعقيدته، ولا تجبره بالقوة على اعتناق دينك أو مذهبك، بحيث إذا أبى حكمت عليه بالموت أو العذاب أو المصادرة أو النفي، أو غير ذلك من ألوان العقوبات والاضطهادات.. فتدع له حرية الاعتقاد، ولكن لا تمكنه من ممارسة واجباته الدينية التي تفرضها عليه عقيدته، والامتناع مما يعتقد تحريمه عليه.

والدرجة الوسطى من التسامح: أن تدع له حق الاعتقاد بما يراه من ديانة ومذهب، ثم لا تضيق عليه بترك أمر يعتقد وجوبه أو فعل أمر يعتقد حرمته، فإذا كان اليهودي يعتقد حرمة العمل يوم السبت، فلا يجوز أن يكلف بعمل في هذا اليوم؛ لأنه لا يفعله إلا وهو يشعر بمخالفة دينه.

وإذا كان النصراني يعتقد بوجوب الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد، فلا يجوز أن يمنع ذلك في هذا اليوم.

والدرجة التي تعلو هذه في التسامح، ألا تضيق على المخالفين فيما يعتقدون حلّه في دينهم أو مذهبهم، وإن كنت تعتقد أنه حرام في دينك أو مذهبك.

وقد ارتفع المسلمون مع المخالفين من أهل الذمة الدرجة العليا من التسامح:

فقد التزموا احترام كل ما يعتقد غير المسلم أنه حلال في دينه، ووسعوا له في ذلك، و لم يضيقوا عليه بالمنع والتحريم، وكان يمكنهم أن يحرموا ذلك، مراعاة لشريعة الدولة ودينها، ولا يتهموا بكثير من التعصب أو قليل؛ ذلك لأن الشيء الذي يحله دين من الأديان ليس فرضاً على أتباعه أن يفعلوه.

فإذا كان دين المجوسي يبيح له الزواج من أمه أو أخته، فيمكنه أن يتزوج من غيرهما ولا حرج، وإذا كان دين المسيحي يحل له أكل الخترير، فإنه يستطيع أن يعيش عمره دون أن يأكل الخترير، وفي لحوم البقر والغنم والطير متسع له.

ومثل ذلك الخمر، فإذا كان بعض الكتب المسيحية قد جاء بإباحتها، أو إباحة القليل منها لإصلاح المعدة، فليس من فرائض المسيحية أن يشرب المسيحي الخمر.

فلو أن الاسلام قال للذميين: دعوا زواج المحارم، وشرب الخمر، وأكل الخنازير، مراعاة لشعور إخوانكم

---

(١) انظر: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، يوسف القرضاوي.

المسلمين، لم يكن عليهم في ذلك أي حرج ديني؛ لأنهم إذا تركوا هذه الأشياء لم يرتكبوا في دينهم منكراً، ولا أخلوا بواجب مقدس، ومع هذا لم يقل الاسلام ذلك، ولم يشأ أن يضيق على غير المسلمين في أمر يعتقدون حله، بل قال للمسلمين: اتركوهم وما يدينون!

بالإضافة إلى هذا.. فالمسلمون لا ينطلقون في هذه المعاملة المتسامحة من منطلقات قوانين بشرية قد تتغير بتغير البشر، بل ينطلقون فيها من مصادرهم المقدسة التي تذكرهم كل حين بأن هؤلاء (أهل ذمة) أي أهل عهد وحرمة يجب الوفاء لهم بها.

لقد قال القرآن في الأمر بالبر بهم:﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة:٨)

لقد ذكر القرافي بعض صور البر التي أمر بها المسلم تجاه أهل الذمة، فقال:« ولين القول على سبيل اللطف لهم والرحمة، لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال إذايتهم في الجوار مع القدرة على إزالته، لطفاً منا بهم، لا خوفاً وتعظيماً، والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، نصيحتهم في جميع أمور دينهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم »

وقد تجلى حسن الخلق عند المسلمين في تعاملهم مع غيرهم في كثير من تشريعات الإسلام التي أبدعت الكثير من المواقف الفياضة بمشاعر الإنسانية والرفق.

فقد أوجب الإسلام حسن العشرة وصلة الرحم حتى مع الاختلاف في الدين، فقد أمر القرآن بحسن الصحبة للوالدين وإن جهدا في رد ابنهما عن التوحيد إلى الشرك، فإن ذلك لا يقطع حقهما في بره وحسن صحبته:﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (لقمان:١٥)

ويمتد البر وصلة الرحم بالمسلم حتى تبلغ الرحم البعيدة التي مرت عليها المئات من السنين، فها هو محمد يوصي أصحابه بأهل مصر خيراً، براً وصلة لرحم قديمة تعود إلى النبي إبراهيم، حيث قال:« إنكم ستفتحون مصر.. فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها؛ فإن لهم ذِمة ورحِماً »، أما الذمة فهي الحرمة والحق ، وهي هنا بمعنى الذمام، وأما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم.

وحين تحدث الفقهاء عن حقوق الضيف رأوا وجوبها لكل ضيف، سواء كان مسلماً أم غير مسلم، قال أبو يعلى:« وتجب الضيافة على المسلمين للمسلمين والكفار لعموم الخبر، وقد نص عليه أحمد في رواية حنبل، وقد سأله إن أضاف الرجل ضيفان من أهل الكفر؟ فقال: قال ﷺ:« ليلة الضيف حق واجب على كل مسلم »، دل على أن المسلم والمشرك مضاف.. يعم المسلم والكافر »

ومن حق الضيافة إكرام الضيف على قدر الاستطاعة، وقد صنعه محمد لما جاءه عدي بن حاتم، يقول عدي: أتيتُ رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد، فقال القوم: هذا عدي بن حاتم. وجئتُ بغير أمان ولا كتاب، فلما دُفعتُ إليه أخذ بيدي.. حتى أتى بي داره، فألقت له الوليدة وسادة، فجلس عليها.

ومن أنواع البر التي ذكرها الفقهاء الدعاء لهم، وقد استنبطوا ذلك من دعاء محمد لغير المسلمين، ومنه

دعاؤه لقبيلة دوس، وقد قدم عليه الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه فقالوا: يا رسول الله إن دوساً قد كفرت وأبت ؛ فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس – أي ستهلك بدعائه عليها – فقال ﷺ:« اللهم اهد دوساً، وائت بهم »

ولما قيل له في موطن آخر: يا رسول اللّه، ادع على المشركين.. قال:« إنّي لم أبعث لعّاناً، وإنّما بعثت رحمةً »

المحاربون:

قلت: عرفت القسمين اللذين تعامل معهما الإسلام معاملة الأخوة.. لكن هناك من تعامل معهم معاملة العداوة.. وأمر المسلمين بمعاداتهم واعتبر ولاءهم من نواقض الإخلاص للإسلام.

قال: أولئك هم المحاربون الظالمون المعتدون..

قلت: فكيف تخلفت الإسلام عن هؤلاء؟

قال: هي لم تتخلف.. ولكنهم هم الذين تخلفوا عنها..

الإسلام يتعامل بمنطق الرحمة مع الجميع.. حتى أن أخص خصائص محمد التي وصفه بها القرآن هي كونه رحمة للعالمين.

ولذلك فإن الإسلام مع المحاربين يتلمس كل السبل لعدم وقوع الحرب بينه وبينهم.. ولكن الحرب إذا فرضت نفسها.. و لم يكن هناك مندوحة عنها أجازها الإسلام أو فرضها بحسب الظروف والأحوال مع آداب كثيرة وأخلاق عظيمة لم أر لها مثيلا في أي دين من الأديان [1]..

---

(١) سنرى بعض التفاصيل المرتبطة بهذا في فصل (سلام) من هذه الرسالة.

المساواة

قلت: فحدثني عن المساواة.

قال: لقد درست عن كثب مجتمعات كثيرة متنوعة.. فلم أجد مجتمعا يمتلئ بالتواضع كالمجتمع الإسلامي.

قلت: ما علاقة التواضع بالمساواة؟

قال: لا يمكن أن تنشأ المساواة إلا في ظلال دين أو فلسفة تعتبر التواضع قيمة من قيمها الكبرى.. وخلقا من أخلاقها الرفيعة..

ذلك أن الطبقية لا تنشأ إلا في ظلال المتكبرين.. فالمتكبرون ــ بالقوانين التي يسنوها لأنفسهم، أو يسنها لهم مجتمعهم ــ هم الذين يحولون المجتمعات إلى طبقات يعتلون هم أعلى درجاتها.

لقد بحثت في تاريخ أوربا في العصور الوسطى [1] ــ في الوقت الذي كان فيه المسلمون يدا واحدة وقلبا واحدا ــ فوجدت طبقات النبلاء أو الأشراف، ورجال الدين، والشعب، طبقات متميزة محدَّدة المعالم يختلف بعضها عن بعض، بحيث لا يخطئ الإنسان معرفتها بمجرد النظر.

فرجال الدين لهم ثيابهم الخاصة التي تميزهم، وكان لهم في تلك العصور سطوة كبرى، فكان البابا سلطة مناوئة للملوك والأباطرة، يريد أن يزعم أنه هو الذي يمنحهم السلطان على الشعوب، ويريدون هم أن ينسلخوا من سلطته ويستقلوا بأنفسهم. وكانت لهم كذلك أموال طائلة من الأوقاف التي وقفها عليهم المتدينون، ومن الإتاوات التي يفرضونها هم على الناس، بل كانت للكنيسة جيوش كاملة في بعض الأحيان.

أما الأشراف فكانوا طبقة تتوارث الشرف بعضها عن بعض، بحيث يولد الطفل فإذا هو شريف منذ مولده، ويظل شريفاً حتى يـــموت، بصرف النظر عن الأعمال التي يقوم بها في حياته، وقر بها أو بعدها من هذا الشرف المزعوم.

أما امتيازاتهم فكانت في عهد الإقطاع سلطاناً مطلقاً على الشعب الموجود في الإقطاعية.. كانوا هم السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية، وكانت أهواؤهم ونزواتهم هي القانون الذي ينفذ على الشعب، وكانت تتكون منهم المجالس النيابية التي تشرع للبلاد، فكانت تشريعاتهم لا تهدف إلا حمايتهم والاحتفاظ لهم بامتيازاتهم وإضفاء صفة القداسة عليها.

أما الشعب فهو ذلك الهمل الذي لاحقوق له ولا امتيازات، وإنما عليه الواجبات كل الواجبات، وكان يتوارث الذل والفقر والعبودية جيلاً بعد جيل.

ثم حدثت تطورات اقتصادية هامة في أوربا أنشأت طبقة جديدة تنازع الأشراف امتيازاتهم ومكانتهم، هي الطبقة البرجوازية. وبقيادة هذه الطبقة وعلى أكتاف الشعب، قامت الثورة الفرنسية التي ألغت – في الظاهر – نظام الطبقات، وأعلنت – نظرياً – مبادئ الحرية والإخاء والمساواة.

---

(١) انظر: شبهات حول الإسلام، محمد قطب.

وفي العصر الحديث قامت هذه الطبقة الرأسمالية مقام طبقة الأشراف القديمة، ولكن من وراء ستار، ومع بعض التعديلات التي اقتضاها التطور الاقتصادي، ولكن الجوهر لم يتغير، فهي طبقة تملك المال والسلطان والقوة التي تسير بها دفة الحكم، وعلى الرغم من مظاهر الحرية التي تتمثل في الانتخابات الديمقراطية، فإن الرأسمالية تعرف طريقها إلى البرلمانات ودواوين الحكومات، وتنفذ بوسائلها الملتوية ما تريد تنفيذه تحت مختلف العنوانات.

بل ما يزال في إنجلترا ــ أم الديمقراطية كما كان يقال ــ مجلس يسمى بصفة رسمية (مجلس اللوردات)، وما زال فيها قانون إقطاعي يقضي بأن يحرم جميع الأبناء والبنات من الميراث فيما عدا الابن الأكبر، منعاً لتفتيت الثروة، أي محافظة على ثروات (الأسر) لكي تبقى قائمة لا تزول، ويظل لها كيانها الموروث كما كانت طبقة الإقطاعيين في العصور الوسطى.

هذا هو نظام الطبقات، يتلخص في حقيقة أساسية هي أن الطبقة التي تملك المال تملك السلطان، وتملك وسائل التشريع بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فتشرع لحماية نفسها، ولإبقاء الشعب خاضعاً لسلطانها، محروماً من كثير من حقوقه إرضاء لشهوات الطبقة الحاكمة.

قلت: هذا في غير الإسلام.. فحدثني عن المساواة في الإسلام.

قال: ليس هناك دين ينظر للبشر جميعا بمنظار واحد كالإسلام.. فهو يعتبرهم جميعا عبادا لله.. وأفضلهم أقربهم لله، وأكثرهم نفعا لعباده[1].

لقد نص القرآن على هذا في مواضع كثيرة.. فهو يرد على اليهود والمسيحيين الذين اعتبروا أنفسهم أبناء لله، فقال:﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (المائدة:١٨)

وبين عدالة الجزاء الإلهي الذي يتعامل مع العباد بحسب أعمالهم لا بحسب أمانيهم، فقال:﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً ﴾ (النساء:١٢٣)

وقد رسخ محمد بسلوكه وهديه هذه المعاني.. حيث كان يصحبه العرب والعجم، والبيض والسود، والأحرار والرقيق، و لم يكن يميز أحدهم عن الآخر.

وقد ورد في الحديث عن جابر بن عبد الله، قال: خطبنا رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال:«يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات:١٣)، ألا هل بلغت؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فليبلغ الشاهد الغائب »[2]

---

(١) في الحديث سئل النبي ﷺ:« أي الناس أحب إلى الله؟» قال:« أنفع الناس للناس » رواه الطبراني وغيره بألفاظ متقاربة، وهذا لفظ الطبراني من حديث ابن عمر انظر: المقاصد الحسنة ص (٢٠٠ – ٢٠١)

(٢) مجمع الزوائد:٣/٢٦٦، المعجم الكبير:١٨/١٢، شعب الإيمان:٤/٢٨٩

وفي حديث آخر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا ينادي ألا إني جعلت نسبا وجعلتم نسبا فجعلت أكرمكم أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا فلان ابن فلان خير من فلان بن فلان فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون»[1]

وفي حديث آخر قال:« إن الله عز وجل أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس بنو آدم وآدم من تراب مؤمن تقي وفاجر شقي، لينتهين أقوام يفتخرون برجال إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع النتن بأنفها»[2]

وفي حديث آخر:« أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحدكم، كلكم بنو آدم ليس لأحد على أحد فضل الا بالدين أو تقوى وكفى بالرجل أن يكون بذيا فاحشا بخيلا »[3]

قلت: فكيف عمق الإسلام قيمة المساواة في نفوس المسلمين؟

قال: بتربيتهم على التواضع لله ولخلق الله..

لقد اعتبر القرآن الكبر الحجاب الأكبر بين العباد ومعرفة ربهم والاتصال به، فقال:﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) (لأعراف:١٤٦)

بل أخبر أن المتكبرين لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، فقال:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ (لأعراف:٤٠)..:﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص:٨٣)

وقد ربى محمد في أصحابه هذا الخلق العظيم.. فكان يحثهم عليه بكل الأساليب، ففي الحديث القدسي:« إن الله تعالى أوحى إلي أن توضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا ينبغي أحد على أحد »[4]

وفي حديث آخر:« ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد إلا رفعه الله »[5]

وفي حديث آخر:« طوبى لمن تواضع في غير منقصة، وذل في نفسه من غير مسألة»[6]

وفي حديث آخر:« من مات وهو برئ من الكبر والعلو والدين دخل الجنة»[1]

---

(١) مجمع الزوائد:٨٤/٨، المعجم الصغير:٣٨٣/١، قال المنذري: رواه الطبراني في الأوسط والصغير والبيهقي مرفوعا وموقوفا وقال المحفوظ الموقوف، الترغيب والترهيب: ٣٧٥/٣.

(٢) مسند أحمد:٥٢٣/٢، شعب الإيمان:٢٨٦/٤.

(٣) شعب الإيمان:٢٩٢/٤، مسند أحمد:١٥٨/٤.

(٤) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه.

(٥) رواه مسلم والترمذي.

(٦) رواه مسلم والترمذي.

وفي حديث آخر:« من تواضع لأخيه المسلم رفعه الله، ومن ارتفع عليه وضعه الله»[٢]، وفي رواية:« من تواضع تعظيما يحفظه الله، ومن تواضع خشية يرفعه الله »

قلت: ولكن الإسلام ربى في نفوس أتباعه العزة.. وهي نوع من أنواع الكبر.

قال: لا.. العزة ليست كبرا.. ويستحيل أن تكون كبرا.

العزة هي امتلاء النفس تعظيما للحق الذي هداها الله إليه، فلا تتشوف لغيره، والمعتز بالحق هو الذي يسعى لإيصاله لغيره من غير أن يستعلي عليهم به.

لقد أخبر محمد « أن رجلا قال: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟ فاني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك »[٣]

وفي حديث آخر:« ألا أحدثكم حديث رجلين من بني إسرائيل؟ كان أحدهما يسرف على نفسه، وكان الآخر يراه بنو إسرائيل أنه أفضلهم في الدين والعلم والخلق، فذكر عنده صاحبه، فقال: لن يغفر الله له، فقال الله لملائكته:« ألم يعلم أني أرحم الراحمين؟ ألم يعلم أن رحمتي سبقت غضبي؟ فاني أوجبت لهذا الرحمة، وأوجبت على هذا العذاب، فذا تتألوا على الله »[٤]

وفي حديث آخر:« قال رجل لا يغفر الله لفلان، فأوحى الله إلى نبي من الانبياء أنها خطيئة، فليستقبل العمل »[٥]

وفي حديث آخر ورد ما هو أعظم من ذلك، فقد قال ﷺ:« كان رجل يصلي، فلما سجد أتاه رجل فوطئ على رقبته، فقال الذي تحته: والله لا يغفر لك الله أبدا، فقال الله عزوجل: تألى عبدي أن لا أغفر لعبدي، فاني قد غفرت له »[٦]

وقد سمى محمد هؤلاء الذين زعموا لأنفسهم امتلاك خزائن الجنان « المتألين »[٧]، فقال:« ويل للمتألين من أمتي، الذين يقولون: فلان في الجنة، وفلان في النار »[٨]

بل أخبر عن هلاك هذا النوع من الناس، فقال:« إذا سمعت الرجل يقول: هلك الناس فهو أهلكهم »[٩]،

---

(١) رواه الترمذي والنسائي وغيرهما.

(٢) رواه الطبراني.

(٣)مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة عن جندب باب النهي عن تقنيط الانسان من رحمة الله وبرقم (٢٦٢١).

(٤)أبو نعيم في الحلية وابن عساكر عن أبي قتادة.

(٥)الطبراني في الكبير عن جندب.

(٦)الطبراني في الكبير عن ابن مسعود.

(٧) معنى يتألى: يحلف والالية اليمين.

(٨) البخاري في التاريخ عن جعفر العبدي مرسلا.

(٩)مالك وأحمد ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة.

وقال:« إذا قال الرجل: هلك الناس فهو أهلكهم »[1]

***

ما وصل (مارسيل بوازار) من حديثه إلى هذا الموضع حتى اغرورقت عيناه بدموع لم يملك حبسها، فقلت: ما يبكيك؟

نظر إلى الشجرة، وقال: أبكي على هذه الشجرة المسكينة.. إنها تئن.. فلا يسمعها أحد..

قلت: ما تطلب؟

قال: تطلب تلك التعاليم العالية الرفيعة التي نادى بها محمد، ولا زال ينادي بها..

تطلب أن يعود الإنسان لغابة الإنسان..

تطلب أن ترمى تلك الوساوس ــ التي نفختها الشياطين في دعاة جهنم ــ إلى هاوية العدم ليعود للإنسان اعتباره الذي ألغي.. وتعود للإنسان حقيقته التي زيفت.

قلت: فما الذي يحول بين الإنسان وتعاليم محمد؟

قال: كلهم يرفعون أصواتهم ليملأوا الدنيا ضجيجا.. فلا يسمع أحد صوت محمد.. إنهم يمارسون ما فعله مشركو قريش حين قالوا:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (فصلت:٢٦)

قلت: إني أعجب لك.. كيف تقول هذا.. ومع ذلك لم أرك في يوم من الأيام ترقى منبرا من المنابر لتعلن إسلامك.

ابتسم، وقال: لله من المنابر ما لا تراه.. ولإعلان الإسلام من الصيغ ما لا تسمعه.

قلت: فأنت مسلم إذن!؟

قال: كم وددت لو كنت كذلك..

قلت: فما الذي يحول بينك وبينه!؟

قال: أنسيت أخاك التوأم!؟

قلت: ما باله.. لقد تركته في ألمانيا بألف خير وعافية.

قال: إن لي توأما مثله.. لا يختلف عنه في شيء.. يضع ألف حجاب بيني وبين محمد.. ولكني يوشك أن أتخلص من حجبه جميعا لتشملني أنوار تلك الشمس التي شملت العالمين.

قال ذلك، ثم انصرف ليتركني بجانب تلك الشجرة أمسح بعض آلامها.. وفي ذلك الحين تترلت علي أشعة جديدة، اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

---

(١)أحمد ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة.

خامسا ــ روحانية

في اليوم الخامس من تلك الأيام العشرة المباركة، التقيت المستشرقة التي قطفت على يديها ثمرة الروحانية من شجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى:﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران:١٦٤)

وعرفت بها سر قوله تعالى:﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنعام:٥٢)، وقوله تعالى:﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (الكهف:٢٨)

فهذه النصوص المقدسة تخبر عن وظيفة كبرى من وظائف النبوة هي وظيفة التزكية وملأ القلوب بمحبة الله والتوجه إليه..

***

كان من ضمن الأسماء الموجودة بالدفتر الذي سلمني إياه المرشد المستشرقة (آنا ماري شميل)[١].. وقد وضع بجانب اسمها هذه الكلمة (المارقة)

---

(١) هي Annemarie Schimmel (ولدت في ١٩٢٢)، وهي من أشهر المستشرقين الألمان المعاصرين، بدأت دراسة اللغة العربية في سن الخامسة عشرة، وتتقن العديد من لغات المسلمين وهي التركية والفارسية والأوردو.

درّست في العديد من الجامعات في ألمانيا، وفي الولايات المتحدة الأمريكية وفي أنقرة، وقد اهتمت بدراسة الإسلام، وحاولت تقديم هذه المعرفة بأسلوب علمي موضوعي حتى نالت أسمى جائزة ينالها كاتب في ألمانيا تسمى جائزة السلام.

لكن بعض الجهات المعادية للإسلام لم يرقها أن تنال هذه الباحثة المدافعة عن الإسلام في وجه الهجمات الغربية عليه، فحاولوا أن يمنعوا حصولها على الجائزة.

وقد أدرك مكانة هذه المستشرقة العلاّمة والداعية المسلم في أوروبا الدكتور زكي علي منذ أكثر من أربعين سنة حين كتب يقول:« وعلى رأس المحررين (لمجلة فكر وفن) الأستاذة الألمعية الدكتورة آن ماري شميل المتخصصة في دراسة محمد إقبال حكيم وشاعر باكستان..وترجمت إلى الألمانية له ديوان (جاويد نامة) وكتاب (رسالة المشرق عن الفارسية) وهي أستاذة بجامعة بون وغيرها ومن أكابر علماء ألمانيا..وتنصف الإسلام والمسلمين كثيراً جزاها الله خيراً »

وقال عنها ــ أيضاً ــ أنها أصدرت العديد من الكتب منها كتاب (محمد رسول الله) بسطت فيه مظاهر تعظيم وإجلال المسلمين لرسول الله ﷺ (عبد اللطيف الجوهري. من أعلام الدعاة في أوروبا: العلاّمة الدكتور زكي علي.(جدة: عالم المعرفة ١٤١٨-١٩٨٨)ص١٢٣ والمقالة التي كتبها الدكتور زكي علي نشرت في مجلة البريد الإسلامي في ١٩٦٣/٦/٢٥)

وقد امتدحها رئيس المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا بأنها ما زالت تواصل كتاباتها الموضوعية وترجماتها عن الإسلام (عكاظ، عدد ١٠٩٦١، ربيع الآخر ١٤١٧، (١٦أغسطس ١٩٩٦م)

وقد كان هذا اللقب الذي وضع أمام اسمها من أكبر داوعي اهتمامي بلقائها، والحديث معها عن سبب هذا المروق الذي ينسب لها.

في ذلك اليوم المبارك الذي التقيتها فيه كنت أسير في حقل لعباد الشمس.. وكنت أنظر إليه، وهو يحول وجهته للشمس حيثما تحولت، فتعجبت من ذلك المنظر، ورحت أحاول تفهم سر ذلك التحول.. أو رحت أبحث عن المغناطيس الذي يجذب وجه عباد الشمس للشمس، أو رحت أبحث عن الدواليب التي تحرك وجه عباد الشمس نحو الشمس.

في تلك الأثناء سمعت صوتا حانيا يردد:

أحبك حبـــين حب الهوى وحباً لأنك أهْلٌ لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهلٌ له فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

كان صوتا رقيقا عذبا روحانيا.. فانجذبت إليه، كما انجذبت زهرة عباد الشمس للشمس..

على عشب ذلك الحقل رأيتها.. رأيت (آنا ماري شميل)، ولم أكن أعرفها، مع كونها من أهل بلدي القلائل بجامعة السربون.. اقتربت منها، وقلت: هل عادت رابعة العدوية إلى الحياة؟

قالت: أنا لست رابعة.. ولكني عاشقة لرابعة، كعشق هذه الأزهار للشمس.

قلت: وما الذي جذبك لها؟

قالت: الحب.. الحب هو أعظم جاذب في هذا الوجود.. ولم أر أحدا يتحدث عنه بمثل تلك اللوعة التي تتحدث عنه بها رابعة، وإخوانها من القديسين.

قلت: لا شك أنك لا تعرفين المسيحية.. فالمسيحية هي دين الحب.. وفي كتابها المقدس تلك الآية التي لا نظير لها في أي كتاب من الكتب المقدسة التي تملأ الدنيا.

في الكتاب المقدس هذه العبارة المقدسة (الله محبة)

ابتسمت، وقالت: اسمح للمارقة أن تجيبك لتؤكد لك من مروقها ما كنت تجهله.

قلت: كيف تحولت رابعة إلى مارقة؟

قالت: يستطيع عدوك أن يصفك بما يشاء، وباللقب الذي يشاء ما دام يرى لنفسه سلطة وضع الألقاب.

قلت: أأنت (آنا ماري شميل).. تلك المرأة الألمانية التي تحدت الأعراف، فراحت تعلن حبها للإسلام؟

قالت: أجل.. ولذلك لقبوني بالمارقة.. وما أحلى هذا الاسم إذا كان من أعدائك.. لأنه يعلن انتصارك عليهم.

قلت: ولكن ما الذي جذب قلبك إلى حب الإسلام والدفاع عنه مع كونك ــ حسبما أعلم ــ مسيحية نفسا وأبا وجدا.

قالت: ألا ترى إلى هذه الزهرة الجميلة، وهي تولي وجهها إلى الشمس حيثما تولت؟

قلت: أجل.. وقد كنت قبل ساعة، أتأملها، وأبحث عن الدواليب التي تحركها جهة الشمس.

قالت: فقد بحثت عن تلك الدواليب.. ووجدتها.. ورحت أبحث في الأديان والمذاهب والأفكار والحضارات.. فلم أجد تلك الدواليب إلا في الإسلام..

محمد هو الرجل الوحيد في العالم الذي يملك أسرار الدواليب التي يتحول بها البشر إلى أزهار عباد شمس تتحول وجوهها لا إلى الشمس.. وإنما إلى المصدر الذي جاءت منه الشمس وجاء منه كل شيء.

لقد جاء في القرآن:﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:١١٥)

محمد هو الرجل الوحيد في العالم الذي جاء بمنظومة كاملة تفسر حقائق الوجود، وتملأ النفس والعقل والقلب والروح والسر وجميع اللطائف بها.

قلت: ولكنك نسيت ما ورد في رسالة يوحنا، فقد قال:« أيها الاحباء لنحب بعضنا بعضاً، لأن المحبة من الله وكل من يحب الله فقد ولد من الله »(يوحنا١/٧:٤)

وقد كتب يوحنا هذه العبارة التي لا يوجد مثلها في أي كتاب من الكتب المقدسة:« لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به » (يوحنا ٣: ١٦)

ابتسمت، وقالت: لقد كنت مثلك تبهرني مثل هذه العبارات الجميلة.. لكني عندما حاولت أن أعيش معانيها لم أجد فيها من المعاني الروحانية اللذيذة ما يمكن أن أعيشه.

لاحظ بعين العقل والمنطق والروح تلك العبارة الأخيرة التي بهرتك كما بهرت الملايين من غير أن يعرفوا معناها.

ألا ترى أنها تحمل تصويرا مشوها عن الله يصرف القلوب عنه.. بل قد يملؤها ببغضه!؟

قلت: ما تقولين؟

قالت: أرأيت لو أنك.. وأنت صاحب الدار.. دعوت ضيوفا إلى بيتك لتطعمهم من طعامك، وتسقيهم من شرابك.. ثم بدر من أحد ضيوفك ما أساء إليك.. فنظرت إليهم نظرة غضب تريد أن تبطش بهم.. ثم سرعان ما تحولت إلى حليم رحيم.. ولكنك لم تعف عنهم.. وإنما ذهبت إلى ولدك الوحيد لتضعه على الصليب، وتقتله شر قتلة أمام أعين ضيوفك، فإذا سألوك عن سر ما تفعله، قلت لهم: لأجل أن أكفر عن خطاياكم.

فإذا سألوك: لم؟.. ألا يمكن أن تكفر عن خطايانا بغير هذا الأسلوب؟

قلت لهم: لقد وضعت قانونا، بأني لا أكفر الخطايا إلا بالدم..

فإذا سألوك: ألا يمكن أن تتنازل عن قانونك هذه المرة؟

قلت: لا..

فإذا سألوك: لم؟

قلت: لأني عادل.

فإذا سألوك: فلم عاقبت من لم يستحق العقوبة إذن؟

قلت: لأني رحيم.

التفتت إلي، وقالت: ألا ترى هذا نوعا من الجنون!؟

هل الذي يحب العالم لا يحب ابنه الوحيد.. ثم كيف يحب الله العالم، ولا يحب ابنه.. ثم.. هل الذي يحب العالم يقتل ابنه الوحيد!؟

ثم.. كيف نثق بإله لم يشفق على ابنه من أجل غفران خطيئة مذنب آخر؟ كما يقول بولس في (رومية ٨: ٣٢):« الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لاجلنا اجمعين »

لقد نسب بولس إلى الله عدم الشفقة.. أي القسوة.

ألا توجد طريقة أخرى عند إله المحبة بدلاً من قتل ابنه المزعوم لإنقاذ غيره!؟

وهل اقتضت رحمته ألا يُعالج هذه الجريمة إلا بجريمة أبشع منها؟

وهل صحيح ما يقوله بولس الذي حجر على الله المغفرة في رسالته إلى العبرانيين (٩: ٢٢)، فقال:« وكل شئ تقريبا يتطهر حسب الناموس بالدم وبدون سفك دم لا تحصل مغفرة »[١].. أهذا إله يمكن أن يكون

---

(١) وهذا الذي قاله بولس، ويتعلق المسيحيون به.. بل يعتبرونه من أصول عقائدهم، وعليه تقوم حياتهم الروحية، يخالف ما ورد في الكتاب المقدس، فقد جاء في (هوشع: ٦: ٦-٧):« إِنِّي أَطْلُبُ رَحْمَةً لاَ ذَبِيحَةً، وَمَعْرِفَتِي أَكْثَرَ مِنَ الْمُحْرَقَاتِ. ٧وَلَكِنَّكُمْ مِثْلُ آدَمَ، نَقَضْتُمْ عَهْدِي »

وفيه (هوشع ١٤: ١-٣):« ارْجِعْ تَائِباً يَا إِسْرَائِيلُ إِلَى الرَّبِّ إِلَهِكَ، لأَنَّكَ قَدْ تَعَثَّرْتَ بِخَطِيئَتِكَ. احْمِلُوا مَعَكُمْ كَلاَمَ ابْتِهَالٍ وَارْجِعُوا إِلَى الرَّبِّ قَائِلِينَ لَهُ: انْزِعْ إِثْمَنَا، وَتَقَبَّلْنَا بِفَائِقِ رَحْمَتِكَ، فَنُزْجِيَ إِلَيْكَ حَمْدَ شِفَاهِنَا كَالْقَرَابِين. إِنَّ أَشُّورَ لَنْ تُخَلِّصَنَا، وَلَنْ نَعْتَمِدَ عَلَى خُيُولِ مِصْرَ لإِنْقَاذِنَا، وَلَنْ نَقُولَ لِلأَوْثَانِ صَنْعَةِ أَيْدِينَا: «أَنْتُمْ آلِهَتُنَا» لأَنَّ فِيكَ وَحْدَكَ يَجِدُ الْيَتِيمُ رَحْمَةً »

وفي (ميخا ٦: ٦-٨):« يَارَبُّ: بِمَاذَا أَتَقَدَّمُ عِنْدَمَا أَمْثُلُ أَمَامَ الرَّبِّ وَأَسْجُدُ فِي حَضْرَةِ اللهِ الْعَلِيِّ؟ هَلْ أَتَقَدَّمُ مِنْهُ بِمُحْرَقَاتٍ وَبِعُجُولٍ حَوْلِيَّةٍ؟ هَلْ يُسَرُّ الرَّبُّ بِأُلُوفِ أَنْهَارِ زَيْتٍ؟ هَلْ أُقَرِّبُ بِكْرِي فِدَاءَ إِثْمِي وَثَمَرَةَ جَسَدِي تَكْفِيراً عَنْ خَطِيئَةِ نَفْسِي؟ لَقَدْ أَوْضَحَ لَكَ الرَّبُّ أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا هُوَ صَالِحٌ. وَمَاذَا يَبْتَغِي مِنْكَ سِوَى أَنْ تَتَوَخَّى الْعَدْلَ، وَتُحِبَّ الرَّحْمَةَ، وَتَسْلُكَ مُتَوَاضِعاً مَعَ إِلَهِكَ »

وفي (مزمور ٤٠: ٦):« لَمْ تُرِدْ أَوْ تَطْلُبْ ذَبَائِحَ وَمُحْرَقَاتٍ عَنِ الْخَطِيئَةِ، لَكِنَّكَ وَهَبْتَنِي أُذُنَيْنِ صَاغِيَتَيْنِ مُطِيعَتَيْنِ »

وفي (مزمور ٥١: ١٦ — ١٧):« فَإِنَّكَ لاَ تُسَرُّ بِذَبِيحَةٍ، وَإِلاَّ كُنْتُ أُقَدِّمُهَا. بِمُحْرَقَةٍ لاَ تَرْضَى. إِنَّ الذَّبَائِحَ الَّتِي يَطْلُبُهَا اللهُ هِيَ رُوحٌ مُنْكَسِرَةٌ. فَلاَ تَحْتَقِرَنَّ الْقَلْبَ الْمُنْكَسِرَ وَالْمُنْسَحِقَ يَااللهُ »

وفي (مزمور ٦٩: ٣٠ —٣١):« أُسَبِّحُ اسْمَ اللهِ بِنَشِيدٍ وَأُعَظِّمُهُ بِحَمْدٍ. فَيَطِيبُ ذَلِكَ لَدَى الرَّبِّ أَكْثَرَ مِنْ مُحْرَقَةٍ: ثَوْرٍ أَوْ عِجْلٍ »

وفي سفر (إرمياء: ٧: ٢٢):« هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: ضموا محارقكم إلى ذبائحكم وكلوا لحماً، لأني لم أكلم آبائكم ولا أوصيتكم يوم أخرجتهم من أرض مصر بشأن محرقة وذبيحة، بل إنما أوصيتهم بهذا الأمر قائلاً: إطيعوا صوتي فأكون لكم إلهاً وأنتم تكونون لي شعباً، وسيروا في الطريق الذي أوصيتكم به ليحسن إليكم »

وبهذا يتبين أن ما ذكره بولس من أخطر البدع التي حرفت المسيحية.

محبوبا.. الإله العاشق للدماء.. الذي لا يكفر الخطايا إلا بعد أن يسفك الدماء؟

ثم كيف يتطهر العباد الذين لم يجاهدوا أنفسهم في ذات الله.. أبالانتحار.. حتى يقدموا قرابين لله الذي يحب الدماء.. أم بالإيمان والذكر والعبادة والتوجه!؟

لم أجد ما أقول، فقالت: إن دينا يقوم على مثل هذه العقيدة يستحيل أن تصدر منه أي روحانية شفافة صادقة مترفعة.. ذلك أن قوانين الروحانية لا تنسجم إلا مع قوانين العقلانية.. فلا تناقض بين العقل والروح.

قلت: لقد ذكرت لي أنك اكتشفت أسرار الدواليب التي تحرك عباد الشمس.

قالت: لقد اكتشفت أسرار الدواليب التي تحرك القلوب نحو الله.. وهي ما تحتاج أن تعرفه.

قلت: فما هي؟

قالت: ثلاث:الربانية.. والعقلانية.. والإنسانية.

قلت: فهل ستحدثيني عنها؟

قالت: سأحدثك بخلاصة خلاصة ما وجدته من مقارناتي بين الإسلام وغيره من الأديان والفلسفات والمذاهب.. لتعرف سر مروقي [1].

انظر التفاصيل المرتبطة بهذا في رسالة (الإنسان) من هذه السلسلة.

(١) سنرى التفاصيل الكثيرة المرتبطة بالجانب الروحي في الإسلام والشبهات التي أثيرت حوله في رسالة (سلام للعالمين)

١ ــ الربانية

قلت: فلنبدأ حديثنا عن الربانية.

قالت: لقد بحثت في التوجهات الروحية المختلفة.. فوجدت كل طائفة من الطوائف تولي وجهها نحو شمس من الشموس الآفلة.. ثم بحثت في وجهة المسلمين، فوجدتها جميعا موجهة نحو الشمس التي لا تأفل.

لعلك تعرف قصة إبراهيم في القرآن.. والتي ورد فيها:﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾(الأنعام)؟

قلت: أجل.. فما فيها مما نحن فيه؟

قالت: فيها كل ما نحن فيه.. إن هذه الآيات تلخص السير الروحي للمسلمين.. فالسير الروحي للمسلمين لا يتوجه إلا لله.. كما قال القرآن:﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢)

وذلك هو معنى الإسلام، كما جاء في القرآن بعد الآية السابقة:﴿ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٣)

بينما سيرنا نحن المسيحيين لا يتوجه إلا نحو أنفسنا.. فنحن بتركيزنا على الخطايا والفداء والكفارة ونحوها قد وضعنا حجبا بيننا وبين الله.

بينما لا تشكل الخطايا في نظر الإسلام إلا إفرازات للطبيعة الإنسانية.. ويمكن تجاوزها بالتوبة الصادقة.. وقد جاء في القرآن:﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:٥٣)

بل نحن لم نكتف بذلك.. لقد جعلنا من ديانتنا ديانة كهنوتية تفتقر إلى الوسائط الكثيرة.. بينما المسلمون يرتبطون بالله من أول لحظة، فليست لديهم أي وسائط بينهم وبين الله، وقد قال القرآن:﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة:١٨٦)

قلت: واليهود.. هم أيضا أصحاب ديانة سماوية.

قالت: اليهود يعبدون أنفسهم.. لا الله.. ولذلك فإن شموسهم منحنية انحناءة بشعة مشوهة تصور ما تمتلئ به قلوبهم من أحقاد.

قلت: والمسلمون!؟

قالت: كل عارفي المسلمين وأوليائهم وقديسيهم لا تلهج ألسنهم إلا بذكر الله ومحبة الله وتعظيم الله..

سأل الشبلي جارية حبشية، فقال: من أين؟ قالت: من عند الحبيب، قال: وإلى أين؟ قالت: إلى الحبيب،

قال: ما تريدين من الحبيب؟ قالت: الحبيب.

إن هذه الجارية عبرت خير تعبير عن وجهة أولياء أمة محمد.. فهم لا يعرفون إلا الله، ولا يبحثون إلا عن الله.

وقد قال مثلها ابن عطاء الله يحث المريدين على توحيد الوجهة:« كن أيها العبد إبراهيمياً، فقد قال أبوك إبراهيم ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ:﴿ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (الأنعام: من الآية٧٦).. وكل ما سوى الله آفل إما وجوداً وإما إمكاناً، وقد قال سبحانه:﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (الحج: من الآية٧٨).. فواجب على المؤمن أن يتبع ملة إبراهيم، ومن ملة إبراهيم رفع الهمة عن الخلق، فإنه يوم زج به في المنجنيق تعرض له جبريل عليه السلام فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى، قال: فاسئله، قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي.. فانظر كيف رفع إبراهيم ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ همته عن الخلق ووجهها إلى الملك الحق، فلم يستغث بجبريل، ولا احتال على السؤال من الله، بل رأى الحق سبحانه أقرب إليه من جبريل، ومن سؤله، فلذلك سلمه من نمروذ ونكاله، وأنعم عليه بنواله وأفضاله، وخصه بوجود إقباله »

وقال في حكمة من حكمه الجليلة يحذر من الانقطاع في الطريق عن الله بأي شاغل من الشواغل، أو زخرف من الزخارف:« لا ترحل من كون إلى كون، فتكون كحمار الرحى يسير والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون:﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (النجم:٤٢)

والعارفون من المسلمين يعتبرون سكون الإنسان للأشياء وعدم عبوره منها وقوفا بل سقوطا، فعن القاسم بن عبد الله البزار قال سمعت سري بن المغلس يقول:« لو أن رجلا دخل إلى بستان فيه من جميع ما خلق الله تعالى من الأشجار، عليها من جميع ما خلق الله تعالى من الأطيار، فخاطبه كل طائر منها بلغته، وقال: السلام عليك يا ولي الله، فسكنت نفسه إلى ذلك كان في يدها أسيرا »

قلت: ألا ترين في هذا خطورة على إنسانية الإنسان وعلاقته بالأكوان؟

قالت: لا.. في هذه الوجهة تجتمع الإنسانية مع العقلانية مع الربانية..

فالعارف لا يحجب عن نفسه وعن الكون احتقارا لنفسه أو احتقارا للكون.. وإنما هو يعيد في ذهنه نسبة الكون إلى صاحبه.. وبذلك تنتظم أموره جميعا..

العارف ينظر إلى الكون.. ويعيش الكون..

ولكن نظرته تختلف كثيرا عن نظرة الماديين الذين يصارعون الكون ويصارعون أنفسهم.. ولا يرون في الكون ولا في أنفسهم من جوانب الجمال ما حجبهم عنه صراعهم.

العارفون ينظرون إلى الكون المسبح قبل أن ينظروا إلى الكون المسخر، فيجتهدون في تفقه أسرار تسابيحه، قال الغزالي:« فإذن جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرّك إليها بجسمه وشخصه، فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض، وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً، إلا أنهم يتفاوتون في سعة منتزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم، وهم درجات عند الله ولا يدخل في الحِصر تفاوت درجاتهم »

إن هذه هي دعوة القرآن إلى التعرف على الله من خلال الآفاق والأنفس..

لقد وصف القرآن هؤلاء العارفين وعلاقتهم بالكون، فقال:« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)﴾ (آل عمران)

قلت: ولكني أسمع بأن الروحانيين من المسلمين ينفون الأكوان؟

قال: هم ينفوها من حيث ذاها، وثبتوها من حيث انتساها إلى الله، فالعارفون لا يتوجهون إلا إلى الله، ولا ينحجبون بشيء عن الله.. يرددون مع أبي مدين قوله:

الله قل وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
فالكل دون الله أن حققته عدم على التفصيل والإجمال
واعلم بأنك والعوالم كلها لولاه في محو وفي اضمحلال
من لا وجود لذاته من ذاته فوجوده لولاه عين محال
والعارفون برهم لم يشهدوا شيئاً سوى المتكبر المتعال
ورأوا سواه على الحقيقة هالكاً في الحال والماضي والاستقبال

وعبر الآخر عن انشغال العارف بالله عن الكون بقوله:

شغل المحب عن الهواء بسره في حب من خلق الهواء وسخره
والعارفون عقولهم معقولة عن كل كون ترتضيه مطهره
فهم لديه مكرمون وفي الورى أحوالهم مجهولة ومستره

وباعتبار هذا المعنى كان أصدق كلمة قالها الشاعر ــ كما ورد في الحديث كلمة لبيد [1]: ألا كل شيء ما خلا الله باطل ــ

قلت: إن هذا عينه ما يردده أهل وحدة الوجود.. بل إن هذا النوع من الوحدة نجده عند اليهود أنفسهم.. ففي القبالاه نجد كلمات كثيرة تشير إلى هذا المعنى.

قال: نعم.. قد تجد بعض الكلمات مما يوهمك أن وحدة الوجود الفلسفية أو اليهودية هي عينها وحدة الوجود التي ينسبها البعض إلى العارفين من المسلمين.. ويؤيد هذا بعض العوام من المسلمين ممن لم يكن لهم من القدرة العقلية ما يحللون به الكلام ليفهموا حقيقة المراد منه.

---

(١) وقد ورد الحديث بصيغ مختلفة منها أشعر كلمة تكلمت بها العرب، وفي رواية أصدق كلمة قالها شاعر، وفي أخرى أصدق بيت قاله الشاعر، وفي أخرى أصدق بيت قالته الشعراء، وفي أخرى أصدق كلمة قالتها العرب.

ولكن التأمل العقلي والتحليل المنطقي يدل على أن وحدة الوجود المشار إليها عند الصوفية المسلمين مغايرة تمام المغايرة لقول الفلاسفة ووحدتهم التي لا تفرق بين الخالق والمخلوق والصنعة والصانع.

فليس المراد بوحدة الوجود عند الصوفية وجودين قديمين اتحدا، ولا قديم وحادث اتحدا، لأنهم يعتقدون ــ انطلاقا من المصادر المقدسة ــ أن الله لا يحل في شيء، ولا يمازج شيئاً، ولا شئ في ذاته في خلقه، ولا من خلقه في ذاته، وقربه وبعده ليس كقرب الأجسام وبعدها، ولا هو محصور ولا محدود.. تتره عن أوصاف خلقه.

لقد قال محي الدين بن عربي وهو من رجالات التصوف الذي أسيء فهم مقاصدهم:« لو صح أن يرقى الإنسان عن إنسانيته، والملك عن ملكيته، ويتحد بخالقه تعالى، لصح انقلاب الحقائق وخرج الإله عن كونه إلهاً، وصار الحق خلقاً، والخلق حقاً، وما وثق أحد بعلم، وصار المحال واجباً، فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبداً »

انظر كيف ينفي الاتحاد والحلول بشدة، فما كان في كتبه مما يوهم ذلك فهو إما مدسوس عليه، وإما فهم على غير حقيقته[1].

وبمثل هذا نطق كل العارفين.. فقد قال الشيخ علوان الحموي (ت ٩٣٦هــ) في تعليقه على كلام محمد بن واسع تلميذ الحسن البصري في فنائه عن الخلق بالحق:« ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله فيه » قال معلقاً على هذا:« مذهب أهل الحق أن مولانا عز وجل لا يحل في شيء، ولا يحل فيه شيء، وكلما ورد عليك ما يوهم ظاهره الحلول فأوله »

وقد بين الشيخ الهجويري (ت. ٤٧٠هــ) في كتابه (كشف المحجوب) تعليقاً على هذه العبارة قوله:« إن المرأ عندما تغلبه المحبة للذات الإلهية يصل إلى مرحلة لا يرى فيها الصنع وإنما يرى الصانع »

وقال أحد العارفين:« أراد بهذه الرؤية الشهود لا رؤية البصر لأن الرؤية من خصائص البصر، والشهود من خصائص البصيرة »

سكتت قليلا، ثم قالت: لقد نطق القرآن بهذه المعاني.. بل إن تأمل القرآن هو الذي جعل هؤلاء العارفين يصلون إلى ما وصلوا إليه من حقائق..

اسمع لهذه الآية.. وحاول أن تعيشها.. ففيها من الحقائق ما يجعل القلب لا يعرف وجهه إلا الله نافيا ما سواه..:﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد:٣)

فالتأمل في المعاني العميقة التي تحملها هذه الأسماء يلبس الأشياء جميعا ثوب العدم، ليبقى الحق وحده هو المتفرد بالوجودالحقيقي.

لقد قال سيد قطب ــ هو مثال العارف المسلم المملوء بالروحانية العميقة ــ مبينا عمق المعاني التي تدل عليها هذه الأسماء الحسنى:« وما يكاد يفيق من تصور هذه الحقيقة الضخمة التي تملأ الكيان البشري وتفيض، حتى تطالعه حقيقة أخرى، لعلها أضخم وأقوى، حقيقة أن لا كينونة لشيء في هذا الوجود على الحقيقة،

---

(١) انظر: اليواقيت والجواهر:١/٨٠ –٨١) وقد قال ابن عربي في الفتوحات (جــ٤ ص٣٧٢-٣٧٩):« ما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد ومن قال بالحلول فهو معلول لا دواء له »

فالكينونة الواحدة الحقيقية هي لله وحده سبحانه ؛ ومن ثم فهي محيطة بكل شيء، عليمة بكل شيء ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾

ويقول عن المعاني التي يستشعرها، وهو يعيش في ظلال هذه الأسماء:« الأول فليس قبله شيء. والآخر فليس بعده شيء. والظاهر فليس فوقه شيء. والباطن فليس دونه شيء.. الأول والآخر مستغرقا كل حقيقة الزمان، والظاهر والباطن مستغرقا كل حقيقة المكان. وهما مطلقتان. ويتلفت القلب البشري فلا يجد كينونة لشيء إلا لله. وهذه كل مقومات الكينونة ثابتة له دون سواه. حتى وجود هذا القلب ذاته لا يتحقق إلا مستمدا من وجود الله. فهذا الوجود الإلهي هو الوجود الحقيقي الذي يستمد منه كل شيء وجوده. وهذه الحقيقة هي الحقيقة الأولى التي يستمد منها كل شيء حقيقته. وليس وراءها حقيقة ذاتية ولا وجود ذاتي لشيء في هذا الوجود »

لقد عبر القرآن ــ كذلك ــ عن هذا المعنى باسم الله « الأحد » في قوله:﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الاخلاص:١)، وهو اسم عظيم يحوي ــ مع التأمل ــ الكثير من الدلالات، ولهذا لما خشي محمد أن لا يقدر حق قدره ــ كما قد لا تقدر المعاني الواردة في السورة حق قدرها ــ ذكر أن هذه السورة ــ التي تحوي هذه الحقيقة الجليلة ــ والتي نتوهمها صغيرة تعدل ثلث القرآن كما روي عن أبي سعد، أن رجلا سمع رجلا يقرأ:﴿ قل هو الله أحد ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له – وكأن الرجل يتقالها – فقال النبي ﷺ:« والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن»

ولهذا كان بلال ﷺ في رمضاء مكة في بداية الإسلام يصيح بها في نشوة عظيمة، وقد فني عن كل العذاب المحيط به:« أحد أحد »

ولا غرابة في كل هذا ــ كما يقول سيد قطب ــ « فإن الأحدية التي أمر رسول الله ﷺ أن يعلنها: قل هو الله أحد . هذه الأحدية عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة »

ولهذا ــ خلاف ما قد نتصور ــ فإن غاية رسالة محمد لم تكن الدعوة والتربية على معنى التوحيد الذي ينفي الشريك فقط، وإنما الدعوة والتربية على معنى الأحدية الذي ينفي الوجود الذاتي لغير الله.. وعلى كليهما تقوم حياة المؤمن، ومن كليهما يستمد العارف[1].

لقد شرح سيد قطب بتعبيره الجميل المعاني التي يعيشها العارف، وهو في ظلال هذا الاسم الجليل، فقال:« إنها أحدية الوجود.. فليس هناك حقيقة إلا حقيقته. وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده، وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية »

وهذه الحقيقة هي التي تتأسس عليها كل حقائق المعرفة والسلوك، وهي النهاية التي ينتهي إليها سلوك العارف ليبدأ بها استمداده، فهو ما دام ينظر إلى الوجود نظرة الشريك الذي يزاحم ربه في وجوده، لا يستمد من هذا الوجود غير الجهل والتشتت، لكنه إن خلع عنه هذا الوجود المشرك، وحلاه بحلية الأحدية، فإن الوجود

---

(١) انظر تفاصيل هذه المسألة والموقف القرآني منها في رسالة (أكوان الله) من (رسائل السلام) للمؤلف.

كله يصبح عيونا تفيض بالمعارف على قلبه.

ولهذالا يفهم العارفون من قول « لا إله إلا الله »، ما يفهمه الكثير من قصر معناها على « لا معبود بحق إلا الله »، بل يفهمون ذلك، ومعه يفهمون أن « لا موجود بحق إلا الله »

قلت: ولكني سمعت بكثير من المسلمين يكفرون سيدا وغيره بهذا.

قالت: دعك منهم.. هم فئة محدودة معروفة بالتطرف في كل شيء.. لعله لم يصب الإسلام بأنواع البلاء إلا بسببها.

فهذه المجموعة هي التي تزعمت تطرف الإرهاب.. وتزعمت تطرف الشعوذة.. وتزعمت تطرف التفريق بين المسلمين.. وهي تتزعم أنواعا كثيرة من التطرف أخطرها أنها الحجاب الأعظم بين قومنا وبين الإسلام.

وأنبئك سرا.. أنا التي أتهم بالمروق.. كنت مثل قومي في نكرانهم للإسلام.. وكان أولئك من سبب ذلك النكران.. ولكني ما تخلصت من عقدهم، ورحت أبحث عن الحقائق من أهلها حتى بان لي من حقائق الإسلام ما جعلني مارقة بين قومي.

قلت: ولكن أولئك يذكرون أقوالا لعلماء لهم اعتبارهم في الإسلام؟

قالت: هم لا يقرؤون شيئا.. فإذا قرأوا ينتقون ما يقرؤون، ويقطعونه تقطيعا.

هم يزعمون أنهم يستمدون من ابن القيم.. مع أن ابن القيم يتحدث عن هذه المعاني من دون إنكار لها.. فهو يقول في مدارج السالكين عند حديثه عن منزلة الفناء:« الفناء ضد البقاء، والباقي إما باق بنفسه من غير حاجة إلى من يبقيه، بل بقاؤه من لوازم نفسه وهو الله تعالى وحده، وما سواه فبقاؤه ببقاء الرب، وليس له من نفسه بقاء، كما أنه ليس له من نفسه وجود، فإيجاده وإبقاؤه من ربه وخالقه، وإلا فهو ليس له من نفسه إلا العدم، قبل إيجاده والفناء بعد إيجاده »

ويرفع توهم أن المراد بأن نفسه وذاته اقتضت عدمه وفناءه بقوله:« إنما الفناء أنك إذا نظرت إلى ذاته بقطع النظر عن إيجاد موجده له كان معدوما، وإذا نظرت إليه بعد وجوده مع قطع النظر عن إبقاء موجده له استحال بقاؤه، فإنه إنما يبقى بابقائه كما أنه إنما يوجد بإيجاده فهذا معنى قولنا إنه بنفسه معدوم وفان فافهمه »

قلت: وعيت مقاصد العارفين من المسلمين من هذا.. ولكني لم أع الفرق بينهم وبين سائر الطوائف.

قالت: لقد ذكرت اليهود.. وتصورت أن في اليهودية مثل هذا.

قلت: أجل..

قالت: لتفهم الفرق بين هذه المعاني عند المسلمين وعند غيرهم من الطوائف وخاصة اليهود تحتاج إلى تمييز مهم بين نمطين من التصوف، فالتصوف هو الاسم الذي اشتهرت به هذه المعاني [1]:

أما ألهما ــ وهو تصوف المسلمين ــ فهو تصوف يدور في نطاق إطار توحيدي، ويَصدُر عن الإيمان بإله يتجاوز الإنسان والطبيعة والتاريخ، ومن ثم يؤمن بالثنائيات الدينية الفضفاضة (سماء/أرض ــ إنسان/طبيعة ــ

(١) انظر هذه التفاصيل.. ونظرة اليهودية للتصوف في (الموسوعة اليهودية) للمسيري.

وتتبدّى هذه الرؤية في تدريبات صوفية يقوم بها المتصوف ليكبح جماح جسده تعبيراً عن حبه للإله وعن محاولته التقرب منه، وهو يعرف مسبقاً استحالة الوصول والتوحد مع الإله، فالحلول الإلهي يتنافى مع الرؤية التوحيدية، ولذلك، فإن وحدة الوجود عند الصوفية المسلمين ــ بمعناها الفلسفي ــ قمة الكفر.. والمتصوف الذي يدور في إطار توحيدي يعبِّر عن حبه الإلهي عن طريق فعل في التاريخ والدنيا يلتزم فيه بقيم الخير ويُعلي به من شأن القيم المطلقة المُرسَلة للإنسان من الإله ويصلح به حال الدنيا.

أما النمط الثاني من التصوف ــ وهو تصوف اليهود.. ومثله كثير من صوفية الأديان والمذاهب المختلفة، ولعل بعضه سرى لبعض طوائف المسلمين ــ فيدور في إطار حلولي يصدر عن الإيمان بالواحدية الكونية، حيث يحل الإله في الطبيعة والإنسان والتاريخ، ويتوحد معها ويصبح لا وجود له خارجها، فيُختزَل الواقع بأسره إلى مستوى واحد يخضع لقانون واحد.. ومن ثم، يستطيع من يعرف هذا القانون (الغنوصي) أن يتحكم في العالم بأسره.

فالتحكم في العالم وفي الأشياء هو هدف المتصوف في هذا الإطار... ولهذا تجده ــ بدلاً من التدريبات الصوفية التي يكبح بها الإنسان جسده ويطوع لها ذاته ــ يأخذ شكل التفسيرات الباطنية وصنع التمائم والتعاويذ والبحث عن الصيغ التي يمكن من خلالها التأثير في الإرادة الإلهية، ومن ثم التحكم الإمبريالي في الكون.

وحتى لو أخذ هذا التصوف شكل الزهد، فالهدف من الزهد ليس تطويع الذات، وإنما الوصول إلى الإله والالتصاق به والتوحد معه والفناء فيه، ليصبح المتصوف عارفاً بالأسرار الإلهية، ومن ثم يصبح هو نفسه إلهاً أو شبيهاً بالإله.

والمتصوف بهذا النمط لا يكترث إلا بذاته، ولذا فهو لا يتحرك في الزمان والمكان الإنسانيين، ولا يأتي بأفعال في التاريخ، ولا يهتم بإصلاح الدنيا، بل يضع نفسه فوق الخير والشر، وفوق كل القيم المعرفية والأخلاقية.

ألا ترى الفرق بينهما عظيما؟

قلت: أجل.. فالتجربة الصوفية التوحيدية تطويع للذات وطاعة للخالق وإصلاح للدنيا، وأما الثانية فهي تحقيق للذات وتطويع للخالق وبحث عن التحكم في الدنيا.

ولكن كيف يستخدم كلاهما مصطلحا واحدا (تصوف) مع هذا؟

قال: العاقل لا ينحجب بالمصطلحات.. بل يبحث عن الحقائق..

الروحانية الإسلامي ــ التي استطاع التصوف المعتدل أن يعبر عنها أحسن تعبير ــ تمثل قمة التوجه إلى الله، وقمة الاستسلام له.

ولكن الروحانية المادية التي يمثلها التصوف الحلولي اليهودي أو المسيحي.. ليس سوى توجه للذات، بل هو في أشكاله المتطرفة، ليس سوى شكل من أشكال العلمنة.. فإذا كان الإله أو الخالق هو مخلوقاته، فإن

مخلوقاته هي هو.. وإذا حل الإله في المادة، فإن الطبيعة تصبح هي الإله، كما يذكر إسبينوزا، كما أن صاحب العرفان يصبح قادراً على التحكم في الإله والطبيعة والكون.. وفي هذا نرى ملامح سوبرمان نيتشه، الذي لا يؤمن إلا بإرادة القوة ويتجاوز أخلاق الضعفاء.

ولهذا، فإن المتصوف اليهودي لا يتجه نحو تطويع الذات الإنسانية الفردية لله، وإنما يحاول الوصول إلى فَهْم طبيعة الإله من خلال التأمل والمعرفة الإشراقية الكونية (الغنوص أو العرفـــان) بهـــدف التأثير في الإله والتحكم الإمبريالي في الواقع.

ولهذا نرى ارتباط التصوف اليهودي أو القبَّالاه بالسحر، ولهذا أيضاً كانت علاقة السحر بالعلم والغنوصية.

وقد وصف العالم جيرشوم شوليم الصوفية اليهودية بأنها (ثيو صوفية)، أي أنها معرفة الإله من خلال التأمل والمعرفة الإشراقية الكونية (الغنوص) أو العرفان، ومن ثم، فهي تبتعد عن التمرينات الصوفية ومحاولة الذوبان أو إفناء الذات الإنسانية في الذات الإلهية.

قلت: وعيت كل ما ذكرته.. ولكن ألا ترين أن هذا النوع من الروحانية فيه نوع من الارستقراطية!؟

قالت: ما تقصد؟

قلت: إن هذه المعاني التي ذكرتها لا يستطيع استيعاب فلسفتها إلا الأكابر.. أما البسطاء من الناس، فهم لا يطيقون فهمها.. وبالتالي، فإن المعاني الروحية للإسلام من اختصاص الثلة لا العامة؟

قالت: في كلامك بعض الصحة.. وكثير من الأخطاء.

أما ناحية الصحة.. فهي أن المعاني الروحية الراقية بدرجاتها العالية لم تكتمل إلا للأكابر من الأولياء.. ولا حرج في هذا.. ففي كل أمة من الأمم العامة والقديسون.

وقد أشار القرآن إلى هذه الثلة حاثا على سلوك سبيها باعتبارها النموذج الأكمل للإنسان، فقال:﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر:٣٢)

والقرآن يسمي هؤلاء (مقربون)..:﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (الواقعة: ١١)

والقرآن يعتبر هذا النوع ثلة قليلة في جميع الملل:﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ (الواقعة: ١٤)

ولكن هذا لا ينفي انتشار المعاني الروحية العالية بين المؤمنين..

ففي القرآن وفي كلام محمد وهديه منظومة كاملة من التوجيهات والتشريعات ليس لها من هدف سوى ربط المؤمنين بالله..

لا شك أنك تعرف الأذكار والأدعية وأنواع المناجاة التي وردت بها النصوص المقدسة للمسلمين؟

قلت: أجل..

قالت: لقد بحثت في تلك النصوص ودرستها دراسة متأنية، وقارنت بينها وبين أنواع الأدعية والأذكار

في جميع الأديان والمذاهب.. فلم أجد روحانية أرق من تلك الروحانية التي تضمنتها أدعية المسلمين.

قلت: ولكني أرى بدعا كثيرة دخلت.. فهناك أنواع من المناجاة لم ترد في النصوص المقدسة.. ومع ذلك أرى المسلمين يلهجون بذكرها.

قالت: لقد بحثت في تلك الأنواع أيضا.. فرأيتها تصب فيما ورد في النصوص.. لقد صب الصالحون من المسلمين ممن أوتو قدرات بلاغية عالية المعاني الروحية الرقيقة في صورة أدعية وابتهالات ومناجاة لتكون معراجا يرقى بالمريدين إلى الله.

ولا أرى فيها أي بدعة.. فقد كان محمد يقر ما يقوله أصحابه من أدعية ومن أنواع الأذكار ما لم يخالف ما ورد في العقيدة الإسلامية من حقائق.

سأذكر لك نموذجا من هذا النوع لترى فيه كيف تنتظم المعاني الروحية العالية في مناجاة رقيقة.

هذه المناجاة هي مناجاة ابن عطاء الله..

اسمع ما يقول:« إلـــهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري؟!.. إلـــهي أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي؟! »

إن هذه المناجاة.. بل هذه الحكمة مما يميز الروحانية الإسلامية.. إنها روحانية افتقار إلى الله.. ولجوء إلى الله.. وانطراح بين يدي الله.. وهو تصديق لما ورد في القرآن:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر:١٥)

ولذلك.. فإن هذا الفقر يملأ صاحبه بالتواضع لله.. ولخلق الله.. وتجعله في قمة السلام بينه وبين نفسه، وبينه وبين الله.. وبينه وبين الخلق.

ثم يقول ابن عطاء الله:« إلـــهي إن اختلاف تدبيرك، وسرعة حلول مقاديرك، منعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء واليأس منك في بلاء »

هذه ناحية أخرى مهمة تجعل العارفين من المؤمنين.. بل تجعل العوام منهم متوجهين دائما إلى الله..

فالله في الإسلام لم يتخل عن خلقه هو معهم يرعاهم في كل لحظة ﴿ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام: من الآية٥٩).. ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة: من الآية٧)..:﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر:١٩)..:﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس:٦١)

وهو يقلب المقادير على مقتضى حكمته ورحمته وعدله.. ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الانبياء:٢٣)

ثم يقول ابن عطاء الله في أدب المؤمن العارف بنفسه:« إلـــهي مني ما يليق بلؤمي، ومنك ما يليق بكرمك

».. أي مني ما يليق بلؤمي الذي هو وصف العبيد من مبارزتك بالذنوب، ومنك ما يليق بكرمك الذي هو وصف الربوبية من التجاوز والعفو وستر العيوب.

ثم يقول:« إلـــهي وصفت نفسك باللطف والرأفة بي قبل وجود ضعفي، أفتمنعني منهما بعد وجود ضعفي »، وهذا توسل من المؤمن إلى الله بأسمائه.. وهو ما يقرب المؤمن إلى الله قربا عظيما.

ثم يقول متبريا من الحول والقوة التي قد تحجبه عن الله:« إلـــهي إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك، ولك المنة علي، وإن ظهرت المساوي مني فبعدلك، ولك الحجة علي »

ثم يتوجه إلى الله متوسلا إليه بكمالاته لطلب حاجاته:«إلـــهي كيف تكلني إلى نفسي وقد توكلت لي؟ وكيف أضام وأنت الناصر لي؟ أم كيف أخيب وأنت الحفي بي؟

ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك؟ أم كيف أشكو إليك حالي وهو لا يخفى عليك؟ أم كيف أترجم لك بمقالي وهو منك برز إليك؟ أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك؟ أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك؟

إلـــهي ما ألطفك بي مع عظيم جهلي، وما أرحمك بي مع قبيح فعلي!

إلـــهي ما أقربك مني ، وما أبعدني عنك!

إلـــهي! ما أرأفك بي! فما الذي يحجبني عنك؟

إلـــهي! قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار، أن مرادك أن تتعرف إلي في كل شيء، حتى لا أجهلك في شيء .

إلـــهي! كلما أخرسني لؤمي أنطقني كرمك، وكلما آيستني أوصافي أطمعتني مننك.

إلـــهي! من كانت محاسنه مساوي فكيف لا تكون مساويه مساوي؟ ومن كانت حقائقه دعاوي فكيف لا تكون دعاويه دعاوي؟

أي من كانت أعماله الصالحة عيوباً في نفس الأمر لعدم خلوها من

إلـــهي حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذي مقال مقالاً، ولا لذي حال حالاً.

إلـــهي! كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها هدم اعتمادي عليها عدلك، بل أقالني منها فضلك.

إلـــهي! أنت تعلم وإن لم تدم الطاعة مني فعلاً جزماً، فقد دامت محبة وعزماً.

إلـــهي! كيف أعزم وأنت القاهر، وكيف لا أعزم وأنت الآمر؟

إلـــهي! ترددي في الآثار يوجب بعد المزار، فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك.

إلـــهي! كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟

إلـــهي! عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم يجعل له من حبك نصيباً.

إلـــهي! أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعني إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار، حتى أرجع إليك منها

كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها، ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها ﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران:٢٦).

إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك، منك أطلب الوصول إليك، وبك أستدل عليك فاهدني بنورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك.

إلـــهي! أغنني بتدبيرك عن تدبيري، وباختيارك لي عن اختياري، وأوقفني على مراكز اضطراري.

إلـــهي! أخرجني من ذل نفسي، وطهرني من شكي وشركي قبل حلول رمسي.

بك أستنصر فانصرني، وعليك أتوكل فلا تكلني، وإياك أسأل فلا تخيبني، وفي فضلك أرغب فلا تحرمني، ولجنابك أنتسب فلا تبعدني، وببابك أقف فلا تطردني.

إلـــهي! تقدس رضاك عن أن تكون له علة منك، فكيف تكون له علة مني؟ أن الغني بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك، فكيف لا تكون غنياً عني؟

إلـــهي! أن القضاء والقدر غلبني، وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرني، فكن أنت النصير لي حتى تنصرني وتنصر بي، وأغنني بفضلك حتى أستغني بك عن طلبي.

أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك، حتى عرفوك ووحدوك، وأنت الذي أزلت الأغيار من قلوب أحبابك، حتى لم يحبوا سواك و لم يلجئوا إلى غيرك أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حتى استبانت لهم المعالم، ماذا وجد من فقدك، وما الذي فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى عنك متحولاً.

يعني أنت يا الله الذي أشرقت بفضلك أنوار المعارف واليقين في

إلـــهي! كيف يرجى سواك، وأنت ما قطعت الإحسان؟ وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان، يا من أذاق أحباءه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين، ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته، مستعزين، أنت الذاكر من قبل الذاكرين، وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين، وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين.

إلـــهي! اطلبني برحمتك حتى أصل إليك، واجذبني بمنتك حتى أقبل عليك.

إلـــهي! إن رجائي لا ينقطع عنك وإن عصيتك، كما أن خوفي لا يزايلني وإن أطعتك.

إلـــهي! قد دفعتني العوالم إليك، وقد أوقفني علمي بكرمك عليك.

إلـــهي! كيف أستعز وأنت في الذلة أركزتني، أم كيف لا أستعز وإليك نسبتي؟ أم كيف لا أفتقر وأنت الذي في الفقر أقمتني، أم كيف أفتقر وأنت بجودك أغنيتني؟.

أنت الذي لا إله غيرك، تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء، وأنت الذي تعرفت إلي في كل شيء فرأيتك ظاهراً في كل شيء، فأنت الظاهر لكل شيء.

يا من احتجب في سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار، يا من تجلى بكمال بهائه فتحققت عظمته الأسرار. كيف تخفى وأنت الظاهر، أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر؟ والله الموفق وبه أستعين.

كانت (آنا ماري شميل) تقرأ هذه المناجاة الطويلة عن ظهر قلب بخشوع ورقة ملأتني بمشاعر لا أستطيع وصفها.

قلت لها: إن هذا الشيخ يذكر معاني جليلة.. فهل ترين كل هذه المعاني مستنبطة من النصوص المقدسة؟

قالت: لو كان الوقت كافيا لاستدللت لكل كلمة قالها بنصوص كثيرة من القرآن والسنة..

إن الروحانية الإسلامية فيض من القرآن والسنة.. وهذه ميزة لم أجدها في أي دين من الأديان..

اذهب إلى كتابنا المقدس.. وحاول أن تجد ما يملأ روحك بما يلبي أشواقها إلى الله..

أنا موقنة أنك لن تجد إلا ما يملأ نفسك بالغثيان[1]..

التفتت إلي، وقالت: سأقرأ لك مناجاة أخرى لولي آخر من أولياء المسلمين ترى فيها كيف يستنبطون المعاني الجليلة من النصوص المقدسة.

إنه بديع الزمان النورسي الذي قال في بعض مناجاته:« يا ربي الرحيم.. لقد أدركتُ بتعليم الرسول، وفهمتُ من تدريس القرآن الحكيم، أن الكتبَ المقدسة جميعها، وفي مقدمتها القرآن الكريم، والأنبياءَ عليهم السلام جميعهم، وفي مقدمتهم الرسول الاكرم، يدلّون ويشهدون ويشيرون بالاجماع والاتفاق إلى أن تجليات الاسماء الحسنى ــ ذات الجلال والجمال ــ الظاهرةَ آثارُها في هذه الدنيا، وفي العوالم كافة، ستدوم دواماً أسطعَ وأبهرَ في أبد الآباد.. وأن تجلياتها ــ ذات الرحمة ــ وآلاءها المشاهدة نماذجها في هذا العالم الفاني، ستثمر بابهى نور واعظم تألق، وستبقى دوماً في دار السعادة.. وأن اولئك المشتاقين الذين يتملّونها - في هذه الحياة الدنيا القصيرة - بلهفةٍ وشوق سيرافقونها بالمحبة والودّ، ويصحبونها الى الابد، ويظلون معها خالدين.. وأن جميع الانبياء وهم ذوو الارواح النيرة وفي مقدمتهم الرسول الاكرم، وجميع الأولياء وهم اقطاب ذوي القلوب المنورة، وجميع الصديقين وهم منابع العقول النافذة النيّرة، كل اولئك يؤمنون ايماناً راسخاً عميقاً بالحشر ويشهدون عليه ويبشرون البشرية بالسعادة الابدية، وينذرون اهل الضلالة بأن مصيرهم النار، ويبشرون أهل الهداية بأن عاقبتهم الجنة، مستندين الى مئات المعجزات الباهرة والآيات القاطعة، والى ما ذكرتَه انت يا ربي مراراً وتكراراً في الصحف السماوية والكتب المقدسة كلها من آلاف الوعد والوعيد. ومعتمدين على عزة جلالك وسلطان ربوبيتك، وشؤونك الجليلة، وصفاتك المقدسة كالقدرة والرحمة والعناية والحكمة والجلال والجمال وبناءً على مشاهداتهم وكشفياتهم غير المعدودة التي تنبئ عن آثار الآخرة ورشحاتها. وبناءً على ايمانهم واعتقادهم الجازم الذي هو بدرجة علم اليقين وعين اليقين.

فيا قدير ويا حكيم ويا رحمن ويا رحيم ويا صادق الوعد الكريم، ويا ذا العزة والعظمة والجلال ويا قهار ذو الجلال. انت مقدّس ومنزّهٌ، وانت متعال عن ان تُوصِم بالكذب كل أوليائك وكل وعودك وصفاتك الجليلة وشؤونك المقدسة.. فتكذّبهم، أو تحجب ما يقتضيه قطعاً سلطان ربوبيتك بعدم استجابتك لتلك الأدعية الصادرة من عبادك الصالحين الذين احببتهم واحبّوك، وحبّبوا انفسهم اليك بالايمان والتصديق والطاعة، فانت

---

(١) انظر في هذا رسالة (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

متزّه ومتعال مطلق عن أن تصدّق أهل الضلالة والكفر في انكارهم الحشر، اولئك الذين يتجاوزون على عظمتك وكبريائك بكفرهم وعصيانهم وتكذيبهم لك ولوعودك، والذين يستخفّون بعزة جلالك وعظمة ألوهيتك ورأفة ربوبيتك..

فنحن نقدّس بلا حد ولا نهاية عدالتَك وجمالك المطلقين ورحمتك الواسعة وننزّهها من هذا الظلم والقبح غير المتناهي..

ونعتقد ونؤمن بكل ما اوتينا من قوة بأن الآلاف من الرسل والأنبياء الكرام، وبما لا يعدّ ولا يحصى من الاصفياء والأولياء الذين هم المنادون اليك هم شاهدون بحق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين على خزائن رحمتك الأخروية وكنوز احساناتك في عالم البقاء، وتجليات اسمائك الحسنى التي تنكشف كلياً في دار السعادة..

ونؤمن ان هذه الشهادة حق وحقيقة، وان اشاراتهم صدق وواقع، وان بشاراتهم صادقة وواقعة.. فهؤلاء جميعاً يؤمنون بأن هذه الحقيقة الكبرى شعاع عظيم من اسم (الحق) الذي هو مرجع جميع الحقائق وشمسها، فيرشدون عبادك ــ باذن منك ــ ضمن دائرة الحق، ويعلمونهم بعين الحقيقة »

التفتت إلي، وقالت: بهذه الكلمات الرقيقة التي تفوح بعطر الربانية كان القديسون من المسلمين يسيرون ليملأوا أفواه العوام والخواص بذكر الله والتوجه لله والامتلاء بحب الله، وحب أوليائه.

ولذلك.. فإن الروحانية الإسلامية روحانية عامة حتى في حال ضعف المسلمين..

لقد رأيت بعض المسلمين من المنحرفين أو من السكارى قد يقاتل من أجل أن يسب ربه أو كتابه أو نبيه.. إنه يختزن في نفسه ــ مع كونه منحرفا في نظر الإسلام ــ إيمانا عظيما ومحبة عظيمة.. نعم غلبته شهواته.. ولكن الروحانية الإسلامية لا زالت تجذبه.. ولعلها في يوم من الأيام تستطيع أن تخلصه.

وهذا هو سر قوة الإسلام..

فقوة الإسلام في روحانيتة.. وقوة روحانيته في ربانيته.

سكتت قليلا، ثم قالت، وهي تعتصر ألما: إن المسيح يسب في بلادنا.. ويسخر منه، فيثور المسلمون ويتألمون.. أما نحن فلا ننبس ببنت كلمة..

أتدري لم؟

قلت: لم؟

قالت: لأن كتابنا المقدس لا يحمل أي احترام لله..

قارن ما سمعته من تلك الأدعية والمناجاة بما يذكه كتابنا المقدس من مناجاة الأنبياء.. لا الأولياء..

لقد جاء في سفر الملوك الأول (١٧: ٢٠) عن إيليا النبي وهو يخاطب الله:« وصرخ إلى الرب وقال: أيها الرب إلهي، أأيضاً إلى الأرملة التي أنا نازل عندها أسأت باماتتك ابنها »

وفي سفر الخروج (٥: ٢٢) عن موسى النبي وهو يخاطب الله:« فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ وَقَالَ: لِمَاذَا أَسَأْتَ إِلَى شَعْبِكَ يَارَبُّ؟ لِمَاذَا أَرْسَلْتَنِي؟ فَمُنْذُ أَنْ جِئْتُ لأُخَاطِبَ فِرْعَوْنَ بِاسْمِكَ، أَسَاءَ إِلَى الشَّعْبِ، وَأَنْتَ

لَمْ تُخَلِّصْ شَعْبَكَ عَلَى الإِطْلاقِ »

وفي سفر إشعياء (٦٣: ١٧) أن إشعيا النبي خاطب الله قائلاً:« لماذا أضللتـــنا يا رب عن طرقك؟ قسيت قلوبنا عن مخافتك »

وفي مزمور [١٠: ١] أن داود النبي خاطب الله قائلاً:« يارَبُّ لماذا تقف بعيداً؟ لماذا تختفي في أزمنة الضيق؟»

بهذه الوقاحة يخاطب الأنبياء في الكتاب المقدس الله.. فكيف تريد من عوامنا أن يخاطبوا الله أو المسيح أو أي نبي من الأنبياء.

٢ ــ العقلانية

قلت: حدثني عن الضابط الأول للروحانية الإسلامية.. هو ضابط الربانية، فحدثيني عن الضابط الثاني.. والذي سميته (العقلانية)

قالت: ميزة الإسلام الكبرى أنه دين ينسجم مع جميع لطائف الإنسان.. مع عقله.. وقلبه.. وروحه.. وسره.. بل ينسجم مع جسده.. ومجتمعه.. والكون جميعا[1].

ولذلك، فالعقلانية إطار من الأطر التي تحكم جميع السلوكات والعقائد حتى لا يقع العقل في الخرافة.. ولا يقع السلوك في الشعوذة.

وهذا بخلاف جميع ما عرفته من أديان ومذاهب وأفكار.. فكلها يحوي مغالطات عجيبة لا تستقيم تحت موازين العقل.

سأضرب لك مثالا على الدجل الذي تمارسه الكنيسة لتكسب أتباعا جددا..

هي لا تقنعهم بالعقل.. ولا تحدثهم عن الله.. وإنما تسارع إلى ملأ جانب الشعوذة والخرافة التي يعشقها العوام.. وتنفر منها العقول.

لا شك أنك تعرف (الرمح المقدس)

قلت: لم أسمع بها.

قالت: إنها من قصة من قصص الحروب الصليبية التي استطاع رجال ديننا بواسطتها إقناع عقول المخلصين لإسالة أنهار دماء المسلمين[2].

لقد دفع الصليبيون من أجل عبور آسيا الصغرى ثمناً باهظاً، إذ فقدوا أفضل جنودهم وخيرة عساكرهم، بينما استولى اليأس والفزع على البقية الباقية..

وبدأ الخوف من تفكك الجيش وفرار الجنود يساور القادة، فعمدوا إلى بعض الحيل الدينية لصد هذا الخطر وربط الجنود برباط العقيدة.. ومن تلك الحيل التى روجوا لها ما رواه المؤرخون عن ظهور المسيح والعذراء أمام الجنود الهيابين ووعدهم بالصفح عن الخطايا والخلود فى الجنة إذا ما استماتوا فى معاركهم ضد المسلمين..

غير أن هذا الأسلوب النظرى لم يلهب حماس الجنود، و لم يحقق الغرض الذى ابتدعه الصليبيون من أجله، فكان لا بد من أسلوب آخر ينطوى على واقعة مادية يكون من شأنها إعادة الإيمان إلى القلوب التى استبد بها اليأس، وتقوية العزائم التى أوهنتها الحرب، وهنا أذيع بين الجنود قصة اكتشاف الرمح المقدس..

تلك الواقعة التى روى تفاصيلها المؤرخ (جيبون) فضلاً عن غيره من المؤرخين المعاصرين. قال: إن قساً يدعى بطرس بارتلمى من التابعين لأسقفية (مارسيليا) منحرف الخلق ذا عقلية شاذة، وتفكير ملتو معقد زعم

(١) انظر الأدلة المفصلة على هذا في رسالة (سلام للعالمين) من هذه السلسلة.

(٢) هذه القصة نقلها الشيخ محمد الغزالي من كتاب (الشرق والغرب)

لمجلس قيادة الحملة الصليبية، أن قديساً يدعى (أندريه) زاره أثناء نومه، وهدده بأشد العقوبات إن هو خالف أوامر السماء، ثم أفضى إليه بأن الرمح الذى اخترق قلب المسيح مدفون بجوار كنيسة القديس بطرس فى مدينة (انطاكيا)، فروى (بارتلمى) هذه الرؤيا لمجلس قيادة الجيش، وأخبرهم بأن هذا القديس الذى طاف به فى منامه قد طلب إليه أن يبادر إلى حفر أرض المحراب لمدة أيام ثلاثة، تظهر بعدها (أداة الخلود) التى تخلص المسيحيين جميعاً، وأن القديس قال له: ابحثوا تجدوا.. ثم ارفعوا الرمح وسط الجيش، وسوف يمرق الرمح ليصيب أرواح أعدائكم المسلمين..

وأعلن القس (بارتلمى) اسم أحد النبلاء ليكون حارساً للرمح، واستمرت طقوس العبادة من صوم وصلاة ثلاثة أيام دخل فى نهايتها اثنا عشر رجلاً ليقوموا بالحفر والتنقيب عن الرمح فى محراب الكنيسة.

لكن أعمال الحفر والتنقيب التى توغلت فى عمق الأرض اثنى عشر قدماً لم تسفر عن شىء. فلما جن الليل أخلد النبيل الذى اختير لحراسة الرمح إلى شىء من الراحة، وأخذته سنة من النوم، وبدأت الجماهير التى احتشدت بأبواب الكنيسة تتهامس..!..

فاستطاع القس (بارتلمى) فى جنح الظلام أن يترل إلى الحفرة، مخفياً فى طيات ثيابه قطعة من نصل رمح أحد المقاتلين العرب، وبلغ أسماع القوم رنين من جوف الحجرة، فتعالت صيحاتهم من فرط الفرح، وظهر القس وبيده النصل الذى احتواه بعد ذلك قماش من الحرير الموشى بالذهب، ثم عرض على الصليبيين ليلتمسوا منه البركة، وأذيعت هذه الحيلة بين الجنود وامتلأت قلوبهم بالثقة، وقد أمعن قادة الحملة فى تأييد هذه الواقعة بغض النظر عن مدى إيمانهم بها أو تكذيبهم لها.

وقد روى التاريخ الكثير من مثل هذه الخرافات.. وبمثلها تنتشر المسيحية للأسف.. فنحن لا ننشر ديننا إلا بطرد الشياطين.. هذا هو منهجنا العقلي الذي نرحل به إلى الله..

كنت أقرأ قبل أيام نشرة صغيرة، على أحد وجهيها صورة العذراء وهى تقطر وداعة ولطفاً، وعلى ذراعها الطفل الإله يسوع يمثل البراءة والرقة.. أما الوجه الآخر للصورة فقد تضمن هذا الخبر تحت عنوان (محبة الآخرين وخدمتهم)، وتحته هذه الجملة « حسبما تتاح لنا فرصة فلنعمل الخير للجميع » (غل ٦: ١٠).. كانت السيدة زهرة ابنة محمد على باشا بها روح نجس، ولما علم أبوها أن (الأنبا حرابامون) أسقف المنوفية قد أعطاه الله موهبة إخراج الأرواح النجسة استدعاه. ولما صلى لأجلها شفيت فى الحال، فأعطاه محمد على باشا صرة بها أربعة آلاف جنيه، فرفضها قائلاً: إنه ليس فى حاجة إليها لأنه يعيش حياة الزهد، وهو قانع بها »[1]

بهذا ومثله تتعامل الروحانية المسيحية..

لقد كان القديسون يرقون إلى مرتبة القداسة.. لا بسبب سلوكهم الطيب وروحانيتهم الرفيعة، وإنما بسبب المعجزات التي تظهر على أيديهم[2].

---

(١) ذكر هذا الشيخ محمد الغزالي.

(٢) انظر: العلمانية، لسفر الحوالى.

لقد كان باستطاعة أي محتال أن يترقى في منصبه بالقيام بأي عمل تجهل العقول الساذجة علته الحقيقية مدعياً أن ذلك هبة من الروح القدس له، وإذا كان التاريخ يذكر فزع الإمبراطور (شارلمان) وحاشيته من الساعة التي أهداها إليه الرشيد ظانين أن بها قوى خفية من الجن والشياطين، فما بالك بعامة الشعب من الفلاحين والرعاة.

لن أذكر لك شواهد على هذا من القرون الوسطى.. فشواهدها في ذلك العصر المظلم لا تكاد تنتهي.. وإنما سأذكر لك بعض ملامح الخرافات التي لا تزال كنيستنا تمارس نشاطها على أتباعها في العامل الغربي ذاته.

يقول فريزر:« معظم الفلاحين في فرنسا لا يزالون يعتقدون أن القسيس يملك على العناصر قوة خفية لا تقاوم وأنه حين يتلو البعض الصلوات المعينة بالذات التي لا يعرفها سواه والتي لا يحق لغيره أن يرتلها فإنه يستطيع في حالة الخطر الداهم أن يبطل لفترة معينة فعل القوانين الأبدية للعامل الفيزيقي أو حتى يقلبها تماما »

وفي مناطق أخرى يعتقد الناس « أن القسيس يملك القدرة على تشتيت العواصف، وإن لم يكن لكل القساوسة مثل هذه الملكة، ولذا فانه حين يتغير راعى الكنيسة في بعض تلك القرى يبدى أتباع الأبرشية كثيراً من التلهف لمعرفة ما إذا كان الراعى الجديد يتمتع بهذه السلطة كما يسمونها، وعلى ذلك فبمجرد أن تظهر أدنى بادرة بهبوب إحدى العواصف الشديدة فإنهم يخضعونه للاختبار فيطلبون إليه القيام ببعض الشعائر والترتيل ضد الغيوم المتكاثفة فإذا جاءت النتائج محققة لآمالهم ضمن الراعي الجديد لنفسه عطف أتباع الكنيسة واحترامهم »

وهناك قداس خاص يستعمله القساوسة في الأعمال الانتقامية يتحدث عنه فريزر بقوله:« لا يقام هذا القداس إلا في كنيسة متهدمة أو مهجورة حيث تنعق البوم وتمرح الخفافيش وقت الغسق وتأوي إليها جماعات الغجر في الليل، وحيث تقبع الضفادع البرية تحت مذبحها المدنس، فهناك يأتي ذلك القسيس الشرير بالليل ومعه عشيقته الفاجرة الخليعة وحين ترسل الساعة أولى دقاتها معلنة الحادية عشر يبدأ يهمهم في تلاوة القداس ابتداء من آخره إلى أوله بحيث يفرغ منه يحين تبدأ دقات الساعة تعلن منتصف الليل وتقوم عشيقته بمساعدته في ذلك، أما القربان الذي يباركه فلابد أن يكون أسود اللون كما أنه لا يتناول النبيذ، ولكنه يشرب بدلا منه بعض الماء من بئر سبق أن ألقيت فيها جثة طفل مات قبل تعميده، ثم يرسم علامة الصليب ولكن على الأرض وبقدمه اليسرى ويقوم بأداء كثير من الأعمال الأخرى التي لا يستطيع أي مسيحي أن يراها دون أن يصيبه العمى والصمم والبكم بقية حياته »

وفي سنة ١٨٩٣م حدثت في جزيرة صقلية حادثة تصور الموضوع أبلغ تصوير فقد كانت الجزيرة تمر بمحنة رهيبة بسبب الجفاف، وكان الجدب قد استمر ستة أشهر متصلة تناقصت كميات الطعام بسرعة وأنتاب الناس ذعر شديد فجربوا كل الطرق المعترف بها للحصول على المطر، خرجت جموعهم من منازلهم وأحاطوا بالصور والتماثيل المقدسة يتوسلون إليها بترتيل الصلوات وإضاءة الشموع في الكنائس طيلة الليل والنهار

وعلقوا على الأشجار سعف النخيل الذي سبق لهم أن باركوه في (أحد السعف)[1] ونثروا في الحقول (الكناسة المقدسة) وهى التراب الذي كنسوه من الكنائس في ذلك اليوم، فلم يجد ذلك شيئاً وحملوا الصلبان على أكتافهم وساروا حفاة الأقدام عراة الرؤوس وجلد بعضهم بعضاً بالسياط ولكن دون جدوى.

وأخيراً لجأوا إلى القديسين وتجمعوا حول القديس فرانسيس الذي اعتادوا حسب اعتقادهم أن ينالوا المطر ببركته فأقاموا له الصلوات والترانيم والزينات لكن جهودهم كلها ذهبت هباء فنبذوا معظم القديسين حتى أنهم ألقوا بالقديس يوسف في إحدى الحدائق ليجرب بنفسه الحال التي وصل إليها الناس واقسموا أن يتركوه هناك في الشمس حتى يأتيهم المطر، وأداروا وجوه بعض القديسين إلى الحائط كما يفعل المدرس بالتلاميذ الأشقياء، وجردوا بعضهم من ملابسهم الفاخرة وقذفوهم بأقذع السباب والشتائم أما القديس ميخائيل رئيس الملائكة ــ حسب عقيدتهم ــ فقد نزعوا أجنحته الذهبية ومزقوها ووضعوا مكانها أجنحة ورقية في بعض المناطق قيد الناس قس بلدته وتركوه عارياً وأخذوا يهتفون إليه بغضب (المطر أو حبل المشنقة)[2]

ومن الخرافات التي لا تزال عالقة بأذهان النصارى إلى اليوم خرافة (تجلى العذراء) التي يثيرونها حيناً بعد أخر.. كما أن هناك عادت غربية شائعة اليوم أصلها خرافات كنسية فمثلاً التشاؤم من الرقم (١٣) أصله أن يهوذا الذي دل على المسيح هو التلميذ الثالث عشر للمسيح فكان ذلك مصدر شؤم للكنيسة وأتباعها حتى أنه عند ترقيم المنازل في المدن الغربية يرفض بعضهم وضع هذا الرقم على مترله ويضع مكانه ١٢ب.

قلت: هذه عقلانيتنا.. فحدثيني عن عقلانية الروحانية الإسلامية.

قالت: إن القرآن الذي هو مصدر المسلمين الأول يقيم بناء روحيا عميقا على أسس العقل.. وعلى أسس العقل وحده..

ولهذا نجد أعلى صفات المؤمنين في القرآن هي صفة اليقين.. واليقين هو بلوغ المعرفة درجة من اليقين العقلي، بحيث تسري بعدها إلى الجوارح وسائر اللطائف.

فالفلاح الذي أخبر عنه القرآن الكريم عند ذكره للطائفة المؤمنة في سورة البقرة مرتبط باليقين:﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة:٤)

وأئمة الهدى العارفين بالله الذين جعلهم الله نجوما لهداية الخلق هم الذين زاوجوا بين الصبر واليقين، أو المجاهدة والمعرفة ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة:٢٤)

وآيات الله بأنواعها المختلفة لا يفهمها ولا يصدقها ولا يقدرها حق قدرها سوى الموقنين ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة:١١٨)

ومن هذه الآيات آيات الله الكونية المتجلية في الأرض ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ (الذريات:٢٠)،

---

(١) يوم مقدس عندهم.

(٢) انظر قذائف الحق للشيخ الغزالي: ٤٨ فما بعدها.

أو المتجلية في الإنسان والكائنات الحية ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثـية:٤)، فكل هذه الآيات لا يدركها سوى الموقنين.

وحقائق القرآن التي هي بصائر البصائر لا يراها ولا يعرفها ولا يهتدي بها ويرحم غير الموقنين ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثـية:٢٠)

والمعارف المرتبطة بالله لا يفهمها، أو يذعن لها، أو يستشعر سموها سوى الموقنين، ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (الدخان:٧)

وأحكام الله لا يدرك حكمها، ويستكنه أسرارها، ويعرف وجوه المنافع والمصالح فيها سوى الموقنين ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة:٥٠)، والآية تشير إلى أن إدراك الحسن المتغلغل في ثنايا الأحكام لا يقلب صفحاته سوى الموقنين، ولعله لأجل هذا لم يتصد للبحث في أسرار الشريعة ومقاصدها سوى من جمعوا بين العلم والتقوى، أو بين اليقين والإرادة.

ومن هذه المنطلقات القرآنية أجمع العارفون من المسلمين على أن اليقين هو البذرة التي تنبت منها جميع المحاسن التي ينضح بها العرفان.

فالمعرفة اليقينية هي روح الإيمان ــ كما يعبر ابن القيم ــ وهي « من الإيمان بمترلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون وفيه تنافس المتنافسون وإليه شمر العاملون وعمل القوم إنما كان عليه وإشاراتهم كلها إليه » وهو « روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصديقية وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره »

وقد أجمعوا على اعتبارها المركب الذي يحمل السالكين إلى الله، وبقدر سلامة المركب يكون الوصول.

وقد قال أبو سعيد الخراز معبرا عن هذا الدور:« العلم ما استعملك واليقين ما حملك »، فلولا اليقين ما سار ركب إلى الله ولا ثبت لأحد قدم في السلوك إلا به.

ويشير الجنيد إلى أن اليقين لا يعني ما يتصوره البعض ــ ممن يشحنون حياة العارفين والأولياء بالكرامات مع ما قد يلابسها من خرافات وأساطير ــ فالموقن لا يحتاج لأن يمشي على الماء ليثبت صحة يقينه :« قد مشى رجال باليقين على الماء ومات بالعطش من هو أفضل منهم يقينا »

وهذه النصوص وغيرها تشير إلى أهمية اليقين وارتباطه بالروحانية.. وفي نفس الوقت ارتباطه بالعقلانية.

قلت: فهمت علاقة اليقين بالروحانية.. ولكني لم أفهم علاقته بالعقلانية.

قالت: أول مستقبل للحقائق هو العقل.. فإذا نضجت الحقائق في العقل.. وتقبلها سرت إلى الروح.. هذا هو منطلق الروحانية عند المسلمين..

أما منطلق الروحانية عندنا.. فهو أن تتيقن الروح بما لا يعقل العقل.. وبذلك يفرض على العقل التسليم بما لا يعلم وما لا يعقل.

قلت: ولكني قرأت عن كثير من أولياء المسلمين ذمهم للعقل، واعتقادهم لقصوره، فقد سئل النوري:« ما الدليل على الله؟ قال:« الله » ، قال: فما العقل؟ قال: العقل عاجز، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله.

وقد وضع ابن عطاء العقل الذي يعتمد عليه العالم في محله عندما قال:« العقل آلة للعبودية لا للإشراف على الربوبية »

وعبر آخر عن ذلك بقوله:« العقل يجول حول الكون فإذا نظر إلى المكون ذاب »

وعبر أبو بكر القحطبي على استحالة التعرف على الله بالعقل بقوله:« من لحقته العقول فهو مقهور إلا من جهة الإثبات ولولا أنه تعرف إليها الألطاف لما أدركته من جهه الإثبات »

وقد بعضهم شعرا معبرا عن عجز العقل:

من رامه بالعقل مسترشدا　　سرحه في حيرة يلهو

شاب بالتلبيس أسراره　　يقول من حيرته هل هو

وقال بعضهم: لا يعرفه إلا من تعرف إليه، ولا يوحده إلا من توحد له، ولا يؤمن به إلا من لطف به، ولا يصفه إلا من تجلى لسره، ولا يخلص له إلا من جذبه إليه، ولا يصلح له إلا من اصطنعة لنفسه.

قالت: صدق كل هؤلاء.. فلم ينطقوا إلا الحقيقة..

قلت: فكيف يستقيم ما ذكرته عن انبناء الجانب الروحي من الإسلام على العقل، وهؤلاء ــ أعمدة الروح في الإسلام ــ يقولون ما يقولون؟

قالت: هؤلاء يشيرون إلى جانبين كلاهما خطر على الروحانية الصرفة:

أما أولاهما، وهي أخطرهما، فهي محاولة حصر الله بحدود العقل.. أو محاولة العقل التعرف على الله من خلال العقل المجرد.

وأما الثانية، فهي حصر العلاقة بالله في الجانب العقلي المجرد كما فعلت الفلسفة من غير تفاعل الوجدان.

قلت: سلمت بأن الثانية تنافي الروحانية.. ولكن الأولى لا أرى أنها تنافيها.

قالت: بل تنافيها.. لأن للعقل حدودا لا يستطيع أن يتجاوزها.. سأضرب لك مثالا يوضح لك ذلك:

أرأيت لو أن أحدهم دق عليك الباب، و لم تكن تعرفه، هل تستطيع ــ من خلال الاستدلال العقلي ــ أن تستدل على طوله ولونه واسمه ونسبه؟

قلت: لا.. فعقلي أقصر من أن يعرف ذلك.

قالت: ولكنك تستطيع أن تعرف أشياء من خلال هذا التصرف.

قلت: أجل..

قالت: فهذا هو دور العقل.. فهو يفتقر لمعرفة التفاصيل لأن يفتح له الباب حتى يتعرف على التفاصيل.

قلت: فقد فتح لنا الباب بالمسيح.

قالت: نعم.. فتح الباب بالمسيح.. ولكنا ــ معشر المسيحيين ــ أغلقنا باب المسيح، وفتحنا باب بولس.. وأبواب المجامع المقدسة.. فسقطنا في الخرافة.

قلت: فكيف نرجع إلى باب المسيح؟

قالت: بباب محمد.. فلا يمكن أن نفهم المسيح دون أن نمر على باب محمد.

٣ ــ الإنسانية

قلت: حدثني عن ضوابط الروحانية الإسلامية من الربانية والعقلانية.. فحدثيني عن الضابط الثالث.. الإنسانية.

قالت: لقد خلقنا الله بشرا.. وطلب منا أن نعبده، ونحن بشر.. وليس من اللائق، ولا من الأدب، ولا من الحكمة أن نخرج من البشرية عندما نريد أن نمارس الروحانية..

قلت: لم أفهم هذا.. فمع أننا بشر إلا أن الكمال في أن نرتقي عن بشريتنا.

قالت: من غير أن نخرج عنها.

قلت: بل لو استطعنا الخروج عنها لفعلنا.. فذلك هو الكمال الأكبر.

قالت: إن هذا الكلام يحمل احتقارا للبشرية.. لأن من يريد أن يخرج من شيء، ليدخل في غيره.. لا يريد أن يخرج منه إلا لاحتقاره له، واعتقاده لنقصه.

وهذه ميزة للإسلام تفصله عن كثير من الديانات والفلسفات التي تحتقر الإنسان.. فهو يكرم الإنسان، ويضعه في المحل الذي خلقه الله له.

إننا ــ معشر المسيحيين ــ لما احتقرنا الإنسان ربأنا بالمسيح أن يكون إنسانا.. فلذلك رفعناه إلى مقام الإلهية..

أما قرآن المسلمين فهو يصرح في كل لحظة بأن محمدا وسائر الأنبياء والأولياء ليسوا إلا بشرا.. يقول القرآن:﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ (الكهف:١١٠).. ويقول:﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (فصلت:٦)

ويقول عن سائر الأنبياء:﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (ابراهيم:١١)

قلت: وعيت هذا.. ولكن ما علاقته بالروحانية؟

قالت: لهذا علاقة وطيدة بالروحانية الإسلامية.. فأهم خصائص الإسلام أنه دين الفطرة.. والفطرة هي الطبيعة التي خلق عليها الإنسان.. أو النظام الذي يتحكم في الإنسان.. وهذه الفطرة لا ينبغي تدنيسها ولا تحريفها.. بل لا ينبغي للروحانية أن تحرف هذه الفطرة عن مسارها.

ففي الإسلام ــ كما ذكرت لك ــ تلتقي الروحية مع المادية، ويجتمع الدين مع الدنيا، وتتشابك أشواق الروح مع الغرائز التي خلقت في الإنسان، ولم يكن له أن يخرج عنها.

وهذا بخلاف كل ما نعرفه من فلسفات وأديان ومذاهب [١]..

---

(١) انظر: العبادة في الإسلام، يوسف القرضاوي.

ففي اليهودية تطغي المادية المحضة.. فلا تكاد تجد للروحانية أثرا، ولا تكاد ترى للآخرة مكانا، حتى الوعد والوعيد لا يتعلقان إلا بأمور دنيوية.

فالخصب والصحة والثراء وطول العمر، والنصر على الأعداء ونحوها من المكاسب الدنيوية الحسية العاجلة، هي المثوبات التي تبشر بها التوراة من نفذ أحكام الناموس، وأضداد هذه الأمور من الجدب والمرض والموت والوباء والفقر والهزيمة ونحوها للذين يعرضون عن الشريعة.

ليس عليك لتدرك هذه الحقيقة سوى أن تقرأ هذه النصوص (احترموا آباءكم وأمهاتكم لتعمروا طويلا في الأرض..).. (اعبدوا ربكم الإله الأزلي، وهو يبارك خبزكم وماءكم، ويبعد عنكم العلل والأدواء.. وسيطيل أعماركم..).. (إذا أطعتم أمري وحفظتم وصيتي فسأبعث عليكم الأمطار في أوقاتها، فتخرج الأرض ثمرتها والأشجار فاكهتها..)

أما المسيحية.. ففيها ــ على حسب الأناجيل ــ دعوة قوية إلى إلغاء قيمة هذه الدنيا، واعتبار هذه الأرض بمثابة منفى للإنسان، وطلب النجاة والسعادة هناك، في العالم الآخر، حيث تقوم مملكة السماء، فمن أراد ملكوت السماء، فليعرض عن هذه الأرض، ومن أراد العالم الآخر، فليرفض هذا العالم أو هذه الدنيا، وهكذا لا تحس في الإنجيل أن لك في الدنيا نصيبا، وأن لك في طيبات الحياة حظا، ولا تشعر أن لبدنك عليك حقا، وأن لك في عمارة الأرض دورا.

ففي الإنجيل:« لا يدخل غني ملكوت السموات، حتى يدخل الجمل في سم الخياط.. ».. وقال المسيح لشاب آمن به ودخل في دينه:« إذا أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع ما تملك واعطه للفقراء، ثم تعال واتبعني ».. وقال لتلاميذه:« وأنتم فلا تبحثوا عما تأكلون وما تشربون ولا تهتموا لذلك، لأن هذه الأشياء إنما يبحث عنها غير المؤمنين »

ولهذا توجهت الروحانية المسيحية نحو التقشف والتزهد وإهمال الحياة الأرضية.. و لم تقف عند الحد الذي جاء به الإنجيل، بل ابتدعت نظام الرهبانية، بما فيه من قسوة على النفس، وتحريم للزواج، وكبت للغرائز، ومصادرة للتروع إلى الزينة والطيبات من الرزق.

وانتشر هذا النظام العاتي، وكثر أتباعه، وأصبح مما يتعبدون به لله ويتقربون به إليه: البعد عن النظافة والتجمل، واعتبار العناية بالجسم ونظافته ونوازعه رجسا من عمل الشيطان.

لقد ذكر الأستاذ (ليكي) في كتاب (تاريخ أخلاق أوروبا) صورا لجموح الرهبانية وغلوها، تقشعر منها الجلود، وتفزع القلوب، وتدهش العقول، وهي قليل من كثير جدا.. لقد قال هذا المؤرخ:« زاد عدد الرهبان زيادة عظيمة، وعظم شأنهم واستفحل أمرهم واسترعوا الأنظار وشغلوا الناس، ولا يمكن الآن إحصاؤهم بالدقة، ولكن مما يلقي الضوء على كثرتهم وانتشار الحركة الرهبانية، ما روى المؤرخون أنه كان يجتمع أيام عيد الفصح خمسون ألفا من الرهبان، وفي القرن الرابع المسيحي كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب، وكان الراهب (سرابين) يرأس عشرة آلاف، وقد بلغ عددهم في نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر »

قلت: ولكن مع ذلك.. فقد كان نظام الرهبانية من أرقى الأنظمة الروحية في العالم.. بل إن بعض

مفكرينا يرى أن النظام الروحي في الإسلام مستمد من نظام الرهبانية عندنا.

قالت: قد يكون من المسلمين من وقع فيما وقع فيه رهباننا.. ولكنه بذلك انحرف عن الإسلام انحرافا شديدا.. ذلك أن نظام الرهبانية يتنافى تماما مع تعاليم الإسلام.

فقد اعتبر الإسلام الرهبانية بدعة خطيرة في الدين، ففي القرآن عند ذكر التحريف الذي حصل للمسيحية:﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْأِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد:٢٧)

ولهذا، فإن الروحانية الإسلامية تنطلق من مزازين دقيقة تجمع بين الروح والجسد، وبين الفرد والمجتمع.. وبين الدنيا والآخرة.. وهي بذلك تجمع للإنسان كل متطلبات إنسانيته.. وهي بذلك تختلف تمام الاختلاف عن الرهبانية التي انحرفت لها الكثير من الأديان والمذاهب والفلسفات.

فالذي يقدم الروح على الجسد يحرم الإنسان من جزء أصيل منه وهو جسده.

والذي يقدم الفرد يبتر الإنسان من البيئة التي خلقها الله له، وخلقه لها، ويجعله سلبيا لا هم له إلا ذاته.

والذي يقدم الآخرة على الدنيا يحرم الإنسان من فترة من فترات الزمن خلقها الله له، وخلقه لها.

قلت: هذا كلام عام أريد تفاصيله.

قالت: لن أطيق أن أذكر لك كل تفاصيله، ولكني سأكتفي بعرض شروط الرهبانية على النصوص المقدسة للمسلمين لتعرف موقفها منها.

فقد اشترط القائمون على نظام الرهبانية شروطاً لا بد من تحقيقها في الراهب.. لا يكون راهبا إلا بها.

منها العزوبة.. وهذا أهم شروط الرهبانية، وقد ورد في إنجيل متى:« يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات من استطاع أن يقبل فليقبل »(متى: ١٩: ١٣)

إضافة إلى أن التنفير من المرأة وإن كانت زوجة، واحتقار وترذيل الصلة الجنسية وإن كانت حلالاً، من أساسيات المسيحية، حتى بالنسبة لغير الرهبان، يقول (سان بونافنتور) أحد رجال الكنيسة:« إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائنا بشرياً، بل ولا كائنا حياً وحشياً، وإنما الذى ترون هو الشيطان بذاته والذى تسمعون هو صفير الثعبان »[١]

وكان من المشاكل المستعصية على الكنيسة مشكلة زواج رجال الدين غير الرهبان أو تسريهم، و(كانت الكنيسة منذ زمن بعيد تعارض زواج رجال الدين بحجة أن القس المتزوج يضع ولاءه لزوجه وأبنائه في مترلة أعلى من إخلاصه للكنيسة).. (وأنه سيحاول أن ينقل كرسيه أو مرتبته لأحد أبنائه يضاف إلى هذا أن القس يجب أن يكرس حياته لله وبنى الإنسان، وأن مستواه الأخلاقي يجب أن يعلو على مستوى أخلاق الشعب وأن

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام: ٢٩.

يضفي على مستواه هذه المكانة التي لا بد منها لاكتساب ثقة الناس وإجلالهم إياه »[1].. « بوجوب التبتل على رجال الدين وتطليق زوجات المتزوجين منهم وكان لهذا الأمر آثار امتدت إلى القرن السادس عشر وانتهت بانتصار الكنيسة»[2]

وإذا كان هذا هو الحال مع غير الرهبان، فلنتصور كيف تكون الحال معهم.

وهذا الشرط يتناقض تماما مع ما دعا إليه الإسلام من حث على الزواج وترغيب فيه، فقد وردت النصوص القرآنية الكثيرة التي تأمر بالزواج وتحث عليه.. ففي القرآن:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم:٢١) ففي هذه الآية توجيه للأنظار للنعم التي وضعها الله في الزواج، وكيف هيأ الزوجين لبعضهما لتنتج عن ذلك المودة والرحمة.

وفي القرآن:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ (الرعد: ٣٨).. ففي هذه الآية إخبار بأن الزواج من سنن المرسلين، وفيه رد بليغ على الممتنعين عنه بحجة التعبد والتبتل.

وفي القرآن:﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (النور:٣٢) وفي هذه الآية حث على تزويج من للمسلم ولاية عليهم، ونهي عن جعل الفقر حاجزا بين المؤمن والزواج.

وفي القرآن:﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾ (النساء:٣) ففي هذه الآية إجازة للتعدد في إطاره الشرعي الصحيح، وتنبيه للعلة من إجازته.

وعلى ضوء هذا الهدي القرآني جاءت النصوص الحديثية الكثيرة ترغب في الزواج، بل تعتبره من الأعمال الصالحة، ومن سنن الصالحين، ففي الحديث:« ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيراً من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرته ، وان أقسم عليها أبرته ، وان غاب عنها حفظته في نفسها وماله»[3]،فقد اعتبر محمد في هذا الحديث الزوجة الصالحة للرجل أفضل ثروة يكتنزها من دنياه ــ بعد الإيمان بالله وتقواه ــ وعدها أحد أسباب السعادة.

وفي حديث آخر:« الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة »[4]

وفي حديث آخر:« من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح ، والمركب الصالح »[1]

---

(١) قصة الحضارة ١٤: ٣٨٢.

(٢) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: ٢: ١٥٢.

(٣) أبو داود:١٢٦/٢.

(٤) المسند المستخرج على صحيح مسلم: ١٤١/٤، مصنف عبد الرزاق: ٢٢١/١٠، المعجم الأوسط: ٢٨١/٨.

وفي حديث آخر:« يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة، فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[2]

وفي حديث آخر عن أنس بن مالك أنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا،وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر،وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»[3]

قال ابن حجر معلقا على هذا الحديث:« فيه إشارة إلى رد ما بنوا عليه أمرهم من أن المغفور له لا يحتاج إلى مزيد في العبادة بخلاف غيره ، فأعلمهم أنه مع كونه يبالغ في التشديد في العبادة أخشى لله وأتقى من الذين يشددون وإنما كان كذلك لأن المشدد لا يأمن من الملل بخلاف المقتصد فأنه أمكن لاستمراره وخير العمل ما داوم عليه صاحبه»[4]

بل إن محمدا فوق هذا ذكر أمورا من سنن المرسلين كلها تناقض ما تتطلبه الرهبانية من بينها الزواج، فقال:« أربع من سنن المرسلين الحياء والتعطر والسواك والنكاح »[5]

قلت: هذا الشرط الأول للرهبانية، وقد علمت شدة معارضة الإسلام له.. فما الشرط الثاني؟

قالت: التجرد الكامل عن الدنيا.. فعلى الراهب ــ حتى يصير راهبا ــ أن يعتزل عزلة نهائية عن المجتمع، ويقطع النظر عن كل أمل في الحياة.

قلت: لقد كتب المسلمون في العزلة كتبا.. بل مارس الكثير من علمائهم هذه العزلة.. بل لهم ــ إلى الآن ــ ما يسمى بالخلوات التي يختلون فيها للعبادة.

فإن قلت: إن كل ذلك حادث.. فقد شرع الإسلام الاعتكاف، وهو نوع من العزلة.

قالت: فرق عظيم بين العزلة التي دعا إليها الإسلام، واعتبرها مدرسة تربوية تهذيبية، وبين عزلة الرهبان.

قلت: فما الفرق بينهما؟

قالت: العزلة التي مارسها الربانيون من المسلمين هي عزلة تربوية تشبه مكوث المريض في المستشفى مدة معينة يحددها طبيبه، ويحددها نوع العلاج الذي يريد ممارسته.

---

(١) رواه احمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح، انظر: مجمع الزوائد: ٢٧٢/٤.

(٢) مسلم: ١٠١٨/٢، البخاري: ٦٧٣/٢، ابن حبان: ٣٣٥/٩، الدارمي: ١٧٧/٢، البيهقي: ٢٩٦/٤، أبو داود: ٢١٩/٢، النسائي: ٩٥/٢.

(٣) البخاري: ١٩٤٩/٥.

(٤) فتح الباري: ١٠٥/٩

(٥) الترمذي: ٣٩١/٣، المعجم الكبير: ١٨٣/٤.

وهي لا تعني الانفراد في الجبال والكهوف عن الناس.. اللهم إلا في أحوال الفتن التي يفر فيها المؤمن بدينه.

قلت: فما الشرط الثالث من شروط الرهبانية؟

قالت: عدم الاهتمام بالمطالب الجسدية حتى الضروري منها كالملابس والنظافة..

يقول صاحب كتاب (المشكلة الأخلاقية والفلاسفة):« لنقرأ هذا السفر الطريف (محاكاة المسيح)، إنه سفر أكبر أسفار التبتل المسيحي، ولنطلب بين صحائفه ومظاهر الحياة المسيحية بمعناها الصحيح، وأن ما نجده لمعبر عن الحال أبلغ عبارة: إحتقار أساسى لكل علم، حتى يشمل ذلك علم الإلهيات، واحتقار أصيل لكل ما نسميه خيرات هذا العالم: الثراء والشرف الاجتماعي، حتى المركز الوسط، وإنه لحتم علينا أن نستشعر دائما التواضع والندم وأن نمارس عملياً على الدوام التضحية وكل مظهر تملية الرحمة وأن نجمع حواسنا في صمت وذهول تام وتأمل ديني ينسى المرء فيه كيانه، يجب أن نقتل فينا كل ميول دنيوي، يجب أن يموت عالم الرغبة، يجب أن نبدأ من هذا العالم الزائل ما سوف يكون لنا الوجود الأبدى »

ثم يعلق على هذه التعاليم قائلاً:« عظمة وعلاء، ولكنه قضاء قاس على الإنسانية، وإن التطبيق الكامل لمثل تلك المبادئ ليمكن أن يملأ الأرض بأديرة فيها الرجال من جهة والنساء من جهة أخرى ينتظرون في طهارة وتأمل الزوال النهائى للنوع الإنساني »[1]

قلت: فما موقف الإسلام من هذا؟

قالت: للجسد في الإسلام قيمة لا تقل عن قيمة الروح.. فلذلك يذكر في القرآن باعتباره من نعم الله على عباده.. ففي القرآن:﴿ قالَ لَهُ صاحِبهُ وَهوَ يُحاورهُ أكفرتَ بالَّذي خَلَقَكَ مِنْ تُراب ثُمَّ مِنْ نُطفَة ثُمَّ سَوّاكَ رَجُلاً ﴾ (الكهف: ٣٧).. وفيه:﴿ هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ ذلولاً فامشُوا فِي مناكِبها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك: ١٥)..وفيه:﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقناكُمْ وَلا تَطْغَوا فِيهِ فَيُحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ (طه: ٨١)

فهذه الآيات القرآنية تحمل بين طيّاتها معاني تشريعية كثيرة تبين قيمة الجسد وأهمية المحافظة عليه [2]..

فهي تبين أن الإنسان بتكوينه الجسماني، وبطبيعته البدنية، جزء من عالم الطبيعة، وأنّ الأرض هي مصدر نشوئه وتكوينه.. فهو ابن الأرض، ونتاجها الحي المترقي في تكوينه وأجهزته الجسمية المختلفة:﴿ أكفرتَ بالَّذي خلقكَ مِن تُراب ﴾

وهي تبين أن هذا الجسد الذي نشأ من الأرض لا يستغني بطبيعته عن إمداد الأرض لوجوده، من الطعام والشراب واللباس والسكن.. ﴿ وَما جَعَلناهُمْ جَسداً لا يأكُلون الطَّعامَ ﴾ (الأنبياء: ٨).

وهي تبين أن التوافق في التكوين الطبيعي بين الإنسان والطبيعة تام ومتناسق، فكلّ ما يحتاجه الإنسان

---

(١) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة:١١٥.

(٢) انظر مقالا بعنوان: كيف تعامل الإسلام مع الجسد؟ من موقع (البلاغ) الموسوعة الإسلامية.

لاستمرار الحياة متوفر في عالم الطبيعة ومتنام فيها.. ﴿ وَبارَكَ فيها وقدّرَ فيها أقواتَها في أربعةِ أيّام سواءً للسّائلينَ ﴾ (فصّلت: ١٠).. ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ ذَلولاً ﴾ (الملك: ١٥)

وهي تبين أن كلّ ما في الأرض، من خيرات وطيّبات، حلال طيّب ومباح لكافة بني الإنسان، دون تفريق أو تمييز، فحكمة الله، وعدله تقضيان بأن تتوفر لكلّ إنسان حاجته وحقّه المقرر له في الحياة:﴿ يا أَيُّها النّاس كُلُوا مِمّا فِي الأَرضِ حَلالاً طَيِّباً ﴾ (البقرة: ١٦٨)

انطلاقا من هذا.. فقد جاء الإسلام بشريعة تحرص على حفظ الحياة، وتتجاوب مع حاجات التكوين، فاستوعب بشريعته كل تلك الحاجات الإنسانية الطبيعية وقام بتنظيمها في مجالها الطبيعي المحدّد لها.

فقد أمر بمد الجسم بحاجاته المختلفة من الطعام والشراب، باعتبارهما من نعم الله على عباده:﴿ فَلْينظر الإنسان إلى طَعَامِهِ ﴾ (عبس: ٢٤)

وقد قاوم الإسلام لهذا محاربة الجسد، والحرمان من الطعام والشراب واللذائذ المحلّلة، تلك المحاربة التي دعا لها المترهّبون وأمثالهم ممّن يعتقدون أنّ محاربة الجسد، وتعذيبه بالجوع، والعطش، والحرمان يؤدي إلى تقوية الروح، وتنمية الملكات النفسيّة والأخلاقيّة.

فقد استنكر القرآن على هؤلاء المنحرفين موقفهم هذا من المتع الجسديّة، والطيّبات التي أنعم الله بها على عباده، فقال:﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينةَ اللهِ الَّتِي أخرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزق ﴾ (الأعراف: ٣٢)

قلت: فما الشرط الرابع؟

قالت: تحمل تلك العقوبات الشديدة في حال التفريط في الطقوس الكثيرة التي يتطلبها نظام الرهبانية..

سأذكر لك نموذجا عن بعض ذلك من تعاليم القديس (كولمبان) الذي أسس الأديرة في جبال الفوج بفرنسا.. فمن تعاليمه:« يجب أن تصوم كل يوم وتصلى كل يوم وتعمل كل يوم وتقرأ كل يوم، وعلى الراهب أن يعيش تحت حكم أب واحد »

« ويجب أن يأوي إلى الفراش وهو متعب يكاد يغلبه النوم وهو سائر في الطريق »

وكانت العقوبات صارمة أكثر ما تكون بالجلد: ستة سياط إذا سعل وهو يبدأ ترنيمة أو نسى أن يدرم أظافره قبل تلاوة القداس، أو تبسم أثناء الصلاة، أو قرع القدح بأسنانه أثناء العشاء الربانى.. وكانت اثنا عشر سوطاً عقاب الراهب إذا نسى أن يدعو الله قبل الطعام وخمسون عقاب المتأخر عن الصلاة، ومائة لمن يشترك في نزاع ومئتان لمن يتحدث من غير احتشام مع امرأة.

وأقام (كولمبان) نظام الحمد الذى لا ينقطع، فكانت الأوراد يتلوها بلا انقطاع ليلاً ونهاراً طائفة بعد طائفة من الرهبان يوجهونها إلى عيسى ومريم والقديسين[1].

ولم يقتصر الأمر على ما ذكره بل تجاوز ذلك إلى تصرفات جنونية تشمئز لها الفطر السليمة، ابتدعها بعض الرهبان ليعبروا عن قوة إيمانهم وعمق إخلاصهم لمبدئهم.

---

(١) قصة الحضارة ١٤: ٣٦٥.

وقد روى المؤرخون من ذلك عجائب فحدثوا عن الراهب ماكاريوس أنه نام ستة أشهر في مستنقع ليقرض جسمه العاري ذباب سام، وكان يحمل دائما نحو قنطار من حديد وكان صاحبه الراهب يوسيبيس يحمل نحو قنطارين من حديد.. وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نزح ... وقد عبد الراهب يوحنا ثلاث سنين قائما على رجل واحدة و لم ينم و لم يقعد طوال هذه المدة، فإذا تعب جداً أسند ظهره إلى صخرة.

وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائما، وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام.. وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش.

وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون من غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأنقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس، يقول الراهب اثهينس أن الراهب أنتونى لم يقترف إثم غسل الرجلين طوال عمره، وكان الراهب أبرا هام لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين عاماً، وقد قال الراهب الإسكندري بعد زمان متلهفاً: و أسفاه، لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حراماً، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات[1].

وهناك راهب منعزل اخترع درجة جديدة من الورع يربط نفسه بسلسلة إلى صخرة في غار ضيق[2].

أما القديس كولمبان فــ (كانت السناجب تجثم على كتفيه فتدخل في قلنسوته وتخرج منها، وهو ساكن .[3]

وفوق هذا كله.. فقد كان الرهبان يتجولون في البلاد ويختطفون الأطفال ويهبوهم إلى الصحراء والأديار، وينتزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ويربوهم تربية رهبانية، والحكومة لا تملك من الأمر شيئا، والجمهور والدهماء يؤيدوهم ويحبذون الذين يهجرون آباءهم وأمهاتهم ويختارون الرهبانية ويهتفون باسمها، وعرف كبار الرهبان ومشاهير التاريخ النصراني بالمهارة في التهريب، حتى روي أن الأمهات كن يسترن أولادهن في البيوت إذا رأين الراهب (أمبروز) وأصبح الآباء والأولياء لا يملكون من أولادهم شيئا، وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقسوس.

فكان الرهبان الذين تفيض قلوبهم حنانا ورحمة، وعيونهم من الدمع، تقسو قلوبهم وتجمد عيونهم على الآباء والأمهات والأولاد، فيخلفون الأمهات ثكالى، والأزواج أيامى، والأولاد يتامى، عالة يتكففون الناس، ويتوجهون قاصدين الصحراء، همهم الوحيد أن ينقذوا أنفسهم في الآخرة، لا يبالون ماتوا أو عاشوا، وحكي (ليكي) من ذلك حكايات تدمع العين وتحزن القلب.

قلت: فكيف أطاقوا تحمل كل هذا العناء؟

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ١٦٨.

(٢) معالم تاريخ الإنسانية: ٧٣٢.

(٣) قصة الحضارة: ١٤: ٣٥٦.

قالت: ومن ذكر لك بأهم أطاقوا.. لقد تمردوا على فطرهم، فتمردت عليهم..

لقد قال رئيس دير كلوني:« إن بعض رجال الدين في الأديرة وفي خارجها يستهترون بابن العذراء استهتاراً يستبيحون معه ارتكاب الفحشاء في ساحاته نفسها، بل في تلك البيوت التي أنشأها المؤمنين الخاشعون لكي تكون ملاذاً للعفة والطهارة في حرمها المسور، لقد فاضت هذه البيوت بالدعارة حتى أصبحت مريم العذراء لا تجد مكاناً تضع فيه الطفل عيسى »[1]

لقد أدى التزمت والغلو في الدين ومغالبة الطبع السوي والفطرة السليمة إلى نتيجة عكسية تماماً، وأصبحت الأديرة مباءات للفجور والفسق وتضرب بها الأمثلة في ذلك، وقد وصل الحال بمسيحيي الشرق ـــ وربما كانوا أكثر حياء وأشد تمسكاً إلى حد أن المستهترين من الخلفاء والشعراء المجان كانوا يرتدون الأديرة كما يرتاد رواد الدعارة اليوم بيوت العهر وألفوا في ذلك كتباً منها (الديارات) المعروف في الأدب العربي[2].

***

ما وصلت (آنا ماري شميل) من حديثها إلى هذا الموضع حتى امتلأت عينيها بمدامع لم تملك حبسها، فقلت: ما الذي يبكيك؟

قالت: لقد ذكرت صديقة لي كتبت كتابا سمته (الحج الى مكة)، وقد طبع بالعربية تحت عنوان (البحث عن الله)..

قاطعتها قائلا: تقصدين اللادي ايفلين كوبولد، تلك النبيلة الإنكليزية، التي اعتنقت الإسلام وزارت الحجاز، وحجت حج المسلمين، وكتبت مذكراها عن رحلتها تلك في ذلك الكتاب.

قالت: أجل.. لقد استطاعت أن تحطم كل الجدران والحجب التي كانت تحول بينها وبين الإسلام..

لقد كانت تقول:« سألني كثيرون كيف ومتى أسلمت؟ وجوابي على ذلك أنه يصعب عليّ تعيين الوقت الذي سطعت فيه حقيقة الإسلام أمامي فارتضيت الإسلام دينًا. ويغلب على ظني أنني مسلمة منذ نشأتي الأولى. وليس هذا غريبًا إذا ما راح المرء يفكر بأن الإسلام هو الدين الطبيعي الذي يتقبله المرء فيما لو ترك لنفسه ولم يفرض عليه أبواه الدين الذي يعتنقانه فرضًا. ألم يصف أحد مشاهير النقاد في أوروبا: (بأنه دين العقل والإنسانية)؟ [3]

وكانت تقول:« الإسلام كلمة تعني التسليم لله، وهي تعني السلام أيضًا، ويعرف المسلم بأنه الرجل الذي يسير في حياته وفاقًا لمشيئة خالقه وأوامره والذي يعيش بسلام مع الله وعباده. ولعل أجمل ما في الإسلام ما يضطرب فيه من وحدانية إلهية، وأخوة إنسانية، وخلوه عن التقاليد والبدع والتصاقه اللصوق كله بما في الحياة

---

(١) قصة الحضارة: ١٤٥: ٣٧٢.

(٢) كتبه أب الحسن السابشتي.

(٣) البحث عن الله، ص ٩.

من أمور عملية.. والإيمان في القرآن إنما يقوم على العمل الصالح وليس هناك في الإسلام إيمان دون ما عمل صالح أبدًا »[1]

وكانت تقول:« إن روحانية الإسلام قوية شديدة، فهي أبدًا تدفع المسلمين بعضهم إلى بعض وتجعل منهم قوة إنسانية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر مما لا يوجد مثله في العالم الحاضر »[2]

وكانت تقول:« الإسلام دين حي، حي في قلوب أتباعه ومريديه، وهو دين كلما تقدمت به الأيام زادت حيويته وقوي أمره وتبسط سلطانه وفشت دعوته ولولا ذلك لما أمكنه أن يعيش وأن يظل محتفظًا بقوته وتأثيره وحب أتباعه له »[3]

قلت: فما الذي يحول بينك وبين سلوك سبيلها؟

تنفست الصعداء، ثم قالت: حجب كثيرة.. لكني لن أستسلم لها.. يوشك أن أقطعها حجابا حجابا حتى أصل إلى تلك الشمس المضيئة التي شملت بأشعتها أركان العالم.

قالت ذلك، ثم قامت، وكأنها تهم بشيء..

أما أنا، فقد بقيت أتأمل تلك الأزهار الجميلة من عباد الشمس.. وقد عرفت سر الدواليب التي تحركها الشمس.

وفي ذلك المحل المبارك تنزلت علي أشعة جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

---

(١) البحث عن الله، ص ١٣.

(٢) البحث عن الله، ص ١٣

(٣) البحث عن الله، ص١٣.

سادسا ــ سلام

في اليوم السادس من تلك الأيام العشرة المباركة التقيت المستشرق الذي قطفت على يده ثمرة السلام من شجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٣٠)

وسر قوله تعالى:﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة:٢٨)

وسر قوله تعالى:﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: من الآية٤٠).. وقوله تعالى:﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤)

وعرفت بها سر قوله ﷺ:«:« لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما »[1]

وسر قوله ﷺ:« يأتي القاتل متعلقا رأسه بأحدى يديه متلببا قاتله بيده الاخرى تشخب أوداجه دما حتى يأتي به تحت العرش فيقول المقتول لله: رب هذا قتلني! فيقول الله للقاتل: تعست! ويذهب به إلى النار »[2]

فهذه النصوص المقدسة تخبر عن عظم قدسية الروح الإنسانية.. وعظم جرم القتل.. وأنه لا يباح إلا للضرورات الشديدة، وبالحدود التي تحفظ المصالح.

***

كان من ضمن الأسماء الموجودة بالدفتر الذي سلمني إياه المرشد اسم (مكسيم رودنسون)[3].. وقد تعجبت

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الطبراني في الكبير.

(٣) هو مكسيم رودنسون (١٩١٥-)Maxime Rodinson مفكر ماركسي ومستشرق فرنسي من أصل يهودي، وُلد في باريس عام ١٩١٥، وكان أبوه أحد مؤسسي اتحاد نقابات العمال اليهود في باريس، تلقَّى تعليمه الابتدائي في باريس ثم عمل كصبي تشهيلات قبل التحاقه بقسم اللغات الشرقية الحية في السوربون حيث درس اللغات السامية والإثنوجرافيا وعلم الاجتماع.

خدم في الجيش الفرنسي في سوريا أثناء الحرب العالمية الثانية، وبقي لمدة ٧ سنوات في لبنان حيث عمل كمدرس في مدارس إسلامية ثانوية وكموظف في الإدارة الفرنسية في سوريا ولبنان، وفي هذه الفترة قام بزيارات متعددة لمختلف دول الشرق الأوسط.

انضم للحزب الشيوعي الفرنسي عام ١٩٣٧، وتعرف إلى الشيوعيين والماركسيين واليسار العربي إبان إقامته في المنطقة، أصدر نشرة الشرق الأوسط الشهرية السياسية عامي ١٩٥٠ و١٩٥١، وذلك بعد عودته لفرنسا عام ١٩٤٧. وترك الحزب الشيوعي

كثيرا من وضعه في القائمة مع كونه مفكرا ماركسيا، وهو في ذات الوقت يرجع إلى أصل يهودي.. وهو بذلك قد اجتمعت فيه جميع أسباب العداوة للإسلام من ماركسية تعادي الأديان، ومن يهودية تعادي الإنسان.

لكني عندما رأيته، وسمعت حديثه زال عجبي من ذلك، وعرفت أن ماركسيته نوع من الهروب من يهوديته..

في ذلك اليوم سرت إلى الجبل الذي كان يجثم بجلال في ضاحية باريس.. وكان بهذا الجبل غابة زيتون

الفرنسي عام ١٩٥٨، ولكنه استمر في صفوف اليسار الماركسي يعمل مديراً لقسم الشرق الأوسط في المعهد التطبيقي للدراسات العليات بالسوربون.

له مؤلفات عديدة حول الإسلام والعروبة والمسألة اليهودية، من بينها: الإسلام والرأسمالية (١٩٦٦)، وإسرائيل والرفض العربي (١٩٦٨)، والإسلام والماركسية (١٩٧٢)، وإسرائيل واقع استعماري (١٩٧٣)، والعرب (١٩٧٩)، ومحمد (١٩٧٩)، وشعب يهودي أم مسألة يهودية (١٩٨١).

وهو يذهب إلى أن المنطق الصهيوني منطق إحلالي يقوم على الإحلال القسري للسكان (العرب) بغيرهم (اليهود)، ومن ثم فهو عدواني واستعماري وعنصري، وهذا يعني أن الدولة الصهيونية دولة لخدمة الاستعمار ارتبطت – كحركة – بالاستعمار البريطاني منذ نشأتها ثم بالإمبريالية الأمريكية فيما بعد.

والعنصرية التي تقوم عليها الفكرة الصهيونية ودولة إسرائيل تؤدي إلى سيادة القيم الإسبرطية أي قيم المحاربين الدائمين، وهو المنطق الذي يحكم قادة إسرائيل.

وهو يرى أن هذا المنطق نفسه قد أوصل المشروع الصهيوني إلى طريق مسدود، فلا يمكن تخيل بشر في حالة استنفار دائم. وتلجأ إسرائيل إلى المغامرات العسكرية وذلك لتهدئة حالة التهيج والاستنفار المستمرين بين المستوطنين وتنفيس الطاقة العدوانية لديهم.

وهذا، بدوره، يخلق توترات جديدة ويزيد الاستنفار والتهيج، وهكذا في حلقة مفرغة مدمرة. ومن ثم، فإن التناقضات الداخلية تأكل الدولة الصهيونية من الداخل والمنظمات الصهيونية تتخبط في صراعات داخلية مدمرة.

ويرى أن الصهيونية هي نتيجة ظاهرة معاداة اليهود، ويشير إلى أن معظم اليهود في أوربا كانوا في طريقهم للاندماج، ثم جاءت النازية لتقدم فرصة نادرة للحركة الصهيونية وتبث الروح فيها.

وقد لعب دوراً مهماً في تقريب وجهات النظر وتسهيل الحوار بين منظمة التحرير الفلسطينية وبعض الجماعات المعتدلة واليسارية في إسرائيل، وذلك من منطلق إيمانه بالقيم الإنسانية العامة، بيد أنه لا يرى نفعاً كبيراً من هذا الحوار في أحسن الأحوال. فالحوار يفيد فقط في إطار الإستراتيجية العامة للطرفين المتحاورين، لكن القادة الإسرائيليين أفهموا شعبهم أن الفلسطيني حيوان يسير منتصب القامة، وأن الفلسطينيين من جانبهم يرفضون الحوار مع الإسرائيليين.

ويرى رودنسون أن الغربيين يتأثرون كثيراً بما يحدث في إسرائيل أكثر مما يحدث في الدول العربية حيث لا يأبهون بما يحدث في هذه البلاد كثيراً أو لا يأبهون بها على الإطلاق، فلا تزال المشاعر العنصرية وآثارها السياسية تطغى على حياة الغربيين. ويضرب رودنسون مثالاً لذلك بتزايد نمو الأحزاب العنصرية والنازية في الغرب الأوربي، ولذا فهو لا يعتقد في أطروحات غياب الإعلام العربي وتغيير الحالة الذهنية الغربية، لأنه يرى أن المسألة أعقد كثيراً من ذلك وترجع إلى الطبيعة العنصرية الأساسية في بنية الحضارة الغربية. (انظر: الموسوعة اليهودية، المسيري، وانظر فيها فصلا مهما حول [شخصيات ومنظمات يهودية معادية للصهيونية]

كأنها ولدت مع ميلاد الإنسان.

وقد احترت إذ رأيت جزءا مهما من تلك الغابة قد طوق بأسوار من حديد مكهرب ليمنع أي داخل، ورأيت خارج تلك الغابة شابا يافعا ممتلئا شبابا جالسا ينظر إلى تلك الأشجار المقيدة بقيود الحديد والكهرباء..

اقتربت منه، وسألته عن سر حزنه، وسر أشجار الزيتون المطوقة بتلك الأغلال القاسية.

قال لي: هذه الأشجار لي.. ورثتها عن سلسلة طويلة من الجدود.. ولم يشك أحد في يوم من الأيام أنها لي.. ولم يخطر على بال أحد في يوم من الأيام أن تنزع مني.

قلت: فمن الذي نزعها منك؟.. وما الذي جعله ينزعها منك؟

قال: رجل يهودي قاسي القلب محجر الفؤاد.. له مال عريض.. وجاه مكين، اشترى به ذمم القضاة والمحاكم والشرطة والجيش.. ولم يترك أحدا إلا رشاه.. وزور لأجل ذلك كتبا سماها كتبا مقدسة تعده بأرضي وبزيتوني.

قلت: فمن الذي أغراه بأرضك دون الأراضي!؟

قال: قوم من الحاقدين.

قلت: عليك أم عليه!؟

قال: علي وعليه..

قلت: كيف يستقيم هذا؟

قال: لقد كره الحاقدون مقامه بينهم، فأرادوا نفيه عنهم، فلم يجدوا غير أرضي..

قلت: ولم اختاروك أنت؟

قال: لعلمهم بإبائي ورسوخي في أرضي، وتضحيتي بكل شيء في سبيلها.

قلت: فهل ستقاومه؟

قال: جبان أنا إن لم أقاومه.. مقاومته واجب إنساني، وخلق رفيع.

قلت: ولكنك تملك الزيتون الذي هو رمز السلام.

قال: ولكني لو تركت له زيتوني فسيحرقه ويدمره.. ويؤسس في أرض الزيتون مصانع سلاح يدمر بها العالم.

قلت: ولكنك ــ إن قاومته ــ سيرمونك بالإرهاب.

قال: قد فعلوا ذلك.. ويوشك أن يرموني في سجونهم.. ولكني مع ذلك لم أيأس، ولن أيأس.. فسيخلفني من يقوم في وجوههم، ومن ينتزع منهم أرضي، ويحمي زيتوني.

في ذلك الموقف.. التقيت (مكسيم رودنسون)

جاء، ومعه محفظته التي يحمل فيها كتبه، ومعها قفة يحمل فيها طعاما إلى ذلك الشاب، وما إن رآه الشاب حتى راح يصافحه بحرارة.

سألت الشاب أن يعرفني بهذا الرجل الطيب، فقال لي: هذا (مكسيم رودنسون)..هو ابن عم لذلك

المغتصب الظالم.. ولكنه يبغضه أشد البغض، ويحاربه أعنف حرب.

ملأ السرور قلبي في تلك اللحظة، فقد كنت محتارا في الطريقة التي أدخل بها عالم هذا الرجل.

ابتدأته بقولي: أنت الأستاذ (مكسيم رودنسون) المستشرق والمفكر..

قاطعني، وقال: والباحث عن السلام.. البحث عن السلام هو وظيفتي الكبرى التي لا تراها العيون.

قلت: ما تقصد؟

قال: إن حياتي كلها بحث عن السلام.. لقد ولدت في بيئة تمتلئ حربا وبغضا وأحقادا.. ولذلك تراني أفر من موضع إلى موضع.. ومن بلد إلى بلد.. ومن مذهب إلى مذهب.. لا لشيء إلا لأجل البحث عن السلام.

قلت: فلم تبحث عن السلام؟

قال: لأنه لا حياة بلا سلام.. السلام هو الوسط الصحيح الذي تنمو فيه شجرة الإنسانية.. فلا يمكن لشجرة الإنسانية أن تؤتي ثمارا طيبة، وهي مختنقة بنيران الحرب.

انظر إلى هذا الزيتون المسكين المحاصر.. ألا ترى إلى دموعه، وهي تنحدر كما تنحدر السيول!؟

إن هذا الزيتون الذي يمثل السلام يريد الحاقدون خنقه ليؤسسوا على أنقاضه شجرة الدمار التي لا تثمر غير سفك الدماء.

قلت: فهل وجدت السلام؟

قال: وجدته..

قلت: كيف وجدته؟

قال: وجدته محاصرا كما يحاصر هذا الزيتون.

قلت: أين وجدته؟.. ومن غرس شجرته؟

قال: وجدته في الإسلام.. وقد غرس شجرته محمد.

تعجبت كثيرا من قوله هذا، فقلت: لقد علمت أنك شيوعي يهودي.. فكيف تقول هذا؟

قال: أقول الحقيقة التي يمتلئ بها قلبي، ولكن لساني يعجز عن التعبير عنها.

قلت: ولكني أرى الناس جميعا مجمعون على أن الإسلام دين الإرهاب، وأن المسلمين هم ممثلو الإرهاب في العالم.

قال: ألم تر إلى هذا الشاب المسكين الممتلئ حزنا؟

قلت: بلى.. لقد كنت أتحدث معه الساعة.

قال: إنهم يسمونه (إرهابيا)

قلت: لقد أخبرني بذلك.

قال: لو أن هذه الشاب المسكين لم يطوق حقله، ولم يخرج من أرضه، أتراه يحمل السلاح على عدوه؟

قلت: لا أراه يفعل ذلك.. فبراءة السلام بين عينيه.

قال: وهكذا المسلمون المساكين.. احتلوا أرضهم.. وقتلوا أطفالهم.. ونهبوا خيراتهم.. ومنعوهم من كل

شيء حتى من الكلام.. فإذا قام أحدهم ورمى حجرا ليعبر عن إبائه سموه إرهابيا..

قلت: لقد ذكرت لي أنك لم تجد السلام إلا في الإسلام، وعند محمد.

قال: ذلك بحث طويل.. لقد فتشت الأديان والمذاهب والفلسفات والأفكار أبحث عن السلام الشامل.. فلم أجده إلا في دين محمد.

قلت: فهل تحدثني بخلاصة أبحاثك؟

قال: أجل.. يسرني ذلك كل السرور.. فأنا لا هم لي إلا التبشير بهذا.

١ ــ سلام الجاهلية

قلت: بم نبدأ حديثنا عن السلام؟

قال: بالجاهلية.

قلت: بجاهلية العرب!؟

قال: بجاهلية العالم.. فلا يعرف فضل الجمال إلا بمقارنته بالدمامة.. ولا يعرف فضل السلام إلا بمقارنته بالصراع.. ولا يعرف فضل الإسلام إلا بمقارنته بالجاهلية.. كما لا تعرف الثمرة الطيبة إلا بمقارنتها بالثمرة الخبيثة.

اليهودية

قلت: فبأي ثمرة خبيثة نبدأ؟

قال: باليهودية.

قلت: هي دينك الذي ينتمي إليه أبوك وجدك.

قال: من أراد أن يبحث عن الحقيقة فعليه أن يقطع جذوره، ويطلق أباه وجده.

قلت: إن اليهود شعب مضطهد، وقد عانى في حياته الأمرين.. فكيف تعتبره عدوا للسلام؟

قال: إن عداوته للسلام تنطلق من دينه ومعتقداته.. فهو يمارس الإرهاب عبادة لا عادة..

قلت: ما تقول؟

قال: ألا تعرف سفر حزقيال؟

قلت: هو سفر من أسفار كتابنا المقدس في عهده القديم.

قال: نعم.. وهو قاسم مشترك بينكم وبيننا.. ولذلك، فإن لكم شبها عظيما بنا.. أتدري بماذا يوصينا الرب في هذا السفر الغالي الذي اشتركنا في وراثته؟

قلت: بم؟

أخرج الكتاب المقدس من محفظته، وفتحها على هذا السفر، وقال: الرب ــ في هذا السفر المقدس ــ يأمر بقتل النساء والاطفال والشيوخ والبهائم، فيقول:« اعْبُرُوا فِي الْمَدِينَةِ خَلْفَهُ وَاقْتُلُوا. لاَ تَتَرَأَّفْ عُيُونُكُمْ وَلاَ تَعْفُوا. أَهْلِكُوا الشَّيْخَ وَالشَّابَّ وَالْعَذْرَاءَ وَالطِّفْلَ وَالنِّسَاءَ. وَلَكِنْ لاَ تَقْرَبُوا مِنْ أَيِّ إِنْسَانٍ عَلَيْهِ السِّمَةُ، وَابْتَدِئُوا مِنْ قُدْسِي». فَابْتَدَأُوا يُهْلِكُونَ الرِّجَالَ وَالشُّيُوخَ الْمَوْجُودِينَ أَمَامَ الْهَيْكَلِ. وَقَالَ لَهُمْ: «نَجِّسُوا الْهَيْكَلَ وَامْلأُوا سَاحَاتِهِ بِالْقَتْلَى، ثُمَّ اخْرُجُوا». فَانْدَفَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَشَرَعُوا يَقْتُلُون » (حزقيال٩: ٥-٧)

التفت إلي، وقال: هل سمعت.. إن الكتاب المقدس هو الكتاب الوحيد في الدنيا.. الذي يأمر بقتل الأطفال؟

ليس هذا فقط.. اسمع ما يقول سفر العدد (٣١: ١-١٨):« وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: انْتَقِمْ مِنَ الْمِدْيَانِيِّينَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَبَعْدَهَا تَمُوتُ وَتَنْضَمُّ إِلَى قَوْمِكَ. فَقَالَ مُوسَى لِلشَّعْبِ: «جَهِّزُوا مِنْكُمْ رِجَالاً مُجَنَّدِينَ لِمُحَارَبَةِ

الْمِدْيَانِيِّينَ وَالانْتِقَامِ لِلرَّبِّ مِنْهُمْ.... فَحَارَبُوا الْمِدْيَانِيِّينَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ وَقَتَلُوا كُلَّ ذَكَرٍ؛ وَقَتَلُوا مَعَهُمْ مُلُوكَهُمُ الْخَمْسَةَ: أُوِيَ وَرَاقِمَ وَصُورَ وَحُورَ وَرَابِعَ، كَمَا قَتَلُوا بَلْعَامَ بْنَ بَعُورَ بِحَدِّ السَّيْفِ. وَأَسَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ نِسَاءَ الْمِدْيَانِيِّينَ وَأَطْفَالَهُمْ، وَغَنِمُوا جَمِيعَ بَهَائِمِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ وَسَائِرَ أَمْلاَكِهِمْ، وَأَحْرَقُوا مُدُنَهُمْ كُلَّهَا بِمَسَاكِنِهَا وَحُصُونِهَا، وَاسْتَوْلَوْا عَلَى كُلِّ الْغَنَائِمِ وَالأَسْلاَب مِنَ النَّاسِ وَالْحَيَوَانِ.... فَخَرَجَ مُوسَى وَأَلِعَازَارُ وَكُلُّ قَادَةِ إِسْرَائِيلَ لاِسْتِقْبَالِهِمْ إِلَى خَارِجِ الْمُخَيَّمِ، فَأَبْدَى مُوسَى سَخَطَهُ عَلَى قَادَةِ الْجَيْشِ مِنْ رُؤَسَاءِ الأُلُوفِ وَرُؤَسَاءِ الْمِئَاتِ الْقَادِمِينَ مِنَ الْحَرْبِ، وَقَالَ لَهُمْ: لِمَاذَا اسْتَحْيَيْتُمُ النِّسَاءَ؟ إِنَّهُنَّ بِاتِّبَاعِهِنَّ نَصِيحَةَ بَلْعَامَ أَغْوَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِعِبَادَةِ فَغُورَ، وَكُنَّ سَبَبَ خِيَانَةٍ لِلرَّبِّ، فَتَفَشَّى الْوَبَأُ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. فَالآنَ اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ، وَاقْتُلُوا أَيْضاً كُلَّ امْرَأَةٍ ضَاجَعَتْ رَجُلاً، وَلَكِنِ اسْتَحْيُوا لَكُمْ كُلَّ عَذْرَاءَ لَمْ تُضَاجِعْ رَجُلاً »

ليس هذا فقط.. لقد جاء في سفر يشوع (٦: ١٦):« قَالَ يَشُوعُ لِلشَّعْبِ: اهْتِفُوا، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ وَهَبَكُمُ الْمَدِينَةَ. وَاجْعَلُوا الْمَدِينَةَ وَكُلَّ مَا فِيهَا مُحَرَّماً لِلرَّبِّ.. أَمَّا كُلُّ غَنَائِمِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ وَآنِيَةِ النُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ، فَتُخَصَّصُ لِلرَّبِّ وَتُحْفَظُ فِي خِزَانَتِهِ. فَهَتَفَ الشَّعْبُ، وَنَفَخَ الْكَهَنَةُ فِي الأَبْوَاقِ. وَكَانَ هُتَافُ الشَّعْبِ لَدَى سَمَاعِهِمْ صَوْتَ نَفْخِ الأَبْوَاقِ عَظِيماً، فَانْهَارَ السُّورُ فِي مَوْضِعِهِ. فَانْدَفَعَ الشَّعْبُ نَحْوَ الْمَدِينَةِ كُلٌّ إِلَى وِجْهَتِهِ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا. وَدَمَّرُوا الْمَدِينَةَ وَقَضَوْا بِحَدِّ السَّيْفِ عَلَى كُلِّ مَنْ فِيهَا مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ وَأَطْفَالٍ وَشُيُوخٍ حَتَّى الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالْحَمِيرِ »

ليس هذا فقط.. لقد جاء في سفر هوشع (١٣: ١٦) يقول الرب:« تجازى السامرة لأنها تمردت على إلهها. بالسيف يسقطون. تحطم أطفالهم، والحوامل تشق »

.. وفي سفر إشعيا (١٣: ١٦) يقول الرب:« وتحطم أطفالهم أمام عيونهم وتنهب بيوتهم وتفضح نساؤهم »

التفت إلي، وقال: اسمع هذه التشريعات الإرهابية القاسية التي يأمر بها الكتاب المقدس.. لقد جاء في سفر التثنية (٢٠: ١٠-١٥) قول الرب:« حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها الى الصلح، فإن أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها. واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. واما النساء والاطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة اعدائك التي اعطاك الرب الهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الامم هنا »

ليس هذا فقط.. اسمع إلى تشريعات الإبادة التي يأمر بها إله الكتاب المقدس..

لقد جاء في سفر التثنية (٢٠: ١٦):« أما مُدُنُ الشُّعُوب الَّتِي يَهَبُهَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ لَكُمْ مِيرَاثاً فَلاَ تَسْتَبْقُوا فِيهَا نَسَمَةً حَيَّةً، بَلْ دَمِّرُوهَا عَنْ بِكْرَةِ أَبِيهَا، كَمُدُنِ الْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ كَمَا أَمَرَكُمُ الرَّبُّ إِلَهُكُمْ »

التفت إلي، وقال: لا أظن هتلر قام بفعلته الشنيعة ــ إن كان فعلها ــ إلا بعد قراءة هذا النص.. لقد

خشي على قومه أن يضموا إلى هذه الأجناس التي أمر بإبادتهم، فراح يتغذى بهم قبل أن يتعشوا بقومه[1].

ليس هذا فقط.. فأوامر الرب بالقيام بالمذابح والمجازر في الكتاب المقدس لا تنتهي.. لقد جاء في سفر صموئيل الأول (١٥: ٣ –٥):« وَقَالَ صَمُوئِيلُ لِشَاوُلَ: «أَنَا الَّذِي أَرْسَلَنِي الرَّبُّ لأُنَصِّبَكَ مَلِكاً عَلَى إِسْرَائِيلَ، فَاسْمَعِ الآنَ كَلاَمَ الرَّبِّ. هَذَا مَا يَقُولُهُ رَبُّ الْجُنُودِ: إِنِّي مُزْمِعٌ أَنْ أُعَاقِبَ عَمَالِيقَ جَزَاءَ مَا ارْتَكَبَهُ فِي حَقِّ الإِسْرَائِيلِيِّينَ حِينَ تَصَدَّى لَهُمْ فِي الطَّرِيقِ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ. فَاذْهَبِ الآنَ وَهَاجِمْ عَمَالِيقَ وَاقْضِ عَلَى كُلِّ مَالَهُ. لاَ تَعْفُ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ بَلِ اقْتُلْهُمْ جَمِيعاً رِجَالاً وَنِسَاءً، وَأَطْفَالاً وَرُضَّعاً، بَقَراً وَغَنَماً، جِمَالاً وَحَمِيراً »

ولهذا.. فإن من أهم أوصاف الرب أنه إله النقمات.. لقد جاء في مزمور(٩٤: ١): « يا إله النقمات.. يا رب.. يا إله النقمات ».. وفي (تثنية: ٤:٢٤):« لأن الرب الهك هو نار آكلة اله غيور ».. وفي (أشعياء:٦٦: ١٦):« لأن الرب بالنار يعاقب وبسيفه على كل بشر ويكثر قتلى الرب».. وفي (ارميا ٤٨:١٠):« ملعون من يعمل عمل الرب برخاء وملعون من يمنع سيفه عن الدم ».. لقد قال مثل هذا بولس في رسالته إلى العبرانيين (١٢: ٢٩):« لأن إلهنا ناراً آكلة »

ليس الأمر قاصرا على القتل والدمار.. هناك إرهاب الاغتصاب والسرقة.. يقول الرب لموسى:« تدخل أَنْتَ وَشُيُوخُ إِسْرَائِيلَ أَمَامَ مَلِكِ مِصْرَ وَتَقُولُ لَهُ: إِنَّ الرَّبَّ إِلَهَ الْعِبْرَانِيِّينَ قَدْ تَفَقَّدَنَا، فَدَعْنَا نَمْضِي مَسِيرَةَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي الْبَرِّيَّةِ وَنُقَدِّمُ ذَبَائِحَ لِلرَّبِّ إِلَهِنَا. وَلَكِنَّنِي عَالِمٌ أَنَّ مَلِكَ مِصْرَ لَنْ يُطْلِقَكُمْ مَا لَمْ تُرْغِمْهُ يَدٌ قَوِيَّةٌ. فَأَمُدُّ يَدِي وأَضْرِبُ مِصْرَ بِجَمِيعِ وَيْلاَتِي الَّتِي أَصْنَعُهَا فِيهَا، وَبَعْدَ ذَلِكَ يُطْلِقُكُمْ. وَأَجْعَلُ هَذَا الشَّعْبَ يَحْظَى بِرِضَى الْمِصْرِيِّينَ، فَلاَ تَخْرُجُونَ فَارِغِينَ حِينَ تَمْضُونَ، بَلْ تَطْلُبُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ جَارَتِهَا أَوْ نَزِيلَةِ بَيْتِهَا جَوَاهِرَ فِضَّةٍ وَذَهَبٍ وَثِيَاباً تُلْبِسُونَهَا بَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ فَتَغْنَمُونَ ذَلِكَ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ » (الخروج: ٣/١٩-٢١)

وقد طبق الإسرائيليون هذه الأوامر بغاية الدقة:« فَصَرَّ الشَّعْبُ فِي ثِيَابِهِمْ مَعَاجِنَهُمْ وَعَجِينَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَخْتَمِرَ، وَحَمَلُوهَا عَلَى أَكْتَافِهِمْ، وَطَلَبُوا مِنَ الْمِصْرِيِّينَ آنِيَةَ فِضَّةٍ وَذَهَباً وَثِيَاباً بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى. وَجَعَلَ الرَّبُّ الشَّعْبَ يَحْظَى بِرِضَى الْمِصْرِيِّينَ، فَأَعْطَوْهُمْ كُلَّ مَا طَلَبُوهُ، فَغَنِمُوا مِنَ الْمِصْرِيِّينَ» (الخروج: ١٢/٣٤-٣٦)

قلت: إن كل ما ذكرته من نصوص أحفظه عن ظهر قلب..

قال: تصور معي عندما يلقن الطفل الصغير هذه النصوص.. وغيرها من النصوص الكثيرة التي تمتلئ بها الأسفار المقدسة..

ثم يلقن بعدها عقدة التفوق العنصري الموهوم لما يسمى بـــ (الشعب المختار).. ويلقن معها شدة الاستهانة بدماء الآخرين من (الأمميين) أو (الأغيار) أو (الجوييم) أو (العامة) أو (الكوفريم) والتي تعني كلها الأصناف البشرية الأخرى غير اليهود.

فإذا وجد هذا الطفل تطلعا للبطولة حكيت له قصة شمشون.. وبطولات شمشون[1].

---

(١) هناك من يذهب إلى أن هتلر يهودي العرق..

فإذا بلغ هذا الطفل لم يجد أمامه إلا العصابات الإرهابية..

قلت: إن اليهود يشكون الإرهاب ويخافون منه.

قال: اللص لا يخاف إلا اللصوص.. ولو لم يكونوا لصوصا لما خافوا أحدا..

الإرهاب ليس حدثاً عابراً عرضياً في أولئك القساة إنما هو أمر كامن في مشروعهم الصهيوني الاستيطاني الإحلالي، وفي الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة.

كما أن حلقات وآليات هذا الإرهاب مترابطة متلاحقة، فالهجمات الإرهابية التي شُنَّت ضد بعض القرى العربية أدَّت إلى استسلام بقية سكان الأراضي المحتلة، أي أن المذابح والاعتقالات والإبعادات إن هي إلا آلية من آليات الاستيطان الصهيوني الإحلالي، ولا يمكن تَخيُّل إمكانية تَحقُّق المشروع الصهيوني بدونها.

والإرهاب الصهيوني هو الآلية التي تم بها تفريغ جزء من فلسطين من سكانها وفرض المستوطنين الصهاينة ودولتهم الصهيونية على شعب فلسطين وأرضها.

وقد تم هذا من خلال الإرهاب المباشر، غير المنظم وغير المؤسسي، الذي تقوم به المنظمات الإرهابية غير الرسمية (المذابح ــ ميليشيات المستوطنين ــ التخريب ــ التمييز العنصري) والإرهاب المباشر، المنظم والمؤسسي، الذي تقوم به الدولة الصهيونية (التهجير ــ الهيكل القانوني للدولة الصهيونية ــ التفرقة العنصرية من خلال القانون ــ الجيش الإسرائيلي ــ الشرطة الإسرائيلية ــ هدم القرى).

وكلا هذين النوعين من الإرهاب (الإرهاب المؤسسي وغير المؤسسي) مرتبطان تمام الارتباط، ويتم

---

(١) شمشون، هو اسم لشخص يُشار إليه أحياناً بأنه آخر القضاة، فقد كان قاضياً من قبيلة دان مدة عشرين سنة، وقد اشتهر بقوته الجسدية الخارقة.

تدور حياته حول مجموعة من المغامرات مع ثلاث نساء فلستيات من غزة. فعند اكتمال شبابه تزوج من امرأة فلستية. وفي إحدى زياراته لها، قابل أسداً فصرعه ثم أكل نحلاً وجده في جثته فيما بعد، وقارع الفلستيين ببعض الأحاجي إذ سألهم: هل رأيتم نحلاً في فم أسد؟ فلم يستطيعوا الإجابة، ولكن زوجته أفشت لهم سرَّه فهجرها، وقتل ثلاثين فلستياً في عسقلون. وعندما عاد إليها، وجد أنها تزوجت من آخر، فأمسك ثلاثة من بنات آوى وأضرم النار في أذنابها وأطلقها على مزارع الفلستيين فاشتعلت فيها النيران. وقد أخذ الفلستيون في الانتقام من العبرانيين الذين طلبوا من شمشون أن يستسلم لهم ليسلموه إلى أعدائه ففعل (ولكن شمشون فك وثاقه وأمسك بفك حمار وقتل ألفاً منهم).

أما محور ثاني المغامرات في حياة شمشون، فهو قصته مع بغيّ من غزة كان يزورها. وبينما كان هو في منزلها، عرف الفلستيون بوجوده وأرادوا أن يفتكوا به وهو منهك القوى. ولكنه استيقظ مبكراً، وخلع بوابات غزة على كتفيه ووضعها على تل في حبرون (الخليل). ثم وقع شمشون في غرام دليلة الفلستية التي يبدو أنها كانت بغياً هي الأخرى. وعرفت دليلة أن سرَّ قوة شمشون في شَعره لأنه كان نذير الرب وهو في بطن أمه. فأتى الفلستيون عليه وهو نائم وجزُّوا شعره وأوثقوه بسلاسل من نحاس وسملوا عينيه ثم أخذوه إلى غزة ووضعوه في السجن. وحينما أخرجوه ليسخروا منه في المعبد دفع شمشون العمودين فسقط المعبد عليه وعلى من فيه فماتوا جميعاً. (انظر: الموسوعة اليهودية، وانظر القصة وتحليلها في (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة)

التنسيق بينهما ويجمع بينهما الهدف النهائي، وهو إفراغ فلسطين من سكانها أو إخضاعهم وحصارهم [1].

لعلك سمعت بواقعة دير ياسين (قبل عام ١٩٤٨)

قلت: أجل.. ولكنها من فعل بعض الرعاع.. ولا يصح أن ننسبها لشعب كامل.

قال: لقد راح ضحية تلك المذبحة زهاء ٢٦٠ فلسطينياً من اهالي القرية العزل.. وكانت هذه المذبحة، وغيرها من اعمال الارهاب والتنكيل، احدى الوسائل التي انتهجتها المنظمات الصهيونية المسلحة من اجل السيطرة على الاوضاع في فلسطين تمهيداً لاقامة الدولة الصهيونية.

لقد أرسل مناحم بيجين برقية تهنئة الى رعنان قائد الارجون المحلي قال فيها:« تهنئتي لكم لهذا الانتصار العظيم، وقل لجنودك انهم صنعوا التاريخ في اسرائيل »

وفي كتابه المعنون الثورة كتب بيجين يقول:« إن مذبحة دير ياسين اسهمت مع غيرها من المجازر الاخرى في تفريغ البلاد من ٦٥٠ الف عربي »، واضاف قائلاً:« لولا دير ياسين لما قامت اسرائيل »

نعم.. لقد حاولت بعض القيادات الصهيونية التنصل من مسئوليتها عن وقوع المذبحة. فوصفها ديفيد شالتيل، قائد قوات الهاجاناه في القدس آنذاك، بانها (اهانة للسلام العبري). وهاجمها حاييم وايزمان ووصفها بانها عمل ارهابي لا يليق بالصهاينة. كما نددت الوكالة اليهودية بالمذبحة. وقد قامت الدعاية الصهيونية على اساس ان مذبحة دير ياسين مجرد استثناء، وليست القاعدة، وان هذه المذبحة تمت دون أي تدخل من جانب القيادات الصهيونية بل ضد رغبتها.. إلا ان السنوات التالية كشفت النقاب عن أدلة دامغة تثبت ان جميع التنظيمات الصهيونية كانت ضالعة في ارتكاب تلك المذبحة وغيرها، سواء بالاشتراك الفعلي في التنفيذ أو بالتواطؤ أو بتقديم الدعم السياسي والمعنوي.

لقد ذكر مناحم بيجين في كتابه الثورة ان الاستيلاء على دير ياسين كان جزءاً من خطة أكبر وان العملية تمت بكامل علم الهاجاناه (وبموافقة قائدها)، وان الاستيلاء على دير ياسين والتمسك بها يعد احدى مراحل المخطط العام رغم الغضب العلني الذي عبر عنه المسئولون في الوكالة اليهودية والمتحدثون الصهاينة.

وذكرت موسوعة الصهيونية واسرائيل (التي حررها العالم الاسرائيلي روفائيل باتاي) ان لجنة العمل الصهيونية (اللجنة التنفيذية الصهيونية) وافقت في مارس من عام ١٩٤٨ على (ترتيبات مؤقتة، يتأكد بمقتضاها الوجود المستقل للارجون، ولكنها جعلت كل خطط الارجون خاضعة للموافقة المسبقة من جانب قيادة الهاجاناه).

وقد جاء في احدى النشرات الاعلامية التي أصدرتها وزارة الخارجية الاسرائيلية ان ما وصف بأنه (المعركة من اجل دير ياسين) كان جزءاً لا يتجزأ من (المعركة من اجل القدس).

وبعد ثلاثة ايام من المذبحة، تم تسليم قرية دير ياسين للهاجاناه لاستخدامها مطاراً.

وقد أرسل عدد من الاساتذة اليهود برسائل الى بن جوريون يدعونه فيها الى ترك منطقة دير ياسين خالية

---

(١) انظر: الصهيونية والعنف...من بداية الاستيطان الى انتفاضة الاقصى، د. عبد الوهاب المسيري.

من المستوطنات، ولكن بن جوريون لم يرد على رسائلهم وخلال شهور استقبلت دير ياسين المهاجرين من يهود شرق أوربا.

وخلال عام من المذبحة صدحت الموسيقى على ارض القرية العربية وأقيمت الاحتفالات التي حضرها مئات الضيوف من صحفيين واعضاء الحكومة الاسرائيلية وعمدة القدس وحاخامات اليهود. وبعث الرئيس الاسرائيلي حاييم وايزمان برقية تهنئة لافتتاح مستوطنة جيفات شاؤول في قرية دير ياسين (مع مرور الزمن توسعت القدس الى ان ضمت ارض دير ياسين اليها لتصبح ضاحية من ضواحي القدس).

وقد عبرت الدولة الصهيونية عن فخرها بمذبحة دير ياسين، بعد ٣٢ عاماً من وقوعها، حيث قررت اطلاق اسماء المنظمات الصهيونية: الارجون، واتسل، والبالماخ، والهاجاناه على شوارع المستوطنة التي اقيمت على اطلال القرية الفلسطينية.

لم تكن دير ياسين هي المذبحة الوحيدة التي قام بها الإرهاب اليهودي..

هناك مذابح كثيرة.. سأذكر لك بعضها لتعرف حقيقة هؤلاء الذين يصمون الإسلام بالإرهاب..

منها مذبحة قريتي الشيخ وحواسة (٣١ ديسمبر عام ١٩٤٧)، حيث انفجرت قنبلة خارج بناء شركة مصفاة بترول حيفا وقتلت وجرحت عدداً من العمال العرب القادمين الى المصفاة. واثر ذلك ثار العمال العرب بالشركة وهاجموا الصهاينة العاملين بالمصفاة بالمعاول والفؤوس وقضبان الحديد وقتلوا وجرحوا منهم نحو ستين صهيونياً. وكان قسم كبير من العمال العرب في هذه المصفاة يقطنون قريتي الشيخ وحواسة الواقعتين جنوب شرق حيفا، ولذا خطط الصهاينة للانتقام بمهامة البلدتين.

وفي ليلة رأس السنة الميلادية ١٩٤٨ بدأ الصهاينة هجومهم بعيد منتصف الليل وكان عدد المهاجمين بين ١٥٠، ٢٠٠ صهيوني ركزوا هجومهم على اطراف البلدتين، ولم يكن لدى العرب سلاح كاف، ولم يتعد الامر وجود حراسات محلية بسيطة في الشوارع.

هاجم الصهاينة البيوت النائية في اطراف هاتين القريتين وقذفوها بالقنابل اليدوية ودخلوا على السكان النائمين وهم يطلقون نيران رشاشاتهم. وقد استمر الهجوم ساعة انسحب اثرها الصهاينة في الساعة الثانية صباحاً بعد ان هاجموا حوالي عشرة بيوت وراح ضحية ذلك الهجوم نحو ٣٠ فرداً بين قتيل وجريح معظمهم من النساء والاطفال وتركوا شواهد من الدماء والاسلحة تدل على عنف المقاومة التي لقوها.

ومنها مذبحة قرية سعسع (١٤ ـــ ١٥ فبراير ١٩٤٨) حيث شنت كتيبة البالماخ الثالثة هجوماً على قرية سعسع، فدمرت ٢٠ منزلاً فوق رؤوس سكانها، وأسفر ذلك عن مقتل ٦٠ عربياً معظمهم من النساء والاطفال. وقد وصفت هذه العملية بانها (مثالية).

ومنها مذبحة رحفوت (٢٧ فبراير ١٩٤٨): حدثت في مدينة حيفا قرب رحوفوت حيث تم نسف قطار القنطرة الامر الذي اسفر عن استشهاد سبعة وعشرين عربياً وجرح ستة وثلاثين آخرين.

ومنها مذبحة كفر حسينية (١٣ مارس ١٩٤٨) حيث قامت الهاجاناه بالهجوم على القرية وقامت بتدميرها وأسفرت المذبحة عن استشهاد ثلاثين عربياً.

ومنها مذبحة بنياميناه (٢٧ مارس ١٩٤٨): حدثت مذبحتان في هذا الموضع حيث تم نسف قطارين، أولهما نسف في ٢٧ مارس واسفر عن استشهاد ٢٤ فلسطينياً عربياً وجرح أكثر من ٦١ آخرين، وتمت عملية النسف الثانية في ٣١ من نفس الشهر حيث استشهد أكثر من ٤٠ عربياً وجرح ٦٠ آخرون.

وغيرها كثير..

بل إن الإرهاب الصهيوني لم يكتف بدعم المؤسسات الرسمية.. بل هو مرتبط كل الارتباط بالدعم الغربي حين قامت حكومة الانتداب بحماية المستوطنين وتأمين موطئ قدم لهم وسمحت بتأسيس البنية التحتية العسكرية المكونة من المستوطنات التعاونية (وبخاصة الكيبوتس) فيما نسميه «الزراعة المسلحة»

كما ساعدت المنظمات الصهيونية المسلحة المختلفة ودعمتها، فكانت بمترلة قوة مسلحة كامنة قامت بالانقضاض على أرض فلسطين وأهلها عام ١٩٤٨.

وبعد إنشاء الدولة، استمرت الدول الغربية التي تسمي نفسها ديموقراطية في دَعْم الكيان الاستيطاني الإحلالي الصهيوني، رغم ممارساته الإرهابية التي تتسم بكل الجدة والاستمرار، ورغم الحروب العديدة التي شنها على العرب ورغم توسعيته التي لا تعرف أية حدود.

قلت: ألا يمكن أن يكون ما حصل من اليهود من إرهاب مجرد رد فعل لما حصل لهم من إذلال؟

قال: رد الفعل يكون لمن فعل الفعل لا لغيره.. هكذا يقول المنطق.. وهكذا تقول القيم النبيلة..

وفي هذه الحالة ينبغي لقومنا أن يوجهوا رد فعلهم للمسيحيين.. لأنه ــ على مدار التاريخ ــ لم يذل اليهود أحد كما أذلهم المسيحيون..

لقد ظل اليهود في نظر العالم المسيحي بأسره (أمة ملعونة) لمدة ألف وخمسمائة عام، لأنهم ــ في اعتقاد المسيحيين ــ قتلة السيد المسيح.

وقد عانى اليهود صنوفا من الاضطهاد والازدراء بناء على هذا التصور الذي ترسخ في العقل المسيحي وصمد على مر القرون، مدعوما بنصوص كثيرة من الإنجيل، وظروف اجتماعية وسياسية خاصة[1].

أما حياتهم مع المسلمين، فقد كانت لا تختلف عن حياة المسلمين أنفسهم.. بل إن العصر الذهبي لليهود لم

---

(١) لكن القرن الخامس عشر الميلادي أظهر تحولات عميقة في النفس المسيحية ــ الغربية على الأقل ــ مع بزوغ ما عرف بحركة الإصلاح، وما استتبعه ذلك من انشقاق سياسي وعقائدي داخل الديانة المسيحية بشكل عام، والكاثولوكية الغربية بشكل خاص كان من نتائج هذه التحولات أن أصبحت المسيحية الجديدة التي عرفت باسم البروتستانتية ربيبة لليهودية.

فقد أصبح للعهد القديم أهمية أكبر في نظر البروتستانت من العهد الجديد، وبدأت صورة الأمة اليهودية تتغير تبعا لذلك في أذهان المسيحيين الجدد وقد ظهر هذا التحول في النظرة المسيحية إلى اليهود في كتابات رائد الإصلاح البروتستانتي، القس الفيلسوف (مارتن لوثر). فقد كتب لوثر عام ١٥٢٣ كتابا عنوانه (المسيح ولد يهوديا) قدم فيه رؤية تأصيلية للعلاقات اليهودية المسيحية من منظور مغاير تماما لما اعتاده المسيحيون من قبل، فكان مما قال في كتابه:« إن الروح القدس شاءت أن تترل كل أسفار الكتاب المقدس عن طريق اليهود وحدهم. إن اليهود هم أبناء الرب، ونحن الضيوف الغرباء، وعلينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التي تأكل من فتات مائدة أسيادها »

يعيشوه إلا في ظلال المسلمين..

فقد كان اليهود ــ الذين يعيشون في بلاد المسلمين ــ يشاركون في معظم مجالات الحياة وفي كل المهن والحرف تقريباً، وكانت ملكية الأراضي مفتوحة أمامهم، كما أنهم تملكوا العقارات في كل أنحاء البلاد وتناقلوها عن طريق الوراثة أو عمليات البيع والشراء فيما بينهم وبين المسلمين دون أية مضايقات [1].

وكان لهم مطلق الحرية في العمل التجاري بلا حدود، وكانت نقابات الحرفيين والمهنيين مفتوحة للجميع بغض النظر عن أي دين أو مذهب أو أصل.

وقد شغل اليهود أعلى الوظائف الحكومية شريطة أن تكون الوظيفة ذات طابع تنفيذي، ولا تعطي صاحبها سلطات تشريعية أو سياسية، ذلك أن الدولة الإسلامية كانت ترى أن مثل هذه الوظائف لابد أن يشغلها مسلم لاعتبارات أمنية [2]

وقد تَركَّز اليهود أيضاً في الوظائف والمهن التي تتطلب التعامل مع غير المسلمين مثل التجارة الدولية والدبلوماسية والترجمة.

وقد أدَّى وجود الجماعات اليهودية داخل الإطار الحضاري الإسلامي الموحَّد إلى سهولة حركة اليهود برؤوس أموالهم وأفكارهم وإلى تمازجهم، فاندمجت الجماعة اليهودية إلى حد كبير في المجتمع العربي الإسلامي.

وتتضح درجة الاندماج الاجتماعي والاقتصادي العالية في أن تركيب اليهود الطبقي لم يكن يختلف عن تركيب المجتمع ككل.. ويظهر الاندماج الثقافي في أن لغة أعضاء الجماعة اليهودية، سواء في الحديث اليومي أو في أدبياتهم الدينية أو الدنيوية، هي العربية.

وحينما قام سعيد الفيومي بترجمة التوراة في القرن العاشر الميلادي، أشار إلى الآرامية باعتبارها لغة الآباء، بل تأثرت نظرتهم إلى العبرية نفسها بمعرفتهم بالعربية، وهو ما أدَّى إلى بعثها وتجديدها، فاهتموا بمفرداتها ونحوها وصرفها ووضعوا لها المعاجم.

وقد تأثر الأدب العبري، وخصوصاً الشعر، بالأدب العربي، فأخذوا الأوزان والقافية من الشعر العربي. كما تأثر التراث الديني اليهودي بالتراث الديني الإسلامي إلى درجة أعمق من تأثره بالهيلينية، فظهر أساطين الفكر العربي الإسلامي اليهودي مثل سعيد بن يوسف الفيومي وطائفة القرّائين (منتصف القرن الثامن)، وجمعت الهلاخاه (الشريعة) وصُنِّفت على طريقة المصنفات الفقهية الإسلامية، وأصدر علماء اليهود الفتاوى على نمط الفتاوى الإسلامية.

---

(١) انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري.

(٢) ولكن، ورغم عدم وجود تمايز وظيفي، كان يجري استبعاد أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي الإسلامي من بعض الوظائف الإستراتيجية بحكم انتمائهم إلى أقلية، فكان معظم الذميين يعملون في الدرجات الدنيا والوسطى، ولم يصل إلى الدرجات أو المراتب العليا إلا نسبة صغيرة، إذ كانت هذه الوظائف مقصورة على المسلمين أو على من اعتنق الإسلام من الذميين. (الموسوعة اليهودية)

بل إنه لا يمكن فَهْم التراث الديني اليهودي في هذه المرحلة إلا بالعودة إلى التراث الإسلامي؛ الفلسفي والديني.. بل إن تَفاعُل أعضاء الجماعة اليهودية مع الحضارة الإسلامية أمر لا نظير له في أية حضارة أخرى.

وتجب ملاحظة أن بروز اليهود في الحضارة الغربية الحديثة، وتفاعلهم معها، لم يتم إلا بعد أن تمت علمنتهم وتخلوا عن أية هوية دينية يهودية، على عكس النجاح الذي حققوه في إطار الحضارة العربية الإسلامية إذ حققوه باعتبارهم يهوداً ذوي هوية دينية مستقلة.

وقد شهد القرنان العاشر والحادي عشر الميلاديان ــ في الأندلس ــ تَشرُّب اليهود الحضارة العربية الإسلامية، وتَحسُّن أحوالهم المعنوية والروحية والمادية، وتعريب أسمائهم ولغتهم ورؤيتهم، وَتأثُّر آدابهم الدنيوية والدينية بالتراث العربي الإسلامي.

وقد وصل اليهود في الفترة نفسها إلى مكانة عالية رفيعة، فعملوا في الوظائف الإدارية والمالية حيث كان يعمل بعضهم في وظيفة يهود البلاط، واشتغلوا بالتجارة المحلية والدولية التي كانت تصل حتى حدود الصين أو كانت تدخل إلى أوربا، واحتكروا بعض أنواع التجارة مثل تجارة العبيد الذين كانوا يحضرونهم من بلاد الصقالبة، واشتغلوا بالحرف مثل الصباغة كما اشتغلوا بالزراعة.

وقد برز اليهود في وظائف محددة مثل التجارة الدولية والترجمة بسبب وضعهم وثقافتهم، فقد كانوا يجيدون العربية والعبرية وبعض اللغات الأوربية، الأمر الذي حوَّلهم إلى حلقة وصل وجماعة وظيفية وسيطة بين العالمين الإسلامي والمسيحي، وخصوصاً أنهم كانوا ينتقلون بسهولة ويسر بين إسبانيا المسلمة وإسبانيا المسيحية، فكان اليهودي ينشــأ في إســبانيا المســيحية مثلاً ثم ينتقل إلى إسبانيا المسلمة أو العكس.

وقــد تَركَّز اليهــود في المدن مثل قرطبة وطليطلــة وأشبيلية وسرقسطة. ووصل بعض اليهود إلى أعلى الوظائف الحكومية بما في ذلك أعلى مراتب الوزراء كما هو الحال مع حسداي بن شفروط الذي كان يعمل طبيباً ودبلوماسياً في بلاط عبد الرحمن الثالث (٩١٢ ــ ٩٦١) والحكم الثاني (٩٦١ ــ ٩٧٢). وقد تحوَّلت الأندلس إلى أهم مراكز اليهودية في العالم.

قلت: وماذا قدم قومنا لليهود؟

قال: لقد قدموا لهم المذابح الكثيرة التي لا تنتهي.. وآخرها هي إرسالهم إلى المسلمين.. لعلمهم أن المسلمين مع كونهم مسالمين إلا أنهم لا يسكتون عن ضيم ولا يخضعون عن ذلة.

المسيحية

قلت: عرفت ما فعل المجرمون من اليهود.. و لم أكن أحتاج لمعرفة تفاصيل ذلك، فما تبرزه لنا الأخبار الموضوعية كل يوم لا يزيدنا إلا يقينا بالأحقاد التي تمتلئ بها قلوبهم.. فحدثني عن قومي من المسيحيين.

قال: قومك من المسيحيين على امتداد تاريخهم لا يقلون دموية عن هؤلاء.

قلت: احذر من الحديث عن المسيحية بشيء من أحاديث العوام.. فالمسيحية لا يمثلها إلا رجال الدين.

قال: سأحدثك عما فعله أكبر رجال الدين في المسيحية.. سأحدثك عن البابوات المعصومين.. ألستم تعتبرون البابوات معصومين؟

سكت، فقال: إن كل الجرائم التي حدثت باسم الحروب الصليبية أول من يتحمل وزرها هم البابوات..

ففكرة الحروب ذات الطابع الديني الخالص ترجع لكرسي البابوية التي أضفت على الصراع الخالد بين المسلمين والمسيحيين صفة الصليبية المتعصبة.

وخلال هذا الصراع الطويل برز العديد من الباباوات الذين كان لهم دور بارز في تأجيج المشاعر العدائية ضد الإسلام والمسلمين تمثلت في حملات صليبية عالمية على الأمة الإسلامية:

منهم البابا حنا العاشر [٩١٤-٩٢٨] فهو أول من نادى بطرد المسلمين من الحوض الغربي للبحر المتوسط؛ بدءاً بجنوب إيطاليا وجزر البحر المتوسط وجنوب غربي فرنسا ثم إسبانيا، وهي الفترة التي كانت دولة الإسلام في الأندلس وقتها في أوج قوتها ومجدها تحت قيادة عبد الرحمن الناصر أول من تلقب بأمير المؤمنين في الأندلس، وكانت البابوية وقتها في حالة صراع مرير ضد الإمبراطور أوتو الكبير عطلت دعوات حنا العاشر وخططه نحو شن حرب صليبية ضد المسلمين.

يليه البابا إسكندر الثاني [١٠٦١-١٠٧٣] الذي يعتبر أول من استخدم فكرة صكوك الغفران كورقة لتحميس الأوروبيين على حرب المسلمين، وذلك عندما دعاهم سنة ١٠٦٣م لنجدة إخوانهم الإسبان في الأندلس من نير المسلمين، مع العلم أن المسلمين كانوا وقتها في أضعف حالاتهم تحت حكم ملوك الطوائف، وقد أسفرت هذه الدعوة عن واحدة من أشد المجازر البشرية روعة عندما شن نصارى أوروبا حربا صليبية بقيادة قائد فرسان البابوية على مدينة بربشتر في شرق الأندلس سنة ١٠٦٤م راح ضحيتها أربعون ألف مسلم غير آلاف الأسارى من البنات والصبيان.

يليهما البابا جريجوري السابع الذي يعتبر أكبر من تولى منصب البابوية في التاريخ الكنسي كله، وهو مؤسس فكرة الحملات الصليبية الشهيرة على العالم الإسلامي بالشام ومصر، وقد تولى البابوية خلفا لإسكندر الثاني سنة ١٠٧٣م، وهو ألماني الأصل، وكانت ولايته للبابوية نقطة تحول فاصلة في حياة البابوية، إذ أصبح البابا من عهده هو سيد العالم النصراني وسيد أوروبا المطلق وصاحب السلطة الأكبر والأهم على نصارى العالم القديم، وقد أثبت ذلك في صراعه ضد الإمبراطور هنري الرابع الذي اضطر للتوجه إلي قلعة كانوسا حيث مقر إقامة البابا جريجوري السابع طلبًا لمغفرة البابا وصفحه بعد أن ثار عليه شعبه وقواده.. وإمعانًا في إظهار السيادة

والقوة تركه جريجوري ثلاثة أيام حافيًا عاري الرأس على الجليد حتى يرضي عنه.

هذا البابا أول من أشعل الحملات الصليبية على الأمة الإسلامية، ولكن العمر لم يطل ليشهد انطلاق هذه الحملات حيث هلك سنة ١٠٨٨م وترك ذلك لتلميذه النجيب أوربان الثاني الذي أخذ على عاتقه إدخال الحملات الصليبية موضع التنفيذ، وقد قام بجولة أوروبية واسعة لحشد الرأي العام واستثارة الهمم الصليبية من أجل ذلك، ثم دعا لمؤتمر مصيري في كليرمونت بفرنسا في ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥م، وفيه أطلق صيحته الشهيرة (إنها إرادة الرب)، وأمر كل مسيحي ومسيحية بالخروج لنجدة القبر المقدس من أيدي الكفرة (يعني المسلمين)، ثم أفاض في حديث مليء بالكذب والأباطيل عن الاضطهادات التي يتعرض لها المسيحيين والحجيج ببلاد المسلمين، فأدى ذلك لاشتعال روح حماسية عارمة بأوروبا نحو حرب المسلمين والخروج إلى بلادهم.

وقد أرسل أوربان أحد الرهبان المتعصبين واسمه بطرس الناسك، وكان ذا موهبة خطابية فائقة، فطاف أوروبا بأسرها يدعو المسيحيين لمحاربة المسلمين، ونتيجة لخطب ومواعظ بطرس الناسك الحماسية والمليئة بالمؤثرات من بكاء وعويل وأكاذيب خرج مئات الآلاف من نصارى أوروبا استجابة لنداء البابا ورغبة في المغفرة ودخول الجنة بزعمهم، وذلك بلا نظام ولا ترتيب ولا قيادة، وهي الحملة المعروفة باسم حملة الرعاع والتي أبادها السلاجقة، ومؤرخو أوروبا يغفلون ذكر هذه الحملة ولا يعدونها من ضمن الحملات الصليبية.

ثم تلت هذه الحملة الفاشلة حملة الأمراء، وكان معظمهم من فرنسا وقدرت بمليون مقاتل صليبي وذلك سنة ١٠٩٩ م، وهي الحملة التي نجحت في إقامة أربع إمارات صليبية بالشام وذلك بطرابلس وأنطاكية وبيت المقدس والرها، وذلك بعد سفك دم قرابة مليون مسلم ومسلمة، والجدير بالذكر أن أوربان الثاني قد هلك قبل أن يفرح بنجاحات الحملة بأرض الشام.

وقد تلى المجرم أوربان الثاني البابا أوجينيوس الثالث.. والذي اعتلى كرسي البابوية سنة ١١٤٤ م عندما استطاع الأمير المجاهد عماد الدين زنكي أن يفتح الرها، فأصدر أوجينيوس الثالث مرسوماً داعياً أوروبا لحملة صليبية جديدة على بلاد الإسلام للثأر للدين الحق بزعمه، وقد أطلق على هذا المرسوم عنوان (قدر الأسلاف)، وبالفعل استجاب لويس السابع وكونراد الثالث ملكا فرنس وألمانيا لنداء البابا وشنا الحملة الصليبية الثانية والتي تحطمت على أبواب دمشق سنة ١١٤٨م.

وتلاه البابا باسكوال الثاني، وهو الذي أنشأ جماعة فرسان المستشفى، والمعروفة في المراجع العربية بالإسبتارية، وذلك سنة ١١١٣ م وكانت في البداية رعاية مرضى حجاج بيت المقدس وخدمتهم، ثم تحولت لجماعة حربية شديدة البأس والتعصب تحت قيادة الراهب الإيطالي جيرار الملقب بحامي فقراء المسيح.

تلاه البابا كالكتس الثاني، وهو الذي أنشأ جماعة فرسان معبد سليمان أو الداوية كما هو معروف في المراجع العربية، وكانت مهمتهما حماية طريق الحجاج، وهذه الجماعة من أشد الجماعات الصليبية تعصباً وحقداً على المسلمين وحماسة في قتالهم، وهذه الجماعة وسابقتها عملت على تنمية الروح الصليبية الخالصة ونشر فكرة التطوع ونذر النفس لمحاربة المسلمين، وكانت تقوم على فكرة المزج بين الرهبنة والجندية، ومعظم فرسانها من الرهبان والقساوسة، وكان المسلمون إذا ظفروا بأي أسير من هاتين الجماعتين قتلوه فوراً لكثرة

جرائمهم ووحشيتهم ضد المسلمين، وكانت هاتان الجماعتان تحت الإشراف المباشر لبابا روما، ولهما من الامتيازات والإقطاعات ما يكفيهم عن العمل والتفرغ لقتال المسلمين.

تلاه البابا جريجوري الثامن الذي خلف البابا أوربان الثالث الذي خرّ ميتاً من هول الصدمة بعد أن حقق المسلمون بقيادة صلاح الدين انتصارهم العالمي وحرروا بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ ــ ١١٨٧م.

وقد كان البابا جريجوري الثامن شيخاً كبيراً، ولكنه سعى بكل جهده لشن حملة صليبية ثالثة على العالم الإسلامي، فأرسل خطاباً عاماً لنصارى أوروبا ووعدهم فيه بالمغفرة الكاملة لجميع خطاياهم، وفرض عليهم صياماً في كل يوم جمعة على مدى خمس سنوات قادمة، وفرض عليهم ضريبة تقدر بـــ ١٠ بالمائة من دخولهم عرفت باسم ضريبة صلاح الدين، والامتناع عن أكل اللحوم في أيام السبت والأربعاء من كل أسبوع، وقد أدى هذا الخطاب لحماسة جارفة عمت أنحاء أوروبا أسفرت عن الحملة الصليبية الثالثة والمعروفة باسم حملة الملوك.

تلاه البابا أنوسنت الثالث الذي تولي كرسي البابوية سنة ١١٩٨م، وكان صغيراً نوعاً ما مقارنة لمن سبقوه من البابوات، وقد أحدث هذا البابا تغيرات خطيرة وجذرية بمكانة كرسي البابوية أشبه ما يكون بجريجوري السابع، حيث كان يرى أن البابا يجب أن يكون صاحب سلطة روحية وزمانية أو نوعاً من القسيس الملك، ورفض أن يكون دور البابا منحصراً في مجرد الدعوة للحملات الصليبية ومنح صكوك الغفران، بل يجب أن يكون الأمر كله تحت سيطرة البابوية، لذلك كان أكثر البابوات محاربة للمسلمين وشناً للحملات الصليبية ضدهم، وهو أول من حول دفة الهجوم من الشام إلى مصر مركز الثقل في العالم الإسلامي وقتها، وبالفعل أثمرت جهود أنوسنت الثالث لشن الحملة الصليبية الرابعة وذلك سنة ١٢٠٤م والتي تعتبر أفشل الحملات الصليبية؛ حيث توجهت للقسطنطينية عاصمة بيزنطة بدلاً من بلاد الإسلام، وذلك بسبب العداء المذهبي بين البيزنطيين الأرثوذكس والفرنجة الكاثوليك.

ورغم هذا الفشل الذريع لأنوسنت الثالث في الحملة الرابعة إلا أنه عاد وأرسل حملة أخرى سنة ١٢١٦ م، وقد اختار هذه السنة تحديداً بناءً على تفسيره المحرف لبعض نصوص الكتاب المحرف عندهم، حيث كان يفسر ما ورد في سفر الرؤيا من أن عدد سنوات عمر الوحش هو ٦٦٦ والوحش في تفسيره هو الإسلام، وإذا كان ظهور الإسلام بحسابه سنة ٦٢٢ ميلادية و٦٦٦ تكون السنة التي توقع فيها نهاية الإسلام سنة ١٢٨٨م؛ لذلك كان أنوسنت على يقين بأن حملته ستقرب المسلمين والإسلام من هذه النهاية، ولكنه سرعان ما هلك سنة ١٢١٦م قبل أن تتم الاستعدادات لهذه الحملة، وكان هلاكه بشرى كبيرة للمسلمين فإنه من أهم وأخطر الشخصيات التي تولت كرسي البابوية، وكان المسيحيين في أوروبا يقولون عنه: « إنه أدنى من الله وأعلى من البشر، قاضي القضاة الذي لا يقاضيه أحد »

تلاه هونريوس الثالث، وهو الذي خلف البابا أنوسنت الثالث وسار على نهجه واستكمل الدور الذي بدأه في شن الحملة الصليبية الخامسة على المسلمين، وتأكيدًا لسياسة أنوسنت الثالث أرسل هونريوس مبعوثًا من طرفه هو الكاردينال البرتغالي (بلاجيوس) لقيادة الحملة، ليس فقط روحيًا وإنما أيضًا عسكريًا وميدانيًا،

وكان بلاجيوس هذا تلميذاً نجيبًا لأنوسنت الثالث يؤمن بكل مبادئه، ويفيض كراهية وكرهًا على المسلمين، شديد الإيمان بفكرة الحروب الصليبية، ولكنه كان لا يصلح بالمرة للقيادة العسكرية، فهو ضيق الأفق، عديم الخبرة، مستبد، مغرم بنفسه، شديد العناد، وهي خصال كلها كانت متوافرة في أستاذه أنوسنت، وأيضًا هي الخصال التي ستؤدي لفشل الحملة التي قادها على دمياط سنة ١٢٢١م-٦١٨هـ.

تلاه جريجوري التاسع، وهذا البابا يعتبر تجسيدًا حقيقيًا وواضحًا عن النفسية البابوية المليئة بالحقد والكراهية للإسلام والمسلمين، ذلك أن أكبر ملوك أوروبا وقتها وهو الإمبراطور (فريدريك الثاني) قد تلكّأ في الخروج لقتال المسلمين بسبب عدم اقتناعه بفكرة الحروب الصليبية بالكلية، ما حدا بالبابا أن يصدر مرسومًا بالحرمان الكنسي والطرد من الرحمة بحقه وذلك سنة ١٢٢٧م، وأجبره على الخروج في حملة صليبية على بلاد الإسلام، وهي الحملة السادسة، ولقد استطاع فريدريك أن يستولي على بيت المقدس عن طريق التفاوض مع ملك مصر الذليل الجبان (محمد الكامل الأيوبي)، وذلك من غير ضربة سيف واحدة، فما كان من جريجوري التاسع إلا أن أصدر قرارًا ثانيًا بحرمان فريدريك من الجنة! وأطلق عليه لقب الزنديق الأكبر، وقال كلمته الشهيرة والتي تعبر بصدق عن النفسية الحاقدة على الدين وأهله: إن الملوك الصليبيين يذهبون لسفك دماء المسلمين، وليس للتفاوض معهم. وبعدها شنت البابوية حربًا لا هوادة فيها ضد أسرة فريدريك كلها وأبادتها بالكلية، ودبرت عدة محاولات لاغتيال فريدريك ولكنها باءت بالفشل، وذلك كله لأن فريدريك رفض الانصياع لأوامر البابا في قتال المسلمين.

تلاه أنوسنت الرابع، وهو أول بابا في تاريخ البابوية يفكر في تشكيل حلف نصراني — وثني ضد العالم الإسلامي، وذلك عندما أرسل إلى خان المغول يعرض عليه مشروعًا شريرًا لمحاربة العالم الإسلامي والجهتين الشرقية والشمالية من أجل إبادة المسلمين بالكلية، وقد أوفد البابا الشرير من أجل استمالة المغول المئات من الأوربيات الزانيات من أجل إغواء المغول كخليلات وعشيقات، وكان لهذا السلاح مفعول السحر خاصة أيام الطاغية هولاكو، ولكن هذه المحاولات ورغم كثرتها وتأثيرها الجزئي إلا أنها فشلت في النهاية بسبب إصرار الخان على خضوع البابا والأوروبيين له ودفع الجزية السنوية له.

ولما فشلت مساعي أنوسنت الرابع اتجه نحو إعلان حرب صليبية جديدة على العالم الإسلامي كانت الأكبر والأفضل تنظيمًا وتسليحًا وقيادة؛ إذ ندب لقيادة الحملة ملك فرنسا (لويس التاسع) وخلع عليه لقب قديس، وكان لويس التاسع شديد الإيمان بفكرة الحروب الصليبية ووجوب محاربة المسلمين، وذلك سنة ١٢٤٩ م، ولكن هذه الحملة كان مصيرها الفشل الذريع كسابقتها.

بعد ذلك عمت روح من الفتور في أرجاء أوروبا وفقدت البابوية حماستها المتقدة، وانشغل البابوات خلال هذه الفترة بمشاكلهم الداخلية مع قادة الدول الأوروبية والصراع ضد أسرة الهوهنشتاوفن الألمانية والحركات الإلحادية في جنوب فرنسا، باستثناء المحاولات التي قام بها البابا كليمنت الرابع وخليفته نيكولاس الرابع من أجل تشكيل حلف بين المغول والصليبيين للتصدي لدولة المماليك القوية الآخذة في النمو والتمدد نحو الشام وحدود العراق، وذلك سنة ١٢٦٧م ـــ ١٢٧٤م.

وظل الأمر هكذا حتى ظهرت الدولة العثمانية في منطقة الأناضول، وذلك في أوائل القرن الثامن الهجري وأواسط القرن الرابع عشر الميلادي.

حيث جاء دور البابا كليمانس السادس ليكمل الدور الإجرامي لمن سبقه من البابوات.. وقد كان هذا البابا هو أول البابوات دعوة لتكوين حلف صليبي مقدس ضد الدولة العثمانية الناشئة في آسيا الصغرى أو الأناضول، وذلك سنة ١٣٤٤م، وكانت الاستجابة في بدايتها ضعيفة ومحدودة، ولكنها مع الوقت أخذت في التوسع والازدياد، خاصة مع الحماسة الدينية المتأججة في قلوب ملوك قبرص التي أصبحت من أخطر البؤر الصليبية على الإسلام والمسلمين في هذه الفترة.

تلاه البابا أوربان الخامس، ويعتبر أول البابوات الداعين لحرب صليبية ضد العثمانيين ولكن بجنود من المسيحيين الأرثوذكس، وذلك سنة ١٣٦٤ م، وذلك أن إمبراطور بيزنطة وقتها قد تحول للمذهب الكاثوليكي من أجل إغراء البابا والدول الأوروبية الكاثوليكية بمساعدته ضد قوة العثمانيين المتنامية، وذلك أيام السلطان مراد الأول، وقد استجاب لدعوة أوربان الخامس كل من لويس ملك المجر وبولندا وأمراء البوسنة والصرب ورومانيا وشكلوا حلفاً صليبياً مقدساً، ولكن هذا الحلف مني بهزيمة ساحقة عند نهر مارتيزا بالقرب من أدرنة، وهذه الهزيمة الكبيرة جعلت أوربان يجن جنونه ويكلف ملك قبرص الصليبي واسمه [بطرس الأول] بغزو ميناء الإسكندرية وإيقاع أكبر قدر من الخسائر البشرية فيها، وكان بطرس شديد الصليبية والإيمان بوجوب قتال المسلمين، فاستجاب على الفور لدعوة البابا وقاد حملة صليبية نزلت بالإسكندرية سنة ١٣٦٥م، وارتكبت هذه الحملة مجزرة بشرية مروعة راح ضحيتها عشرات الآلاف من أهل الإسكندرية، ثم غادرها بطرس مسرعاً قبل أن يقوم المسلمون بنجدة المدينة، وكما قال المؤرخون:« دخل الإسكندرية لصاً وخرج منها لصاً »

تلاه البابا بونيفاس التاسع.. وهو البابا الذي دعا إلى حلف صليبي يكون فيه كل الأوروبيين الكاثوليك والأرثوذكس، وكان الأكبر في القرن الرابع عشر والأضخم في تاريخ الصراع بين الصليبيين والعثمانيين، وذلك سنة ١٣٩٦م، ولأول مرة يقاتل الكاثوليك جنباً إلى جنب مع الأرثوذكس ضد المسلمين، ولقد انتصر بايزيد على هذا الحلف الصليبي الضخم في معركة نيكوبوليس انتصاراً رائعاً.

تلاه البابا أوجين الرابع، وهو ترجمة عملية للغدر والخيانة ونقض العهود، وذلك أن الدولة العثمانية كانت قد وقّعت معاهدة سلام لمدة ١٠ سنوات مع الدول الأوروبية، وذلك سنة ١٤٤٢م، ولم يكن أوجين الرابع راضيًا عن هذه المعاهدة، فأرسل من طرفه الكاردينال الإيطالي الشرير (سيزاريني)، فطاف على ملوك أوروبا وحرّضهم على نقض المعاهدة مع العثمانيين وأحلهم من وزر ذلك، واصطحب معه صكوك غفران موقعة من البابا أوجين الرابع لكل من يشترك في هذه الحملة، فاستجاب لندائه كل ملوك أوروبا وعلى رأسهم (لاديساس) ملك المجر، وكانت أخبار اعتزال مراد الثاني الحكم لابنه محمد الثاني، ثم تفرغه للعبادة قد وصلت لأوجين الرابع، فقرر استغلال الفرصة للهجوم على العالم الإسلامي، وذلك سنة ١٤٤٨م، ولكن مؤامراته الشريرة تحطمت تحت سيوف العثمانيين الذين أنزلوا هزيمة ساحقة على التحالف الصليبي، وقتل (لاديساس) في المعركة ومعه الكاردنيال الشرير (سيزاريني)

تلاه البابا نيقولا الخامس، وهو البابا الذي كان من قدره أن يكون على كرسي البابوية سنة ١٤٥٣م، وهي سنة فتح القسطنطينية على يد العثمانيين بقيادة محمد الفاتح، فحاول نيقولا الخامس توحيد الصف النصراني المتشرذم ودعا إلى مؤتمر دولي في روما لشن حرب صليبية جديدة على المسلمين لاسترجاع القسطنطينية، ولكنه فشل في ذلك، فأصيب بالهم والحزن وقتله الكمد سنة ١٤٥٥م، وحاول خليفته بيوس الثاني تأجيج المشاعر الصليبية بكل ما أوتي من مقدرة خطابية وحنكة سياسية، ولكنه فشل بسبب الخلافات الداخلية بين الدول الأوروبية، والعجيب والمضحك في نفس الوقت أن بيوس الثاني قد أرسل بخطاب للسلطان محمد الفاتح يدعوه فيها إلى دخول المسيحية ودعمها، ووعده بأنه سيكفر عنه خطاياه إن هو أعتنق المسيحية مخلصاً.

تلاه البابا جويلس الثاني، وهو الذي شكل حلفًا صليبيًا ضد العثمانيين أيام السلطان بايزيد الثاني مستغلاً حالة الصراع على الحكم بين بايزيد الثاني وأخيه الأمير (جم)، فكلف البولنديين بالهجوم على مولدافيا التابعة للعثمانيين، وشجع الرومانيين على الثورة على العثمانيين في غرب البلاد، وضم لهذا الحلف فرنسا والمجر وإيطاليا.

تلاه البابا إسكندر السادس، وهو البابا الذي اشترى الأمير (جم) من فرسان القديس يوحنا، وكان أسيراً عندهم في جزيرة رودوس، وساوم عليه أخاه السلطان بايزيد الثاني من أجل وقف المساعدات عن مسلمي الأندلس، ووقف تهديدات العثمانيين لسواحل اليونان، ولكن بايزيد رفض هذه المساومة الرخيصة، فما كان من إسكندر السادس إلا أن قتل الأمير (جم)، ثم دعا إلى حلف صليبي جديد ضد العثمانيين اشتركت فيه فرنسا وإسبانيا، وذلك سنة ١٤٩٩ م، فرد بايزيد بكل قوة على هذه الجريمة الصليبية بنصر بحري كبير على البنادقة في خليج لبياتو.

تلاه البابا بيوس الخامس، وقد ولد في السنة التي مات فيها سليمان القانوني[١]، وهو رجل في غاية الخطورة، وقد وضع مشروعاً بابوياً لجمع شمل الدول الأوروبية المتنافسة وتوحيد قواها براً وبحراً تحت قيادة البابوية، كما كان الحال أيام أنوسنت الثالث، واستطاع بيوس الخامس أن يقنع ملك فرنسا شارل الخامس بنقض عهوده مع العثمانيين، وازدادت وتيرة الإعداد لحرب صليبية جديدة بعد نجاح العثمانيين في فتح جزيرة قبرص سنة ١٥٧١م، وبالفعل نجحت الحملة الصليبية البابوية التي كان يقودها الأمير (دون خوان)، وهو أخ غير شرعي لملك إسبانيا فيليب الثاني، وهو أيضاً الذي قضى على ثورة المسلمين في غرناطة قبل ذلك بثلاث سنوات، نجح

---

(١) خلال فترة حكم السلطان سليم الأول وولده سليمان القانوني بلغت الدولة العثمانية أوج قوتها واتساعها، وذلك من سنة ٩١٨هـ ــ ١٥١٢م حتى سنة ٩٧٤هـ ــ ١٥٦٦م، وكانت أوروبا وقتها تعيش حالة من الفوضى والصراع السياسي والديني وانقسامات كبيرة فـ"فرنسوا الأول" ملك فرنسا ينافس الإمبراطور شارلكان على كرسي الحكم للإمبراطورية الرومانية المقدسة! وكان الراهب الألماني مارتن لوثر مؤسس المذهب البروتستانتي ينافس بابا الكاثوليك ليو العاشر، وهذه الصراعات المتأججة مع قوة العثمانيين المتنامية عطلت الحروب الصليبية عند كرسي البابوية.

في هزيمة الأساطيل العثمانية في معركة ليبانتو سنة ١٥٧١م، وكانت أول هزيمة بحرية ينالها العثمانيون منذ أكثر من ١٠٠ سنة، ما جعل الأوروبيون يهللون لهذا النصر الكبير، وقام بيوس الخامس بعمل قداس خاص بالمناسبة قال فيه:« إن الإنجيل قد عنى دون خوان نفسه حيث بشّر بمجيء رجل من الله يدعي حنا »

بعد انتصار ليبانتو سنة ١٥٧١م لم يحقق الصليبيون انتصارات كبرى على العثمانيين زعماء العالم الإسلامي، وسرت روح من الفتور في الجانبين وانشغل كلاهما بمشاكله الداخلية وصراعاته الإقليمية، وظل الأمر على هذا المنوال حتى تولي كرسي البابوية (جريجوري العاشر) الذي ما إن تولى المنصب حتى أخذ في الدعوة إلى تشكيل حلف مقدس ضد العثمانيين، مستغلاً حالة الفوضى داخل الدولة العثمانية نتيجة تولي السلطان محمد الرابع السلطنة، وكان ابن سبع سنوات، وقد قرر جريجوري الاستفادة من قوة روسيا القيصرية الصاعدة فضمها للحلف على الرغم من أن الروس أرثوذكس، وكذلك ضم في حلفه النمسا رغم عصيان ملوكها الدائم لأوامر البابوية، ولكن وجود أسرة كوبريلي في منصب الصدارة العظمى داخل الدولة العثمانية عطل مشروع جريجوري العاشر حتى جاء خلفه حنا الخامس عشر، والذي استغل فشل الجيوش العثمانية في فتح فيينا عاصمة النمسا سنة ١٠٩٤هـ ــ ١٦٨١م في تأجيج مشاعر العداء الصليبي ضد العالم الإسلامي، وكان هذا التاريخ هو تاريخ تحول كفة الصراع لصالح الصليبيين، وأيضاً تاريخ خفوت صوت البابوية وبروز نجم روسيا القيصرية التي ستدخل في حرب صليبية طويلة وشرسة نيابة عن العالم الصليبي ضد الدولة العثمانية زعيمة العالم الإسلامي.

وفي هذه الفترة ظهرت الثورة الصناعية وما صاحبها من محافل ماسونية وأفكار علمانية تحارب الدين ممثلاً في الكنيسة وحصلت حالة من الفصام بين الدين والحياة في أوروبا، وأصبح دور البابا منحصراً في الجوانب الروحية، بل تعرض منصب البابوية نفسه للإلغاء أيام حكم موسوليني في إيطاليا، ولكن الحقيقة الثابتة والتي لا يستطيع أحد أن يجادل فيها أو يحاول أن يخفيها أن أثر البابا ظل باقياً في كل الحروب والصراعات التي نشبت بعد ذلك بين العالم الإسلامي وأعدائه الغربيين، فلقد كان الطابع الصليبي والحقد الديني بارزاً في كل هذه الحروب والصراعات، وعشرات السنيين التي جثم خلالها الغرب على العالم الإسلامي في صورة احتلال كانت الصليبية والعداوة الدينية طافحة في كافة أعمال وتحركات الغرب، والمجازر الوحشية والمروعة التي قام بها الاحتلال الفرنسي في الجزائر والمغرب ودول غرب إفريقيا ومثيلتها التي قام بها الاحتلال الروسي في القوقاز ووسط آسيا، وغير ذلك كثير يعتبر خير دليل على الحقد الصليبي الطافح في هذه الحروب، والذي يرجع الفضل الأول في إبرازه وتأجيجه ثم تثبيته لكرسي البابوية.

قلت: تلك مواقف رجال دين.. لا مواقف أهل دين.. فلا يمكن أن نحمل المسيحيين ذنب بابواهم.

قال: صدقت.. ولكن العوام المساكين أصحاب القلوب الطيبة ملأهم رجال دينهم أحقادا.. لقد كان الجندى الإيطالى الذاهب لاحتلال ليبيا ينشد قائلا:« يا أماه صلاتك و لا تبكى بل اضحكى و تأملى ألا تعلمين أن إيطاليا تدعونى وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورا لأبذل دمى فى سبيل سحق الأمة الملعونة ولأحارب الأمة الإسلامية سأقاتل لمحو القرأن وإن لم أرجع فلا تبكى على ولدك وإن سألك أحد عن عدم

حزنك على فأجيبيه إنه مات في محاربة الإسلام »

لقد ذكر (فيدهام) أن الحروب قادها البابوات كانت مليئة بالفظائع، لأن رجال اللاهوت (الطيبين) كانوا مستعدين دائمًا أن يضعوا الزيت على النار، وأن يحيوا وحشية الجنود عندما يساورهم أي تردد أو ضعف، فقد يكون الجنود قساة، ولكنهم كانوا يميلون في بعض الأحيان إلى الرحمة، أما رجال اللاهوت فاعتبروا الاعتدال والرحمة نوعًا من الخيانة[1].

قلت: ولكن لم لا ننظر إلى تلك الحروب على أنها حروب تحرير.

قال: نعم.. لقد كانت حروب تحرير.. ولكن بمعنى واحد لا غير.. هو تحرير الأرواح من الأجساد..

لقد روى ابن الاثير في تاريخه [2] عن دخول الصليبين القدس في الحروب الصليبية فقال:« ملك الفرنج القدس نهار يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان، وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعا يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود، فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، وقتل الفرنج بالمسجد الاقصى ما يزيد على سبعين ألفا، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الاوطان وجاور بذلك الموضع الشريف »

ووصف ستيفن رنسيمان في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية)[3] ما حدث في القدس يوم دخلها الصليبيون فقال:« وفي الصباح الباكر من اليوم التالي اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين، فأجهزت على جميع اللاجئين إليه وحينما توجه قائد القوة ريموند اجيل في الضحى لزيارة ساحة المعبد اخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه وتركت مذبحة بيت المقدس أثرا عميقا في جميع العالم، وليس معروفا بالضبط عدد ضحاياها غير أنها أدت الى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود، بل إن كثير من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث »

وقد وصف كثير من المؤرخين احداث المذبحة التي حدثت في القدس يوم دخول الصليبيين أليها وكيف أنهم كانوا يزهون بانفسهم لأن ركب خيولهم كانت تخوض في دماء المسلمين التي سالت في الشوارع.. وقد كان من وسائل الترفيه لدى الصليبيين أن يشووا أطفال المسلمين كما تشوى النعاج.

ويذكر الكثيرون ما فعل ريتشارد قلب الاسد في الحملة الصليبية الثالثة عند احتلاله لعكا بأسرى المسلمين فقد ذبح ٢٧٠٠ أسير من أسرى المسلمين الذين كانوا في حامية عكا، وقد لقيت زوجات واطفال الاسرى مصرعهم الى جوارهم.

وقد ذكر غوستاف لوبون في كتابه (الحضارة العربية)[4] نقلا عن روايات رهبان ومؤرخين رافقوا الحملة الصليبية الحاقدة على القدس ما حدث حين دخول الصليبيين للمدينة المقدسة من مجازر دموية لا تدل إلا على

---

(١) الأيديولوجية الانقلابية، ص٧١٦.

(٢) تاريخ ابن الأثير: ١٨٩/٨-١٩٠.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية: ٤٠٤/١-٤٠٦.

(٤) الحضارة العربية: ص٣٢٥.

حقد أسود متأصل في نفوس ووجدان الصليبيين، فقد نقل عن الراهب روبرت، وهو أحد الصليبيين المتعصبين، وهو شاهد عيان لما حدث في بيت المقدس واصفا سلوك قومه:« كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها.. كانوا يذبحون الأولاد والشباب ويقطعوهم إربا إربا وكانوا يشنقون أناسا كثيرين بحبل واحد بغية السرعة، وكان قومنا يقبضون كل شيء يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعا ذهبية، فيا للشره وحب الذهب، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث »

وقال كاهن أبوس (ريموند داجميل) شامتا:« حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسرار القدس وبروجها، فقد قطعت رؤوس بعضهم، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم، وبقرت بطون بعضهم، فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار وحرق بعضهم في النار، فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا»

وقال واصفا مذبحة مسجد عمر:« لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدي المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها، فإذا اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها.. ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك، فعقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى الذين كان عددهم ستين ألفا، فأفنوهم على بكرة أبيهم في ثمانية أيام، ولم يستبقوا منهم امرأة ولا ولدا ولا شيخا »

ويقول لوبون:« وعمل الصليبيون مثل ذلك في مدن المسلمين التي اجتاحوها، ففي المعرة قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين في الجوامع والمختبئين في السراديب، فأهلكوا صبرا ما يزيد على مائة ألف إنسان في أكثر الروايات، وكانت المعرة من أعظم مدن الشام بعدد السكان بعد أن فر إليها الناس بعد سقوط أنطاكية وغيرها بيد الصليبيين»[1]

أهؤلاء المجرمون محررون..

قارن هذا بما فعله المسلمون بهم لما تمكنوا منهم..

لقد وصف المؤرخون ما حدث في اليوم الذي دخل فيه صلاح الدين الأيوبي إلى القدس فاتحا.. فلم ينتقم أو يقتل أو يذبح بل اشتهر المسلمون الظافرون في الواقع بالاستقامة والانسانية.. فبينما كان الصليبيون منذ ثماني وثمانين سنة يخوضون في دماء ضحاياهم المسلمين لم تتعرض أي دار من دور بيت المقدس للنهب، ولم يحل بأحد من الاشخاص مكروه، إذ صار رجال الشرطة يطوفون بالشوارع والأبواب تنفيذا لأمر صلاح الدين لمنع كل اعتداء يحتمل وقوعه على المسيحيين.

وقد تأثر الملك العادل لمنظر بؤس الأسرى، فطلب من أخيه صلاح الدين إطلاق سراح ألف أسير،

---

(١) الحضارة العربية: ص٣٩٦.

فوهبهم له، فأطلق العادل سراحهم على الفور، وأعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امراة عجوز.

وأقبل نساء الصليبيين، وقد امتلأت عيونهن بالدموع فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن بعد أن لقي أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم، أو وقعوا في الأسر، فأجاب صلاح الدين بأن وعد باطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن، وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كل بحسب حالته، فكانت رحمته وعطفه نقيض افعال الصليبيون الغزاة.

أما بالنسبة لرجال الكنيسة أنفسهم وعلى رأسهم بطريرك بيت المقدس، فإنهم لم يهتموا إلا بأنفسهم، وقد ذهل المسلمون حينما رأوا البطريرك هرقل، وهو يؤدي عشرة دنانير (مقدار الفدية المطلوبة منه) ويغادر المدينة، وقد انحنت قامته لثقل ما يحمله من الذهب، وقد تبعته عربات تحمل ما بحوزته من الأموال والجواهر والأواني النفيسة.

سكت قليلا، ثم قال: إن هذه الحملات الصليبية التي قادها البابوات لم تتوجه ضد المسلمين فقط، بل اتجهت في أوروبا ضد كل من حدثته نفسه بالخروج أو بالانحراف عن الكنيسة، ففي الحملة ضد الألبيجنس والوالدنس والكثاريين (Cathartics, Waldenses, Aibigenses) مثلاً — في القرنين الثاني عشر والثالث عشر — كانت الكنيسة تحاول إفناءهم إفناءً تامًا.. وهذا ما حققته فعلاً، فقتلت وحرقت وشنقت الرجال والنساء والأطفال بشكل جماعي.

لا شك أنك سمعت بـــ (ملحمة سان بارتلمى)، وهى مذبحة أمر بها سنة ٥٧٢م شارل التاسع وكاترينا دوميديسيس حينما قتلت كاترينا خمسة آلاف من زعماء البروتستانت فى باريس وظنت أنهم يتآمرون بها و بالملك، و لم يكد ينتشر الخبر فى باريس حتى شاع أنه شرع فى قتل البروتستانت فانقض أشراف الكاثوليك والحرس الملكى والنبالة والجمهور على البروتستانت وقتلوا عشرة آلاف نسمة فى مختلف المدن بعد باريس.

وقد باركت الكنيسة الكاثوليكية هذه المجزرة وما بدا السرور على أحد كما بدا على البابا غريغوري الثالث عشر، وقد أكر بضرب أوسمة خاصة تخليدا لذكرى هذه المذبحة، ورسمت على هذه الأوسمة صورة غريغوري و بجانبه ملك يضرب بالسيف أعناق البروتستانت.

وقد ذكر (بوري) في هذا الشأن بأن الأمر المهم، هو أن الكنيسة أدخلت في القانون العام الأوروبي: المبدأ القائل بأن الملك أو الأمير يستطيع أن يمارس سلطته على أساس واحد، وهو إفناء فرق الخارجين على الكنيسة، فإن تجاسر أحد على التردد أرغمته الكنيسة على الطاعة، بجعل امتيازاته وأراضيه ملكًا لأي فرد تستطيع الكنيسة أن توجهه لمهاجمته وتأديبه.

وفي مكان آخر من دراسته يفسر بأن اضطهاد روما للمسيحيين يعود إلى تعصب المسيحية، وإلى نقضها لجميع الأديان الأخرى، وإلى عدائها لجميع أشكال الإيمان خارج إيمانها، وإلى الاعتقاد بأن فوزها يعني إزالة جميع العقائد.

وقد كانت هذه الظاهرة سببا في جعل (وليم جيمس) يقرر أن العالم لم يعرف الاضطهاد الديني على

نطاق واسع، قبل ظهور الأديان الموحدة، فقد كانت المسيحية في الواقع أول مذهب ديني في العالم وجد خاصته في التعصب والذي كان يقضي بإفناء خصومه.

وقصة مذابح الصرب ضد المسلمين فى البوسنة ليست عنا ببعيدةٍ، ففى أربعة أعوام ذبح المسيحيون ٢٠٠,٠٠٠ مسلم و مسلمة واغتصبوا النساء وشقو بطون الحوامل ودفنو الناس أحياء.. وقصة سربينيتشا تلك القرية الصغيرة التى أعلنتها الأمم المتحدة منطقة آمنة إلا أن الصرب الصليبيين تعاونوا مع إخوانهم الهولنديين وغدرو بالقرية الآمنة، وقتلوا عشرة آلاف مسلم فى ليلةٍ واحدة.

نعم إن قومنا يتشدقون ـــ كعادتهم ـــ ويقولون بأن الحرب كانت عرقية لا دينية، مع أنهم يعلمون أن عرقية المسلمين هي نفس عرقيتهم.

لقد كان العالم كله يعلم أن الحرب بين الصرب والكروات حرب بين المسيحيين والمسلميين.. وكان ذنب المسلميين الوحيد فيها هو أنهم مسلمون.

سكت قليلا، ثم قال: لا شك أنك سمعت بمحاكم التفتيش..

قلت: أجل.. ولكني لم أسمع تفاصيل أخبارها.

قال: لقد بدأت هذه المحاكم فى القرن الثالث عشر لإرهاب (الهراطقة) الخارجين عن الكنيسة، لكن أشنع فصولها بدأ بسقوط غرناطة و وقوع المسلمين فريسة لعدو خائن نقض كل العهود و المواثيق التى وقعت فى عام ١٤٩١م بين أبى عبد الله الصغير وفرديناند و التى إشترط المسلمون أن يوافق عليها البابا ويقسم على ذلك، ولكن هيهات فهؤلاء لا عهد لهم ولا ذمة و مما جاء فى المعاهدة:« تأمين الصغير والكبير فى النفس والأهل والمال إبقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورباعهم وإقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم إلا بشربعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كما كانت، وألا يدخل نصرانى دار المسلم ولا يغصبوا أحدا...وألا يؤخذ أحد بذنب غيره وألا يكره من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ولا ينظر نصرانى على دور المسلمين ولا يدخل مسجدا من مساجدهم ويسير فى بلاد النصارى آمنا فى نفسه و ماله.. ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره فى أمور دينه »

ومع قسم فرديناند وإيزابيلا على كل هذا إلا أن الأيمان والعهود لم تكن عند ملكى المسيحيين سوى ستارا للغدر و الخيانة، فقد نقضت كل هذه الشروط، ولم يتردد المؤرخ الغربى(بروسكوت) أن يصفها بأنها أفضل مادة لتقدير الغدر الأسبانى ، فقد نقض الإسبان هذه المعاهدة بندا بندا، فمنعو المسلمين من النطق بالعربية فى الأندلس، وفرضوا إجلاء المسلمسن الموجودين فيها وحرق ما بقى منهم، وزاد الكردينال (أكزيمينيس) على ذلك، فأمر بجمع كل ما يستطيع من كتب المسلمين وفيها من العلوم ما لا يقدر بثمن بل هى خلاصة ما تبقى من الفكر الإنسانى وأحرقها.

يقول غوستاف لوبون متحسرا على فعلة ذلك الجاهل أكزيمينيس:« ظن رئيس الأساقفة أكزيمينيس أنه بحرقه مؤخرا ما قدر على جمعه من كتب أعدائه العرب (أى ثمانين ألف كتاب) محا ذكراهم من الأندلس إلى الأبد فما درى أن ما تركه العرب من الأثار التى تملأ بلاد إسبانية يكفى لتخليد إسمهم إلى الأبد »

لقد هدفت محاكم التفتيش إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأبشع الوسائل، و لم تكن العهود التى قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية التى أسبغت على سياسة إسبانيا الغادرة ثوب الورع والدين.

لقد قاوم المسلمون التنصير وأبوه وبدأ القتل والتنكيل فيهم، فثارو فى غرناطة وريفها، فمزقهم الأسبان بلا رحمة.

وفى عام ١٥٠١م أصدر الملكان الصليبيان مرسوما خلاصته:« إنه لما كان الرب قد إختارهما لتطهير غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال »

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب لتنجوا بدينها، ومن بقى من المسلمين أخفى إسلامه، وأظهر تنصره، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشى المروع، فحين التبليغ عن مسلم يخفى إسلامه يزج به فى السجون.

وكانت السجون وحشية رهيبة مظلمة عميقة تغص بالحشرات والجرذان ويصفد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم لتدفع نفقات سجنهم.

ومن أنواع التعذيب التي كانت تمارس فيها ملء البطن بالماء حتى الاختناق وربط يدى المتهم وراء ظهره وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه ورفعه وخفضه معلقا سواء بمفرده أو مع أثقال تربط به والأسياخ المحمية وتمزيق الأرجل وفسخ الفك.

وكانت أغلب الأحكام بالإحراق وهو الحكم الذى كان غالبا عند الأحبار الذين يشهدون تنفيذه مع الملكين الكاثوليكيين فى (حفلات الإحراق)

ويوم احتلال نلبليون لإسبانيا بعد قيام الثروة الفرنسية على أنقاض الكنيسة قام بإلغاء محاكم التفتيش، ولكن رهبان (الجزويت) أصحاب هذه المحاكم استمروا فى القتل والتعذيب، فشمل ذلك الجنود الفرنسيين المختطفين، فأرسل المريشال(سولت) الحاكم العسكرى المدنى امدريد الكولونيل (ليمونكى) مع ألف جندى وأربعمائة مدفع وهاجم دير الديوان، وبعد تفتيش الدير لم يعثرو على شىء، فقرر الكولونيل فحص الأرض وحينئذ نظر الرهبان إلى بعضهم البعض نظرات قلقة، وأمر الكولونيل جنده برفع الأبسطة فرفعوها، ثم أمر بأن يصبوا الماء فى كل غرفة على حدة، فإذا بالماء يتسرب إلى أسفل من إحدى الغرف، فعرف أن هناك بابا يفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت بجوار رجل مكتب الرئيس (تماما كما نشاهد فى أفلام الرعب) وفتح الباب واصفرت وجوه الرهبان وظهر سلم يؤدى إلى باطن الأرض.

لقد ذكر ذلك الكولونيل فى مذكراته:« فإذا نحن فى غرفة كبيرة مربعة وهى عندهم قاعة المحكمة وفى وسطها عمود من رخام به حلقة حديدية ضخمة ربطت بسلاسل كانت الفرائس تربط بها رهن المحاكمة وأمام ذلك العمود عرش (الدينونة) وهو عبارة عن دكة يجاس عليها رئيس محكمة التفتيش وإلى جواره مقاعد أخرى أقل ارتفاعا لبقية القضاة ثم توجهنا إلى آلات التعذيب وتمزيق الأجساد البشرية، وقد امتدت تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض، وقد رأيت بها ما يستفز نفسى، ويدعونى إلى التقزز ما حييت، رأينا غرفا صغيرة فى حجم الإنسان بعضها عمودى وبعضها رأسى فيبقى سجين العمودية واقفا فيها على رجليه مدة سجنه حتى

يقضى عليه، ويبقى سجين الأفقية ممددا بها حتى الموت، وتبقى الجثة بالسجن الضيق حتى تبلى ويتساقط اللحم عن العظم ولتصريف الروائح الكريهة المنبثقة من الأجداث البالية تفتح كوة صغيرة إلى الخارج، وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية لا زالت فى أغلالها سجينة، والسجناء كانوا رجال ونساء وأطفال وشيوخ ما بين الرابعة عشر إلى السبعين، وكان السجناء عراة زيادة فى النكاية بهم، وانتقلنا إلى الغرف الأخرى فرأينا ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات لتكسير العظام وسحق الجسم، وعثرنا على صندوق فى حجم الرأس تماما يوضع فيه رأس المعذب بعد أن يربط بالسلاسل فى يديه وقدميه فلا يقوى على الحركة فيقطر الماء البارد على رأسه من أعلى الصندوق نقطة نقطة، وقد جن الكثيرون من هذا اللون من العذاب، وعثرنا على آلة تسمى السيدة الجميلة، وهى عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الإستعداد لعناق من ينام معها، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة، وكانوا يطرحون الشاب المعذب فوق هذه الصورة، ثم يطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق الباب مزق الشاب إربا كما عثرنا على آلة لسل اللسان، ولتمزيق أثداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة ومجالد من الحديد الشائك لضرب المعذبين العراة حتى يتناثر اللحم من العظم »

لم أملك نفسي، فسالت دموع حارة من عيني، فقال: هذه مجرد أمثلة عن الجرائم التي ارتكبها أولئك الذين يحملون الصليب، ويرتلون الكتاب المقدس، ويغنون للسلام.

التفت إلي، وقال: لا تتعجب من ذلك.. فهم لا ينفذون إلا إرادة الرب.. لقد قال لهم يسوع:« لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُرْسِيَ سَلاماً عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُرْسِيَ سَلاَماً، بَلْ سَيْفاً. فَإِنِّي جِئْتُ لأَجْعَلَ الإِنْسَانَ عَلَى خِلاَفٍ مَعَ أَبِيهِ، وَالْبِنْتَ مَعَ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ مَعَ حَمَاتِهَا. وهَكَذَا يَصِيرُ أَعْدَاءَ الإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ » (إنجيل متى:٣٤:١٠-٣٦)

فلذلك هم ينفذون هذه الأوامر بدقة متناهية..

أما تفاصيل تطبيقها فقد شرحها لهم العهد القديم بما لا مزيد عليه..

قلت: ولكن الكتاب المقدس يقول:« من ضربك على خدك الايمن فأدر له خدك الايسر »

قال: أتدري المعنى الرمزي الذي تحمله (فأدر له خدك الايسر)؟

قلت: ألهذه الكلمة معنى رمزي؟

قال: أجل.. يختص به فقهاء المسيحية..

قلت: فما هو؟

قال: إن إدارة خدك الأيسر له لا تعني أن تمكنه من ضربه، ولكن تعني أن تحاول اجتثاثه وقلعه وإبادته.. فالخد الأيسر في معناه الرمزي هو الإبادة بكل ما شرح الكتاب المقدس من طرق الإبادة.

الحضارة الغربية

قلت: لقد اقشعر قلبي مما ذكرت مما فعله أهل ديني.. فحدثني عن أهل حضارتنا.. هذه الحضارة الممتلئة بالفلسفات والمذاهب والأفكار.

قال: لو ذهبت أحدثك عن جرائمها لما انتهينا.. ولذلك سأكتفي بتحديثك عن الجرائم التي أسست لتلك الدولة العظمى التي لا تزال تنشر الخراب في العالم.. في نفس الوقت الذي تصم كل من يخالفها بالإرهاب.

قلت: تقصد أمريكا؟

قال: أجل.. فأمريكا ثمرة خبيثة من ثمار اليهودية والمسيحية والأفكار الرومانية التي لبست لباس الفلسفة الحديثة.

قلت: فما فعلت أمريكا؟.. تلك التي تحن لها القلوب.

قال: وترجف من ذكرها القلوب.

قلت: ما فعلت [1]؟

قال: في عام ١٦٦٤م، صدر كتاب بعنوان (العملاق) كتبه (يوردجاك) تضمن نصائح للقيادات الأنجلوساكسونية المترعمة للمهاجرين البروتستانت إلى القارة الأمريكية الجديدة، جاء فيه:« إن إبادة الهنود الحمر والخلاص منهم أرخص بكثير من أي محاولة لتنصيرهم أو تمدينهم ؛ فهم همج، برابرة، عراة، وهذا يجعل تمدينهم صعباً، إن النصر عليهم سهل، أما محاولة تمدينهم فسوف تأخذ وقتاً طويلاً، وأما الإبادة فإنها تختصر هذا الوقت، ووسائل تحقيق الانتصار عليهم كثيرة: بالقوة، بالمفاجأة، بالتجويع، بحرق المحاصيل، بتدمير القوارب والبيوت، بتمزيق شباك الصيد، وفي المرحلة الأخيرة: المطاردة بالجياد السريعة والكلاب المدربة التي تخيفهم ؛ لأنها تنهش أجسادهم العارية»

وفي عام ١٧٣٠ م، أصدرت الجمعية التشريعية (البرلمان) لمن يسمون أنفسهم (البروتستانت الأطهار) تشريعاً يقنن عملية الإبادة لمن تبقى من الهنود الحمر، فأصدرت قراراً بتقديم مكافأة مقدارها ٤٠ جنيهاً مقابل كل فروة مسلوخة من رأس هندي أحمر، و٤٠ جنيهاً مقابل أسر كل واحد منهم، وبعد خمسة عشر عاماً ارتفعت المكافأة إلى ١٠٠ جنيه، ثم وضع البرلمان البروتستانتي (تسعيرة) جديدة بعد عشرين عاماً من صدور القرارات الأولى: فروة رأس ذكر عمره ١٢ عاماً فما فوق: ١٠٠ جنيه، أسير من الرجال: ١٠٥ جنيهات، أسيرة من النساء أو طفل: ٥٥ جنيهاً، فروة رأس امرأة أو فروة رأس طفل: ٥٠ جنيهاً.

وفي عام ١٧٦٣ م أمر القائد الأمريكي، البريطاني الأصل (جفري آهرست) برمي بطانيات كانت تستخدم في مصحات علاج الجدري في أماكن تجمعات الهنود الحمر، لنقل مرض الجدري إليهم بهدف نشر

(١) انظر هذه التفاصيل وغيرها في: أمريكا واسرائيل وعقدة الدم، د. عبد العزيز بن مصطفى كامل.

المرض بينهم ؛ مما أدى إلى انتشار الوباء الذي نتج عنه موت عشرات الألوف منهم.

وبعد عقود قليلة انتهى أمر السكان الأصليين في القارة الأمريكية إلى ما يشبه الفناء، بعد الإبادة المنظمة لهم على أيدي المبشرين بالمحبة، والسلام للبشرية جمعاء.

وبعد فراغ القارة الأمريكية من العبيد (الحمر) قرر الأمريكيون استيراد عدة ملايين من العبيد (السمر) لخدمة (الشعب المختار) فتحول رعاة البقر إلى بحارة يجوبون السواحل الإفريقية لاصطياد العبيد وحشرهم في سفن الشحن، في عمليات إجرام أخرى يعالجون بها آثار الجريمة الأولى في حق الهنود الحمر، حيث لم يبق لديهم ما يكفي من الأيدي العاملة لبناء صرح الحضارة الجديدة.

وقد جلب الأوربيون والأمريكيون في أول الأمر ما لا يقل عن ١٢ مليوناً من الأفارقة المسترقين، جاءوا بأفواجهم في الأصفاد، وكانت البرتغال أكثر الدول الأوروبية توسعاً في جلب هؤلاء إلى أراضي العالم الجديد في أمريكا، دون توفير أدنى الضمانات لتلك (المخلوقات) الإفريقية التي لم يَرْقَ التعامل معهم إلى مستوى التعامل مع فئران المعامل ؛ فقد صدر عن منظمة اليونسكو عام ٧٨٩١م تقرير يحكي فظاعة ما حصل للأفارقة وهول الكارثة الإنسانية التي حلت بهم لهم من أجل تعمير أمريكا ؛ فقد جاء فيه أن إفريقيا فقدت من أبنائها في تجارة الرقيق نحو ٢١٠ مليون نسمة، وذكرت التقارير أن ما لا يقل عن خمسة وعشرين مليوناً من الأفارقة الذين تم شحنهم من أنحاء القارة في أفواج من (جزيرة جور) الواقعة في مواجهة العاصمة السنغالية (داكار) قد هلك أكثرهم قبل أن يصلوا إلى العالم الجديد مما لقوا في رحلات العذاب داخل سفن شحن المواشي.

ويذكر هنا أن أمريكا، وأمريكا بالذات.. هي التي أحبطت في مؤتمر (دوربان) عام ٢٠٠٠م مطالب الأفارقة بالتعويض عما حدث لهم، بل رفضت أن يقدم لهم مجرد اعتذار، ومع كل هذا لا يزال كثير من المغفلين أو المغرضين يرفعون عقيرتهم قائلين: إن أمريكا محررة العبيد.

وقد بقي الأمريكيون مشغولين عن التدخل في شؤون العالم ثلاثة قرون، تاركين ذلك للجزء الأصلي من الشعب الساكسوني المختار (بريطانيا) ثم قرروا بعد نشوب الحرب العالمية الثانية أن ينفتحوا على العالم، وكانت بداية ذلك الانفتاح دموية قاتلة.

ليست هذه فقط هي جرائم الأمريكان..

هناك جرائم أخرى كثيرة.. سأذكر لك واحدة منها:

بالرغم من أن الحرب العالمية الثانية أفقدت العالم ما لا يقل عن خمسين مليوناً من البشر، فإن خسارة الأمريكيين لخمسة آلاف جندي، بعد الهجمات اليابانية بطائرات (الكاميكازا) على (ميناء هاربر) الأمريكي عام ١٩٤٥م أفقدت الأمريكيين عقلهم؛ فلأول مرة يخسر الشعب الأمريكي (المختار) هذا الكم الهائل من الدماء في معركة واحدة، فكان لا بد أن يكون الرد حقداً يصب على رؤوس اليابانيين المدنيين منهم قبل العسكريين، وهذا ما حدث.

فمقابل دماء الخمسة آلاف جندي أمريكي، أقبل الأمريكيون الأنجلو ساكسون على الانتقام المجنون، فأمر الجنرال (جورج مارشال) رئيس الأركان الأمريكي في ذلك الوقت، بتنفيذ عمليات قصف تدميري واسع

النطاق للمدن اليابانية الكثيفة السكان، فتم إطلاق ٣٣٤ طائرة أمريكية لإلقاء القنابل الحارقة لتدمر ما مساحته ١٦ ميلاً مربعاً، ولتقتل في ساعات نحو ١٠٠ ألف شخص، وتشرد نحو مليون آخرين، في عمليات جحيم مستعر شمل طوكيو و٦٤ مدينة يابانية أخرى.

ثم ختم ذلك المشهد الدموي بمشهد آخر أكثر دموية لم يكن للبشرية به عهد قبل مجيء العهد الأمريكي ؛ فقد أقدم الأمريكيون وهم القوة المتظاهرة اليوم بالدعوة إلى التعقل في استعمال أسلحة الدمار الشامل إلى استعمال هذا السلاح، وكانوا أسبق البشر إلى استعماله عندما أسقطوا قنبلتين نوويتين فوق مدينتي هيروشيما وناجازاكي، حصدت بسببها عشرات الآلاف من الأرواح بلا أدنى تفريق بين مدني وعسكري، أو رجل وامرأة وطفل.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وقعت أزمة بين أمريكا وكوريا الشمالية بسبب خوف الأمريكيين من انتشار النفوذ السوفييتي في جنوب شرق آسيا، فتدخلوا بسبب ذلك في الأراضي الكورية، وعزل الأمريكيون الحكومة الشعبية، وأغرقوا البلاد في حروب طاحنة أشاعت ناراً ودماراً، ولكنها بعثت في الوقت نفسه نوعاً من الارتياح النفسي في قلوب زعماء (الشعب المختار)

يقول ناعوم تشومسكي، الكاتب الأمريكي المعروف، واصفاً نتائج تلك الحرب:« أشعلنا حرباً ضروساً، سقط خلالها ١٠٠ ألف قتيل.. وفي إقليم واحد صغير سقط ٣٠ ألفاً إلى ٤٠ ألفاً من القتلى أثناء ثورة قام بها الفلاحون »

ويصف ذلك الكاتب كيف أن حكومة بلاده تدوس على « القيم » الديمقراطية إذا ما تبين أنها تحول بين أمريكا وبين مصالحها الذاتية، فيقول:« لم يُثر انقلاب فاشي في كولولمبيا إلا قليلاً من احتجاج حكومة الولايات المتحدة، بينما لم تهتم بانقلاب عسكري في فنزويلا، ولا بعودة السلطة للمعجب بالفاشية في بنما، ولكن المرارة والعداوة التهبت في حكومتنا عندما صعدت للسلطة أول حكومة ديمقراطية في تاريخ جواتيمالا »

وبينما لم تأبه أمريكا بقيام أنظمة ديكتاتورية معادية للديمقراطية ما دامت تخدم الأغراض الغربية، فقد أطاح الأمريكيون ــ كما قال تشومسكي ــ بالعديد من الحكومات (الديمقراطية) عندما ظهر لهم أن تلك الأنظمة الديمقراطية لا تخدم مصالحهم الإجرامية.. يقول: « أعاقت حكومتنا بعض الحكومات البرلمانية، وأسقطت بعضها، كما حدث في إيران عام ١٩٥٣م، وجواتيمالا عام ١٩٤٥م، وتشيلي عام ١٩٧٢م، ولم تكن أساليب الإسقاط طبيعية جداً، فلم يكن القتل العادي هو عمل القوات التي حركناها في نيكاراجوا، أو عمل وكلائنا الإرهابيين في السلفادور أو جواتيمالا، ولكنه كان بصفة واضحة قتل القسوة والتعذيب السادي: تعليق النساء من أقدامهن، بعد قطع أثدائهن، وفض بكارتهن، وقطع الرؤوس وتعليقها على خوازيق، ورطم الأطفال بالجدران حتى يموتوا.. »

سكت قليلا، ثم قال: ألم تسمع بعقدة فيتنام؟

قلت: أنا أسمع بعقدة أوديب.

قال: هذه قريبة من تلك.. ولكن الفرق بينهما أن هذه العقدة مختصة بالأمريكيين وبأصولهم من

الأوروبيين.. ويستحيل على أي عالم نفس أن يعالجها.

قلت: ما هذه العقدة الخطيرة؟

قال: هي عقدة الانتقام.. لقد ذكرت لك واقعة قتل (خمسة آلاف جندي) أمريكي على يد اليابانيين في حادثة ميناء هاربر أثناء الحرب العالمية الثانية.

قلت: أجل..

قال: لقد عرفت كيف انتقم الأمريكيون لها.

قلت: هذه عقدة اليابان لا عقدة الفيتنام.

قال: كلاهما يصدر من مشكاة واحدة ومن قلب حقود واحد.. لقد خسر الأمريكان في فيتنام ٥٥ ألف قتيل من الغزاة العسكريين، الذين دخلوا أرض الفيتنام ظلما.. وقد سبب ذلك لدى الأمريكيين عقدة مزمنة اسمها (عقدة فيتنام)

أما سبب الشهرة فمعروف، وهو أن القتلى أمريكيون بيض.. أنجلو ساكسون! في غالبيتهم، ومنتسبون للشعب المختار، لهذا فمثلما انتقم الأمريكيون من اليابانيين فأسرفوا في الانتقام، فقد ثأروا من الفيتناميين فأفرطوا في الثأر؛ فقد بلغ عدد القتلى الفيتناميين عند انتهاء الحرب عام ١٩٥٧م أكثر من مليون.. هذا هو الرقم المشهور.. ولكن مجلة نيويورك تايمز نشرت في (١٩٩٧/١٠/٨م) أن العدد الحقيقي بلغ ٣. ٦ مليون قتيل.

وكل هذا العدد لم يكن كافياً لإرواء الظمأ الدموي للحاقد الأمريكي، فقد كشفت السلطات الأمريكية في أول مارس ٢٠٠٢م، أن الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون قال في مكالمة هاتفية مع كيسنجر في شهر أبريل ١٩٧٢م: « إنني أفضل استخدام القنبلة النووية »، فرد عليه كينسنجر: « أعتقد أن هذا خيار خطر جداً» فقال نيكسون بغضب: « هل تزعجك هذه الفكرة؟ أنا أريدك أن تكون أكثر جرأة »

أما ما حدث بين عامي ١٩٥٢م، ١٩٧٣م، فلا يستحق الشهرة أيضاً ؛ لأن القتلى لا تجري في عروقهم دماء (مقدسة)، أمريكية أو إنجليزية أو إسرائيلية، لقد قتل الأمريكيون بين العامين المذكورين زهاء عشرة ملايين صيني وكوري وفيتنامي وروسي وكمبودي.

وفي بداية الحرب الفيتنامية، تسببت تلك الحرب حتى حلول منتصف عام ١٩٦٣م في مقتل ١٦٠ ألف شخص، وتعذيب وتشويه نحو ٧٠٠ ألف شخص، واغتصاب نحو ٣١ ألف امرأة، وبقر بطون نحو ثلاثة آلاف شخص وهم أحياء، وإحراق أربعة آلاف آخرين حتى الموت، ومهاجمة ٤٦ قرية بالمواد السامة، وتسبب قصف مدينة هانوي عام ١٩٧٢م في إصابة أكثر من٣٠ ألف طفل بالصمم الدائم، وفقدان ٣٠٠ ألف عائلة لعائلها أو أحد أفرادها، وفي جواتيمالا قتل الجيش الأمريكي صاحب الكفاءة والشجاعة أكثر من ١٥٠ ألف مزارع في الفترة ما بين ١٩٦٦ إلى ١٩٨٦م.

سكت قليلا، ثم قال: هل تعرف القتل بالوكالة.. والعمالة؟

قلت: لا.. هذه أول مرة أتشرف بسماع هذا النوع من الجرائم.

قال: هذا ما مارسته أمريكا منذ ولدت أمريكا.. ولا زالت تمارسه ببشاعة لا نظير لها.

فبتواطؤ أمريكي شبه فعلي، قُتل مئات الآلاف من الأشخاص في مجازر عديدة في أندونيسيا ونيكاراجوا والسلفادور وهندرواس، وقتْل هؤلاء وإن كان بأيد غير أمريكية، إلا أنه كان بأسلحة أمريكية، ومشورة أمريكية وتدريب أمريكي مثلما يحدث الآن في فلسطين وأفغانستان والفلبين وغيرها.

وقد تكررت المجازر في أنجولا وموزمبيق وناميبيا وغيرها من دول القارة الإفريقية، وعرف العالم في السنوات الأخيرة عدداً من الطغاة الملفوظين من شعوبهم، والمدعومين من (الشعب المختار) من أمثال: (سوموزا) في نيكاراجوا، و(بينوشيه) في تشيلي، و(ماركوس) في الفلبين، و(باتيسيتا) في كوبا و(دييم) في فيتنام و(دوفاليه) في هايتي و(سوهارتو) في إندونيسيا، و(فرانكو) في إسبانيا.

وهناك زعماء آخرون رفضهم العالم واحتضنهم الأمريكيون، وهم زعماء المافيا الإسرائيليون من بن جوريون إلى شارون حيث لم يعدّ (أحرار) أمريكا واحداً من هؤلاء السفاحين إرهابياً، ولم يطالب شعبها باعتقال أي منهم لتقديمه للعدالة كي يحاكم عن جرائمه ضد الإنسانية، أو يحاسب على سجلاته الإرهابية.

سكت قليلا، ثم قال: أتعرف محور الشر؟

قلت: هم يقصدون بها بلاد المسلمين.. وهم في هذه الأيام يطلقون على إيران..

قال: عند ما كانت إيران إحدى العِزَب الأمريكية في آسيا في عهود الإمبراطورية البهلوية، كانت محورا للخيرا.. ولكنها بعد قيام الثورة الإسلامية التي خلصت المستضعفين من نير المستكبرين، وحطمت الطغاة بمعاول الحق، عام ١٩٧٩م، اعتبر الأمريكان هذا التطور ضاراً بمصالحهم.

فخططوا له أن يضرب بسيوف إخوانه.. وهنا حدث ما يسمى حرب الخليج الأولى، حيث نشبت هذه الحرب بتواطؤ أمريكي أمدت أمريكا فيها العراق بكل ما تحتاجه من أسلحة التقتيل والتدمير، بل إنها أظهرت ميلاً سياسياً نحو مساندته لضمان مساعدته من الدول الصديقة لها.

ولكنها في الوقت ذاته، كانت تضمر الشر للعراق كما كانت تضمره لإيران، وكان جوهر الموقف الأمريكي من تلك الحرب هو ما كان يردده اليهودي الأمريكي المخضرم (هنري كيسنجر): « سياستنا تجاه تلك الحرب أن لا تهزم العراق، وألا تنتصر إيران»

لقد حقق العراق – بانحياز أمريكي تكتيكي – نصراً صعباً وغير مكتمل على إيران، ولكنه خرج قوياً بعد تلك الحرب، وهذا ما لم يستطع الأمريكيون الصبر عليه بسبب قرب العراق من حليفتهم (إسرائيل)، وكان لا بد من إجراء يشبع الرغبات السادية لدى الأمريكيين والإسرائيليين في رؤية دماء أحفاد البابليين وهي تسيل قرب ضفتي دجلة والفرات.

وبدأت الحرب ضد العراق.. وقد وصف بعضهم تلك الحرب بكلمات أوردتها صحيفة التايمز البريطانية بعد إعلان وقف إطلاق النار، حيث جاء فيها:« كانت الحرب نووية بكل معنى الكلمة، وجرى تزويد جنود البحرية والأسطول الأمريكي بأسلحة نووية تكتيكية، لقد أحدثت الأسلحة المطورة دماراً يشبه الدمار النووي، واستخدمت أمريكا متفجرات وقود الهواء المسماة (BLU-٨٢) وهو سلاح زنته ١٥٠٠٠ رطل وقادر

على إحداث انفجارات ذات دمار نووي حارق لكل شيء في مساحة تبلغ مئات الياردات »

واستخدمت أمريكا وبريطانيا قنابل اليورانيوم المستنفد لأول مرة ؛ حيث أطلقت الدبابات ستة آلاف قذيفة يورانيوم، بينما أطلقت الطائرات عشرات الآلاف من هذه القنابل، وقدر أحد التقارير السرية لهيئة الطاقة الذرية البريطانية كما قالت الصحيفة مقدار ما ألقي على العراق بأربعين طناً من اليورانيوم المنضب، وألقي من القنابل الحارقة ما بين ٦٠ إلى ٨٠ ألف قنبلة، قتل بسببها ما لا يقل عن ٥٢ ألف شخص حسبما أعلنت السلطات الأمريكية نفسها، أما الأمريكيون فلم يسل لهم دم يذكر على أرض العراق ؛ لأنهم كانوا يقاتلون من الجو، بعد أن شلوا سلاح الطيران العراقي على الأرض، وقد راقت هذه النتائج لأمزجة الأنجلوساكسون الذين راحوا يتلمظون الدماء العراقية ويتشهون مناظرها وينشرون أخبارها (السارة) على شعوبهم الحرة.

لقد نشرت صحيفة الجارديان البريطانية في شهر ديسمبر ١٩٩١م تقريراً بعنوان: (دفن الجنود العراقيين أحياء) نقلت فيه عن العقيد الأمريكي (بانتوني مارينوم) قائد الوحدة الثانية في الجيش الأمريكي قوله وهو يصف عمليات طمر العراقيين في الخنادق أحياء:« من المحتمل أن نكون قد قتلنا بهذه الطريقة آلاف الجنود العراقيين.. لقد رأيت العديد من أذرع الجنود وهي تتململ تحت التراب وأذرعها ممسكة بالسلاح»

ويبدو أن الاهتمام بالكيف غطى على الاهتمام بالكم في رصد الأمريكيين لمجريات عمليات القتل ؛ حيث كان السؤال المطروح دائماً، ليس هو كم سقط من القتلى؟ وإنما كيف سقطوا وبأي سلاح (ناجح) قتلوا ؛ فقد سئل (كولن باول) الذي كان وقت الحرب رئيساً لأركان الجيش الأمريكي عن عدد القتلى من العراقيين فقال:« لست مهتماً به إطلاقاً»

نعم.. لم يكن مهماً عند باول أن مئتي ألف قتلوا من جراء تلك الحرب، وأن منهم آلافاً قتلوا أثناء انسحابهم، وإنما كان المهم عند رئيس أركان الحرب في أمريكا سابقاً ورئيس الدبلوماسية لاحقاً أن يعرف مدى (فاعلية) الأنواع المختلفة من وسائل القتل الأمريكية.

قصف الطيران الأمريكي أرتالاً من القوات العراقية أثناء انسحابها من الكويت، فقتل منهم الآلاف، حتى سمي الطريق الذي سلكوه في الانسحاب (طريق الموت)، ووصف أحد الطيارين المشاركين في عمليات قصف القوات ما حدث بقوله:« كان الأمر كأنني أطلق النار على سمك في برميل، فأين يهرب؟! وكيف نحصي الصيد والضربة الواحدة تصيب عشرات الأهداف؟»

و لم يكن الأمر مقتصراً على العسكريين ؛ فقد قتل نحو ثمانية آلاف من المدنيين، منهم أربعمائة قضوا تحت الأرض في ملجأ العامرية، أثناء اختبائهم من القصف الهمجي.

لقد أطلق الأمريكيون على تلك الحرب وصف (الحرب النظيفة) لا لشيء إلا لأنها كما يقولون تقوم على استراتيجية التصويب العسكري الدقيق باستخدام أدوات التسليح الإلكتروني (الذكي) الذي يجنب الأمريكيين الاحتكاك العسكري المباشر الذي (قد) يسفر عن سقوط ضحايا عسكرية (بريئة)

لقد أدمنوا هذه النظافة القذرة بعد تلك الحرب ؛ لأنها تحقق رغباتهم الدموية في إشباع النهم الأنجلوساكسوني من دماء (الأمميين) وتجنبهم الارتعاب والارتعاد من سيلان قطرات من دماء (الشعب

المختار)

وقد تبع هذه الحرب حرب أخرى، كانت أكثر أمناً للأمريكيين، وأكثر فتكاً بالعراقيين، وهي حرب الحصار التي قتل بسببها من الأطفال فقط ما لا يقل عن مليون طفل، لم تحرك دماؤهم المتجمدة نبضاً من إحساس في عروق الأمريكيين ومنظماتهم (الإنسانية) بل إن وزيرة الخارجية الأمريكية اليهودية السابقة (مادلين أولبرايت) لما سئلت عام ١٩٩٦م عن ضحايا الحصار، وكانوا وقتها نصف مليون طفل (فقط)، وهل هناك مسوغ مشروع لهذا القتل الجماعي في الشرعية الدولية؟ أجابت:« قرار الحصار كان صعباً ؛ لأنه يستدعي ثمناً باهظاً من الضحايا، ولكن هذا الثمن كان من الضروري دفعه»

وقد استخدم الأمريكان الأسلوب نفسه في حروب البوسنة وكوسوفا التي ادعى الأمريكان أنهم خاضوها من أجل تحرير شعوب البلقان من الطغيان الصربي، مع أنهم في الحقيقة أرادوا أن يحلوا محل الصرب في السيطرة الاستراتيجية على منطقة البلقان، وإلا فإن شكاية أهالي تلك البلدان من آثار تلك الحرب الأمريكية تدمي القلوب ؛ فقد ألقت أمريكا على سكان البلقان ــ أثناء « تحريرهم » ــ أكثر من عشرة أطنان من اليورانيوم المنضب، والأنباء تتحدث عن أن حالات سرطان الدم قد قفزت إلى مستويات مخيفة ؛ حيث بدأ سكان كوسوفا والبوسنة يشعرون ــ بعد (التحرير) الأمريكي ــ أنهم أصبحوا فرائس الإشعاعات التي لا يمكن الفرار منها.

قلت: إن كل ما ذكرته من جرائم من فعل أمريكا.. والحضارة الغربية لا تمثلها أمريكا وحدها..

قال: تريد أن أحدثك عن أوروبا..

قلت: تاريخ أوروبا أنظف من تاريخ أمريكا..

قال: كلاهما يصدر من قلب حقود واحد.. لقد تداعت دول أوروبا على البلدان الإفريقية، في شمالها وجنوبها وشرقها وغربها ووسطها، وتقاسموها فيما بينهم ــ على شدة الاختلافات السائدة بينهم ــ وأنزلوا بسكانها من الدمار والهلاك، ما تتورع عنه الوحوش في غاباتها، قضوا في كل بلد على زعمائه وقادته وسفكوا دماء الآلاف من أبنائه، بدون تفرقة بين الرجال والنساء، والشيوخ والكهول والشباب والأطفال، وشردوا الآلاف المؤلفة، وحرموا من بقي في البلاد من أقل حقوق الإنسان التي يتشدقون بالدعوة إليها، فأذلوا بذلك سكان البلدان الإفريقية كلهم واستعبدوهم ونهبوا خيراتهم، كل ذلك باسم الاستعمار والتحرير.

لقد نقل الأمير شكيب أرسلان عن بعض المراسلين الأوروبيين الذين رافقوا الجيوش الإيطالية عندما اغتصبت ليبيا شيئا، يسيرا مما ذكره أولئك المراسلون وشاهدوه من أعمال غزاة النصارى الوحشية، فقال:« وليس المسلمون وحدهم هم الذين شاهدوا أعمال الطليان وضجوا منها، بل ثمة كثير من الإفرنج شاهدوها وأنكروها، ومن ذلك المستر (فرانسس ماكولا) الإنجليزي الذي كان مرافقا للجيش الإيطالي في طرابلس عند الاحتلال وشاهد تلك الفظائع بعينه، فقد قال:« أبيت البقاء مع جيش لا هم له إلا ارتكاب جرائم القتل، وإن ما رأيته من المذابح، وترك النساء المريضات العربيات وأولادهن يعالجون سكرات الموت على قارعة الطريق جعلني أكتب للجنرال (كانيفا) كتابا شديد اللهجة، قلت له: إني أرفض البقاء مع جيش لا أعده جيشا، بل

عصابة من قطاع الطرق والقتلة »

ومن ذلك شهادة الكاتب الألماني (فون غوتبرغ) الذي قال:« إنه لم يفعل جيش بعدوه من أنواع الغدر ما فعله الطليان في طرابلس، فقد كان الجنرال كانيفا يستهين بكل قانون حربي، ويأمر بقتل جميع الأسرى، سواء أقبض عليهم في الحرب أو في بيوتهم، وفي سيراكوزه الآن كثير من الأسرى الذين لم يؤسر واحد منهم في الحرب، وأكثرهم من الجنود الذين تركوا في مستشفى طرابلس.

وقد قبض الطليان على ألوف من أهل طرابلس في بيوتهم ونفوهم، بدون أدنى مسوغ إلى جزر إيطاليا حيث مات أكثرهم من سوء المعاملة.

وأقر ما قاله (هرمان رنولوف) المراسل النمساوي الحربي فقد وجد في الباخرة التي نقلت جانبا من هؤلاء الأسرى فوصف تلك الحالة، فقال:« في الساعة السادسة من مساء كل يوم يكبل هؤلاء المرضى بالحديد في اليد اليمنى والرجل اليسرى، حقا إن موسيقى هذه السلاسل تتفق مع المدنية التي نقلتها إيطاليا إلى إفريقيا، لا ريب أن الطليان قد أهانوا كثيرا، فلم يكف أنهم أسقطوا منزلة أوروبا العسكرية في نظر إفريقيا، حتى شوهوا اسم النصرانية أمام الإسلام »

ثم قال:« وقد قتل الطليان في غير ميدان الحرب كل عربي زاد عمره على أربع عشرة سنة، ومنهم من اكتفوا بنفيه »

وأحرق الطليان في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩١١م حيا خلف بنك روما، بعد أن ذبحوا أكثر سكانه بينهم النساء والشيوخ والأطفال قال:« ورجوت طبيبين عسكريين من أطباء المستشفى، أن ينقلوا بعض المرضى والمصابين المطروحين على الأرض تحت حرارة الشمس فلم يفعلا، فلجأت إلى راهب من كبار جمعية الصليب الأحمر، هو الأب (يوسف بافيلاكو) وعرضت عليه الأمر، وأخبرت شابا فرنسيا أيضا، لكن الأب (بافيلاكو) حول نظره عني ونصح الشاب بأن لا يزعج نفسه بشأن عربي في سكرات الموت، وقال:« دعه يموت »

ثم قال هذا المراسل النمساوي:« ورأيت على مسافة قريبة جنديا إيطاليا يرفس جثة عربي برجله، وصباح اليوم التالي وجدت الجرحى والمرضى الذين رجوت الراهب من أجلهم قد ماتوا.. »

ثم قال:« رأينا طائفة من الجنود تطوف الشوارع مفرغة رصاص مسدساتها في قلب كل عربي تجده في طريقها، قد نزع أكثرهم معاطفهم، ورفعوا أكمام قمصانهم كأنهم جزارون »

وقال المسي كسيرا مراسل جريدة (إكسليسيور) الباريسية:« لا يخطر ببال أحد ما رأيناه بأعيننا من مشاهد القتل العام ومن أكوام جثث الشيوخ والنساء والأطفال، يتصاعد منها الدخان تحت ملابسهم الصوفية كالبخور يحرق أمام مذبح من مذابح النصر الباهر، ومررت بمائة جثة بجانب حائط قضي عليهم بأشكال مختلفة.

وما فررت من هذا المنظر حتى تمثلت أمام عيني عائلة عربية قتلت عن آخرها، وهي تستعد للطعام، ورأيت طفلة صغيرة أدخلت رأسها في صندوق حتى لا ترى ما يحل بها وبأهلها. إن الإيطاليين فقدوا عقولهم وإنسانيتهم

من كل وجه »[1]

هذه نصوص مختزلة لبعض المراسلين الأوروبيين عن وحشية الإيطاليين وقساوة قلوبهم وخلوها من الرحمة، في بلد واحد وهو ليبيا ومن جيش بلد أوروبي واحد، هو الجيش الإيطالي برضا الدول الأخرى في أوروبا، وهو مثال ينطبق على كل البلدان التي اغتصبها الأوروبيون في إفريقيا وغيرها.

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي للأمير شكيب أرسلان.

٢ ــ سلام الإسلام

وضعت يدي على فمه، وقلت: بالله عليك إلا كففت من حديثك هذا.. فقد ملأتني غيظا وحقدا ورعبا.

قال: لم أذكر لك شيئا.. إن الحقيقة لا يمكن تصويرها ولا تصورها.. لعل الملائكة الذين ذكرهم القرآن في قوله:﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ (البقرة: من الآية٣٠) كانوا يقصدون هذه الحضارة.. وهذا الإنسان المتربي في كنفها المتعطش للدماء.

قلت: حدثني عن سلام الإسلام.

قال: ذاك حديث وطويل وعذب لا يمكنه أن نوفيه حقه في هذه الجلسة[1].. ولكني سأحدثك عن السلام الذي اشتهر الحديث عنه.. السلام المرتبط بالحرب.

قلت: لقد أمر الإسلام بالحرب.. فكيف يستقيم السلام مع الحرب.

نظر إلى الشاب الجالس أمامنا.. وقد علته الهموم، فقال: أرأيت لو أن هذا الشاب كان يملك قوة يحمي بها حقل زيتونه.. هل يجرؤ أحد على الاقتراب منه؟

قلت: لا.. لن يجرؤ أحد على الاقتراب منه.

قال: ولهذا أمر الإسلام بالقوة وبالإعداد الذي يرهب الأعداء الظالمين، فلا يطمعون في المستضعفين.. لقد جاء في القرآن:﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (لأنفال: من الآية٦٠)

قلت: القرآن يستعمل مصطلح الإرهاب.

قال: الإرهاب لا يعني القتل.. بل يعني وضع الروادع للظالمين حتى لا يفكروا في القتل.. ولهذا، فإن نظام الحرب في الإسلام يعتمد هذا المنهج.. ولهذا كانت الحروب التي خاضها الإسلام من أنظف الحروب على الإطلاق.. وفي إمكانك أن تستقرئ التاريخ لتعرف ذلك.

قلت: فحدثني عن ذلك.

قال: لا يمكنك أن تفهم موقف الإسلام من الحرب، وتشريعاته المرتبطة بها حتى تعلم موقفه من السلام.

قلت: فحدثني عنه.

قال: لقد قرأت الكتب المقدسة للأديان جميعا.. وقرأت خلاصات الأفكار والمذاهب والفلسفات، فلم أجد دينا حوت نصوصه المقدسة ذلك الحض على السلام مثلما حمله الإسلام.

لقد تناول القرآن لفظ (السلم) و(السلام) في عشراتٍ الآيات؛ ليس ذلك فحسب، بل إنَّ السلام ــ عند المسلمين ــ اسمٌ من أسماء الله، وقد جعله تحيَّته إلى عباده، وأمرهم بأن يجعلوا السلام تحيَّتهم.. يلقيها بعضهم على بعض، باعتبارها شعارهم في جميع مجالات الحياة.

---

(١) انظر تفاصيل هذا في رسالة(سلام للعالمين) من هذه السلسلة.

وقد قامت الدولة الإسلاميَّة الأولى في ظلِّ قيادة محمد على أساس توافر هذه المقوّمات التي لم ينقص من أهمِّيَّتها وأثرها في تكوين الوحدة الوطنيَّة أن يكون لأبنائه يومئذ أكثر من دينٍ واحد.

لقد قامت دولة الإسلام الأولى ودستورها المثالي ــ كما تقرِّره صحيفة الموادعة بين المسلمين واليهود ــ بسط جناح الأمن والسلام والإخاء على أهل المدينة جميعها بدرجةٍ واحدة، مساواةً تامَّةً في الحقوق والواجبات، لا يلمح فيها ظلاً للتفريق بين المسلم صاحب الأكثريَّة والرياسة، وبين اليهودي الذي يمثِّل الأقليَّة التابعة، فضلاً عن المسيحي الذي تشدّه إلى المسلم روابط وثيقة، لا يمكن لإنسانٍ أن ينال منها فيظفر بفكاكها، فهي باقيةٌ خالدةٌ على الأيام والدهر، لا تزعزعها الحوادث، ولا تنال منها الأحداث.

وقد كان للإسلام مع إخوانه من أتباع الشرائع السماويَّة الأخرى قصصًا يرويها التاريخ بإعجاب وإكبارٍ وتقدير؛ فلم يُسمَع عن محمد أو عن أحدٍ من خلفائه أنَّهم قَتلوا مسيحيا لأنَّه لم يُسلم؛ ولم يُسمَع عنهم أنَّهم عذبوا كتابيًّا أو سجنوه أو منعوه من التعبُّد وإقامة شعائر دينه؛ ولم يُنقل عنهم أنَّهم خلال فتوحاتهم الحربيَّة ودعواتهم السلمية، هدموا كنيسةً أو قوَّضوا بيعةً.. وإنّما قال التاريخ: إنَّ محمدا صالح نصارى نجران فكتب لهم عهدًا جاء فيه:« ولنجران وحاميتها جوار الله وذمة محمدٍ على أموالهم وأنفسهم وملَّتهم وبيعهم وغائبهم وشاهدهم وكل ما تحت أيديهم من قليلٍ أو كثير، لا يُغيَّر أسقفٌ من أسقفيَّته، ولا راهبٌ من رهبانيَّته، ولا كاهنٌ من كهانته، ولا يحشرون ولا يعشرون، ولا يطأ أرضهم جيش »

حتى إنَّ بعض الخلفاء المسلمين ــ كما يقول آدم ميتز ــ كانوا يحضرون مواكب المسيحيين وأعيادهم، ويأمرون بصيانتها، وإنَّ الحكومة في حالة انقطاع المطر كانت تأمر بتسيير مواكب يسير فيها المسيحيون وعلى رأسهم الأسقف، واليهود ومعهم النافخون بالأبواق، وأنَّ الأديرة كذلك ازدهرت وتكاثرت.

أخلاق السلام:

التفت إلي، وقال: ميزة أخرى في سلام الإسلام.. لم أجدها في كل ما بحثت فيه من أديان.

قلت: ما هي؟

قال: تشريع أخلاق السلام.

قلت: ما تقصد بذلك؟

قال: في الوقت الذي تصور فيه الرجولة والشجاعة ــ كما نرى في الأفلام التي تنتجها عقليتنا السادية ــ في القتل والتدمير.. في ذلك الوقت يرى الإسلام أن الشجاعة والقوة في امتلاك النفس، والسيطرة على الأعصاب، والتغلب على دواعي الانتقام.. لقد قال محمد يصور هذا، ويعمقه في نفوس أمته:« ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »[1]، وفي رواية أخرى:« أتحسبون أن الشدة في حمل الحجارة؟ إنما الشدة في أن يمتلئ أحدكم غيظا ثم يغلبه »[2]، وفي رواية:« ألا أدلكم على أشدكم؟ أملككم

(١) أحمد والبيهقي عن أبي هريرة.

(٢) ابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن عامر بن سعد بن أبي وقاص.

لنفسه عند الغضب »[1]

فالحلم والعفو وسعة الصدر التي هي أركان السلام تعتبر في الإسلام فروضا تشريعية وخلقية.. لقد قال القرآن يجمع محاسن الأخلاق:﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (لأعراف:١٩٩)

وقد نص علماء المسلمين على أن هذه الآية من أجمع الآيات لمكارم الأخلاق، قال جعفر بن محمد:« أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية »، وقال عبد الله بن الزبير:« ما نزلت هذه الآية إلا في أخلاق الناس »[2]

بل قد وردت أحاديث محمد الدالة على احتواء هذه الآية على أصول الأخلاق، مفسرة لها بما يقتضي انحصار الأخلاق فيها، فعن جابر قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (لأعراف:١٩٩) قال النبي ﷺ:« يا جبريل ما تأويل هذه الآية؟ قال: حتى أسأل، فصعد ثم نزل فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تصفح عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك. فقال النبي ﷺ:« ألا أدلكم على أشرف أخلاق الدنيا والآخرة؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك »[3]

ويدل على هذا ما ورد في نصوص أخرى من أن هذه الأخلاق المذكورة في الآية هي من أمهات الأخلاق وخيرها، كما روي ذلك في أحدايث مختلفة، فعن علي قال: قال رسول الله ﷺ:« ألا أدلك على خير أخلاق الأولين والآخرين؟ قال: قلت يا رسول الله، نعم. قال: تعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك »[4]، وعن عقبة بن عامر قال: قال لي رسول الله ﷺ:« ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة، تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك »[5]، وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ أن النبي ﷺ قال:« ألا أدلكم على كرائم الأخلاق للدنيا والآخرة؟ أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتجاوز عمن ظلمك »[6]

ولهذا كانت هذه الآية ــ بما تحمله من المعاني الجليلة ــ شعارا لأمة محمد، وضياء يهتدون به في تعاملهم مع الخلق مسلمهم وكافرهم عاقلهم وجاهلهم.

ومما يروى في ذلك ما حدث به ابن عباس قال: قدم عيينة بن حصن بن بدر، فترل على ابن أخيه الحر بن قيس – وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبابا

---

(١) الطبراني في الكبير عن أنس.

(٢) البخاري وأبو داود والنسائي.

(٣) ابن مردويه.

(٤) البيهقي في شعب الإيمان.

(٥) البيهقي.

(٦) البيهقي.

– فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي هل لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه؟ قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر، فلما دخل قال: هي يا ابن الخطاب، فو الله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قال لنبيه ﷺ:﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (لأعراف:١٩٩) وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزنا عمر حين تلاها عليه، وكان وقافا عند كتاب الله عز وجل »[1]

وانطلاقا من هذا.. فقد نبذ الإسلام العنف، واعتبره من سوء الخلق.. ورتب عليه العقوبات التشريعية الرادعة.

ففي القرآن:﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون:٩٦).. وفيه ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤)

وفي أحاديث محمد وصايا كثيرة ترتبط بهذا.. فقد قال:« إنَّ الله رفيقٌ يحبُّ الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه »[2]

وقال:« إنَّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيءٍ إلا شانه »[3]

وقال:« إنَّ الله عزَّ وجلَّ يحبُّ الرفق في الأمر كله »[4]

وقال:« من يحرم الرفق يحرم الخير »[5]

وقال لزوجته عائشة:« يا عائشة، ارفقي فإن الرفق لم يكن في شيءٍ قط إلا زانه ولا نُزع من شيءٍ إلا شانه »[6]

وقد سار أتباعه على هذا الهدي.. فصار الحلم وسعة الصدر عندهم هي المثال على الكمال الأخلاقي، فعن علي قال:« ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك، وأن لا تباهي الناس بعبادة الله، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى »

وقال:« إن أول ما عوض الحليم عن حلمه جهله وصبره وشهوته، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم »

وقال الحسن: اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم.

وقال أكثم بن صيفي: دعامة العقل الحلم وجماع الأمر الصبر.

وقال أبو الدرداء: أدركت الناس ورقا لا شوك فيه فأصبحوا شوكاً لا ورق فيه، إن عرفتهم نقدوك وإن

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) رواه مسلم.

(٦) رواه مسلم.

تركتهم لم يتركوك، قالوا: كيف نصنع؟ قال: تقرضهم عن عرضك ليوم فقرك.

وسب رجل ابن عباس، فلما فرغ قال: يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضيها؟ فنكس الرجل رأسه واستحى.

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: أشهد أنك من الفاسقين، فقال: ليس تقبل شهادتك.

وعن علي بن الحسين بن علي أنه سبه رجل فرمى إليه بخميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم، فقال بعضهم: جمع له خمس خصال محمودة: الحلم وإسقاط الأذى وتخليص الرجل مما يبعد من الله عز وجل وحمله على الندم والتوبة ورجوعه إلى مدح بعد الذم اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير.

وقال رجل لجعفر بن محمد: إنه قد وقع بيني وبين قوم منازعة في أمر وإني أريد أن أتركه فأخشى أن يقال لي: إن تركك له ذل، فقال جعفر: إنما الذليل الظالم.

وقال الخليل بن أحمد: كان يقال من أساء فأحسن إليه فقد جعل له حاجز من قلبه يردعه عن مثل إساءته

وقال رجل لمالك بن دينار: بلغني أنك ذكرتني بسوء، قال، أنت إذن أكرم علي من نفسي إني إذا فعلت ذلك أهديت لك حسناتي.

والإسلام لم يكتف بهذه التوجيهات.. بل وضع نظاما تشريعيا صارما يحمي فيه السلام النفسي والاجتماعي من أن يدمره المصارعون.

أخلاق الحرب:

قلت: ربما تجد مثل هذه الأخلاق عند شعوب كثيرة.. ونحن لا نتحدث عن هذا، وإنما نتحدث عن أخلاق الحرب.. فقد زعم بعضهم أن الحرب لا تحتاج إلى أخلاق[1].

قال: وهذه ميزة أخرى من مزايا الإسلام.. فهو لا يفرق في الأخلاق بين حرب وسلم، وبين مسلم وكافر، وبين لون ولون..

سأحدثك عن مجامع أخلاق الإسلام في الحرب، وهي ثلاثة لا توجد إلا في الإسلام: الضرورة، والوفاء، والرحمة.

١ ــ الضرورة:

قلت: فحدثني عن الضرورة.

قال: الإسلام يجعل مبدأ السلام هو المبدأ الذي يحكم العلاقات بين الأفراد والمجتمعات والشعوب،

---

(١) انظر في هذا: (نظام السلم والحرب فى الاسلام) وهي محاضرة- القاها الدكتور السباعى فى ندوة دار الايتام الاسلامية فى بيروت، بدعوة من اللجنة النسائية للهيئة العليا لدار الايتام، مساء الجمعة الواقع فى ٣ من شعبان سنة ١٣٧٢ الموافق ١٧ من نيسان ١٩٥٣، وقد كان لها اثر بالغ فى جمهور المستعين، حتى ان فريقا كبيرا منهم وبعضهم اساتذة فى الجامعات العليا، رغبوا بطبعها وتوزيعها لما تضمنته من حقائق يجهلها كثير من المثقفين، عدا عما تضمنته من تصحيح لكثير من الأخطاء الشائعة فى البيئات العلمية والدينية البعيدة عن الاسلام.

فالقرآن يقول:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:١٣)

فالغرض من التنوع في الخلق ليس الصراع كما تفهم فلسفاتنا المادية المؤيدة بالأديان المنحرفة.. ولكنها ــ بحسب القرآن ــ هي التعارف والتكامل والسلام.

ولهذا.. فإن (الحرب)، ومثله (القتال) في النصوص المقدسة عند المسلمين لا يلجأ إليها إلا كما يلجأ للعمليات الجراحية للضرورة، وبدون اعتداء.

فقد يلجأ إليها لردع العصاة والمتمردين وقطاع الطرق والعابثين بالأمن.. ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة:٣٣)

وقد يلجأ إليها لردع البغاة الذين يفرقون المجتمع، ويثيرون الفتنة فيه، ومع ذلك لا يلجأ لها إلا بعد محاولة الصلح.. ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات:٩)

وقد يلجأ إليها لردع المرابين وأمثالهم من المستغلين لجهود الفقراء والعمال.. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٧٨-٢٧٩)

وقد يلجأ إليها لردع المغتصبين لحقوق الطبقات البائسة والعاملة في ثرواهم، وعلى ذلك قاتل أبو بكر مانعي الزكاة، وقال قولته المشهورة:« والله لو منعوني عقالاً كان يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه »

وقد يلجأ إليها لردع المعتدين على حقوق الإنسان الأساسية كالنفس والمال والعرض.

وقد يلجأ إليها لردع الطامعين، وتأمين السلام الداخلي.. فمن الناس من لا تردعهم التربية ولا القانون عن العدوان والطغيان.. وفي الأمم من تغريها قوها وضعف جيراها بالعدوان والاستعمار، فلا جرم إن كان من الخير أن يشرع استعمال القوة حينئذ لحملة السلام من أعدائه في الداخل والخارج.. وهذا هو ما رمى إليه الإسلام حين أقر استعمال القوة.

وقد يلجأ إليها لتأمين السلام العالمي..

قلت: هذه هي الحرب التي يسميها قومنا إرهابا.

قال: لا.. المجرمون دائما يقلبون الحقائق، فيتصورون أصحاب الدكاكين الذين يتصدون لمنعهم من سرقة دكاكينهم بخلاء ومجرمين..

هذا هو منطق الإجرام.. ولا ينبغي للعاقل أن يخضع لمنطق الإجرام.

قلت: فما منطق العقل في هذا؟

قال: إن الحرب التي يعلنها الإسلام لتأمين السلام العالمي هي التي يعبر عنها القرآن بالجهاد في سبيل الله،

وهو لا يعني بذلك حرباً دينية لإكراه الناس على الإسلام.. وإنما يعني بها المعارك التي يخوضها الإسلام لتحرير الأمة من العدوان الخارجي، ولتأمين الحرية الدينية والعدالة الإجتماعية لجميع الشعوب..

وهاتان الغايتان هما اللتان عبَّرت عنهما الآية بصريح العبارة:﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (لأنفال:٣٩).. فدفع الفتنة وهو العدوان، وخلاص الدين كله لله أي الحرية الدينية لجميع الناس هما الغاية التي ينتهي عندها القتال في الإسلام.

فإذا كف العدو عن العدوان وعن فتنة الأمة في دينها وعقيدتها لم يجز القتال ﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.. وفي الآية الأخرى:﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: من الآية١٩٣)

اسمع هذه الآيات لترى المقاصد الشريفة التي أمر الإسلام فيها بالجهاد:﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥)﴾ (النساء)

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)﴾ (الحج)

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ (النساء:٧٦)

هذه أربع آيات من القرآن تتحدث عن الجهاد في سبيل الله، فلننظر ما هو هذا الجهاد في هذه الآيات؟

أما في الآية الأولى فتحث على الجهاد لتحرير المضطهدين المظلومين الذين ضاقت حيلتهم في دفع الظلم والطغيان عن أنفسهم، فاستنجدوا بالله أن يخرجهم من الأرض التي طغى الظالمون فيها، وسألوه أن يجعل لهم أولياء ينصرونهم ويخرجونهم من هذه المحنة، فحرّض الله المؤمنين على تحرير هؤلاء المضطهدين بعد أن وصف حالهم بما يثير الحمية في النفوس الأبية الكريمة.

أما الآيتان الثانية والثالثة فتدلان على أن الجهاد في سبيل الله حرب دفاعية، ولذلك جاء تبريرها بأنهم قوتلوا وظلموا وأخرجوا من ديارهم وطوردوا في عقيدتهم، وعلى أن هذا الجهاد لتأمين الحرية الدينية وحماية أماكن العبادة لجميع الأديان المترلة من عدوان الملحدين والمتعصبين عليها:﴿ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ والصوامع هي أديرة الرهبان، والبيع أماكن العبادة للنصارى، والصلوات أماكن العبادة لليهود، والمساجد أماكن العبادة للمسلمين.

فالغرض من الجهاد في سبيل الله كما ترى صيانة الكنيسة وأماكن العبادة وفيها المساجد من عدوان المتعصبين، وليس الغرض منه ما يقوله قومنا من أن يقوم المسجد على أنقاض الكنيسة، بل أن يقوم المسجد بجانب الكنيسة رمزاً لعبادة الله في مختلف طرق العبادة، ودليلاً على وحدة الأهداف العامة بين ديانات السماء، ومصداراً للإشعاع الروحي والسمو الخلقي في الأمة.

أما الآية الرابعة.. فقد وضعت الحد الفاصل بين الحرب التي يعلنها الإسلام وبين الحرب التي يعلنها أعداؤه

عليه.. فالحرب التي يعلنها الإسلام حرب في سبيل الحق والحرية والعدالة والسمو الروحي والخلقي.. أما الحرب التي يعلنها أعداؤه فهي حرب طغيان وظلم واضطهاد، وما أبعد دلالة (الطاغوت) على أهداف الحرب العدوانية التي يقف الإسلام في وجهها.

قلت: فلم ارتبطت هذه الحروب بالله؟

قال: تنبيها للغاية الشريفة التي نهضت لها.. فالجهاد في سبيل الله جهاد في سبيل الغايات الكريمة التي قامت من أجلها الشرائع، وتسعى إليها الإنسانية الكريمة في كل عصر.. هو في سبيل الله.. أي لا في سبيل المال ولا التهديم ولا الاستعلاء ولا الغلبة ولا الأمجاد القومية أو الطائفية.. فمن سعى إلى شيء من هذا لم يكن مجاهداً في نظر الإسلام يستحق أجر المجاهدين وكرامة الشهداء.

سكت قليلا، ثم قال: اقرأ تاريخ محمد في حروبه لترى الأدلة الواضحة القوية التي تثبت لك المعنى النبيل الذي خاض من أجله محمد حروبه ومعاركه، فما أعلن محمد الحرب إلا بعد أن اضطهد هو وجماعته في عقيدتهم، وأخرجوا من أوطانهم، فجاءت معركة بدر وما تلاها من معارك في سبيل الحرية الدينية وإقرار السلام والأمن في ربوع الجزيرة العربية، ذلك السلام الذي حاربه الوثنيون من العرب فأحالوا بطاح مكة ورمالها إلى ميادين لتذبيح المؤمنين وتعذيبهم ومطاردتهم في أرزاقهم وأوطانهم وأموالهم.

لقد ظل محمد ثلاثة عشر عاماً يصبر ويدعو إلى الله بالحكمة، حتى إذا لجت قريش في طغيانها، وصممت على وأد الدعوة الجديدة في مهدها بقتل محمد وصحابته، وهاجر المسلمون إلى المدينة مستقر الدعوة والدين الجديد، بدأ الصراع بين القوة الجديدة التي تمثل الحق والتسامح والفضيلة والكمال في أروع صوره، وبين القوة الوثنية الطاغية التي تمثل العتو والكبرياء والطغيان في أبشع صوره ومظاهره..

٢ ـــ الوفاء:

قلت: عرفت الخلق الأول من أخلاق الحرب في الإسلام.. فما الخلق الثاني؟

قال: الوفاء.. الوفاء هو الخلق الذي أمر الإسلام به في السلم والحرب، واعتبره نقطة فاصلة بين المؤمنين والمنافقين.

فمن أول سمات المؤمن الوفاء..

قلت: ما علاقة الوفاء بالسلام؟

قال: لو تأملت أكثر حروب العالم تجد سببها نقض العهود والمواثيق وعدم احترام الكلمة..

قلت: فهل حافظ الإسلام على هذا الخلق؟

قال: سأذكر لك النظام الذي فرضه الإسلام للحرب.. لتعرف من خلاله المدى الذي تقيد فيه المسلمون بالوفاء.. وتعرف من خلاله النظافة التي مارس بها المسلمون حروبهم.

فالحرب تبدأ حين تتأكد الأمة من نية العدوان والغدر لدى أمة من الأمم ضدها، وحينذاك يجب عليها أن تستعد بكل ما تملك من قوة لإرهاب هذا العدو الذي يتربص بها:﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (لأنفال: من الآية٦٠) فهو استعداد للإرهاب لا للاعتداء، ولإرهاب

أعداء الأمة لا أصدقاءها ومسالميها.

فإن كف العدو عن فكرة العدوان، وعدل عن الحرب وجب على الأمة أن تجنح للسلم وتدخل فيه:﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (لأنفال:٦١)

فإن أبى العدو إلا الحرب والعدوان، فـــ ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢)﴾ (الشورى).. ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)(البقرة: من الآية١٩٤)

فإذا بدأت الحرب، فلتخفف ويلاتها بقدر ما يمكن، ولذلك جازت الخديعة في الحرب (الحرب خدعة)

قلت: كيف يجتمع الوفاء مع الخداع؟

قال: الخدعة المرادة هنا إحباط مناورات العدو وخططه وتثبيط عزيمته، فإن في ذلك إنهاء للحرب وإقرارا للسلام بأقل ما يمكن من الزمن، وأقل ما يقع من الضحايا.

فإذا لم تجد الخديعة والأساليب السياسية واضطر إلى الحرب.. فالإسلام يأمر المقاتلين بالثبات ليستمدوا عونهم من الله، وليذكروا الله كثيراً:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (لأنفال:٤٥)

ألا ترى كيف يأمر القرآن بذكر الله في حال القتال ليذكر المقاتلون أنهم لا يقاتلون رياء ولا حمية ولا ثأراً ولا استعلاءً وإنما يحاربون في سبيل الله..

وحين تشتعل نار الحرب يجب أن يذكر الجيش المحارب أنه يخوض حرباً دفاعية لتحرير الضعفاء والمضطهدين، فليضيق حدودها حتى لا يصطلي بنارها إلا من حمل السيف وبدأ العدوان، فلا تؤخذ أمة العدو كلها بجريرة جيشها أو فريق منها اعتدوا على أمتنا:﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة:١٩٠)

وهنا يسمو الإسلام إلى منتهى ذروة الإنسانية حين يحرم قتل الشيخ الكبير والعاجز والمرأة والصبي ورجل الدين المنقطع للعبادة والفلاح والمسالم الذي لم يشترك في القتال.

لقد أوصى أبو بكر خليفة المسلمين أول جيش خرج من الجزيرة العربية ليرد عدوان الروم المبيت على دولة الإسلام الفتية، فقال:« لا تمثّلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له »

هذه هي وصايا الأمة التي تحارب بروح مسالمة، وتأبى أن تنقلب إلى أمة معتدية تنطلق وراء غرائزها وثاراتها تخرب وتنتقم.

فإذا رغب المحاربون في الصلح عند اشتداد المعركة أمر الإسلام المسلمين بأن يقبلوا الصلح منهم ولو أشرفوا على النصر، ثم الوفاء بما تم عليه العهد:﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا

وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (النحل: ٩١)

فإذا بدا منهم بعد ذلك نية الغدر والخيانة فإن الإسلام ينهى عن مفاجأتهم بالقتال، بل لا بد من إخبارهم بانتهاء العهد بين المسلمين وبينهم وفسح المجال لهم ليستعدوا للحرب والقتال، وهذا هو النبذ الوارد في الآية:﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (لأنفال:٥٨)

وإذا انتهت المعركة باستسلام العدو وانتصار الأمة، فلا عدوان على الأعراض، ولا تخريب للمدن، ولا استلاب للأموال ولا إذلال للكرامات، ولا اندفاع وراء الثأر والانتقام، وإنما هو الإصلاح والتحرير والعدالة ونشر الخير ومكافحة الشر:﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (الحج: ٤١)

فهذه الآية نص على ما يجب أن تفعله الأمة المنتصرة بعد انتهاء الحرب وهي أمور أربعة: إقامة الصلاة، وهي رمز لإشاعة السمو الروحي في العالم.. وإيتاء الزكاة، وهي رمز لتحقيق العدالة الاجتماعية في الشعوب.. والأمر بالمعروف، وهو رمز للتعاون على كل ما فيه خير الناس وأمنهم وسعادتهم.. والنهي عن المنكر، وهو رمز للوقوف في وجه الشر الذي يعجل بالحرب ويفوت على الناس السلام والأمان.

التفت إلي، وقال: هل رأيت في الكتب المقدسة تعاليم سامية مثل هذه التعاليم.. وهل رأيت في الأمم أخلاقا مثل هذه الأخلاق.

٣ ــ الرحمة:

قلت: عرفت الضرورة والوفاء.. فحدثني عن الرحمة.. وهل يمكن أن تجتمع الحرب والقتال مع الرحمة؟

قال: تتجلى الرحمة في الحروب التي شرعها الإسلام انطلاقا من الدوافع التي تدفع لها.. فالإسلام لم يشرع الحرب من أجل المال ولا الجاه ولا السلطان.. بل شرعها من أجل تحرير المستضعفين من نير المستكبرين.. ولهذا يخاطب القرآن وجدان الرحمة في الإنسان، فيقول:﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً ﴾ (النساء:٧٥)

ولا تقف الرحمة الإسلامية عند هذا الحد.. بل تتعداه إلى المواقف المختلفة التي تتطلبها الحرب..

فعن الأسرى يقول القرآن:﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ (الانسان:٨)

وفي الحديث يوصي محمد بالأسرى خيرا، فيقول:« استوصوا بهم (أي الأسرى) خيراً »

وقد أمر محمد المسلمين الذين أسروا ثمامة بن أثال قائلاً:« أحسنوا أساره، اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه »

ويقول أبو عزيز بن عمير وكان أسيراً:« كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر ــ فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، فأستحي فأردها على أحدهم، فيردها عليّ ما يمسها »

وقد وضع القرآن قانونا للتعامل مع الأسرى جاء فيه:﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَاب حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (محمد:٤)

إن هذه الآية تحوي رحمات عظيمة لا يمكن حصرها.. فهي تأمر بضرب الرقاب.. وهو حث على القتل المريح.. بدل إصابة المقتول بجراحات تظل تعذبه.

وهي تخير ولي الأمر في معاملة الأسرى بين المن (اطلاق السراح) أو أخذ العوض إما بالمال أو تبادل الأسرى وهو (الفداء)

ولا تقف الرحمة الإسلامية هنا.. بل إن الإسلام يحرم تحريما شديدا قتل الضعفاء وغير المقاتلين ويحرم التخريب.. فمحمد يقول للجيش:« لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً ولا امرأة ولا تغلو ولا تقتلوا أصحاب الصوامع »

وهو ينهى عن التمثيل بجثث القتلى أو تعذيب الجرحى.. ففي الحديث:« إياكم والمثلة »

وقد أمر محمد بوضع جثث قتلى المشركين في بدر في القليب وهو بئر جاف، ونهى عن تعذيب الجرحى وقال:« لا تعذبوا عباد الله »

وهو بعد ذلك كله يتعامل بسماحة لا نظير لها مع المغلوب.. فبعد فتح مكة قال محمد لقريش:« أقول لكم ما قال أخي يوسف لإخوته، لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء »

وهو ــ فوق هذا ــ يلتزم بكل حقوق الفقراء والعاجزين وذوي العاهات، من الأمم التي يسيطر عليها.

فنصوص القرآن التي تحتم إعالة البائسين والمحتاجين هي عامة شاملة لم تقيد بالمسلمين فحسب:﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ﴾ (الاسراء:٢٦).. ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (الذريات:١٩)

وقد جاء في عهد خالد بن الوليد لأهل الحيرة:« أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وأعيل من بيت مال المسلمين وعياله»

وقد طبق عمر هذا المبدأ الإسلامي العظيم حين مر بشيخ كبير يسأل الناس الصدقة، فلما سأله وعلم أنه من أهل الجزية، أخذ بيده إلى بيته وأعطاه ما وجده من الطعام واللباس، ثم أرسل إلى خازن بيت المال يقول له:« انظر إلى هذا وأمثاله فأعطهم ما يكفيهم وعيالهم من بيت مال المسلمين فإن الله يقول:﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ (التوبة: من الآية٦٠) والفقراء هم المسلمون، والمساكين هم أهل الكتاب»

لقد ذكر جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) تلك الرحمة العظيمة التي امتلأت بها حروب المسلمين، فقال:« إن العرب تركوا المغلوبين أحراراً في أديانهم فإذا كان بعض النصارى قد أسلموا واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس بمثله عهد.. وقد عاملوا أهل سورية ومصر وأسبانية وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ونظمهم

ومعتقداهم غير فارضين سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم لهم وحفظ الأمن بهم.. والحق إن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب »

وقال مونتجمري في كتابه (الحرب عبر التاريخ):« إن المسلمين كانوا يستقبلون في كل مكان يصلون اليه كمحررين للشعوب من العبودية، وذلك لما اتسموا به من تسامح وإنسانية وحضارة فزاد إيمان الشعوب بهم »

قلت: هناك شبهة يثيرها الكثير في هذا المجال..

قال: اطرح ما تشاء من شبه.. فلن تعدو الشبه التي طالما رددهّا.. ثم سرعان ما لاح لي الحق، فتراجعت عنها.

قلت: لقد قرأت لبعض الفقهاء من يذكر أنّ على الدولة المسلمة أن تخيّر الدول الأخرى بين الإسلام أو الجزية أو القتال.

قال: لقد بحثت في هذا.. وقد حاول هؤلاء أن يلووا أعناق بعض النصوص ليلزموها هذا الفهم الخاطئ..

لقد كتب محمد بعد أن استقرّ له الأمر في المدينة، رسائل إلى الملوك من حوله يدعوهم إلى الإسلام، وإلى الإيمان بالله وحده.. فكتب إلى قيصر ملك الروم، وإلى كسرى ملك الفرس، وإلى النجاشي ملك الحبشة، وإلى المقوقس عظيم القبط، وإلى الحارث ملك تخوم الشام.. وطلب من هؤلاء الملوك أن يبلّغوا دعوته إلى شعوبهم، وإلاّ فإنّهم يتحمّلون إثم هؤلاء الناس.. وذلك بسبب ما كان معروفاً أنّ الملوك يمنعون شعوبهم أن يدينوا بغير دينهم.

و لم يرد في أي رسالة من تلك الرسائل أي تهديد بالقتال.. أو أي طلب للجزية.

قلت: ولكنه في الفتوحات الإسلامية، كان الفاتحون يخيرون البلاد المفتوحة بين الإسلام أو الجزية أو القتال.

قال: ذلك صحيح.. وقد كان لذلك أسبابه الظرفية.. فهو حكم ظرفي مرتبط بواقع معين لا حكما شرعيا ملزما.

فمبادرة بعضهم لقتال المسلمين، كما حدث مع كسرى الذي مزّق كتاب محمد، وكتب إلى نائبه في اليمن (باذان) أن يبعث له هذا الذي يدّعي أنّه نبي.. وكما حدث مع الحارث الغسّاني الذي رمى كتاب محمد وعزم أن يسير إليه ليقاتله.. وكما حدث في غزوة تبوك عندما تجمّع الروم لغزو المدينة وقتل محمد.

والثاني ــ وهو الأهم ــ هو منع هؤلاء الملوك لشعوبهم من حرية قبول الإسلام أو رفضه بناء على العرف العام في تلك العصور، والذي يمنع الشعوب أن تعتقد ديناً يخالف دين ملوكها، وهذا ما أشار إليه محمد عندما حمّل الملوك مسؤولية رعاياهم، وهذه هي الفتنة التي أمر المسلمون بالقتال لرفعها عن جميع الناس، كما ورد في القرآن:﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣)﴾(البقرة)

فإذا لم يحصل هذان الأمران.. بأن لم يبدأ المعتدي العداوة، و لم يظهر منه أي استبداد يمنع رعيته من الوقوف مع الحق، فإن الواجب في هذا المحل هو الدعوة المجردة، وإلى ذلك الإشاره في قول محمد: دعوا الحبشة

ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم[1].

قلت: والجزية[2].. أليست الجزية نوعا من القهر!؟.. ألا ترى أن فرض الجزية يتنافى مع الأخلاق التي ذكرتها.

قال: كيف ذلك؟

قلت: لأن ثقل الجزية الذي ينوء به ظهره يجعله مضطرا لإعلان الإسلام ليتخلص من هذه الضريبة.

قال: أنت لا تعلم أحكام الجزية الفقهية إذن.

قلت: أعرفها عموما.. ولا أعرف تفاصيلها.

قال: أما أنا فبحثت في تفاصيلها.. بل بحثت في التاريخ المرتبط بها.

قلت: فما وجدت؟

قال: أولا.. أنت تعلم أن الرعية التي حكمها الإسلام في ذلك الوقت، وفي كل وقت تشمل نوعين من الناس بحسب التقسيم الإسلامي..

قلت: أجل.. مسلمون وذميون.

قال: هذا التقسيم لا يعني أن الذميين أدنى من المسلمين في الحقوق.. ولكنهم أدنى منهم في الواجبات.

قلت: ما تقول؟

قال: لقد كان هناك واجبات كثيرة فرضها الإسلام لا يطالب بها غيرهم من المواطنين ممن يسمون أهل الذمة.. وذلك مثل الجهاد والزكاة.. الجهاد الذي هو ضريبة أبدان.. والزكاة التي هي ضريبة أموال.

قلت: ذلك صحيح.. فالإسلام لم يجند أهل الذمة ليدافعوا عن أرض الإسلام.

قال: ولذلك عوض عن ذلك.. عوض عن الزكاة والجهاد.. بالجزية.

ولكن الحقيقة أنها ليست كذلك، وما كانت إلا بدلاً عن فريضتين فُرضتا على المسلمين، وهما: فريضة الجهاد وفريضة الزكاة، ونظرًا للطبيعة الدينية لهاتين الفريضتين لم يُلزم بهما غير المسلمين.

اسمع ما قلت في كتابي المعروف (الدعوة إلى الإسلام) عن الغرض من فرض الجزية وعلى مَن فُرضت.. لقد قلت: ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين ــ كما يردد بعض الباحثين ــ لونًا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة، وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف

---

(١) رواه مالك.

(٢) من الشبهات الخطيرة التي يثيرها المبشرون والمستشرقون (الجزية) التي اعتبرت في نظرهم ضريبة ذل وهوان، وعقوبة فُرضت عليهم مقابل الامتناع عن الإسلام.. وسنتناول الرد عليها هنا انطلاقا من المصادر الإسلامية الكثيرة التي اهتمت بهذا الجانب، وأهمها كتابي القرضاوي (فقه الزكاة)، و(غير المسلمين في المجتمع الإسلامي)

المسلمين

ولهذا لما قَدَّمَ أهل الحيرة المال المتفق عليه ذكروا صراحة أنهم دفعوا هذه الجزية على شريطة (أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم)

ومثل ذلك حدث أن سجل خالد في المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة قوله: فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا

ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط من تلك الحادثة التي وقعت في عهد الخليفة عمر، فقد حصل أنه لما حشد الإمبراطور هرقل جيشًا ضخمًا لصد قوات المسلمين، كان لزامًا على المسلمين نتيجة لما حدث أن يركزوا كل نشاطهم في المعركة التي أحدقت بهم، فلما علم بذلك أبو عبيدة قائد العرب كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم برد ما جُبِيَ من الجزية من هذه المدن، وكتب إلى الناس يقول: إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جُمع لنا من الجموع، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنّا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم

وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين، وقالوا: ردكم الله علينا، ونصركم عليهم (أي على الروم).. فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئًا، وأخذوا كل شيء بقي لنا

قلت: أرأيت لو بدا للذميين أن يشتركوا في الخدمة العسكرية، ويدافعوا مع المسلمين عن حدود وطنهم.. فهل تسقط عنهم الجزية؟

قال: أجل.. لقد حصل هذا في التاريخ مع قبيلة (الجراجمة)، وهي مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية، وقد سالمت المسلمين وتعهدت أن تكون عونًا لهم، وأن تقاتل معهم في مغازيهم على شريطة ألا تؤخذ بالجزية، وأن تعطى نصيبها من الغنائم.

ولما اندفعت الفتوح الإسلامية إلى شمال فارس سنة ٢٢هـ، أبرم مثل هذا الحلف مع إحدى القبائل التي تقيم على حدود تلك البلاد، وأُعفيت من أداء الجزية مقابل الخدمة العسكرية.

ونجد أمثلة شبيهة بهذه للإعفاء من الجزية في حالة المسيحيين الذين عملوا في الجيش أو الأسطول في ظل الحكم التركي.. ومن أمثلة ذلك ما عومل به أهل ميغاريا، وهم جماعة من مسيحيي ألبانيا الذين أعفوا من أداء هذه الضريبة على شريطة أن يقدموا جماعة من الرجال المسلحين لحراسة الدروب على الجبال التي كانت تؤدي إلى خليج كورنته، وكان المسيحيون الذين استخدموا طلائع لمقدمة الجيش التركي لإصلاح الطرق وإقامة الجسور قد أعفوا من أداء الخراج، ومُنِحوا هبات من الأرض معفاة من جميع الضرائب.

ومثل ذلك لم يدفع أهالي حيدرة المسيحيون ضرائب مباشرة للسلطان، وإنما قدموا مقابلها فرقة من مائتين وخمسين من أشداء رجال الأسطول، كان ينفق عليهم من بيت المال في تلك الناحية.

وقد أعفي أيضًا من الضريبة أهالي رومانيا الجنوبية، وكانوا يؤلفون عنصرًا هامًا من عناصر القوة في الجيش التركي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، ثم المرديون، وهم قبيلة كاثوليكية ألبانية كانت

تحتل الجبال الواقعة شمال إسكدرا، وكان ذلك على شريطة أن يقدموا فرقة مسلحة في زمن الحرب.

وبتلك الروح ذاتها لم تقرر جزية الرؤوس على نصارى الإغريق الذين أشرفوا على القناطر[1] التي أمدت القسطنطينية بماء الشرب، ولا على الذين كانوا في حراسة مستودعات البارود في تلك المدينة نظرًا إلى ما قدموه للدولة من خدمات.

ومن جهة أخرى أعفي الفلاحون المصريون من الخدمة العسكرية على الرغم من أنهم كانوا على الإسلام، وفرضت عليهم الجزية في نظير ذلك، كما فرضت على المسيحيين.

قلت: ما دام الأمر بهذه الصورة، فلم لم يفرض الإسلام على مخالفيه أو على أهل الذمة من الزكاة ما يفرضه على المسلمين، وبذلك تستوي الرعية جميعا، ويتحقق العدل؟

قال: إن هذا من أدلة احترام الإسلام لمخالفيه.. فمع أن الزكاة تكليف اجتماعي، وضريبة مالية، تُنفق حصيلتها في مساعدة الضعفاء، والمحتاجين، من رعايا الدولة إلا أن الإسلام لم يفرضها على أهل الذمة.

قلت: لم[2]؟

قال: أنت تعلم أن الزكاة مشروعة لاعتبارين:

أما أولهما، فهو ما أشرت إليه، من أنها تكليف اجتماعي، وحق معلوم، للسائل والمحروم، وضريبة مالية، تؤخذ من أغنياء الأمة، لتُرَد على فقرائها، قيامًا بحق الأخوة، وحق المجتمع.

وأما الثاني، فهو أنها عبادة من عبادات الإسلام، ودُعامة من الدعائم الخمس، التي قام عليها بناؤه، شأنها شأن الشهادتين، وإقامة الصلاة، وصوم رمضان وحج البيت الحرام.

بل إنها قرنت في القرآن بالصلاة، في عشرات المواضع.. واعتبرت مع التوبة من الشرك وإقامة الصلاة مظهر من مظاهر الدخول في الإسلام، واستحقاق إخوة المسلمين، ففي القرآن:﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١)﴾(التوبة)

كما أن بعضًا من أسهم الزكاة، يُصرف في نُصرة الإسلام، وإعلاء كلمته، والمصالح العامة لدعوته، ودولته. وذلك هو سهم:﴿ في سبيل الله ﴾، ومنها: ما يُصرف في تأليف القلوب، أو تثبيتها عليه. وذلك هو سهم ﴿ المؤلفة قلوبهم﴾

ولهذا الاعتبار، أبت سماحة الإسلام وحساسيته في معاملة غير المسلمين واحترام عقائدهم أن يفرض عليهم ضريبة لها صبغة دينية واضحة، حتى إنها لتعد شعيرة من شعائره الكبرى، وعبادة من عباداته الأربع، وركنًا من أركانه الخمسة.

قلت: لا بأس بما قلت، ولكن لم يؤخذ مقدار الزكاة من غير المسلمين باعتباره ضريبة لا زكاة.. وبذلك

---

(١) هي نوع من القناطر تقام على أعمدة لتوصيل مياه الشرب إلى المدن، وقد كانت شائعة في الدولة الرومانية منذ القرن الأول الميلادي.

(٢) الجواب عن هذه الشبهة منقول من كتاب: فقه الزكاة، يوسف القرضاوي، ببعض تصرف.

تنتفي مشكلة الجزية التي تؤرق أصحابنا من المبشرين والمستشرقين؟

ابتسم، وقال: الخلاف في الاسم فقط إذن..

قلت: ولكنه قد يكون مؤثرا عند الكثير من الناس..

قال: ولو اعتبر المخرج زكاة لكان أخطر تأثيرا.. ومع ذلك فقد روي ما يثبت تنازل المسلمين عن اسم الجزية إلى اسم الصدقة في عهد السلف الأول من أصحاب محمد.

فقد روي عن زرعة بن النعمان أنه سأل عمر بن الخطاب، وكلمه في نصارى بني تغلب، وكان عمر قد هَمَّ أن يأخذ منهم الجزية، فتفرقوا في البلاد، فقال النعمان بن زرعة لعمر: يا أمير المؤمنين إن بني تغلب قوم عرب، يأنفون من الجزية، وليست لهم أموال (يعني الذهب والفضة) إنما هم أصحاب حروث ومواشٍ، ولهم نكاية في العدو، فلا تُعن عدوك عليك بهم، قال: فصالحهم عمر على أن أضعف عليهم الصدقة (أيٍ جعلها مضاعفة عليهم)[1]

وروي عن عبادة بن النعمان في حديث طويل: أن عمر لما صالحهم على تضعيف الصدقة قالوا: نحن عرب لا نؤدي ما تؤدي العجم، ولكن خذ منا كما يأخذ بعضكم من بعض (يعنون الصدقة) فقال عمر: لا، هذه فرض المسلمين. قالوا: زد ما شئت بهذا الاسم، لا باسم الجزية. ففعل، فتراضى هو وهم على تضعيف الصدقة عليهم[2].

وفي بعض روايات هذا الحديث أن عمر قال: سموها ما شئتم

وقد علق الإمام أبو عبيد على حكم أمير المؤمنين عمر في بني تغلب، إذ قبل منهم أموالهم و لم يجعلها جزية كسائر ما على أهل الذمة، بل جعلها صدقة مضاعفة، فقال: وإنما استجازها فيما نرى وترك الجزية، لما رأى من نفارهم وأنفهم منها، فلم يأمن شقاقهم واللحاق بالروم، فيكونوا ظهيرًا لهم على أهل الإسلام، وعلم أنه لا ضرر على المسلمين من إسقاط ذلك الاسم عنهم مع استيفاء ما يجب عليهم من الجزية، فأسقطها عنهم، واستوفاها منهم باسم الصدقة حتى ضاعفها عليهم، فكان ذلك رتق ما خاف من فتقهم، مع الاستيفاء لحقوق المسلمين في رقابهم [3]

قلت: إن ما ذكرته يثير إشكالا آخر أخطر وأعظم.. إنك برواية هذا الحديث كمن يبحث عن حتفه بظلفه.

---

(١) رواه أبو عبيد.

(٢) رواه البيهقي.

(٣) الأموال: ص ٥٤١ وهامشها وص ٢٨، ٢٩ منه، وقد ضعف ابن حزم خبر بني تغلب (المحلى: ٦/١١١) ولكن الخبر مشهور رواه ابن أبي شيبة وأبو يوسف في الخراج ص ١٤٣ – ط. السلفية، ويحيى بن آدم في في الخراج ص ٦٦-٦٧ ط. السلفية، والبلاذري في فتوح البلدان ص ١٨٩ – ط. مصر سنة ١٣١٩ هــ، وقال الشيخ أحمد شاكر معقبًا على خبر بني تغلب هذا: روي من طرق كثيرة تطمئن النفس إلى أن له أصلاً صحيحًا.(انظر: فقه الزكاة، للقرضاوي)

قال: تقصد مضاعفة عمر الصدقة عليهم.

قلت: أجل.. إن هذه شبهة خطيرة لا تقاوم.. فكيف يختلف المواطنون في مقدار الضرائب التي يؤدونها مع كونهم جمعا مواطنين، وأهل بلد واحد؟

قال: ألم أذكر لك أن الجزية ضريبة ماليه بدل الزكاة والجهاد؟

قلت: بلى..

قال: ولهذا ضاعف الصدقة عليهم.. فالجزء الأول من الزكاة بديل عن زكاة الأموال، والجزء الثاني بديل عن زكاة الأبدان.

ومع ذلك، فقد ذكر علماء المسلمين أن هذا التصرف من عمر (تضعيف الزكاة على أهل الذمة) ليس أمرًا لازمًا، إنما فعل ذلك مع بني تغلب؛ لأنهم هم الذين طلبوا ذلك، ووقع عليه الصلح والتزموا به، وهو أمر يرجع إلى السياسة الشرعية، ومقتضيات المصلحة العامة للدين والدولة[1].

***

ما وصل مكسيم رودنسون من حديثه إلى هذا الموضع حتى سمعنا أصواتا لمدافع كثيرة تصم لها الآذان، ثم لم نلبث حتى رأينا جيشا عرمرما يحيط بنا من كل جانب.. وهو يشهر أسلحته نحونا.

أمرنا بترع ثيابنا، فترعناها.. ثم أمرنا بالانبطاح أرضا، فانبطحنا.. ثم جاء بعض قساة القلوب، فطوقوا أيدينا، حتى كاد الدم يجمد في عروقنا.. ثم أمرونا بالسير معهم.. فسرنا..

كان الشاب المسكين ينظر ببراءة حزينة إلى حقل الزيتون.. وكأنه يودعه بدموعه.

أما صاحبي مكسيم، فكان يقذف في وجوههم كل ما حفظه في صغره من لعنات اليهود.

وأما أنا.. فكنت ألتفت خلفي لأرى ما سيحصل لحقل الزيتون..

ما إن وصلنا إلى الشاحنة التي حملنا فيها كما تحمل البضائع حتى دخل رجل ضخم، هو أشبه بضفدعة عملاقة لبست لباس الإنسان.. كان يحمل في فمه سيجارة هي أشبه بالقنبلة.. ما دخل إلى حقل الزيتون حتى رماها.. فإذا بالنيران تشتعل من كل جانب..

في ذلك الحين الذي اجتمعت فيه الأحقاد على حقل الزيتون تذكرت محمدا.. وزيتون محمد.. فبكيت بكاء حارا على افتقاد البشرية لتلك المعاني الجميلة التي عاشها محمد، وبشر بها..

ومع تلك الدموع الحارة تترلت علي أشعة جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

---

(١) فقه الزكاة للقرضاوي.

سابعا ـــ نظام

في اليوم السابع من تلك الأيام العشرة المباركة، التقيت المستشرقة التي قطفت على يدها ثمرة النظام من شجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى:﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة:٥٠)

وسر قوله تعالى:﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (المائدة:٤٩)

وسر قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾ (الأحزاب:٣٦)

فهذه النصوص المقدسة تبين ثمرة طيبة من ثمرات النبوة، هي تلك الأحكام العظيمة التي جاء بها لإسلام لتنظم حياة البشر وفق قوانين العدل والرحمة.

***

كان من جملة الأسماء التي كتبت في دفتر المرشد المستشرقة (هيلين كارير دانكوس)[1] Helene Carrere d'

(١) هي المستشرقة (هيلين كارير دانكوس) Helene Carrere d' Encansse.. باحثة فرنسية معاصرة، وهي واحدة من أبرز الخبراء في شؤون (الماركسية الآسيوية)، وقد صدر كتابها (القوميات والدولة السوفياتية) في باريس عام ١٩٨٧ فأثار ضجة ما تزال مستمرة وترجم فورًا إلى عدد من اللغات الحية.

ولها شهادات كثيرة للإسلام تتعلق بنظامه الاجتماعي، وقدرته على الصمود، ومن ذلك قولها:«.. أن جميع المعلومات [السوفيتية الرسمية] تتضافر لتوحي بأن الإسلام يحتضر ببطء في الاتحاد السوفيتي، مع احتضار الجيل الذي لم ينشأ على الإيديولوجية السوفيتية. ولكن معلومات مضادة لا تلبث أن تناقض هذه الصورة، فالتحقيقات الاجتماعية المتزايدة في الاتحاد السوفيتي حول هذا الموضوع، تبين أن المجتمع الإسلامي لا يزال متعلقًا بمعتقداته، وأن ما يقارب نصف الأشخاص الذين جرى استجوابهم في الوسط الريفي صرحوا بتمسكهم بالإيمان. وعلى سبيل المثال نورد تحقيقًا أجري عام ١٩٧٢ بجمهورية كاراكالبك الملحقة بأزبكستان، وقد دلّ هذا التحقيق على أن ٢٣ بالمائة من الرجال و٢٠ بالمائة من النساء يعلنون عن إلحادهم، فيكون ٧٧ بالمائة من الذكور و٨٠ بالمائة من الإناث مؤمنين.. وفي شمال القوقاس أعلن ٢٠ بالمائة فقط من السكان عن كونهم ملحدين (عام ١٩٧٤).. [هذا رغم] أن الباحثين في الأوساط الإسلامية يلحظون غالبًا تحفظًا من قبل السكان في الكشف عن حقيقة إيمانهم »

ومن أقوالها التي جعلتنا نختارها للحوار معها في هذه الفصل قولها:« هنالك خاصية ثانية للإسلام تزيد الوضع [في الاتحاد السوفيتي] تعقيدًا فهو، على نقيض المسيحية التي تفصل بين أمور الدين وأمور الدنيا، يجمع بين المجالين. فالعقيدة الإسلامية، وهي ثمرة القرآن والسنة، تفرض على المؤمنين وجود مؤسسات خاصة، مهمتها الإشراف على الحياة الاجتماعية. والدولة السوفيتية، في برنامجها التأحيدي [الذي يستهدف فرض إيدلوجية واحدة] لم يكن باستطاعتها أن توافق على وجود نظام خاص للطائفة الإسلامية، فألغت في أوائل سني استلامها السلطة، العناصر الأساسية فيه، أي النظام القانوني والمؤسسات الشرعية والأسس المالية

Encansse، وقد كنت محتارا في كيفية الاتصال بها للتعرف على سر وضعها في ذلك الدفتر إلى أن علمت أن لها مزرعة في ضواحي باريس، وعلمت أنها تشرف بنفسها عليها أيام العطل.

فاخترت يوما من أيام العطلة الأسبوعية، وذهبت مع فريق من التجار قصدوا مزرعتها لشراء بعض الخضر منها.

كانت هي المشرفة على البيع..

وقد استغللت الفرصة لأتحدث معها بعد أن رأيتها تقسم الخضر قسمين: الخضر الجيدة، والخضر الرديئة.

قلت لها: أنا متعجب من وجود خضر رديئة في هذه المزرعة التي توفرت لها كل أسباب الحياة.. لقد كان الأصل أن لا تكون هناك أي ثمرة رديئة.

التفتت إلي، وقالت: صدقت.. ذلك ما أقوله دائما للفلاحين الذين يزالون أعمالهم في هذه المزرعة..

قلت: فهل بحثت عن سر الرداءة والجودة؟

قالت: أجل.. لقد قمت ببحث معمق لذلك.. لا لأجل هذه المزرعة.. ولا لأجل ما أجنيه منها من مال.. ولكن لأجل أمر أخطر.

قلت: أمر أخطر.. ما هو؟

قالت: أنا أرى الفطرة النباتية هي الفطرة التي انطلقت منها فطرة الإنسان.. ولذلك فالانحراف الذي يحصل في عالم النبات قد يحصل مثله في عالم الإنسان، وأسباب الانحراف قد تكون نفسها.

قلت: هذا قياس جيد، وقد سمعت بعضهم يعتبره [1].. فكيف عبرت من النبات إلى الإنسان؟

قالت: ذلك سهل.. لقد وجدت أن جودة النبات تعتمد على ثلاثة أمور: جودة البذور، وجودة الوسط الذي تتغذى منه النبتة، ورعاية الفلاح.

قلت: هذا بالنسبة للنبات.. فكيف عبرت منه إلى الإنسان؟

قالت: البذور هي البشر.. فكل إنسان بذرة ستخرج في يوم من الأيام ثمراتها التي قد تكون طيبة، وقد تكون خبيثة.

المعتمدة. وبعد أن جعلت الديانة الإسلامية ديانة أفراد معينين لا ديانة طائفة، وبعد أن حرمت من مؤسساتها، ونزعت منها أمور الدنيا، هل بقي لها وجود منظم أم هي أضحت هيكلاً لا يلبث أن يتفتت مع غياب آخر فوج من المؤمنين؟ هنالك وقائع كثيرة وساطعة تشهد بأن التشاؤم فيما يتعلق بمستقبل الإسلام كان يمكن القبول به في الماضي القريب، ولكنه اليوم لم يعد له من أساس، بل على العكس، فهذه الوقائع توحي بأن الإسلام يبعث من جديد، وفي ظروف جديدة، وأن هذا البعث المرتكز إلى وجود واع وإرادي لا إلى وجود استمراري، تدعمه وتوجهه المراجع الإسلامية العليا »

ومن أقوالها:« نجد في صحف الجمهوريات الإسلامية عدة إشارات.. يفهم منها أن التضامن الإسلامي [في الاتحاد السوفيتي] بات في ازدياد، وأن المؤمنين أضحى لهم تأثير متصاعد على السكان غير الممارسين لدينهم » (انظر: كتابها (القوميات والدولة السوفييتية)، ص ١٤٣ فما بعدها،وانظر: قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل)

(١) انظر: فصل (الإنسانية) من هذه الرسالة.

والوسط الذي تتغذى منه النبتة وفيه تعيش هو وسطها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي..

والفلاح الذي يقوم برعاية النبتة يمثل المسؤولين على المجتمع من الساسة وغيرهم.

قلت: هذا كلام طيب.. وهو كلام فلاسفة وعلماء، لا كلام فلاحين.

قالت: أعرفك بنفسي.. أنا هيلين كارير دانكوس.. مهتمة بالنظم التي تحول الأرض إلى مزرعة طيبة، وتحول البشر إلى ثمار طيبة.. وهذه المزرعة هي حقل تجاربي.

قلت: أهناك نظم حاولت أن تحول البشر إلى ثمار طيبة؟

قالت: أجل.. كل النظم حاولت أن تفعل هذا.

قلت: ليس المهم المحاولة.. ولكن المهم النتيجة.. هل أثمرت مزارع هذه النظم ثمارا طيبة؟

قالت: كل المزارع أثمرت غسلينا وحنظلا وزقوما..

قلت: أأنت متشائمة من مزارع البشر.. فلذلك لجأت إلى مزارع الخضر!؟

قالت: أنا متشائمة ومتفائلة في نفس الوقت.

قلت: كيف يستقيم ذلك؟

قالت: لأن هناك من البشر من زرع مزرعة طيبة لا تزال بعض آثارها تملؤني بالتفاؤل.

قلت: فهل خربت تلك المزارع؟

قالت: لقد اجتمع الإنس والجن على تخريبها.. لكني أشعر أن لها مقاومة ذاتية.. وستنهض تلك المزرعة من جديدة.. فلذلك تجد تفاؤلي يغلب تشاؤمي.

قلت: أي مزرعة تلك التي استطاعت أن تقضي على تشاؤمك؟

قالت: مزرعة محمد..

قلت: ذلك النبي البدوي الذي ظهر في جزيرة العرب!؟

قالت: بل ذلك النبي الذي أعطى الحلول لكل مشكلات العالم.. ووضع له من النظم ما يملؤه بالسلام والسكينة والسعادة.

قلت: فكيف وصلت إلى هذه النتيجة؟

قالت: ذلك بحث طويل.. لقد طفت خلاله النظم والمدارس والفلسفات والأفكار أبحث عن نظام يتناسب مع فطرة الإنسان، ويغطي جميع احتياجاته، فلم أجده إلا عند محمد.. و لم أجده إلا في الإسلام[1].

قلت: فهل ستحدثيني عن نتيجة أبحاثك؟

قالت: يسرني ذلك.. ولكن قبل أن أحدثك عن مزرعة الثمار الطيبة، سأحدثك عن بعض مزارع الثمار الخبيثة.

قلت: تقصدين مزارع الجاهلية.

---

(١) سنتناول التفاصيل المرتبطة بهذا والشبهات المثارة حوله في رسالة (عدالة للعالمين) من هذه السلسلة.

قالت: أجل.. فلا يعرف الإسلام من لا يعرف الجاهلية.. ولا يعرف الثمرة الطيبة من لم يذق الثمرة الخبيثة.

١ ـــ نظم الجاهلية

قلت: بأي ثمرة خبيثة تودين أن نبدأ؟

نظرت إلى مزرعتها بأسى، وقالت: بالثمرة الطيبة التي حولها المجرمون والدجالون والسحرة إلى ثمرة خبيثة.

قلت: من تقصدين؟

استمرت في كلامها، وكأنها لم تسمعني.. وراحت تقرأ من الكتاب المقدس:« احترزوا من الأنبياء الكذبة يأتونكم بثياب الحملان الوديعة، ولكنهم من الداخل ذئاب خاطفة.. من ثمارهم تعرفونهم، هل تجتنون من الشوك عنبا، أو من الحسك تينا.. هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارا ردية» (إنجيل متى:٧:١٥-١٧)

نظرت إلي، وقالت: لقد كان المسيح يقصدهم.. بل لم يكن يقصد غيرهم.

قلت: من؟

قالت: أولئك الدجالون الذين حولوا المسيحية إلى مزرعة تنتج السموم.

قلت: نحن نقارن بين النظم لا بين الأديان.. وقد تبرأت المسيحية من السياسة من أيام المسيح.. لقد جاء في الإنجيل:« ذهب الفريسيون وتشاوروا لكى يصطادوه (أى السيد المسيح) بكلمة، فأرسلوا إليه تلاميذهم مع الهيرودسيين قائلين: يا معلم؟ إنك صادق وتعلم طريق اله بالحق ولا تبالى بأحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس فقل لنا ماذا تظن؟ أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا؟ فعلم يسوع خبثهم وقال: لماذا تجربوننى يا مراءون؟ أرونى معاملة الجزية. فقدموا له ديناراً فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا له: لقيصر؟ فقال لهم: أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر، وما لله لله؟ فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا »(انجيل متى: ٢٣: ١٤ — ٢٣)

المسيحية

قالت: ذلك على المستوى النظري.. أما على المستوى الواقعي، فقد أتيح للمسيحية أن تكون نظاما من النظم الحاكمة في المجتمع.. لقد أتيحت لها فترة كافية لتبين كيف يحكم أولئك الرجال الذين يمثلون المسيح.

قلت: فكيف كان حكمهم؟

قالت: قبل أن تعرف كيف كان حكمهم اعرف كيف كانوا.. فقد تقع البذرة الطيبة في يد الفلاح الخبيث، فيملؤها بالعطش والجوع الذي يميتها، أو قد يلقح أغصانها ببعض السموم لتتحول ثمارها إلى سموم.

قلت: فكيف كان أولئك الذين خلفوا المسيح؟

قالت: أتعرف الألقاب التي لقب بها المسيح أحبار اليهود؟

قلت: أجل.. لقد كان يسميهم (بائعي العهد، أولاد الأفاعي، عباد الدنيا)

الانحراف الديني:

قالت: لقد كانت هذه الأوصاف تنطبق تمام الانطباق على أولئك الفلاحين من رجال الدين الذين كلفوا بتنمية بذور البشرية.

لقد عبد أولئك القسيسون والرهبان الدنيا كما عبدها أحبار اليهود.. لقد سلكوا الطريق نفسها، وانصاعوا إلى الدنيا مستعبدين أتباعهم المؤمنين، وساعد وجودهم ضمن الإمبراطورية الرومانية على تثبيت مراكزهم وتدعيمها، ذلك بأنهم اقتبسوا من الأنظمة والهياكل السياسية للدولة فكرة إنشاء أنظمة وهياكل كهنوتية، وكما كانت هيئة الدولة تمثل هرماً قمته الإمبراطور وقاعدته الجنود، كانت الهيئة الكنسية تمثل هرماً مقابلاً قمته البابا وقاعدته الرهبان.. ونتيجة لمبدأ فصل الدين عن الدولة رعت الإمبراطورية الهرم الكنسي، ولم تر فيه ما يعارض وجودها فرسخ واستقر[1].

لقد ذكر المؤرخ الإنجليزي (ويلز) في معرض حديثه عن الفرق بين مسيحية المسيح ومسيحية الكنيسة أن تعاليم يسوع الناصري تعاليم نبوية من الطراز الجديد الذي ابتدأ بظهور الأنبياء العبرانيين، وهي لم تكن كهنوتية، ولم يكن لها معبد مقدس حبساً عليها ولا هيكل، ولم يكن لديها شعائر ولا طقوس، وكان قربانها (قلباً كسيراً خاشعاً)، وكانت الهيئة الوحيدة فيها هيئة من الوعاظ، وكان رأس ما لديها من عمل هو الموعظة.

بيد أن مسيحية القرن الرابع الكاملة التكوين، وإن احتفظت بتعاليم يسوع في الأناجيل كنواة لها، كانت في صلبها ديانة كهنوتية من طراز مألوف للناس من قبل منذ آلاف السنين، وكان المذبح مركز طقوسها المنمقة والعمل الجوهري في العبادة فيها القربان الذي يقربه قسيس متكرس للقداس، ولها هيئة تتطور بسرعة مكونة من

(١) انظر: العلمانية، سفر الحوالي، ومذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب.. وغيرها من المراجع التي تؤرخ للعلمانية.

الشمامسة والقساوسة والأساقفة[1].

التفتت إلي، وقالت: أتدري السر في ظهور هذا الهرم الكنسي الذي سيطر على بذور البشرية ليحولها عبيدا عند هؤلاء الوسطاء؟

قلت: ما هو؟

قالت: (التوسط بين الله والخلق).. لقد اعتبر رجال الكنيسة أنفسهم وسائط بين الله والخلق..

قلت: في الإسلام يوجد هذا أيضا.. فلا بد للمؤمن أن يذهب إلى رجل الدين ليعلمه شعائر الدين.

قالت: لا حرج في هذا النوع من الوساطات.. بل هو موجود في كل مناحي الحياة، لا في الدين وحده.. ولكن الوساطة التي ادعاها رجال الدين المسيحي متبعين فيها سنن من قبلهم من الوثنيات هي أن يوسطوا رجل الدين بينهم وبين الله.

لقد ذكر القرآن هذا.. ونبه إلى خطورته، فقال:﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:٣١)

وقد ورد في الحديث عن عدي بن حاتم: أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرَّ إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثمَّ منَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها، ورَغَّبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عَدِيّ المدينة، وكان رئيسا في قومه طيئ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدَّث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عَدِيّ صليب من فضة، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية:﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال:« بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم »[2]

لقد وقع هذا الذي أخبر به محمد.. وأخبر به قبله القرآن..

لقد نصب رجال الدين أنفسهم أنداداً لله، وقد ترتب على هذا آثار سيئة للغاية أخطرها احتكار رجال الدين لحق قراءة وتفسير الإنجيل، ثم مهزلة صكوك الغفران، ثم الانشقاقات الدينية المتوالية التي دمرت الحياة بصفة عامة، وأخيراً كان هذا المبدأ إحدى الحجج التي سلها ملاحدة القرن السابع عشر فما بعد،في وجه الأديان عامة والمسيحية خاصة.

يقول العالم الفرنسي الذي اعتنق الإسلام (ناصر الدين دينيه):« الوسيلة هي إحدى كبريات المسائل التي فاق بها الإسلام جميع الأديان، إذ ليس بين الله وعبده وسيط وليس في الإسلام قساوسة ولا رهبان، إن هؤلاء الوسطاء هم شر البلايا على الأديان وإنهم لكذلك مهما كانت عقيدتهم ومهما كان إخلاصهم وحسن نياتهم، وقد أدرك المسيح نفسه ذلك، ألم يطرد بائعي (الهيكل) غير أن أتباعه لم يفعلوا مثلما فعل، واليوم لو عاد عيسى

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية ٣: ٧٢٠.

(٢) رواه الترمذي، وقال:« هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث.

فكم يطرد من أمثال بائعي الهيكل؟

ويقول:« كذلك ما أكثر البلايا والمصائب، بل ما أكثر المذابح والمجازر التي يكون سببها هؤلاء الوسطاء، سواء كانت بين العائلات وبعضها أو بين الشعوب والشعوب، وهم في ذلك كله يصيحون: باسم مجد الله »[1]

قلت: ولكن النصوص الدينية المقدسة تدل على هذا.. فقد قال المسيح لبطرس كبير الحواريين:« أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة ابن كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات »(متى: ١٦: ١٩ – ٢٠)

فهذا النص يدل على أن المسيح قد جعل السلطة الدينية المهيمنة باسمه في الموضع الذي يموت فيه كبير الحواريين بطرس، ومن ذلك المركز تمد أجنحة نفوذها على العالم أجمع، وتحكمه باسم المسيح، وبما أن بطرس ـــ كما تقول الكنيسة ـــ مات في رومة فإن رومة هي قاعدة المسيح لحكم العالم، وفيها مقر الكنيسة التي يرأسها ممثل المسيح ورسوله (البابا) المعصوم عن الخطأ، وكل ما تقرره الكنيسة هذه هو عين الصواب، إذ أن المسيح بواسطة الروح القدس هو الذي يملي عليها تصرفاتها، ومادام أنها تعمل باسم الله وتحل وتبرم حسب مشيئته، فطاعتها واجبة وقراراتها إلزامية لكل المؤمنين بالمسيح وليس على الأتباع إلا الطاعة العمياء والانقياد الذي لا يعرف جدلاً أو نقاشاً..

كنت أقول هذا على حسب ما حفظته من غير شعور، فقاطعتني، وقالت: والذنب الذي لا يغتفر هو أن تصادم أوامر الله، التي هي أوامر الكنيسة، بواسطة العقل البشرى أيا كان صاحبه، والخارج على سلطة الكنيسة أو الناقد لقرارات مجامعها كافر مهرطق تحل عليه اللعنة والحرمان من دخول الملكوت مهما بلغت وجاهة رأيه، بل مهما كانت سوابقه وخدماته للمسيحية وللكنيسة نفسها.

أما إذا كان المتمرد على الكنيسة وسلطتها حاكماً أو شعباً، فإن الجيوش المقدسة ستسحقه بأقدامها، إرضاء للمسيح.

قلت: أجل.. هذا ما تقوله الكنيسة مستندة في ذلك إلى ما تفهمه من الكتاب المقدس.. وما تفهمه من قول المسيح.

قالت: وهذا الفهم هو الذي تحول إلى واقع تاريخي عاد بأسوأ النتائج على أوروبا والعالم أجمع.. بل لا نزال نصلى ناره إلى الساعة.

وأنا لا أتصور أن المسيح ذلك الرجل العظيم الممتلئ تواضعا وعبودية وأدبا يمكن أن يقول هذا.. لقد قال القرآن:﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:٧٩-٨٠)

---

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام:٢٣.

لقد سخر الكاتب الأمريكي (جرين برنتن) من استدلال الكنيسة بتلك الفقرات وأرجع السبب في وقوع الكنيسة في هذا الخطأ إلى التشابه الشكلي بين لفظي (بطرس) و(صخرة)[1]

بالإضافة إلى ذلك.. فإنا لو راجعنا إنجيل متى الذي أورد هذا الافتراء لوجدنا المسيح بعد ثلاث فقرات من هذا القول يخاطب بطرس قائلاً:« اذهب عني يا شيطان، لأنك لا تهتم بما الله لكن بما للناس » ... فكيف يتسق هذا الوصف وهذه التهمة مع الهبة السابقة والتكريم الذي لا حد له؟

الفساد المالي:

قلت: فهمت هذا ووعيته.. ولكنا لا نستطيع أن نحكم على رجال الدين من غير نظر إلى سلوكهم..

قالت: إن الجرائم التي ارتكبها رجال الدين باسم بطرس والمسيح والكنيسة لا عداد لها.. ولذلك سأكتفي بأن أسردها لك سردا لتعلم التشويه الخطير الذي لحق بذور البشرية ومزرعة البشرية إبان حكم أولئك الفلاحين من رجال الكنيسة.

أولها مساندة الكنيسة للظلم السياسى والاقتصادى والاجتماعى المتمثل فى الإقطاع الذي عانت منه أوروبا معاناة عظيمة..

فقد أصبحت الكنيسة ــ بفضل الهبات والإتاوات والعشور والهدايا والغصب والنهب والتدليس وغير ذلك من الوسائل ــ من ذوات الإقطاع.. بل كانت أملاكها فى بعض الأوقات تفوق أملاك الأباطرة وأمراء الإقطاع.

ومن ثم فقد تحدد موقفها من القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فوقفت فى صف الظلم تسانده وتذود عنه وتحارب حركات الإصلاح.. وكانت فى ذلك منطقية مع وضعها باعتبارها من كبار الملاك.. فهل كان يمكن – عقلا – أن تحارب الإقطاع وهى جزء منه، بل من أكبر ممثليه!؟

نظرت إلى مزرعتها.. وابتسمت، وراحت تقرأ:« من أراد الملكوت فخبز الشعير والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير عليه ».. « مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله »(مرقص ١٠: ٢٢ ومتى ١٩: ٢٥.. « لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصاً » (متى ١٠: ١٠-١١، ومثله لوقا ٩: ٤-١٠)

قلت: هذه هي الفضائل المسيحية.. فكيف تزعمين أن الكنيسة كانت بعيدة عنها؟

قالت: هذا هو الأفيون الذي كان يطعم به رجال الكنيسة بذور الرعية لتظل في نومها وسباتها لا تثمر ثمرا، ولا تنتج إنتاجا.. أما رجال الكنيسة أنفسهم فقد كانوا في عالم آخر..

يقول (كرسون) فى كتاب (المشكلة الأخلاقية):« كانت الفضائل المسيحية كالفقر والتواضع والقناعة والصوم والورع والرحمة، كل ذلك كان خيرا للمؤمنين وللقسيسين وللقديسين وللخطب والمواعظ. إما أساقفة البلاط والشخصيات الكهنوتية الكبيرة فقد كان لهم شئ آخر: البذخ والأحاديث المتأنقة مع النساء والشهرة فى

---

(١) وذلك أن اسم بطرس هو "peter" ولفظ "pert" يعني صخرة.. في تاريخ أوروبا الوسطى: ١٠٧/١.

المجالس الخاصة والعجلات والخدم والأرباح الجسيمة والموارد والمناصب »[1]

ويقول (ول ديورانت):« أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضى وأكبر السادة الإقطاعيين فى أوروبا، فقد كان دير (فلدا) مثلا يمتلك خمسة عشر ألف قصر صغير، وكان دير (سانت جول) يملك ألفين من رقيق الأرض، وكان (ألكوين فيتور) ــ وهو أحد رجال الدين ــ سدا لعشرين ألفا من أرقاء الأرض، وكان الملك هو الذى يعين رؤساء الأساقفة والأديرة، وكانوا يقسمون يمين الولاء كغيرهم من الملاك الإقطاعيين، ويلقبون بالدوق والكونت وغيرها من الألقاب الإقطاعية.. وهكذا أصبحت الكنيسة جزءا من النظام الإقطاعى..

وكانت أملاكها الزمنية، أى المادية، وحقوقها والتزاماتها الإقطاعية مما يجلل بالعار كل مسيحى متمسك بدينه، وسخرية تلوكها ألسنة الخارجين على الدين، ومصدرا للجدل والعنف بين الأباطرة والبابوات »[2]

وكانت مصادر تلك الأملاك متعددة، فمنها الأوقاف، ومنها العشور، ومنها الهبات ومنها الضرائب، ومنها السخرة.

فأما الأوقاف فقد كانت الكنيسة تستولى على أراض زراعية واسعة وتوقفها على نفسها لتنفق منها على الأديرة والكنائس وتجهيز الجيوش للحروب الصليبية أو الحروب التأديبية التى تقوم بها ضد الملوك والأباطرة الخارجين على سلطانها.. وفى ذلك يقول ويكلف، وهو من أوائل الذين ثاروا على الفساد الكنسى وطالبوا بالإصلاح الشامل:« إن الكنيسة تملك ثلث أراضى إنجلترا، وتأخذ الضرائب الباهظة من الباقى »[3]

لم تكتف الكنيسة بذلك.. بل فرضت على اتباعها أن يدفعوا إليها عشر أموالهم ضريبة سنوية لا يملكون التملص منها تحت وطأة التهديد بالحرمان وغضب الرب.

يقول ويلز:« كانت الكنيسة تجبى الضرائب، ولم يكن لها ممتلكات فسيحة ولا دخل عظيم من الرسوم فحسب، بل فرضت ضريبة العشور على رعاياها، وهى لم تدع إلى هذا الأمر بوصفه عملا من أعمال الإحسان والبر، بل طالبت به كحق »[4]

ولم تكتف الكنيسة بذلك.. بل راح البابا يوحنا الثانى والعشرون يفرض ــ بالإضافة إلى ذلك ــ ضريبة جديدة سميت (ضريبة السنة الأولى)، وهى دخل السنة الأولى لأية وظيفة من الوظائف الدينية أو الإقطاعية يدفع إلى الكنيسة بطريق الإجبار.

أما الهبات، فهى هبات فى ظاهر الأمر فقط، ولكنها ــ في الحقيقة ــ تؤخذ بالإحراج والتوريط، والترغيب والترهيب، وخاصة الهبات التى تمنح للكنيسة فى الوصايا التى يكتبها الناس قبل موتهم.. فقد فرضت الكنيسة على الناس ألا يكتبوا وصاياهم إلا على يد القسيس.. وما دام القسيس حاضرا وقت كتابة الوصية فقد

---

(١) المشكلة الأخلاقية ص ١٦٧.
(٢) قصة الحضارة ج ١٤ ص ٤٢٥.
(٣) فشر: تاريخ أوروبا ج ٢، ص ٣٦٢.
(٤) معالم تاريخ الإنسانية ج ٣ ص ٨٩٥.

أصبح الواجب ــ من باب المجاملة على الأقل ــ أن يهب الوصى شيئا من ماله للكنيسة حتى لا يكون مجافيا للذوق، أو حتى يتحاشى ما هو أخطر من ذلك: غضب الأرباب المؤدى إلى غضب رب الأرباب.

أما السخرة فقد كانت الكنيسة تفرضها على رعاياها بالعمل يوما واحدا فى الأسبوع بالمجان فى أراضى الكنيسة الواسعة، فيعمل التعساء ستة أيام فى الأسبوع ليجدوا خبز الكفاف لهم ولأسرهم، ثم يعملون اليوم السابع ــ يوم الراحة ــ سخرة فى أراضى الكنيسة لكى توفر الأخيرة أجور العمال التى كان المفروض أن تدفعها لقاء زراعة إقطاعياتها الواسعة وجنى حاصلاتها وتزداد بذلك اكتنازا وضراوة فى طلب المزيد من المال.

لقد كان من السهل على الكنيسة أن تمارس ذلك الطغيان المالى وهى تملك ذلك النفوذ الطاغى على أرواح الناس وعقولهم، فما هى إلا أن تصدر الأمر، فيطيع العبيد صاغرين.

صكوك الغفران:

قلت: عرفت هذا النوع من الطغيان.. فهل هناك غيره؟

قالت: لقد جرهم هذا النوع من الطغيان إلى أنواع أخرى لا تقل شأنا عن هذا النوع.

لقد اغترت الكنيسة بتلك القلوب الطيبة من العامة البسطاء الذين يسلمون لها بكل ما تقوله، ويسلمون لها كل ما تطلبه، فراحت تستعبدهم بطريقة أخرى.. لا شك أنك تعرفها.

قلت: ما الذي تقصدين؟

قالت: صكوك الغفران.. لا شك أنك سمعت بها.

قلت: أجل.. ولكنه لم يعد لها الوجود الآن..

قالت: تلك قصة أخرى.. ولنبدأ القصة من أولها.. ألسنا نريد أن نعرف نوع النظام الذي تبنته الكنيسة في حكمها.

قلت: أجل..

قالت: فلا مناص لنا إذن من التعرف على مفردات برنامجها الذي حكمت به لنقيمه وفق المنطق والعقل والواقع [1].

لقد صارت الكنيسة توزع الجنة، وتعرضها للبيع في مزاد علني، وتكتب وثائق للمشترين تتعهد فيها بأن تضمن للمشترى غفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر وبراءته من كل جرم وخطيئة سابقة ولاحقة ونجاته من عذاب المطهر، فإذا ما تسلم المشترى صك غفرانه ودسه في محفظته فقد أبيح له كل محظور وحل له كل حرام.. فلا حرج عليه لو سرق أوقتل.. بل لو جدف وألحد وكفر ما دم الصك رهن يده.. أليس المسيح هو الذي منحه إياه، والمسيح هو الذي يدين ويحاسب؟

فإذ اطمأن المشترى إلى هذه النتيجة فقد بقى لديه ما ينغص الفرحة ويكدر الغبطة ذلك أن والديه وأقرباءه قد ماتوا وليس معهم صكوك.

---

(١) انظر في هذا المراجع السابقة.. وخصوصا العلمانية لسفر الحوالى، ومذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب.

لكن الكنيسة الأم (الرؤوم لكل المسيحيين) شملت الكل برحمتها، فأباحت له أن يشترى لمن أحب (صك غفران) وما عليه بعد دفع الثمن إلا كتابة اسم المغفور له في الخانة المخصصة، فيغادر المطهر فوراً ويستقر في ظلال النعيم مع المسيح والقديسين.

أما الشقي النكد عديم الحظ فهو ذلك القن الذي لم يستطع أن يحصل من سيده الإقطاعي (المغفور له) على ما يشترى به صكاً من قداسة البابا أو المريض المقعد الذي لا يجد عملاً يخول له الحصول على المغفرة، أو الفقير المعدم الذي يعجز عن استدانة دينارين يشترى بها جنات النعيم، هؤلاء يظلون محرومين من هذه الموهبة مهما بلغت تقواهم وعظم حبهم للمسيح وتعلقهم بالعذراء.

نظرت إلي، وقالت: أتدري ما الأساس الذي بنيت عليه هذه المهزلة؟

قلت: أنا أعلم أن الأناجيل والرسائل خالية مما يدعمها أو يدل عليها..

قالت: إنه مبدأ التوسط بين الله والخلق.. فقد أصبحت وظيفة رجل الدين هي التوسط بين الله وخلقه.. فعن طريقة تؤدى الصلاة ويتناول العشاء الرباني وهو الذي يقوم بالتعميد وبمراسم وطقوس الزواج والموت ويتقبل الاعترافات من المذنبين.

وفي الوقت الذي كان رجل الدين فيه يتقبل الاعتراف لم يكن ليدعي حق المغفرة من نفسه لكن المسيح ــ بزعمه ــ يغفر لمن أقر بذنبه بين يدي أحد أتباع كنيسته التي أورثها سلطانه وفرض لها السيادة على العالمين.

وكان الفرد المسيحي يستطيع ضمان الملكوت مع المسيح باعتراف واحد في العمر هو اعتراف ساعة احتضاره، إذ يتم دهن جسده بالزيت المقدس، فيتطهر من كل الأرجاس والذنوب، وكان من العقوبات الصارمة التي تتخذها الكنيسة ضد مخالفيها من الشعوب أو الأفراد حرمانهم من الاعتراف الأخير والصلاة عليهم، فلا يشك مسيحي أنهم ذهبوا إلى الجحيم بسبب ذلك.

واستمر الحال على ذلك فترات طويلة حتى كان مطلع القرن الثالث عشر الميلادي حيث كانت الكنيسة تجتاز مرحلة حاسمة في تاريخها، وكانت بحاجة إلى مزيد من السلطة الدينية والنفوذ المالي لمواجهة أعدائها، فقررت عقد مجمع عام لبحث الوسائل الكفيلة بتحقيق ذلك فعقد المجمع الثاني عشر المعروف باسم مجمع لاتيران سنة ١٢١٥م ونجح هذا المجمع في إقرار مسألتين كان لهما أثر بالغ على المسيحية في القرون التالية.

لاشك أنك تعرفهما..

أما أولهما هو (العشاء الرباني).. وهو لا يزال حيا بيننا[١].

وأما الثاني.. فهو امتلاك الكنيسة حق الغفران للمذنبين.. وقد أصدروا لتقرير ذلك القرار التالي:« إن يسوع المسيح لما كان قد قلد الكنيسة سلطان منح الغفرانات، وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذي نالته من العلا منذ الأيام الأولى قد أعلم المجمع المقدس وأمر بأن تحفظ للكنيسة في الكنيسة هذه العملية الخلاصية للشعب المسيحي والمثبتة بسلطان المجامع، ثم ضرب بسيف الحرمان من يزعمون أن الغفرانات غير مفيدة أو

(١) تحدثنا عنه في فصل (صمود) من هذه الرسالة.

ينكرون على الكنيسة سلطان منحها غير أنه قد رغب في أن يستعمل هذا السلطان باعتدال واحتراز حسب العادة المحفوظة قديماً والمثبتة في الكنيسة لئلا يمس التهذيب الكنسي تراخ بإفراط التساهل»[1]

بهذا القرار فرض المجمع على كل المسيحيين أن يعترفوا أمام قسيس الأبرشية مرة كل عام لكي يستطيعوا الحصول على الغفران، وتنفيذاً لذلك أخذ الناس يتوافدون على الأبرشيات طلباً للمغفرة ويقدمون للقساوسة الهدايا والصدقات، فارتفع مركز الكنيسة معنويا ومادياً[2].

وبعد فترة من الزمن أخذ هذا التوافد في الفتور وتقاعس كثيرون عن الاعتراف، وفي الوقت نفسه ازداد إلحاح الكنيسة على تثبيت مركزها وتعبئة خزائنها، فقررت اتخاذ وسيلة ناجحة لضمان استمرار ذلك فهداها تفكيرها إلى كتابة الغفرانات في صكوك تباع على الملأ وتنص على غفران أبدى بحيث تكون حافزاً قوياً على دفع المبلغ المالي الذي تقرره الكنيسة أو القيام بالخدمات التي ترغب تنفيذها.

اسمع نص هذا الصك (ربنا يسوع يرحمك يا ...(يكتب اسم الذي سيغفر له) ويشملك باستحقاقات آلامه الكلية القدسية، وأنا بالسلطان الرسولي المعطى لي أستحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنسية التي استوجبتها، وأيضاً من جميع الافراط والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ومن كل علة وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس الباب والكرسي الرسولى، وامحوا جميع أقذار الذنب وكل علامات الملامة التي ربما جلبتها على نفسك في هذه الفرصة، وأرفع القصاصات التي كنت تلتزم بمكابدتها في المطهر وأدرك حديثاً إلى الشركة في أسرار الكنيسة وأقرنك في شركة القديسين، أردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا لك عند معموديتك حتى أنه في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب، ويفتح الباب الذي يؤدى إلى فردوس الفرح، وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتى ساعتك الأخيرة، باسم الأب والابن والروح القدس)[3]

التفتت إلي، وقالت: أتدري الظروف التي ألجأت الكنيسة لمثل هذه التصرفات؟

قلت: لا..

قالت: لقد كانت الكنيسة تواجه في هذه المرحلة ألد وأخطر أعدائها.. أولئك المسلمين الطيبين.. فقد كانت الحروب الصليبية قد استعر إوراها، وبدأت تلوح علامات الهزيمة للصليبيين، وبلغ ضعف الحماس الديني في نفوس الأوربيين مبلغاً كبيراً، وفقد المقاتلون ثقتهم في الكنيسة نتيجة لخيبة أملهم في النصر الذي وعدتهم وعداً قاطعاً، و لم يروا للمسيح والملائكة والقديسيين أثر في معاركهم، بل على العكس تخيلوا أنهم يقفون ضدهم تماماً، وبذلك اهتز موقف الكنيسة وأيقنت أن وعودها المعسولة بالنصر، وقراراتها الشفوية بالمغفرة للمشتركين في الحرب لم تعد تؤدى مفعولاً مؤثراً، فقررت الكنيسة تجسيد هذه الأماني في وثيقة خطية محسوسة يحملها

---

(١) محاضرات في النصرانية: ١٩٤.

(٢) تاريخ العالم: ٥/٥٠٢.

(٣) المسيحية: ٢١٤، وانظر: محاضرات في النصرانية.

المقاتل، ويندفع للاشتراك في الحملة الصليبية وهو على ثقة وعزم.

وتنفيذاً لذلك برز إلى الوجود مهزلة (صكوك الغفران) وكانت ــ كما يقول ول ديورانت ــ توزع على المشتركين في الحروب الصليبية ضد المسلمين[1].

وبهذا.. فإن هذه الصكوك لم يكن ينالها إلا احد رجلين:

صاحب مال.. يشترى الصك من الكنيسة حسب التسعيرة التي تحددها.

وصاحب سيف.. يبذل دمه في سبيل نصرة الكنيسة والدفاع عنها وحراسة مبادئها.

أما ما عدا هذين.. فيظل محروما لا يملك ثمن الصك.. ولذلك يظل المسكين أسير صراع نفسي مرير وشعور بالحرمان قاتل.

وهكذا فالكل مضحون، والكل خاسرون، والكنيسة هي الرابح الوحيد من هذه الصكوك..

التفتت إلي، وقالت: أتدري ما نهاية هذه الصكوك التي تشكل مفردة مهمة من مفردات برنامج الكنيسة السياسي؟

قلت: ما نهايتها؟

قالت: لقد كانت هذه البدعة ــ أول أمرها ــ من أسباب قوة الكنيسة ودعائم شموخها:

فمن ناحية المكانة الدينية ارتفعت منزلة رجال الدين في نظر السذج والجهلة بعد أن منحهم المسيح هذه الموهبة العظيمة، وخيل إليهم أنه ما دام أعطاهم حق المغفرة للناس فبديهي أنه غفر لهم، بل قدسهم ووهبهم من روحه كما يدعون، وبذلك تجب طاعتهم والتزلف إليهم وتملقهم على من أراد التقرب إلى المسيح والحصول على رضاه، وإذ قد آمن الناس — ملوكاً وصعاليك — بحق الغفران، فقد سهل عليهم أن يؤمنوا بمقابلة (حق الحرمان)، ولم يزدادوا طمعاً في ذاك إلا وازدادوا رهبة لهذا.

ومن الوجهة المادية أثرت الكنيسة من عملية بيع الصكوك ثراء فاحشاً حتى أصبحت بحق أغنى طبقات المجتمع الأوروبي آنذاك بما تكدس في خزائنها من أموال وتدفق عليها من عطايا وهبات.

ومن الوجهة السياسية قويت الكنيسة وتدعمت سلطتها بالجحافل البربرية التي تطوعت للقتال في سبيلها من أجل الحصول على الغفران، وبالمقابل انخفضت سلطة الملوك الذين كانوا جنودا للكنيسة بأنفسهم في الحروب الصليبية، إلا من تردد منهم أو حاول التملص من قبضتها فعوقب بالحرمان كما حدث لفريدريك الثاني[2].

---

(١) قصة الحضارة: ١٥/ ٦٦.

(٢) هو الإمبراطور (فريدريك الثاني)، وهو أعظم زعيم تحدى سلطات الكنيسة واستطاع مقاومتها مدة غير يسيرة، ويرجع ذلك إلى المؤثرات الإسلامية في ثقافته وشخصيته، فقد كان مجيدا للعربية مغرما بالحضارة الإسلامية، حتى أن الكنيسة اتهمته باعتناق الإسلام وسمته (الزنديق الأعظم)، أما المفكرون المعاصرون فيسميه بعضهم (أعجوبة العالم) وبعضهم (أول المحدثين)، انظر حول سيرته كتاب الزنديق الأعظم، وفصل أعجوبة العام، ج٣، ويلز.

كل هذه الثمار جنتها الكنيسة من جراء هذه المهزلة..

ولكن الحصاد الخبيث الذي حصدته من جرائها لا يمكن وصفه..

لقد كانت تلك الصكوك مسماراً في نعش الكنيسة، وبداية لنهايتها، وكانت خسارتها بها عظيمة عظم جناياتها:

فمن الوجهة الاقتصادية تلى الإقبال الهائل على شراء الصكوك انكماش وفتور كالذي يصيب أي بدعة أو ظاهرة جديدة بعد فترة من ظهورها، فنضبت الكثير من موارد الكنيسة في حين ازدادت طمعا وشراهة.. فاضطرت إلى عرض الصكوك بطريقة مبتذلة، فكان الآباء والقساوسة يتجولون في الإقطاعيات، ويبيعونها بأسعار مخفضة، ثم زهيدة، وكلما ازداد العرض قل الطلب وتولد لدى الناس شعور داخلي بأن شراءها إضاعة للمال فيما لا فائدة فيه، أو على الأقل فيما ليس مضمون العاقبة.

وفي الوقت نفسه داهمت المسرح المالي فئة جديدة من الناس أخذت تظهر بوضوح منافسة للطبقتين البارزتين آنذاك (النبلاء) و (رجال الدين) تلك هي الطبقة البورجوازية وحصلت تحولات أخرى كانت بمثابة المؤشر لنهاية النظام الإقطاعي بجملته.

ومن ناحية المكانة الدينية لرجال الدين، فقد بدأت تلك الهالة القدسية المحيطة بهم تتبخر شيئاً فشيئاً بعد زمان من ظهور هذه المهزلة وابتداء الناس يعتقدون أنهم كانوا مخطئين في ذلك الاندفاع الأعمى والتسليم الأبله، وعمق ذلك الاعتقاد تنافس القساوسة على بيع الصكوك مقروناً بسيرتهم السيئة وفجورهم الفاضح، وعجب الناس إذ رأوا كثيراً من الأشرار والطغاة يتبوءون مقاعدهم في الملكوت ببركة الصكوك التي منحها لهم رجال الدين، فكان ذلك إيذاناً بالشك في قداسة رجال الدين أنفسهم ومدى صلاحهم واستحقاقهم للملكوت في ذواتهم.

ومن ناحية المركز السياسي والنفوذ الدنيوي، فقد كان لصكوك الغفران وما أحاط بها من ظروف وملابسات أثره البالغ في العلاقة بين الكنيسة من جهة والملوك والأمراء والنبلاء من جهة أخرى، فقد رأوا أن قبضة الكنيسة تزداد استحكاماً مع الأيام وأنهم وشعوبهم ليسوا إلا أدوات أو صنائع رجال الدين يمنون عليهم بالعفو إن رضوا ويعاقبونهم بالحرمان إن سخطوا، كما أن الثراء الذي حصلت عليه الكنيسة جعلها تبدو منافساً قوياً لأصحاب الإقطاعيات وكبار الملاك، فكان يسيطر على الجميع شعور موحد بالعداوة لها والحقد عليها.

لذلك لم تكد بوادر الاستنكار ضد تصرفاتها ــ لا سيما صكوك الغفران ــ تبرز للعيان حتى انتهزها الملوك والأمراء فرصة سانحة لحماية الحركات المعارضة وتأجيج سعيرها، ولولا أن بعض المصلحين الكنسيين ــ ولوثر خاصة ــ وجدوا الحماية والعطف من الأمراء والنبلاء لما نجوا من قبضة الكنيسة ونتائج قرارات حرمانها.

ومن ناحية أخرى رأى الأوربيون، حكاماً ومحكومين، الحياة الكريمة التي يعيشها الشرق الإسلامي حيث لا كهنوت ولا طغيان ولا احتكار، فهزت هذه الرؤية أنفسهم وبهرت عيونهم لدرجة أن صكوك الغفران ووعود الكنيسة بالملكوت أصبحت بالنسبة لهم هراء لا طائل تحته يبعث على الاشمئزاز والاستخفاف.

أما من الناحية الاجتماعية، فقد كانت صكوك الغفران سبباً مباشراً في انبعاث الشرارة الأولى التي اندلعت

نيرانها فيما بعد، فالتهمت الأوضاع الاجتماعية وأودت بالتعاليم الكنسية والتقاليد الدينية كافة.

وبذلك.. فقد ساعدت صكوك الغفران بصفة مباشرة على هدم التعاليم الدينية من أساسها والاستهتار بكل المعتقدات والأصول الإيمانية بجملتها وأسهمت في انتشار فكرة إنكار الآخرة والجنة والنار التي لا يقوم دين بغيرها.

ولا زالت إلى الآن شاهداً قوياً ومستنداً قاطعاً لكل أعداء الدين في الغرب، حيث نشأ عن الكفر برجل الدين وتصرفاته كفر بالدين ذاته وما يتصل به من سلوك وخلق.

لقد كان الخيار الصعب الذي وضعه أعداء الدين أمام الإنسان الأوروبي هو إما أن يؤمن بصكوك الغفران فيحكم على نفسه تلقائياً بالجمود والغباء والرجعية المتناهية، وإما أن يكفر بها فيلزمه بالإطار الذي يحويها بكامله إطار الدين والغيبيات، لا سيما الآخرة.

الاستبداد السياسي:

نظرت إلى مزرعتها، وقالت: لم تكن تلك الثمار الخبيثة التي جنتها الكنيسة هي وحدها ما زرعت.

قلت: فهل زرعت شيئا آخر غير هذا؟

قالت: أجل.. لقد كانت تقول:« اعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله ».. أليس كذلك؟

قلت: بلى.. لقد قالت ذلك.. ولا زالت تقوله.

قالت: ولكنها في الفترة التي استغلت فيها طيبة الجماهير ارتدت على قيصر، وحولته عبدا لها.. لا ليحكم بالعدل الذي تقتضي شرائع العدل، وإنما ليسد الفراغ الذي يعانيه نهم الكنيسة.

قلت: كيف حصل ذلك؟

قالت: لقد ادعت الكنيسة لنفسها سلطة دنوية (أو زمنية Temporal كما يسمونها فى التاريخ الأوروبى) نازعت بها الأباطرة والملوك وأخضعتهم لسلطانها.

فقد أصدر البابا (نقولا الأول) بيانا قال فيه:« أن ابن اله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها، وإن أساقفة روما ورثوا سلطات بطرس فى تسلسل مستمر متصل، ولذلك فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين، حكاما كانوا أو محكومين»[1]

أما البابا (جريجوري السابع)، فقد أعلن أن الكنيسة، بوصفها نظاماً إلهياً، خليقة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية، ومن حق البابا وواجبه، بصفته خليقة الله في أرضه، أن يخلع الملوك غير الصالحين وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام أو تنصيبهم، حسب مقتضيات الأحوال.

وقد سخر من الملوك والشعوب بقوله:« من ذا الذي يجهل أن الملوك والأمراء يرجعون بأصولهم إلى الذين لا يعرفون الله ثم يتعالون ويصطنعون العنف والغدر ويرتكبون جميع أنواع الجرائم ويطالبون بحقهم في حكم من

---

(١)قصة الحضارة لول ديورانت ج ١٤ ص ٣٥٢.

لا يقلون عنهم – أي الشعب – جشعا وعماية وعجرفة لا تطاق »[1]

وهي في ذلك لم تطلب سوى سلطانا شخصيا بحتا، وأرضيا بحتا، وهو أن يطأطئ الملوك والأباطرة لها الرؤوس، وأن يعلنوا أنهم خاضعون لسلطانها.

وقد مارست الكنيسة ذلك السلطان بالفعل على الحكام والمحكومين، مع وجود فترات من الصراع المتبادل، حيث يتمرد بعض الملوك والأمراء على سلطة البابا، ويشتد آخرون فى حربهم للبابوات حتى إنهم ليعزلون البابا أو ينفونه أو يسجنونه.. ولكن السلطة الغالبة كانت للكنيسة، تستمدها من سلطانها الروحى الطاغى على قلوب الناس، ومن جيوشها الكثيفة ومن أموالها التى تضارع ما يملكه الملوك وأمراء الإقطاع.

وقد روى (فيشر) قصة الصراع بين البابا هلدبراند وهنرى الرابع إمبراطور ألمانيا فيقول:« ذلك أن خلافا نشب بينهما (بين البابا والإمبراطور) حول مسألة (التعيينات) أو ما يسمى (التقليد العلمانى)، فحاول الإمبراطور أن يخلع البابا، ورد البابا بخلع الإمبراطور وحرمه وأحل اتباعه والأمراء من ولائهم له وألبهم عليه، فعقد الأمراء مجمعا قرروا فيه أنه إذا لم يحصل الإمبراطور على المغفرة لدى وصول البابا إلى ألمانيا فإنه سيفقد عرشه إلى الأبد، فوجد الإمبراطور نفسه كالأجرب بين رعيته، ولم يكن فى وسعه أن ينتظر وصول البابا، فضرب بكبريائه عرض الحائط واستجمع شجاعته وسافر مجتازا جبال الألب والشتاء على أشده، يبتغى المثول بين يدى البابا بمرتفعات كانوسا فى تسكانيا، وظل واقفا فى الثلج فى فناء القلعة ثلاثة أيام وهو فى لباس الرهبان متدثرا بالخيش حافى القدمين عارى الرأس يحمل عكازه مظهرا كل علامات الندم وأمارات التوبة حتى تمكن من الظفر بالمغفرة والحصول على رضا البابا العظيم »[2]

وفي بريطانيا حدثت قصة أخرى مماثلة، فقد حصل نزاع بين الملك هنري الثاني وبين (تومس بكت) رئيس أساقفة كنتربري، بسبب دستور رسمه الملك يقضى على الكثير من الحصانات التي يتمتع بها رجال الدين، ثم أن رئيس الأساقفة اغتيل فروعت المسيحية وثار تأثرها على هنري ودمغته بطابع الحرمان العام. فاعتزل الملك في حجرته ثلاثة أيام لا يذوق فيها الطعام، ثم أصدر أمره بالقبض على القتلة وأعلن للبابا براءته من الجريمة ووعد بأن يكفر بالطريقة التي يرتضيها، وألغى الدستور ورد إلى الكنيسة كل حقوقها وأملاكها، وبالرغم من ذلك لم يحصل على المغفرة حتى جاء إلى كنتوبري حاجاً نادماً ومشى الثلاثة أميال الأخيرة من الطريق على الحجارة الصوان، حافي القدمين يترف الدم منهما، ثم استلقى على الأرض أمام قبر عدوه الميت وطلب من الرهبان أن يضربوه بالسياط وتقبل ضرباتهم وتحمل كل الإهانات في سبيل استرضاء البابا وأتباعه[3].

لقد روى التاريخ الكثير عن قصة النزاع بين الكنيسة وبين الأباطرة والملوك لأجل هذا..

وليس ثمة شك في أن النصر ظل حليف الكنيسة طيلة القرون الوسطى بسبب سلطتها الروحية البالغة

---

(١) فيشر – تاريخ أوروبا: ٢/ ١٤٧.

(٢) فيشر – تاريخ أوروبا ج ١ – ص ٢٦٠.

(٣) انظر قصة الحضارة ١٥/ ١٩٤ وما بعدها.

وهيكلها التنظيمي الدقيق واستبدادها المطلق، ولذلك فقد كان البابوات هم الذين يتولون تتويج الملوك والأباطرة، كما كان في إمكانهم خلع الملوك وعزلهم بإرادتهم المحضة، ولم يكن باستطاعة أحد الانفلات من ذلك، ومن رفض الرضوخ فإن حكمه غير شرعي ومن حق البابوية أن تعلن الحرب الصليبية عليه وتحرم أمته.

ولعل أعظم زعيم تحدى سلطات الكنيسة واستطاع مقاومتها مدة غير يسيرة، هو الإمبراطور (فريدريك الثاني) الذي سبق ذكره.. فقد اشتد النزاع بينه وبين البابا (جريجوري التاسع) بسبب رفضه القيام بحملة صليبية على الشرق — وكانت الكنيسة تعد الملوك جنوداً طائعين لها — فحرمه البابا وشهر به في رسالة علنية عدد فيها هرطقاته وذنوبه، فكان على الإمبراطور أن يدفع التهمة عن نفسه برسالة وصفها ويلز بأنها (وثيقة ذات أهمية قصوى في التاريخ، لأنها أول بيان واضح صريح عن النزاع بين مدعيات البابا في أن يكون الحاكم المطلق على عالم المسيحية بأسرة، وبين مدعيات الحكام العلمانيين وقد كان هذا النزاع يسري على الدوام كالنار تحت الرماد ولكنه كان يضطرم هنا على صورة ويتأجج هناك على صورة أخرى. ولكن فريدريك وضع الأمر في عبارات واضحة عامة يستطيع الناس أن يتخذوها أساسا لاتحادهم بعضهم مع بعض للوقوف في وجه الكنيسة[1].

على أن فردريك كان ظاهرة فذة لم تلبث أن تختفي تحت قهر قرارات الحرمان والسطوة الكنسية الباغية، ولم يعرف التاريخ الأوروبي من يماثله إلا بعد أجيال عديدة.

لكن هذا الاستبداد كصكوك الغفران لم يدم طويلا.. فقد ظل سلطان الكنيسة يتداعى فى نهاية القرون الوسطى حتى قام الملوك يعلنون أنهم هم الحكام فى الأرض بمقتضى (الحق الالهى المقدس)، وأنه ليس للبابوات عليهم سلطان إلا السلطان الروحى وحده.

فاستبدلت أوروبا ـــ فى الحقيقة ـــ طغيانا بطغيان مع فارق واحد، هو أن الطغيان الجديد يبعد تدريجيا ويبعد الناس معه عن سلطان الدين، وفضلا عن ذلك فقد كان انشقاق الملوك عن سلطان البابا يتخذ شكلا قوميا متزايدا، تسانده العوامل الأخرى — السياسية والاقتصادية — التى أحاطت بأوروبا وشجعت على ظهور القوميات، التى كان لها دور كبير فى بروز الصراعات الحادة فى أوروبا أولا، ثم فى العالم لكله فى صورة حروب استعمارية فيما بعد.

(١) معالم تاريخ الإنسانية: ٥/ ٢٢٤. وانظر كتاب الزنديق الأعظم: جوزيف جاي ديس، ترجمة أحمد نجيب هاشم.

الديمقراطية

قلت: المهم أن البذور في الأخير تمردت على مزارعي الكنيسة.

قالت: ولكنها وقعت في أيدي مزارعين لا يقلون عنها خطرا.. راحوا يشوهون البذور لتنسجم مع أهوائهم.

قلت: من هؤلاء الدجالون؟

قالت: كثيرون.. وأولهم من ينعتون أنفسهم (الديمقراطيون)..

انتفضت قائلا: أتقولين هذا عن الديمقراطية.. وهي التي تقوم علي حرية الفرد في أن يعمل ما يشاء، ويملك ما يشاء.. إن شعارها الشهير هو الشعار الذي أطلقته الرأسمالية في نشأتها (دعه يعمل ما يشاء Laissez Faire ، دعه يمر من حيث يشاء laissez Passer)[1]..

إنها الديمقراطية التي نشأ عنها الحرية السياسية وتعدد الأحزاب.. وحرية..

قاطعتني، وقالت: خفف عنك هذا.. فما هو إلا بهرج كاذب سرعان ما يبدو عواره.

قلت: العالم كله الآن يسبح بحمد الديمقراطية.. فكيف تذمينها؟

قالت: والعالم كله الآن موقد نيران.. لقد تحولت مزرعة البشرية لأول مرة في التاريخ إلى مزرعة لإنبات النيران بين الدول.. وبين الشعوب.. وبين الأفراد..

لقد حولت الديمقراطية العالم إلى عالم ثيران تتناطح.. ولا يغلب فيها إلا أعظمها قرونا.

الرأي العام:

قلت: ولكن الديمقراطية هي النظام الوحيد الذي يرجع للرأي العام..

ابتسمت، ونظرت إلى مزرعتها، وقالت: هل ترى لتلك الخضر التي تتربع في ذلك الحقل رأيا؟

قلت: هي خضر.. وأنا أتحدث عن البشر؟

قالت: لقد صنعت الديمقراطية كثيرا من القدور طبخت فيها خضر البشرية كما شاءت.. ثم أطلقت على ذلك الطبيخ اسم (رأي عام) لعلك كنت في يوم من الأيام ضحية إحدى تلك القدور.

قلت: ما تقولين؟

قالت: اصبر علي.. وسأبرهن لك على ما أقول.

لقد اتخذت الديمقراطية.. أو اتخذ الذين لهم مصلحة في الديمقراطية.. لأنفسهم قدورا كثيرة.. منها الصحافة والإذاعة والسينما والتليفزيون والخطبة والمحاضرة والكتاب.. وغيرها من وسائل الإعلام التي توجه

---

(١) يطلق الشيوعيين علي الديمقراطية الغربية وصف (الليبرالية)، وهم يقصدون به الذم لا المدح ويعنون به الديمقراطية التي يتمتع فيها الرأسماليون بحرية استغلال الطبقة الكادحة.

الرأي العام حسبما تشتهي [1]..

سأضرب لك مثالا على قدر من تلك القدور الخطيرة.. وهي الصحافة التي كانت وما تزال من أشد وسائل التأثير.

قلت: إن الصحافة في بلادنا حرة..

قالت: ولكنها لا تستطيع أن تعيش بلا معونة خارجية، فهي تتكلف في أحيان كثيرة أضعاف الثمن الذي تباع به للجمهور.

قلت: فكيف تغطي الصحافة تكاليفها، ثم تربح فوق ذلك أرباحا طائلة؟

قالت: إنها تعتمد ــ أساسا ــ علي الإعلانات ثم علي الإعانات من أي طريق تجئ.. والإعلانات — بطبيعة الحال — في يد الشركات والمؤسسات الصناعية أي في يد الرأسمالية، ومن ثم فإنه يكفي لقتل أي صحيفة حرة تتجرأ علي المصالح الحقيقية للرأسمالية، أن تمنع عنها الإعلانات فتسقط في هاوية الإفلاس، ولا ضير في الوقت ذاته علي الرأسمالية من مناوشات سطحية في الصحف تنتقد كما تشاء دون أن تصيب الجذور.

فإذا كان الصحافة — التي تؤثر التأثير الأكبر علي الرأي العام واقعة في قبضة الرأسمالية إلي هذا الحد، فلنا أن نتوقع أن تكون الأفكار التي تصوغها وننشرها هي ما تريده الرأسمالية، أو في القليل هي ما لا يتعارض مع المصالح الحقيقة للرأسمالية.

قلت: ولكن هناك وسائل إعلام أخرى؟

قالت: هي مثل الصحافة، وبقية وسائل الإعلام.. فهي واقعة بصورة أو بأخري في ذات القبضة الشريرة التي توجه الأفكار وتشكل المواقف للناس.

قلت: عرفت القدر.. ولكني لم أعرف ما يطبخ فيها.

قالت: في قدور (الرأي العام) يطبخ كل ما يريده (الرأي الخاص)

قلت: هل تفضلت بذكر مثل عن بعض أنواع الطبيخ؟

قالت: من أهم أنواع الطبيخ في هذه النظام الذي يحركه أرباب الأموال إشعال الحروب..

لنفرض أن السادة أرادوا إشعال حرب في مكان ما علي سطح الأرض، وهو أمر يهم الرأسمالية من جميع الوجوه المتخيلة.. وأولها بيع السلاح الذي يدر علي صانعية أرباحا خيالية.. فكيف يهيأ (الرأي العام) لتقبل الحرب أولا، ثم التحمس لها ثانيا، ثم المطالبة بها أخيرا.

تبدأ الصحف — وكذلك وسائل الإعلام — في نشر أخبار قصيرة مثيرة تثير عند الغافلين ــ والرأي العام دائما غافل ــ نوعا من التطلع والانتباه.. ثم يزاد في طول الخبر ويؤتي بمزيد من التفاصيل.. ثم يصبح الموضوع هو الحديث اليومي في الصحافة والإذاعة والتليفزيون.. ثم يزاد في نغمة الإثارة حتي تشحن النفوس بالوقود ... ثم تأخذ الصحافة في استطلاع الرأي العام الذي كانت قد وجهته سابقا.. فإذا رأت الرأي العام متحمسا تبدأ

---

(١) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب.

في مطالبة الحكومة بالتحرك.. ثم تبدأ الحكومة في الاعداد انطلاقا من مطالبات الرأي العام الذي طبخه أرباب الأموال.. ثم تنطلق شرارة الحرب، ويباع السلاح، ومعه المطامع الكثيرة.. وتتحقق الأهداف المطلوبة من وراء المشروع.

قلت: هذا تحليل رائع.. وهو يدل على عقل ذكي.. ولكن هل في الواقع ما يثبت هذا؟

قالت: كل الواقع يثبت هذا.. سأضرب لك مثالا.. مجرد مثال..

في الحرب العالمية الثانية التي امتدت فشملت معظم أرجاء الأرض، وقتل فيها أربعون مليونا من الشباب في ميادين القتال غير الذين قتلوا من الرجال والنساء والأطفال بعيدا عن ميادين الحرب بالقنابل المدمرة، وغير الذين قتلوا بتأثير القنبلتين الذريتين اللتين ألقيتا في نجازاكي وهيروشيما.. بدأت صحافة الحلفاء.. أي الديمقراطيات في غرب أوربا وفي امريكا.. تتكلم عن هتلر واستعداداته الحربية والأزمات التي يثيرها (وخاصة أزمة ممر دانزج التي اعتبرت الشرارة الأولي للحرب)، وبدأت تكتب عن النازية وعن النظم الدكتاتورية وعداوتها للحرية والديمقراطية وحقوق الانسان.. وأن علي الديمقراطيات التي تشكل (العالم الحر) أن تؤدب هذا الطاغية الذي ينذر بشر مستطير لجميع البشرية.

قلت: فأنت نازية إذن.. يؤذيك ما قيل في هتلر!؟

قالت: لا.. لقد كان أكثر ماتقوله صحافة (العالم الحر) عن هتلر والنازية الدكتاتورية حقا، وكان هتلر بالفعل طاغية جبارا يريد إذلال العالم وإخضاعه لسلطانه، ويصدر عن جنون عنصري مرتكز علي أفضلية الجنس الآري وجدارته بأن يحكم العالم كله..

ولكن الذي يؤذيني أن الذي يقول ذلك لا يقل عن هتلر طغيانا.. هم كالمجرمين الذين يؤلبون على المجرمين لدواعي إجرامية..

لقد كان الحلفاء لا يختلفون على هتلر طغيانا إن لم يكونوا يفوقونه.. فقد كانوا يحكمون العالم كله يومئذ، ويذلونه باسم حضارة (الرجل الأبيض) وجدارته أن يحكم كل شعوب الأرض.

لقد كان ما تقوله صحافة الحلفاء ووسائل إعلامهم حقا بالنسبة للنازية وهتلر، أما ما كانوا يدعونه لأنفسهم من أنهم هم حماة الحرية وحماة حقوق الإنسان، فقد تبين كذبه كله عقب الحرب مباشرة حين خرج الحلفاء منتصرين من الحرب فضربوا بكل وعودهم للشعوب عرض الحائط، بل قالوا لهم في تبجح: لقد حميناكم من النازية فادفعوا ثمن الحماية.. وثمنها أن يكونوا خاضعين لهم يدورون في فلكهم ويخدمون مصالحهم.

التفتت إلي، وقالت: هذا طبيخ راح ضحيته عشرات الملايين من البشر.. ولا زلنا نعاني آثاره إلى الآن..

هناك طبيخ آخر تلى هذا.. لا يزال المسلمون المساكين يصلون ناره.

قلت: ما هو؟

قالت: لقد تحدثت الصحافة ومعها جميع وسائل الإعلام عن طغيان هتلر، وعن وحشيته في إبادة اليهود

وتعذيبهم.. وركزت وسائل الإعلام على اليهود مع أن حوادث الإبادة التي حصلت لغيرهم لم تقل شأنا [1].. لأن الهدف من ذلك أن يشحن الرأي العام ليعطف علي قضية اليهود بعد إذ كان كارها لهم أشد الكره.. وشيئا فشيئا يتعاطف الناس مع اليهود الذي يعذبهم النازي ويحرقهم أحياء في الأفران.. وقد أتيح للصحافة ولوسائل الإعلام أن تزيد في الأفران ما تشاء حتى تؤجج العواطف وتحرك الرأي العام لضرورة إنشاء وطن قومي لليهود.. وفي فلسطين.. ليطبق على الفلسطينيين المساكين ما طبق على المسيح من التكفير عن خطايا هتلر والنازية.

و لم يكتفوا بذلك.. بل راح الإعلام يؤجج الرأي العام ضد العرب المجرمين الذين أبوا الخروج من ديارهم ليسكنها شعب الله المختار..

التفتت إلي، وقالت: هذا طبيخ قديم جديد.. راح ضحيته الملايين الكثيرة.. وراح ضحيته فوق ذلك مبادئ إنسانية أخطر وأعظم.. وحصل بسببه لبذور البشرية تشويه خطير لا نزال نعاني آثاره.

نظرت إلى مزرعتها بأسى، وقالت: سأضرب لك مثالا عن طبيخ آخر.. يخص الحياة الاجتماعية لا يقل شأنا.

لنفرض أن المطلوب هو تفكك روابط الأسرة ونشر الفساد الخلقي وتحريض المرأة ضد الرجل.. طلبا لمصالح فئة من الناس يستهويها هذا السلوك.

قد تتخذ وسائل الإعلام لأجل هذا وسائل كثيرة.. منها مثلا أن تبدأ الصحافة بمهاجة الزواج المبكر وذكر مضارة.

ومن مضاره التي تذكرها مثلا، وتؤيدها بما تشاء من إحصائيات ودراسات أن تذكر بأن كلا من الزوجين يكون قليل الخبرة بالجنس الآخر نتيجة عدم الاختلاط، ثم قليل الخبرة بالحياة لصغر السن وقلة التجربة، ثم قليل الخبرة بتربية الأولاد.. الذين يجيئون في أول عهد الزواج فتسوء تربيتهم.. لذلك يلزم تأخير سن الزواج مع إباحة الاختلاط حتي يتحقق التعارف بين الجنسين، واكتساب الخبرة اللازمة للزواج، ويتأخر مجئ الأولاد حتي تزداد الخبرة فتحسن تربيتهم.

ثم يظل الحديث عن ضرورة الاختلاط يلح علي الناس حتي يتكون (رأي عام) موافق علي الاختلاط بعد إذا كان معارضا له، ثم يظل الحديث يلح علي الناس حتي يتحمسوا له، ثم يظل الحديث يلح علي الناس حتي يبلغ لحماس للاختلاط أن يتهموا كل معارض له بالرجعية والتخلف والجمود والتأخر ويهددوه بأن عجلة التطور ستسحقه وتقضي عليه.

ثم يقال للمرأة: إن الزواج الباكر والانجاب الكثير يفسد رشاقتها.. ويقتل حيويتها.. ويمنعها من مشاركة الرجل في إدارة شئون المجتمع.

وتظل الصحافة.. ومعها سائر القدور.. تلح علي هذا الأمر حتي تخرج المرأة من فطرتها، وتنظر إلي الزواج

---

(١) انظر التفاصيل والأرقام المثبتة لذلك في (الموسوعة اليهودية) للمسيري.

علي أنه قيد يعوقها.. وإلى الانجاب علي أنه عدو يفسد جمالها ورشاقتها، وإلى البيت والانشغال به علي أنه إهدار لطاقتها، بل إهدار لكرامتها.

ثم يظل تأثير الصحافة ووسائل الإعلام عليها حتى تري أن من حقها أن تستمتع بالحياة استمتاعا حرا دون أن يفرض علي استمتاعها قيد خلقي أو اجتماعي أو من أي نوع، فمن حقها أن تؤخر الزواج حتى تشبع من الاستمتاع الحر.. ومن حقها أن تؤخر الإنجاب حتى تشبع من العمل خارج البيت، ومن الرشاقة في الحفلات وحلبات الرقص.

ويصبح ذلك كله من مقررات (الرأي العام) النسائي علي الأقل، بل النسائي والرجالي كذلك.. (أي من مقررات العقل الجمعي)، ويصبح المعارض لذلك هو المجنون الأبله، وهو المتحجر علي أوضاع عفي الزمن عليها ولا يمكن أن تعود.

وهكذا يشكل الرأي العام في مطابخ الديمقراطية في القدور التي يمسكها المفسدون في الأرض ممن يملكون المال والجاه.

الصراع والتفتيت:

قلت: ولكن مع ذلك.. فمن مزايا هذا النظام أنه يتيح للبسطاء من الناس أن ينتخبوا من يمثلهم، ويطالب بحقوقهم.

ابتسمت، وقالت: ألم تفهم بعد من هم الناس الذين تتعامل معهم الديمقراطية.. إنها تتعامل مع الناس الذين تشكلهم بحسب أهواء المستبدين؟

إنها استبداد يخفي حرية.. وديكتاتورية تختفي في جلابيب ديمقراطية.

قلت: كيف ذلك.. وأنا أرى صناديق حرة.. ومنتخبون أحرارا..

قالت: صدقت في كون الصناديق حرة.. ولكنك لم تصدق في كون الناخبين أحرارا.

قلت: كيف ذلك؟

قالت: هل يتاح لأي إنسان أن يصل إلي البرلمان ويوجه الأمور كما يشاء؟

قلت: هذا ما أفهمه من الديمقراطية؟

قلت: وهذا من التزوير الذي تشهره الديمقراطية.. ألم تعلم أن النظم الديمقراطية الحرة عبد رقيق لأهل المال.. فلذلك تخضع المعركة الانتخابية للاغنياء من الناس؟

وأولئك الأغنياء لا ينظرون إلى المساكين على أنهم مساكين.. بل ينظر إليهم على أنهم أولئك الأعداء الحاسدون لما في يده من النعمة، الطامعون، الذين يريدون أن ينهبوه وينتقصوا أرباحه.. وينظر إليهم من جهة أخري على أنهم أولئك الطفيليون الذين لا يحسنون شيئا ويطمعون في كل شئ.. أو ينظر إليهم على أنهم الاغبياء الذين وقف بهم غباؤهم عن أن يصعدوا إلي القيم التي وصلواهم إليها.

قلت: ولكن هناك فقراء أو متوسطي يرشحون أنفسهم وينجحون في الانتخابات؟

قالت: ولكن كيف يصلون إلى هناك؟

قلت: ينضمون إلى أحزاب تحملهم، وتحمل عنهم عبء المعركة الانتخابية.

قالت: فالأحزاب تعرضهم كواجهة إذن.. لتملي عليهم بعد ذلك ما تريد..

بالإضافة إلى ذلك.. أنت ترى والواقع يشهد أن الإنسان إذا دخل الحزب تتغير أحواله كلها ويصبح إنسانا آخر.. ويصبح محترفا في عالم السياسية، وهو وحزبه في أحد حالتين لا ثالث لهما، وفي أحد موقفين: إما أن يكون حزبه في الحكم فهو ملتزم بتأييد الحكومة في كل ما تصنع، سواء كان في دخيلة نفسه مقتنعا بما تفعل أو غير مقتنع.. وإما أن يكون حزبه في المعارضة – أي خارج الحكم – فهو ملتزم بمعارضة الحكومة القائمة في كل ما تصنع إلا أن تكون مصلحة عامة أي يستفيد منها الرأسماليون جميعا، سواء كان في دخيله نفسه مقتنعا بالمعارضة أو غير مقتنع!

وهكذا تسمع صيحات: العدل.. والقيم.. والمبادئ.. والإنسانية ... من الحزب المعارض طالما هو في المعارضة، فإذا وصل إلي الحكم سلك ذات السلوك الذي كان ينتقده ويندد به من قبل.. وصار الدور علي الحزب المعارض – الذي كان في الحكم من قبل – لينتقد من الحكومة القائمة ذات الأعمال التي كان يسوغها لنفسه وهو في الحكم، ويتصايح بدعاوي الإنسانية والعدالة والقيم والمبادئ.

سأضرب لك مثلا يوضح ذلك.. أنت تعرف بدون شك حزب العمال في بريطانيا..

قلت: أجل.. لقد ظل يحكم بريطانيا عهودا طويلة.

قالت: لقد ظل وهو في المعارضة ينادي بضرورة زيادة أجور العمال، فلما وصل إلي الحكم رفض أن ينفذ ما كان يدعو إليه وهو في المعارضة ــ أو عجز عن تنفيذه! ــ وسلك ذات السلوك الذي كان يعيبه من قبل علي حزب المحافظين، وهو تجميد الأجور خوفا من التضخم.

قلت: ولكن هناك أحرارا يصلون إلي البرلمان، ويقولون قوله الحق، وينتقدون بجرأة، ويطالبون بحقوق أصحاب الحقوق.

قالت: ولكن كم عدد هؤلاء؟ وما وزنهم في المجالس النيابية؟.. أنت تعلم أن القرارات تؤخذ بالأصوات.

قلت: لا ضير في ذلك.. فالأخذ بالأصوات حل عادل.

قال: هو عادل وصالح حين يكون أصحاب الأصوات من العدول، لا حين يكونون من أصحاب الأهواء، فأما حين يكونون من أصحاب الأهواء، الملتزمين بالمعارضة أو الملتزمين بالتأييد بحكم موقف الحزب الذي يتبعونه، فعندئذ تضيع أصوات القلة من الأحرار في وسط أصوات الكثرة من المزيفين.. وتنفذ مصالح الرأسمالية كلها من خلال اللعبة الهائلة، لعبة الحرية والديمقراطية والتمثيل النيابي والبرلمان إلا الفتات الذي يتساقط في الطريق، أو يسقط عمدا للتلهية، أو يسقط تحت الضغط الشديد.

أما الحرية الحقيقية التي تتيحها الديمقراطية، وكأنما أنشئت من أجلها، فهي الحرية الشخصية.. أي حرية الالحاد وحرية الفساد الخلقي.. فهنا يلتقي الجميع: المعارضون والمؤيدون والشعب والرأسماليون، والحكام والمحكومون.

التفتت إلى مزرعتها، وقالت: إن الديمقراطية الليبرالية تقيد الحرية حيق ينبغي أن توسع، وتوسعها حيث

ينبغي أن تضيق.. فحين تمس مصالح الرأسمالية فلا حرية علي الإطلاق.. لعلك تذكر قصة مقتل كنيدي رئيس جمهورية الولايات المتحدة، حين قتل في عام ١٩٦٣ م لأنه وقف في طريق مصلحة من مصالح الرأسمالية، ثم لعب بقضيته لعبا بحيث لا تنكشف الحقيقة ولا يوقع علي المجرمين الجزاء.

لقد كانت سياسة الرأسمالية يومئذ هي وضع العالم علي حافة الحرب من أجل تنشيط صناعة السلاح وبيعه، وهي ــ كما تعلم ــ من أربح الصناعات بالنسبة إليهم.

ولكن كنيدي كانت له نظرة أخري مختلفة، ينطلق فيها من مصلحة الولايات المتحدة التي هو رئيسها المنتخب لتحقيق مصالحها.. فقد كان رأي كنيدي أن المصلحة القومية للولايات المتحدة تقتضي تهدئه الأحوال العالمية، لكي يوجه الانفاق إلي رفاهية الشعب الأمريكي بدلا من توجيه إلي صناعة الحرب التي لا عائد منها علي الشعب.. لذلك سعي إلي مصالحة الاتحاد السوفيتي والاتفاق معه علي تهدئه الأحوال العالمية، وخطا بالفعل خطوة نحو إشاعة السلام، فمد يده إلي خروشوف الزعيم الروسي القائم بالحكم يومئذ لفتح باب المحادثات التي تؤدي إلي توطيد السلام، وخطا خرشوف من جانبه خطوة فقبل أن يدخل في محادثات السلام.

ورغم أن هذا كان تصرفا حكيما من وجهة النظر الأمريكية البحتة، فضلا عما فيه من إراحة أعصاب العالم من الخوف الدائم من نشوب الحرب، فإن الرأسمالية الأمريكية ذاتها لم توافق عليه لأنه ضد مصالحها الذاتية، لذلك أنشأت إضرابا طويلا في مصانع الصلب علي سبيل الإنذار، مع أن هذا الاضراب يضر المصالح المؤقتة للرأسمالية ولكنه يؤدي إلي كسب أكبر بالضغط علي كنيدي ليترك سياسة التهدئة التي كان يقوم بها بالاتفاق مع خروشوف، فلما لم يأبه كنيدي بالإنذار، ومضي في سياسيته، هددوه مرة ثانية بإضراب آخر في مصانع الصلب استمر مدة أطول من الأولى، ولما لم يرضخ بعد هذا الإنذار الشديد، وأصر علي السياسة التي رآها أكثر تحقيقا لصالح الشعب الأمريكي ــ فضلا عن إراحة العالم من الخوف ــ قرروا أنه لابد من التخلص منه بإجراء أشد، فقتلوه! قتلوه وهو لس فردا عاديا من أفراد الشعب، بل هو رئيس الجمهورية المنتخب برضا الشعب، والمسئول عن مصالح الشعب الأمريكي كله! قتلوه ثم لعبوا بالتحقيق، فلم يجد رئيس الجمهورية المقتول ضمانات التحقيق التي تحفظ حقه ــ وإن كان قتيلا ــ في أن يؤخذ له القصاص من قاتله! ولم تجد الديمقراطية كلها نفعا في إقامة العدل في قضية من القضايا الخطيرة في التاريخ الحديث.. ومضت القصة كلها كأنها حادث عادي لا يثير الانتباه ولا يستحق الإهتمام! وطوي التحقيق..

تلك هي الديمقراطية حين تمس المصالح المباشرة للرأسمالية.

الشيوعية

قلت: أعلم أنك من أبرز الخبراء في شؤون (الماركسية الآسيوية)، وقد صدر لك كتاب قيم في هذا سميته (القوميات والدولة السوفياتية).. أهو جزء من بحثك عن النظم التي تحول الأرض إلى مزرعة طيبة؟

قالت: أجل..

قلت: فكيف وجدت الشيوعية التي حاول السوفيت في ذلك الحين تطبيقها؟

ابتسمت، وقالت: أولئك الأغبياء حاولوا أن يقلعوا الإنسان من جذوره.. هل تتصور أن الذي حكم العالم في ذلك الحين حفنة من الشيوعيين؟

قلت: ومن حكمه غيرهم؟

قال: حفنة من اللصوص.. راحوا للبذور يشوهوها ويحرفوها ويتلاعبون بقداستها لتنسجم مع أهوائهم.

قلت: ولكنهم كانوا ينادون بحقوق العمال والطبقات الضعيفة.

قالت: صدقت في بعض هذا.. فالشيوعية هى النظام الجاهلى الوحيد الذى فرض على الدولة كفالة كل فرد يعيش فى ظلها، ولكن ذلك لم يكن كرما إنسانيا منها، فهى تأخذ مقابل ذلك الجهد الفرد كله، وتعتبر (من لا يعمل لا يأكل) على الحقيقة لا على المجاز..

ثم إن الدولة تستذل الناس بلقمة الخبز على نحو غير مسبوق فى كل النظم التى مرت بها الجاهلية البشرية على الأقل فى التاريخ الحديث.

وربما كان من الحق أن الناس كانوا دائما فى جاهليات التاريخ مستذلين بلقمة الخبز، يبيعون مقابلها بعض كرامتهم أو كلها، وبعض إنسانيتهم أو كلها.. ولكن النظام البوليسى الصارم الذى يحكم الناس بالحديد والنار والتجسس، ويمنع الناس بالرعب و الإرهاب أن يفتحوا أفواههم بكلمة نقد واحدة ضد الدولة أو الزعيم المقدس أو المذهب أو النظام.. إنه ليفرض على الناس ــ مقابل لقمة الخبز ــ قدرا من الذل ومن ضياع الكرامة الإنسانية لا مثيل له فى نوعه ودرجته فى كل النظم التى تزعم أنها نظم حضارية على مدار التاريخ.

بالإضافة إلى هذا تلك التفرقة الضخمة فى كل جانب من جوانب الحياة بين أن يكون الإنسان مجرد فرد فى القطيع، وبين أن يكون عضوا فى الحزب ولو فى أسفل درجاته فضلا على الدرجات العليا.

لقد قال (ميليوفان دجيلاس) نائب الرئيس (تيتو) فى كتاب (الطبقة الجديدة):« إن الطبقة البيروقراطية الشيوعية الجديدة صاحبة الامتيازات الضخمة تستخدم جهاز الدولة كستار وأداة لتحقيق مآربها وأغراضها الخاصة.. وإذا ما عدنا لدراسة الملكية فإننا سنجدها ليست أكثر من حقوق الربح وحرية السيطرة، وإذا ما اتجه المرء إلى تحديد ربح الطبقة من خلال هذه الحقوق فى إطار تلك الحرية فإن الشيوعية تتجه فى النهاية إلى خلق شكل جديد من أشكال الملكية وخلق طبقة حاكمة مستثمرة جديدة »

ويقول:« إن الطغيان الشيوعى والإرهاب فى أساليب الحكم هما الضمانة لامتيازات طبقة جديدة تبرز على المسرح السياسى.. لقد سبق أن أعلن ستالين عام ١٩٣٦ مع صدور الدستور الجديد للاتحاد السوفيتي أن

الطبقة المستثمرة قد تم القضاء عليها نهائيا.. وفى الحقيقة لقد تم فى المعسكر الشيوعى القضاء التام على قوى الرأسمالية الوطنية التى استؤصلت تماما من الجذور. ولكن مع زوالها بدأت تبرز فى صلب المجتمع الشيوعى طبقة جديدة لم يسبق للتاريخ أن رأى مثيلا.

ولقد أكدت هذه الطبقة أنها أكثر تسلطا فى الحكم من أى طبقة أخرى ظهرت على مسرح التاريخ، كما أثبتت فى الوقت نفسه أنها تحمل أعظم الأوهام، وأنها تكرس أعتى أساليب الظلم فى مجتمع طبقى جديد.

لقد تم تأميم المقدرات المادية إلا أنه لم يجر توزيعها على أبناء الشعب، بل أصبحت ملكا مكتسبا للطبقة الحاكمة وللأعضاء القياديين للحزب والبيروقراطيين السياسيين.

لقد حاز الأعضاء الكبار من أفراد النخبة الممتازة أفضل المساكن والبيوت كما شيدت لهم الأحياء الخاصة ومنازل الاصطياف، وحصل أمناء سر الحزب ورؤساء البوليس السرى ليس على السلطة العليا وحسب، إنما على أجمل المساكن وأفخم السيارات وسواها من مظاهر الأبهة والعظمة والامتيازات، أما بقية الأعضاء من دونهم فقد حازوا امتيازات متناسبة مع مراكزهم الحزبية.

وليس هناك أية طبقة أخرى فى التاريخ تشابه الطبقة الجديدة فى وحدة تماسكها، ووحدة الفكر والعمل فى دفاعها عن نفسها، وفى قدرتها على إحكام القبضة على كل ما هو واقع تحت سيطرتها منا لملكية الجماعية حتى السلطة الاستبدادية المطلقة[1].

قلت: ومع ذلك..

قاطعتني بغضب قائلة: ما فائدة أن تملأ البذور التي تشوهها قوتا وإداما..

قلت: لم أفهم.

قالت: ما فائدة أن يملأ الفلاح أرضه بالسماد في الوقت الذي يسيم فيه بذوره الخسف.

قلت: لم أفهم..

قالت: إن الشيوعية لم تكتف بنظام عادل يحكم الرعية.. بل راحت تفرض على الرعية العقائد والأخلاق..

قلت: هل حقا ما تقولين؟

قالت: لقد رأيت الواقع بعيني.. بل عشت بعض ذلك الواقع المرير الذي كان يمر به المسلمون، وهم يقولون للشيوعيين: لا نريد خبزكم.. دعونا نموت جوعا واتركوا لنا مساجدنا.. فنحن لا نأكل من طعام الأرض.. بل نأكل من غيث السماء.

قلت: لعل ذلك سلوك حفنة من المجرمين..

قالت: بل تلك هي الفلسفة الشيوعية..

ويستحيل أن تنفصل الشيوعية عن فلسفتها.

---

(١) انظر كتاب (العلمانية) لسفر عبد الرحمن الحوالى، وهو من أحسن ما كتب فى موضوع العلمانية.

قلت: كيف ذلك؟

قالت: اذهب، واقرأ المؤلفات الشيوعية لتجد الإلحاد مقرونا بالاقتصاد والسياسة.

وسر ذلك يرجع إلى أن الشيوعية تبدأ من الإلحاد.. فالشيوعية تصر على أن لها إلحادها الخاص وهو في نظرها إلحاد (إيجابي).. كما قال (غارودى) الذي تاب من الشيوعية وولى وجهه قبلة الإسلام.. لقد قال يصف الإلحاد الشيوعي:« أما الإلحاد الماركسي، فهو في جوهره إنسي (أي إنساني النزعة) منطلقة ليس رفضاً بل هو تأكيد، تأكيد استقلال الإنسان، أما نتيجته فهي رفض كل محاولة لحرمان الإنسان من قدرته المبدعة والمبدعة لذاتها »

ثم يقول في تفصيل ذلك:« إن ما يميز الإلحاد الماركسي البحت هو أنه على خلاف سابقيه، لم يكتف باعتبار الدين خديعة فحسب، اصطنعها المستبدون أو مجرد وهم ولده الجهل بل إن ماركس و أنجلز قد بحثا عن الحاجات الإنسانية التي تلبيها الأديان بهذه الصورة المخادعة، فوصلا ــ كما يقول ماركس ــ إلى أن الأديان هي في وقت واحد: انعكاس لشقاء فعلي واحتجاج على هذا الشقاء.. وهذه الحقيقة التاريخية (أن الدين انعكاس لشقاء فعلي) هي التي يلخصها ماركس في تعبير مقتضب (الدين أفيون الشعوب) »[1]

وجرياً مع المادية الجدلية وتطبيقاً للتفسير الاقتصادي للتاريخ حول علاقة الفكر بالوجود ترى الشيوعية أن الفكر البشري انعكاس للواقع المادي، فالمادة هي الأساس الوحيد وعنها ينبثق الفكر وتنبثق المشاعر والأحاسيس، ومن هذه المشاعر الدين نفسه.

أي إن وجود الناس هو الذي يحدد مشاعرهم وليس العكس.

وعند تفسير الدين على هذا الأساس يقول أنجلز:« من الأزمنة الموغلة في القدم ــ إذ وصل الفكر بالناس ــ وهم بعد في جهل تام ببنيائهم الجسدية الخاصة، وتحت تأثير أحلامهم ــ إلى القول بأن أفكارهم وأحاسيسهم ليست من فعل أجسادهم ذاتها، بل من فعل روح خاصة تسكن هذا الجسد وتفارقه لحظة الموت، منذ ذلك الحين اضطروا لأن يصطنعوا لأنفسهم أفكاراً عن علاقات هذه الروح مع العالم الخارجي »

« وعلى هذا النحو تماماً – عن طريق تشخيص القوى الطبيعية – ولدت الآلهة الأولى التي اتخذت خلال التطور اللاحق شكلاً غير أرضي أكثر فأكثر، إلى أن حدث أخيراً عملية تجريد ... فنشأ على نحو طبيعي خلال التطور العقلي، أن تولدت في عقل الناس من الآلهة المتعددين ذوي السلطة الضعيفة والمقيدة بعضهم حيال بعض، فكرة الإله الواحد المنفرد في الديانات التوحيدية »[2]

ومع ذلك يستنتج أنجلز أن المطالب الجسدية هي منشأ الاعتقادات الفكرية وأن الدين ما هو إلا (الانعكاس الخيالي للأشياء البشرية في دماغ الإنسان)[3]

---

(١) ماركسية القرن العشرين: مقتطفات: ١٤٤ – ١٤٦.

(٢) نصوص من أنجلز: ٦١.

(٣) المصدر السابق: ١٣٣.

وما دام أن الوضع الاقتصادي هو الذي يفسر ويحدد المطالب الجسدية فإن النتيجة هي أن الدين ناشئ عن الأوضاع الاقتصادية ولا ينبغي أن يفسر إلا على ذلك (أما المجالات الأيدلوجية التي تحوم أعلى في الفضاء كالدين والفلسفة.. الخ فإنها مؤلفة من بقية – تعود إلى ما قبل التاريخ، وقد وجدها العهد التاريخي أمامه فالتقطها – لما قد نسميه اليوم غباء، إن هذه التصورات المختلفة الخاطئة عن الطبيعة وعن تكون الإنسان ذاته، وعن الأرواح وعن القوى السحرية وهلم جرا ليس لها في الأغلب غير أساس اقتصادي سلبي، فالتطور الاقتصادي الضعيف لعهد ما قبل التاريخ تكون فيه ... تصورا خاطئة عن الطبيعة »[1]

إذن فالاقتصاد – أو البحث عن الطعام والشراب – هو منبع كل عقيدة وتصور وأساس كل مبدأ وقيمة، بل إن الشيوعية لتطبق ذلك على كل معنى وسلوك إنساني: على العلم والحرب ... على المشاعر والفنون ... على العلاقات الاجتماعية ... على كل شيء، فالعلم ـــ مثلاً ليس أصله الرغبة الفطرية في اكتشاف الحقيقة ـــ فليس في قاموس الشيوعية شيء اسمه الفطرة ولكنه كما قال أنجلز:« إذا كانت العلوم قد نهضت فجأة بعد ليل القرون الوسطى المظلم بقوة لا ريب فيها، ونمت بسرعة المعجزة، فإننا مدينون بهذه المعجزة الجديدة للإنتاج »

وعن الحروب تقول الشيوعية:« إن ما يسمى بالحروب الدينية ... كانت تتضمن مصالح طبقية مادية إيجابية، فقد كانت هذه الحروب حروبا طبقية تماما ... ورغم أن الصراعات الطبقية كانت عندئذ مغلفة بشعارات دينية، ورغم أن مصالح وحاجات ومطالب مختلف الطبقات كانت مختفية خلف ستار ديني فلم يبدل هذا شيئاً من الأمر، ويمكن تفسيره ببساطة من واقع ظروف تلك الأيام »[2]

وتقول عن الأخلاق:« إن الناس عن وعي أو لا وعي يستمدون مفاهيمهم الأخلاقية – في التحليل الأخير – من العلاقات العملية التي يقوم عليها وضعهم الطبقي، أي من العلاقات الاقتصادية التي ينتجون بها ويتبادلون فيها »[3]

وليس أغرب من هذه الأفكار إلا قول أنجلز (إن العمل هو الذي خلق الإنسان) وليس الإله كما يقول الرجعيون من البورجوازيين والإقطاعيين، وحتى لا نحسن الظن فنحمل كلامه على المجاز فقد شرح هذه العبارة شرحاً وافياً ـــ نرى فيه إلى جانب الاستنباط العجيب الاستمداد الساذج من الداورينية ـــ يقول:« منذ مئات عدة من ألوف السنين ... كان يعيش في مكان ما من الدائرة الاستوائية ... عرق من القردة الشبيهة بالبشر بلغت تطوراً رفيعاً بوجه خاص، وقد أعطانا داروين وصفاً تقريباً لهذه القردة التي قد تكون أسلافنا.

وقد أخذت هذه القردة – متأثرة بالدرجة الأولى دون شك بنمط – معيشتها الذي يتطلب أن تنجز الأيدي من أجل التسلق غير وظائف الأرجل – أخذت تفقد عادة الاستعانة بأيديها من أجل السير على

---

(١) المصدر السابق: ١٨٧.

(٢) حرب الفلاحين في ألمانيا: ٤٦.

(٣) نصوص من أنجلز: ١٥٩.

الأرض واتخذت أكثر فأكثر مشية عمودية، وهكذا تم اجتياز الخطوة الحاسمة لانتقال القرد إلى إنسان »[1]

وإذا كان الاقتصاد بهذه المثابة فلماذا اعتقد الناس أن شيئاً آخر غيره هو الذي يسير التاريخ وينشئ الأفكار؟ وكيف غابت هذه الحقيقة عنهم حتى أظهرها فلاسفة الشيوعية؟ يجيب الشيوعيون عن ذلك بسهولة قائلين: لا غرابة في ذلك فإن الإنسان أصله قرد وظل يجهل هذه الحقيقة ظاناً أن العناية الإلهية هي التي خلقته حتى عرف ذلك أخيراً.

ويعبر أنجلز عن ذلك قائلا:« ينسى الناس أن الظروف الاقتصادية لحياتهم هي منشأ الحقوق التي لديهم، مثلما أنهم نسوا أنهم قد نسلوا من عالم الحيوان »[2]

وانطلاقاً من تأليه الاقتصاد على هذا النحو وانطلاقاً من اعتبار تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام، ومن الانتكاس بالإنسان وجعل معدته هي العليا وروحه وعقله السفلي جاء في التفسير الاقتصادي للتاريخ.

وهو تفسير يقوم على مبادئ خطيرة فيها هلاك الإنسان ودماره.. وأخطر ما يقوم عليه حتمية الصراع بين المتناقضات، وذلك يعني بالنسبة للمجتمع البشري الصراع بين الطبقات، وبين المصالح المادية المتعارضة، وهو صراع حام لا يهدأ على الإطلاق، وسببه الوحيد (البحث عن الطعام) و(امتلاك وسائل الإنتاج)

(١) المصدر السابق: ١٦٠.

(٢) المصدر السابق: ١٦٢.

٢ ـــ نظام الإسلام

قلت: يكفيني ما ذكرته من نماذج عن نظم البشر، فحدثيني عن نظام الإسلام الذي أبديت إعجابك الشديد به.

قالت: أنا لم أبد إعجابا ناشئا عن مجاملات شخصية.. بل كان نتيجة بحث طويل في هذه المزرعة.. في بطون الفلسفات والتواريخ.

قلت: ما علاقة مزرعتك بهذا البحث؟

قالت: لقد رأيت في علاقاتي الطويلة مع البذور الزراعية أن هناك بذورا تمتلك قوة عجيبة على الحفاظ على شخصيتها وقوتها.. فهي تنبت في كل محل.. وتواجه كل إعصار.. وتقاوم كل الأمراض والطفيليات.. وهي مع ذلك كله تعطي ثمارا يانعة طيبة تتوقف عليها حياة البشر والكائنات.

قلت: أهذه البذور لا تحتاج إلى فلاحين!؟

قالت: هي تحتاج إليهم.. ولكنها قد تعيش من دونهم بنفس قوتها وصلابتها.

قلت: دعيني من هذه البذور.. واعبري بنا إلى بذور البشر.

الفرد:

قالت: لقد بحثت عن النظم التي حولت البشر إلى هذا النوع المستعصي من البذور، فلم أجد إلا نظام الإسلام.

قلت: لم أفهم ما تقصدين.

قالت: لقد علم محمد أو المصدر الذي تلقى منه محمد أن نظام البشر لو وكل إلى طائفة من الناس.. فإن هذه الطائفة سوف تستهويها الكراسي والعروش، فتنحرف ببذور البشر عن الفطرة التي فطروا عليها.

قلت: فماذا فعل؟

قال: بعث من التعاليم السامية والأدوية النافعة ما يجعل من كل فرد دولة قائمة بذاتها بجميع أجهزتها..

لقد أشار محمد إلى هذه النتيجة العظيمة، فقال:«:« المؤمنون تتكافا دماؤهم وهم يد على من سواهم ويسعى بذمتهم أدناهم »[1]

قلت: لم أفهم هذا.. هل يمكن هناك أن يكون هناك نظام في الدنيا يقوم على الفرد.

قالت: كل الأنظمة تتلاعب بالأفراد لتجعلهم محلا صالحا لإملاءاتها.. لقد ذكر القرآن هذا، فقال:﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ (الزخرف:٥٤)

لقد علل القرآن ذلك الهوان الذي أصاب المصريين المستضعفين على يد الفراعنة المستكبرين بالفسق والانحراف الذي جعل فرعون يستخف بهم.

---

(١) رواه أبو داود والنسائي والحاكم.

ليس فرعون وحده هو الذي مارس هذا الأسلوب..

كل الفراعنة.. وكل المستبدين في التاريخ.. راحوا يخاطبون الرغبة والرهبة في قلوب الرعية ليملوا لها بعد ذلك ما يشاءون.

لقد رأينا النظام الديمقراطي كيف ينشر حرية الانحراف.. ليحول من الرعية حميرا يركبهم سادقم من الرأسماليين.

ورأينا مثله النظام الشيوعي الذي لا يعترف إلا بالقيم المادية.. ليحول من الأفراد عجينة لينة يتلاعب بها الحزب ورفقاء الحزب كما يشتهون.

قلت: والإسلام..!؟

قالت: الإسلام جعل للفرد ــ بفضل منظومة كاملة من التشريعات والتوجيهات ــ حصونا منيعة يستحيل على أي حاكم في الدنيا أن يخرقها.

لقد لاحظت بنفسي في الاتحاد السوفيتي كيف يرمي المسيحيون مسيحيتهم غير مبالين بها.. بينما يتشبث المسلمون بإسلامهم.. ولا يتنازلون عنه مهما كان.

قلت: أعرف صمود الإسلام.. ولكني أبحث عن النظام.. والنظام لابد له من منظم.

قالت: لقد وضع الإسلام ــ بنصوصه المقدسة ــ جميع النظم العادلة وجميع الحرس القائمين عليها في نفوس المؤمنين.. فاستغنى المؤمنين بإيمانهم عن سياسة الساسة.

قلت: كيف ذلك؟

قالت: سأذكر لك بعض ما يبرهن لك على ذلك [1].

أصدر عمر بن الخطاب ــ وهو الخليفة الثاني من خلفاء المسلمين ــ قانوناً يمنع غش اللبن بخلط بالماء.. ولكن هل تستطيع عين القانون أن ترى كل مخالف؟ وهل تستطيع يده أن تقبض على كل غاش!

قلت: القانون أعجز من أن يستطيع أن يفعل هذا..

قالت: ولكن الإيمان الذي تمتلئ به قلوب الرعية هو الذي يستطيع أن يطبق هذا بالقوانين وبغير القوانين..

في ذلك الحين مر عمر بامرأة تريد أن تخلط اللبن طمعاً في زيادة الربح، والبنت تذكرها بمنع أمير المؤمنين، فترد الأم: أين نحن من أمير المؤمنين؟! إنه لا يرانا.. ولكن البنت المؤمنة ترد قائلة: إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فرب أمير المؤمنين يرانا.

لقد ملأ الإسلام قلوب الأفراد شعورا بأن الله هو الملك وهو الحاكم الأعلى.. ولذلك فإن طاعة المؤمنين تتوجه له سواء عدل الحكام أو انحرفوا.

روى الطبري أنه لما هبط المسلمون (المدائن) وجمعوا الأقباض، أقبل رجل بحق معه. فدفعه إلى صاحب

---

(١) انظر هذه الأمثلة في (الإيمان والحياة)، يوسف القرضاوي.

الأقباض فقال الذين معه: ما رأينا مثل هذا قط، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه.. فقالوا له: أخذت شيئاً؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به..فعرفوا أن للرجل شأناً فقالوا: من أنت؟ فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليقرظوني، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه.. فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه.. فسأل عنه فإذا هو (عامر بن عبد قيس).

وقد نقل إلى عمر كثير من الغنائم التي يخف حملها ويغلو ثمنها، أداها بأنفسهم جنود مخلصون لوجه الله لا يريدون جزاءاً ولا شكوراً، فقال في إعجاب وتقدير: إن قوماً أدوا هذا لأمناء!

وقال عبد الله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطاب إلى مكة فعرسنا في بعض الطريق فانحدر بنا راع من الجبل، فقال له: يا راعي، بعني شاة من هذه الغنم، فقال: إني مملوك، فقال ـــ اختباراً له ـــ: قل لسيدك أكلها الذئب، فقال الراعي: فأين الله؟

فبكى عمر ثم غدا مع المملوك، فاشتراه من مولاه، وأعتقه وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

هذا الإيمان هو الذي ربى العدالة في قلوب حكام المسلمين الذين ملأتهم مهابة الله والخوف منه.. لا مهابة البرلمان أو الشعب..

سمع أنس عمر.. وقد دخل حائطاً.. وهو يقول لنفسه:« عمر بن الخطاب أمير المؤمنين!! بخ بخ!! والله لتتقين الله ابن الخطاب، أو ليعذبنك!! »

وهذا الإيمان هو الذي جعله في عام المجاعة المعروف بعام الرمادة لا يأكل إلا الخبز والزيت حتى أسود جلده، فيكلمه بعض الصحابة في ذلك، فيقول: بئس الوالي أنا إن شبعت والناس جياع!

ورأى يوماً فتاة صغيرة تتمايل من الجوع. فقال: من هذه؟ فقال ابنه عبد الله: هذه ابنتي. قال: فما بالها؟. قال: إنك تحبس عنا ما في يدك فيصيبنا ما ترى. فقال: يا عبد الله، بيني وبينكم كتاب الله، والله ما أعطيكم إلا ما فرض الله لكم. أتريدون مني أن أعطيكم ما ليس لكم فأعود خائنا؟!

قال ابن كثير يصفه بعد أن ذكر أعماله الجليلة وفتوحاته العظيمة:« وكان متواضعاً في الله، خشن العيش خشن المطعم، شديداً في ذات الله، يرقع الثوب بالأديم ويحمل القربة على كتفيه، مع عظم هيبته، ويركب الحمار عرياً، والبعير مخطوماً بالليف، وكان قليل الضحك لا يمازح أحداً، وكان نقش في خاتمة، (كفى بالموت واعظاً يا عمر)

وهذا الخليفة العادل علي بن أبي طالب يقول له جعد بن هبيرة: يا أمير المؤمنين، يأتيك الرجلان، أنت أحب إلى أحدهما من أهله وماله، والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك فتقضي لهذا على هذا!

قال: فلهزه علي وقال: إن هذا شيء لو كان لي لفعلت، ولكن إنما ذاك شيء لله.

ويحدثنا الشعبي أن علياً ضاعت منه درع فوجدها عند نصراني. فأقبل به إلى القاضي «شريح» يخاصمه، وقال علي: هذه الدرع درعي و لم أبع و لم أهب.

فقال شريح للنصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين.

فقال النصراني: ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب! فالتفت شريح إلى على وقال: يا أمير المؤمنين، ألك بينة؟

فابتسم علي وقال: أصاب شريح، ما لي بينة.

فقضى بالدرع للنصراني، فأخذها ومس خطوات ثم رجع، فقال: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقتضي فيقضي عليه، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين، سقطت منك وأنت منطلق إلى صفين.

قال: أما إذ أسلمت فهي لك.

كان الإيمان هو الذي يحكم الخليفة والقاضي، فلم يحاول الخليفة المؤمن أن يتخذ القوة لأخذ حقه أو يؤثر على القاضي ليحكم في صالحه، ولم يحاول القاضي المؤمن أن يطوع النصوص إرضاء لأميره ــ رغم ما يعتقد من صدقه ــ فالشرع سيد على الجميع: الأمير والسوقة. والمسلم والنصراني سواء.

وكان علي يلبس القميص ــ وقد اشتراه بثلاثة دراهم ــ ويقول: الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس وأواري عورتي!!

ومفتاح هذا الزهد وتلك العدالة ما قاله بعضهم: كان علي يمشي في الأسواق وحده وهو خليفة، يرشد الضال، ويعين الضعيف، ويمر بالبياع والبقال، فيفتح عليه القرآن، ويقرأ:﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (القصص:٨٣)، ثم يقول: نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من الناس.

وهذا عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد الذي يقول فيه مالك ابن دينار: يقولون: مالك زاهد!.. أي زهد عندي؟ إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز، أتته الدنيا فاغرة فاها، فتركها جملة.

دخل على امرأته يوماً فسألها أن تقرضه درهماً يشتري به عنبا، فلم يجد عندها شيئاً.. فقالت له: أنت أمير المؤمنين وليس في خزائنك ما تشتري به عنبا؟! فقال: هذا أيسر من معالجة الأغلال والأنكال غداً في نار جهنم.

وقد اجتهد في مدة ولايته -مع قصرها- حتى رد المظالم، وصرف إلى كل ذي حق حقه، وكان مناديه ينادى في كل يوم: أين الغارمون؟ أين الراغبون في الزواج؟ أين اليتامى؟ أين المساكين؟ حتى أغنى كلاً من هؤلاء.

ومع عدله وزهده، ورده للمظالم، وشدته على نفسه وأقاربه كان يناجي ربه ليقول: اللهم إن عمر ليس أهلاً أن تناله رحمتك، ولكن رحمتك أهل أن تنال عمر.

وأثنى عليه رجل فقال له: جزاك الله عن الإسلام خيراً يا أمير المؤمنين. فقال: بل جزى الله الإسلام عني خيراً.

قلت: أنت تتحدثين عن حكام عادلين قد نجد مثلهم في جميع الأمم؟

قالت: أنا لا أتحدث عنهم كحكام.. ولكن كأفراد تربوا على هدي الإسلام، فامتلأوا بالقيم النبيلة..

قارن هذا بالفضائح الكثيرة التي تسمعها كل حين من القائمين على هذه النظم التي تعتبر نفسها في قمة

العدل والأخلاق..

قلت: ولكن نظم المسلمين العادلة لم تستمر طويلة.. لقد حكم المسلمون فترة طويلة بالحكم العضوض.

قالت: ومع ذلك لم يؤثر فيهم ذلك النوع من الحكم.. لقد كان ذلك الحكم قاصرا على وظائف محدودة لا تكاد تكون لها علاقة كبرى بالرعية.. فلذلك كانت حصون الإيمان التي حصن بها الإسلام الفرد المسلم حاجزا دون تأثير الحكام الظلمة.

سأضرب لك أمثلة عن النظام الذي كان يحكم المجتمع بعيدا عن السلطة..

يروي الغزالي عن محمد بن المنكدر أنه كان له شقق بعضها بخمسة دراهم، وبعضها بعشرة فباع غلامه في غيبته لأعرابي شقة من الخمسيات بعشرة فلما عاد ابن المنكدر وعرف، لم يزل يطلب ذلك الأعرابي المشتري طول النهار حتى وجده، فقال له: إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوى خمسة بعشرة.

فقال الأعرابي: يا هذا قد رضيت.

فقال: وإن رضيت. فإنا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا، فاختر إحدى ثلاث خصال: إما أن تأخذ شقة من العشريات بدراهمك، وإما أن نرد عليك خمسة، وإما أن ترد شقتنا وتأخذ دراهمك.. فرد عليه خمسة، وانصرف الأعرابي.

ويروي أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان، منها ضرب قيمة كل حلة منه أربعمائة درهم، وضرب كل حلة مائتان، فمر إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان، فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعمائة فعرض عليه من حلل المائتين، فاستحسنها ورضيها، فاشتراها -أي بأربعمائة- فمشى بها وهي على يديه فاستقبله يونس. فعرف حلته. فقال للأعرابي بكم اشتريت؟ فقال: بأربعمائة. فقال: لا تساوى أكثر من مائتين فارجع حتى تردها. فقال: هذه تساوى في بلدنا خمسمائة وأنا أرتضيها. فقال له يونس: انصرف معي فإن النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها. ثم رده إلى الدكان ورد عليه مائتي درهم. وخاصم ابن أخيه في ذلك وقاتله. وقال: أما استحييت؟ أما اتقيت الله أتربح مثل الثمن، وتترك النصح للمسلمين؟! فقال: والله ما أخذها إلا وهو راض بها. قال: فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك!!

ويذكر أبو الحسن الندوي كيف كانت هذه الأخلاق العالية منتشرة في المجتمعات الإسلامية إلى عهد قريب قال: حدثني بعض الثقات المعمرين الذين أدركوا عهد الأشراف في الحجاز، أن تجار مكة كانوا في ذلك العهد على جانب عظيم من المواساة لزملائهم، والنظر في مصالحهم والإخلاص والإيثار لهم، قال: كان بعض التجار إذا أتاه زبون في آخر النهار وقد باع ما يكفيه لقوت يومه وما حدده من الربح والوارد، و لم يكن زميله الجار سعيد الحظ في ذلك اليوم، قال له في لطف وهدوء:« دونك هذا الدكان الذي هو بجواري! تجد عنده ما تجده عندي، وقد لاحظت قلة الزبائن عنده هذا اليوم، فهو أحق بأن تشتري منه »

ويتحدث ليوبولد فايس ــ الذي أسلم بعد أن أقام في بلاد المسلمين مدة طويلة ــ عن مدينة إسلامية عربية كبيرة هي (دمشق) فيقول:« وقفت على ذلك الاستقرار الروحي في حياة سكانها، إن أمنهم الباطني كان يمكن أن يرى في الطريقة التي كان أصحاب الدكاكين يعامل بها بعضهم بعضاً، أولئك التجار في الحوانيت

الصغيرة، أولئك الذين لا ينون ينادون على المارة، أولئك كانوا يبدون وكأنما ليس فيهم أيما قدر من الخوف والحسد، حتى أن صاحب دكان منهم ليترك دكانه في عهدة جاره ومزاحمه، كلما دعته حاجة إلى التغيب بعض الوقت، وما أكثر ما رأيت زبوناً يقف أمام دكان غاب صاحبه عنه يتساءل فيما بينه وبين نفسه، ما إذا كان ينتظر عودة البائع، أو ينتقل إلى الدكان المجاور، فيتقدم التاجر المجاور دائماً -للتاجر المزاحم- ويسأل الزبون عن حاجته ويبيعه ما يطلب من البضاعة -لا بضاعته هو بل بضاعة جاره الغائب- ويترك له الثمن على مقعده. أين في أوروبا يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه الصفقة؟»[1]

المجتمع:

قلت: وعيت ما ذكرته من أهمية الفرد في جميع النظم.. ولكن الفرد كالبذرة يحتاج إلى التربة الطيبة التي تحتضنه.

قالت: وهذا ما فعله الإسلام.. فقد ركز على بناء المجتمع بناء سليما بنفس تركيزه على الفرد.

ولهذا.. فقد أغنت التربية العظيمة التي امتلأت بها المجتمعات الإسلامية الرعية عن راعيها.. فلم يعد للنظام الحكام أي أهمية في ظل مجتمع يعيش في تكافل وتناصر وتناصح عجيب.

قلت: كيف تقول ذلك.. والدولة بنظامها السياسي هي التي تؤسس المدارس والمستشفيات وجميع المرافق العامة التي تحتاجها الرعية.

قالت: لقد تولى المجتمع الإسلامي الذي نفخ فيه الإسلام روح التكافل كل هذه الوظائف.. فلم يعد للحاكم أي علاقة بأي حاجة من حاجات رعيته.. ولم يعد للحاكم أي قدرة على استذلال رعيته بهذه الحاجات.

قلت: إن هذا لعجيب..

قالت: هو الواقع الذي تدل عليه كل الدلائل.. وسأضرب لك من الأمثلة ما يبرهن لك على ذلك.

لقد ملأت النصوص المقدسة التي يرتلها المسلمون كل حين حبا لبعضهم البعض، فصاروا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

أخذ عمر بن الخطاب أربعمائة دينار، فجعلها في صرة، ثم قال لغلامه: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح، ثم تله (تشاغل) في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع. فذهب بها الغلام إليه.. فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك فقال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفدها، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره، فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل، فقال: اذهب بها إلى معاذ وتله في البيت حتى تنظر ما يصنع، فذهب بها إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك. فقال: رحمه الله ووصله. تعالي يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، فاطلعت امرأة هي امرأة معاذ وقالت: نحن والله

---

(١)الطريق إلى مكة ص ١٦٧ باختصار.

مساكين، فأعطنا، فلم يبق في الخرقة إلا ديناران فرمى بهما إليها، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره: فسر بذلك فقال: انهم اخوة بعضهم من بعض [1]!!

وروى أن عيراً قدمت لعبد الرحمن، فكان لأهل المدينة يومئذ رجة، فقالت عائشة: ما هذا؟ قيل لها: هذه عير عبد الرحمن بن عوف قدمت، فقالت عائشة: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:« كأني بعبد الرحمن بن عوف على الصراط، يميل به مرة ويستقيم أخرى، حتى يفلت و لم يكده ».. فبلغ ذلك عبد الرحمن فقال: هي وما عليها صدقة، قال راوي القصة: وكان عليها أفضل منها، قال وهي يومئذ خمسمائة راحلة[2].

وروي عن ابن عمر قال: أهدى إلي رجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال: فلان أحوج إليه مني، فبعث به إليه. فبعث به هو أيضاً إلى آخر يراه أحوج منه، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول، بعد أن تداوله سبعة!

عن ابن عمر قال:« لقد أتى علينا زمان -أو قال حين- وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم »[3]

التفتت إلي، وقالت: أتدري ما السر الذي جعلهم يفعلون هذا؟

قلت: ما هو؟

قالت: تلك التعاليم العظيمة التي امتلأت بها آيات القرآن وأحاديث محمد.. لقد جعلتهم يجودون بالغالي والنفيس في سبيل المصالح العامة.. عن أنس قال: كان أبو طلحة أكثر الأمصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء (اسم حديقة له) وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية:﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران:٩٢)، قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أن الله تبارك وتعالى يقول:﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وإن أحب أموالي إلى بيرحاء، وإنها صدقة. أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ:« بخ بخ.. ذاك مال رابح! ذاك مال رابح »[4]

قلت: إن كل ما ذكرته طيب.. ولكن حاجات المجتمع أعظم من أن تفي بها مثل هذه التصرفات التي تصدر عن فئات محدودة.

قالت: لا.. لم تكن هذه تصرفات فئات محدودة.. لقد كانت تنتشر كوعي عام في المجتمع يسد كل حاجاته، ويكفي جميع مصالحه.

سأضرب لك مثالا على شريعة من شرائع الإسلام استطاعت أن تلبي من حاجات المجتمع ما لم تستطع

---

(١) رواه الطبراني في الكبير.

(٢) رواه ابن سعد.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد.

(٤) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

الدول المعاصرة بجميع أساطيلها أن تفي به.

قلت: ما هذه الشريعة؟

قالت: الوقف..

لقد سمع المسلمون محمدا يقول:« إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم نافع، أو ولد صالح يدعو له »[1]

فراحوا يتنافسون على أن يترك كل مسلم خلفه وقفا صالحا يكتب له أجره بعد موته.. فلذلك غطت الأوقاف الخيرية كل الحاجات الاجتماعية.

لقد نهض الوقف برسالة ضخمة في إقامة المؤسسات الخيرية، ورعايتها، وبرزت أهميته بوجه خاص، في توفر الرعاية الاجتماعية، للطبقات الضعيفة، والفقيرة، ولكل محتاج إلى العون، والرعاية،كابن السبيل، وطالب العلم، والمريض، بل اتسع نطاقه ليشمل أوجه الحياة الاجتماعية[2]، وتكاثرت الأوقاف، وتنوعت تعبيراً عن إحساس الواقفين، بأن هناك ثغرة في المجتمع لا بد أن تستر، أو منكراً يجب أن يزول، أو معروفاً مهملاً يجب أن يراعى[3].

ومن نماذج ذلك ما ذكره ابن بطوطة عن أوقاف دمشق حينما دخلها قال: «والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها،ومصارفها لكثرتها، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج، يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن، وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن، ومنها أوقاف لفكاك الأسرى، ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون، ويلبسون، ويتزودون لبلادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطرق، ورصفها، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليها المترجلون، ويمر الركبان بين ذلك، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير»[4]

ومن أطرف أنواع الوقف التي حكاها ابن بطوطة في دمشق وقف الأواني يقول: «مررت يوماً ببعض أزقة دمشق، فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني، وهم يسمونها الصحن، فتكسرت، واجتمع عليه الناس، فقال له بعضهم أجمع شقفها، واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني، فجمعها وذهب الرجل معه إليه، فأراه إياها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن، وهذا من أحسن الأعمال، فإن سيد الغلام لا بد له أن يضربه على كسر الصحن، أو ينهره، وهو أيضاً ينكسر قلبه، ويتغير لأجل ذلك، فكان

---

(١) أحمد.

(٢) انظر محمد بن عبد الله، الوقف في الفكر الإسلامي ١/١١.

(٣) انظر د. جمال برزنجي، الوقف الإسلامي وأثره في تنمية المجتمع (نماذج معاصرة لتطبيقاته في أمريكا الشمالية) ص ١٤٠، ضمن أبحاث ندوة نحو دور تنموي للوقف في الكويت عام ١٩٩٣م.

(٤) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة ص١٠٤.

هذا الوقف جبراً للقلوب، جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا»[1]

ومن أنواع الوقف وقف للقرض المالي بدون فائدة، ووقف لختان الأطفال اليتامى، وأوقاف لنظافة المدينة، وأوقاف لإيناس المرضى، وأوقاف للنساء النافرات من أزواجهن، وأوقاف للمعاقين، هذا فضلاً عن المساجد، والمدارس، والمكتبات، والربط، والمستشفيات، وكان المحسنون يبنون المستشفيات، ويوقفون عليها الأوقاف، وكذا المدارس، والجامعات وأنواع الخدمات الأخرى، كالسقاية، والطرق، والمساكن، وغيرها، مما يصعب حصره[2].

الأمة:

قلت: عرفت أهمية الفرد والمجتمع في النظام الإسلامي.. ولكن المجتمعات لابد لها من نظام سياسي يحميها.. وهذا ما لم يفلح الإسلام فيه مقارنة بغيره.

قالت: وكيف عرفت أنه لم يفلح؟

قلت: لقد حكم المسلمون دول كثيرة كان التزاع بينها شديدا.

قالت: نعم.. لقد وقعت أخطاء كثيرة في هذا الباب.. ولكنها لم تكن ناتجة عن الاستمداد من الشريعة الإسلامية.. بل كان مصدرها الأهواء والعصبيات..

ولكن مع ذلك.. فإن ما حصل من ذلك لا يساوي شيئا أمام ما يحصل في هذا العصر..

قلت: كيف ذلك؟

قالت: إن اهتمامنا المتزايد بتفاصيل التاريخ السياسي للمسلمين هو الذي جعلنا نحمل تلك النظرة القاسية.

قلت: لم أفهم ما الذي تريدين قوله.

قالت: لو جمعنا حالات الاضطراب التي مر بها الحكم السياسي في جميع التاريخ الإسلامي وقارناه بحالات الاستقرار.. لوجدنا الاضطراب حالات نادرة في أماكن محدودة في عصور محدودة..

ألا ترى أن الدولة الواحدة في عصرنا تمر في عقد واحد من السنين بجميع أنواع الحكم.. وكل حكم يحاول أن يلغي من قبله؟

قلت: هذه حقيقة.. ونحن نعيشها.

قالت: ولكن الدول الإسلامية الكبرى التي حكمت بلاد الإسلام حكمته لقرون طويلة.. ساد فيها الاستقرار فترات طويلة.

نعم.. ربما تكون قد وقعت بعض المظالم.. ولكنها مظالم محصورة جدا.

قلت: وحاجات المجتمع.

---

(١) المرجع السابق ص١٣٧.

(٢) انظر ناجي معروف، أصالة الحضارة العربية ص٣١٠، ٣١١.

قالت: لقد ذكرت لك أن المجتمع الإسلامي حاول أن يستغني بتكافله التام عن تغير السياسات والحكام.. وهذا ما ضمن للمجتمع استقرارا أعظم بكثير من استقرار السياسة[1].

***

ما وصلت (هيلين كارير دانكوس) من حديثها إلى هذا الموضع حتى سقطت دموع حارة من عينيها، فقلت لها: ما يبكيك؟

قالت: شيئان.

قلت: ما هما؟

قلت: أما أولهما.. فموقف قومنا الذين تاهوا بأنفسهم وبعقولهم وبمجالسهم الكثيرة عن الفضائل العظيمة التي جاء الإسلام بها.

فراحوا يفخرون عليه.. وهم في ذلك كالمجرم الذي يفخر على القضاة.. وكالأمي الذي يفخر على العلماء.. وكالفاسق الذي يفخر على القديسين.

قلت: والثاني؟

قالت: على أولئك المسلمين الذين تصوروا نظام الإسلام قاصرا على كراسي الحكام.. فراحوا ينازعونهم كراسيهم، ويشوهون أنفسهم ودينهم بذلك النزاع.

قلت: ولكن.. هل يرضى مسلم بأن يحكمه فاسق؟

قالت: التغيير ليس بذلك الأسلوب.. التغيير في الإسلام يبدأ بإقامة دولة الفرد الصالح.. فإذا صلح الفرد صلح المجتمع.. وإذا صلح المجتمع لم يملك الحاكم إلا أن يصلح أو يستقيل.

قلت: إني أعجب لك حضرة المستشرقة الفاضلة.. كيف تقفين من الإسلام كل هذه المواقف، ثم لا أراك تعلنين إسلامك!؟

نظرت إلى الأفق البعيد، ثم قالت: ذلك حلم جميل عساني أفيق بعض الأيام عليه.

قلت: لم أفهم ما تقصدين.

قالت: أتعرف رجاء جارودي؟

قلت: أجل.. وكيف لا أعرفه؟

قالت: لقد كان أستاذا لي.. لقد عرف كل الأنظمة التي حكمت البشرية في جميع مراحلها.. وكان يبحث عن نظام يجمع بين العدالة والرحمة، فلم يجده إلا في الإسلام.. فأسلم.

قلت: سألتك عنك لا عن رجاء.

قالت: أحيانا تجد لغيرك من الجرأة عن التعبير عنك أعظم مما تجده من نفسك.

قالت ذلك، ثم انصرفت..

---

(١) هناك تفاصيل كثيرة مرتبطة بالجانب السياسي في الإسلام والشبهات المثارة حوله في رسالة (عدالة للعالمين)

انصرفت بعدها، ومعي بصيص جديد من النور اهتديت به بعد ذلك إلى شمس محمد.

ثامنا ــ علوم

في اليوم الثامن من تلك الأيام العشرة المباركة.. التقيت المستشرقة التي قطفت على يدها ثمرة (العلوم)من شجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر كون أول آيات القرآن تبدأ بقوله تعالى:﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ (العلق)

فهذه الآيات الكريمة ــ التي هي أول ما نزل من القرآن الكريم ــ لا تشير إلى أهمية العلم فقط.. وإنما تشير أكثر من ذلك إلى ارتباط العلم بالله وبالدين وبالخلق..

وقد عرفت منها أن انفصال العلم من الدين.. وانفصاله ــ من ثم عن الخلق ــ سيكون وبالا عظيما على العالم.. وعلى البشرية.

وعرفت بهذه الثمرة سر ذلك التوبيخ والعقاب الذي ناله ذلك الرجل الذي سلخ علمه من دينه.. قال تعالى:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)﴾ (القصص)

وعرفت بها سرا خطيرا من أسرار قارون.. فقارون لم يطغه ماله فقط.. وإنما جعله يطغى تلك العلوم التي تميز بها بين الناس، فراح يقول:﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص: من الآية٧٨)

وعرفت بها سر النصوص المقدسة الكثيرة التي تحذر من فصل العلم عن الدين وعن الخلق.. والتي امتلأ بها القرآن والسنة.

وعرفت بها سر إلحاح الأولياء والقديسين من المسلمين على ربط العلم بالخلق والدين..

وعرفت بها أسرارا كثيرة لا أطيق ذكرها لك الآن..

***

كانت المستشرقة المشهورة الدكتورة زيغريد هونكه[1] من الأسماء الضخمة التي وضعت في الدفتر الذي

---

(١) هي الدكتورة زيغريد هونكه Dr. Sigrid Hunke، وهي مستشرقة ألمانية معاصرة، وهي زوجة الدكتور شولتزا، المستشرق الألماني المعروف الذي تعمق في دراسة آداب العرب والاطلاع على آثارهم ومآثرهم. وقد قضت هونكه مع زوجها عامين اثنين في مراكش، كما قامت بعدد من الزيارات للبلدان العربية.

من آثارها: (أثر الأدب العربي في الآداب الأوروبية) وهو أطروحة تقدمت بها لنيل الدكتوراه من جامعة برلين، و(الرجل والمرأة) وهو يتناول جانبًا من الحضارة الإسلامية (١٩٩٥)، و(شمس الله تسطع على الغرب) الذي ترجم بعنوان: (شمس العرب تسطع على الغرب)، وهو ثمرة سنين طويلة من البحث والدراسة.

وقد اخترناها للحوار معها في هذا الفصل لشهاداتها الكثيرة المعروفة حول الإسلام والعلوم الإسلامية والحضارة الإسلامية.. ومنها قولها:« لقد أوصى محمد كل مؤمن رجلاً كان أو امرأة بطلب العلم، وجعل من ذلك واجبًا دينيًا. وكان يرى في تعمق أتباعه في دراسة المخلوقات وعجائبها وسيلة التعرف على قدرة الخالق. وكان يرى أن المعرفة تنير طريق الإيمان.. ويلفت أنظارهم

سلمني إياه المرشد.. ولذلك كنت أتحين الفرص للقائها، والحديث معها، لأعرف سر ذلك المروق الذي شرفها بتسجيلها في ذلك الدفتر.

كنت أعلم مدى اهتمامها بالعلوم الإسلامية، والحضارة الإسلامية التي أنتجت تلك العلوم.. ولكني لم

إلى علوم كل الشعوب، فالعلم يخدم الدين والمعرفة من الله وترجع إليه، لذلك فمن واجبهم أن يصلوا إليها وينالوها أيًا كان مصدرها ولو نطق بالعلم كافر. وعلى النقيض تمامًا يتساءل بولس الرسول Paulus مقرًا: (ألم يصف الرب المعرفة الدنيوية بالغباوة)؟ مفهومان مختلفان، بل عالمان منفصلان تمامًا، حدّدا بهذا طريقين متناقضين للعلم والفكر في الشرق والغرب وبهذا اتسعت الهوة بين الحضارة العربية الشامخة والمعرفة السطحية المعاصرة في أوروبا حيث لا قيمة لمعرفة الدنيا كلها.."(شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٦٩)

ومنها قولها:« لم تلبث الديانة [الإسلامية] الفتية السائرة في طريقها بعزم وثبات، أن اصطدمت بالديانات الأخرى في كل مكان. فهنا يقف رجال المذاهب المسيحية وجهًا لوجه أمام رجال المذاهب الإسلامية على أتم استعداد للمجادلة، وهنا تقسم هذه المجادلات واختلاف وجهات النظر المسلمين أنفهسم إلى مدارس ومذاهب، وكان من الممكن أن يؤدي هذا إلى نهاية النهضة العربية الإسلامية وهي في مهدها. ولكن ما حدث كان على خلاف ذلك تمامًا، فإن إكراه الإسلام للفتى على أن يجرب قواه الفكرية مع ديانات وفلسفات أخرى في محاجات فكرية وفلسفية قد أفاده أكبر إفادة وأكسبه خبرة ومرانًا » (شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٧٢)

ومنها قولها:« الإسلام لا يعرف وسيطًا بين العبد والرب.. ولم يكن لديه طبقة من الكهنة.. وعلى العموم فإن مجال حرية الرأي كان أوسع [مما هو عليه الحال في الديانات الأخرى..].. » (شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٧٢)

ومنها قولها:« لم يكن المسجد تقليدًا للكنيسة بالمرة، حتى ولو ارتفعت سقوفه فوق عمد، كانت يومًا ما، تحمل سقف كنيسة. فمفهوم المسجد يختلف عند المسلمين تمام الاختلاف منذ البداية عن مفهوم المسيحيين للكنيسة. فليس المسجد بيت الله المقدس الذي يتقرب فيه المؤمن من الله عن طريق وساطة الكاهن. فمن قبيل التبرك، أصبح بناء الكنيسة يرمز حرفيًا، وليس معنويًا، إلى مملكة السماء التي يحكمها المسيح وإلى البيت المقدس الذي هبط من السماء إلى الأرض. وظلت الكنيسة تحمل هذا المعنى على مر العصور.. أما المسجد فقد تحرر من تلك الأفكار، وكان هدفه بسيطًا واقعيًا. فالعالم كله مسجد كبير بني لله.. ولم يفرض عليه الإسلام ضرورة الصلاة في مسجد أو معبد. وعبادته ليست مرتبطة بوجود كاهن مبارك يمثل دور الوسيط بينه وبين ربّه، فكل إنسان في نظره عبد لله قادر على أن يؤم المصلين في المسجد.. فالجامع هو الذي يجمع المسلمين. وهو ليس بالمكان الخاص الذي يرتفع ببركاته وقدسيته، كالكنيسة، على بقية منازل الناس ومساكنهم. ولهذا لم يهتمّ المسلمون كثيرًا بمظهر المساجد الخارجي. والصلاة للجميع على قدم المساواة فيقف العالم بجوار السقاء وقائد الجيش بجوار الجندي، والإمام بملابسه العادية لا يميزه شيء عن الآخرين.. فالكل سواسية كأسنان المشط. وقد كان هذا الأساس الديمقراطي للإسلام هو الذي جعل المساجد تتسع ولا ترتفع لتضم مزيدًا من الأروقة للمؤمنين المتساوين في الحقوق والواجبات.. والمسجد لا يحاول التأثير على الفرد موضوعيًا أو حسيًا فهو بيت الله، والله واحد لا شريك له ولم يكن له كفوًا أحد"(شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٤٧٧ — ٤٧٩)

ومنها قولها:« لم تكن المساجد مجرد أماكن تؤدى فيها الصلوات فحسب، بل كانت منبرًا للعلوم والمعارف، كما ارتفعت فيها كلمات الرسول فوق مجد التديّن الأعمى. ألم يقل أقوالاً، كان يكفي لأن يقولها في روما حتى يحاكم عليها بتهمة الهرطقة؟ أو ليس هو القائل بأن حبر الطالب أقدس من دم الشهيد؟» (شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٧٣ ﴾ (انظر: قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل)

أكن أعرف المحرك الذي حركها لذلك إلى أن التقيتها ذلك اليوم.

في ذلك الصباح الذي التقيتها فيه كنت مارا على جنان تمتلئ بعناقيد العنب المباركة، فبقيت أنظر إلى تلك المصانع الصغيرة الكثيرة التي تصنع ألذ العصائر وأشهاها وأكثرها إفادة للصحة.

بينما أنا كذلك إذ سمعت أصواتا ترفع تكاد تقترب من الخصومة.. فسارعت إلى الدخول من غير استئذان لأفك الخصومة، أو أمنع حدوثها.

في ذلك الحين رأيت تلك المستشرقة التي طالما حلمت بالجلوس إليها..

لقد كانت هي صاحب الصوت المرتفع، وكانت تقول بجرأة عظيمة لصاحب البستان: إن هذه جريمة.. جريمة بحق الإنسانية.. وجريمة بحق العنب..

قال لها الرجل: ولكن كل الناس يفعلون ذلك.

قالت: وهل تتبعهم في جرائمهم.. أو في جنونهم..!؟

قال لها الرجل: لست أدري لما تتحاملين علي بهذه الصورة؟

قالت: لأنك تحول من البركة خبثا.. ومن الدواء داء.. ومن الترياق سما.. فكيف لا أتحامل عليك، وأنت تخرب بنيان الله، والطبيعة التي طبع الله عليها الأشياء!؟

قال لها الرجل: لا أرى إلا أن رحلتك لتلك البلاد.. وسكنك بين أولئك المتخلفين.. إلا قد أثر فيك، وفي عقلك.. فدعيني أفعل ما أشاء.. فالأرض أرضي.. وعنبها عنبي.. ولي الحرية المطلقة في أن أحوله داء أو دواء..

قال ذلك بغضب شديد، ثم انصرف إلى عماله..

أما أنا، فاقتربت منها، وسألتها عن سر اختلافها مع هذا الرجل، فقالت: هذا الرجل أخي.. وقد ورث هذا البستان من زوجة له.. وقد كان يبيع عنبه كل سنة طيبا مباركا، ليأكله الناس كما خلقه الله.. ولكنه هذه السنة.. وبتأثير جماعة من المجرمين قرر أن يبيعه لصانعي الخمور، ليحولوا منه سما زعافا.

قلت لها: إن كل الناس يفعلون ذلك.. ولا يرون بذلك بأسا.

قالت: وهذا هو الخطر الأكبر.. أن يجتمع الناس على عدم إنكار المنكر.. بل على اعتبار المنكر معروفا..

قالت ذلك، ثم رمت ببصرها إلى الأفق البعيد، وسالت دمعة حارة من عينها، ثم قالت: متى يأتي اليوم الذي تشرق فيه شمسك يا محمد على هذه البلاد.. وعلى هؤلاء العباد.. ليعود الإنسان إلى الإنسان.. وتعود الحياة إلى الحياة.

قلت: مع من تتحدثين؟

قالت: أشواقي هي التي تتحدث.. لقد من الله علي أن أعيش بين ثلة من المسلمين استظلوا بظلال محمد.. وأشرقت عليهم أشعة شمسه.. فعرفت الإنسان، وعرفت الحياة.. وعرفت بعدنا عن الإنسان والحياة.

قلت: كيف تقولين هذا!؟.. ونحن أمة العلوم التي فجرت من أنهار العلوم وبحارها ما كان كامنا مختفيا، لا تراه الأبصار، ولا تسمع به الآذان.

قالت: ونحن من الأمة التي غرقت في تلك الأنهار والبحار، فلم تجد منقذا.

قلت: ما تقصدين؟

قالت: إن العلوم وتطبيقات العلوم التي فتحنا أبوابها كلها.. وأكلنا من شجرها جميعا تشبه تلك الجنة التي دخل إليها آدم.. مع فارق بسيط هو أن آدم أقدم مرة واحدة على الأكل من تلك الشجرة التي نهي عن الأكل منها.. ولكنا لم نأكل مرة واحدة.. بل رحنا نمزج من ثمار تلك الشجرة جميع ثمارنا، ونخلط سمها بجميع طعامنا.

قلت: ولكن آدم خرج من الجنة بأكله من تلك الشجرة.. ونحن دخلنا إليها بأكلنا منها.

قالت: نحن لم نخرج من الجنة فقط.. بل خرجنا من الإنسانية.. ونحن نغبط آدم، فقد خرج ـــ على الأقل ـــ بإنسانيته..

قلت: أنت متشائمة كثيرا!؟

قالت: عندما تكون في الظلام لا تبصر غير الظلام..

قلت: أليس هناك بصيص من النور يمكن أن يخترق حجب الظلام ليعيد نهار البشرية!؟

قالت: أجل.. ذلك كائن لا محالة.. وقد نعمت به البشرية فترة طويلة.. وسيعود.. سيعود.. لي أمل كبير في ذلك.

قلت: أفصحي.. فإني لا أطيق فك ألغازك.

قالت: أعرفك بنفسي أولا.. أنا زيغريد هونكه.. لست أدري هل سمعت بهذا الاسم أم لا..

قلت: بلى.. لقد سمعت به.. وأنا من بلدك.. من ألمانيا.. وقد سمعت بكتابك عن إشراقة شمس الإسلام على الغرب.. وقد تعجبت من كتابتك له.

قالت: لقد بثثت فيه بعض ما علي من دين نحو تلك الأمة العظيمة التي غرس شجرتها محمد.

قلت: ما الذي جعلك تميلين كل هذا الميل لمحمد، ولدين محمد؟

قالت: لأنه حافظ على الإنسان، فلم يحوله إلى حيوان.. وحافظ على العنب، فلم يحوله إلى خمر.. وحافظ على الأنهار، فلم يحولها إلى مستنقعات..

قلت: ليس محمدا وحده هو الذي فعل هذا.. حتى أولئك البدائيين البسطاء الذين لم تنفتح لهم فتوح العلم فعلوا هذا.

قالت: فرق عظيم بين ما فعله محمد وثمار محمد، وبين ما فعله أولئك البسطاء.

قلت: ما الفرق بينهما؟

قالت: أولئك البسطاء لم تنفتح لهم العلوم.. و لم يغيروها.. ولكن الثمار التي رباها محمد على عينه فتحت لها خزائن العلوم لكن تربية محمد جعلتهم يتأدبون.. فلا يتناولون منها ما يحرف الإنسان، وما يحرف الأكوان.

لقد سمعوا ربهم يقول لهم:﴿ لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ (الروم: من الآية٣٠)، فراحوا يحافظون على أصالة الإنسان وأصالة الأكوان.

وسمعوا ربهم يربط بين العلم والإيمان، فيقول لهم:﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر: من الآية٢٨)، فراحوا يمزجون بين العلم والخشية.

وسمعوا ربهم يحدثهم عن الطواغيت الذين حرفوا العلم.. وانحرفوا بالعلم.. وبطروا بالعلم.. فراحوا يفرون من سلوكهم.. ويربطون علمهم بربهم، وبإيمانهم، وبمصالح البشرية التي كلفوا برعايتها.

أما قومنا.. فلا ينطبق عليهم إلا ما ورد في القرآن من خبر ذلك الذي سلخ علمه عن إيمانه.. ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الأعراف:١٧٥-١٧٦)

إن هذا المثال يكاد ينطبق تماما على الكثير من اكتشافات هذا العصر.. حيث تلهث البشرية كل حين وفي كل مجال، وتستغل العلم لتغذي ذلك اللهث الذي لا ينقطع.

قلت: إن في كلامك هذا دعاوى كثيرة تحتاج إلى برهان.. فلا يمكن لعقلي أن يقبل الدعوى من غير برهانها.

قالت: اجلس.. وسأحدثك عن الحقائق التي اكتشفتها بعد بحث طويل في الأديان والمذاهب والأفكار بحثا عن شجرة العلوم التي سقيت بمياه الإيمان، وأشرقت عليها شمس العرفان.. فلم أجدها إلا في دين محمد.

١ ـــ علوم الجاهلية

قلت: فهل سنبدأ بالحديث عن الجاهلية!؟

قالت: لا تعرف قيمة الفضائل إلا إذا قارنتها بالرذائل.. ولا يعرف شرف الحقائق إلا إذا قارنتها بالأباطيل.

قلت: فبأي جاهلية تحبذين أن نبدأ حديثنا؟

المسيحية:

قالت: بالمسيحية.. بالدين الذي تنتسب إليه هذه الحضارة.. أو بالدين الذي تخلصت منه هذه الحضارة.

قلت: لا علاقة للمسيحية بالعلوم.. فالمسيحية دين الملكوت لا دين الملك.. وهي تبحث في حقائق الأزل لا في أباطيل الفناء.

قالت: لقد أتيحت للمسيحية، ولرجال الدين، وللكنيسة أن تكون لها في فترة طويلة علاقة بالعلم.. فتعال بنا نرى ماذا فعلت في تلك الفرصة العظيمة التي أتيحت لها[1]؟

نظرت إلى عناقيد العنب المتدلية، وقالت: بمثل التحريف الذي يريد أخي أن يحرف به هذه العصارات المباركة، حرفت الكنيسة الحقائق.. فتبنت الجهل الذي اعتبرته علما، وقاومت العلم الذي اعتبرته جهلا.. فأخطأت خطأين لا نزال نصلى نارهما: نصرت الجهل، وحولت العلم عن وجهة الدين، لينفصل عن الدين.

قلت: فحدثني عن الخطأ الأول.

قالت: كما تسربت الوثنيات إلى عقائد المسيحية، وتسربت طقوس الوثنية إلى شعائرها، تسربت الخرافات إلى علومها.. و لم تكتف بقبولها، بل راحت تحتكرها، وتعتبرها عقائد لازمة يحرم من جحدها.

يقول برنتن:« إن أكثر أصحاب الوظائف العلمية حتى في أوج العصور الوسطى كانوا ينتمون إلى نوع من أنواع المنظمات الدينية، وكانوا جزءاً من الكنيسة، حيث أن الكنيسة بدرجة لا نكاد نفهمها اليوم تتدخل في كل لون من ألوان النشاط البشري وتوجهها وبخاصة النشاط العقلي »

ويقول:« وإذن فقد كان الرجال الذين يتلقون تعليمهم في الكنيسة يكادون يحتكرون الحياة العقلية، فكانت الكنيسة منصة المحاضرة والصحافة والنشر والمكتبة والمدرسة والكلية، وكان أصحاب الميول الفلسفية في الدول الرومية سواء من رجال الكنيسة أو من المسيحيين العاديين، متأثرين بتراثهم من الفكر الإغريقي في ميادين العلم والفلسفة، لا سيما آراء أرسطو وبطليموس، وقد بذلوا جهودهم في التوفيق بين معتقداتهم الدينية وآرائهم الفلسفية.ونشأ عن ذلك فلسفة مركبة تسمى (الفلسفة المسيحية)، وهي خليط من نظريات الإغريق وظواهر التوراة والأناجيل وأقوال القديسين القدامى، ولما كان العلم والفلسفة في ذلك العصر شيئاً واحداً، فقد أدمج الفلاسفة المسيحيون في صرح فلسفتهم كل ما وصل إليه العلم البشري في عصرهم من النظريات الكونية

---

(١) انظر المراجع التي تتحدث عن العلمانية التي سبق ذكرها.

والجغرافية والتاريخية، ورأت الكنيسة في هذه الفلسفة التوفيقية خير معين على الدفاع عن تعليمها ضد المارقين والناقدين، فتبنتها رسمياً وأقرتها مجامعها المقدسة حتى أضحت جزءاً من العقيدة المسيحية ذاتها وامتدت يد التحريف فأدخلت بعض هذه المعلومات في صلب الكتب الدينية المقدسة »[1]

لقد تبنت الكنيسة آراء أرسطو في الفلسفة والطب ونظرية العناصر الأربعة ونظرية بطليموس في أن الأرض مركز الكون.. وما أضاف إلى ذلك كله القديس أوغسطين وكليمان الإسكندري وتوما الاكويني.. واعتبرت هذا المزيج من الآراء البشرية أصولاً من أصول الدين المسيحي وعقائد مقدسة لا يصح أن يتطرق إليها الشك.

وقد كانت هذه العلوم المسيحية تشتمل على معلومات تفصيلية عن الكون.. تذكر بأن الله خلق العالم ابتداء من سنة ٤٠٠٤ ق.م، وتوج ذلك بخلق الإنسان في جنة عدن على مسيرة يومين من البصرة بالضبط، والعجيب أنها ظلت مصرة على هذا الرأي حتى مطلع القرن التاسع عشر، فقد طبع كتاب الأسقف (آشر) الذي يحمل هذه النظرية سنة ١٧٧٩ م [2].

أما تاريخ الطوفان فتختلف فيه تقاويم التوراة، لكنه على أقصى آرائها وقع بعد خلق آدم بـــ (٢٢٦٢)سنة[3]، ومعنى ذلك أنه كان سنة ١٧٤٢ ق.م.

ومن الطريف أن مجلساً كنسياً كان قد أعلن في بداية القرن العاشر للميلاد أن القرن الأخير من حياة العالم قد استهل، لأن الله قد جعل المدة بين إنزال ابنه ونهاية العلم ألف سنة فقط[4].

هذه بعض معلوماتها التاريخية..

أما معلوماتها الطبية، فقد كانت أفضل وأنجح الوسائل العلاجية في نظرها إقامة الطقوس لطرد الشياطين التي تجلب المرض، ورسم إشارة لصليب ووضع صور العذراء والقديسين تحت رأس المريض ليشفي.

قلت: عرفت الخطأ الأول.. فما الخطأ الثاني؟

قالت: لقد أتيح لقومنا أن يروا بعض ثمار العلوم التي أنتجتها الشجرة التي غرسها محمد.. وذلك بفضل مراكز الحضارة الإسلامية في الأندلس وصقلية وجنوب إيطالية التي كانت بتشع نور العلم والمعرفة على القارة المستغرقة في دياجير الخرافة والجهل، فاستيقظ العقل الأوروبي من سباته وأخذ يقتبس عن المسلمين طرائق البحث ومناهج التفكير التي تجعله يكد ويعمل في مجال اختصاصه.

وفي ذلك الحين وقع الخطأ الثاني الذي لا نزال نعاني آثاره..

لقد ثارت ثائرة رجال الكنيسة على الذين يتلقون علوم الكفار.. والذين لم يكونوا في نظرهم غير

---

(١) انظر استمداد المسيحية من الفلسفة من كتاب المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ص١٠١ فما بعد.

(٢) انظر معالم تاريخ الإنسانية: ج١ ص١٦.

(٣) انظر: إظهار الحق:٢١٨.

(٤) انظر قصة الحضارة:١٤/ ٣٧٩.

المسلمين..

فلذلك أعلنت حالة الطوارئ ضدهم، وشكلت محاكم التفتيش في كل مكان تتصيدهم وتذيقهم صنوف النكال.. وأصدرت منشورات بابوية جديدة تؤكد العقائد السابقة وتلعن وتحرم مخالفيها.. وبذلك قامت المعركة بين الكنيسة والعلم، وأخذت تزداد سعاراً بمرور الأيام.

لقد كان من أول النظريات العلمية التي صادمت الكنيسة نظرية كوبرنيق (١٥٤٣) الفلكية، فقبل هذه النظرية كانت الكنيسة المصدر الوحيد للمعرفة، وكانت فلسفتها تعتنق نظرية بطليموس التي تجعل الأرض مركز الكون، وتقول أن الأجرام السماوية كافة تدور حولها.

فلما ظهر كوبرنيق بنظريته القائلة بعكس ذلك كان جديراً بأن يقع في قبضة محكمة التفتيش، ولم ينج من ذلك لأنه كان قسيساً، بل لأن المنية أدركته بعد طبع كتابه بقليل، فلم تعط المحكمة فرصة لعقوبته، إلا أن الكنيسة حرمت كتابه (حركات الأجرام السماوية)، ومنعت تداوله وذكرت أن ما فيه هو وساوس شيطانية مغايرة لروح الإنجيل.

وقد ظن رجال الكنيسة البلهاء أن أمر هذه النظرية قد انتهى، ولكن رجلاً آخر هو (جردانو برونو) بعث النظرية بعد وفاة صاحبها، فقبضت عليه محكمة التفتيش، وزجت به في السجن ست سنوات، فلما أصر على رأيه أحرقته سنة ١٦٠٠م وذرت رماده في الهواء وجعلته عبرة لمن اعتبر.

وبعد موته ببضع سنوات كان (جاليلو) قد توصل إلى صنع المرقب (التلسكوب)، فأيد تجريبياً ما نادى به أسلافه نظرياً، فكان ذلك مبرراً للقبض عليه ومحاكمته، وقضى عليه سبعة من الكرادلة بالسجن مدة من الزمان، وأمر بتلاوة مزامير الندم السبعة مرة كل أسبوع طوال ثلاث سنوات [1]..

ولما خشي على حياته أن تنتهي بالطريق التي انتهى بها برونو أعلن ارتداده عن رأيه، وهو راكع على قدميه أمام رئيس المحكمة قائلاً:« أنا جاليلو.. وقد بلغت السبعين من عمري.. سجين راكع أمام فخامتك، والكتاب المقدس أمامي ألمسه بيدي، أرفض وألعن وأحتقر القول الإلحادي الخاطئ بدوران الأرض »

ولم يكتف بهذا التعهد.. بل أضاف إليه التعهد بتبليغ المحكمة عن كل ملحد يوسوس له الشيطان بتأييد هذا الزعم المضلل [2].

قلت: فما الذي جعل الكنيسة تصر على تلك الآراء كل ذلك الإصرار، مع أن ذلك لم يذكر في الكتاب المقدس.

قالت: وهل تتبنى الكنيسة شيئا مما في الكتاب المقدس!؟.. لقد رأت الكنيسة أن الأرض يجب أن تكون مركز الكون الثابت لأن الأقنوم الثاني.. الذي هو المسيح.. تجسد فيها، وعليها تمت عملية الخلاص والفداء، وفوقها يتناول العشاء الرباني.

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية: ١٠٠٨/١.

(٢) قصة النزاع بين الدين والفلسفة: توفيق الطويل /٢٠٥ وانظر كذلك تكوين العقل الحديث ٣٤٨/٣.

وأضافوا إلى هذا ما فهموه من قول التوراة:« الأرض قائمة إلى الأبد، والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق » (انظر: سفر الجامعة: ١/ ٥-٦)

أما كروية الأرض وسكنى جانبها الآخر، فنفتها الكنيسة بحجة أن (من خطل الرأي أن يعتقد الإنسان بوجود أناس تعلو مواطئ أقدامهم على رؤوسهم وبوجود نباتات وأشجار تنمو ضاربة إلى أسفل، وقالت إنه لو صح هذا الزعم لوجب أن يمضي المسيح إلى سكان الوجه الآخر من الأرض ويموت مصلوباً هناك من أجل خلاصهم »[1]

قلت: فهل أفلحت الكنيسة في نصرة آرائها ومقاومة الهراطقة؟

قالت: على العكس تماما.. فلم يكد القرن السابع عشر يستهل حتى كان لنظرية كوبرنيق وما أضاف إليها برونو وجاليلو آثار واسعة، ظلت راسخة في الفلسفة الأوروبية عامة.

وذلك ما أحدث أثرا خطيرا في ثقة الجماهير بالكنيسة جعلتهم يشكون في سلامة معلوماتها، وهو أثر له أهميته القصوى.

لقد قدم ذلك الصراع إيحاءات فلسفية جديدة، هزت فكرة الثبات المطلق التي كانت مسيطرة على العقلية الأوربية وحطت كذلك من قيمة الإنسان ومكانته في الوجود.

والأخطر من ذلك كله هو ما حصل من ثورة العلماء على الكنيسة كما ثار العامة عليها.. وتولد من تلك الثورة جاهلية جديدة فصلت العلم عن المبادئ والمثل.

قلت: فهل سكتت الكنيسة؟

قالت: لا.. الكنيسة لم تسكت.. و لم تبحث عن أي محاولة توفيق تحفظ للعلم حرمته، وتحفظ للدين قداسته.

قلت: فماذا فعلت؟

قالت: سلاح الإرهاب التي تدربت على استعماله في الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش..

لقد كان القرن السابع عشر هو القرن الذهبي لمحاكم التفتيش.. فقد قاسى العلماء أنواع الاضطهاد، واستخدمت ضدهم أساليب القمع الوحشية وظهرت الفهارس أو (القوائم البابوية) التي تحتوى على أسماء الكتب المحرمة، وكان وجود شيء من هذه الكتب في حوزة إنسان ذريعة لسوقه إلى محكمة التفتيش وتعريضه لأليم عقابها.

لقد قاومت الكنيسة كل محاولة للتجديد وإن كانت نافعة خيرة، فقد كفرت رئيس بلدية في ألمانيا لأنه اخترع غاز الاستصباح بحجة أن الله خلق الليل ليلاً والنهار نهاراً، وهو بمخترعه يريد تغيير مشيئة الخالق فيجعل الليل نهاراً.

واضطرب حبل الكنيسة بظهور الروح الجديدة اضطراباً واضحاً وألقت بكل ثقلها في معركة كانت في

---

(١) قصة النزاع بين الدين والفلسفة: توفيق الطويل /٢٠٥ وانظر كذلك تكوين العقل الحديث ٣٤٨/٣.

غنى عن دخولها أمام الناس، لا سيما المثقفون الذين انتهزوا الفرصة وخيل إليهم أن الأقدار قد لاقت أيهم مفتاحاً سحرياً يخلصهم من سجن الكنيسة وأغلالها ذلك هو مفتاح (العلم والتجربة)

قلت: فهل سكت الناس؟

نظرت إلى عناقيد العنب نظرة ألم، ثم قالت: لقد بدأ العنب في ذلك الحين ــ بحكم تصرفات الكنيسة الحمقاء ــ يتحول إلى خمر..

لكن مع ذلك.. بدأت خطايا الكنيسة والمسيحية التي كانت تغطى بستار القداسة تفتضح.. وأصبحت للناس ــ وللعلماء على الأقل ــ الجرأة الكافية ليقولوا للكنيسة: لا.

وكان (سبينوزا) ذلك اليهودي المتحرر من هؤلاء.. بل لعله أعنفهم.. فقد طبق المنهج العقلي على الكتاب المقدس نفسه، ووضع الأسس التي قامت عليها (مدرسة النقد التاريخي) التي ترى أنه يجب أن تدرس الكتب الدينية على النمط نفسه الذي تدرس به الأسانيد التاريخية.. أى على أساس أنها تراث بشري، وليست وحياً إلهيا.

وقد استنتج سبينوزا ــ انطلاقا من تطبيق هذا المنهج ــ أن أسفار التوراة لم يكتبها موسى، مستدلاً بما جاء في سفر التثنية من ذكر موت موسى ورثائه، وقول كاتب السفر:« لم يأت نبي مثله من بعده »[1]

واستطاع أن يثبت أن التوراة قد عينت أماكن بأسماء لم (توضع لها إلا بعد موسى بقرون عديدة)[2]

وفي إنجلترا طور جيبون النقد التاريخي للمسيحية في كتابه (سقوط الإمبراطورية الرومانية واضمحلالها).. أما هليوم فقد ابتدع مذهب الشك المطلق الذي كان ثورة نفسية على الإيمان المطلق طوال القرون الماضية.

كما استطاع (باسكال) أن يوجه نقده إلى عقيدة الخطيئة قائلاً:« لا شيء يزحم العقل الإنساني بالألم كعقيدة الخطيئة الأصلية، وأنه ليبدو أبعد ما يكون عن العقل أن يعاقب إنسان من أجل خطيئة اقترفها أحد أسلافه منذ أربعة آلاف سنة »

أما (جون لوك)، فقد خطا خطوة أبعد من ديكارت بأن طالب بإخضاع الوحي للعقل عند التعارض قائلاً:« من استبعد العقل ليفسح للوحي مجالاً، فقد أطفأ نور كليهما وكان مثله كمثل من يقنع إنساناً بأن يفقأ عينيه ويستعيض عنهما بنور خافت يتلقاه بواسطة المرقب من نجم سحيق»

كما دعا إلى تطبيق مبدأ جديد على الحياة الأوربية آنذاك، وهو مبدأ التسامح الديني وإعطاء الحق لكل إنسان في أن يعتنق ما يشاء ويكفر بما يشاء من الأديان والمذاهب.

قلت: فكيف سكتت الكنيسة على هؤلاء؟

قالت: لقد ظل صوتهم خافتاً أمام بطش محاكم التفتيش، وضغط المجتمع الذي كان يدين بالمسيحية ويراها جزءاً من كيانه.. ولذلك لم يحرقوا.. ولكن تراثهم مع ذلك تعرض للحرق والمصادرة كما تعرضوا شخصياً

---

(١) انظر: رسالة (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

(٢) انظر: رسالة في اللاهوت والسياسة لسبينوزا، ترجمة: حسن حنفي.

للإيذاء والمضايقة من قبل الكنيسة.. إلا أن تفجر البركان العلمي في كل مكان والخلافات الداخلية بين الطوائف المسيحية شغلتها عن إعطائهم ما يستحقون من الاهتمام.

كما أن النظريات الجديدة عن الكون في هذا القرن قد غمرت الأفكار الفلسفية، واستأثرت بالاهتمام البالغ من قبل الأوساط الدينية والعلمية على السواء.

قلت: فهل توقف النقد عند ذلك الحد المؤدب؟

قالت: بل تجاوز النقد حد الأدب ليفسح الأمر لإله العقل الذي خلف إله الكنيسة..

لقد ظهر فولتير الذي كان أعدي أعداء الكنيسة آنذاك.. لقد نقد الكنيسة نقدا لاذعا..

وكان أول ما انتقده العقيدة المسيحية في التثليث وتجسيم الاله والصور المقدسة وأنحى باللائمة على بولس الذي طمس المسيحية وحرفها، ولذلك كان الإيمان بالمسيحية في نظره هو (الاعتقاد بأشياء مستحيلة أو بأشياء تستعصي على الفهم فالحية تتكلم والحمار يتحدث وحوائط أريحا تتساقط بعد سماعها صوت الأبواق، إن الإيمان على هذا النحو هو على ما يقول أرازم هو الجنون)

أما الخطيئة الأولى فيرفضها فولتير، ويعتبرها إهانة لله واتهاماً له بالبربرية والتناقض، وذلك للتجرؤ على القول بأنه خلق الأجيال البشرية وعذبها لأن أباهم الأول قد أكل فاكهة من حديقته[1].

وقد انتقد فولتير الطقوس السبعة نقدا مريرا، وسخر من الكتاب المقدس سخرية لاذعة تتجلى في قوله تعليقا علي معلومات التوراة الجغرافية:« من الواضح أن الله لم يكن قويا في الجغرافيا».. وقوله عن صيام المسيحية (دواء للفقراء لا يتعاطاه الأغنياء)، ويري (أن الطقوس والشعائر والعبادات و الاحتفالات الدينية جرائم محلية يعاقب عليها كل من يزاولها لأنها ضارة بالمجتمع خاصة إذا تمت في صورة أضاح وقرابين)

أما آراؤه السياسية، فقد عبر عنها بقوله:« إن التوحيد بين الدين والدولة لهو أبشع نظام لذلك يجب إلغاؤه وإقامة نظام آخر يخضع فيه رجال الدين لنظم الدولة ويخضع فيها الراهب للقاضي »

وقال:« إنه لا يمكن طاعة البشر باسم طاعة الله لابد من طاعة البشر باسم قوانين الدولة »[2]

---

(١) سلسلة تراث الإنسانية ج ٨ ص ٧٨، ٨٠.

(٢) وقد كان فولتير صرح ببعض التصريحات ضد الإسلام قبل أن يعرفه، ولكنه بعد معرفته أعلن توبته عن مواقفه من الإسلام، ومن محمد ﷺ ولكن الأضواء لا تسلط إلا على أقواله الأولى، أما أقواله الأخيرة فقد طُمست.

فهو يعترف بأنه كان ضحية الأفكار السائدة الخاطئة:« قد هدم محمد الضلال السائد في العالم لبلوغ الحقيقة، ولكن يبدو أنه يوجد دائماً من يعملون على استبقاء الباطل وحماية الخطأ»

ثم يقول في قاموسه الفلسفي:« أيها الأساقفة والرهبان والقسيسون إذا فُرض عليكم قانون يحرم عليكم الطعام والشراب طوال النهار في شهر الصيام.. إذا فرض عليكم الحج في صحراء محرقة.. إذا فُرض عليكم إعطاء ٢,٥ بالمائة من مالكم للفقراء.. إذا حُرِّم عليكم شرب الخمور ولعب الميسر.. إذا كنتم تتمتعون بزوجات تبلغ ثماني عشرة زوجة أحياناً، فجاء من يحذف أربع عشرة من هذا العدد، هل يمكنكم الإدعاء مخلصين بأن هذه الشريعة شريعة لذّات؟! »

قلت: فهل سكتت الكنيسة؟

قالت: لا.. لقد جزعت الكنيسة من هذه الانتقادات والآراء جزعا شديدا ولعنت فولتير وأشياعه وكفرتهم وحرمت قراءة كتبهم.. وتعرض فولتير للمضايقة والاضطهاد من قبل رجال اللاهوت، حتى أنه قال مخاطبا إنسان ذلك العصر:« أنت طائر في قفص محاكم التفتيش.. لقد قصت محاكم التفتيش جناحيك »[1]

العقلانية:

قلت: عرفت هذا ووعيته.. فما الجاهلية الثانية؟

قالت: لقد أسست الجاهلية الأولى للجاهلية الثانية.. وهي جاهلية لبست لباس العقل[2] كرد فعل ضد موقف الكنيسة من العلم.. وهي جاهلية تدعو للكفر بالكنيسة وبكل دين..

قلت: هذا موقف طبيعي.. وقد كان رد فعل.

قالت: ولكنه رد فعل خاطئ.. فالدين ليس محصورا في الكنيسة.. لقد كان في إمكان العقلاء أن ينظروا في الأديان ويدرسوها دراسة موضوعية ليبحثوا عن الحقيقة، ويسلموا لها.

قلت: ألم يفعلوا؟

قالت: لو فعلوا لما وقعنا فيما وقعنا فيه.

قلت: فماذا فعلوا؟

قالت: لقد استبدلوا إله الكنيسة بإله العقل.. لقد صار العقل هو الإله الجديد لذلك العصر.. وصار المخبر هو الكنيسة.. وصار البشر هم القرابين التي تقدم لمحرقة كنيسة العلم.

قلت: أفصحي عن مرادك.. فلا طاقة لي بفهم ألغازك.

قالت: لقد وصف برنتن ذلك العصر الذي ابتدأت فيه عبودية العقل المصارع لإله الكنيسة، فقال:« كان العقل للرجل العادي في عصر التنوير هو كلمة السر الكبرى لعالمه الجديد، العقل هو الذي يسوق الناس إلى فهم الطبيعة.. وهذه هي كلمة السر الثانية الكبرى.. وبفهمه للطبيعة يصوغ سلوكه طبقاً لها، وبذلك يتجنب المحاولات العابثة التي قام بها في ظل لأفكار المسيحية التقليدية الخاطئة، وما يخالفها في الأخلاق والسياسة مما لا يناقض الطبيعة »[3]

وقد بين أن السبب في هذا يعود إلى المسيحية التي طبعتها الكنيسة بطابعها الخاص، قال:« إن المسيحية

ويقول:« لقد قام الرسول بأعظم دور يمكن لإنسان أن يقوم به على الأرض... إن أقل ما يقال عن محمد أنه قد جاء بكتاب وجاهد، والإسلام لم يتغير قط، أما أنتم ورجال دينكم فقد غيرتم دينكم عشرين مرة »، وقد أشرنا إلى هذا في الرسالة السابقة من هذه السلسلة.

(١) مقتطفات من سلسة قراءات إنسانية ج ٨ ص ٨٠ – ٨٧.

(٢) نقصد بالعقلانية هنا كل المناهج العلمية التي تستبعد الوحي، لا المنهج الفلسفي المعروف الذي اشتهر به ديكارت وغيره.

(٣)أفكار ورجال: ٤٧٤، ٤٧٦.

التقليدية لم تعد قادرة على أن تمد المستنيرين بنظرية كونية فقد بدأ الناس يعرفون ما يكفي من الجيولوجيا لكي يبين أن تاريخ الخليقة الذي حدده الأسقف (آشر) بعام ٤٠٠٤ ق م وتاريخ قصة الطوفان بعيدا الاحتمال.. ولكن مبدأ التثليث في المسيحية مثلاً: إن الرياضة كانت ضد هذا المبدأ فإن أي نظام رياضي محترم لا يسمح بأن يكون الثلاثة ثلاثة وواحداً في آن واحد، أما عن المعجزات فلماذا توقفت؟ إذا أمكن إحياء الميت في القرن الأول، فلماذا لا يحيا في القرن الثامن عشر»[1]

لقد تخلص الإنسان في هذا العصر من القيود التي كانت تربطه بالكنيسة، فراح يتمرد عليها في كل شيء.. قال رايوبرث يصف هذا العصر:« وامتاز ذلك العصر بشعور الإنسان فيه بشخصيته المطلقة وبمعارضته للسلطة وذويها، وذهابه شوطا بعيدا فى اعتبار العالم كله وطنا له.. وقد أعلت النهضة شأن الطبيعة الإنسانية والحياة الدنيوية مخالفة فى ذلك طريقة التفكير فى القرون الوسطى.. ولذلك يسمى العلماء الذين خصصوا أنفسهم لدراسة آداب اليونان والرومان والعلوم عند القدماء (الإنسانيين).. وكان من خير ما أحدثه هؤلاء الإنسانيون (نمو الفردية)، أعنى الرأى القائل بأن الإنسان ينبغى أن يفكر بنفسه لنفسه، وهو رأى كان قد أهمل فى عصر عبودية العقل »[2]

لقد انطلق العقل من أغلاله في ذلك العصر، و لم يعد مقيداً بأغلال الثنائية الديكارتية[3]، بل بدأ يبحث عن ذاته، ويسلك طريقه لكي يتصرف كما لو كان (إلها) بالفعل، وتعالت أصوات الباحثين والفلاسفة منادية بأن العقل هو الحكم الوحيد والعقل هو كل شيء وما عداه فوهم وخرافة، ابتداء بالوحي وانتهاء بالفداء والصلب والرهبانية.. فكلها أباطيل مضللة وعقائد مرذولة لأنها لا تتسق مع العقل.

يقول جرين برينتون عن الحركة الإنسانية وفنونها:« إنه طالما كانت العصور الوسطى فى الواقع عصورا دينية، وطالما أن عصر النهضة يعنى على الأقل محاولة العودة إلى الوثنية اللادينية إن لم نقل الزندقة، فإن فن العصور الوسطى يرتبط بالكنيسة، أما فن عصر النهضة فيتمتع بحرية بوهيمية »[4]

ويقول برينتون عن المذهب العقلى:« فالمذهب العقلى يتجه إلى إزالة الله وما فوق الطبيعة من الكون، ومن الوجهة التاريخية فإن نمو المعرفة العلمية وازدياد الاستخدام البارع للأساليب العلمية يرتبط بشدة مع نمو الوضع العقلى نحو الكون »[5]

ويقول الدكتور محمد البهى عن المذهب التجريبى:« إن تحصيل الإنسان للحقائق الكونية ومعرفته بها لا يكون إلا بالتجربة الحسية وحدها، ومعنى ذلك أن الحس المشاهد لا غيره هو مصدر المعرفة الحقيقية اليقينية..

---

(١)أفكار ورجال: ٤٧٦.

(٢) مبادئ الفلسفة، ترجمة محمد امين – دار الكتاب العربي بيروت ص ١١٩ – ١٢٠.

(٣) سنتحدث عنها بعد قليل.

(٤) منشأ الفكر الحديث – ترجمة عبد الرحمن مراد ص ٢٧.

(٥) منشأ الفكر الحديث – ترجمة عبد الرحمن مراد ص ٢٧.

ففى العالم الحسى تكمن حقائق الأشياء. أما انتزاع المعرفة مما وراء الظواهر الطبيعية الحسية، والبحث عن العلة فى هذا المجال، فأمر يجب أن يرفض. ولهذا تكون كل نظرية أو كل فكرة عن وجود له طابع الحقيقة فيما وراء الحس نظرية أو فكر مستحيلة »[1]

وهذا يتفق المذهب العقلى مع المذهب التجريبى فى البعد عن الله وتجنب البحث عن الغاية من الخلق، والنظر فى الطبيعة بدلا من النظر فيما وراء الطبيعة أى فى عالم الحس بدلا من عالم الغيب.

قلت: ولكن العقل.. والمنطق العقلي.. يقتضي وجود الله.. بل وجود كمالات الله.

قالت: إن رد فعل العقلانيين على الكنيسة جعلهم ينفرون من الإله نفورا كليا.

قلت: فبم استبدلوه؟

قالت: بالطبيعة.. لقد حلت الطبيعة محل الإله.. كما يقول (سول):« صار لزاماً على الذين نبذوا الإيمان بالله كلية أن يبحثوا عن بديل لذلك ووجدوه في الطبيعة»[2]

وكتب الفكر الغربي تسمي ذلك العصر عصر (تأليه الطبيعة)، أو عبادة الطبيعة، وليست هذه العبارات مجازاً، بل هي مستعملة على الحقيقة تماماً، فكل صفات الله التي عرفها الناس عن المسيحية نقلها فلاسفة الطبيعة إلى إلههم الجديد، مع فارق كبير بين الإلهين في نظرهم.

فإله الكنيسة حقود يعذب السلالة البشرية ويقتل ابنه لأن الإنسان الأول أكل فاكهة من حديقته.. وهو إله متعنت يضع القيود الاعتباطية على حرية الإنسان ويقيده بالالتزامات ويفرض عليه الرهبانية والخضوع المذل لممثليه على الأرض.

أما الطبيعة فإله جذاب رحب الصدر ليس له كنيس ولا التزامات ولا يستدعي طقوساً ولا صلوات، وكل ما يطالب به الإنسان أن يكون إنساناً طبيعياً يلبي مطالبه الطبيعية في وضوح وصراحة.

وميزة الإله الجديد أنه ليس له رجال دين ــ كما للكنيسة ــ يستعبدون الناس لأنفسهم.. ولا كتاب مقدس متناقض.. ولا أسرار علياً مقدسة.. بل له دعاة من أمثال روسو وفولتير وديدرو.. وله كتب علمية هي (دائرة المعارف) و(العقد الاجتماعي) و(روح القوانين)

والقانون الطبيعي يجعل الكون مترابطاً متناسقاً لا اضطراب فيه ولا خلل، وبالمقابل جعلت الطبيعة للإنسان قانوناً يكفل له السعادة التامة ولكن النظم الإنسانية والأديان طمست هذا القانون فشقي الإنسان وتعذب.

تلك هي المبادئ الأولى للمذهب الطبيعي الذي تبلور ليصبح ديناً إنسانياً عند (كومت) في القرن التاسع عشر، وعنه انبثقت الماديات المتعددة التي تفسر الكون تفسيراً آلياً حسب القوانين التي سميت (قوانين الطبيعة)

قلت: فكيف بدأ ذلك؟

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص.

(٢) جورج سول: المذاهب الاقتصادية الكبرى: ٥١.

قالت: لم يبدأ ذلك دفعة واحدة بطبيعة الحال.. لقد انفصلت الفلسفة عن الدين بادئ ذى بدء ونبذت البحث فيما وراء الطبيعة كما كانوا يطلقون على أمور الغيب المتعلقة بالله وخلقه لهذا الكون، والغاية من هذا الخلق، والوحى الربانى المتضمن للقيم الدينية التى ينبغى أن يتبعها الإنسان من أجل الخلاص فى الآخرة.

واتجهت الفلسفة إلى دراسة الطبيعة والكون المادى، والإنسان باعتباره كائنا موجودا فى الطبيعة، لا بوصفه كائنا قد خلقه الله لغاية معينة وهدف يؤديه.

وكان التقدم العلمى الذى حدث منذ بدء النهضة أحد العوامل الهامة التى ساعدت على اتجاه الفكر الأوربى ذلك الاتجاه من خلال المذهب العقلى والتجريبى.

وقد بدأ ديكارت ــ أولا ــ بتطبيق المنهج العقلي في الفكر والحياة، واستثنى من ذلك الدين والعقائد الكنسية والنصوص المقدسة وكان يرى أن ميدان العلم الطبيعة، وموضوعه استغلال القوى الطبيعية وأدواته الرياضة والتجربة، ويختص الدين بمصائر النفس في العالم الآخر، ويعتمد على الاعتقاد والتسليم، فلا مضايقة بين العلم والدين، ولا سلطان لاحدهما على الآخر [1].

ومع ذلك فقد وجد فلاسفة آخرون معاصرون لهؤلاء لم ترق لهم هذه الفلسفة، بل أغرتهم تفاهة آراء الكنيسة وحقدهم عليها أن يهاجموا التعاليم الدينية هجوماً مباشراً.

ثم كان نيوتن ونظرياته خطوة دافعة على الطريق..

فقد اكتشف نيوتن بعض ما سمى عندهم (قوانين الطبيعة) التى يجرى الكون المادى بمقتضاها.. وكشف عما يسمى عندهم (قانون السببية) أى القانون الذى يفسر ظواهر الطبيعة بردها إلى أسبابها الظاهرة، وقد كان هذا فى أوروبا ذريعة لنفى الأسباب غير الظاهرة وغير المحسوسة، أى نفى الأسباب الغيبية.

يقول برينتون:« إن السببية تهدم كل ما بنته الخرافات والإلهامات والمعتقدات الخاطئة فى هذا العالم »

ويقول:« الإله فى عرف نيوتن أشبه بصانع الساعة، ولكن صانع هذه الساعة الكونية – ونعنى بها الكون – لم يلبث أن شد على رباطها إلى الأبد، فبإمكانه أن يجعلها تعمل حتى الأبد، أما الرجال على هذه الأرض

---

(١) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة: اميل بوترو / ١٩، وتتلخص نظريته في الاعتقاد بوجود منبعين للتصورات: احدهما الاحساس، فنحن نتصور الحرارة والنور والطعم والصوت لأجل احساسنا بذلك كله، والآخر الفطرة بمعنى أن الذهن البشري يملك معان وتصورات لم تنبثق عن الحس وإنما هي ثابتة في صميم الفطرة، فالنفس تستنبط من ذواتها.

وهذه التصورات الفطرية عند (ديكارت) هي فكرة (الله والنفس والامتداد والحركة) وما إليها من أفكار تتميز بالوضوح الكامل في العقل البشري.وهذه الازدواجية الديكارتية وجدت لها نظيراً في منهج بيكون التجريبي الذي قال عنه أندرسن:« إن أعظم مآثر بيكون الفصل بين العلم البشري والوحي الإلهي »، فعند بيكون يمكن أن تكون أي قضية خاطئة تماماً في نظر العقل، ولكنها صحيحة تماماً لأنها نظر الدين.

والواقع أن المذهب الازدواجي ليس إلا مرحلة طبيعية في سلم التدرج من الإيمان المطلق بالوحي إلى الإنكار المطلق له (راجع: مدخل الى فلسفة ديكارت ــ سلسلة المكتبة الفلسفية رقم ٥ منشورات عويدات)

فقد صمموهم الإله كأجزاء من آلته الضخمة هذه ليجروا عليها، وإنه ليبدو أن ليس ثمة داع أو فائدة من الصلاة إلى الإله صانع هذا الساعة الكونية الضخمة، الذى لا يستطيع إذا ما أراد التدخل فى شئون عمله»[1]

ويقول:« ولكن ثمة أناس ذهبوا إلى أبعد من ذلك، واعتبروا فكرة الإله فكرة شريرة، وخاصة إذا ما كان إله الكنيسة الكاثوليكية، وأطلقوا على أنفسهم بكل فخر اسم الملحدين، وهم يعتقدون أن ليس ثمة وجود لمسيح أو لإله المسيحية، ويقولون إن الكون ليس إلا مجموعة متحركة ذات نظام معين يمكن فهمه باللجوء إلى السببية المعتمدة على أساس العلوم الطبيعية »[2]

ويقول راندال:« إنه لأقرب إلى الطبيعى والمعقول أن نشتق من صور المادة كل شئ موجود، لأن كل حاسة من حواسنا تبرهن على وجودها، ونختبر كل لحظة نتائجها بأنفسنا، ونراها فاعلة متحركة، تنقل الحركة وتولد القوة دون انقطاع، من أن نعزو تكون الأشياء لقوة مجهولة ولكائن روحى لا يستطيع أن يخرج من طبيعته ما ليس هو بذاته، كائن بعجز بحكم الجوهر المنسوب إليه أن يفعل أى شئ أو أن يحرك أى شئ»[3]

هكذا سار الاتجاه المادى الملحد بخطوات حثيثة حتى جاء القرن التاسع عشر، فظهرت الفلسفة الوضعية التى تقول بسيادة الطبيعة على الدين والعقل، واعتبارها هى الأصل الذى ينبثق عنه كل شئ.. والذى يبعث الأفكار فى العقل البشرى، وكان من أهم فلاسفتها (أوجست كومت) و(فرباخ)

لقد قدم الدكتور محمد البهى خلاصة هذه الفلسفة، فقال:« إن هذه الفلسفة تدعو إلى سيادة الطبيعة، إن لم نقل عبادتها، قد قامت فى جو معين حيث تولدت الرغبة فى نفوس كثير من العلماء والفلاسفة لمعارضة الكنيسة التى كانت تملك نوعا خاصا من المعرفة تستغله فى معارضة خصومها وهى المعرفة الدينية، فقام هذا الفريق من العلماء والفلاسفة بالهجوم الشديد عليها باسم العلم، وقامت هذه الفلسفة الوضعية على أساس تقدير الطبيعة وحدها مصدرا للمعرفة اليقينية.

ومعنى تقديرها للطبيعة على هذا النحو أن الطبيعة فى نظرها هى التى تنقش الحقيقة فى ذهن الإنسان، وهى التى توحى بها وترسم معالمها.. هى التى تكون عقل الإنسان، والإنسان – لهذا – لا يملى عليه من ذاته الخاصة.. إذ ما يأتى من (ما وراء الطبيعة) خداع للحقيقة وليس حقيقة!! وكذا ما يتصوره العقل من نفسه وهم وتخيل للحقيقة وليس حقيقة أيضا!

وبناء على ذلك يكون الدين، وهو وحى (أى ما بعد الطبيعة) خداعا.. ومثلها (المثالية العقلية).. كل ذلك وهم لا يتصل بحقيقة هذا الوجود الطبيعى، إذ هى تصورات الإنسان من نفسه من غير أن يستلهم فيها الطبيعة المنثورة التى يعيش فيها وتدور حوله »[4]

---

(١) منشأ الفكر الحديث ص ١٥١.

(٢) منشأ الفكر الحديث ص ١٥٢.

(٣) تكوين العقل الحديث ج١، ص ٤٣٩.

(٤) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى الطبعة الثانية. ص ٢٩٨ – ٢٩٩، بتصرف.

أما إن عقل الإنسان فى منطق هذه الفلسفة — أى ما فيه من معرفة — فهو وليد الطبيعة التى تتمثل فى الوراثة والبيئة والحياة الاقتصادية والاجتماعية.. إنه مخلوق، ولكن خالقه هو الوجود الحسى.. إنه يفكر، ولكن عن تفاعل مع الوحود المحيط به.. إنه مقيد مجبر، وصانع القيد والجبر هو حياته المادية. ليس هناك عقل سابق على الوجود المادى، كما أنه ليست هناك معرفة سابقة للإنسان عن طريق الوحى.. عقل الإنسان ومعرفته يوجد أن تبعا لوجود الإنسان المادى هما انطباع لحياته الحسية المادية التى يتنفسها[1].

نظرت إلى عناقيد العنب بحزن، وقالت: لم تكن هذه هي النظريات الوحيدة التي فصل فيها العلم عن الله وعن الإنسان وعن الحقائق..

لقد ظهر دجالون كثيرون.. لا تزال سموم فلسفاهم تنتشر في مدارسنا وجامعاتنا..

قلت: إلى أن ظهر ماركس فرعون الإلحاد ليبشر بالجدلية المادية.. والتفسير المادي للكون.

قالت: لقد لقد ظهر قبله (فيشته) و(هيجل) ليؤسسا لأقواله..

لقد جاء هذان الدجالان بالتفكير الجدلى الذي يبحث عن تصور فلسفى يسمح بوجود المتناقضات فى الكون والحياة ويفسرها.. ذلك أن المنطق اليونانى القديم (الذى يسمى المنطق الصورى) ينفى وجود التناقض فى الكون والحياة، ويقيم تفكيره على أساس أن الشئ ونقيضه لا يمكن أن يجتمعا، فوجود أى شئ هو ذاته نفى قاطع لوجود نقيضه.

ولكن الفكر الأوروبى منذ عصر النهضة — وأن كان قد رجع إلى الفكر الإغريقى يستمد منه ــ كانت له التفاتات مختلفة عنه فى مجالات متعددة. حتى إذا كان النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى ــ عصر سيادة العقل فى الفكر الأوربى قام فلاسفة يشيرون إلى وجود التناقض فى الكون والحياة ويحاولون تفسيره، من أبرزهم (فيشته) و(هيجل)

فأما فيشته (١٧٦٢ — ١٨١٤ م)، فقد استخدم مبدأ النقيض كى يدعم سيادة العقل كمصدر للمعرفة مقابل الدين والطبيعة.

وأما هيجل (١٧٧٠ — ١٨٣١)، فيستخدم مبدأ النقيض لتأكيد قيمة العقل من جهة، ثم لدعم فكرة الألوهية من جديد، وتأكيد الوحى كمصدر أخير للمعرفة، وهو يعتبر الله عقلا [2].

وقد تصور أن هناك فكرة مطلقة أطلق عليها اسم العقل المطلق ــ وهو الله عنده ــ انبثقت عنه الطبيعة وهى تغايره تماما، لأنها مقيدة ومتفرقة وهى عنده العقل المقيد، ثم انتقلت الفكرة من الطبيعة أو العقل المقيد إلى جامع يلتقى فيه الشئ ونقيضه، وهو العقل المجرد الذى هو نهاية الطبيعة المحدودة وغايتها، وهو جامع الدعوى ومقابلها.

وهذا العقل المجرد يتمثل فى القانون والأخلاق، وفى الفن والدين والدولة والجماعة والفلسفة.. إذن فالعقل

---

(١) المرجع السابق:٢٩٩.

(٢) عن الفكر الإسلامى الحديث ص ٢٨٩ بتصرف.

المجرد الذى يتحقق فى أى وحدة من هذه القيم العاملة المذكورة جامع للمتقابلين: جامع للفكرة فى العقل المطلق وهو الله، وللفكرة فى العقل المقيد وهو الطبيعة.. ذلك أنه ليس له إطلاق العقل المطلق ولا تحديد عقل الطبيعة، بل فيه إطلاق بالنسبة إلى الطبيعة وتقييد بالنسبة للعقل المطلق، ولذا يعتبر جامع الدعوى ومقابل الدعوى.

بالإضافة إلى هذين، فقد استلهم ماركس نظرية التطور.. فقد جاء داريون يؤله الطبيعة ويقول عنها إنها تخلق كل شئ ولا حد لقدرتها على الخلق.. ويؤكد أن الإنسان هو نهاية سلسلة التطور الحيوانية.. وأن التطور ذاته — الذى أنشأ الحياة المادية الميتة أول مرة، ثم تدرج بها من الكائن الوحيد الخلية إلى الإنسان — هو نتيجة أسباب مادية بحتة، وأنه يتم مستقلا عن إرادة الكائن الحى، وبصورة حتمية لا يملك الكائن الحى الخروج عليها ولا معارضتها ولا الوقوف فى طريقها.

المادية:

قلت: فهمت هذا ووعيته.. فهل أورثت هذه الجاهلية الثانية جاهلية أخرى؟

نظرت إلى عناقيد العنب بألم وقالت: أجل.. ولدت هذه الجاهلية التي توشحت بوشاح العقل، فلسفات أخرى، كلها امتلأت بها جميع علومنا ومدارسنا.. وكلها حولت هذه العناقيد الطاهرة خمرا معتقة يخرج من إنسانيته كل من اقترب منها.

قلت: ما هي هذه الفلسفات؟

قالت: كلها فلسفات مادية تحتقر الإنسان، وتحتقر ما أنيط به من وظائف، بل تحتقر الكون وتملؤه بالخراب..

قلت: لم وصفتها بالمادية[1]؟

قالت: لأنها كالدجال لا ترى إلا بعين واحدة.. فجميع نظريات العلوم الإنسانية التي تتضمنها المناهج الدراسية الحديثة نظريات مغلوطة وناقصة وقائمة على المفهوم المادي الذي لا يؤمن بالأديان المترلة، ولا بالقيم الأخلاقية المرتبطة بالدين.

وهي تقوم في مجموعها على مفهوم زائف وباطل هو أن البيئة هي التي تخلق تراثها، وهي التي يرجع إليها الفضل في تنشئة الفرد وتوجيهه والإشراف على سلوكه.

ومعنى هذا إنكار الدور الذي يقوم به الدين في تكوين الأفراد وتجاهل وجود الدين كلية أو اعتباره قد خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها، على حد تعبير دوركايم.

لقد عمد دوركايم (بوضعه أبرز منظري علم الاجتماع) إلى إقامة منهج التشكيك في القيم والمثل والعقائد والأخلاق من منطلق مفهوم قوامه أن كل الظاهر نسبية متغيرة متبدلة، لا تثبت على حال ولا تستقر على وضع لأنها في كل يوم يتبدل الحال بحال.

ليس هذا خاصا بعلم الاجتماع.. بل صار هذا قاعدة مضطردة في كل مجالات دراسات الاجتماع

---

(١)انظر: تجاوزات العلوم الاجتماعية والإنسانية لمفهوم الفطرة والعلم، أنور الجندي.

والنفس والأخلاق وتاريخ الأديان.

قلت: ولكن العلوم التي نشرتها هذه الحضارة ليست هي العلوم الإنسانية وحدها.. بل هناك علوم كثيرة نشأ عنها هذا الترف الذي يعيشه أهل هذا العصر.

قالت: بما أن العلوم الإنسانية هي الأساس الفكري الذي يملأ عقول المكتشفين والمخترعين، فإنهم راحوا بما أملى عليهم أولئك الدجالون يسخرون سلاح العلم ليقتلوا به الإنسان، ويدمروا به الأكوان..

إن أنواع الأسلحة التي تنشر الصراع على الأرض.. وأنواع الدمار التي قتلت الحياة فيها.. كل ذلك سببه تلك المفاهيم التي بني على أساسها العلم الذي تحول إلى معول لهدم الحياة وهدم الإنسان.

٢ ـــ علوم الإسلام

قلت: عرفت الجاهلية وعلوم الجاهلية.. فحدثيني عن الإسلام.. ولماذا لم يحصل للمسلمين ذلك الفصام الأسود بين علومهم وبين الإسلام.

قالت: لأن الإسلام هو دين العلم والعقل والتجربة والمنطق.. وكل ما توصلت إليه البشرية من مناهج البحث عن الحقيقة..

فلئن كانت المسيحية تعتمد على الإيمان المجرد.. فإن الإسلام يعتمد على العقل والمنطق.. ويحث على طلب العلم الذي يغذى به العقل والمنطق.

التعميم:

ولئن كانت المسيحية جعلت العلم محصورا في طائفة محدودة.. فإن الإسلام أمر بتعميمه على الكل.. فالعلم في الإسلام ركن من أركان الدين لا يقل عن الإيمان والشعائر التعبدية: فالتعرف على الله الذي هو جوهر الدين وأصله وغايته وموضوعه يحتاج إلى العلم..:﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾(محمد: من الآية١٩)

ولهذا كان أول أمر من أوامر هذا الدين هو:﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق:١)، ثم كرر هذا الأمر في قوله:﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ (العلق:٣)

والقرآن يعتبر وظيفة الرسل هي وظيفة المعلمين:﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ (آل عمران:١٦٤)

وأخبر أن كل الأنبياء جاءوا أقوامهم بالبينات، وهي العلوم الواضحات التي قويت أدلتها..﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ (ابراهيم:٩)

بل إن القرآن فوق ذلك كله أخبر عن مزية الإنسان التي أهلته للخلافة في الأرض، وأهلته للتكريم الرباني، فقال يقص قصة بداية خلق الإنسان:﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة: ٣١ ـــ ٣٣)

انطلاقا من هذا وردت النصوص الكثيرة عن محمد بالحض على العلم والترغيب فيه ورفع مكانة أهله، فقد أخبر بأن العلم نوع من أنواع العبادة، بل هو من أفضلها:، فقال:« أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الْفِقْهُ، وَأَفْضَلُ الدِّينِ الْوَرَعُ »[1]

---

(١) رواه الطبراني في معاجيمه الثلاثة وفي إسناده محمد بن أبي ليلى.

وصرح بذلك فقال :« فَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ »[1]، وقال:« قَلِيلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ الْعِبَادَةِ، وَكَفَىٰ بِالْمَرْءِ فِقْهاً إذَا عَبَدَ اللَّهَ، وَكَفَىٰ بِالْمَرْءِ جَهْلاً إذَا أُعْجِبَ برأْيِهِ»[2]، وقال:« مَا عُبِدَ اللَّهُ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ فِقْهٍ فِي دِينٍ وَلَفَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ عِمَادٌ وَعِمَادُ هٰذَا الدِّينِ الْفِقْهُ »[3]

وقايس بين بعض النوافل وبين طلب العلم، فقال لأبي ذر، وقد رأى حرصه على النوافل:« يَا أَبَا ذَرٍّ لأَنْ تَغْدُوَ فَتَعَلَّمَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ مِائَةَ رَكْعَةٍ، وَلأَنْ تَغْدُوَ فَتَعَلَّمَ بَاباً مِنَ الْعِلْمِ عُمِلَ بِهِ أَوْ لَمْ يُعْمَلْ بِهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ أَلْفَ رَكْعَةٍ»[4]

وأخبر أن تعليم العلم لا يختلف عن الصدقات، فقال:« أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ عِلْماً ثُمَّ يُعَلِّمَهُ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ »[5]

ويروى أنه ذُكِرَ له رَجُلاَنِ: أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ:« فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ »، ثُمَّ قَالَ: « إنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ، وَأَهْلَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ »[6]

وطلب العلم لذلك دليل على خيرية العبد الطالب للعلم، بل دليل على اجتباء الله له، قال:« مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[7]، وقال:« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، والْفِقْهُ بِالتَّفَقُّهِ، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَ ﴿ إِنَّمَا يَخْشَىٰ اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨) »[8]

وهذا الاجتباء هو الذي يؤهله للجنة ولهذا التكريم الذي أخبر محمد عنه، قال محمد وهو يعدد فضل طالب العلم:« مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقاً إلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضاً بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا

---

(١) الطبراني في الأوسط، والبزار بإسناد حسن.

(٢) الطبراني في الأوسط وفي إسناده إسحاق بن أسيد وفيه توثيق لين، ورفع هذا الحديث غريب، قال البيهقي: ورويناه صحيحاً من قول مطرف بن عبد الله بن الشخير ثم ذكره.

(٣) الدارقطني والبيهقي.

(٤) ابن ماجه بإسناد حسن.

(٥) رواه ابن ماجه بإسناد حسن من طريق الحسن عن أبي هريرة.

(٦) الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، ورواه البزار من حديث عائشة مختصراً قال: «مُعَلِّمُ الْخَيْرِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْبَحْرِ».

(٧) البخاري ومسلم وابن ماجه.

(٨) الطبراني في الكبير، وفي إسناده راوٍ لم يسمّ.

دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ »[1]

وقال:« مَا مِنْ رَجُلٍ تَعَلَّمَ كَلِمَةً، أَوْ كَلِمَتَيْنِ، أَوْ ثَلاَثاً، أَوْ أَرْبَعاً، أَوْ خَمْساً مِمَّا فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَيَتَعَلَّمُهُنَّ وَيُعَلِّمُهُنَّ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ »[2]

ويخبر عن بعض صور التكريم التي يقابل بها الملأ الأعلى أهل العلم، فَعَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ الْمُرَادِيِّ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ مُتَّكِيءٌ عَلَى بُرْدٍ لَهُ أَحْمَرَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي جِئْتُ أَطْلُبُ الْعِلْمَ، فَقَالَ: « مَرْحَباً بِطَالِبِ الْعِلْمِ إِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ تَحُفُّهُ الْمَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً حَتَّى يَبْلُغُوا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِنْ مَحَبَّتِهِمْ لِمَا يَطْلُبُ »[3]

بل إن محمدا يرفع درجة أهل إلى درجة الأنبياء، فيقول:« مَنْ جَاءَهُ أَجَلُهُ وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لَقِيَ اللَّهَ وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّينَ إِلاَّ دَرَجَةُ النُّبُوَّةِ »[4]

أما الأجور المعدة لأهل العلم، فإنها أضعاف مضاعفة، قال محمد:« مَنْ طَلَبَ عِلْماً فَأَدْرَكَهُ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ كِفْلَيْنِ مِنَ الأَجْرِ، وَمَنْ طَلَبَ عِلْماً فَلَمْ يُدْرِكْهُ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ كِفْلاً مِنَ الأَجْرِ »[5]

ومن أكبر ميزات أجر العلم أن أجره غير منقطع، قال محمد:« إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ »[6]

وفي حديث آخر مفصل، قال محمد:« إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْماً عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ وَوَلَداً صَالِحاً تَرَكَهُ أَوْ مُصْحَفاً وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِداً بَنَاهُ أَوْ بَيْتاً لاِبْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهَراً أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ تَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ »[7]

وقد ورد وصف مفصل لفضل العلم وفضل أهله اختلف في رفعه ووقفه، وكلا الأمرين سواء، فالصحابة لم يتربوا إلا على يدي محمد، فعن معاذ بن جبل قال:« تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ، فَإِنَّ تَعَلُّمَهُ لِلَّهِ خَشْيَةٌ وَطَلَبَهُ عِبَادَةٌ، وَمُذَاكَرَتَهُ تَسْبِيحٌ، وَالْبَحْثَ عَنْهُ جِهَادٌ، وَتَعْلِيمَهُ لِمَنْ لاَ يَعْلَمُهُ صَدَقَةٌ، وَبَذْلَهُ لأَهْلِهِ قُرْبَةٌ لأَنَّهُ مَعَالِمُ الْحَلاَلِ

---

(١) أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي، وقال الترمذي: لا يعرف إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة، وليس إسناده عندي بمتصل، وإنما يروى عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن داود بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء عن النبيّ وهذا أصح. الترغيب والترهيب: ١/٥٩.

(٢) أبو نعيم، وإسناده حسن لو صح سماع الحسن من أبي هريرة.

(٣) أحمد والطبراني بإسناد جيد واللفظ له، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وروى ابن ماجه نحوه باختصار.

(٤) الطبراني في الأوسط.

(٥) الطبراني في الكبير، ورواته ثقات وفيهم كلام.

(٦) مسلم وغيره.

(٧) ابن ماجه بإسناد حسن والبيهقي، ورواه ابن خزيمة في صحيحه مثله إلا أنه قال: أَوْ نَهَراً كَرَاهُ، وقال: يعني حفره و لم يذكر المصحف.

وَالْحَرَامِ وَمَنَارُ سُبُلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَهُوَ الأَنِيسُ فِي الْوَحْشَةِ، وَالصَّاحِبُ فِي الْغُرْبَةِ، وَالْمُحَدِّثُ فِي الْخَلْوَةِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، وَالسِّلاَحُ عَلَى الأَعْدَاءِ وَالزَّيْنُ عِنْدَ الأَخِلاَّءِ، يَرْفَعُ اللَّهُ بِهِ أَقْوَاماً فَيَجْعَلُهُمْ فِي الْخَيْرِ قَادَةً قَائِمَةً تُقْتَصُّ آثَارُهُمْ وَيُقْتَدَىٰ بِفِعَالِهِمْ، وَيُنْتَهَىٰ إِلَى رَأْيِهِمْ، تَرْغَبُ الْمَلاَئِكَةُ فِي خَلَّتِهِمْ، وَبِأَجْنِحَتِهَا تَمْسَحُهُمْ، وَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ، وَحِيتَانُ الْبَحْرِ وَهَوَامُّهُ، وَسِبَاعُ الْبَرِّ وَأَنْعَامُهُ لأَنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْجَهْلِ، وَمَصَابِيحُ الأَبْصَارِ مِنَ الظُّلَمِ، يَبْلُغُ الْعَبْدُ بِالْعِلْمِ مَنَازِلَ الأَخْيَارِ وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَىٰ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، التَّفَكُّرُ فِيهِ يَعْدِلُ الصِّيَامَ، وَمُدَارَسَتُهُ تَعْدِلُ الْقِيَامَ، بِهِ تُوصَلُ الأَرْحَامُ وَبِهِ يُعْرَفُ الْحَلاَلُ مِنَ الْحَرَامِ، وَهُوَ إِمَامُ الْعَمَلِ، وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ، يُلْهَمُهُ السُّعَدَاءُ، وَيُحْرَمُهُ الأَشْقِيَاءُ»[1].

نظرت إلي، وقالت: أتدري من قال هذه النصوص.. إنه رجل لم يدخل مدرسة ولا جامعة.. و لم يكتب حرفا واحدا.. و لم يقرأ رسالة واحدة.. ومع ذلك شاء الله أن تقوم على يده أكبر نهضة علمية عرفتها البشرية.

قلت: ما تقولين؟

قالت: منذ قال محمد تلك النصوص هرعت كل أمة محمد تنهل من العلم صغارها وكبارها ورجالها ونساؤها.. حتى الشيوخ الكبار كانوا يحتضرون، وهم يطلبون العلم.

روى صالح بن أحمد بن حنبل، قال: رأى رجل مع أبي محبرةً، فقال له: يا أبا عبد الله، أنت قد بلغت هذا المبلغ، وأنت إمام المسلمين؟ يعني: ومعك المحبرة تحملها؟! فقال:« مع المحبرة إلى المقبرة »[2]

وقال محمد بن إسماعيل الصائغ: كنت في إحدى سفراتي ببغداد، فمر بنا أحمد بن حنبل وهو يعدو، ونعلاه في يده، فأخذ أبي هكذا بمجامع ثوبه، فقال: يا أبا عبد الله، ألا تستحي؟ إلى متى تعدو مع هؤلاء الصبيان؟ قال:« إلى الموت »[3]

في ذلك الوقت الذي كنا فيه عبيدا للكنيسة وفلاحين عند رجال الدين، وكان الرهبان عندنا يتقربون إلى الله بالجهل.. كان المسلمون يتنافسون في بناء المدارس والمكتبات والجامعات، ويعتبرون ذلك من أقرب القرب إلى ربهم [4].

فانتشرت الكتاتيب التي تمثل المدارس الابتدائية التي تقام لتعليم الصبيان القراءة، والكتابة، والقرآن وبعض العلوم العربية، والرياضيات، وقد وجدت هذه الكتاتيب قديماً في الإسلام، وقد ذكر بعض المؤرخين أنها وجدت في عصر الصحابة، وكانت من الكثرة بحيث عد ابن حوقل ثلاثمائة كتاب في مدينة واحدة من مدن صقلية[5].

---

(١) رواه ابن عبد البر في كتاب العلم قال المنذري: ورفعه غريب جدًّا.

(٢) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي، ص ٣١.

(٣) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي، ص ٣٢.

(٤) انظر: استفدنا المعلومات الواردة هنا من كتاب: الأوقاف في العصر الحديث، كيف نوجهها لدعم الجامعات وتنمية مواردها (دراسة فقهية)، د/ خالد بن علي بن محمد المشيقح.

(٥) ينظر: معجم البلدان ٤١٧/٣، ٤١٨.

وكان الكُتّاب في بعض البلدان من السعة بحيث يضم مئات وآلافاً من الطلاب، ومما يروى عن أبي القاسم البلخي أنه كان له كتاب يتعلم به ثلاثة آلاف تلميذ، وكان كتابه فسيحاً جداً، ولذلك كان أبو القاسم يحتاج إلى أن يركب حماراً ليتردد بين طلابه وليشرف على شؤونهم [1]

وكانت هذه الكتاتيب جميعا تمول بأموال المحسنين الذين يجعلونها وقفا لوجه الله.

بالإضافة إلى هذا.. فقد كانت أموال الموقفين تتوجه لبناء المدارس الكبار.. والتي بدأ إنشاؤها بعد أن استقرت حركة الفتوحات الإسلامية نسبياً، وبعد أن تضاعف إقبال طلاب العلم على حلقات المساجد.

وقد كثر بناء هذه المدارس حتى ملأت مدن العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، ويذكر التاريخ نفراً من أمراء المسلمين كانت لهم اليد الطولى في إنشاء المدارس في مختلف الأمصار، منهم صلاح الدين الأيوبي الذي أنشأ المدارس في جميع المدن التي كانت تحت سلطانه في مصر، ودمشق، والموصل، وبيت المقدس.

ومنهم نور الدين الشهيد الذي أنشأ في سورية وحدها أربعة عشر معهداً.

ومنهم نظام الملك الوزير السلجوقي الذي ملأ بلاد العراق وخراسان بالمدارس حتى قيل: إنه في كل مدينة في العراق وخراسان مدرسة، وكان هذا الوزير كلما وجد في بلدة عالماً تميز وتبحر في العلم بنى له مدرسة ووقف عليها وقفاً، وجعل فيها دار كتب.

وبجانب هؤلاء العظماء كان الأمراء والأغنياء، والتجار يتسابقون في بناء المدارس والوقوف عليها بما يضمن استمرار وإقبال الطلاب على الدراسة فيها، وكثيرون جداً هم الذين جعلوا بيوتهم مدارس وجعلوا ما فيها من كتب وما يتبعها من عقار وقفاً على طلاب العلم الدارسين فيها.

حتى إن ابن جبير الرحالة الأندلسي هاله ما رأى في المشرق من كثرة المدارس والغلات الوافرة التي تغلها أوقافها، فدعا المغاربة أن يرحلوا إلى المشرق لتلقي العلم[2].

ويكفي برهاناً على كثرة أوقاف المدارس والمساجد في دمشق أن النووي لم يكن يأكل من فواكه دمشق طيلة حياته؛ لأن أكثر غوطتها وبساتينها أوقاف.

وإذا كانت دمشق قد اشتهرت بكثرة مدارسها والأوقاف التي حبست عليها، فإن غيرها من الحواضر الإسلامية كبغداد، وقرطبة، والكوفة، والبصرة، والقيروان، والقاهرة كثرت فيها المدارس.. وكل ذلك جاء ثمرة من ثمرات الأموال الموقوفة التي خصصت للدراسة العلمية.

وقد وصف ابن خلدون ما شاهده في القاهرة من التطور العلمي والحضاري، فذكر أن هذا التطور مرده إلى الأموال الموقوفة من أراض زراعية ومبان وبيوت وحوانيت، وأن هذه الأموال التي حبست على المؤسسات التعليمية في القاهرة أدت إلى أن يفد إلى هذه المدينة طلبة علم وعلماء من مغرب العالم الإسلامي ومن مشرقه في

---

(١) مجلة الوعي الإسلامي عدد (٣٨٢) ص٣٧.

(٢) انظر: رحلة ابن جبير ص١٥-١٦.

سبيل الحصول على العلم المجاني، وبذلك نما العلم وازدهر في مختلف الفروع والتخصصات[1].

وكانت الدراسة في تلك المدارس تشبه الدراسة الثانوية والعالية في عصرنا الحاضر، وكان التعليم فيها لجميع أبناء الأمة دون تفرقة بين فئة وأخرى، وكان الطلاب الذين يدرسون فيها نوعين:

النوع الأول: الغرباء الذين وفدوا من بلاد نائية ويدخل مع هؤلاء الذين لا تساعدهم أحوالهم المادية أن يعيشوا على نفقات آبائهم، وكان لهذا النوع من الطلاب غرف خصة للنوم ومكتبة ومطبخ وحمام، وهو قسم داخلي.

والنوع الثاني من الدارسين: يمثلون الطلاب الذين يرغبون في أن يرجعوا في المساء إلى أهليهم وذويهم وهؤلاء في قسم خارجي.

وكلا النوعين يدرس مجاناً، وكانت بعض المدارس بالإضافة إلى ما تقدمه لطلابها من علم ترعاهم صحياً، فقد كان بجوار بعض المدارس مستشفى لعلاج المرضى من الطلاب بالمجان.

وقد عرفت المدارس التخصص العلمي في إنشائها، حيث كانت تقام المدارس لنوع واحد من فروع العلم، ومن ثم كانت هناك مدارس لتدريس القرآن وتفسيره وحفظه وقراءاته، ومدارس للحديث خاصة، ومدارس ــ وهي أكثرها ــ للفقه لكل مذهب فقهي مدرسة خاصة به، ومدارس للطب، وأخرى في كل مجال من مجالات التخصص العلمي.

وقد ذكر ابن كثير في حوادث سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة بعض هذه المدارس، فقال: فيها كَمُلَ بناء المدرسة المستنصرية ببغداد و لم ين مدرسة قبلها، ووقفت على المذاهب الأربعة، من كل طائفة اثنان وستون فقيهاً، وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب، وشيخ حديث، وقارئان وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام، وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد[2].

وقد كانت الدراسة في تلك المدارس مفتوحة لكل راغب في العلم دون قيد أو شرط، وكان طلاب هذه المدارس يتمتعون بكل الرعاية من طعام وشراب وعلاج وإقامة للغرباء والفقراء، وكان الأساتذة الذين يقومون بالتدريس فيها ينتخبون ممن شهد لهم الشيوخ بالكفاءة العلمية، وكان المتخرجون من هذه المدارس يمنحون إجازة علمية باسم شيخ المدرسة، وما كان يسمح للأطباء بممارسة مهنة الطب إلا بعد نيل هذه الشهادة أو الإجازة من كبير أطباء المدرسة.

وقد ألفت في تاريخ المدارس مصادر عدة حاولْت استقراء أعدادها وما يدرس فيها، كالمواعظ والاعتبار للمقريزي (ت٨٤٥هـ).. والأعلاق الخطيرة لابن شداد (ت٦٨٤هـ).. والعقود اللؤلؤية للخزرجي (ت٨١٢هـ).. والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي (ت٩٢٧هـ).. تلخيص مجمع الآداب لابن الفوطي

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون ٨٨/١، والعبر لابن خلدون ص٢٧٩.

(٢) انظر: البداية والنهاية ١٣٩/١٣.

(ت٧٢٣هـ)[١] وكلها وثائق تاريخية تدل على مدى انتشار العلم في أقطار العالم الإسلامي منذ نشر محمد تلك التعاليم السامية.

بالإضافة إلى هذا فقد أدرك المحسنون من المسلمين والواقفون للمدارس، وزوايا العلم، وحلقات الدرس في المساجد أهمية الكتاب لنشر العلم، وأن الاقتصار على تشييد الأبنية وتوفير جهاز للتدريس غير كاف فاهتموا بوقف الكتب عليها لتكون وسيلة ميسرة للتحصيل والمراجعة، توفر مادة علمية يستند إليها المعلم والمتعلم في وقت واحد، فأصبح من المعتاد وجود مكتبة في كل مدرسة، أو جامع، أو رباط وقف على طلبة العلم وغيرهم[٢].

وكان ابتداء وقف الكتب بمكة في القرن الهجري الأول كما في مكتبة عبدالحكيم ابن عمرو الجمحي[٣].

وفي القرن الثاني ظهرت بيت الحكمة ببغداد وكان من بين أقسامها مكتبة حظيت بعناية مجموعة من خلفاء بني العباس وبخاصة المأمون.

ومكتبة بيت الحكمة كان الهدف من وراء إنشائها مساعدة العلماء والباحثين بتوفير أكبر قدر من مصادر المعلومات لهم لتسهيل سبل الدرس والمطالعة والتأليف والترجمة لمن يرغب في ذلك [٤].

وانتشرت خزائن الكتب الوقفية منذ القرن الرابع الهجري، بحيث يمكن القول بأنه قلما تخلو مدينة من كتب موقوفة.

وبلغ من انتشار هذه الخزائن وتوافرها في الأندلس أن أبا حيان التوحيدي النحوي كان يعيب على مشتري الكتب، ويقول:« اللّه يرزقك عقلا تعيش به، أنا أي كتاب أردته استعرته من خزائن الأوقاف» [٥]

ويذكر ياقوت الحموي عن مدينة مرو: أنه كان فيها عشر خزائن للوقف وذلك في القرن السابع الهجري ويقول عنها:« لم أر في الدنيا مثلها كثرة، وجودة، منها خزانتان في الجامع إحداهما يقال لها العزيزية، وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني.. وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد أو ما يقاربها، والأخرى يقال لها الكمالية وبها خزانة شرف الملك المستوفي أبي سعيد محمد بن منصور في مدرسته، وخزانة أخرى في المدرسة العميدية وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها، والخزائن الخاتونية في مدرستها والضميرية في خانكاه هناك وكانت هذه الخزائن سهل التناول لا يفارق منزلي منها مئتا مجلد، وأكثره من غير رهن »[٦]

وقال ابن جبير في رحلته إلى مصر بعد أن اطلع على أحوال مكتباتها ودور العلم فيها وعاش في بعضها،

---

(١) انظر: الوقف وبنية المكتبة العربية ص١٩.

(٢) انظر: الوقف وبنية المكتبة العربية للدكتور يحيى محمود ساعاتي ص٢١.

(٣) الأغاني للأصبهاني ٤/ ٥١.

(٤) الوقف وبنية المكتبة العربية ص٣٢.

(٥) انظر: الوقف وبنية المكتبة العربية ص٣٣.

(٦) انظر: معجم البلدان ٥/ ١١٤.

واستفاد من أموالها الموقوفة:« ومن مناقب هذا البلد ومفاخره ــ أي مصر ــ أن الأماكن في هذه المكتبات خصصت لأهل العلم فيهم، فهم يعتبرون من أقطار نائية فيلقى كل واحد منهم مأوى إليه ومآلاً يصلح أحواله به جميعاً » [1].

وكانت هذه المكتبات بكتبها الوقفية إضافة إلى المكتبات الخاصة مثل مكتبات الخلفاء والأمراء والوزراء والعلماء، وراء حركة الازدهار العلمي التي شهدها العالم الإسلامي على مدى قرون طويلة، فقد اعتمد عليها العلماء وطلاب العلم في دراستهم ومراجعاتهم، ووضع مصنفاتهم.

الانفتاح:

قلت: ولكن الإسلام مع توسعه في الأمر بطلب العلم إلا أنه ضيق في العلم المطلوب.. وفي مصادر العلم المطلوب.. فخصه بما يتعلق بالكتاب والسنة و لم ينفتح على باقي الثقافات.

قالت: الأمر عكس ذلك تماما.. لقد انفتح الإسلام على جميع الثقافات الأجنبية، واستفاد منها، وتعامل معها بإيجابية تامة.. يأخذ منها ما يراه مفيدا، ويرد ما لا يراه صالحا.. لعلم المسلمين أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها، فهو أحق بها.

ففي الوقت الذي قام رجال ديننا بتكفير كل انفتاح علمي كان فقهاء المسلمين يقرؤون الفلسفة اليونانية والثقافة الهندية وجميع أنواع الثقافات.

ولكنهم لا يتعاملون معها تعامل الخاضع الذليل.. بل يتعاملون تعامل الند للند.. يناقشونها مناقشة موضوعية علمية لا نزال نفتقد مثلها.

فلم يقبل المسلمون المنطق الأرسطي، ونقدوه من جميع عناصره، وكونوا لهم منطقًا آخر، هو المنطق الاستقرائي.

فقد أدرك مفكرو الإسلام تمام الإدراك أنه لا بد من وضع منهج في البحث يخالف المنهج اليوناني، حيث أن هذا المنهج إنما هو تعبير عن حضارة مخالفة، وتصور حضاري مختلف، وقد وصل المسلمون إلى فكرة (الخواص) اللازمة لكل ذات، وهي الفكرة التي صبغت المنهج الاستقرائي الحديث بصبغتها الخاصة، وأخذ بها جون استيورت مل وغيره، وأعلن المسلمون أن الإنسان يتوصل إلى القضية الجزئية قبل التوصل إلى القضية الكلية.

واختلف قياس المسلمين عن قياس أرسطو، فاعتبر المسلمون القياس: هو قياس الغائب على الشاهد، فوصلوا إلى اليقين، أما قياس أرسطو الذي هو حركة فكرية ينتقل فيها العقل من حكم كلي إلى أحكام جزئية، فإنه يوصل فقط إلى الظن.

وفي الوقت الذي احتقر فيه اليونان التجريب والتجربة، وجاء منطق أرسطو أكبر معبر عن روح اليونان، رفضه المسلمون إيمانًا بروح الحضارة الإسلامية وروح القرآن الذي دعا إلى وضع منهج ومنطق مختلف في كل

---

(١) ينظر: رحلة ابن جبير ص١٥.

خصائصه عن منطق أرسطو وروح الحضارة اليونانية.

ومنهج القرآن منهج ينأى عن البحث في الشيء ذاته ويدعو إلى البحث في آثاره:« تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا »، وكان ذلك العمل الإسلامي هو مصدر التحول العالمي من النظرة المفكرة للدنيا المعزولة عنها المسقطة للإرادة والتكليف القائمة على التشاؤم والانسحاب والعجز إلى نظرة التكليف والإرادة والبناء والعمل.

وقد صحح المسلمون أغلاط أرسطو وجالينوس وأفلاطون في الفلسفة والعلوم والكثير من أخطاء الفلسفة اليونانية، وأبطل صناعة التنجيم وبطلان القول بأن بعض الكواكب يجلب السعادة، وبعضها يجلب النحس، وعللوا ذلك بأن اليونان أخذوه من غير برهان ولا قياس.. كما قال ابن حزم: زعم قوم أن الفلك والنجوم تعقل، وأنها ترى وتسمع، وهي دعوى باطلة بلا برهان، وصحة الحكم أن النجوم لا تعقل أصلا، وأن حركتها أبدًا على رتبة واحدة، لا تتبدل عنها، وهذه صفة الجماد الذي لا اختيار له، والواقع أنه ليس للنجوم تأثير في أعمالنا، ولا لها عقل تدبرنا به، والنجوم أيضًا لا تدل على الحوادث المقبلة.

وأبان علماء المسلمون ضعف نظام بطليموس ونقط القصور فيه، وقد عكف (التباني) على دراسة بطليموس، وحقق مواقع كثير من النجوم، وصحح حركات القمر والكواكب السيارة، وخالف بطليموس في ثبات الأوج الشمسي، وأنكر الغزالي ما قاله فلاسفة اليونان من أن بالسماء حيوانًا وأن له نفسًا، ونقد الأطباء المسلمون طب اليونان، ورفضوا الأخذ ببعض نظرات أبقراط وجالينوس، ومن طريق التجربة والاختبارات الشخصية، ورفض ابن النفيس قبول نظرية جالينوس عن الدور الذي تلعبه الرئتان في نقل الدم من تجويفة القلب الواحدة إلى الأخرى، وأعلن أنها خاطئة.

قلت: ولكني قرأت كثيرا من المنشورات والكتب التي يصدرها قومنا تذكر أن الثقافة الإسلامية والعلوم الإسلامية مجرد نقل للثقافة اليونانية..

ففي الطب مثلا يقول سانجور وجو داريلانو:« ليس الطب الإسلامي إلا مجموعة ترجمات كتبت باللغة العربية، من قبل فارسيين ويهود ومسيحيين »

ويقول داريمبرغ:« كانت سيطرة الطب الإسلامي في القرون الوسطى سيطرة كاملة في أوروبا. لكن هذا لم يغير جوهر العلم، فقد كان وبقي جالينوسيا فالطب العربي بأجمله، ما هو إلا ترجمة أو بالأحرى تزييف وتزوير للطب الأغريقي »

ويقول بارياتي:« أن الميزة المهمة للطب العربي هو حفظه ونقله للمؤلفات اليونانية العديدة التي كانت منسية في الجزء الأول للقرون الوسطى »

ويقول كاستيجليوني:« إن الطب الإسلامي ما هو إلا الطب اليوناني القديم، لابسا حلة جديدة »

ويقول الكاتب روتر دي روزمون:« ليست المؤلفات العربية إلا ترجمة لكتب ديوسكوريدس وجالينوس وما كان معروفاً في تلك الأيام »

ويقول الكسندرايم:« لقد عادت الحياة إلى المدرسة البيزنطية مع الرازي وابن سينا في القرن العاشر، ومع

الزهراوي في القرن الثاني عشر، ومع ابن رشد في القرن الثالث عشر. والأهمية الكبرى التي نستطيع إعطاءها لهؤلاء العلماء، هو انتقال العلوم اليونانية عن طريقهم إلى مدرسة سالين »

أما باربيون فيقول:« إن رداءة الطب العربي شيء واضح وأكيد. فإننا لا نجد لهم أي اكتشاف في التشريح، وأي تقدم في الفيزيولوجيا. وكل ما نجده هو بعض الكتب في علم جس النبض، ودراسة الحرارة واستعمال بعض الأدوية الجديدة. أما باقي كتبهم فما هي إلا كلام ومناقشات لا معنى لها ولا مضمون »

قالت: أنت تعرف قومنا.. وتعرف أسلوب تفكيرهم، والطريقة التي يبثون بها مواقفهم.. فلذلك لا أحتاج إلى الرد عليهم.. لأنهم يلقون بالمواقف التي تملى عليهم، ولا يلقون بالمواقف التي يجدونها بالبحث الموضوعي.

ولكني أقول لك ــ وخصوصا في هذا الجانب ــ أن المسلمين لم يكتفوا بترجمة المؤلفات اليونانية والهندية، لكنهم أعطوا العالم أطباء بكل معنى الكلمة، وأعطوا للطب شكلاً لم يكن معروفاً من قبل، وكانت مدارسهم مثلاً اقتدى الغرب بها، فجعل جامعاته على نفس النمط، وعلم فيها ما كان يعلم في المدارس الإسلامية.

فمنذ القرن العاشر أخذ الطب بفضل الأطباء المسلمين، شكلاً جديداً لم يكن معروفاً من قبل، لا عند إبقراط ولا جالينوس ولا عند غيرهم، وكان هذا الطب الجديد يرسخ على ثلاث ركائز متينة:

فهو نظام طبي للتعليم والممارسة.. وهو يقوم على تشخيص الأمراض ووصف أمراض جديدة، وله اهتمام بعلم الصيدلة واكتشاب أدوية جديدة.

أما تنظيم التعليم الطبي وممارسة مهنة الطب.. فقد كان هذا التنظيم يعتمد على مدرسة للعلم تعطى فيها الدروس النظرية وتشرح فيها الكتب العلمية، وإلى جانب هذه المدارس، كانت بيوت الكتب تغص بالمؤلفات من كل الأنواع، كما كانت هناك مستشفيات للمرضى، يعطي فيها المعلم الدروس العملية. ومستشفيات بغداد والري وابن طولون أمثلة حية على ذلك.

وكانت هناك قواعد لهذا النظام، فقد كان على من يود ممارسة مهنة الطب، الحصول على أجازه لذلك. وكانت هذه الإجازة، تعطى من قبل لجنة تتشكل من أعضاء لهم خبرة ويرأسها عالم، وكان لهذه اللجنة الحق في سحب الإجازة ممن كانت معلوماتهم غير كافية.

وإلى جانب هذا التنظيم، كان الطب في مضمونه وفي مادته جديداً فكتب الحاوي للرازي، و(الملكي) لابن العباس، والقانون لابن سينا، لم تكن ترجمة لكتب القدماء. بل اعتمد الأطباء المسلمون على تشخيص كل مرض بظواهر عديدة، وعلى اكتشاف ووصف أمراض لم تكن معروفة قبلاً.

وكانت المؤلفات الطبية الإسلامية عديدة وهامة: فموسوعة الحاوي للرازي كانت مؤلفة من ٢٤ كتاباً أو فصلاً وتحتوي على كل المعلومات الطية المعروفة في القرن العاشر.

وكان كتاب القانون لابن سينا مرجعاً طبياً، وبدون منازع، طيلة القرون الوسطى، وإن كان ابن سينا قد لقب في الشرق باسم (الشيخ الرئيس)، فقد كان لقبه في الغرب (أمير الأطباء)

وإلى جانب هذا كان علم الصيدلة منظماً كغيره من العلوم، وللعرب فضل كبير في نهضته وتطوره، فمنذ القرن العاشر، نجد فرقا بين الصيادلة والعطارين ونجد قواعد وقوانين الصيدلة في كتاب (نشاجة الرطبة)، الذي

كتب في سنة١٢٣٦.

وقد انتشر الطب الإسلامي وتطور بسرعة هائلة فكان هناك منذ القرن العاشر أطباء ذوو شهرة واسعة، واستفادت أوروبا كلها من ازدهار الطب الإسلامي عموماً وازدهاره في إسبانيا على الأخص.. فقد كان هناك أوروبيون يدرسون الطب الإسلامي في الجامعات الإسلامية، ومن أشهرهم جيريبر دورياك، جيرار دي كريمونه، ارنو دي فيلنوف وقسطظين الإفريقي..

وأولى هذه المدارس هي مدرسة ساليرن في جنوب إيطاليا، ومن بعدها مدرستي مونبليه وباريس في فرنسا[1].

القيم:

نظرت إلى عناقيد العنب بحزن، ثم قالت: ناحية مهمة تميز بها العلم في الإسلام عن العلم الذي نعاني ويلاته بنفس القدر الذي نتنعم بخيراته.

قلت: ما تقصدين؟

قالت: القيم.. والآداب الرفيعة.. والنيات الصالحة التي كانت تحرك طلبة العلم والعلماء.

لقد بلغ الاهتمام بمزج التربية بالعلم في الإسلام حدا لم تبلغه أي حضارة.

فقد اعتبر الإسلام الإيمان والتقوى والصلاح من أهم خصائص العلماء وطلبة العلم.. وقد وصف القرآن أهل العلم بأنهم يسجدون لله ويخشعون ويبكون حين يسمعون آياته:﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ (الاسراء: ١٠٧ ــ ١٠٩)

قال عبد الأعلى التيمي:« من أوتي من العلم ما لا يبكيه لخليق أن لا يكون أوتي علماً ينفعه، لأن الله تعالى نعت العلماء، ثم قرأ الآيات السابقة »

وقد وصف القرآن العلماء بانهم أهل خشية:﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾(فاطر: ٢٨)

ووصفهم بأنهم يحذرون عذابه ويرجون رحمته:﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (الزمر: ٩)

وفي الحديث عن أبي الدرداء قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال:« هذا أوان يُختَلَسُ العلم من الناس، حتى لا يقدروا منه على شيء »، فقال زياد بن لبيد الأنصاري: يا رسول الله، وكيف يُختَلَسُ منا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنقرأنه ولنقرئه نساءنا وأبناءنا، فقال:« ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا يغني عنهم؟ »

---

(١) انظر: الطب الإسلامي: عامل أساسي في خروج أوروبا من عصر الظلام، الدكتور عبد الرحيم حجازي، موقع: الإسلام ست.

قال جبير: فلقيت عبادة بن الصامت، قال: قلت: ألا تسمع ما يقول أخوك أبو الدرداء، فأخبرته بالذي قال، قال: صدق أبو الدرداء، إن شئت أخبرتك بأول علم يرفع من الناس: الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً »

ولهذا كانوا يقولون:« ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم خشية الله »، وكان مالك يقول:« العلم والحكمة نور يهدي به الله من يشاء، وليس بكثرة المسائل »، وقال:« إن حقّاً على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكون متبعاً لأثر من مضى قبله »

وقيل لسعد بن إبراهيم: من أفقه أهل المدينة؟ قال:« أتقاهم لربه »

قلت: لست أدري كيف تطرحين مثل هذه الطروحات في عصرنا هذا الذي بلغ العلم فيه شأوا بعيدا لم يصله عصر من العصور.

قالت: لأن كل السلبيات التي نعانيها في حياتنا سببها تسخير العلم في خدمة أهواء الشياطين..

تصور لو أن القائمين على برامج التلفزيون والإنترنت وغيرها من وسائل العصر كان لهم من الخشوع والتقوى ما يحول بينهم وبين صناعة الإجرام التي يمارسونها.. أكنت ترى هذا الواقع؟

قلت: لا..

قالت: ولو أن أولئك العلماء الذين مدوا أيديهم للطغاة.. فراحوا يصنعون لهم أحدث الأسلحة وأفتكها.. كانوا ممتلئين تقوى وخشوعا.. أكانوا يقدمون على صناعة تلك الأسلحة؟

قلت: لا..

قالت: ولو أن أولئك العلماء الذين احتكرتهم شركات الأدوية الكبرى ليحولوا من السموم أدوية قاتلة تنشر وهم الصحة الكاذبة كانوا ممتلئين خشوعا أكانوا يقدمون على ذلك؟

قلت: لا..

قالت: ولو أن خبراء التغذية الذين راحوا يتلاعبون بأغذية الله ليحولوها سموما قاتلة كانوا ممتلئين خشوعا أكانوا يقدمون على ذلك؟

قلت: لا..

قالت: ولو أن مهندسي الأزياء ومصممي الموضة كانوا ممتلئين خشوعا أكانوا يقدمون على مثل تلك التصاميم التي تنشر الخراب في المجتمعات؟

قلت: لا..

قالت: فقد رأيت إذن أن كل المصائب التي تعانيها هذه الحضارة سببها انعدام التقوى والخشوع..

ولذلك كان من الثمار العظيمة لشجرة العلوم التي غرسها محمد كونها شجرة مسقية بماء التقوى والورع والإيمان.. فلذلك لم تنحرف بالبشرية عن الفطرة التي خلقها الله عليها.

الرفاه:

قلت: ما ذكرته صحيح.. ولكن ناحية مهمة ربما تكون قد غابت عنك.

قالت: ماهي؟

قلت: نعم.. لقد اهتم الإسلام بالعلم.. ولكن العلم الذي يقصده هو العلم بالدين.. ولذلك لم يهتم المسلمون بعلم الدنيا..

لقد اعتبر الغزالي من أول مواصفات العلماء إدراكهم لحقارة الدنيا بجانب ما أوتوا من العلم، فقال:« إن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ويعلم أنهما متضادتان، وأنهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وأنهما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى، وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ فبقدر ما تصب منه في الآخر حتى يمتلىء يفرغ الآخر. فإن من لا يعرف حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذاتها بألمها ثم انصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل. فإن المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك فكيف يكون من العلماء من لا عقل له؟ ومن لا يعلم عظم أمر الآخرة ودوامها فهو كافر مسلوب الإيمان فكيف يكون من العلماء من لا إيمان له ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة وأن الجمع بينهما طمع في غير مطمع؟ فهو جاهل بشرائع الأنبياء كلهم، بل هو كافر بالقرآن كله من أوّله إلى آخره، فكيف يعدّ من زمرة العلماء؟ ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته فكيف يعد من حزب العلماء من هذه درجته؟ »[1]

ابتسمت، وقالت: إن هذا الكلام العظيم الذي نطق به الغزالي كما نطق به جميع علماء الإسلام هو الذي أعطى لعلوم المسلمين تلك الروحانية العميقة والآداب الرفيعة التي نفتقر إليها.

والغزالي لا يقصد ما فهمته من ترك علوم الدنيا.. لأن الإسلام لا يفرق بين علوم الدنيا وعلوم الدين.. فالدنيا لابد أن تخضع في الإسلام للدين ليقيها من الانحراف.

والغزالي نفسه ــ الذي استندت إليه في ذلك الفهم ــ يعتبر جميع ما نسميه علوم الدنيا من علوم الدين.. بل من العلوم التي يفتقر إليها في فهم القرآن.. لقد قال في بيان نسبة هذه العلوم للقرآن:« ثم هذه العلوم ما عددناها وما لم نعدها ليست أوائلها خارجة عن القرآن، فان جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له، وأن البحر لو كان مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد، فمن أفعال الله تعالى ــ وهو بحر الأفعال ــ مثلا الشفاء والمرض كما قال الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام:﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء:٨٠)، وهذا الفعل الواحد لا يعرفه الا من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب الا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه »[2]

وضرب مثالا آخر عن ذلك بعلم الفلك، وهو ــ فيما نرى ــ علم محض إلا إذا هدف من ورائه إلى تحقيق مصلحة من المصالح ــ فقال:« ومن افعاله تبارك وتعالى تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان

---

(١) الإحياء: ١/٦٠.

(٢) جواهر القرآن: ٤٥.

وقد قال الله تعالى:﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمن:٥)، وقالتعالى:﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ (يونس: من الآية٥)، وقالتعالى:﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ (القيامة:٨)، وقالتعالى:﴿)ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج:٦١)، وقالتعالى:﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (يّـــس:٣٨)، ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما وولوج الليل في النهار وكيفية تكور أحدهما على الآخر الا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض وهو علم برأسه »[1]

وضرب مثالا آخر عن ذلك بقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الْأِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار:٦ ـــ ٨)، فلا يعرف مراد هذه الآية « إلا من عرف تشريح الأعضاء من الانسان ظاهرا وباطنا وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها، وقد أشار في القرآن في مواضع اليها »

بل إن الغزالي بنور بصيرته الإيمانية يذكر بأن العلوم لا تنحصر في علوم عصره، ويتنبأ بعلوم كثيرة ستظهر للوجود، كلها تغترف من بحار أفعال الله، فيقول:« بل أقول ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يتمارى فيها أن في الامكان والقوة أصنافا من العلوم بعد لم تخرج من الوجود، وإن كان في قوة الآدمي الوصول اليها، وعلوم كانت قد خرجت الى الوجود واندرست الآن فلن يوجد في هذه الأعصار على بسيط الأرض من يعرفها، وعلوم أخر ليس في قوة البشر أصلا ادراكها والإحاطة بها »[2]

ومثل الغزالي بين النورسي مدى الفوائد التي تجنى من هذه العلوم إذا ما استنارت بنور الله، وبهدي الإيمان، فيقول:« العلوم التي تبحث في حقيقة الموجودات - كالفيزياء والكيمياء والنبات والحيوان.. ـــ هذه العلوم التي هي « حكمة الاشياء » يمكن ان تكون حكمة حقيقية بمشاهدة التجليات الكبرى لاسم الله « الحكيم» جل جلاله في الاشياء، وهي تجليات تدبير، وتربية، ورعاية. وبرؤية هذه التجليات في منافع الاشياء ومصالحها تصبح تلك الحكمة حكمة حقاً، أي باستنادها الى ذلك الاسم « الحكيم » والى ذلك الظهير تصبح حكمة فعلاً، وإلاّ فإما أنها تنقلب الى خرافات وتصبح عبثاً لا طائل من ورائها أو تفتح سبيلاً الى الضلالة، كما هو الحال في الفلسفة الطبيعية المادية»

ويذكر علة مهمة لذلك غابت عن العلوم الحديثة، فأغرقتها في الجزئية، وأبعدتها عن جمال الوحدة والتناسق والكمال، فقال:« إن نظر النبوة والتوحيد والايمان يرى الحقائق في نور الالوهية والآخرة ووحدة الكون لأنه متوجه اليها، أما العلم التجريبي والفلسفة الحديثة فانه يرى الامور من زاوية الاسباب المادية الكثيرة والطبيعة لأنه متوجه اليها، فالمسافة اذن بين زاويتي النظر بعيدة جداً. فرب غاية عظيمة جليلة لدى اهل الفلسفة تافهة وصغيرة لا تكاد ترى بين مقاصد علماء اصول الدين وعلم الكلام. ولهذا فقد تقدم اهل العلم التجريبي

---

(١) جواهر القرآن: ٤٦.

(٢) جواهر القرآن: ٤٧.

كثيراً في معرفة خواص الموجودات وتفاصيلها واوصافها الدقيقة في حين تخلفوا كثيراً حتى عن ابسط المؤمنين وأقلهم علماً في مجال العلم الحقيقي وهو العلوم الإلهية السامية والمعارف الاخروية »

قلت: ربما يكون الغزالي والنورسي وغيرهما تأثرا في ذلك بنا وبالفلسفة اليونانية التي كانت مهتمة بالعلوم.

قالت: لا.. لم يستمد الغزالي ولا النورسي ولا جميع علماء الإسلام هذه المعاني النبيلة إلا من القرآن..

فالقرآن يشير إلى هذه الناحية، ويعتبرها من تمكين الإنسان في الأرض، ففيه عن ذي القرنين:﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ (الكهف:٨٤)

بل إن القرآن نوه بأنواع الصناعات، وقد كانت محتقرة في الجاهلية لا يقوم بها إلا العبيد أوعامة الناس وبسطاؤهم:

فذكر صناعة الحديد، ونوه بها، وذكر اشتغال الأنبياء والصالحين بها:﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ (الكهف:٩٦)..:﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (سبأ:١٠)، بل قرن بإنزال الحديد إنزال الكتاب:﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد:٢٥)

وذكر الصناعات النسيجية وأنواعها وأغراضها:﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ (النحل:٨٠)

وذكر ما يرتبط بالعمران من أعمال:﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (لأعراف: من الآية٧٤)

وذكر الصناعات المرتبطة بالنقل:﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٨)..:﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (هود:٣٧)..:﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (المؤمنون:٢٢)..:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الروم:٤٦)..:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (لقمان:٣١)

وذكر الصناعات البحرية:﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:١٤).. :﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ (الاسراء:٦٦)

بل إن القرآن دعا إلى بذل كل الجهود لتحصيل جميع أنواع القوى، ويدخل فيها هذا النوع من أنواع القوى، قوة الصناعة والسياسة، ففيه:﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (لأنفال: من الآية٦٠)

والقرآن لا ينهى عن هذه العلوم بذاتها، وإنما ينهى على ما تفرزه في الإنسان من قيم الطغيان حين يبتدئ

فيها باسم أهوائه لا باسم الله، فالقرآن يحكي عن هود قوله:﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (هود:٥٢) فهو لم يخبرهم بأن نتيجة إيمانهم بالله زوال قوتهم التي كانوا يحرصون على الظهور بها، بل أخبر عن زيادة قوتهم.

بل أخبر القرآن أن القوة التي لا تستضيء بهدي الله مصيرها الهلاك المحتم، ولذلك يدعو إلى السير في الأرض للبحث عن مصير الحضارات العظيمة التي لم يبق منها إلا فلول آثار تدل على مدى طغيانها:﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم:٩)

وذلك لأن أخطر ما تنفخه الصناعة في عقول أصحابها ذلك الاغترار بالقوة، والذي حجبهم عن الله:﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (فصلت:١٥)

قلت: ربما يكون ما ذكرته صحيحا.. ولكنه بقي على المستوى النظري، فلم يستطع المسلمون أن يترجموا تلك التوجيهات القرآنية إلى أفعال تنهض بالعلم، وتحقق به مصالح البشر.

انتفضت قائلة: لا.. بل لم يفعل المسلمون غير ما أمرهم به دينهم.. لقد نهضوا ــ على ضوء تلك التوجيهات المقدسة ــ فحققوا في التراث الذي وصل إليهم من الأمم المختلفة، ونقحوه، وأضافوا إليه كما كبيرا من العلم لولاه ما قامت الحضارة الحديثة.

قلت: فكيف لم يصلوا إلى ما وصلنا إليه من تطور؟

قالت: لا شك أنك تعلم أن التقدم العلمي يسير بطريقة خاصة.. فالمبادئ النظرية قد تستدعي الواحدة منها قرونا عديدة.. لكن تحويل تلك النظريات إلى تطبيقات عملية لا يستغرق وقتا طويلا..

لقد أجريت مقارنة بين الفترات الزمنية التي كان يستغرقها الوصول من الكشف العلمي النظري إلى التطبيق في ميدان الإنتاج منذ عصر الثورة الصناعية حتى اليوم.. فوجدت مدى التسارع الذي يصل إليه هذا التطبيق العملي.

لقد احتاج الإنسان ــ على سبيل المثال ــ إلى ١١٢ سنة (١٧٢٧ – ١٨٣٩ م) لتطبيق المبدأ النظري الذي يبنى عليه التصوير الفوتوغرافي.. واحتاج إلى ٥٦ سنة (١٨٢٠ – ١٨٧٦ م) لكي يتوصل من النظريات العلمية الخالصة إلى اختراع التليفون.. وإلى ٣٥ سنة (١٨٦٧ – ١٩٠٢ م) لظهور الاتصال اللاسلكي.. وإلى ١٥ سنة (١٩٢٥ – ١٩٤٠ م) للرادار.. و١٢ سنة (١٩٢٢ – ١٩٤٥ م) للتلفزيون.. و٦ سنوات (١٩٣٩ – ١٩٤٥ م) للقنبلة الذرية.. و٥ سنوات (١٩٤٨ – ١٩٥٣ م) للترانزستور.. و٣ سنوات (١٩٥٩ – ١٩٦١ م) لإنتاج الدوائر المتكاملة.. وهكذا ترى مدى التسارع الذي يسير به التطبيق العلمي بعد أن توفر الكم الكبير من النظريات العلمية.

قلت: تقصدين أن المسلمين كان يمكن أن يصلوا إلى هذا التطور التكنولوجي الذي وصلنا إليه.

قالت: أجل.. كل البشائر كانت تدل على ذلك.. لولا ما أصابهم من ضعف، وما أصابهم بسببنا من

عدوان.

لقد قطفنا ثمرات علومهم ناضجة لنخلط فيها الحق بالباطل، والمنفعة بالمضرة.

قلت: فهل ظهر علماء مسلمون في ميادين العلوم؟

قالت: في كل ميادين العلوم كان للعلماء المسلمين موقع الريادة والسيادة والسبق.. سأضرب لك أمثلة تقرب لك ذلك، أو تبرهن لك عليه [1].

لقد اتجه علماء الفلك المسلمين ــ منطلقين من اهتمام القرآن بالكون ــ نحو مظاهر الكون وعلاقاتها وأسبابها ومسبباتها، فربطوا حركة المد والجزر بحركة القمر، وطبقوا حساب المثلثات على الأرصاد الفلكية، وقاسوا أجرام الشمس والقمر والنجوم بطرق هندسية حسابية قريبة من الحقيقة، وقاسوا أبعادها عن الأرض، وتأسس على أيدهم علم المثلثات الكروية في القرن الرابع الهجري مما أدى إلى تسهيل حساب المسافات بين الأمكنة على الأرض، كما قاسوا محيط الأرض بأمر الخليفة المأمون بطريقة مبتكرة فبلغ (٤١٢٤٨ كم)، وتمكن البتَّاني (القرن الرابع) من حساب السنة بمقدار ٣٦٥ يوماً وخمس ساعات و٤٦ دقيقة و٢٤ ثانية، والفرق بين تقديره والتقدير الحالي دقيقتان واثنان وعشرون ثانية.

واعتمد المسلمون على الرصد الفلكي المستمر من مراصدهم الممتدة من مراغة وسمرقند إلى اشبيلية.. وطوروا آلات الرصد من الاسطرلابات والمناظير المتنوعة، وعرفوا أن الأرض تدور حول الشمس منذ القرن الثامن الهجري على يد ابن الشاطر الدمشقي، ووضعوا الجداول الرياضية (التقاويم) مستندين على علم الأزياج..

وكان أبرز علماء الفلك المسلمين ينكرون التنجم ــ الذي يعني أثر النجوم في حياة الإنسان ــ كالخوارزمي والفرغاني والبيروني، وهذا من أثر العقيدة الإسلامية عليهم.

وقد مهد علماء الفلك المسلمين للنهضة العلمية الأوروبية حيث لا زالت مصطلحاتهم تستعمل في علم الفلك المعاصر، وقد أحصيتها بــ ١٦٠ مصطلحا وكلمة.

واهتم المسلمون بالرياضيات، فابتكر العالم المسلم أبو الحسن علي الاقليدسي (القرن الرابع الهجري) نظام الكسر العشري في الحساب، مما كان له أثر كبير في تقدم الحساب وفي اختراع الآلة الحاسبة (الكومبيوتر) في العصر الحديث.. ووضع المسلمون علم الجبر الذي لازال يعرف باسمه العربي في مختلف لغات العالم Algebra حيث ألَّف محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٢٣٥ هــ) كتابه المشهور (الجبر والمقابلة) في عصر المأمون (١٩٨-٢١٨هــ)..

ووضع المسلمون اللبنات الأولى للهندسة التحليلية عندما حلوا المعادلات التكعيبية الصعبة، كما برعوا في الهندسة التطبيقية حيث طبقها ابن الهيثم ٠ت٤٣٠هــ) في العديد من المسائل في علم المناظر (البصريات) لتحليل الشعاع وانعطافه وانكساره وانعكاسه على المرايا المستوية والمقعرة والمحدبة والأسطوانية..

---

(١) المعلومات العلمية الواردة هنا مقتبسة من محال مختلفة من كتابات (أنور الجندي)

وقام المسلمون بتنظيم علم المثلثات وهو يبحث في الزوايا وعلاقتها بالأبعاد، وأضافوا إليه اكتشاف جيب الزاوية وجيب التمام والظل (المماس) وقاطع التمام.

والمسلمون هم الذين أنشأوا علم الكيمياء واكتشفوا بعض أجزائها المهمة كحامض الكبريتيك والنيتريك، والكحول، وقاموا بعمليات التقطير والترشيح والتصعيد والتبلور والتكليس، وهيأوا الأدوات والمختبرات اللازمة لهذه العمليات، ولا زالت كثير من مصطلحاتهم تستعمل في الكيمياء المعاصرة، وقد بنى المسلمون صناعتهم على اكتشافاتهم العلمية مثل صناعة العقاقير وتنقية المعادن وصناعة الورق والأقمشة والزجاج ودبغ الجلود وصناعة العطور، واعتبر ابن حيان (ت ٢٠٠هـــ) أكبر عالم في مجال التأليف والبحث في هذا العلم.

أما في الطب فالمسلمون هم أول من استخدم المخدر (المرقد) في الطب والعمليات الجراحية مستخدمين الإسفنجة المخدرة من محلول الأفيون يستنشقها المريض.. كما اكتشف الأطباء المسلمون العديد من الأمراض وشخصوها، فاكتشف ابن سينا المرض المعروف اليوم بالانكلستوما وهي الدودة التي وصفها بالمستديرة، واكتشف ابن النفيس (ت ٦٨٦) الدورة الدموية الصغرى بعد تشريح القلب، كما ألف في علم التشريح كتاباً، وبذلك استقل هذا الفرع من العلوم الطبية.. واهتم أبو القاسم الزهراوي (ت ٤٠٤ هـــ) بعلم الجراحة ووصف أكثر من مائتي آلة جراحية مع صورها، وصار كتابه بعد ترجمته إلى اللاتينية يدرس في أوربا خمسة قرون، واستعمل الزهراوي خيوط الحرير في خياطة العمليات الجراحية لأول مرة، كما كان الرازي قد استعمل الخيوط المصنوعة من أمعاء الحيوانات لأول مرة.. وألّف ابن الجزار القيرواني (ت ٣٦٩ هـــ) أول كتاب في طب الأطفال، وقد استمرت عنايتهم بطب الأطفال حتى وصلوا إلى تلقيحهم ضد الجدري الذي كان معروفاً في المغرب العربي.

وعلى يد المسلمين استقل علم الصيدلة، وألحقوا الصيدلية بالمستشفى، وأجروا امتحاناً للصيادلة منذ القرن الثالث الهجري، ونموا علم العقاقير بالتأليف في الأدوات المفردة والمركبة، وظلت كثير من الأسماء العربية للعقاقير تستعمل في اللغات الأخرى حتى الوقت الحاضر، وظلت مؤلفاتهم في الصيدلة يستفاد منها في أوروبا حتى أوائل القرن التاسع عشر.

ومن المهم الإحاطة بمدى انتشار الأطباء في المجتمع الإسلامي، فقد جرى امتحان لأطباء بغداد في خلافة المقتدر عام ٥١٣ هـــ، فأجيز ثمانمائة ونيف وستين طبيباً غير أطباء دار الخلافة المعروفين، وهو عدد كبير في ذلك العصر.

وقد أنشئت المستشفيات في الإسلام منذ خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـــ) بدمشق وكانت متخصصة بالأمراض المعدية لوقاية المجتمع ومساعدة العجزة والمرضى، ثم انتشرت المستشفيات في أرجاء العالم الإسلامي في العصر العباسي واشتهر منها المستشفى العضدي ببغداد(٣٧١ هـــ) والمستشفى النوري بدمشق (٥٤٩ هـــ) والمستشفى المنصوري بالقاهرة (٦٨٣ هـــ) ومستشفى مراكش زمن دولة الموحدين. وكانت هذه المستشفيات منظمة تنظيماً يقرب من تنظيم المستشفيات في عصرنا، في حين كان أكبر مستشفى بباريس (أوتيل ديو) يبعث وصف توردو الفرنسي له سنة ١٧١٠ م على التقزز والاشمئزاز.

وقد ألحق المسلمون المعاهد الطبية بالمستشفيات مما نجم عنه تقدم الطب السريري (الإكلينيكي)، وقد ذكر المستشرق الألماني (ماكس ماير هوف) ٤٣ مؤسسة طبية تعليمية مع المستشفيات المنتشرة من فارس إلى مراكش.

إن الاعتراف العالمي بجهود المسلمين في الطب يظهر في الموسوعات العلمية وفي صورتي الرازي وابن سينا المعلقتين في كلية الطب بجامعة باريس، وفي إطلاق اسم الرازي على قاعة من أفخم قاعات جامعة برنستون الأمريكية.

أما في علوم الطبيعة (الفيزياء) فتظهر جهود ابن الهيثم (ت٤٣٠ هـ) في تطور علم البصريات وفيزيولوجية الأبصار، وكان بحثه في العدسات قد مهَّد لظهور العدسة المكبرة للمجهر والتلسكوب، وجهود البيروني في بيان أن سرعة الضوء أعظم بكثير من سرعة الصوت، وبحث المسلمون في الصوت وتموجاته في الأثير، وهو أساس اختراع الإذاعة المسموعة.

كما استبط علماء المسلمين طرقاً واخترعوا آلات تمكنوا بواسطتها من معرفة الوزن النوعي لعدد من المعادن والأحجار، وبحثوا في الضغط الجوي وعرفوا بأن الهواء كالماء يحدث ضغطاً من أسفل إلى أعلى مما مهَّد السبيل لاختراع البارومتر ومفرغات الهواء.

واهتموا بعلم الميكانيكا وأسموه (علم الحيل)، ووصف ابن الجوزي خمسين آلة ميكانيكية كالساعات المائية والنافورات مع صورها بالألوان الجميلة، كما بحثوا في هذا العلم نظرياً مثل موضوعات القوة وأنواعها والحركة وقوانينها، وتصادم الأجسام وتساقطها، وطبيعة الزمان والمكان وقوة الجذب والجاذبية الأرضية، مما يقلب مفاهيمنا عن كثير من النظريات التي كانت تنسب إلى علماء الغرب.

وأهتم العرب بعلم الظواهر الجوية وأسموه (علم الآثار العلوية) فبحثوا في حركة المد والجزر وربطها أبو معشر الفلكي (ت ٢٧٢ هـ) بطلوع القمر وغيابه. ورسموا خرائط توضيحية للمد والجزر على الكرة الأرضية منذ القرن الخامس الهجري. ووضع النيريزي (ت ٣١٠ هـ) رسالة في آلات لمقياس ارتفاع الغيوم والأبخرة، وصحح إبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة (ت ٣٣٥ هـ) آراء أر سطو في تعليل الظواهر الجوية ورفض التعصب الأعمى لآرائه من قبل معاصريه كما رفض التأثر بالخرافات السائدة عند اليونان والتي تأثر بها أر سطو في تعليله، واعتمد التجربة في ردوده على أر سطو. كما علّل كمال الدين حسن الفارسي (القرن السابع) ظاهرة قوس قزح تعليلاً صحيحاً.

واهتم المسلمون بعلم الحيوان والنبات وصنفوا في أنواعها وصفاتها، ونشأ عندهم علم البيطرة، وعلم الفلاحة فصنفوا في ذلك كله منذ القرن الثالث الهجري، وقد ظهر تأثير دراساتهم على نظام الري المعقد في العصر العباسي والذي ضمّ مائة قناة للري، كما ظهر على المستوى الراقي للحدائق والبساتين وخاصة في الأندلس.

والميزة الكبرى للمسلمين أنهم نقلوا هذه العلوم لقومنا الذين استفادوا منها كثيرنا.. بل لولاها لما قامت هذه العلوم الحديثة.

لقد حاول بعض الحقدة طمس هذه الحقيقة والزعم بأن النهضة الأوروبية بنيت على تراث اليونان مباشرة دون وساطة المسلمين وإضافاتهم الكبيرة، لكن الدراسات الحديثة الجادة تؤكد أن أوروبا في عصر النهضة اعتمدت على ترجمة المؤلفات العربية ودرستها في جامعاتها عدة قرون، وطبعت منها بعد اختراع الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي عشرات الطبعات في سنين قليلة (طبع كتاب (القانون) لابن سينا خمس عشر مرة خلال ثلاثمائة وست وعشرين سنة (١١٧٤ - ١٥٠٠) وطبع كتاب (الحاوي) في الطب للرازي مرارا وتكرارا حتى القرن الثامن عشر بعد ترجمته إلى اللاتينية سنة ١٢٧٩ م في صقلية، وثمة مؤلفات أساسية عديدة ترجمت في القرن العاشر والحادي عشر وظلت متداولة في الجامعات ولدى العلماء قروناً طويلة)، ومن هنا قال فؤاد سزكين:« كلما أمعن الإنسان في دراسة المصادر الأصلية للنهضة الأوروبية ازداد تصوره أن هذه النهضة المزعومة أشبه ما تكون بالولد الذي نسب إلى غير أبيه الحقيقي »

***

ما وصلت (زيغريد هونكه) من حديثها إلى هذا الموضع حتى أقبل أخوها.. وقد كان في محل قريب منا يتنصت لنا.. وقال ــ والدموع تسيل من عينيه ــ: أعتذر إليك ــ أختي ــ على ذلك السلوك المشين الذي سلكته معك..

لقد كنت أنتصت لحديثك مع هذا الرجل.. وقد سمعت من الحقائق ما جعلني أندم على هذه النية التي نويتها.. وأنا الآن أعاهدك، وأعاهد هذا الرجل الفاضل على أن أحافظ على العنب حتى يبقى عنبا..

وأعدك فوق ذلك بأن أبحث عن أسرار ذلك الرجل الذي تزينت الحياة بمجيئه، وأظلمت بفقده.. إن لي أشواقا نحوه لست أدري سرها.

قال ذلك، ثم انصرف، ليتركها ودموعها تختلط بابتسامتها.

قلت لها: أخوك رجل طيب..

قالت: انظر.. إن دين محمد علي لا ينتهي.. فهذا أخي بمجرد سماعه حديث محمد تحول إلى ما رأيت.. فيا خسارة البشرية التي لم تسمع بمحمد.. ولم تسمع لمحمد.

قلت: أنا أعجب لك.. فمع كل هذه الأشواق والمحبة لم تعلني إسلامك..

قالت: ذلك سر آخر [1].. أحيانا يتطلب منك حبك للشيء أن تكتم محبتك له.

---

(١) ورد في مقال بعنوان (مستشرقون أعلنوا إسلامهم) قول مؤلفه ــ لم أجد اسمه ــ :« ويطيب لي هنا أن أُثَــلثَ بثالثة الأثافي، قصة العالمة الألمانية زيغريد هونكة صاحبة الكتاب الشهير (شمس العرب تسطع على الغرب) والذي بينتْ فيه، كما هو معلوم، فضل حضارة المسلمين وتمدنهم على الغرب ونهضته الأخيرة بعد عصور الظلام التي غطتْ أوروبا في غطيطها قرونا طويلة.. زيغريد هونكة التي تَمَلّك حبُّ العرب وثقافتِهم ومجدِهم شَغاف قلبها بما لا يكاد أن يكون له مثيل بين الأوربيين وأحبتْ الإسلام لحبها لهم ولعلمها بأنه هو الذي أخرجهم بين الأمم خير أمة أخرجت للناس.

وقد حدثني بخبرها الدكتور علي الدفاّع عالم الرياضيات المعروف في جامعة البترول بالظهران بنفسه مشافهة قال: كنت في أحد المؤتمرات العلمية في أوربا وقد تحدثتُ إلى الدكتورة هونكة وكنت مطلعا على كتاباتها وإنصافها لعقيدتنا وحضارتنا ورأيتُها

قلت: لم؟

قالت: أرأيت لو أني أعلنت إسلامي.. ثم كتبت جميع شهاداتي للإسلام.. هل ترى أحدا من الناس سيقبلها؟

قلت: لا أظنهم يفعلون..

قالت: هذا ما أطيق أن أجيبك عنه.. فلا تسألني المزيد من الأسئلة.

قلت: فأنت مسلمة تكتمين إسلامك!؟

قالت: ليس هناك أحد يعرفه.. ثم ينكره.. وليس هناك من يراه.. ثم لا يحبه.

قالت ذلك، ثم انصرفت تطلب أخاها، وانصرفت على إثرها، وفي قلبي بصيص جديد من النور اهتديت به بعد ذلك إلى شمس محمد.

وقد كبِرتْ سِنُّها قلت لها: إن لي حلما جميلا أرجو له أن يتحقق!! فقالت لي: وما هذا الحلم.. قال فأجبتُها: بأن حياتك العلمية والثقافية الطويلة في الدفاع عن مآثر العرب والمسلمين وتاريخهم أرجو أن يكون لهذه الحياة الحافلة وهذه السيرة العلمية المميزة تكملة جميلة وأن تختم بأحسن ختام وذاك بأن تدخلي في الإسلام!! قال محدثي: وقد رأيتُ عينيها اغرورقتا بالدموع ثم قالت لي بالعربية الفصيحة:« بيني وبين ذلك قاب قوسين أو أدنى » قال فما مر عام أو أكثر حتى سمعتُ خبر اعتناقها للإسلام وسمعتُ خبر وفاتها بعد ذلك بمدة رحمها الله..

وعندما سُئلتْ في أحد المؤتمرات الإسلامية ما نصيحتها للمرأة العربية التي تريد طي الماضي وخلع الحجاب، قالت زيغريد هونكة:«.. لا ينبغي لها أن تتخذ المرأة الأوربية أو الأمريكية أو الروسية قدوة تحتذيها، أو أن تهتدي بفكر عقدي مهما كان مصدره، لأن في ذلك تمكينا جديدا للفكر الدخيل المؤدي إلى فقدها مقومات شخصيتها، وإنما ينبغي عليها أن تستمسك بهدي الإسلام الأصيل، وأن تسلك سبيل السابقات من السلف الصالح، اللاتي عشنه منطلقات من قانون الفطرة التي فُطرنَ عليها، وأن تلتمس العربيةُ لديهن المعايير والقيم التي عشن وفقا لها، وأن تكيف تلك المعايير والقيم مع متطلبات العصر الضرورية وأن تضع نصب عينيها رسالتها الخطيرة الممثلة في كونها أم جيل الغد العربي، الذي يجب أن ينشأ عصاميا يعتمد على نفسه »

تاسعا ــ فنون

في اليوم التاسع من تلك الأيام العشرة المباركة، التقيت المستشرق الذي قطفت على يده ثمرة الفنون من شجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى في التنبيه إلى الجمال الذي اشتملت عليه السماء:﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (قّ:٦).. ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (الحجر:١٦)

وقوله في التنبيه على الجمال الذي اشتملت عليه الأرض:﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (قّ:٧)

وقوله في التنبيه على جمال حدائق الأرض:﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (النمل:٦٠).. ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام:٩٩)

وقوله في التنبيه على الجمال الذي جعله الله في الأنعام:﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل:٦)..﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٨)

وقوله في الجمال الذي جعله الله في البحر:﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:١٤)

وقوله في التنبيه على جمال الإنسان:﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ (غافر: من الآية٦٤).. ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (التغابن:٣)..:﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ (الانفطار:٧)

وقوله في الحض على أخذ الزينة والاهتمام بالجمال:﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (لأعراف:٣١)

وفوق ذلك كله قوله تعالى وهو يصف جمال أفعاله ودقة صنعه:﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل: من الآية٨٨).. ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْأِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (السجدة:٧)

وعرفت به سر نصوص أخرى كثيرة توجه الأبصار والأسماع وجميع وسائل الإحساس والإدراك إلى النظر إلى الجمال المبثوث في الأشياء وتذوقه وشكر الله عليه..

وهذا ما يجعل من كل مسلم فنانا ذواقة ممتلئا بالأحاسيس الجميلة التي يعبر عنها بأجمل قصائد مديح ربه وحمده.

***

كان من ضمن الأسماء التي وضعت في دفتر المرشد اسم (سير هاملتون جيب)[1]، و لم أكن أعرفه، ولكني

---

(١) هو سير هاملتون الكساندر روسكين جب Sir Hamilton R. A. Gibb (١٨٩٥ – ١٩٦٧)، ولد في الإسكندرية، ثم انتقل إلى اسكتلندا وهو في الخامسة من عمره للدراسة هناك ولكنه كان يمضي الصيف مع والدته في الإسكندرية. التحق بجامعة أدنبرة لدارسة اللغات السامية. عمل محاضراً في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن عام ١٩٢١وتدرج في المناصب الأكاديمية حتى أصبح أستاذاً للغة العربية عام ١٩٣٧ وانتخب لشغل منصب كرسي اللغة العربية بجامعة أكسفورد. انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليعمل مديراً لمركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد بعد أن عمل أستاذاً للغة العربية في الجامعة.

هو إمام المستشرقين الإنكليز المعاصرين، وهو عضو مؤسس في المجمع العلمي المصري، تفرغ للأدب العربي وحاضر بمدرسة المشرقيات بلندن.

بالإضافة إلى اهتمامه اللغوي فقد أضاف إلى ذلك الاهتمام بتاريخ الإسلام وانتشاره وقد تأثر بمستشرقين كبار من أمثال تومارس آرنولد وغيره.

من أبرز إنتاج جب (الفتوحات الإسلامية في آسيا الوسطى) (١٩٣٣) ودراسات في الأدب العربي المعاصر وكتاب (الاتجاهات الحديثة في الإسلام) وشارك في تأليف (إلى أين يتجه الإسلام). وقد انتقل جيب من دراسة اللغة والآداب والتاريخ إلى دراسة العالم الإسلامي المعاصر وهو ما التفت إليه الاستشراق الأمريكي حينما أنشأ الدراسات الإقليمية أو دراسات المناطق.وله كتاب بعنوان (المحمدية) ثم أعاد نشره بعنوان (الإسلام) وله كتاب عن الرسول ﷺ.

ومن أقواله التي جعلتنا نختاره لهذا الفصل:« إذا رأى أحد أن إلحاح القرآن على فعل الخير غير كثير أثبتنا له بالحجة القاطعة خطأه وسقنا إليه ذلك التعريف الشامل للبر في تلك الآية العظيمة:﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة ١٧٧)، فالبر إذن تاج الإيمان الحق، حين يدرك المؤمن أخيرًا أن الله شاهد أبدًا، ويستجيب لشهوده في كل أفكاره وأعماله » (دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٤)

وقوله:« هذه، إذن، هي الرسالة التي بلغها القرآن إلى الجيل الأول من المسلمين وظل يبلغها إلى جميع الأجيال منذ ذلك العهد. فالقرآن سجل لتجربة حية مباشرة في ميدان الألوهية، تجربة ذات طرفين: واحد مطلق وآخر متصل بشؤون الحياة العامة، ودعوة للمخلوق كي ينظم حياته ليتمكن من الأخذ بنصيب في تلك التجربة. وحين يتبع المسلم أوامر القرآن ويسعى ليستكنه روح تعاليمه، لا بفكره فحسب بل بقلبه وروحه أيضًا، فإنه يحاول أن يستملك شيئًا من الرؤى الحدسية ومن التجربة التي كانت للرسول الحبيب. ويعظم في عينيه مغزى كل آية فيه، لإيمانه بأنه كلام الله. ولو لم يكن هذا الإيمان شعبة من عقيدته لما تناقصت قيمته لديه من حيث هو منبع حي للإلهام والاستبصار الديني » (دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٤)

وقوله:« مهما يكن أمر استمداد الإسلام من الأديان التي سبقته فذلك لا يغير هذه الحقيقة أيضًا وهي: أن المواقف الدينية التي عبر عنها القرآن ونقلها إلى الناس تشمل بناء دينيًا جديدًا متميزًا » (دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٤ – ٢٥٥)

كنت أسمع بحبه للأدب العربي وللفنون الإسلامية.. و لم أكن أدري سر ذلك إلى أن التقيته في ذلك اليوم المبارك.. فعلمت سر ذلك الحب.

في ذلك اليوم من أيام الربيع، خرجت إلى منتزه من المنتزهات الطبيعية التي لم تمتد إليها بعد يد الإنسان.. وقد احترت إذ رأيت المنتزه خاليا، وكأن الجماهير زهدت في الطبيعة العذراء، فراحت تبحث عن الطبيعة التي تلاعبت بها يد الصناع.

لكني رأيت رجلا مستلقيا على عشب ذلك المنتزه، وهو يترنم بشعر عربي فصيح، يتغنى به، ويكاد جسمه يرقص مع ترنيماته.

لم أشأ أن أكدر عليه صفوه، ولكني في نفس الوقت كنت مشتاقا أن أحدثه، فقد ناسب ذوقه ذوقي وسلوكه سلوكي.. فأنا أحب الشعر، وأتذوقه كما لا أتذوق أي فن من الفنون، وخاصة إذا امتزج مع الألحان الطيبة التي تحيله نغمات روحية رفيعة.

استلقيت مثل استلقاءته.. غير بعيد عنه.. ورحت أترنم بقول علي بن أبي طالب:

ليس الجمال بأثوابٍ تزيُننا   إن الجمالَ جمالُ العقلِ والأدبِ

فانتفض الرجل من مكانه، وأسرع يحث الخُطا إلي، وقال: أعد علي ما كنت تقرأ.

أعدت عليه البيت، لكن بقراءة سريعة له..

قال: لا.. أعده كما كنت تقرؤه.. فلا ينبغي أن يهان الشعر هكذا.

أعدت قراءته كما طلب مني، فقال: أرأيت.. هذا هو الأدب.. وهذا هو الفن.. وهذا هو الذوق الرفيع

وقوله:« على الرغم مما قام به العلماء المتأخرون من تطوير لعلم كلام إسلامي منهجي، يبقى صحيحًا ما ذكرناه سابقًا وهو: أن جمهور الجماعة الإسلامية كان يتألف من شعوب أحدثت لديها ممارسة حقائق الدين ممارسة حدسية أثرًا أقوى وأسرع من كل اثر خلفه أي قدر من الجدل العقلي أو من حذاقته وبراعته » (دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٥)

وقوله:« إننا نخطئ خطأً فاحشًا إذا اقتصرنا على النظر إلى هذه العقيدة نظرتنا لمذهب لاهوتي أتقن بشكل وراثي من جيل إلى جيل منذ ألف وثلاثمائة سنة. إنها على العكس من ذلك يقين وإيمان حي يتجدد ويتأكد باستمرار في قلوب المسلمين وأرواحهم وأفكارهم، ولدى العربي بشكل خاص، حين يدرس النصّ المقدس. لقد عارض المذهب السني المتمسك بشكل عام ترجمة القرآن إلى اللغات الإسلامية الأخرى على الرغم من أن النص العربي يظهر في بعض الأحيان مقترنًا بترجمة تركية أو فارسية أو أُردية وغيرها من اللغات. إن هذا الموقف يستند على محاكمة شرعية متماسكة تصوغ حججها إلى حد ما بشكل عقلاني مستندة في ذلك على اعتبارات بعيدة عن هذا الشكل العقلاني. والواقع أن القرآن لا يمكن ترجمته بشكل أساسي كما هي الحال بالنسبة للشعر الرفيع. إذ ليس بالإمكان التعبير عن مكنون القرآن باللغة العادية، ولا يمكن أن يعبر عن صوره وأمثاله لأن كل عطف أو مجاز أو براعة لغوية يجب أن تدرس طويلاً قبل أن ينبثق المعنى للقارئ. والقرآن كذلك له حلاوة وطلاوة ونظم بديع مرتب لا يمكن تحديده لأنها تعد بسحرها أفكار الشخص الذي يصغي إلى القرآن لتلقي تعاليمه. ولا شك أن تأويل كلمات القرآن إلى لغة أخرى لا يمكن إلا أن يشوهها ويحول الذهب النقي إلى فخار..» (الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ص ٣٠ – ٣١)

انظر: قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل.

الذي يرفع الإنسان إلى الإنسان.

قلت: أراك مهتما بالأدب العربي.. ألك علاقة بالعرب؟.. أم أنك عربي؟

قال: أنا لم يجذبني إلى هذا الأدب كونه عربيا؟

قلت: فما الذي جذبك إليه؟

قال: أنا رجل أحب الفنون الرفيعة، وأشعر أن إنسانية الإنسانية لا تكتمل إلا بالفن الرفيع الذي ينمي ذوقه، ويصقل مداركه، ويحيله طائرا جميلا يحلق في سماء الكون.

قلت: ما دمت بهذه الصورة.. فارحل إلى أمريكا.. ففيها بلدة يقال لها (هوليود) تنتج في كل يوم من أنواع الفنون ما أنتجته البشرية في عمرها جميعا.

قال: قد عرفت تلك البلدة.. وسكنت فيها.. وامتلأت بالغثاء منها ومن أهلها ومن فنها.

قلت: فاذهب إذن إلى المتاحف العالمية.. هنا في باريس واحد منها.. اذهب وانظر إلى تلك اللوحات الزيتية التي تباع بملايين الدولارات..

قال: قد ذهبت.. ولكني لم أشعر بشيء.. تلك اللوحات لا تمثل لي أي شيء.. لأن كل شخص يقرأ منها ما يشاء.

قلت: وما الحرج في ذلك؟

قال: أنا أبحث عن الفن الرفيع الذي يرفعني.. لا الفن الذي يضعني أو يحدث في تأثيرا مؤقتا سرعان ما يزول.

قلت: أنت تبحث عن الفن المرتبط بالإيمان.

قال: أجل..

قلت: فاذهب إلى الكنائس، فهي تمتلئ بالصور والأيقونات.

قال: لقد زرت الكثير منها.. ولكني لم أر إلا آلهة تزاحم إله الكنيسة..

قلت: أراك لا يعجبك شيء..

قال: بلى.. لقد ظفرت بغايتي..

قلت: أين؟

قال: عند محمد.. وعند ورثة محمد.

قلت: أنت مسلم إذن؟

قال: إلى هذه الساعة لست مسلما.. ولكني أشعر أنه ليس هناك دين يستحق أن يتبعه عاقل وذواقة مثل الإسلام.

قلت: لم؟

قال: لقد بحثت في دور الفن وألوانه وأنواعه ورجاله عن فن يحلق بالإنسان إلى الآفاق العليا من مراقي الكمال.. فلم أجده إلا في دين محمد.

قلت من غير أن أشعر: من أنت؟.. لكأني بك أحد من أبحث عنهم.

قال: ما تقصد؟

تداركت الموقف، فقلت: لا أقصد شيئا.. لكن من أنت؟

قال: أنا (هاملتون جيب)

قلت: أعرفك.. أنت العالم والمستشرق المعروف.

قال: أجل.. وفوق ذلك أنا الباحث عن الفنون العاشق لها.

قلت: أعلم حبك للأدب العربي.. ما الذي جذبك إليه؟

قال: حبي للفن.. والأدب بالنسبة لي أرفع أنواع الفنون وأرقها وأبلغها في التعبير عن المشاعر.

قلت: فهل تحدثني عن نتيجة أبحاثك؟

قال: أجل.. لقد وجدت بعد تأمل طويل أن الفن الرفيع هو الفن الذي يحقق غايتين جليلتين كلاهما ترفعان الإنسان إلى أعلى مدارج الكمال.

قلت: ما هما؟

قال: التهذيب والتوحيد.

قلت: ما تقصد بذلك؟.. وما وجه الحصر في ذلك؟

قال: لقد وجدت أن الإنسان معدن لا يختلف عن سائر المعادن.. هو كسبيكة الذهب.. وسبيكة الذهب لا يعرف جمالها إلا بعد صقلها وتزيينها وتهذيبها.

قلت: والتوحيد.

قال: ليس للعقود ولا الأسورة أي قيمة ما لم تؤد الغاية منها..

قلت: فأنت ترى أن الغاية من الفن هي الوصول إلى التوحيد.

قال: أجل.. لأن الغاية من الفن أن يوصلك إلى السكينة.. ولن تجد السكينة في غير التوحيد.

قلت: فهل تحدثني عما توصلت إليه.

قال: يسرني ذلك.. فأنا لا أبشر إلا بذلك.

١ ــ فنون الجاهلية

قلت: فهل سنبدأ بالحديث عن فنون الجاهلية؟

قال: أجل.. فلا يعرف الإسلام من لا يعرف الجاهلية.. ولا تعرف الثمرة الطيبة إلا بمقارنتها بالثمرة الخبيثة.

قلت: فبأي جاهلية نبدأ؟

المسيحية:

قال: بالجاهلية التي عقدت البساطة.. وعددت التوحيد.. وحرفت التهذيب.

قلت: من تقصد؟

قال: المسحية التي عقدتها الكنيسة.

قلت: ولكن المسيحية دين.. وليست مدرسة فنية.

قال: لكل دين مدرسته الفنية.. ويستحيل أن تكون هناك فكرة في الدنيا لا تعبر عن نفسها بأسلوب فني.

قلت: فكيف عبرت المسيحية عن نفسها؟.. ولماذا اعتبرت تعبيرها جاهلية؟

قال: لقد بحثت المسيحية في الفنون التي تستطيع بها أن تعبر عن ذاتها، فلم تجد إلا الصور والتماثيل.

قلت: لم اختارتها دون غيرها؟

قال: هي لم تختر.. ولكنها فرضت عليها.. المسيحية لم يكن لها من الحصون ما كان للإسلام، فلذلك اخترقت، وسهل التلاعب بها إلى أن صارت وثنية، أو اقتربت من الوثنية.

فكما اخترقت المسيحية في عقيدتها وشريعتها.. فقد اخترقت أيضا في فنونها.. بل تحولت فنونها إلى طقوس شعائرية لا تختلف عن طقوس الوثنيين.

قلت: ولكن شريعة التوراة تحرم التصوير ونحت التماثيل وتعده من أعمال الوثنيين.

قال: وشريعة التوراة دعت إلى تقديس السبت.. فهل تراه مقدسا عندنا؟

قلت: لا..

قال: فكذلك هذا.. وكذلك غيره..

أنت تعلم أن المسيحية كلها ــ بجميع شعائرها وطقوسها ــ عبارة عن محدثات تروق لرجال الدين.. فيجتمعون.. وسرعان ما يقررون.. وسرعان ما تتحول قراراتهم المشبعة بأهوائهم.. أو المشبعة بأهواء السلطة التي تحكمهم إلى دين.. ثم نأتي نحن لنصفها بالقداسة، ونظل نتعبد بها.

قلت: أهذا ما حصل مع الفن المسيحي؟

قال: أجل.. لقد نشأت عبادة الصور والتماثيل كأي بدعة أخرى ــ محدودة النطاق ــ ثم نمت تدريجياً

وانتشرت في أرجاء واسعة لكنها لم تدخل في صلب الديانة المسيحية بصفة رسمية إلا في مجمع نيقية الثاني[1].

يقول ول ديورانت:« كانت الكنيسة أول أمرها تكره الصور والتماثيل وتعدها بقايا من الوثنية وتنظر بعين المقت إلى فن النحت الوثني الذي يهدف إلى تمثيل الآلهة، ولكن انتصار المسيحية في عهد قسطنطين وما كان للبيئة والتقاليد والتماثيل اليونانية من أثر كل هذا قد خفف من حدة مقاومة هذه الأفكار الوثنية، ولما أن تضاعف عدد القديسين المعبودين نشأت الحاجة إلى معرفتهم وتذكرهم وظهرت لهم ولمريم العذراء كثير من الصور، و لم يعظم الناس الصور التي يزعمونها أنها تمثل المسيح فحسب بل عظموا معها خشبة الصليب حتى لقد أصبح الصليب في نظر ذوى العقول الساذجة طلسماً ذا قوة سحرية عجيبة »

ويذكر ديورانت كيف انتشرت هذه الوثنية بين العامة كانتشار النار في الهشيم، فقال:« وأطلق الشعب العنان لفطرته، فحول الآثار والصور والتماثيل المقدسة إلى معبودات يسجد لها الناس ويقبلونها ويوقدون الشموع ويحرقون البخور أمامها ويتوجونها بالأزهار ويطلبون المعجزات بتأثيرها الخفي.. وفي البلاد التي تتبع مذهب الكنيسة اليونانية بنوع خاص كنت ترى الصور المقدسة في كل مكان في الكنائس والأديرة والمنازل والحوانيت وحتى أثاث المنازل والحلي والملابس نفسها لم تخل منها، وأخذت المدن التي تتهدد أخطار الوباء أو المجاعة أو الحرب تعتمد على قوة ما لديها من الآثار الدينية، أو على ما فيها من الأولياء والقديسين.. للنجاة من الكوارث »[2]

قلت: لقد سمعت أن بعض قومنا قاموا في وجه هذا النوع من الوثنية.

قال: نعم.. لقد حصل ذلك بتأثير الإسلام[3].. ولكن ذلك ــ للأسف ــ لم يتم بالصورة المثلى.. فقد ظل المتعصبون من رجال الدين هم الحكم في هذا.. بل إنه اجتمع مجلس من أساقفة الغرب دعا إليه البابا (جريجورى الثاني) وصب اللعنة على محطمي الصور والتماثيل[4].

وفي مجمع نيقية الثاني سنة ٧٨٧ صدر القرار التالي، والذي عدل نوعا ما كان سائدا من عبادتهم:« إنا لا نحكم بأن توضع الصور في الكنائس والأبنية المقدسة والملابس الكهنوتية فقط، بل في البيوت وعلى الجدران في الطرقات، لأننا إن أطلنا مشاهدة ربنا يسوع المسيح ووالدته القديسة والرسل وسائر القديسين في صورهم شعرنا بالميل الشديد إلى التفكير فيهم والتكريم لهم، فيجب أن تؤدى التحية والإكرام لهذه الصور، لا العبادة التي لا تليق إلا بالطبيعة الإلهية»[5]

سكت قليلا، ثم قال: ليت الأمر اقتصر على المسيح وأمه، بل إن الكنيسة تجرأت فصورت الله كما تصور

(١) انظر الكتب التي تتحدث عن العلمانية التي سبق ذكرها.

(٢) قصة الحضارة ١٥٤/٢٤.

(٣) انظر الفصل الأول من هذه الرسالة.

(٤) قصة الحضارة ١٤.

(٥) محاضرات في النصرانية: ١٦٤.

المخلوقين..

لقد قال الفنان الذي هرب من المسيحية إلى الإسلام (ناصر الدين دينيه):« الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي لم يتخذ فيه الإله شكلاً بشريا أو ما إلى ذلك من الأشكال.. أما في المسيحية فإن لفظ الله تحوطها تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن في السن قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال، فمن تجاعيد الوجه غائرة إلى لحية بيضاء مرسلة مهملة تثير في النفس ذكرى الموت والفناء، ونسمع القوم يصيحون (ليحي الله) فلا نرى للغرابة محلاً، ولا نعجب لصيحاتهم وهم ينظرون إلى رمز الأبدية الدائمة، وقد تمثل أمامهم شيخاً هرماً قد بلغ أرذل العمر، فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء، وكيف لا يطلبون له الحياة؟ كذلك (يا هو) الذي يمثل به طهارة التوحيد اليهودي، فهم يجعلونه في مثل تلك المظاهر المتهالكة تراه في متحف الفاتيكان ونسخ الإنجيل القديمة المصورة »[1]

والعجب أن أحد علمائنا الكبار يقول مقررا:« لا يمكننا أن نفهم الله إلا عن طريق تصوره بالصور البشرية »[2]

التفت إلي، وقال: أتدري كيف تسربت هذه الوثنية إلى المسيحية؟

قلت: لا..

قال: لقد كان هدف الأكبر لمبشرينا هو إدخال أكبر عدد من الناس، ولو على حساب المبادئ والقيم والقوانين التي تحفظ صفاء الدين.. وهذا ما تختلف فيه مع الإسلام اختلافا جذريا.

سأضرب لك مثالا على ذلك.. لقد دخلت بعض الجزر البريطانية في المسيحية.. وكانت شديدة التمسك بوثنيتها.. ودار بينهم وبين الكنيسة صراع طويل، ولما رأى البابا (جريجورى) ذلك اصطنع اللين مع من بقى في إنجلترا من الوثنيين، وأجاز تحويل الهياكل إلى كنائس بأن تحول عادة التضحية بالثيران في يسر ولطف إلى ذبحها لأنعشهم لمديح الله، وبهذا كان كل ما طرأ على الإنجليز من تغير، هو تحولهم من أكل لحم البقر حين يحمدون الله إلى حمد الله حين يأكلون لحم البقر »[3]

التيه:

قلت: لقد طلق الناس الكنيسة.. فهل وجدوا فنا صالحا يخدم ما وجدته من أهداف بعدها؟

قال: الفن مثل الثمرة.. وكما أن الثمرة لا تلام على نوعها ولونها، فكذلك لا يلام الفن؟

قلت: فمن الملوم؟

قال: البذرة.. البذرة هي التي تنتج الثمرة.. كما قال المسيح:« هل تجتنون من الشوك عنبا، أو من الحسك تينا.. هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارا ردية » (إنجيل

---

(١) أشعة خاصة بنور القرآن: ٢٥.

(٢) الله واحد أم ثالوث: ١٤.

(٣) قصة الحضارة ١٤: ٣٦٨.

متى:٧/١٦-١٧)

قلت: فما البذرة؟

قال: هي الأفكار التي تملأ عقل صاحبها وقلبه، فيأبى إلا أن يعبر عنها بما يطيق من صنوف التعبير.

قلت: فهمت هذا.. ولكني سألتك عن أنواع الفنون التي هرع إليها قومنا بعد أن طلقوا الكنيسة.

قال: قد أجبتك.. لقد توزعت عقولهم تبحث عن أي شيء يغطي ذلك اللهث وراء الحقيقة.

قلت: فهل وجدوها؟

قال: للأسف قل من وجدها.. مع أنها كانت أقرب إليهم من حبل الوريد.

قلت: فما الذي منعهم منها؟

قال: أنفسهم.. الكبر الذي كانت نفوسهم ممتلئة به منعهم.. فلذلك وقعوا في وديان سحيقة لم تزدهم إلا بعدا عن الحقيقة.

قلت: هذا كلام عام أريد تفاصيله.

قال: كثيرة هي تفاصيله.. ولكني سأذكر لك نماذج عن ذلك التيه الذي وقع فيه قومنا، ووقع فيه الفن بسبب ضياعهم.

١ ـــ الكلاسيكية الجديدة:

قلت: فما النموذج الأول؟

قال: أول قبلة التفت إليها قومنا ـــ بعد أن طلقوا الكنيسة ـــ جذورهم الأولى.. وجاهليتهم الأولى.. لقد وجدوا أن الكنيسة لم تلب مطالبهم النفسية.. فعادوا إلى الخلف يبحثون عنها.

قلت: تقصد المدرسة الكلاسيكية؟

قال: أجل.. فقد اقترن ما نسميه (عصر النهضة) الأوربية بالحركة التى نشأت فى إيطاليا، واستهدفت بعث الآداب الإغريقية القديمة التي أطلق عليها أسم (الآداب الإنسانية) تمييزا لها عن كتابات رجال الكنيسة اللاهوتية.

لقد فوجئت أوروبا الغارقة فى سبات القرون المظلمة بنور الحضارة الإسلامية فانبهرت به وأحست بواقعها المرير تحت ضغط الكنيسة التى جثمت على فكرها وشعورها وسلوكها وأفقدتها الإحساس بإنسانيتها.

وهذه اليقظة المفاجئة أوقعت النفسية الأوربية فى مأزق حرج إذ تصادم فى داخلها دافع ومانع قويان: الأول دافع الاستمتاع بنور الإسلام والدخول فى فردوس حضارته حيث التوازن الفريد بين الدنيا والآخرة، وبين الروح والجسد، ففى ظله تنطلق إنسانيتهم لتعبر عن ذاتها بعيداً عن أغلال الرهبانية وشطط الكنيسة.

والآخر مانع التعصب والعداوة الحاقدة للإسلام وحضارته تلك التى عمقتها الحروب الصليبية.

وكان المانع أقوى من الدافع، فخرجت أوربا من ذلك التناقض النفسى بالبحث عن وسيلة تتيح لها الخلاص من براثن السلطة الكهنوتية الطاغية دون أن تتخلى عن تعصبها وعداوتها للإسلام وأهله و لم تكن تلك الوسيلة سوى عملية (اجترار الماضى) ببعث تراثها الوثنى الإغريقى والالتصاق به لاسيما جوانبه الشهوانية

البهيمية.

قلت: لقد كان للكنيسة بعض سلطة في ذلك الحين.. فكيف لم تثر عليه؟

قال: نعم.. لقد أزعج هذا التوجه الكنيسة.. ولكنه ــ مع ذلك ــ كان أفضل لديها من إقبال أتباعها على الإسلام.

لقد حاولت جهدها أن تسير الموجة لصالحها، وتسيطر على الوضع بحيث تبقى عقائدها وتصوراها تصبغ الأدب، وتظل بصماها بارزة فى فنه المنحوت والمرسوم، ولكن عوامل التحرر والانطلاق كانت أقوى من حواجزها، واستطاع عصر النهضة أن يخطو خطوات كبيرة وجريئة للوصول إلى علمانية كاملة للأدب والفن عليها قام الأدب العلمانى الحديث وارتكز[1].

قلت: أراك تتكلم عن هذا النوع من الفن باعتباره جاهلية.. ولكني بحسب ما أعلم هو الفن الذي تولى التعبير عن العواطف الإنسانية العامة.. وربطه بالمبادئ الأخلاقية، ووظفه لخدمة الغايات التعليمية واحترام التقاليد الاجتماعية السائدة.

قال: هذا ما يقال.. وفيه بعض الحقيقة.. وفيه كثير من الباطل.. سأذكر لك بعض خصائص هذا التوجه لترى نواحي الجاهلية فيه.

لقد كانت الخطوة الأولى التي خطاها هذا النوع من الفن في انفلاته من الكنيسة هو إحياء الآداب الإغريقية.. حيث استطاع أدباء وفنانو النهضة النفاذ إلى عالم آخر خارج من مألوف عصرهم ولا أثر فيه لشيء من اللاهوتيات.

لقد نفذوا أول الأمر من كوة صغيرة، لكنها ظلت تتسع حتى انتفض بناء الكنيسة والتقاليد من أساسه، وطلعوا على الفكر الأوروبى بمفاهيم جديدة ومعايير سبقوا بها النهضة الفكرية العقلانية، وذلك ما يعده الفكر الحديث أعظم مآثر النهضة.

قال (برنتن):« إنه طالما كانت العصور الوسطى فى الواقع عصوراً دينية، وطالماً أن عصر النهضة يعنى على الأقل محاولة العودة إلى الوثنية اللادينية إن لم نقل الزندقة، فإن فن العصور الوسطى يرتبط بالكنيسة، أما فن عصر النهضة فيتمتع بحرية بوهيمية، وهذه هى حقيقة الأمر، وكان النحاتون والرسامون فى ذروة عصر النهضة يقلدون العرى الكلاسيكى، كما يقلدون كل شئ كلاسيكى آخر، فالفنان بدأ شيئا يشبه نوع الحياة، وحشياً فاحشاً مجازفاً، ولكنه عظيم الأهمية ومن المفروض أنه لا يزال يقوده »

ويقول:« لقد كان فنانو عصر النهضة الذين كرسوا جل حياهم الفنية لغرض جعل المعتقدات المسيحية واضحة تبدو فى أجمل مظاهرها للعيان يستمرون فى القيام بالأعمال التى ورثوها علن الرواد السابقين للعصور الوسطى، هذا وقد تحول الفن فى العصور الحديثة إلى فن علمانى تقريباً حتى أن الفن الدينى كاد يختفى، أو بالأحرى أصبح فى الدرجة الثانية استنتاجاً وتقليدياً »

---

(١) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب.

ويقول:« إن الكتاب الخياليين هم الفنانون القريبون من قلب الوضع الإنسانى نحو الحياة. إن بترارك ورابله وشكسبير وسرفانتس والرسامين والنحاتين والموسيقيين الذين لا نزال نعلم أسماءهم هم نوع من الرجال الذين ينشدون طريقاً وسطاً بين المسيحية التقليدية كما خلفتها العصور الوسطى، وبين العلمانية الحديثة التى يبدو أنها تقلع جذور السحر والسر من الكون.. كان هؤلاء الفنانون فى تمرد مدرك كثيراً ضد التقليد المسيحى خلال العصور الوسطى ــ لقد أنكروا مستنداً وبات عليهم ــ وهذا أكثر أهمية ــ أن يبحثوا بل يقيموا مستنداً آخر، فقبول هؤلاء العلماء المجرد لأى شئ كتبه قدماء اليونانيين والرومانيين لم يكتف به رجال الفكر، وككل شخص ألم بكل ما له علاقة بالعقل عاد هؤلاء الفنانون إلى اليونانيين والرومانيين، وكانوا بذلك كالمهندس المعماريين حيث أعادوا تجديد موادهم »[1]

هذه هي المبررات النفسية التي انطلقت منها المدرسة الكلاسيكية، أو العصر الكلاسيكي[2].

قلت: لقد وضعت معيارين للحكم على الفنون، هما التوحيد والتهذيب.. فهل ترى هذا النوع من الفن مناقض لهما؟

قال: كل المناقضة.. ولا ينبغي أن يكون الأمر إلا كذلك.. فلا يمكن لمن زرع شوكا أن يجني عنبا.

قلت: فحدثني عن دلائل ذلك.

قال: هذه المدرسة كما ذكرت لك ــ أو هذا العصر ــ انطلق رد فعل على الكنيسة وعلى الخرافات الكنيسة..

ولذلك كان أول ما اهتم به هو الحياة الدنيا.. والإنسان.. لأن الكنيسة كانت تلغي كليهما.

قلت: هذا مكسب جيد.

قال: ولكنه مكسب منحرف.. لأنه لم ينتج فعلا.. وإنما نتج رد فعل.. ورد الفعل صراع.. والصراع لا يأتي بخير.

لقد كانت الكنيسة تحصر كل النشاط الفكرى والفنى لأتباعها فى مجال الحديث عن الثالوث والقديسين والملائكة والمعجزات وكبت المشاعر والأحاسيس الإنسانية أيا كانت ما لم تكن فى حدود دائرتها اللاهوتية.

ولهذا جاءت هذه الحركة تناقض ذلك تماما حتى أطلق عليها وصف (الإنسانية)

لقد قام دانتى (ت ١٣٢١م) فى هذا المجال بمثل ما قام به (مكيافيللى) فى مجال السياسة، فقد خرج على

---

(١) منشأ الفكر الحديث: ٢٧، ٢٨، ٣٣.

(٢) يرى بعضهم أن التعبير الأليق هو اعتباره ما يسمى بمذاهب الأدب عصورا أدبية، لا مذاهب أدبية.. ومنهم الكاتب الكبير أنور الجندي، فقد قال في هذا:« إن مذاهب الأدب التي يحاول النقاد محاكمة الأدب العربي إليها، هي في جملتها مذاهب غربية، وضعت مسمياتها ومناهجها بعد قيام ظواهرها في الآداب الأوروبية، وهي في الحق ليست مذاهب، وإنما هي أسماء عصور: كالكلاسيكية والرومانسية وغيرهما، وهي تتصل في مجموعها بتاريخ الأمم التي وضعت هذه المذاهب، فلماذا تنقل لتكون قوانين يخضع لها أدبنا الذي يختلف من حيث تكوينه وطابعه وتاريخه، وبيئته ومظاهر حياته عن هذه الآداب؟»

الكنيسة خروجاً صريحاً، وناقص تقاليدها ومقاييسها، وابتداء منه أخذ الأدب الأوربى يحل الإنسان شيئا فشيئا محل (الإله).. وبذلك انتقضت عروة التوحيد.. وارتباط الفن بالغاية الكبرى من وجود الإنسان.

لقد صار الاهتمام بالإنسان ـــ الذى نبه إليه دانتى ومعاصروه ـــ المنطلق لمحاولة تأليه الإنسان وتصويره على أنه اله حقيقى، وهى المحاولة التى بدأت فى القرن التاسع عشر واكتملت على يد (سارتر) وأشياعه فى هذا القرن مروراً بتأليه الطبيعة الذى دعا إليه عصر التنوير.

ذكر (داونز) ذلك، فقال:« يقف (دانتى) كما وقف صديقه ومعاصره المصور الرسام (جيوتو) على رأس حقبة جديدة فى تطور الفكر البشرى، ولما كان كلاهما فناناً عظيماً، فإنهما عبرا أصدق تعبير عن ذلك الشيء الجديد الذي ربما كان يجيش فى صدور الكثير من معاصريهم، ولكنهم لم يستطيعوا الإفصاح عنه كما أفصحا»

ويقول:« وهذا الشيء الجديد هو (الإنسانية).. أو هو بتعبير آخر الاهتمام بشئون الإنسان فى الحياة الدنيا.

ونستطيع أن نتفهم خطورة هذا الجديد الذى يزاحم القديم إذا قارناه بالعقائد المسيطرة على أذهان الناس فى ذلك العصر عن الحياة والكون ... ومؤداها أن الحياة الدنيا ليست إلا تمهيداً لاستقبال الحياة الأخرى، وقد هيمن هذا الاعتقاد على الناس فى القرون الوسطى جيلاً بعد جيل تحت سطوة الكنيسة وسيطرتها العاتية على جميع نواحى النشاط الإنسانى وجميع المؤسسات الاجتماعية بينما كان علم العلماء كله يدور حول المبادئ الدينية والعقائد الكنسية »

ويقول:« ثم جاء عقب ذلك عصر الاستنارة، وهو أول تبديل جديد طرأ على الناس فى نظرتهم للحياة، فاتجهوا إلى أحضان الطبيعة يستوحون منهما أسرار الكون ووضعوا ثقتهم المطلقة فى مقدرة العقل الإنسانى »

ويقول:« وقد نادى بهذا نفر من عباقرة ذلك العصر، ... كان مجالهم الفكرى فى ناحية الاهتمام بشؤون الإنسان فى هذه الدنيا وترك الاهتمام بشؤون الآخرة »

ويقول:« وأما (جيوتو) فكان فنان هذه النهضة كما كان دانتى شاعرها فقد أخذ جيرتو يرسم على جدران كنائس مدينة (أسيزى) صوراً وأقاصيص لحياة القديس فرانسيس عرض بها رسوماً من الناس والطبيعة والطير والحيوان والزهور من واقع الحقيقة والمشاهدة وهو حدث جديد فى الفن وخروج التقليد القديم فى تصوير العذراء والطفل وتصوير القديسين ».

ويقول:« إن ملحمة الكوميديا كانت حدثاً جديداً فى الأدب، حدثاً ضخماً لم يسبق له مثيل، فليس إذن من العجب أن يدعوها الناس بلقب (الإلهية) لأنهم شعروا عند ظهورها أن أدبا أوروبيا جديداً قد انبثق فجره »

ويقول:« إن الناس كانوا يعتقدون ما علمتهم الكنيسة من أن كل إنسان يكفر بالمسيحية جزاؤه جهنم، وأما من يؤمن بها فمآله إلى الجنة، وجاء دانتى فخرج من تلك العقيدة القديمة وأقام موازين جديدة للعقاب والثواب على أساس من الأخلاق.. وعندما ننظر اليوم إلى الوراء نجد شاعراً يوزع بالقسطاس العقاب والثواب بدلاً من أن يوزعها البابا، فإننا لا نرى فى عمله شيئا خارقاً غير أنه بالقياس إلى عصره كان لا شك انقلاباً خطيراً »

ويقول:« وقد صدق الشاعر بوب عندما عبر عن فلسفة القرن التالى (١٨) بقوله:« إن خير دراسة يقوم بها البشر هى دراستهم للإنسان »، وقد كان شكسبير قبله خير من قام بهذه الدراسة، والحق أن شكسبير يمثل أرقى ما بلغت إليه حركة النهضة الأوربية بأجمعها، وهى فى لبابها تتلخص فى اكتشاف الجنس البشرى لقيمته وأهميته التى كانت قد ضاعت على مر العصور »[1]

وبذلك بدأ الانحراف الثاني للفن.. وهو الانحراف عن غاية التهذيب..

وذلك شيء منطقي.. فكل فن يبتعد عن التوحيد لابد أن يبتعد عن التهذيب.. ويكون بعده عن التهذيب بقدر بعده عن التوحيد.

وبما أن هذا المذهب ابتعد كثيرا عن التوحيد.. فقد ابتعد بمثل ذلك عن التهذيب..

لقد عاد المذهب المناهض للكنيسة وللرهبانية، فأحيا الإباحة الرومانية، وأعاد معها إحياء المذهب الأبيقورى فى التمتع بضروب الملذات والانغماس في الشهوات الجسدية.

وهكذا كان عصر النهضة يتسم بطابع كلاسيكى خاص يقدس الجسد، ويعبد اللذة فى وقت لا تزال الرهبانية فيه هى المثل الأعلى، ووجه زعماء ذلك العصر أنظار الناس إلى مثالب الرهبانية بحجة منافاتها (للإنسانية)، وهو الوصف الذى كانوا يتسترون به.

يقول مؤلف (تكوين العقل الحديث):« الحقيقة أن هذا الاهتمام بالإنسانية عاش بصورة قوية واضحاً منذ العصور التى سبقت غزوة المسيحية للبرابرة، فالحياة التى صورها هوميروس فى الملاحم الوثنية تعكس لنا الوجود الإنسانى ... وجل ما استطاع التقليد المسيحى هو أن يشوه سمعتها .... وقد انتشر خلال القسم المتأخر من القرون الوسطى تيار من الأغانى المبتذلة تمجد التمتع الصريح بالحياة وملذاتها، وكانت هذه الأغانى كثيرة التحرر مفرطة فى وصف النواحى الحيوانية »

وكمثال على ذلك هذه القصيدة المبتذلة:

نحن فى تجوالنا مغتبطون مشرقون ...
نأكل حتى الشبع نشرب حتى الثمالة ...
نمرح إلى الأبد ننهل من الجحيم ...
تلتصق صدور بعضنا ببعضنا ...

وعندما نشأ أدب علمانى عامى لم يجد إلا أن يصدر من نفس التمتع الوثنى بخيرات الحياة الرفيع منها والوضيع، فالشعراء المغنون (التروبادور) حولوا الفروسية المسيحية إلى تمجيد للحب الإنسانى ... ومن الجدير بالملاحظة أن أكثر هذه القصائد صراحة وواقعية نشأت من الثقافة البرجوازية فى المدن، فالأقاصيص الفرنسية البذيئة وصفت بصورة حاذقة التمتع بضروب الحياة كما كان يحصل فى الواقع وتميزت بشغف خاص بسرد قصص الماكرين الأوغاد ومثالب الكهنة كما نجد ذلك فى قصائد شوسر ومعرض صور الأوغاد التى رسمها

---

(١) كتب غيرت وجه العالم: مقتطفات: من ٣٦٢ — ٣٦٨.

بوكاشيو.

لقد رسم بعضهم صورة للفن في ذلك العصر، فقال:« انفجرت العاصفة بكامل عنفها على رأس الراهب، ذلك أن فشل الراهب فى تحقيق الطهارة التى بشر بها جعلت أدب القرون الوسطى منذ ولادته يعطى لزلات الراهب صورة أكثر بشاعة، وصورته بأنه أكثر حيوانية من سواه، وجاء أحذق الإيطاليين وأجرؤهم إطلاقاً لورنزفالا ... فأنكر فى كتابه (حياة الرهبانية) كل قيمة للتقشف والقداسة، وذهب أبعد من ذلك فى رسالته عن اللذة التى يتفق فيها مع المذهب الأبيقورى، فأعلن أن المرأة المتزوجة بل المستهترة أيضا هى أفضل من الراهبة، لأنها تسعد الرجل أما الراهبة فهى تعيش فى تبتل لا فائدة منه، وينعت موت الإنسان فى سبيل بلاده أو من أجل أى مثل أعلى بأنه لا يقره العقل.

وهذا التحول المفاجئ يوحى فى بعض الأحيان بالرجوع إلى ما يشبه الوثنية الخالصة، ويمثل الفن الإيطالى أحسن تمثيل المزج الكامل بين المسيحية والوثنية فلو ألقينا نظرة على بعض الرسوم الشهيرة هل نستطيع التفريق بين الله والملاك والعذراء والصبى وكيوبيد والقديس »

وقال:« ثار الإيطاليون على الأخلاق المسيحية، واستبدلوا بها مجرد التمتع بالملايين من أشكال الجمال ... لكن الشعوب الشمالية وجدت فى الحياة أكثر من الجمال وقد مثل هذه الروح فيما كتب رابليه الكبير ...

وتتجسم روح ثورة النهضة فى مقطع يطلب منارابليه فيه « أن نهرب من أولئك الرعاع ذوى العقول الزائفة الماكرين والقديسين المزورين الوقورين الهيئة المرائين مدعى الإيمان، الإخوان الخشنين الرهبان الذين يلبسون النعال ... أهرب من هؤلاء الرجال عليك بكراهيتهم واحتقارهم قدر ما أكرههم أنا وإننى لأقسم لك أنك إن فعلت فستجد نفسك أفضل حالاً »[1]

هذه هي بداية جاهلية التيه والضياع.. وقد تلى هذه الجاهلية جاهليات أخرى عمقت ما بدأ به هذه الجاهلية من البعد عن الله.. والبعد عن الإنسان.

٢ ــ الرومانسية:

قلت: لقد خرجت أوروبا من عصر النهضة وابتدأ ما يسمونه (العصر الحديث)

قال: و لم تطق أوروبا الاستمرار مع (الكلاسيكية).. بل ارتدت عليها كما ارتدت على الكنيسة..

قلت: لقد ارتدت عليها فيما يسمى (عصر التنوير)[2]..

قال: أجل.. وقد بدأ مذهب فني جديد.. أو عصر فني جديد.. هو (الرومانسية)

قلت: إن سمعة الرومانسية بيننا طيبة، فهي مذهب فني يهتم بالنفس الإنسانية وما تزخر به من عواطف ومشاعر وأخيلة.

---

(١) مقتطفات من: راندال: ٢/١٨٥ – ١٩٨.

(٢) لا شك أن الثورة الفرنسية (١٧٩٨م) هي أحد العوامل الكبرى التي كانت باعثاً ونتيجة في آن واحد للفكر الرومانسي المتحرر والمتمرد على أوضاع كثيرة، أهمها الكنيسة والواقع الفرنسي وما فيه.

قال: ولكنه اهتمام منصرف عن الركنين الأساسين اللذين يجعلان الأدب سلما للكمال والتهذيب والإصلاح.

قلت: ما تقصد؟

قال: لعل أصدق تعبير عما حصل في ذلك العصر هو ما قاله مؤلفو كتاب (ثلاثة قرون من الأدب).. لقد قالوا:« إن القرن الثامن عشر لم يخصص للدين، وإنما خصص للعلم والسياسة، فلم يعد زعماؤه قساً مسيحيين ... بل فلاسفة طبيعيين ..... لقد كان التغير عميقاً ومن نواح عدة كان القديم والجديد عن طرفى نقيض، فالتطلع إلى ما وراء أشياء هذا العالم قد تراجع أمام التطلع إلى أشياء هذا العالم، لقد أصبح القديسين الدائر حول محور الله عالما إنسانيا محوره هذا العالم والحياة التى كانت تسير بهذا الكتاب المقدس، و لم يعد العالم مكاناً حيث العناية الإلهية دائمة الحضور والفعل تضبط وتدير كل ما يحدث حتى التافه منه (!) حتى الله ذاته لم يعد شخصياً، أبا يحب ويرهب، بل أصبح قوة عاقلة سحيقة البعد لا شخصية، (علة أولى) أدارت الآلة وتركتها تعمل بنظام كامل وفق نواميس رياضية وفيزيائية ويسوع ابن الله أصبح يسوع ابن الإنسان(؟!) »

« و لم يعد موضوع البحث للجنس البشرى هو الله، بل الإنسان »

« وتحسين حال الإنسان يمكن توقعها لا عن طريق الدين بقدر ما يمكن توقعها عن طريق العلم والتربية والسياسة التى بها يستطاع إصلاح المجتمع»

هذه هي الميزة الأول للرومانسية، وعنها نشأ (تأكيدها على سيادة القلب وحياة النفس الداخلية).. أي حصر كل الاهتمامات فى حدود الكائن البشرى، بل فى أعماق النفس الفردية.

ولهذا ينتقد الرومانسيون الكلاسيكية بأن الهدف منها تصوير البشر، لا كما هم فعلياً ولكن كما هم مثالياً..مما جعل الأدب تقليدا وليس تعبيراً، ولذلك فقد أهمل الرومانسيون الملاحم وحوروا المسرحيات، ونحوا بالأدب منحى شخصياً داخلياً، فالكتابة الفنية تأتى فى صورة اعترافات أو سيرة ذاتية والشعر يصبح غنائيا عاطفياً يعبر عن المعانى الوجدانية للبشر كالعشق والفرح والألم ويبتغى ــ بالدرجة الأولى ــ إثارة السامع وامتاعه.

وكان من أبرز العوامل الاجتماعية المهيئة لذلك طابع الفروسية التى كانت فى ريعان شبابها إذ احتضنت الرومانسية حتى اندمجت فى كيانها، وأصبح الرومانسيون اللسان المعبر عن الحياة الفروسية بخصائصها وفضائلها.

وقد أفصح بعض زعماء المذهب عن علاقة (رد الفعل) القائمة بين الاتجاه الرومانسى والمسيحية، فالمسيحية كما عرفوها تكبت الإنسان و(تصيبه بالميلانخوليا)، ومن ثم فهى مسؤولة عما أصاب الإنسانية من الانطواء والكآبة (وقد عزا الناقد الرومانسى الألمانى شليجل الكآبة إلى الدين المسيحى الذى جعل الإنسان منفياً يشتاق إلى وطنه البعيد)[1]

وانطلاقاً من ذلك وتمشياً مع التركيز على التعبير عن الذات جهد أولئك فى أن يحولوا الشرق الصوفى

---

(١) ثلاثة قرون من الأدب: ١٣٤/١.

المسيحى الذى كان يتجه إلى الله أو (يسوع) إلى حب عذرى أو إباحى يعبر عنه فى أسلوب غنائى، ويتجه إلى الجمال الخارجى للمحبوب الذى كان فى الغالب امرأة وأحياناً (الطبيعة)

قلت: فقد انحرفت الرومانسية بالفن إذن عن الغايات التي ذكرتها.

قال: أجل.. وذلك شيء طبيعي.. فقد انتشرت في ذلك العصر عبودية إلهين مقدسين بدل أقانيم الكنيسة هما (الطبيعة والعقل).. الطبيعة التي حلت محل (الله).. والعقل الذي حل محل (الوحى)

وقد وثق الهاربون من طغيان الكنيسة العلمى فى مقدرة العقل وثوقاً أعمى، وكان لكشف كوبرنيكس وقانونين جاليلو ونيوتن ومبادئ بيكون وديكارت العقلية أعظم الأثر فى تمجيد العقل بل عبادته، ولما كان جل همم إغاظة الكنيسة والانتقام من عبوديتها فقد اشتطوا وغلوا فى ذلك إلى أبعد الحدود.

لكنهم ما كادوا يلتقطون أنفاسهم وتستقر أعصابهم من مطاردة الكنيسة حتى بدأ بعضهم يبحث عما إذا كان إله (العقل) جديراً بما أعطى من قيمة وتقديس أم لا؟

وكانت النتيجة مرة.. وهى أن العقل عاجز حقاً عن تفسير الطبيعة، وإذ كان كذلك فهو أعجز عن تفسير النفس الإنسانية وفهمها.

واستطاعوا أن يكتشفوا طريقاً آخر أرحب من العقلانية بمنطقها الجامد وقوالبها المحددة، وأقوى من العقل اختراقاً للأسرار وتبديداً للغموض، ألا وهى (الشعور العاطفى)، ذلك الشعور الذى يمتطى آفاق الخيال الواسعة، فيسبر أغوار الذات الإنسانية العميقة ويستجلى جمال الطبيعة.

وهكذا أخذ الرومانسيون يرتفعون رويداً رويداً عن الأرض ويحلقون فى الفضاء السحيق ولكن إلى غير الله.. ومن غير طريق المسيحية.

كانوا يتحدثون عن الحب، ويبحثون عن الجمال، ويفلسفونها فى أساليب ضبابية كثيفة، كما كانوا يتحدثون عن الشياطين والملائكة والسحر والعوالم المجهولة فى محاولات دائبة ويائسة لاستكناه أسرار الكون وتحقيق السعادة الداخلية.

وأصبحوا ينقبون عن الحقائق الأبدية ـــ لا فى الكتاب المقدس، ولا فى المؤلفات العقلية ـــ ولكن فى صفحة الطبيعة الخلابة ومناظرها الحالمة، وكل هذا أفضى بهم إلى مثالية معرفة جوفاء أعظم فى بعض جوانبها من تلك التى انتقدوها على الكلاسيكيين.

ونتيجة أخرى مهمة هى أن الرومانسية باعتقادها أن غاية النشوة وقمة السعادة تكمن فى أن يطلق الإنسان عنان نفسه لتذوب فى حب الطبيعة ويفنى الصوفى فى معبوده ولذا أحلت (الطبيعة) محل (الله) والشعور محل العقل.

وبهذا تكشفت الرومانسية عن صورة وثنية جديدة « وكل الكلام الجميل المعسول الذى قيل لتبرير هذه الوثنية: أن الطبيعة (محراب) الله وأن الجمال (صورة الله).. إننا نعبد الله فى خلقه ... إلى آخر هذه الجمل (الرومانتيكية) البراقة.. كل هذا الكلام لا يستطيع أن يخفى تلك الروح الوثنية الغارقة فى الوثنية التى تعبد

المحسوس فى حقيقة الأمر لأنها تعجز عن إدراك (الله) بالروح ... والروح غنية بالمحسوسات »[1]

لقد عبر روسو ــ رائد الرومانسية ــ عن ذلك أوضح تعبير فى (راهب سافوى) الذى هو صورة لذاته، إنه راهب بالفعل، ولكنه يختلف جذرياً عن رهبان الكنيسة، فهو راهب فى صومعة الطبيعة يسبح بحمدها ويقدس لها.

وفى كتابات روسو (الاعترافات مثلاً) وقصائد بوب (مقال عن الإنسان) وجوته (فاوست) وكذلك كيتس ولامارتين وأضرابهم نماذج واضحة للمذهب الرومانسى فى أوج مجده.

٣ ــ الواقعية:

قلت: لقد ارتددنا على الرومانسية كما ارتددنا على الكلاسيكية.

قال: ذلك شيء طبيعي.. لقد عبر القرآن عن هذه الارتدادات التي تصيب من لا يصيب الحق، فقال:﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور:٣٩)

فالظمآن حسبما تشير إليه هذه الآية يظل ظمآن ما دام لا يجد إلا السراب.. وحبه للماء يجعل يلهث وراء كل سراب طمعا في أن يكون ماء.. ولكن السراب لا يتحول إلى ماء.

قلت: فأين القرار؟

قال: لقد ذكرته الآية:﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ﴾.. القرار لا يكون إلا عند الله.. ولا يكون إلا في التوحيد.. لقد قال القرآن:﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ (القمر: من الآية٣)

القرار والسكينة والطمأنينة مفردات لا يمكن أن توجد إلا في النصوص المقدسة التي لم تمتد إليها يد العابثين.

قلت: فما السراب الجديد الذي خلف الرومانسية؟

قال: عقلك يدل عليه..

قلت: لم أفهم..

قال: ما دامت الرومانسية التي هي هروب للخيال لم تطفئ ظمأ الإنسان.. فإنه سيفر من الخيال ليبحث عن الواقع..

قلت: فقد خلفتها الواقعية إذن؟

قال: أجل.. وبئس الخلف كان.. لقد وقعت الواقعية في رذائل لم تسبق إليها.

قلت: كيف كان ذلك؟

قال: لقد كانت الرومانسية بخيالها الجانح صورة صادقة لما يمكن أن يسمى (عصر الهروب).. الهروب من

---

(١) جاهلية القرن العشرين: ٢٢٦ – ٢٢٧.

طغيان الكنيسة، والهروب من نير الإقطاع، والهروب من تقاليد الماضي[1].. وجاءت الثورتان الفرنسية والصناعية وجاءت الحروب الدينية والقومية، وتغيرت ملامح الحياة تغيراً بارزاً، فكان لا بد لصورة الحياة (الأدب) أن تتغير كذلك.

في هذا العصر ــ الذي دخلت فيه الآلة حياة الإنسان ــ لم ينحصر الاهتمام بالإنسان دون الآلة فحسب، بل اقتصر ــ من الإنسان ــ على وضعه الدنيوى ومكانته الاجتماعية.. وعلى واقعه المعيشى وجزء معين من نزواته ورغباته والظروف المحيطة به التي يتأثر بها سلباً وإيجاباً.

وكعادتنا في السقوط الحر سقطنا سقوطاً مفاجئاً من الفضاء السحيق إلى الوحل الهابط.

لقد كانت الرومانسية تحاول تصوير أعلى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان من القوة والمثالية فى مواجهة تحدى الإله أو الطبيعة أو حتى نزواته وأهوائه، فجاءت الواقعية لتصوره فى أدنى ما يمكن أن يصل إليه من الهبوط فى لحظات الضعف القاتلة.

لقد كان الإنسان ــ في الرومانسية ــ يصارع الأقدار، ويحاول إخضاع الطبيعة.. ولكنه في (الواقعية) ينهزم بضعف أمام نزوة عابرة ولذة ساقطة.

لقد أخذ الواقعيون على الرومانسية أنها في جميع أعمالها الفنية تقتصر على تصوير الإنسان المثالى واللحظة المثالية والمنظر المثالى.. ولذلك راحوا للواقع يصورونه، بل يفضحونه من غير محاولة تهذيبه ورفعه.

نظر إلى الأفق البعيد، وقال: لقد كان انحراف الكنيسة هو السبب في كل تلك المصائب.. ولهذا جوزيت بما صنعت..

لقد كال لها هذا النوع من الفن من الهجوم ما لم يتجرأ عليه من سبقه..

يقول مؤلف (قصة الفكر الغربى):« يرد كثيراً فى الأدب الشعبى الوسيط ذكر القسيس الجشع والقسيس الفاسق والقسيس المغرور الذى تشغله أمور الدنيا، وكذلك لا يعطينا شوسر صورة طيبة عن رجال الدين.. ومع ذلك فلم يكن فى كل هذا إلا قليل من المرارة وإنما كان يرمى إلى إنزال القسيس إلى المستوى البشرى العام ولم يقصد إلى تحدى بناء المسيحية الفلسفى والدينى أى نظرتها الشاملة إلى الكون كما قصد إلى تحديها فى أيام فولتير وتوم بين »

وكمثال على ذلك رواية (مدام بوفارى) لجوستاف فلوتير.. والتي حوكم بسببها آنذاك، ففى أحد فصولها تسأل ربة النزل القسيس عما إذا كان يريد جرعة من النبيذ فيتعذر وينصرف، وما أن اطمأن الصيدلى إلى أنه لم يعد يسمع وقع قدمى القس ... حتى أبدى رأيه فى مسلكه، فوصفه بأنه ناب، فقد بدأ رفضه أبغض ألوان الرياء إذ أن القساوسة يحتسون الخمر فى الخفاء، ويحاولون أن يستعيدوا الأيام التى كانت الكنيسة تتقاضى فيها الضرائب من رعاياها.

ومن مشاهدها « يقول صاحب النزل: أنه رغم قولك يستطيع أن يطوى أربعة من أمثالك على ركبته،

---

(١) انظر: جاهلية القرن العشرين: ٢٢١.

لقد ساعد رجالنا على تخزين العشب الجاف..

فيرد الصيدلى: مرحى، أرسلو بناتكم إذن ليعترفن أمام رجال من هذا الصنف (!) لو كنت فى مركز الحكم لأمرت بأن يقصد القساوسة فى كل شهر.. فى سبيل مصلحة البوليس والأخلاق.

فيرد الآخر: كف عن هذا يا مسيو هوميه فأنت كافر لا دين لك.

ويرد الصيدلي: بل لى دين، دينى الخاص، وإن لدى من التقوى ما يفوق ما لدى هؤلاء.. رغم نفاقم ودجلهم إننى على العكس أعبد الله، أؤمن بالكائن الأعلى أؤمن بوجود خالق كيفما يكن كنهه ... ولكنى فى غير حاجة لأن أذهب إلى الكنيسة ... لأسمن من مالى رجالاً لا يصلحون لشىء ... إن المرء ليستطيع أن يهتدى إلى الله فى غابة أو فى حقل أو حتى بمجرد تأمل قبة الأثير.. إن إلهى هو إله سقراط وفرنكلين وفولتير وبيرانجيه، إننى من أنصار الإيمان الذى دعا إليه قس (سافوا) ــ يقصد روسو ــ ومن المؤمنين بمبادئ ثورة ١٧٨٩ الخالدة، ولا أستطيع أن أعبد إلها مزعوماً يسير فى حديقته وعصاه فى يده ويودع أصدقاءه أجواف الحيتان، ويموت صارخاً ثم يبعث بعد ثلاثة أيام، هذه جميعاً فى حد ذاتها سخافات تناقض تماماً كل قوانين الطبيعة، وفى هذا ما يوضح لنا ضمنا كيف أن القسس ظلوا دائماً متشبثين بجهل صلد لا يلين يحاولون أن يدفنوا البشر معهم فى جوفه»

وعلى مثل هذا نمت الحركة الواقعية وترعرعت مواكبة الحياة الأوربية ومصورة لها.. والتى أخذت تتحلل من عقائد المسيحية الكنسية وأخلاقها شيئاً فشيئاً.

٤ ــ اللامعقول:

قلت: ثم ارتددنا على الواقعية..

قال: بسبب ضغوط الواقع ارتددنا على الواقعية.. فسقطنا في أوحال اللامعقول.

قلت: اللامعقول!؟

قال: أجل.. ونحن لا نزال نئن تحت وطأة هذا النوع من الفن.

قلت: كيف سقطنا كل هذا السقوط؟

قال: لقد اجتمعت أسباب كثيرة [١].. أهمها الدجالون..

---

(١) منها:

١. الحربان العالميتان وهما الكارثة التى حطمت القيم والأعراف والقوانين، وأذهلت بفظائعها المروعة عقول البشر، ولا يزال التهديد الذرى احتمال نشوب حرب ثالثة يسيطر على مخيلة الناس ويؤرق شعورهم.

٢. التفسخ الاجتماعى حيث الأسرة محطمة والمشاعر النبيلة مفقودة والتنافس الضارى على أشده مما جعل الإنسان يعيش فى دوامة رهيبة من القلق لا يجد موطئ قدم تسكن نفسه إليه منذ ولادته حتى مماته.

٣. النظريات العلمية الجديدة لا سيما (النسبية) التى أفقدت الناس قيمة الأحكام المطلقة والإيمان والثقة فى أية أسس ثابتة وعامة، ثم إنها تستعمل فى بحوثها عن الكون والإنسان أرقاماً مذهلة يعجز العقل عن تصورها وتتكلم بلغة محيرة مربكة تجعل المرء فريسة تناقض حاد بين إيمانه الوثيق بعلميتها وصدقها وبين عجزه عن إدراك مدلولاتها وتفسير معمياتها.

قلت: الدجالون!؟

قال: أنت تعرفهم.. ولعلك مررت في حياتك بمن حدثك عنهم[١].

قلت: من تقصد؟

قال: من أعطوا صورة للإنسان انحرفت بها عن معنى الإنسان.. فصار الإنسان غير الإنسان.

قلت: فهمت قصدك.. أنت تريد داروين.. وماركس.. وفريزر.. وفرويد وغيرهم من بناة الفكر الذي تنبني عليه هذه الحضارة.

قال: أجل.. وقد كان لداروين وفرويد أعظم الأثر فى ذلك:

فالداروينية ولدت فى النفسية الأوربية شعورين عميقين لا يمكن للفن الأوروبى مهما تعددت مدارسه ومناهجه إلا أن يكون تعبيراً عن أحدهما:

أما الأول، فحيوانية الإنسان التى تلغى المشاعر الروحية تماماً، وتجعل الكائن البشرى كتلة من اللحم كأى حيوان آخر لا هم له إلا إرواء غرائزه البهيمية، والحصول على أكبر قسط من المتاع الجسدى المحض.

وأما الثاني، فالشعور بتفاهة الحياة وحقارتها ونفى أي غاية سامية لوجودها، وهو الشعور الذى عبرت عند مدارس الضياع المختلفة تحت أسماء وشعارات شتى[٢].

وأما الفرويدية، فقد عمقت الاتجاه الحيواني موصلة إياه إلى الحضيض.. وقد صاغته فى فلسفة نظرية منمقة تجعل الوصال الجنسى هو الغاية والوسيلة، بل تجعله محور الحياة ومحور البحث ومناط التفكير وعلة العلل.

وعمقت كذلك الشعور بالضياع والحيرة، لأن فلسفتها الجنسية ـــ حول العقل الباطن واللاوعى واللاشعوري والأنا المثالية ـــ قدمت العوض المعاكس للإيمان والإحساس الروحى.

قلت: هذه البذور.. فما الثمار؟

قال: لا يجنى من الشوك إلا الشوك.. لقد جنينا وجنت أخلاقنا وقيما من ذلك الزقوم الذي غرسه أولئك الشياطين ما لا نزال نصلى بناره.

قلت: أفصح.. وفصل.. فلا دليل أقوى من التفصيل.

قال: أول ثمرة جنيناها من شعورنا بحيوانيتنا وضياعنا هو الإباحية المفرطة..

قلت: اسمح لي بأن أصارحك بأننا في جميع مراحلنا تاريخنا الأدبي والفني لم ننفك عن الإباحية.. لقد قال

---

٤. الوسائل الفنية الجديدة كالسينما والتليفزيون والصحافة المتطورة ودور النشر الكبيرة تلك التى جعلت تعميم المادة الأدبية وذيوعها أمراً ميسوراً للغاية وخلقت جواً من التنافس ومذاهبه، فإنه يتذبذب بين اتجاهين رئيسين هما الإباحية والضياع (انظر: العلمانية، لسفر الحوالى)

(١) انظر الفصول السابقة، خاصة (قيم) و(إنسانية)

(٢) كما سنرى في هذا المبحث.

برنتن:« إن الخشونة والفحش من الصفات الدائمة تقريباً فى ثقافتنا الغربية »[1]

فالأغانى البذيئة ومثلها المسرحيات المبتذلة فى عصر النهضة، ثم عبادة اللذة والجمال فى الرومانسية، ثم الدعوة الصريحة إلى الفجور فى الأدب الواقعى.. وتظل الصورة تفحش إلى أن تصل إلى الأدب المكشوف.

قال: وقد كان هذا النوع من الفن الذي سقطنا فيه مرحلة خطيرة من مراحل سقوطنا في حمأة الرذيلة..

لقد ظهر فنانون كثيرون في ذلك العصر كرسوا فنهم وحياتهم كلها للإباحية..

لن أحتاج لذكر أمثلة لذلك.. فأنت تعرف (الفريددى موسيه) شاعر (الليالى) الذى كان أبيقورياً بأوسع معانى الكلمة.

ومثله (بروسبير) صاحب قصة (كولومبيا).. وألكسندر دوماس، الكبير والصغير.. الصغير المشهور بقصة (غادة الكاميليا).. والكاتبة العربيدة (جورج ساند) صاحبة (ليليا) و(أنديانا).. وغيرهم كثير.

إن أدب كل هؤلاء محصور فى تمجيد الرذيلة وتبرير أعمال العاهرات والإشفاق عليهن، ودخل هذا الاتجاه مرحلة أتم بالمدرسة (الطبيعية) التى يتزعمها الكاتب اليهودى (أميل زولا) وهى مدرسة إباحية متخصصة.

لقد قال تولستوى عن هذا الاتجاه سنة ١٨٩٨:« أصبح المقياس الوحيد للفن الجيد والفن الردئ هو اللذة الشخصية، فالخير هو ما يبعث اللذة فى نفوسهم وهذا هو الجميل، وبذا ارتدوا إلى تصور الإغريق البدائيين الذين أدانهم أفلاطون، وطبقاً لهذا الفهم فى الحياة تكونت نظرية فى الفن »[2]

ويقول:« إننا نشبه الفن المعاصر ـــ مع غرابة هذا التشبيه ـــ بامرأة تبيع جسدها لإرضاء الذين يبتغون اللذة بدلاً من أن تجعله مستودعاً للأمومة، فالفن المعاصر يشبه العاهر فى أدق التفاصيل فهو مثلها ليس وقفا على عصر معين، وهو مثلها مبهرج، وهو مثلها قابل للبيع دائما، وهو مثلها كله إغراء وكله هدم »

ثم جاءت الحرب الأولى، فاكتسب هذا الاتجاه قوة واستشرت رذائله فى الأوساط العامة وانهال الإقبال على إنتاجه الرخيص ووجدها الهدامون والمتكسبون فرصة لنفث سمومهم واستغلال مشاعر الناس واللعب بعواطفهم وإثارة غرائزهم.

لا شك أنك تعرف (ديفيد هربرت لورانس) ١٩٣٠، الذى كتب عدة روايات منها (أبناء وعشاق) و(عشيق ليدى تشارلى) والتى أُثارت ضجة كبرى فى إنجلترا بسبب جرأتها المتناهية فى تصوير العلاقات الجنسية، و لم تنشر كاملة إلا مع بداية الستينات.

وبعده طلع ولسن بـــ (مذكرات مقاطعة هيكث) سنة ١٩٤٦ التى صادرتها محكمة القضايا الخاصة بعد أن بيع منها خمسون ألف نسخة فى نحو أربع أشهر، وهى تصور بالتفصيل الدقيق كما قال هايمان:« عشرين دوراً من أدوار العملية الجنسية يقوم بها أربع عاهرات »[3]

---

(١) قصة الفكر الغربى: ٢٩٧.

(٢) دراسات أدبية: يوسف الشارونى: ٨٤.

(٣) النقد الآدبى: ستانلى هايمان: ٧٥.

ليس هؤلاء فقط.. بل هناك عدد لا يحصى ممن تفننوا فى تصوير أعمال الدعارة والعهر مبريين ومسوغين وأوقفوا حياقم الأدبية لذلك، حيث الجمهور يتلهف لقراءتها والمنتجون يتسابقون لإخراجها مشاهد حية، ولا غرابة فى أن أكثر الروايات الأدبية العالمية انتشاراً هى أكثر إسفافاً ورذيلة.

وهذا كله فى نطاق الأدب الجاد أو الهادف الذى يعد جزءا من التراث الحضارى البشرى، والذى تكتبه شخصيات أدبية مرموقة وترصد له الجوائز والمسابقات الدولية والقومية ويكتب له النقاد والمعلمون.

أما ما يسمى الأدب المكشوف الذى لا يصح أن يسمى أدباً بحال، فهو فى بلادنا ملء السمع والبصر.. يملأ الحوانيت.. ويستنفذ الصحافة.. ويسيطر على دور العرض السينمائى.. ويستغرق أوقات الملايين من الناس.. حتى الأطفال تكتب لهم مسلسلات جنسية وروايات جنسية ومسرحيات جنسية.

قلت: هذه الثمرة الأولى.. فما الثمرة الثانية؟

قال: الضياع والتيه.. فكل المذاهب الفكرية الفلسفية الاجتماعية عجزت عن إعطاء الإنسان أى نوع من أنواع الثقة والطمأنينة.

لقد كان دورها منحصرا في رد الفعل.. منحصرا فى اجتثاث موروثات الكنيسة الهشة.

وأمام العملاق الميكانيكى الرهيب وسيطرة الآلة الطاغية شعر الإنسان بأنه قد سحق وأن وجوده قد تضاءل إلى حد أدنى مما كان عليه وهو يواجه جبرية الكنيسة واضعا مصيره بين يدى قدرها المحتوم.

لقد تحققت نبوءة شبنجلر وتكهنات أورويل عن مستقبل القطيع البشرى، وأصبحت مشكلة الإنسان العظمى فى الحياة هو وجوده حياً، فالكلمة التى قالها أوغسطين:« أصبحت أنا نفسى مشكلة بالنسبة لنفسى » لم تعد خاصة بالفلاسفة بل باتت ترددها شفاه الفرد العادى من أجيال الضياع.

قلت: هذه فرصة عظيمة للبحث عن الحقيقة.. والوصول لها.

قال: ولكن اللامعقول كان متغطرسا متكبرا عن الحقيقة وعن البحث عن الحقيقة.. فلذلك آثر لذة الضياع والتيه على لذة الوصول.

إن هذا الفن يصرح بكل برودة:« إننا لا نؤمن أبداً بالمعانى الجامدة الجاهزة التى يقدمها النظام الإلهى القديم للإنسان وعلى أثره نظام القرن التاسع عشر العقلانى، ولكننا نضع كل أملنا فى الإنسان: إن الأشكال التى خلقها هى التى تستطيع إعطاء العالم معنى»[1]

قلت: لم هذا التكبر على النظام الإلهي؟

قال: وهم الحرية.. مع اختلاط المدارك التي جعلتهم يرون الكون متناقضا تعجز عقولهم عن تفسيره.

ولم يظل هذا الاعتقاد فكرة مجردة، بل بنى عليه الدستور العلمى للفن الذى ينص على أن (الفن للفن)

لقد قال بعضهم تحت عنوان (الالتزام الوحيد الممكن للكاتب هو الأدب):« ليس الصواب الزعم أننا نخدم فى روايتنا قضية سياسية مهما كانت قضية تبدو لنا عادلة، وحتى لو كنا فى حياتنا السياسية نحارب فى سبيل

---

(١) معجم الأدب المعاصر: ٦٢، ٦٣.

انتصارها، إن الحياة السياسية تضطرنا دون انقطاع إلى افتراض معانى (كذا) معروفة: معانى تاريخية، معانى أخلاقية، إن الفن أكثر تواضعاً أو أكثر طموحاً، ففى نظره ليس هناك من شيء معروف مسبقاً، وقبل العمل لا يوجد شيء: لا يقين ولا قضية ولا رسالة فالظن أن عند الروائى شيئا يريد أن يقوله وأنه يبحث بعد ذلك كيف يقوله يمثل أخطر عمل مناقض للحقيقة »[1]

قلت: هذه الثمرة الثانية.. فما الثمرة الثالثة؟

قال: مدارس الضياع.

قلت: ما مدارس الضياع!؟

قال: هي مدراس كثيرة تأسست من بذرة اللامعقول لتزيد في ضياع الإنسان عن حقيقة الإنسان.

قلت: فهلا عرفتني ببعضها؟

قال: لعلك تعرفها.. بل لا بد أنك تعرفها.. فنحن نصبح في مدرسة.. ونمسي في أخرى..

قلت: حدثني عنها.

قال: تعرف **الوجودية!؟**

قلت: تلك التي تنتسب إلى جان بول سارتر (ولد ١٩٠٥م)الفيلسوف والأديب صاحب (الغثيان)، و(الذباب)، و(الباب المغلق).. وعشيقه سيمون دي بوفوار التي قضت حياتها كلها معه دون عقد زواج تطبيقاً لمبادئ الوجودية[2].

قال: نعم.. فالوجودية ليست سوى ثورة سلبية يائسة، لم تستطيع أن تشخص الداء فضلاً عن تقديم الدواء، وكل ما تستطيع أن تقول بصدق أنها قدمته للإنسانية هو عرض بعض جوانب المأساة البشرية، تلك المأساة التي تعبر عنها جملة واحدة (البحث عن الإله).. فهى ترفض الإيمان بالله كما تصوره الأديان ولكنها لا تجد البديل.

والإنسان الذى تحاول تأليهه محصور مقهور أمام القدر الكونى وأمام سيطرة الآلة وأما وضعه التاريخى المحدد.

وهي تهرب من الضياع والتناقض إلى شعارات شتى كالحرية عند سارتر، والعبث عند البير كامو.

قلت: أعرف الوجودية.. وأعرف مدى ضياعها.. فاذكر لي غيرها؟

قال: السريالية.. فهي مدرسة حديثة تهتم بالشعر والرسم.. وتبتدئ من الخط الذى تبتدئ منه الوجودية،

---

(١) معجم الأدب المعاصر:٦٣.

(٢) ترجع بذور مذهب الوجودية إلى الكاتب الدانمركي كيركا جورد ١٨١٣-١٨٥٥م وقد نمى آراءه وتعمق فيها الفيلسوفان الألمانيان مارتن هيدجر الذي ولد عام ١٨٨٩م، وكارك يسبرز المولود عام ١٨٨٣م.. وقد أكد هؤلاء الفلاسفة أن فلسفتهم ليست تجريدية عقلية، بل هي دراسة ظواهر الوجود المتحقق في الموجودات.

والفكر الوجودي لدى كيركاجورد عميق التدين، ولكنه تحول إلى ملحد إلحاداً صريحاً لدى سارتر.

ولكنها تفترق عنها فى الإيغال في اللامعقول والأعراض عن الخوض فى حقائق التاريخ والمشادات الفكرية والبحث المنطقى فيما يفوق الإدراك إلى الخوض فى أعماق المجهول بلا موضوعية.

قلت: أعرفها.. وهي ترجع في أصلها إلى نظرية فرويد عن العقل الباطن، فهي تريد أن تجعل من العقل الباطن الحقيقة النفسية بالذات، وتحول الفن إلى كتابة آلية لإيضاحه.

قال: ومنها فن التفسخ.. وهو نوع من أدب الضياع الذي يميل إلى التشاؤم والابتذال ويتميز بأن أبطاله هم نوع من الكائنات التى فقدت الثقة وبمستقبلها والتى لا تؤمن أبدا بإمكان قيامها اليوم بحياة إنسانية.

ومنها فن المستحيل.. وهو اتجاه حديث ظهر بعد الحرب العالمية الثانية متأثراً بفظائعها ترتكز فلسفته على الإلحاد القانط واعتقاد أن الإنسان هو ميت مؤجل بحيث لا يهتم أحد بإنقاذه.

ومنها الفن العدمي، وهو نوع أخر أكثر تشاؤما وقنوطاً، وإنتاجه هو عبارة عن ذلك العمل المؤلم الذى يصرخ بصوت عال فى كل صرخة من صرخاته المبتورة (إن الإنسان قد مات)

وغيرها من الفنون الكثيرة التي تولد كل يوم..

٢ ـــ فنون الإسلام

قلت: عرفت فنون الجاهلية.. وأحسب أن كل الناس يعرفونها، فهم يصبحون عليها ويمسون.. فحدثني عن فنون الإسلام.

قال: فنون الإسلام تنطلق من القرآن.. فالقرآن لوحة فنية عظيمة.. بل مدرسة فنية عريقة نشأت على أساسها جميع الفنون الإسلامية.

قلت: هل طبقت المقاييس التي ذكرتها على الفن الإسلامي؟

قال: أجل.. وقد وجدت المعاني الإسلامية العظيمة مصاغة بقوالب غاية في الجودة.

التهذيب:

قلت: فلنبدأ بالتهذيب.. فقد ذكرت أنه غاية جليلة من غايات الفن.

قال: لقد رسم القرآن للفن الإسلامي الأسلوب الصحيح الذي يرفع به الواقع من الانحطاط إلى الارتفاع.. ومن السقوط إلى الصعود.

اقرأ سورة يوسف في القرآن، وقارنها بكتابنا المقدس[1] لترى سر تلك النزعة النبيلة التي صاحبت الفن الإسلامي مقارنة بأدبنا وفننا الذي استوحى بذاءته وفحشه من نفس القصة في الكتاب المقدس.

قلت: فننا يصور الواقع كما هو.. ويحاول أن يعالجه من خلال ذلك.

قال: وهذا سر انحرافه وجاهليته.. الفن الراقي النبيل هو الذي يملأ النفس طهرا وعفافا وسموا.. وهو الذي يعين النزعة الطيبة في النفس، لا الذي يعين الشياطين عليها.

إن الواقع الذي يبحث عنه فننا هو الواقع الهابط.. المنسلخ من الدين.. ومن القيم.. ومن الأخلاق!

ففى الفترة التى استغرقتها الرومانسية وارتدت بعدها إلى الواقع كان الناس قد ساروا خطوات على خط العلمانية المنسلخة من الدين فهبطوا، فجاءت الواقعية لترصد واقعهم حيث هم.. ثم تقول هذا هو الواقع البشرى!

فأما كون هذا هو الواقع الذى كان عليه الناس وقتئذ فهذا حق لا شك فيه، وأما أن هذا الواقع البشرى على إطلاقه فأمر يكذبه التاريخ، وتكذبه فترات الهدى فى حياة البشرية، التى ارتفع الناس فيها إلى قمم تبدو ــــ فى هذا الواقع المنحرف ــــ كأنها خيالات، ولكنها كانت واقعا عاشه الناس بالفعل، وينبغى أن يحاولوا على الدوام أن يعودوا إلى ذلك المستوى السامق أو يعودوا إلى قريب منه.

قلت: أتريد من الفن أن يدارى على هبوط الناس وأن يصورهم فى صورة غير واقعية من أجل إرضاء المثل العليا[2].

---

(١) انظر هذه المقارنة في (الكلمات المقدسة)

(٢) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، ومنهج الفن الإسلامي، لمحمد قطب.

قال: لا.. فالفن المزور لا يستطيع أن يعيش.. لكن هناك فرقا بين تصوير الواقع على أنه واقع، وأنه واقع منحرف عن الأصل الذى كان ينبغى أن يكون عليه، وبين تصويره على أنه هو الواقع الإنسانى الذى لا يمكن تعديله أو لا ينبغى تعديله أو لا يعنينا تعديله!

كلاهما تصوير للواقع. ولكن أحدهما يصور الواقع المنحرف بروح الإنكار، ويدعو إلى الارتفاع عنه، والآخر يعطيه شرعية الوجود فتكون النتيجة الحتمية — دائما — مزيدا من الهبوط.

لقد ذكر القرآن في سورة يوسف نموذجا للواقع، فقد ورد في قصة يوسف:﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)﴾(يوسف)

ولكن هذه ليست اللقطة الأخيرة.. إنما اللقطة الأخيرة هى الأوبة والتوبة والترفع والارتفاع:﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)﴾(يوسف)

ونموذج الواقعية الهابطة هو الأدب الذى يدعى الواقعية وهو فى الواقع يدعو إلى الهبوط.. وهبه صادقا فى ادعاء الواقعية، فلماذا يصر على التقاط اللحظات الهابطة وحدها ويتجنب لحظات الارتفاع!؟ ثم لماذا لا يسمى الهبوط باسمه الحقيقى وهو الهبوط!؟

قلت: إن ما ذكرته من هذه القيود هو الذي جعل الفن الإسلامي فنا هزيلا متخلفا عن سائر الفنون.. فإذا ما قارنا الأدب الإسلامي بالآداب الاغريقية والرومانية، فإننا نرى كثيراً من الألوان الفنية ــ غير الشعر ــ تنقصه، مثل القصة والمسرحية والملاحم الشعرية.

ومثل ذلك يقال في فن النحت.. فلا نجد في الحضارة الإسلامية أي تماثيل كتلك التماثيل التي تركها الرومان وغيرهم من أصحاب الحضارات العريقة.

قال: صدقت في هذا.. ولكن هل هذا من النقص أم من الكمال؟

قلت: ما تقصد؟

قال: أرأيت لو أن أحدهم ظل طول الليل يسرد عليك حكايات كاذبة مملوءة بالخرافة والمجون ليمتعك.. أتختاره أم تختاره الذي يحكي لك قصة قد تكون قصيرة، ولكنها بمنتهى النظافة والجمال والعفاف؟

قلت: بل أختار الثاني.

قال: وهذا ما فعل المسلمون.. لقد أنف شعرهم من أن يضع الملاحم التي تحشر نفسها في صياغاته آلهة الشر والخير والنار والحرب والشعر والجمال، وكان يأنف من روايات الأساطير الميثولوجية لمنافاتها لاعتقاداته، وخروجها على مألوف تصوراته لله والقوى التي يرمز اليها بما وراء الطبيعة.

قلت: فأين توجه؟

قال: إلى شعر نظيف يشكل البيت الواحد منه موسوعة قيمة في الأخلاق الرفيعة.. أو إلى القصة القصيرة التي تملأ النفس بالإيمان والتقوى والصلاح.. أو إلى الإنشاد الطيب الذي يعمق المعاني الجميلة في النفوس..

قلت: والنحت والتصوير؟

قال: لقد توجه المسلمون إلى الخطوط يصوغون منها أجمل اللوحات الفنية المعبرة.

قلت: ذلك لا يكفي.

قال: لكل شعب من الشعوب طريقة تعبيره الفني.. وربما تكون لك بعض الأمور لا أهمية لها، ولكن في نظر آخرين تكتسي أهمية كبرى.

الفن ـــ يا صاحبي ـــ أذواق.. والذوق ملك لصاحبه، والكمال في الفن هو استخدام الذوق لخدمة التربية النبيلة.

قلت: ولكن ما ذكرته من هذه المعاني لم يحصل.. فأغلب الشعر العربي يضم مدائح كاذبة، ترفع البشر من الحكام والقواد وزعماء القبائل والعشائر الى مصاف المثالية المغرقة، فجودهم كالبحر أو الريح المرسلة، وشجاعتهم فوق التصور، وأخلاقهم لا مأخذ فيها، ولا ضعف في بنائها، وبيانهم معجز لا ركاكة ولا إسفاف، ووجوههم مشرقة كالشموس أو البدور.. ومن هنا يرمون الشعر والشعراء بالنفاق والكذب الصراح، والتزلف وإغفال جانب الجماهير في المطالبة بحياة أسعد وأرغد..

قال: إن كل ما ذكرته صحيح.. ولكنه يصب في صالح الفن الإسلامي، وفي خدمته لهذه الغاية العظمى من الفن غاية التهذيب.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألا ترى أن فننا يتوجه ليصور واقع المنحرفين كما هو بمجونه وصراعه وانحرافه.

قلت: أرى ذلك.. فهو على الأقل يصور الواقع.

قال: ولكنه يملأ النفوس بالكدورات.. إن الفن مدرسة.. والنفوس تتلقى منها.. وهي في تلقيها تنشغل عن الوقائع بالمفاهيم والقيم.. ولذلك تمتلئ بقيم الإجرام إذا أدمنت مشاهد الإجرام.

قلت: وشعر المديح الذي اشتهر في الإسلام.

قال: إن الشاعر في مدائحه يحاول ان يرسم صورة مثالية رائعة لما يجب أن يكون عليه الممدوح، إن فضيلة الكرم اذا وضحت في الأذهان، واتخذت أغنية أو قصيدة تترنم بها المحافل، وارتبطت بشخصية من الشخصيات، فإن إشاعة مثل هذه الفضيلة يؤدي الى ترسمها والنسج على منوالها، فتسود فضيلة الكرم فعلاً.. والتغني بالعدالة والحرية والنبل، وربط الممدوح بها، يلفت النظر إليها ويجعلها بالممارسة والحديث الطويل عنها حقيقة كائنة.

لقد مدح المتنبي بقصائده الكثير من الأمراء.. وامتلأ شعره حكمة بسبب ذلك، ولكنا نرى العامة يرددون شعره من غير أن يعرفوا أميرا من الأمراء.. فقد انشغلوا بالغاية عن الواسطة.

قلت: ولكن القرآن ذم الشعر.. ففيه:﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (الشعراء:٢٢٤)

قال: القرآن لم ينهى عن الشعر.. بل وجهه نحو الوجهة النبيلة، ولهذا، فقد جاء بعد تلك الآية السابقة تعليل سر ذلك، واستثناء الذين آمنوا:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾ (الشعراء)

وقد قال محمد يبين الغاية التي ينبغي أن يتوجه لها الشعر:« إن من الشعر حكما »[١]

قلت: أجل ذلك ما صحيح.. وقد قال الشاعر يبين الدور العظيم الذي قام به الشعر في هذا المجال:

ولولا خِلالٌ سَنَّها الشِّعْرُما درى بناةُ المعالي كيفَ تُبْنى المكارمُ

التوحيد:

قلت: عرفت الغاية الأولى من غايات الفن.. فحدثني عن الغاية الثانية.

قال: الغاية الثانية هي التوحيد.. وهي عبودية الفن لله.

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد عرفنا كيف توجهت الفنون في جميع الجاهليات إلى خدمة الآلهة المزاحمة لله.

قلت: أجل.

قال: مقابل هذا، فقد توجه الفن الإسلامي إلى التوحيد الذي يملأ القلوب معرفة لله ومحبة له.

قلت: أين أجد هذا في الفن الإسلامي؟

قال: اذهب إلى دواوين الصالحين الكثيرة لترى تلك الأشعار الرقيقة في محبة الله وذكر كمالاته.

قلت: ولكن ليس الفن شعرا وحده.

قال: فاذهب إلى تلك المجالس التي تترنم بتلك القصائد لتحولها إلى ألحان تموج بجميع معاني الإيمان.

قلت: قد سمعت بعضها وأثرت في نفسي تأثيرا عميقا.

قال: فقارن ذلك بما تسمعه من قومك من أنواع الغناء والموسيقى التي تملأ النفس بالضياع والقلب بالألم.

***

ما وصل (سير هاملتون جيب) من حديثه إلى هذا الموضع حتى سالت دموع حارة من عينيه لم يملك حبسها، فقلت له: ما يبكيك؟

قال: أمران.. كلاهما ملأ قلبي بحزن وانقباض وكآبة.

قلت: ما هما؟

قال: أما أولهما فهو من آلت إليه قيادة الفن في عصرنا.

قلت: ما به؟

قال: هم لم يكتفوا بما وصل إليه الإنسان من انحراف عن إنسانيته، بل راحوا يعمقون هذا السقوط.. فكل

---

(١) الترمذي، وقال: حسن صحيح، وابن ماجة.

يوم ينتج لنا الشياطين الذين يحتكرون وسائل الإعلام من ألوان الغثاء ما يزيد به تيه الإنسان عن الإنسان.

قلت: عرفت هذا.. وأنا أتألم له بمثل تألمك.. فما الثاني؟

قال: أولئك المسلمون..

قلت: ما بهم؟

قال: أراهم يعرضون دينهم والحقائق العظيمة التي جاء بها في أسلوب جاف قاس جعلهم وجعل دينهم عرضة للتهكم.

قلت: فما تريد منهم؟

قال: ما يريد المريض من طبيبه؟

قلت: العلاج.

قال: والعلاج يحتاج إلى مسكنات ومهدئات وتطييب نفس، فلا يمكن للطبيب أن يغرس سكينه لاستئصال الآلام من دون كل ذلك.

قلت: أجل..

قال: ولكن أولئك االمسلمين لم يفعلوا هذا في مداواهم للبشرية، وقد تخلوا في ذلك عن هدي سلفهم الصالح، وأتاحوا بذلك المجال للمجرمين لينحرفوا بالبشرية عن مسارها الصحيح.

قال ذلك، ثم انصرف، وانصرفت خلفه ومعي بصيص جديد من النور اهتديت به بعد ذلك إلى شمس محمد.

عاشرا ـــ حضارة

في اليوم العاشر من تلك الأيام العشرة المباركة، التقيت المستشرق الذي قطفت على يده ثمرة الحضارة من شجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى على لسان هود ـــ عليه السلام ـــ:﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ (هود: من الآية٦١)

فقد عرفت من هذه الآية غاية جليلة من الغايات التي خلق من أجلها الإنسان، وهي عمارة الأرض.. ولكن لا بالخراسانة المسلحة وحدها، بل بذكر الله والتقرب إليه.

***

كان من الأسماء المارقة التي سجلت في الدفتر الذي سلمني إياه المرشد اسم (كوستاف لوبون)[1].. وقد

---

(١) هو كوستاف لوبون Dr. G. Lebon ولد عام ١٨٤١م، وهو طبيب، ومؤرخ فرنسي، عني بالحضارات الشرقية.
من آثاره: (حضارة العرب) (باريس ١٨٨٤)، و(الحضارة المصرية)، و(حضارة العرب في الأندلس)
وله شهادات كثيرة جدا للإسلام ـــ سنعرض لها في رسالة (قلوب مع محمد)

ومن الشهادات المرتبطة بهذا الفصل قوله:« ثبتت أصول شريعة الرسول وفنون العرب ولغتهم أينما حلت، ولم يدر في خلد أحد من الفاتحين الكثيرين الذين قهروا العرب إقامة حضارة مقام حضارة العرب، وانتحلوا كلهم دين العرب وفنونهم، واتخذ أكثرهم العربية له لغة، وتقهقرت أمام الإسلام في الهند ديانات قديمة، وجعل الإسلام مصر الفراعنة القديمة، التي لم يكن للفرس واليونان والرومان فيها سوى نفوذ قليل، عربية تامة العروبة، وعرفت أقوام الهند والفرس ومصر وأفريقية لهم سادة غير أتباع محمد فيما مضى ولم يعرفوا لهم سادة غير المسلمين بعد أن رضوا بالإسلام دينًا » (حضارة العرب، ص ٢٧)

وقوله:« ساعد وضوح الإسلام البالغ وما أمر به من العدل والإحسان كل المساعدة على انتشاره في العالم، ونفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام، كما نفسر السبب في عدم تنصّر أي أمة بعد أن رضيت بالإسلام دينًا، سواء أكانت هذه الأمة غالبة أم مغلوبة » (حضارة العرب، ص ١٢٥)

وقوله:«.. أن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارًا في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل » (حضارة العرب، ص ١٢٧ – ١٢٨)

وقوله:« لو وفق موسى بن نصير [في اجتياز أوربا] لجعل أوربا مسلمة، لحقق للأمم المتمدنة وحدتها الدينية، ولأنقذ أوربا، على ما يحتمل، من دور القرون الوسطى الذي لم تعرفه إسبانية بفضل العرب » (حضارة العرب، ص ٢٦٧)

وقوله:« كلما أمعنا في درس حضارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة، ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها، مدة

كنت أعرفه، وأعرف تأثره الشديد بالحضارة الإسلامية، والذي ملأ به كتبه.. إلا أني لم أكن أعرف سر ذلك إلى أن التقيته في ذلك اليوم المبارك.

عندما رأيته في البدء تصورته مجنونا قد فقد عقله.. و لم أكن وحدي في ذلك التصور.. بل كان كل من كان معنا في ذلك المحل يحمل ذلك التصور.

في ضاحية من ضواحي باريس كانت تسكن غابة لم يفكر إنسي ولا جني في قطع أشجارها.. فقد كانت الرئة التي تتنفس منها باريس.. وكانت القلب الذي يمدها بدماء الحياة..

ولكنهم في ذلك اليوم أحضروا كل ما أمدتهم به هذه الحضارة من وسائل التدمير ليقطعوا أشجار تلك الغابة.. بل يجتثوها من أصولها.. ليقيموا بدلها مصنعا للكوكاكولا.

وجاءت الآلات، واقتربت من الأشجار لتقطعها.. أو لتجتثها من أصولها.

لكنها فوجئت برجل يصيح فيها كما يصيح المجانين: ابتعدي أيتها الآلات الحمقاء.. اتركي لي أسرتي.. لا تقطعي جذوري.

ضحك أصحاب الآلات وغيرهم من الناس الذين اجتمعوا في ذلك الموقف.

استمر في صياحه يقول: ملعونة أنت أيتها الحضارة التي تهدم الحياة.. ملعونون أنتم يا من خلفتم عادا وثمودا وسدوما وعمورية.. ملعون كل من يقطع أشجار الله ليستبدلها بشراب الشياطين..

خمسة قرون، موردًا علميًا سوى مؤلفاتهم، وأنهم هم الذين مدّنوا أوروبا مادة وعقلاً وأخلاقًا، وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يفقهم قوم في الابتداع الفني » (حضارة العرب،ص٢٦)

وقوله:« تأثير العرب عظيم في الغرب، وهو في الشرق أشد وأقوى، ولم يتفق لأمة ما اتفق للعرب من النفوذ، والأمم التي كانت لها سيادة في العالم، كالآشوريين والفرس والمصريين واليونان والرومان، توارت تحت أعفار الدهر ولم تترك لنا غير أطلال دارسة، وعادت أديانها ولغاتها وفنونها لا تكون سوى ذكريات. والعرب، وإن تواروا أيضًا، لم تزل عناصر حضارتهم، وإن شئت فقل ديانتهم ولغتهم وفنونهم، حية » (حضارة العرب، ص ٢٦ – ٢٧)

وقوله:« وسّعت دائرة التعليم العام، واستدعي الأساتذة من مختلف أقطار العالم، وبلغ علم الفلك درجة رفيعة من التقدم، وانتهى إلى نتائج لم ينته إليه الأوروبيون إلا في العصر الحاضر.. ونقلت إلى العربية كتب علماء اليونان واللاتين وصارت تدرس في جميع المدارس، وبحث العرب في آثار القدماء فسبقوا الأوروبيين إلى ذلك ببضعة قرون. وأقدم العرب على تلك المباحث، التي لم يكن لهم عهد بها، بشوق: ونشاط، وأكثروا من إنشاء المكتبات العامة والمدارس والمختبرات في كل مكان، وكانت لهم اكتشافات مهمة في أكثر العلوم » (حضارة العرب، ص ١٧٣)

وقوله:« كلما تقدمنا في الكتاب بدا لنا، بوضوح، أمران جوهريان.. وهما: أن العرب استطاعوا أن يبدعوا حضارة جديدة مستعينين بما استعاروا من الفرس واليونان والرومان، وأن حضارة العرب كان لها من المناعة ما استطاعت أن تهيمن به على البرابرة الذين حاولوا هدمها. وقد ظهر لنا أن جميع أمم الشرق الكثيرة.. أعانت بلا استثناء على نشر نفوذ العرب، وأن أممًا قديمة قدم العالم، كالمصريين والهنود، اعتنقت ما جاءها به العرب أو ورثتهم من الحضارة والدين واللغة » (حضارة العرب، ص ٢٧)

وغيرها من الشهادات الكثيرة.. (انظر: قالوا عن الإسلام، وقالوا عن القرآن، لعماد الدين خليل)

نظر إلى الآلات، وصاح: حتى أنت أيتها الآلة الخرساء ملعونة.. لأن تلك الأيادي الآثمة امتدت إليك وصنعتك..

أسرع رجال الشرطة إليه ليبعدوه عن طريق الآلات.. فصاح فيهم، وهم يمسكون به: هذه هي حضارة الجبروت.. هذه هي حضارة المعتقلات والسجون والزنازن والدماء.. هذه هي الحضارة التي حلمت بها الشياطين منذ ابتدأت الشياطين.

أبعدته الشرطة عن ذلك المحل.. ثم قيدته بعيدا عن تلك الأشجار، لتدع للآلات ممارسة ما تتقنه من أدوار.

في ذلك الحين.. وفي ذلك الموقف الشديد الذي تنفطر له القلوب التقيت (كوستاف لوبون)

اقتربت من ذلك الرجل الذي توهموه مجنونا، فوجدته مع كل ذلك الصياح هادئا غاية الهدوء.. مطمئنا عظيم الطمأنينة.

قلت: أراك ناقما على الحضارة..

قال: أي حضارة!؟.. ليس هناك شيء اسمه حضارة.. نحن في بدائية تفوق بدائية البدائيين إن كان هناك بدائيون.

قلت: حضارتنا الغربية التي نشرت العلوم والفنون.. وأحيت من الحياة ما كان خاملا.. ألست ترى ناطحات السحاب.. والمركبات التي تزور الأفلاك.. وصناديق الانتخابات التي تتجول على الرعايا لتعطيهم ما يريدون؟

قال بألم شديد، وهو شارد الذهب: نعم [1].. الإنسان.. السوبرمان.. أو السوبر شيطان.. مشى على القمر، وأرسل السفن إلى المريخ والزهرة وأورانوس والمشتري.. وأرسل الكاميرات الفلكية إلى ما وراء الشمس.. وأرسل المجسات الفضائية تقيس الأشعات الخفية في أرجاء الكون.. وزرع الأرض بالميكنة.. وضاعف المحصولات بالهندسة الوراثية.. واستولد الجديد المبتكر من الفواكه والثمار، واخترع السيارة والقطار والطائرة والصاروخ والتليفزيون والفاكس.. واخترع الحاسبات والذاكرة الكمبيوترية المذهلة وصنع الأعاجيب في الطب والجراحة.

زرع قلوب الموتى في الأحياء.. وزرع الشعر والجلد والكبد والكلية والأمعاء والرئتين.. وزرع أجهزة السمع والبصر في الدماغ.. وأنشأ بنوكا يحفظ فيها الحيوانات المنوية والبويضات في درجة حرارة تحت الصفر لتعيش سنوات، وتكون تحت الطلب حينما يريد أن يستولد منها أجيالا جديدة.

قضى على الجدري.. وأوشك أن يقضي على التيفود والتيفوس وشلل الأطفال والجذام..

وامتد بصره عن طريق المناظير الفلكية العملاقة، فأصبح يرى شموسا على بعد ١٥ مليون سنة ضوئية.. واخترق بصره العالم الأصغر عن طريق المجهر، فأصبح يرى الميكروبات والفيروسات.. وامتد سمعه إلى ما وراء المجرات.. فالتقط ضوضاء الانفجار الذي بدأ به الكون.

---

(١) الكلام التالي لهذا منقول من (سواح في دنيا الله)، لمصطفى محمود.. ببعض التصرف.

أما قوة ذراعه فقد تعملقت إلى روافع وصواريخ وقنابل ذرية وهيدروجينية وتحولت إلى قوة تدميرية هائلة..

قلت: نعم.. هذه بعض منجزات هذه الحضارة العظيمة..

التفت إلي، وقال بغضب: أي عظمة هذه.. إن الانحطاط أقل وصف يمكن أن توصف به هذه الحضارة.

قلت: كيف ذلك.. وقد تهيأ لها ما لم يتهيأ لأي حضارة في الدنيا.

قال: أجل.. أجل.. لقد تمكن الإنسان من خياطة شبكة الانترنت..

قلت: أجل.. إنها عجيبة العجائب.. يتصل بها أطراف العالم للتجارة الإلكترونية ونشر العلوم والمعارف.

قال: ولكن هذه الحضارة المجنونة.. حضارة سدوم وعمورية استعملتها في نشر الدعارة والقمار.. وجميع أنواع الانحراف.

بينما نحن كذلك إذ سمعنا رجلا ينادي عاملا باسم (محمد).. فصاح الرجل بكل قوة: ابتعد يا محمد.. فأولئك مجرمون.. عد إلى بلدك.. وعد إلى أصلك.. فإن هؤلاء سيزجون بك في هاوية الجحيم.

قلت: مع من تتحدث؟

قال: لقد ذكروا اسم (محمد).. أليس كذلك؟

قلت: بلى.. هو أحد العمال..

قال: اذهب إليه.. واطلب منه أن يبتعد عن هؤلاء المجرمين.. ومره أن يلجأ إلى محمد ليغسل الأدران التي ملأه بها هؤلاء المجرمون.

قلت: إلى أي محمد يلجأ؟

قال: إلى ذلك الذي مزج حضارة الأرض بحضارة السماء.. ذلك الذي رفع الإنسان إلى عالم الإنسان.. ذلك الذي بنى حضارة القيم والمثل العليا.

قلت: تقصد نبي العرب؟

قال: بل أقصد النبي الذي بشر وأقام حضارة لم يقم في الدنيا مثلها.. ولن يقوم.

قلت: ولكن محمدا لم ينجز أي إنجاز مما أنجزته حضارتنا.. بل كان يركب الحمار، ويأكل الشعير.. بل أحيانا لا يجد ما يأكل، فيعصب الحجر على بطنه من الجوع.

ونحن الآن في عصر التخمة.. أقل فقير يمكنه لو أطاع بطنه أن يموت من التخمة.

قال: بل نحن في عصر الجوع.. والألم.. والكآبة.. ولكنا نفر من جوعنا وآلامنا وكآبتنا إلى أنواع كثيرة من السموم.. فلا يزيدنا أكلنا لها إلا جوعا وألما وكآبة.

قلت: لم أفهم ما تقصد.

قال: نحن في جاهلية لبست لباسا مزركشا، ووضعت عطورا سامة.. ثم توهمت أنها حضارة..

قلت: إن لم يكن ما نحن فيه حضارة.. فليست هناك حضارة على الأرض.

قال: إن كانت هذه حضارة.. فليس هناك حقيقة في الأرض.

قلت: أهذه الحضارة تناقض الحقيقة؟

قال: هذه الحضارة تناقض كل شيء، وتصارع كل شيء.. ولو ترك لها الزمام قرنا آخر.. فستقطع آخر شجرة في الأرض.. وستقتل آخر إنسان في الأرض..

قلت: أنت متشائم كثيرا..

قال: لا.. أنا مع ألمي وصياحي وكآبتي متفائل كثيرا.

قلت: لم؟

قال: لأن هذه الحضارة تقتل نفسها، وتقطع جذورها..

ألا ترى إلى هذه الآلات التي تجتث هذه الأشجار؟

قلت: بلى.. وأنا متألم مثلك لذلك.

قال: ستصيب هذه الحضارة اللعنة التي أرسلتها هذه الأشجار.

قلت: ستدمر الأرض إذن.

قال: بل ستعمر.. ستعمر عمرانا لم تعمر مثله.

قلت: ألست متناقضا فيما تقول؟

قال: لا.. بل أنا متفائل.. هذه الحضارة ستموت كما ماتت قبلها كل الحضارات الطاغية لتبنى على أنقاضها حضارة السماء.

قلت: ومن الذي يترل لنا بحضارة السماء؟

قال: الذي أنزلها أول مرة لن يعجز عن أن يترلها مرة أخرى.

قلت: وهل نزلت حضارة من السماء.. لم أسمع بهذا.

قال: إنها الحضارة التي غرس شجرتها محمد.. هي لا تزال حية نضرة تنتظر فقط من يسقيها.. لتعود ثمارها الطيبة من جديد تطعم جوع البشرية.. وتسقي ظمأها.

قلت: أراك تعود إلى محمد.

قال: لولا أن لي ثقة كبيرة في إنقاذ ورثة محمد للإنسان ولحضارة الإنسان لكنت الآن في مارستان المجانين.. إن أملي في ذلك الرجل العظيم.. وفي ورثته العظام.. إن ذلك هو زاد تفاؤلي الوحيد.

قلت: أراك مغرما بالحضارة الإسلامية..

قال: لقد طفت الحضارات البشرية جميعا، وبحثت في تراثها وآثارها.. وسألت إنسانها وبنيانها.. فلم أجد حضارة أطهر ولا أصفى ولا أرفع من الحضارة التي أقامها محمد.

قلت: لكأني بك أحدهم.. فمن أنت؟

قال: أنا (كوستاف لوبون)..

قلت: المستشرق العاشق لحضارة المسلمين.

قال: أنا الباحث عن الحضارة التي تحفظ الأكوان.. وترفع الإنسان.

قلت: لقد كنت مشتاقا للقائك لأسألك عن سر ذلك التفاني الذي أبديته تجاه حضارة المسلمين.

قال: يسرني أن أجد من يسمعني.. فأنا لا أبشر إلا بذلك.

قلت: فهل وضعت مقاييس تميز بها الحضارات؟

قال: لم أضع أنا.. ولكن الحقائق الأزلية التي وردت في القرآن.. والتي تنطق بها العقول التي لا تزال عقولا هي التي وضعت تلك المقاييس.

قلت: فهل هما مقياسان؟

قال: أجل.. ولكنهما يؤولان إلى واحد.

قلت: ما هما؟

قال: الفطرة والسلام.. وكلاهما يؤول إلى الفظرة، وكلاهما يؤول إلى السلام.

قلت: لم أفهم هذه الألغاز.

قال: لقد نطق القرآن ــ كتاب الحقائق الأكبر ــ فقال على لسان موسى عندما سأله فرعون عن الله:﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طــه:٥٠)

فالله جعل لكل شيء برنامجا يسير عليه.. وهذا البرنامج هو الفطرة.. والخروج عنها هو الشذوذ.

والشذوذ هو نوع من الصراع.. ولكنه صراع مع الداخل.

وأما السلام.. فهو الفطرة التي تحكم العلاقات بين الكائنات.. وهي التوافق والتكامل والانسجام.. فإذا خرج عنها كان صراعا.. وكان في نفس الوقت شذوذا.

قلت: فهمت قصدك.. أنت تريد أن تقول بأن الفطرة هي سلام الداخل، والسلام هو فطرة الخارج.

قال: أجل.. وقد طبقت هذه المقاييس على جميع أنواع الحضارات.. فلم أجد حضارة تكتمل لها الفطرة مع السلام إلا في الإسلام.

قلت: هذه دعوى..

والدعاوى إن لم تقيموا عليها بينات فأبناؤها أدعياء

قال: الحياة كلها والمجتمعات كلها دليل على صدق هذه الدعوى..

١ ـــ حضارة الجاهلية

قلت: فهل نبدأ بحضارة الجاهلية؟

قال: لا يمكن أن تعرف فضل حضارة الإسلام من دون مقارنتها بحضارة الجاهلية..

قلت: فعن أي جاهلية تريد أن نتحدث؟

قال: بهذه الحضارة التي ذكر قومنا أنها نهاية التاريخ [1].. وأنها الأمل الذي انتظرته البشرية طويلا.

قلت: ألم يكونوا محقين؟

قال: لقد طبقت المقياسين اللذين ذكرتهما لك على هذه الحضارة.. فوجدتها تتربع على قمة الشذوذ، وعلى قمة الصراع..

ثم وجدتها فوق ذلك قد جمعت شرور الحضارات السابقة، وأضافت إليها من الكبرياء والغفلة ما جعلها تسد آذانها وأبصارها عن كل صالح ومصلح.

الشذوذ:

قلت: فلنبدأ بشذوذ هذه الحضارة [2].

---

(١) هذا ما زعمه المفكر الأمريكي الياباني فرانسيس فوكوياما (Francis Fokoyama الذي طرح نظريته، أو فكرته، حول (نهاية التاريخ)، وهو يختلف مع كل من لويس، هنتنجتون، ودانيال بايبس (Danial Pipes) في ديمومة الصراع.

وهو يرى أن هذا الصراع كان قائماً بالفعل بين هذه الحضارات، ثم انتهى الآن لصالح الحضارة الغربية، بعد وصول البشرية إلى المرحلة الأخيرة من اكتمالها، أي بعد وصولها إلى النموذج الأوحـــد، وهو الحضارة الغربية.. وقد انتهت زعامة العالم إلى هذه الحضارة، لذا وجب على جميع شعوب الأرض أن تنطاع لها.

أي أن النظام الغربي: الليبرالي في السياسة، والرأسمالي في الاقتصاد هما وحدهما النظامان اللذان يتناسبان مع الفطرة الإنسانية ؛ لأنهما اللذان يحققان ما في تلك الفطرة من نشْدَانٍ للكرامة ؛ فهما يمثلان لذلك نهاية التاريخ في هذا المجال، مجال النظم السياسية والاقتصادية، وأن هذا هو الذي يفسر سير العالم كله نحوهما.

وقد طرح هذه النظرية العنصرية في صيف ١٩٨٩م بمقال نشره في مجلة National Interest ، وإن كان قد سبقه بها هيجل بقوله: (إن تاريخ العالم يتجه من الشرق إلى الغرب، لأن أوروبا هى نهاية التاريـــــخ عـــــلى نحو مطلق، كما كانت آســـيا هى بدايته..)

وقد كتب بعد عشر سنوات من صدور كتابه ذاك مقالاً تراجع فيه عن تلك الفكرة، وعزا تراجعه إلى أن فكرة الكتاب كانت قائمة على افتراض الثبات في الفطرة الإنسانية، وأن تتبعه للتطورات التي حدثت في علم الأحياء في هذه السنوات العشر، ولا سيما في مجال هندسة الجينات، أقنعته بأن العلم الطبيعي يمكن أن يغير الطبيعة البشرية! وإذا كانت الطبيعة البشرية متغيرة فإن النظم السياسية والاقتصادية المناسبة لها ستكون أيضاً متغيرة!!!

(٢) استفدنا الكثير من المعلومات حول هذا العنصر من مقال جيد للكاتب الكبير فتحي يكن بعنوان (فــقـــــه الـــفـــطــــــرة) نشرته مجلة المجتمع، ١٤١٤.

قال: لن أطيق الحديث عن كل شذوذ هذه الحضارة.. ولكني سأقتصر على نماذج بسيطة تستطيع أن تعبر منها إلى غيرها من العظائم..

قلت: يمكنك أن تستدل بالأمثلة..فهي عينات صالحة.

قال: أتعرف النوم؟

ابتسمت، وقلت: وكيف لا أعرفه.. وأنا أقضي ثلث عمري نائما.

قال: لقد وضع البرنامج الإلهي للنوم مواقيت محددة تتوافق مع الفطرة.. ووضع في نظام الكون ما يتوافق مع هذا البرنامج.. لقد ذكر القرآن ذلك، فقال:﴿ وَهُوالَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً﴾(الفرقان:٤٧).. وعد القرآن من نعم الله على عباده أن جعل الليل بصورة معينة تتناسب مع حاجة الإنسان الجدسية إلى الراحة، فقال:﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (القصص: ٧١ ــ٧٢)

قلت: أنا لا أزال أتعجب من ذكر القرآن لهذا مع كونه يكاد يكون معلوما من الفطرة بالضرورة.

قال: القرآن يتحدث مع الإنسان.. ويصف له البرنامج الإلهي.. والله يعلم أن البرنامج الذي يضعه لهم ستغزوه الفيروسات التي تحرفه وتحوله عن مساره الحقيقي.. فلذلك كان القرآن هو الكتاب الذي يصف الفطرة التي طبع عليها الإنسان.

قلت: نحن نتحدث عن حضارتنا وعن شذوذها.

قال: وهذا من أخطر مظاهر شذوذها.

ابتسمت، وقلت: وما علاقة النوم بالحضارة؟

قال: أليس للنوم علاقة بالإنسان.. أليس النوم ركنا أساسيا من أركان الحياة!؟

قلت: بلى..

قال: فالحضارة التي تنحرف بهذا الركن من أركان الحياة عن الفطرة التي فطر الله عليها الأشياء حضارة شاذة.. وهذا نوع من شذوذها.

قلت: ربما يكون ما تقوله صحيحا.. ولكن مقاييس نجاح الحضارات أعظم من هذا.

قال: لا تحتقر هذا.. ولا تحتقر شيئا من الفطرة التي فطر الله عليها الأشياء.. فإن شيئا بسيطا يغزو برنامج الحياة قد يفسد الحياة جميعا ويملؤها بالكدورة.

إن انحراف الليل في هذا الحضارة تبعه انحرافات كثيرة في السلوك وفي الصحة وفي العلاقات الاجتماعية.. وهو ما لا يمكن أن تنهض الحياة بسببه.

سكت قليلا، ثم قال: في الولايات المتحدة يعاني نصف الأمريكيين من الأرق واضطرابات النوم، وقد

ازدادت هذه النسبة عما كانت عليه.

وقد ذكر الدكتور آلن باك ـــ المدير الطبي للمؤسسة الوطنية لأمراض النوم ـــ الذي أشرف على استطلاع خلص إلى النتيجة المذكورة ـــ سبب هذا المرض قائلاً:« إن طبيعة الحياة المعقدة في المجتمع الحديث قد أفقدت الكثيرين قدرتهم على التمتع بالنوم.. بسبب زحمة العمل وتوتر الأعصاب »[1]

قلت: ولكن التنمية تقتضي هذا.. وعلى كل حال.. فمن لم ينم في الليل نام في النهار..

قال: أكثر ما يطلق عليه البشر تنمية انحراف.. ومرض.. ومصائب.. لا تقل عن هذه المصائب التي تراها الآن.

أما نوم النهار.. فلا يغني عن نوم الليل.. لأن الله خلق الليل ليلا، والنهار نهارا.. وقد قال الأطباء:« ولا يخالف أحد أن باستطاعته تعويض ما فاته من نوم ساعات الليل، ويا بعد ما بين هيمنة الظلام الهادئ الساكن، وبين انتشار النور الخاطف للأبصار والمثير للأعصاب.

ويستغرق النائم عادة في نومه آخذاً القسط الأوفى من راحته في ساعاته الأولى، لهذا كانت الفائدة المجتناة من نوم ما قبل منتصف الليل، ضعف الفائدة المتوخاة من نوم ما بعد منتصف الليل »[2]

ويقول جورج ألفرد تينيس ـــ أحد أتباع ثيودور ستوكمان ـــ وهو صاحب نظرية (النوم الطبيعي) القائلة إن النوم الذي يسبق منتصف الليل تكون له ضعف القدرة على إعادة العافية إذا قيس بالنوم الذي يعقب انتصاف الليل:« الصباح هو أفضل الأوقات وأنسبها للعمل، لأننا نكون عندئذ قد استعدنا حيويتنا وأصبحنا أكثر مرونة ونشاطاً واستجابة للتنبيه، أو بعبارة أخرى، نكون أكثر حظاً، في تمتعنا بخصائص الشباب»

سكت قليلا، ثم قال: أتعرف (الريجيم)؟

ابتسمت، وقلت: هل له هو الآخر علاقة بالحضارة؟

قال: أجل.. له علاقة كبرى بالحضارة.. لأنه من شذوذ هذه الحضارة.

قلت: كيف ذلك.. أتريد من البشر أن يصبحوا بأجسام الفيلة.. إن الأرض لا تستطيع حمل هذا العدد الضخم من الفيلة.

قال: و لم يصبح البشر فيلة؟

قلت: لولا الريجيم لصاروا فيلة.

قال: و لم لا يأكلون أكل الفطرة.. ويعيشون حياة الفطرة.. فلا يضطرون إلى الريجيم ولا إلى غيره..

أعرف قريبة كانت تأكل بلا حساب.. وخارج فطرية الغذاء.. حتى أصبحت ممتلئة البدن وغير مقبولة الشكل، وبخاصة من زوجها، فلما أحست منه ذلك سارعت إلى اعتماد ريجيم صارم دفعة واحدة، ودون تدرج، فأصيبت بالهزال وفقدان المناعة إلى أن ابتليت بمرض (السحايا) وأدخلت المستشفى في حالة الخطر

---

(١) الشرق الأوسط: العدد ـــ ٦٢٤٧.

(٢) الدكتور صبري القباني في كتابه (طبيبك معك)

الشديد، ثم رد الله لها عافيتها بعد فقدان الأمل.

إن حاجة الجسم إلى الأغذية المتنوعة تبعثها الغدد من خلال الإحساس بالرغبة في تناول هذا الطعام أو ذاك، ومن الفطرية مراعاة التجاوب مع هذه الرغبات دون تفريط ولا إفراط، لأن عدم التجاوب مع هذا الإحساس الفطري، يعتبر لوناً من ألوان الشذوذ.

سكت قليلا، ثم قال: أتعرف الزواج.. والعلاقات الزوجية؟

قلت: أجل.. ولولا الزواج ما استمر نوع الإنسان.

قال: هذه الحضارة المسمومة عبثت به وبهذا النوع من العلاقات ما شاء لها أن تعبث.. فعالم الجنس اليوم ــ في حضارة سدوم وعمورية ــ قد خرج بالكلية عن الممارسة الفطرية، فلم تعد هناك علاقة بين الزوج وزوجته، بل اتخذ أنماطاً من الممارسات الجنسية القذرة الممعنة في الحيوانية، حيث الممارسات الجماعية، بين الذكور والإناث، وبين الذكور والذكور، كما بين الإناث والإناث، بقصد الوصول إلى المتعة القصوى،

لقد بلغ الجنون والهوس الجنسي اليوم، درجة باتت تهدد المجتمعات العالمية بالأوبئة الفتاكة..

قلت: هذه ممارسات شاذة لبعض الشواذ.. ولا نستطيع أن نحكم من خلالها على حضارة كاملة.

قال: لم يعد الأمر شذوذا.. إن هذه الحضارة الشاذة تريد أن تجعل من الشذوذ فطرة.. لتصبح الفطرة بعدها شذوذا.

إن الشذوذ الجنسي ومخالفة الفطرة في الزواج، أخذ طريقه عبر التشريعات والقوانين.. فقد راح الكثير من الدول، وحتى بعض الكنائس الغربية ــ في بريطانيا تحديداً ــ تجيز الزواج المثلي الأحادي الجنس، مشرّعة بذلك اللواط والسحاق، اللذين يُعتبران أبرز أنواع الشذوذ، والخروج عن الفطرة، وأحد الأسباب الأساسية لانتشار الأوبئة المهلكة في المجتمعات البشرية بحكم أنها تؤدي إلى فقدان الإنسان للمناعة البشرية المكتسبة.

يقول بعض الباحثين[1]:« إن مرض الإيدز أو السيدا، وكل مرض آخر، هو قديم قِدَم الحياة، وقد صحب الإنسان في كل زمان ومكان، وأن أسباب استشرائه تعود إلى إضعاف المناعة النفسية والجسدية.. بالشذوذ، وإتلافها بالجنس والمخدرات والكحول والإرهاق والعقاقير، بحيث تصبح الفيروسات والجراثيم أقوى من حيويات صمودها، فتموت تلك المناعة »

سكت قليلا، ثم قال: أتسمع ببراءة الأطفال؟

قلت: أسمع بها.. وأرها في عيونهم البريئة.

قال: ويوشك أن لا تراها.. لو استمرت هذه الحضارة المجنونة..

لقد امتد جنون هذه الحضارة إليهم ليلتهم براءتهم.. لقد ذكر المصادر الإعلامية أن ملايين الأطفال، يقعون ضحية عصابات الدعارة والشذوذ الجنسي.

وما حدث في بلجيكا على سبيل المثال، يعطي نموذجاً واضحاً لما آلت إليه أوضاع البشرية، من جراء

---

(١) أيوب الشامي في مقال له نشر على صفحات مجلة (الحياة الصحية) الصادرة في لبنان عدد أغسطس ١٩٩٦م.

انحدارها وبعدها عن الفطرة.

ففي هذا البلد الأوروبي.. اكتشفت عصابات تقوم على تجارة الأطفال الجنسية وقتلهم بعد اغتصابهم، والأنكى من ذلك، أن الرأي العام البلجيكي والعالمي اكتشف تورط مسؤولين حكوميين في الفضيحة، مما استدعى ردات فعل قوية ستؤدي إلى تغييرات دستورية مهمة، والأمر نفسه يحدث الآن في بريطانيا وعدد آخر من دول العالم.

لكن أبشع ما يمكن تصوره من صور الخروج عن الفطرة، هو تلك الظاهرة الخطيرة المنتشرة في المجتمع الأمريكي، حيث تقوم الأمهات باغتصاب أطفالهن، وحيث تقول الإحصاءات (مجلة كوزموبوليتان):« إن ما لا يقل عن أربعة أطفال يُقتلون يومياً، على أيدي أهاليهم، وألوفاً آخرين ينتظرون في كل ثانية الموت لكي ينقذهم من الضرب اليومي، والتحرش الجنسي المستمر من أمهاتهم.

سكت قليلا، ثم قال: أتعرف العلف؟

ابتسمت، وقلت: هو طعام الحيوانات.. أله علاقة هو الآخر بالحضارة؟

قال: أجل.. له علاقة عظمى بالحضارة.. فالحيوانات شركاء لنا في الأرض.. وينبغي أن لا نطعمهم سموما وإلا أصابونا بلعناتهم.

قلت: وهل أطعمتهم هذه الحضارة سموما؟

قال: أجل.. لقد دنست هذه الحضارة فطرهم كما لم تدنس شيئا آخر.

قلت: فما فعلت؟

قال: لقد ذكر القرآن أنواع الرزق التي أفاضها على الأنعام، فقال:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾(السجدة:٢٧)، وقال بعد أن ذكر ما أخرج لعباده من أصناف الرزق:﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾(طــه:٥٤).. ولكنهم أبوا إلا أن يطعموها سموما.

قلت: ولكن ما حصل من جنون البقر جعلهم يثوبون إلى رشدهم.

قال: ومن قال ذلك؟.. لقد وردتنا الأخبار بأن المزارعين، ومثلهم الشركات المنتجة للأعلاف بدأوا في استخدام أو محاولة استخدام فضلات الأطعمة الجافة المستخرجة من حاويات القمامة، ومخلفات المطاعم من الشحوم وزيت القلي والشحوم المتجمعة في محابس الشحوم والغبار المتصاعد من مصانع الإسمنت.. وحتى أوراق الجرائد والورق المقوى المستخرج من النباتات، كما أجرى الباحثون بعض التجارب على سماد المواشي والخنازير والرواسب الطينية.

ولا تتوافر في الوقت الراهن أي إحصائيات دقيقة حول عدد المزارعين الذين يطعمون مواشيهم بفضلات الدواجن، لكن يعتقد بأن هذه الظاهرة قد عمت في نصف الولايات المتحدة أو ثلاثة أرباعها، وبالرغم من الرائحة الكريهة المنبعثة من فضلات الدجاج والديك الرومي، فإنه يمكن استخدامها كعلف بعد تكديسها على نحو سليم وإخضاعها لمدة تتراوح ما بين ٤ ــ ٨ أسابيع لدرجة حرارة تتراوح ما بين ١٦٠ ــ ١٧٠ درجة

فهرينهايت، وهي درجة عالية تكفي لقتل البكتيريا، وقد ذكر بعض المزارعين بأهم يقدمون لدواجنهم سماد المواشي الخام دون إخضاعها لأي تصنيع.

وقد ازداد الاهتمام بمكونات أعلاف الحيوانات في الولايات المتحدة مؤخراً في أعقاب الضجة التي قد أثارها في بريطانيا موضوع جنون البقر والمخاوف التي انتابت الشعب الأمريكي من أن تنتقل العدوى إليهم، وقد لقي مئات من البريطانيين حتفهم نتيجة تناولهم لحوم الأبقار الملوثة.

وتفيد الإحصائيات بأن ٧٥ بالمائة من رؤوس المواشي في أمريكا والبالغ عددها ٩٠ مليون رأس ظلت تأكل مخلفات المسالخ، وأن الحظر المفروض على تقديم المنتجات الثانوية لمصانع اللحوم قد يدفع مربي المواشي ومصانع الأعلاف إلى اللجوء إلى مضافات مثل السماد ومخلفات أخرى مشكوك فيها.

نظر إلى المجرمين الذين يقومون بتقطيع الأشجار بأسى، ثم قال: البشر في هذه الحضارة الملعونة لم يشوهوا فطر الحيوانات وحدها.. بل ذهبوا يشوهون أنفسهم..

لقد ذكر القرآن مقالة الشيطان عندما أطلق تهديداته على تضليل بني آدم.. يقول القرآن حاكيا ذلك:﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩)﴾ (النساء)

وعلى هذا الأساس نهى محمد عن كل تغيير للفطرة التي فطر عليها جسد الإنسان، إلا ما كان منه لضرورة شرعية حدد ظروفها وشروطها، فقال:« لعن الله الواصلة والموصولة »[1]

وعن ابن عمر قال: رأى رسول الله ﷺ صبياً قد حُلِق بعض شعر رأسه وترك بعضه فنهاهم عن ذلك وقال:« احلقوه كله أو اتركوه كله »[2]

قلت: فهل حدث تشويه لفطرة أجساد البشر؟

قال: أجل.. لقد أقيمت مستشفيات خاصة بذلك.. لعلك سمعت بـــ (بياولا يندسكو)

قلت: تقصد الممثلة الإيطالية المعروفة.

قال: أجل.. هي مثال على هذا الشذوذ.. لقد أقدمت ــــ بطلب من هذه الحضارة المسمومة ــــ على عملية تجميل الأنف، وعللت ذلك بقولها:« أقدمت على عملية تجميل الأنف بوصفي ممثلة، وليس بوصفي امرأة، وقد انقضى الآن شهران على ذلك.. كان الجميع قبل ذلك يقولون: إن عيبي الوحيد هو ذلك التقوس البسيط الذي يظهر في أنفي، فما إن لاحت لي فرصة إجراء العملية حتى أقبلت عليها بنفس مطمئنة، وخاصة أن الطبيب أكد لي أنه ليس هناك أي خطر منها »

قلت: كونها ممثلة هو الذي دعاها إلى هذا؟

---

(١) البخاري ومسلم.

(٢) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

قال: أجل.. وقد أقرت بذلك.. أقرت بأن هذا مخالف لفطرتها، فقالت:« على أن الشيء الذي أود أن أسر به إلى سائر النساء هو أنه لو لم تكن مهنتي هي التمثيل في السينما لما جرؤت على هذه العملية خاصة أن فيها بعض المتاعب.. ومن ذلك: أني أمضيت أسبوعين أتنفس ليلا ونهار من فمي، ولا أستطيع أن أنقلب على الوسادة عند النوم يمينا أو يسارا، وإلا ضاع أثر العملية »

قلت: فالمرأة كانت تحت سيطرة المخرجين الذين أرادوا أن تكون على صورة مقبولة لأذواقهم؟

قال: أجل.. هذه الحضارة الشاذة صارت تفرض قوانينها البشر، وتغير جميع الأنماط التي عرفتها الحياة من قبل.. لقد قالت شبيلا جابل:« كنت في بداية العمل في السينما، وكان ذلك حوالي عام ١٩٦٠ م ولم أكن اسمع من المخرجين الذين قدموني إلا العبارة التالية:« لن تمهري في السينما، ولك هذا الأنف ».. فإذا كان أنفي يحد من انطلاقي ويمنعني من الظهور أمام الجمهور،وفكرت طويلا في الأمر، ثم عزمت على الإطاحة بهذا الأنف، وأسلمت نفسي لجراح مشهور، وأجريت لي الجراحة »

سكت قليلا، ثم قال: أتعرف الرحمة؟

قلت: أجل.. فليس بشرا من لا يعرف الرحمة.

قال: ولكن هذه الحضارة الشاذة انتكست الرحمة عندها..

قلت: لم أفهم قصدك.

قال: لعلك رأيت الذين يأسفون ويمتلئون حزنا عندما يرون المسلمين، وهم يذبحون ضحاياهم من الكباش.

قلت: أجل.. ويعتبرونها مظهرا للقسوة.

قال: ولكنهم هم أنفسهم الذين يذبحون البشر آلاف البشر في وقت واحد وبملايين القنابل دون أن يهتز لهم عرق واحد.

قلت: أتقصد أن البشر وجهوا الرحمة للحيوانات بدل البشر؟

قال: ليس مطلقا.. هم يعذبون الحيوانات كما يعذبون البشر.. ولكن منطق الرحمة الذي انتكس عندهم جعلهم يتعاملون مع الحيوانات معاملات شاذة [1]..

في الغرب عندنا تصرف البلايين على الكلاب والقطط.. في الوقت الذي يعيش فيه الملايين تحت مستوى الفقر.

يقول خبراء اجتماعيون من جامعة بنسلفانيا: إن محبي الحيوانات في الولايات المتحدة وحدها ينفقون أكثر من ثمانية بلايين دولار للاعتناء بحيواناتهم من القطط والكلاب.. أي أكثر من الدخل الوطني في أكثر من دولة من دول العالم النامي [2].

---

(١) انظر الإحصائيات التالية في (الحضارة المعاصرة.. الوجه الآخر)، مجلة البيان، العدد٢، ص٨٤.

(٢) جريدة الرياض ١٤٠٦/١٢/٣٠هـ

هذا ما ينفقه الشعب الأمريكي المتحضر على الكلاب والقطط سنوياً.. يتم هذا في الوقت الذي يموت فيه الآلاف من الجوع والأمراض الناتجة عن سوء التغذية في كثير من الدول الأفريقية والآسيوية وغيرها.. بل إن هذه البلايين من الدولارات تصرف على الكلاب في أمريكا رائدة الحضارة الغربية في الوقت الذي يعيش فيه الملايين من الشعب الأمريكى نفسه في فقر مدقع.. فلو قدر لك أن تدخل حياً من الأحياء الفقيرة في مدينة نيويورك أو غيرها من كبريات المدن الأمريكية ــ وخصوصاً الأحياء التي تقطنها أغلبية سوداء ــ لحدثتك نفسك أنك في بلدٍ من أفقر بلدان العالم الثالث.. وما الدول الغربية الأخرى عن هذا ببعيدة إن لم تكن أسوأ حالاً منها...

ففي بريطانيا العظمى مثلاً نشرت صحيفة الجارديان ــ بتاريخ ٨٦/٦/٢٦ ــ تقريراً أعدته مجموعتان من مجموعات ممارسة الضغط على الحكومة: (إن أحد عشر مليون شخص يعيشون حالياً على ــ أو دون ــ مستوى الفقر.. وهذا العدد كما لا يخفى يشكل حوالي ٢٠ بالمائة من العدد الإجمالي للسكان).. وليس الشعب البريطاني بأقل شغفاً بالقطط والكلاب من نظيره الأمريكي، ولا هو بأقل صرفاً وإنفاقاً عليها.

وإذا تركنا القطط والكلاب جانباً بهذه البلايين من الدولارات التي تصرف عليها، ونظرنا إلى ما يصرفه الشعب البريطاني من الملايين على الخمور (هذا الشعب الذي يحتضن بين جنبيه أحد عشر مليون فقير).. إذا نظرنا إلى ذلك فإننا نزداد ثقة بشذوذ هذا المجتمع المتحضر.

ففي تقرير أعده خبراء الصحة ونشرته صحيفة التايمز بتاريخ ٨٦/٣/٢٥ م جاء فيه (إن البريطانيين ينفقون ٣٥ مليون جنيه استرليني يومياً على المشروبات الكحولية، ويدخل خزانة الدولة سنوياً ٦ بلايين جنيه كضرائب على هذه المشروبات.. لكن الفاتورة السنوية التي تصرفها البلد من جراء مفاسد هذه المشروبات قدرت بــ مليار و٦٨٠ مليون جنيه، وذلك نتيجة التغيب عن العمل الناجم عن الأمراض التي تسببها الخمور، وأجور العلاج في المستشفيات والموت السابق لأوانه)

فأي حضارة لبلد ينفق أكثر من ١٢ مليار جنيه سنوياً على الخمور فقط.. في وقت يعيش فيه ١١ مليون من أبنائه تحت مستوى الفقر!؟

وفي التقرير سابق الذكر والذي أعدته منظمة الحد من مفاسد الكحول، المدعومة من قبل الجمعية الطبية البريطانية ومجلس التعليم الصحي ومنظمات أخرى ونشرته صحيفة التايمز بتاريخ ٨٦/٣/٢٥م في هذا التقرير جاء ما نصه (إن أكثر من ٢٥ ألف شخص يموتون سنوياً في بريطانيا كنتيجة مباشرة لسوء استعمال الكحول)

(إن الشعب البريطاني يستهلك من الخمور الآن ضعف ما كان يستهلكه في الخمسينات من هذا القرن، ولقد انخفضت أسعار الخمور بمعدل ٥٠ بالمائة عنها في عام ١٩٥٠م)

(إن واحداً من كل ثلاثة سائقين يتسببون في وقوع حوادث السيارات والتي ينتج عنها آلاف القتلى والجرحى كل سنة.. قد تعدى الحد القانوني في تناول الشراب)

(إن نصف المتهمين بجرائم القتل كانوا اثناءها مفرطين في السكر)

(ويرتبط الشراب أيضا بــ ٥٢ بالمائة من الوفيات بسبب الحرائق وبــ ٣٠ بالمائة

من حوادث الغرق)

(إن الحالة الهستيرية التي يعيشها المجتمع هلعاً من مخاطر المخدرات قد صرفت الانتباه بعيداً عن القاتل الحقيقي – يعني الخمور – ففي عام ١٩٨٤ قتل ٢٥٠٠ على الأقل بسبب الإفراط في تناول الخمور.. بينما ٢٣٥ حالة وفاة فقط تسببت بها المخدرات)

الصراع:

قلت: عرفت شذوذ هذه الحضارة، فحدثني عن صراعها.

قال: هذه الحضارة قامت على الصراع.. لقد بدأت بصراع الكنيسة، وانتهت بصراع الإنسان.. وهي الآن لا تزال تصارعه.

وسبب ذلك أنها حضارة مليئة بالمتناقضات[1]: تناقض في الأفكار، وتناقض في القيم، وتناقض في المواقف، وتناقض بين الأقوال والأفعال.

وأخطر أنواع تناقضها هو ذلك التناقض بين ضجتها الصوتية العالية عن حرية الأفراد والشعوب، في الحين الذي تسلك فيه كل السبل لفرض قيمها الخُلُقية، وتجربتها السياسية، ونظمها الاقتصادية، بل ومعتقداتها الدينية على سائر شعوب الأرض، ووصم كل ما يخالفها، بل كل ما يتعارض مع مصالحها، بكونه انتهاكاً للحقوق الإنسانية، أو إضراراً بالمصالح العالمية، أو ممارسة للإرهاب، أو سبباً للتخلف، وما شاءت من تهم جائرة.

نظر إلى المجرمين الذين يقطعون الأشجار بحزن، ثم قال: إن المجرمين من أهل هذه الحضارة مصابون بنوع من المرض الثقافي الذي يجعل على بصر صاحبه غشاوة تهول له قيم ثقافته، بل وأباطيلها، حتى يراها هي القيم الإنسانية التي يجب على كل الأمم أن تؤمن بها وتطبق مقتضياتها، بل وهي المعيار الذي تقاس به إنسانية الأمم، ويحدد على أساسها استحقاقها للمصالحة والمساعدة أو المشاقّة والإعنات.

لقد عبر عن شيء من هذا مندوب أو مندوبة باكستان في جلسة الأمم المتحدة الخاصة بقضية المرأة، فقد قالت لهم المندوبة كلاماً نقلته بعض الصحف الأمريكية فحواه أن مشكلة المرأة في باكستان هي أن تشرب ماءً نقياً، لا أن تتزوج امرأة مثلها، ولا أن تكون لها حرية الاتصال بمن شاءت من الرجال.

أذكر أني قرأت قبل أيام كتاب (المرأة كاملة)، أو (المرأة بأكملها) The WholeWoman تعرضت المؤلفة فيه لقضية الختان، فذكرت أنها كانت وما زالت معترضة على ختان النساء [2]، لكنها بعد أن سافرت واتصلت بالثقافات الأخرى، تبين لها أن اهتمام الغرب به هو تعبير عن احتقاره للثقافات غير الغربية.

لقد قادها إلى هذه النتيجة أن النساء في الغرب يجرين عمليات جراحية تجميلية هي أشد غرابة من الختان،

---

(١) الحضارة الغربية: ضجة عن الحرية.. وممارسة للهيمنة الثقافية، أ. د. جعفر شيخ إدريس، رئيس الجامعة الأمريكية المفتوحة، مجلة البيان.

(٢) ذكرنا بالأدلة المفصلة الكثيرة عدم اعتبار هذا النوع من الختان من الشريعة الإسلامية في كتاب (حقوق الأولاد الصحية والنفسية) من سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية)

ومن ذلك العمليات التي تجريها بعض النساء لتصغير أثدائهن، لقد ذكرت أنها عندما ذكرت هذا لبعض النساء السودانيات كان استغرابهن له كاستغرابنا للختان، وأنها تعلمت منهن أن الختان أنواع، (وأن منه ما لا ضرر فيه، وأنه لا يؤثر على الاستمتاع الجنسي، وأنه ليس أمراً يفرضه الرجال على النساء كما نظن في الغرب)

ومنها أن بعض الناس في الغرب يخرقون ألسنتهم ليدخلوا فيها نوعاً من الحلق كالذي يدخل في الآذان..

لنفترض أن الحديث كان عن أسوأ أنواع الختان، وهو مضر ما في ذلك شك؛ لكن أهو أضرُّ من هذا الذي ذكرته الكاتبة؟ أهو أضر من شرب الخمر الذي يموت بسببه المئات بل ربما الآلاف في الغرب في ليلة واحدة هي ليلة عيد الميلاد؟

أهو أضر من حمل السلاح الذي يرخص به القانون الأمريكي، والذي يُقتل بسببه عدد من الأبرياء وأحيانا الأطفال في كل يوم وليلة؟

أهو أضر من الجمع بين السُّكْر وحمل هذا السلاح؟

أهو أضر من السفور، وما ينتج عنه من أنواع الاغتصاب؟

أهو أضر من الزنا واللواط الذي تُحله القوانين الغربية والذي كان سبباً في مرض الإيدز وأمراض أخرى جسدية ونفسية؟

أهو أضر من التدخين الذي صار من أسباب الموت الأولى في البلاد الغربية، والذي لا مسوِّغ لإباحته إلا استفادة بعض الشركات منه، كاستفادة أخرى من إباحة حمل السلاح؟

إن قوة الغرب المادية صارت فتنة تعمي الناس عن رؤية عيوبه وشروره.. كما أن ضعف المسلمين صار فتنة تصد الناس عن القيم النبيلة التي يمتلكونها.

قلت: إن الحضارة الغربية تطرح أفكارها في هذه الجوانب، ولا تفرضها.

قال: بل هي تحاول كل السبل لتفرضها..

إن أولئك المجانين الذين يعتلون عرش القوة في العالم.. وبعد أن قضوا على المعسكر الشيوعي تصوروا أن لهم القدرة على القضاء على كل منافس لهم.. وقد كان الإسلام أحد أهم منافسيهم، فلذلك راحوا يوجهون رماحهم إلى نحره.

لعلك سمعت بـــ (صراع الحضارات)[1]

---

(١) روج لهذه الفكرة مجموعة من المستشرقين والمؤرخين والمفكرين المشبوهين بارتباطاتهم بالدوائر الصهيونية العنصرية، ومن أبرزهم المؤرخ اليهودي برنارد لويس (Bernard Lewis)الذي روج لهذه الفكرة بمقال نشره في مجلة Atlantic Monthly ــ عدد سبتمبر ١٩٩٠م. ثم سار على دربه ونسج على منواله المؤرخ اليهودي الأمريكي صموئيل هنتنجتون (Samuel Huntington) في مقالة نشرها في مجلة Forein Affairs عام ١٩٩٣م، ثم طورها ووضع لها كتابا حمل نفس العنوان (صدام الحضارات) The Clash of Civilizations وهو الكتاب الذي تنـــــاولته أجهزة الإعلام في الدول الغربية، ومنها الولايات المتحدة، بالشرح والتحليل وتســـليط الأضواء عليه بشكل مـــكثف، منذ ظهرت طبعته الأولى.

قلت: أجل.. وقد ولد هذا المصطلح بعد انهيار الاتحاد السوفيتي الذي كان العدو الأول للغرب ــ وخصوصا الغرب الأمريكي ــ من عام ١٩٤٧ م إلى عام ١٩٩٠م، ثم دارت الدائرة على هذا (الخطر الأحمر) ــ كما يسميه الغرب ــ وانهار، وتفتتت هذه الإمبراطورية الضخمة إلى مجموعـــة من الدول والدويلات، وانتهى بذلك عصر (الحرب البادرة)

قال: لقد وجدت الولايات المتحدة الأمريكية، وأتباعها ومن يدورون في فلكها من دول أوربا، نفسها بلا عدو تمارس الصراع ضده وتطور عدتها وآلاتها لمهاجمته، فأوعز نفر من كبار المفكرين الاستراتيجيين هناك إلى أصحاب القرار باتخاذ الإسلام جبهة صالحة لتصويب آليات الصراع نحوها، واعتباره (الخطر الأخضر) بحسب تعبيرهم.

وذلك للحفاظ على تماسك واندفاع الحضارة الغربية ضد هذا (الزحف الإسلامي)، وخصوصاً بعدما نما الإسلام في أوربا، وظهرت فيه دويلات تحمل اسم الإسلام، كما تزايدت أعداد المسلمين في الولايات المتحدة، سواء المهتدين من أهلها، أم النازحين إليها من خارجها..وأصبح من الحاقدين من يحذر حكام أوروبا من الانتشار المتزايد للإسلام.

لقد ظهرت فكرة (صراع الحضارات)، أو نظرية (صدام الحضارات)، وخصوصاً الصراع الحتمي بين الإسلام كحضارة وبين الحضارة الغربية التي تتزعمها الولايات المتحدة الأمريكية في العقود الأخيرة.

وإذا كان هنتنجتون يتحدث في كتابه المشبوه عن ثماني حضارات في العالم الآن، فإنه ركز على حتمية الصدام بين الحضارة الغربية والحضارة الإســــلامية، وهو صراع قائم ــ حسب زعمه ــ وسيصبح أكثر خطرا على الحضارة الغربية، أما الصراع بين الحضارات الأخرى والحضارة الغربية فهو ضعيف ولا يستحق الاكتراث[1].

قلت: أهذا هو صراع الحضارة الغربية؟

قال: هذا بعض صراعها.. وهي لا تكف عن الصراع.. فجميع إنتاج هذه الحضارة ينطلق من الصراع، وينتهي به.

أفلامها.. ألعابها.. موسيقاها..

نظر إلى الأفق البعيد، ثم قال[2]: حينما نادى أفلاطون في جمهوريته المثالية منذ ألوف السنين بتربية النشء

وقد نشر هذا المفكر الإستراتيجي نفسه مقالة بعنوان (القوة العظمى الوحيدة) في عدد مارس ١٩٩٩م من مجلة Forein Affairs، أوضح فيها تصنيف الولايات المتحدة الأمريكية لدول العالم وفقا لدرجة تمسكها بالمعايير الأمريكية، وفرض العقوبات على من لا يلتزم منها بهذه المعايير في مختلف المسائل والأمور، وتستخدم في قمع هذه الدول الرافضة للمعايير الأمريكية أداتين هما: العقوبات الاقتصادية، والتدخل العسكري..

(١) انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري، وكتاباته الأخرى.

(٢) من سواح في دنيا الله لمصطفى محمود، ببعض التصرف.

على حب الموسيقى والرياضة وجعل من الموسيقى والرياضة حصصا ثابتة في منهج الطالب، كان صاحب فلسفة وكانت له وجهة نظر، فالموسيقى هي الوسيلة لتربية الذوق وتنمية الحس الجمالي، والرياضة هي الوسيلة لكمال الجسد وتنمية الشجاعة والخلق الكريم.

وقد عشنا ورأينا ألوانا من الموسيقى الرفيعة تربي الحس الجمالي وترفع الذوق.. كما رأينا على أيامنا ما تفعله الرياضة في كمال الأجسام وفي كمال الأخلاق.. ولكن يبدو أن العصر اختلف.. والموسيقى اختلفت.. والرياضة اختلفت..

لقد أصبحنا نقرأ عن مباراة عالمية في دور تشستر يسقط فيها عشرات القتلى ويتقاتل فيها المشجعون بالسكاكين والعصي والزجاجات الفارغة، ورأينا معارك أشد في مباراة عالمية أخرى في إيطاليا وثالثة في الدنمارك وتحول الملعب الرياضي إلى مسرح جرائم.

وفي كل أوليمبياد تكتشف اللجنة أبطالا مشهورين يلجأون إلى الغش وتعاطي الحقن الممنوعة ليتفوق كل واحد على منافسيه بدون وجه حق.

وفي آخر خبر جاء من أمريكا رأينا بطلة أوليمبياد التزلج على الجليد تونيا هارودنج ترشو زوجها جيف جالوا ليقوم بعمل كمين لمنافستها نانسي كاريجان ويضربها على مفصل الركبة اليمنى ضربة تكسحها و تمنعها من دخول الملعب.

و يعترف الزوج على زوجته، ويقول إنه تلقى منها رشوة خمسة آلاف دولار ووعودا بآلاف أخرى إذا أنجز مهمته على الوجه الأكمل.. و انفجرت فضيحة تناولتها كل الصحف..

ثم إن الرياضة نفسها تحولت إلى تجارة مفترسة، و أصبح لها سماسرة و أصبح لكل بطل مدير محترف ومكتب دعاية وملحق صحفي وعصابة تتحرك لحراسته أينما ذهب، و أصبحت البطولة بابا مفتوحا لملايين الدولارات.. ونجوم التنس والملاكمة و السباحة والجري والقفز أصبحوا أصحاب ملايين ونجوم شهرة، وأصبح العرف السائد هو الوصول إلى الكأس.. بأي سبيل ولو بالغش والتدليس والإجرام.. وأصبحت الرياضة شيئا آخر غير الذي تكلم عنه أفلاطون.

بل رأينا نجوما مثل مارادونا يسقطون من قمة النجومية إلى هاوية الإجرام والشم والمخدرات ثم يفقدون كل شيء.

وكان ما حدث للموسيقى أكثر.. فسيمفونيات بيتهوفن وشوبان وفاجنر.. تراجعت لتحتل المسرح راقصات و راقصون يهزون الصدور و الخصور، وظهر الديسكو الغربي الذي حول الغناء إلى زار و صراخ و ضجيج و عجيج.

ونفس الشيء حدث في السينما و المسرح..

وأبطال كمال الأجسام الآن تلتقطهم السينما لأفلام الرعب و الإجرام..

والرياضة والموسيقى والغناء والسينما والمسرح وباقي الفنون تحولت في ظل الصراع إلى المواصفات الأمريكية، واتجهت إلى القبلة التي تفرضها بورصة هوليوود ويحكمها الدولار.

ولو أن أفلاطون بعث اليوم حيا لأنكر ما يرى و ما يسمع و لسحب كلامه و حل جمهوريته، وفضل عليها بيع الخضار في الأسواق. فلم تعد هناك علاقة بين الموسيقى وتنمية الذوق، ولا بين الرياضة وتنمية الأخلاق الحميدة.

قلت: ألا ترى أنك تبالغ في تشاؤمك من هذه الحضارة؟

قال: لست وحدي في ذلك.. كل العقلاء لديهم تشاؤم كبير من هذه الحضارة التي تريد أن تمحو آخر رسم للإنسان.

لعلك تعرف (الدكتور ألكسيس كاريل)

قلت: أجل.. وكيف لا أعرفه.

قال: لقد كان صديقا لي.. وقد وضع يده على الأسباب الحقيقية لهذا الضياع.. فقد قال:« إن الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب، لأنها لا تلائمنا، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم، ونظرياتهم ورغباتهم. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا »[1]

ويقول:« لقد أهمل تأثير المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعمال إهمالاً تاماً عند تنظيم الحياة الصناعية. إذ أن الصناعة العصرية تنهض على مبدأ: الحد الأقصى من الإنتاج بأقل قدر من التكاليف، حتى يستطيع فرد أو مجموعة من الأفراد أن يحصلوا على أكبر مبلغ مستطاع من المال.. وقد اتسع نطاقها دون أى تفكير فى طبيعة البشر الذين يديرون الآلات، ودون أى اعتبار للتأثيرات التى تحدثها طريقة الحياة الصناعية التى يفرضها المصنع على الأفراد وأحفادهم »[2]

ويقول:« وهؤلاء النظريون يبنون حضارات، بالرغم من أنها رسمت لتحقيق خير الإنسان، إلا أنها تلائم فقط صورة غير كاملة أو مهولة للإنسان. إن نظم الحكومات التى أنشأها أصحاب المذاهب فى عقولهم عديمة القيمة.. فمبادئ الثورة الفرنسية وخيالات ماركس ولينين، تنطبق فقط على الرجال الجامدين (غير الأحياء أو المتحركين)، فيجب أن نفهم بوضوح أن قوانين العلاقات البشرية ما زالت غير معروفة. فإن علوم الاجتماع والاقتصاديات علوم تخمينية افتراضية »[3]

ويقول:« يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء. ولكن الواقع هو عكس ذلك. فهو غريب فى العالم الذى ابتدعه. إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته.. ومن ثم فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة، هو إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية.. فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا، ولا بالنسبة لهيئتنا.. إننا قوم تعساء. لأننا ننحط أخلاقياً

---

(١) الإنسان ذلك المجهول: ٣٨.

(٢) الإنسان ذلك المجهول: ٤٠.

(٣) الإنسان ذلك المجهول: ٤٣.

وعقلياً.. إن الجماعات والأمم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم، هى على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف، والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها. ولكنها لا تدرك ذلك. إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التى شيدها العلم حولها. وحقيقة الأمر أن مدنيتنا مثل المدنيات – التى سبقتها – أوجدت أحوالاً معينة للحياة. من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة. وذلك لأسباب لا تزال غامضة »[1]

ويقول:« ونحن ندرك أنه بالرغم من الآمال العريضة التى وضعتها الإنسانية فى الحضارة العصرية، فقد أخفقت هذه الحضارة فى إيجاد رجال على حظ من الذكاء والجراءة يقودونها عبر الطريق الخطر الذى تتعثر فيه. لأن بنى الإنسان لم ينمو بالسرعة التى تثب بها الأنظمة من عقولهم. ومن ثم فإن أكثر ما يعرض الأمم العصرية للخطر هو النقص العقلى والأدبى الذى يعانى منه الزعماء السياسيون »[2]

ويقول:« يكاد المجتمع الحديث أن يهمل الإحساس الأدبى إهمالاً تاماً بل لقد كبتنا مظاهره فعلاً.. فقد أشربنا جميعاً الرغبة فى التخلص من المسئولية. أما أولئك الذين يميزون الخير من الشر، ويعملون ويتحفظون، فإنهم يظلون فقراء، وينظر إليهم بضيق وتأفف. والمرأة التى أنجبت عدة أطفال وأوقفت نفسها على تعليمهم، بدلاً من الاهتمام الخاص بنفسها، تعتبر ضعيفة العقل. وإذا أدخر رجل بعض المال لزوجته وتعليم أولاده، سرق منه هذا المبلغ بواسطة الماليين أصحاب المشروعات أو أخذته الحكومة»[3]

ويقول:« إن المادية البربرية التى تتسم بها حضارتنا، لا تقاوم السمو العقلى فحسب. بل إنها تسحق أيضاً الشخص العاطفى، واللطيف والضعيف، والوحيد وأولئك الذين يحبون الجمال ويبحثون عن أشياء أخرى غير المال »[4]

ويقول:« لقد ارتكب المجتمع العصرى غلطة جسيمة باستبداله تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالاً تاماً. ولهذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة، حتى يستطعن الانصراف إلى أعمالهن، أو مطامعهن الاجتماعية، أو هوايتهن الأدبية أو الفنية، أو للعب البريدج، أو ارتياد دور السينما.. وهكذا يضيعن أوقاتهن فى الكسل. إنهن مسئولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التى يتصل فيها الطفل بالكبار، فيتعلم منهمن أموراً كثيرة.. إن الكلاب الصغيرة التى تنشأ مع من أفراد من نفس عمرها فى حظيرة واحدة، لا تنمو نمواً مكتملاً كالكلاب الحرة التى تستطيع أن تمضى فى إثر والديها. والحال كذلك بالنسبة للأطفال الذين يعيشون وسط جمهرة من الأطفال الآخرين وأولئك الذين يعيشون بصحبة راشدين أذكياء. لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجى والعقلى والعاطفى طبقاً للقوالب الموجودة فى محيطه. إذ أنه لا يتعلم إلا قليلاً من الأطفال الذين فى مثل سنه. وحينما

---

(١) الإنسان ذلك المجهول: ٤٣.
(٢) الإنسان ذلك المجهول: ٣٧.
(٣) الإنسان ذلك المجهول: ١٥٨.
(٤) الإنسان ذلك المجهول: ٣٧١.

يكون مجرد وحدة فى المدرسة، فإنه يظل غير مكتمل. ولكى يبلغ الفرد قوته الكاملة، فإنه يحتاج إلى عزلة نسبية، واهتمام جماعة اجتماعية محددة تتكون من الأسرة »[1]

نظر إلي، وقال: لم يكن ألكسيس كاريل وحده هو الذي نطق بذلك.. بل قامت في سوق الفكر كتب كثيرة تحذر من هذا السلوك الذي تسلكه هذه الحضارة.. وتنبئ بالعواقب الخطيرة التي تنتظرها.

وكمثال على ذلك كتاب صدر قبل سنوات أطلق عليه صاحبه (فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي) لمؤلفه المؤرخ الأكاديمي: آثر هيرمان.

لقد ناقش هذا الكتاب آراء العديد من المفكرين والفلاسفة وعلماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد وغيرهم من أمثال هيزيود، سوفوكليس، تيرجوت، فيخته، جينون جوزيف، آرثر دو جوبينو.. إلى أن وصل إلى الفصل الرابع، ليناقش فيه قضية الانحلال بوصفها نهاية الليبرالية الغربية (وهو يقصد الحضارة الغربية)، واستند في ذلك إلى أطروحات عدد من المفكرين والمتخصصين، وعلى رأسهم الطبيب الإيطالي (سيزار لومبروزو) الذي أكد في عام ١٨٧٠م، أن الأوربـــــيين (لم يعودوا قادرين جسمانيا على الاحتفاظ بمتطلبات الحياة المتحضرة)

وفي الجزء الثاني من الكتاب، تحدث المؤلف عما كان سائداً من اعتقاد، في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، بأن أمريكا هى أرض المستقبل، بل أنيط بها حمل رسالة تخليصية لبقية العالم و(إمبراطورية الحرية) هو الاسم الذي كان يطلق عليها، إشارة إلى رسالة نشر الفضيلة والسيادة الشعبية التي أنيط بها حملها العلم ومنذ ذلك التاريخ، وقبل أن يتحقق هذا أعلن (جي كيو، آدمز) في عام ١٧٨٥م، بعد أن تبدد أمله في أن يحافظ الأمريكيون على فضائلهم واستقلالهم قائلا:« إن الأمريكيون لم يكونوا أبداً أهلا لفضيلة رفيعة » واعترف بغبائه لأنه قال فيما سبق من حياته:« إنهم سيصبحون أفضل من غيرهم » مؤكداً أن أمريكا محكوم عليها بالهلاك

وفي باقي فصول الكتاب يناقش المؤلف آراء كثير من العلماء والمفكرين، من أنحاء متفرقة من العالم منهم: آدمزش، جاكوبي، هنري آدمز، دوبوا، أوزوالد شبنجلر، إدوارد سعيد، اليجا بول (أو اليجا محمد ــ بعد إسلامه).. إلى أن وصل إلى الفصل الذي ألقى فيه الضوء على (شبنجلر) في كتابه الشهير (أفول الغرب) كما ناقش فكر المؤرخ البريطاني الشهير (توينبى) الذي حدد لاضمحلال الحضارة الغربية ثلاث مراحل.

كما أن توينبي تنبأ بقيام الولايات المتحدة كحضارة جديدة، فإنه رأى ــ مثل غيره من المفكرين الأوربيين ــ أنها تمثل الجانب المظلم للغرب الحديث نفسه وبقدر ما اعتبر الشيوعية هرطقة غربية، وصحف متروعة من العهد القديم، اعتبر الولايات المتحدة وإسرائيل أخطر قوتين استعماريتين في عالم الحرب الباردة (التي امتدت من النهاية الحرب العالمية الثانية إلى مطلع التسعينات حين انفرط عقد الاتحاد السوفيتي)ومكمن الخطر فيهما ــ كما يقول توينبي ــ ليس لأنهما قوتان عسكريتان فقط، بل لأنهما تمثلان ــ أيضا ــ غربا منحلا وشدد توينبي على أن أعمال الولايات المتحدة وإسرائيل في لاوس، وفيتنام، وفلسطين، ليست مجرد جرائم، بل جرائم

---

(١) الإنسان ذلك المجهول: ٣٧.

ومفارقة تاريخية أخلاقية في الوقت نفسه.

وفي الفصل العاشر تناول المؤلف أطروحات سارتر، فوكو، وفانون، وهو يشرح آراء ومواقف سارتر التي كانت تعد (الأمريكية) الخطر الحقيقي على أوروبا كمرحلة أخيرة للقيم البرجوازية الغربية وذهب سارتر ــ الذي كان على عداء واضح مع الهيمنة الأمريكية ــ إلى أن الفيتناميين كانوا يقاتلون نيابة عن كل البشر، وأن الأمريكيين يقاتلون ضد كل البشر.

وينقل المؤلف آراء (نعوم تشوميسكي) الذي يرى أمريكا (تديرها القوى التآمرية الخبيثة للرأسمالية الكبيرة)، أقامت إمبراطورية شاسعة بالتحالف مع المصالح الرأسمالية العالمية من خلال دول إرهابية في أمريكا اللاتينية، وأعمال عـــــنف تؤدي إلى إبادة جماعية في آسيا والشرق الأوسط ويسوى تشوميسكي بين ألمانيا النازية في الداخل، والاحتفاظ بشبكة عالمية من القوة والإرهاب الوحشي ويقول تشوميسكي: إن الإمبراطورية الأمريكية مؤسسة محكوم عليها بالفناء.

وبالاستناد إلى آراء كل من نعوم تشومسكي، بارنتي، بارنت، وريتشارد سلوتكن، فإن الثقافة الأمريكية تمجد العنف، والاستعمار، والإبادة الجماعية..

التفت إلي، وقال: هذه بعض الشهادات.. وإذا أردت المزيد.. فاذهب إلى وكالات الأنباء.. وتتبع جرائم هذه الحضارة.. فليس هناك شهادة أخطر من شهادة الإنسان على نفسه.

٢ ــ حضارة الإسلام

قلت: عرفت حضارتنا وما فيها من عيوب.. فحدثني عن حضارة الإسلام.. أو بالأحرى: هل للإسلام حضارة.. فأنا لم أر للمسلمين الأوائل أهرامات كأهرامات المصريين، ولا مسارح كمسارح الرومان.

بل إن المسلمين ظلوا يسكنون في بيوت الطين البسيطة إلى أن تداركتهم هذه الحضارة بالخراسانة المسلحة وبأنواع الرقي الحضاري.

ابتسم، وقال: لقد ذكرتني بعمر بن عبد العزيز، فقد كتب إليه أحد ولاته يستأذنه في أن يبني لمدينته سورًا يحفظها من اللصوص، فقال عمر: حصن مدينتك بالعدل.

قلت: لو أن هذا الحاكم كان بيننا لأقيل.. أينهى عن بناء يحفظ المدينة؟

قال: وقد أمر ببناء هو أشد حفظا للمدينة من جميع الأسوار..

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد عرفت ما كان يمتلكه الاتحاد السوفيتي من أسلحة جبارة لا يكاد أحد يفكر في غزوها.

قلت: أجل.. وقد كان ذلك سببا لكون الحرب بينه وبين أمريكا باردة، ولو أن أسلحته كانت ضعيفة لكانت الحرب حارة ساخنة.

قال: ولكن كل تلك الأسلحة.. وكل تلك الشرطة التي قامت عليها دولته البوليسية لم تستطع أن تحفظ كيانه.

قلت: ذلك صحيح.. فما سره؟

قال: لأنهم توجهوا إلى البنيان، و لم يتوجهوا إلى الإنسان.. والحضارة لا تبنى إلا على الإنسان.

ولذلك فإن أهم مزايا الحضارة الإسلامية أنها حضارة قيم ومبادئ إنسانية رفيعة..

نعم لم يترك المسلمون مسارح كمسارح الرومان.. ولكنهم تركوا مقابل ذلك من القيم ما لا تقوم معه جميع مسارح الرومان وأبنيتهم، بل وأبنية هذه الحضارة جميعا.

نعم.. لم يبن عمر ولا علي أهرامات كأهرامات المصريين.. ولكن الخيم التي كانوا يسكنونها كانت أشرف بكثير من جميع الأهرامات.. بل من جميع قصور الدنيا.

قلت: فما مبادئ الحضارة الإسلامية؟

قال: ما ذكرته لك من مقاييس الحضارة: الفطرة.. والسلام.

فالحضارة الإسلامية هي الحضارة الوحيدة في العالم التي اجتمع لها هذان الركنان، و لم يتفرقا طيلة تاريخها.

قلت: فكيف انسجمت حضارة الإسلام مع الفطرة والسلام؟

قال: إن المفهوم الإسلامي للحضارة ينطلق من تصوره لوظيفة الإنسان في هذا الوجود.. والذي يسميه

الإسلام (العبادة)[1].. فالعبادة هي غاية الوجود الإنساني التي حددها القرآن:﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات)

فتحقيق غاية الوجود الإنساني هو الذي نشأت عنه الحضارة في الواقع البشري، وهو المعيار الذي تقوّم به صعودا أو هبوطا، واستقامة أو انحرافا.

وحين تختلف النظرة إلى غاية الوجود الإنساني تختلف النظرة إلى الحضارة، وتختلف النظرة كذلك إلى التاريخ.

فحين تكون غاية الوجود الإنساني هي الفناء في الكائن الأعظم كما تقول (النرفانا) أو الخلاص من ربقة الجسد وإطلاق الروح لتتحد مع الخالق.. تصبح الحضارة هي تحقيق عالم الروح على حساب الجسد، وعلى حساب الجانب المادي من عمارة الأرض.

وحين تكون غاية الوجود الإنساني هي الاستمتاع بما في الأرض من متاع، بصرف النظر عن القيم المصاحبة لهذا المتاع من حلال وحرام، وخير وشر، وفضيلة ورذيلة، ورفعة وانتكاس.. تكون الحضارة هي العمارة المادية للأرض، وهي تيسير الحياة الأرضية وتزيينها، والانكباب على متعها ولذائذها، وتكون في الوقت ذاته هي محاولة التغلب على الآخرين للاستئثار بأكبر قدر من المتاع، ومحاولة إخضاعهم بالقوة والقهر، سواء بالقوة المادية أو القوة العسكرية أو القوة السياسية أو القوة الاقتصادية أو القوة العلمية.. أو كلها جميعا..

وحين تكون الغاية هي عبادة الله يكون مفهوم الحضارة مختلفا عن هذا المفهوم وذاك، وكذلك يكون تفسير التاريخ، لأن المعيار الذي يقوم على أساسه التفسير، هو مدى تحقيق الإنسان لغاية وجوده، ومدى تفوقه أو تخلفه في تحقيق هذا الوجود.

قلت: لكل دين من الأديان شعائره التعبدية الخاصة به.. ولا يمكن أن نقيم الحضارات على هذه الأسس.

قال: مفهوم العبادة في الإسلام ــ والذي هو غاية الوجود الإنساني كما يرى الإسلام ــ مختلف تماما عن كل المفاهيم.. ذلك أن له علاقة كبرى بفطرة الإنسان، وفطرة الوجود.

قلت: لم أفهم.

قال: الوجود في التصور الإسلامي كله متوجه لله توجها فطريا، فهو لا يعرف إلا الله، ولا يعبد إلا الله..:﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) (البقرة:١١٦)،:﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) (الروم:٢٦)

وبما أن الإنسان فرد في هذا الوجود، فإنه من الشذوذ الخطير أن ينفصل عن هذه العبادة التي يمارسها الكون، ويستمر بها وجوده.

قلت: ما محل الخطر في ذلك؟

قال: أرأيت لو أن القمر بدا له أن ينفصل بمسار خاص.. ومثل ذلك الشمس.. ومثل ذلك جميع النجوم

---

(١) انظر: مذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب وغيره من كتبه وكتب سيد قطب.

والكواكب.. أيمكن للوجود أن يظل وجودا؟

قلت: لا.. ستدب الفوضى للوجود.. وسيفنى العالم.

قال: فعبودية الكواكب وسجودها لله هو الذي حفظ كيان الكون.

قلت: والإنسان؟

قال: لا يحفظ الإنسان إلا بالقوانين التي تحفظ الكون.. إلا إذا اعتبرنا الإنسان كائنا غير كوني.

قلت: فكيف ينتظم الإنسان في حلقة الكون؟

قال: بممارسة العبودية التي طلبت منه، والتي تحفظ له فطرته.. أو التي يمارس بها ما تتطلبه فطرته.

قلت: لا شك أنك لا تقصد بالعبودية الشعائر التعبدية.

قال: الشعائر التعبدية جزء من هذه العبادة.. أما كل العبادة فهو أن تتوجه الحياة كلها إلى الله.. لقد عبر القرآن عن ذلك، فقال:﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام:١٦٢)

وهذا هو معنى الإسلام الذي جاء محمد للدعوة إليه..

لقد جاء محمد لا ليقاوم النشاط البشري.. وإنما جاء ليوجهه الوجهة التي يسير بها الكون جميعا حتى يقي المجتمع ويقي الإنسان ويقي الكون من عواقب الشذوذ والصراع.

إن إقامة الحياة كلها – بكل ألوان النشاط فيها – على قاعدة أخلاقية مدارها تقوى الله وخشيته هي الأساس الذي تقوم عليه الحضارة الإسلامية.

لتصير السياسة ذات أخلاق قائمة على حكم الحاكم بالعدل والشورى والنصيحة، والتعاون على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان.

ويصير الاقتصاد له أخلاق، تبتعد به عن كل ما يتنافى معها من ربا واحتكار وغش وسلب ونهب، وسرقة وغصب، وأكل مال الأجير، وأكل أموال الناس بالباطل، والشح بحقوق الفقراء والمساكين..

وتصير العلاقات الاجتماعية ذات أخلاق قائمة على التواد والتحاب والتكافل، والتعاون على البر والتقوى، وحرمة الدم والعرض والمال، وكظم الغيب والعفو عن الناس، والكف عن الغمز واللمز والغيبة والنميمة والتجسس والاطلاع على العورات..

وتصير علاقات الأسرة ذات أخلاق.. وعلاقات الجنسين ذات أخلاق.. والحياة كلها قائمة على قواعد أخلاقية رفيعة.

وتصير الفنون ذات أخلاق.. تلتفت إلى الجمال في الكون وفي الحياة البشرية وتعبر عنه في أداء جميل.. فنون لا تزين الفاحشة لأن الفاحشة ليست جمالا ولكنها هبوط.. ولا تزين لحظة الضعف لأنها ليست جمالا إنما هي لحظة غفلة عن إدراك غاية الوجود الإنساني، أو لحظة تقصير في تحقيق ذلك الوجود. ولا تزين الانحراف والشذوذ لأنه ليس جمالا، وإنما هو نشاز نافر عن الجمال، ولا تزين عبادة الشيطان وعبادة الهوى والشهوات، لأنها ليست جمالا، وإنما هي حطة للإنسان الذي كرمه الله وفضله، وأراد له أن يتحرر من كل عبودية زائفة تزري بكيانه وتستذله.

هذه هي العبادة التي جاء الإسلام بها ليحفظ الإنسان ويحفظ الأرض من الشذوذ الذي يريد فرضه هؤلاء الدجالون..

قلت: إن كل ما ذكرته جميل.. ولكن هل يتنافى ذلك مع التطور المادي العظيم الذي وصلت إليه هذه الحضارة.

قال: أنا لا أنكر على هذه الحضارة تطورها المادي.. ولكن أنكر بطرها وكبرياءها وانحرافها بسبب هذا التطور.. إني أصيح في هذه الحضارة كما صاح هود:﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠)﴾ (الشعراء)

فهو لم ينكر عليهم اهتمامهم بالعمران.. ولكن أنكر عليهم ذلك الطغيان والشذوذ الذي وقعوا فيه بسبب ذلك العمران.

لقد ذكر القرآن مثالا لإنسان هذه الحضارة المملوء بالكبرياء بسبب أمواله.

قلت: تقصد قارون.

قال: أجل.. لقد نبهه المؤمنون إلى الطريقة التي ينبغي أن يتعامل بها مع ماله، فقالوا:﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:٧٧)

لكنه أبى كما أبت هذه الحضارة، وصاح كما صاحت:﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص: من الآية٧٨)

أتدري ما مصيره؟

قلت: لقد خسف به.

قال: وكذلك هذه الحضارة سيخسف بها.

قلت: ولكن حضارة المسلمين سقطت.

قال: ولكن القيم التي قامت عليها حضارة الإسلام لا تزال باقية.. ويمكنها أن تنبت من جديد.. فلا يمكن للبشر أن يستمر لهم وجود بدونها.

***

ما إن وصل (كوستاف لوبون) من حديثه إلى هذا الموضع حتى سمعنا صراخا عظيما من العمال، فحثثت خطاي أبحث عن سببه، وإذا بي أرى قتيلين مشوهين غاية التشويه.

أما أحدهما، فقد سقطت عليه شجرة من تلك الأشجار الضخمة، وأما الثاني، فقطعه منشار ضخم من تلك الآلات..

أسرعت إلي (كوستاف لوبون) لأخبره، فبكى، وقال: هذا ما تفعله الحضارة.. وهذا هو مصيرها.. ستحطِّم هذه الحضارة بفطرة الأشجار التي ستنتصر على كل مصانع الدنيا.

وستكون الآلات التي يصنعها البشر هي السيوف التي تغمد في قلوبهم لتطهر الأرض من شرهم.

قال ذلك.. ثم انصرف إلى وجوم جعلني أبتعد عنه..

لم يمض وقت طويل حتى عاد العمال إلى عملهم، منشغلين عن الجثتين اللتين أزيحتا جانبا في انتظار سيارات الإسعاف.

وقفت أمامهما بحزن لأرى ما جنت عليهما هذه الحضارة اللئيمة.. وأنظر في نفس الوقت إلى يدي (كوستاف لوبون) المقيدتين.

وفي ذلك الحين تترل علي بصيص جديد من النور اهتديت به بعد ذلك إلى شمس محمد.

الخاتمة

بعد انتهاء تلك السنة التي تشرفت فيها بلقاء أولئك المستشرقين الذين قطفت على أيديهم ثمارا مباركة من شجرة النبوة، جاءتني رسالة من أخي التوأم يبشرني فيها بتحوله إلى الفاتيكان، واستلامه فيها منصبا محترما قد يرفعه في المستقبل لأن يصبح من مستشاري البابا وخصوصه.

وقد طلب مني أن أزوره في الفاتيكان حيث يقيم.. أو حيث أصبح مقر إقامتنا.

لم أملك إلا أن ألبي طلبه، وأحزم متاعي لأخرج من فرنسا.

في طريقي دخلت مكتبة لأشتري جريدة.. فرأيت صاحب المكتبة يتفرج على فيلم إسلامي يحكي قصة بداية الإسلام.. فبقيت أتفرج معه بعض الوقت.

وقد شد انتباهي في الفيلم قصة جعفر بن أبي طالب مع النجاشي.. لقد كنت قرأتها من قبل.. ولكني في ذلك الحين رأيتها بجميع مشاعري..

لقد سأله النجاشي ملك الحبشة:« ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم و لم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟ »

فقال جعفر:« أيها الملك، إنا كنا قوما أهل جاهلية ؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع، ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمر بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة، — فعدد عليه أمور الإسلام — فصدقناه وآمنا به واتبعناه »

رأيت صاحب المكتبة مستغرقا في هذا المشهد، فاقتربت منه، وحييته، وسألته: هل أنت مسلم؟

قال: قبل ساعة لم أكن مسلما.. لكني الآن.. والآن فقط نضج الإسلام في قلبي.. لقد اكتملت جميع الأشعة.. وأنا الآن أبصر شمس محمد، وهي تملأ الآفاق.. فيا بشراي، وأنا أتنعم بدفئها وحنانها.

قلت: فما الذي جذبك إلى الإسلام.. وأنت ترى الكل ينفر منه.

قال: لقد وضع أولئك الحسدة الحقدة على الإسلام أول بذور الإسلام في قلبي.. وأحسبني مدينا لهم بالشكر ما حييت.

قلت: ما تقول؟

قال: لقد رسموا صورة مشوهة للإسلام في نفسي.. ولكن نفسي التي تعرف ألوان الطلاء التي يستعملونها لم تقبل منهم تلك الصورة.. فرحت أبحث في الثمرات المختلفة.. ثمرات الأديان.. وثمرات الأفكار.. وثمرات المذاهب.. ورحت أقارن ذلك بالإسلام.. فوجدت ما بهرني.

لقد نطق جعفر بالحقيقة.. فليت لنا أمثال جعفر في هذا الزمان.

قلت: أي جعفر تقصد؟

قال: ذلك الذي كان يتحدث.. إنه ابن عم محمد.. وقد أوى إلى النجاشي، وهو حاكم مسيحي عاقل.. وقد كان لجعفر من الذكاء والفطنة والإيمان بحيث عرف كيف يخاطب الحاكم..

لم يشأ أن يدخل معه في جدل عقيم.. بل راح يحدثه عن الثمرات.. عن الحصاد العظيم الذي جنته البشرية من زرع محمد..

إن ذلك الحصاد هو وحده الذي يكفي لكل عاقل لكي يعرف طيبة البذور التي طلب محمد من البشرية أن تغرسها.

أخذ الجريدة من يدي، وأخذ يقرأ عناوينها.. وقد صادف أن كانت العناوين مملوءة بإفرازات هذه الحضارة السامة.. وقال: هذه ثمراتهم.. وتلك ثمرات الإسلام، ولا نجاة للبشرية إلا بالإسلام.

***

لما وصل البابا من حديثه إلى هذا الموضع التفت إلي، فرآني في غاية السرور، وقد انزاحت عني تلك الكآبة التي كانت تعلو وجهي، وتملؤني بالإحباط، وقال: هذه حكايتي مع ثمار شجرة النبوة.

قلت: أكل هذه ثمار للنبوة؟

قال: هذه بعض ثمار النبوة.. ولا يمكن لأي بشر في الدنيا أن يحيط بثمار النبوة علما..

إن الفضل العظيم الذي من الله به على البشرية بإرسال نبيه محمد ﷺ لا يمكن حده ولا حصره ولا الإحاطة به..

إن الحياة جميعا تتوقف على هذا الفضل العظيم كما تتوقف حياة الأرض على تلك الأشعة الدافئة الحنون التي ترسلها الشمس.

قلت: قد ذكرت لي أنك ذهبت بعد هذا إلى الفاتيكان..

قال: حسبك ما حدثتك به اليوم.. وسأحدثك غدا ـــ إن شاء الله ـــ عن رحلة جديدة وذكريات جديدة تتعرف بها على القلوب التي امتلأت بحب محمد ﷺ [1].

---

(١) عنوان الجزء التالي لهذا الجزء هو (قلوب مع محمد)

الفهرس

٥٨٧

هذه السلسلة

هذه السلسلة مدرسة متكاملة في براهين النبوة ودلائلها، وفي الحوار الإسلامي المسيحي، وفي رد الشبهات التي يبثها المبشرون والمستشرقون والمستغربون.

وهي تعتمد الحوار العقلي، وتخاطب المخالف باللغة التي يفهمها، وتنطلق من المصادر التي يرجع إليها.

وقد صيغت بشكل روائي مبسط مليء بالأحداث المشوقة، لتجعل من كل مسلم داعية إلى الله، وحاميا يحمي حمى رسوله، ومناظرا ينتصر به الحق، وينهزم به الباطل، وتدفع به الشبهات..وهذه أجزاؤها:

١. أنبياء يبشرون بمحمد	٢. الكلمات المقدسة	٣. معجزات علمية
٤. معجزات حسية	٥. ثمار من شجرة النبوة	٦. قلوب مع محمد
٧. النبي المعصوم	٨. النبي الإنسان	٩. النبي الهادي
١٠. سلام للعالمين	١١. عدالة للعالمين	١٢. رحمة للعالمين
١٣. الله جل جلاله	١٤. الإنسان	١٥. الحياة